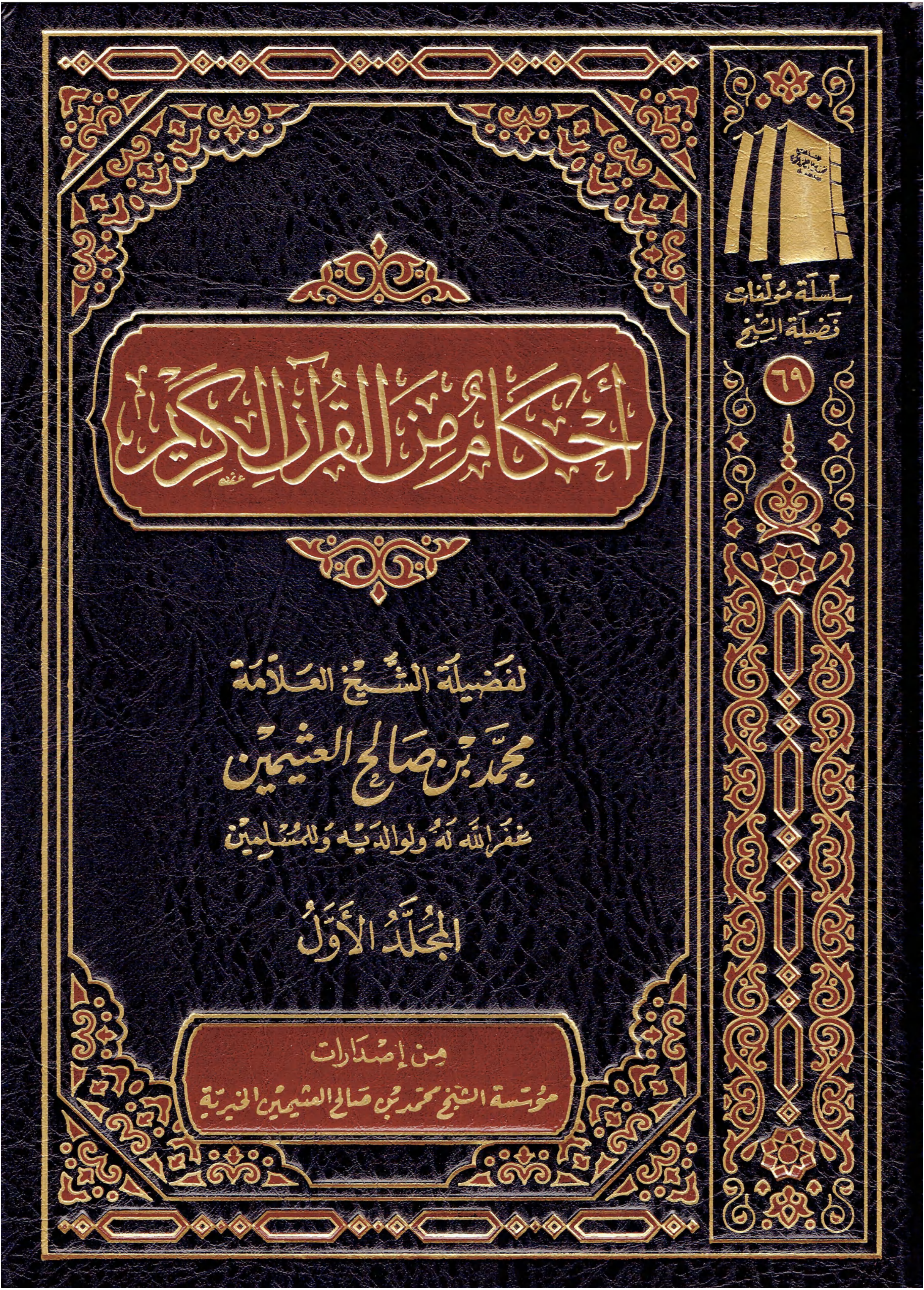
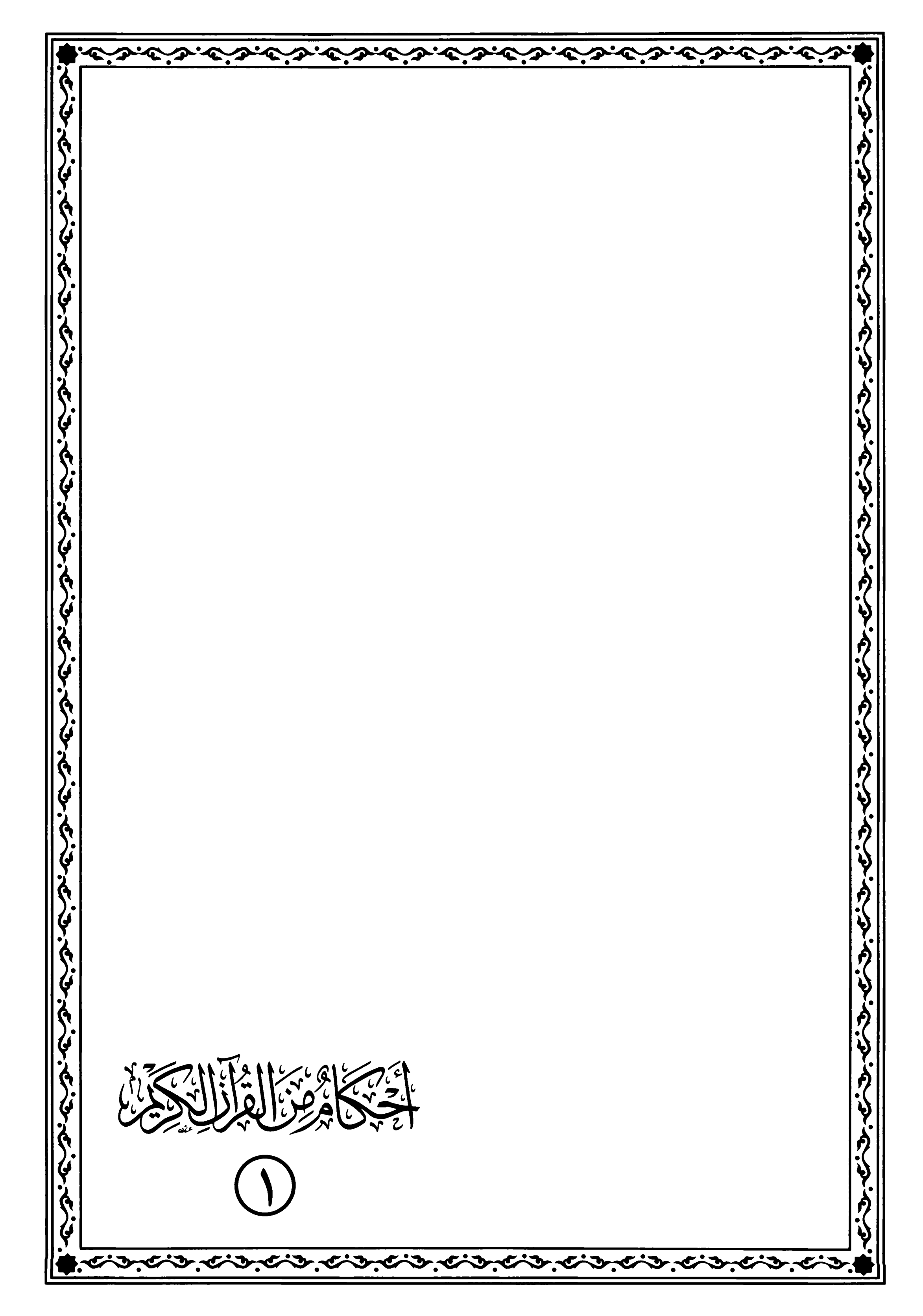
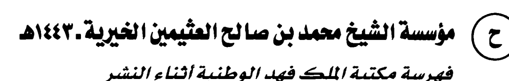


سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ
٦٩
أحكام من القرآن الكريم
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
المجلد الأول
من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


أحكام من القرآن الكريم
١


ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

أحكام من القرآن الكريم ج ١./ محمد بن صالح العثيمين - ط ٣ -

عنيزة، ١٤٤٣هـ

٧٣٣ ص ؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ٦٩)

ردمك: ٣-٣٢-٢-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - أحكام. أ - العنوان

ديوي ٢٢٦.٠٢ ١٤٤٣/٢٢٢٠

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٢٢٢٠

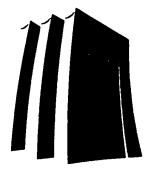
ردمك: ٣-٣٢-٢-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة

١٤٤٣هـ

يُطلب الكتاب من:

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



المملكة العربية السعودية

القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩

هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوّال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوّال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦

www.binothaimeen.net

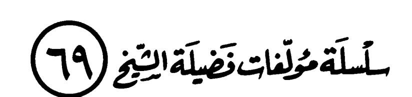
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد و الحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدُّرَّة الدولية للطباعة و التوزيع

١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .

هاتف و فاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤





لفضيلة الشيخ العلامة

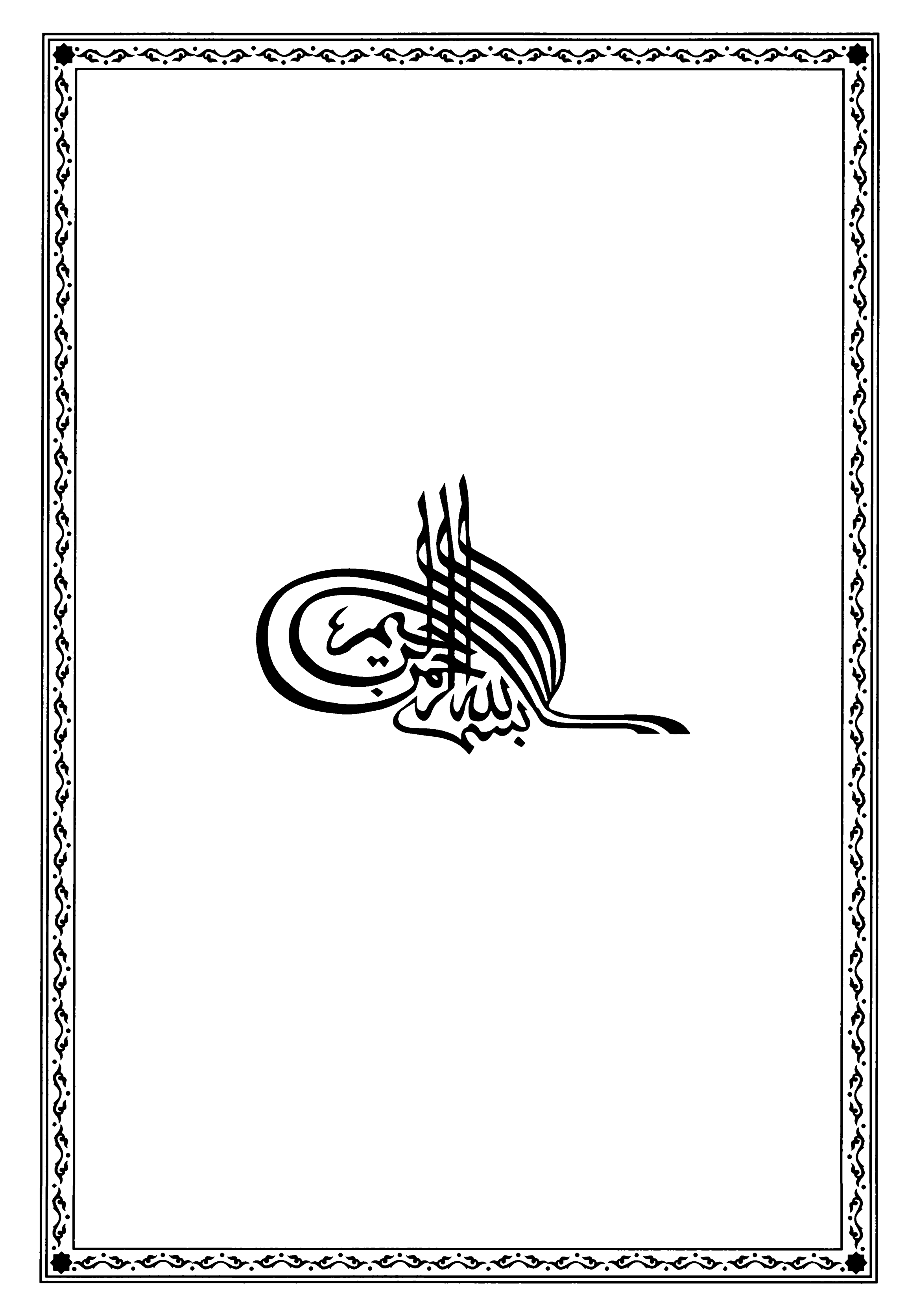
محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

إنَّ الحمدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعُوذُ باللهِ منْ شُرورِ أنْفُسِنا، وسَيِّئاتِ أَعْمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسولُهُ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجْمَعِينَ، ومَنْ تَبِعهُمْ بإحْسانٍ إلى يوْمِ الدِّينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فلقَدْ كانَ مِن الأعمالِ الجَليلة لِصَاحِب الفَضِيلة شَيْخِنا الوالِدِ محمَّدِ بنِ صالحِ العُثَيْمِين رَحِمَهُ اللهُ تعالَى، عِنايتُه واهتمامُهُ وحِرصُهُ التَّامُّ بتَفْسيرِ القُرآن الكريمِ وبَيانِ مَعانِيهِ واستِنْباطِ الأحكامِ والفَوائـدِ مِنْ آياتِـهِ؛ فأَثْمرَتْ جُهودُهُ المُباركـةُ -بفَضْلِ اللهِ تَعالَى- فِي هَذَا المَقامِ الجَليلِ تُراثًا عِلميًّا نَافعًا.

ومِن ذَلِكَ: مَا كانَ مِن سَعْيِه الموفَّـقِ ومُشاركتِه الفعَّالةِ في بَرْنامج بعُنوان (مِن أَحْكام القُرآن الكريمِ)، مِن إِذاعة القُرآن الكَريم بالمَمْلكة العربيَّة السُّعوديَّة، ضِمنَ حديثٍ أعدَّهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- وقدَّمه في حَلقاتٍ بَدَأَ فِيها عامَ (١٤٠٨ هـ) مِن سُورة الفاتحةِ حتَّى بلَغَ قولَهُ تعالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨].

هَذا وقَد طُبعت بِداياتُ هذَا العملِ عامَ (١٤١٥هـ)، ثُمَّ رأَى فَضيلتُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- أنْ يُراجِعَ المَطبوعَ قَبلَ إِعادَةِ طَبْعِهِ، فشَرَعَ فِي ذَلكَ حتَّى بلغَ قَولَهُ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٦-١٥٧].

وسَعْيًا لِتعميمِ النَّفعِ والفائدَةِ، وإنفاذًا للقواعدِ والضَّوابطِ والتَّوجيهاتِ التِي قرَّرها شيخُنا -رحِمَهُ اللهُ تعالَى- لإخراجِ تُراثِه العِلميِّ تمَّ تَجهيزُ المادَّةِ العِلميَّة للطَّباعةِ وتَقديمُها للنَّشْر.

نَسْأل اللهَ تعالَى أن يَجْعل هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزَاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ، وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، وخِيرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ، خاتَمِ النَّبيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

١٩ صَفَر ١٤٤٣هـ

نُبْذَةٌ مُخْتَصَرَةٌ عَنْ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ العَلَّامَةِ مُحَمَّد بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين
١٣٤٧ - ١٤٢١هـ

•●●•

نَسَبُهُ وَمَوْلِدُهُ:

هُو صاحِبُ الفضِيلةِ الشَّيخُ العالِمُ المحقِّق، الفَقِيـه المفسِّر، الـوَرِع الزَّاهـد، مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آل عُثَيْمِين مِنَ الوهبَةِ مِنْ بَنِـي تَمِيمٍ.

وُلِد فِي ليلةِ السَّابعِ والعِشرينَ مِن شَهرِ رمَضانَ المبارَك، عامَ (١٣٤٧هـ) فِي عُنَيْزَةَ -إِحدَى مُحافَظات القَصِيم- فِي المملَكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

نَشْأَتُهُ العلْمِيَّةُ:

أَلحقَهُ والدُه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِيتعلَّمَ القُرآنَ الكَريمَ عندَ جَدِّه مِن جِهةِ أُمِّه معلِّم القُرآنِ الشَّيْخ عَبْد الرَّحمن بن سُلَيْمان الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، ثمَّ تعلَّم الكِتابةَ، وشيئًا مِن الحِسابِ، والنُّصُوص الأَدبيَّة؛ فِي مدرسةِ الأُستاذ عَبْدالعزيز بن صالِحِ الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، وذلكَ قبلَ أنْ يَلْتَحِقَ بمَدْرسة معلِّم القُرآنِ الشَّيْخ عليِّ بنِ عَبْدالله الشَّحيتان -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حيثُ حَفِظَ القُرآنَ الكَريمَ عندَه عن ظَهْرِ قَلْبٍ ولـمَّا يتجاوز الرَّابعةَ عَشْرَةَ مِن عُمُره بَعْدُ.

وبتَوْجيهٍ مِن والدِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَقْبَلَ علَى طلَب العِلم الشَّرعيِّ، وكانَ

فضيلةُ الشَّيْخِ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمن بنُ ناصرٍ السّعْديُّ[١] -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يُدرِّس العُلوم الشَّرعيَّة والعَربيَّة فِي الجامِع الكَبِير بعُنَيْزَة، وقَد رَتَّب اثنَيْنِ مِن طَلَبته الكِبار[٢] لِتَدريسِ المُبتدِئينَ مِنَ الطَّلَبة، فانضَمَّ الشَّيْخُ إِلَى حَلقةِ الشَّيْخ محمَّدِ بنِ عَبْد العزيزِ المطوّع -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حتَّى أَدْرَكَ مِنَ العِلـم -فِي التَّوْحِيد، والفِقـه، والنَّحو- ما أَدْرَكَ.

ثُمَّ جَلَس فِي حَلقة شَيْخِه العلَّامَة عَبْد الرَّحمن بنِ ناصرٍ السّعْديِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، فدرَس عليه فِي التّفسِير، والحَديث، والسِّيرة النَّبويَّة، والتَّوحِيد، والفِقه، والأُصول، والفَرائِضِ، والنَّحْو، وحَفِظَ مُخْتَصراتِ المُتُونِ فِي هذِهِ العُلُوم.

ويُعَدُّ فضيلةُ الشَّيْخ العلَّامَة عَبْدُ الرحمن بنُ ناصرٍ السّعْديُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-

---

(١) ترجم له الكثيرون، وقد كان على جانب كبير من العلم الغزير والأخلاق الفاضلة وسعة الأفق والعناية البالغة بالتدريس والتأليف، والوعظ والإرشاد والإفتاء والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فألّف في التوحيد، والتفسير، والفقه، والحديث، والأصول، والآداب، وغيرها، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٧٦هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسّام (٣/ ٢١٨-٢٧٣)، روضة الناظرين للقاضي (١/ ٢١٩).

(٢) هما الشَّيْخان:

١- **الشَّيخ محمد بن عَبْد العزيز المطوَّع.**

لازم شيخه عبد الرحمن السعدي ملازمةً طويلةً، حتى صار أكبر تلامذته، وتولى القضاء بعنيزة، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٨٧هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسّام (٦/ ٧٨)، روضة الناظرين للقاضي (٢/ ٢٩١).

٢- **الشَّيخ علي بن حمَد الصالحي.**

لما رأى شيخه عبد الرحمن السعدي منه المثابرة في التحصيل، أمره أن يجلس لتدريس الصغار من الطلبة، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٤١٥هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسّام (٥/ ١٨٠).

هُو شيخَه الأوَّلَ؛ إِذْ أخذ عَنْهُ العِلْمَ -مَعْرفةً وطَرِيقةً- أَكْثَرَ مِمَّا أخَذ عَنْ غَيرِهِ، وتَأَثَّر بمَنْهجِه وتَأصِيلِه، وطَريقةِ تَدْرِيسِه، واتِّباعِه لِلدَّلِيل.

وعِندَما كانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرحمن بنُ عليِّ بن عودانَ[1] -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قاضيًا في عُنَيْزَةَ قرَأ عليه فِي عِلم الفَرائضِ، كما قَرأ علَى الشَّيْخ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَفِيفي[2] -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي النَّحو والبَلاغَة أَثناءَ وُجودِه مُدَرِّسًا فِي تِلكَ المَدِينة.

ولَمَّا فُتِحَ المَعْهَدُ العِلْمِيُّ فِي الرِّياضِ أَشارَ عليه بعضُ إِخْوانِه[3] أنْ يَلْتَحِقَ بِهِ، فاستَأْذَنَ شيخَه العلَّامةَ عَبْدَ الرَّحمنِ بنَ ناصرٍ السّعْدِيَّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، والتحَق بالمَعْهَدِ عامَيْ (١٣٧٢-١٣٧٣هـ).

ولقَدِ انتفعَ -خلالَ السَّنتَيْن اللَّتَيْن انتظَم فِيهما فِي مَعهدِ الرِّياضِ العِلْمِيِّ- بالعُلَماءِ الَّذِين كانوا يُدرِّسونَ فِيه حِينذَاكَ، ومِنْهُمْ: العلَّامَةُ المُفَسِّرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الأَمِين الشّنْقِيطِيُّ[4]، والشَّيْخُ الفَقِيه عَبْدُ العزيزِ بنُ ناصرِ بنِ رشيدٍ[5]، والشَّيْخُ

---

(١) توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٧٤هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسَّام (٣/ ١٣٠)، روضة الناظرين للقاضي (١/ ٢١٥).

(٢) ولد في مصر، وتلقى تعليمه في الجامع الأزهر، وقدم إلى المملكة عام (١٣٦٨هـ)، ودرَّس في مناطق شتَّى من المملكة، ثم اختير عضوًا بهيئة كبار العلماء، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٤١٥هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسَّام (٣/ ٢٧٥).

(٣) هو الشَّيْخ علي بن حمد الصَّالحي -رحمه الله تعالى-.

(٤) نشأ وتعلَّم في شنقيط من بلاد موريتانيا، ثم قدم إلى المملكة للحج عام (١٣٦٧هـ)، وتولى التدريس في المعهد العلمي بالرياض، ثم بالمسجد النبوي والجامعة الإسلامية، واختير عضوًا بهيئة كبار العلماء، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٩٣هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسَّام (٦/ ٣٧١).

(٥) نشأ في الرَّسِّ إحدى محافظات القصيم، ثم انتقل إلى الرياض، ودرَّس بالمعهد العلمي، وتوجه

المُحدِّثُ عَبْدُ الرحمنِ الإِفْرِيقِيُّ[١] -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى-.

وفِي أَثْناءِ ذَلكَ اتَّصلَ بسَماحةِ الشَّيْخِ العلَّامةِ عَبْدِ العزيزِ بنِ عَبْدِ الله بنِ بَازٍ[٢] -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، فقرَأ عليه فِي المسجِد: مِن صَحِيح البُخارِيِّ، ومِن رَسائِل شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ؛ وانتفَع به فِي عِلم الحَدِيث، والنَّظرِ فِي آراءِ فُقهاءِ المَذاهِب والمُقارَنةِ بينَها، ويُعدُّ سماحةُ الشَّيْخِ عَبْدُ العزيزِ بنُ بازٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- هو شَيْخَهُ الثَّانِي فِي التَّحْصِيلِ والتَّأثُّرِ بِهِ.

ثُمَّ عَادَ إِلَى عُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ)، وصارَ يَدْرُسُ علَى شَيْخِهِ العلَّامةِ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ ناصرٍ السّعْدِيِّ، ويُتابعُ دِراسَتَهُ انتِسَابًا فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ بالرِّياض، الَّتِي أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ جامِعَةِ الإِمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإِسْلامِيَّةِ، حتَّى نالَ الشَّهادَةَ العالِيَةَ.

= للوعظ والإرشاد والتدريس بالمسجد الحرام والمعهد العلمي بمكَّة المكرمة، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٤٠٨هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسَّام (٣/ ٥٣١).

(١) نشأ في بلاد مالي بأفريقيا، ثم قدم للحج، وجاور بمكة والمدينة، وطلب العلم على علماء المسجد النبوي، ودرَس بدار الحديث بالمدينة النبوية، وعُين مُدرِّسًا بها، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٧٧هـ).

(٢) ترجم له الكثيرون، وأفردوا ترجمته في مؤلفات عديدة، تولى قضاء الخَرْج، ثم انتقل إلى الرياض للتدريس في المعهد العلمي ثم كلية الشريعة، إلى أن عُين نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ثم رئيسًا لها، ثم مفتيًا عامًّا للمملكة العربية السعودية، ورئيسًا لهيئة كبار العلماء، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٤٢٠هـ).
انظر ترجمته في: روضة الناظرين للقاضي (٣/ ١٤٤).

تَدْرِيسُهُ:

تَوَسَّمَ فِيهِ شَيْخُهُ عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ ناصرٍ السّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- النَّجابَةَ وسُرْعةَ التَّحْصِيلِ العِلْمِيِّ فشَجَّعَهُ علَى التَّدرِيسِ وهُوَ ما زالَ طَالِبًا فِي حَلقتِه، فبَدَأَ التَّدرِيسَ عامَ (١٣٧٠هـ) فِي الجامِع الكَبيرِ بعُنَيْزةَ.

ولَمَّا تخرَّجَ فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ فِي الرِّياضِ عُيِّنَ مُدَرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ بعُنَيْزَة عامَ (١٣٧٤هـ).

وفِي سَنَةِ (١٣٧٦هـ) تُوُفِّيَ شَيْخُهُ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ ناصرٍ السّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فتَوَلَّى بعدَه إمامَةَ الجامِعِ الكَبيرِ فِي عُنَيْزَةَ، وإمامَةَ العِيدَيْنِ فِيها، والتَّدْرِيسَ فِي مكتبةِ عُنَيْزَةَ الوَطَنيَّةِ التَّابعةِ لِلجامِعِ؛ وهِي التِي أَسَّسَها شيخُه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عامَ (١٣٥٩هـ).

وَلَمَّا كَثُرَ الطَّلبةُ، وصارَتِ المكتبةُ لا تَكْفِيهم؛ بدَأَ فَضيلتُه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يُدرِّسُ فِي المسجِدِ الجامِعِ نَفْسِهِ، واجتمَعَ إِلَيْهِ الطُّلَّابُ وتَوافَدُوا مِنَ المملكَةِ وغيرِها؛ حتَّى كانُوا يَبْلُغونَ المِئاتِ فِي بعضِ الدُّرُوسِ، وهؤلاءِ يَدْرُسُونَ دِراسَةً جادَّةً بهَدَفِ التَّحصيلِ العِلمِيِّ، ولَيسَ لِمُجرَّدِ الاستِماعِ. وبَقِيَ علَى ذَلكَ -إمامًا وخَطيبًا ومُدرِّسًا- حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

بَقِيَ الشَّيْخُ مُدرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ مِن عامِ (١٣٧٤هـ) إِلَى عامِ (١٣٩٨هـ) عندَما انتقَلَ إِلَى التَّدرِيسِ فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ وأُصُولِ الدِّينِ بِالقَصِيمِ، التَّابعَةِ لجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإِسلامِيَّةِ، وظَلَّ أُستاذًا فِيها حتَّى وفاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

وكانَ يُدرِّسُ فِي المسجِد الحَرامِ والمسجِد النَّبويِّ، فِي مَواسِم الحَجِّ ورمَضانَ والإجازاتِ الصَّيْفِيَّة، مُنذُ عامِ (١٤٠٢هـ) حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى-.

وَللشَّيْخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أُسلوبٌ تَعْليمِيٌّ فَريدٌ فِي جَودتِهِ ونَجاحِهِ، فهُو يُناقِشُ طُلَّابَهُ ويَتقبَّلُ أسئِلَتَهُم، ويُلقِي الدُّرُوسَ والمُحاضَراتِ بهِمَّةٍ عالِيَةٍ ونَفسٍ مُطْمَئنَّةٍ واثِقَةٍ، مُبْتَهِجًا بنَشْرِهِ لِلعِلْمِ وتَقْرِيبِهِ إلَى النَّاسِ.

آثارُهُ العِلْمِيَّةُ:

ظَهَرَتْ جُهُودُهُ العَظِيمةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- خِلالَ أَكْثَرَ مِن خَمسِينَ عامًا مِنَ العَطاءِ والبَذْلِ فِي نَشْرِ العِلْمِ والتَّدْرِيسِ والوَعْظِ والإِرْشادِ والتَّوْجِيهِ وإِلْقاءِ المُحاضَراتِ والدَّعْوةِ إلَى اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعالَى-.

ولقَدِ اهتَمَّ بالتَّأْلِيفِ، وتَحريرِ الفَتاوَى والأَجْوبة، التِي تَميَّزَتْ بالتَّأصِيلِ العِلْمِيِّ الرَّصِينِ، وصدَرتْ لَهُ العَشَراتُ مِنَ الكُتُبِ والرَّسائِلِ والمُحاضَراتِ والفَتاوَى والخُطَبِ واللِّقاءاتِ والمَقالاتِ، كَما صدَرَ لَهُ آلافُ السَّاعاتِ الصَّوْتِيَّةِ التِي سَجَّلَتْ مُحاضَراتِه وخُطَبَهُ ولِقاءاتِهِ وبرامِجَهُ الإِذاعِيَّةَ ودُرُوسَهُ العِلْميَّةَ؛ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، والشُّرُوحاتِ المُتميِّزَةِ لِلحَدِيثِ الشَّرِيفِ والسِّيرَةِ النَّبويَّةِ، والمُتُونِ والمَنْظُوماتِ فِي العُلُومِ الشَّرْعيَّةِ والنَّحْويَّةِ.

وَإِنفاذًا لِلقَواعِدِ والضَّوابِطِ والتَّوْجِيهاتِ التِي قَرَّرها فَضيلتُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- لِنَشْرِ مُؤَلَّفاتِه، ورَسائِلِه، ودُرُوسِه، ومُحاضراتِه، وخُطبِه، وفَتاواهُ، ولِقاءاتِه؛ تَقُوم مُؤَسَّسةُ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةُ -بعَوْنِ اللهِ تعالى وتَوْفِيقِه- بواجِبِ وشَرَفِ المَسْؤُوليَّةِ لإِخْراجِ كافَّةِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ والعِنايَةِ بِها.

وبِناءً علَى تَوْجِيهاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أُنْشِئَ لَهُ مَوقِعٌ خاصٌّ علَى شَبَكَةِ المَعْلُوماتِ الدَّوْلِيَّةِ[1]، مِن أَجْلِ تَعْمِيمِ الفائِدَةِ المَرجُوَّةِ -بعَوْنِ اللهِ تَعَالَى-، وتَقدِيمِ جَمِيعِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ مِنَ المُؤَلَّفاتِ والتَّسْجِيلاتِ الصَّوْتِيَّةِ.

أَعْمالُهُ وجُهُودُهُ الأُخْرَى:

إِلَى جانِبِ تِلكَ الجُهُودِ المُثْمِرَةِ فِي مَجالاتِ التَّدْرِيسِ والتَّأْلِيفِ والإِمامَةِ والخَطابَةِ والإِفْتاءِ والدَّعْوةِ إِلَى اللهِ -سبحانه وتَعَالَى- كانَ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ أَعمالٌ كَثِيرةٌ مُوَفَّقَةٌ مِنْهَا:

- عُضوًا فِي هَيْئة كِبارِ العُلماء فِي المَمْلكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّة، مِن عام (١٤٠٧هـ) حتَّى وفاته.
- عضوًا فِي المَجْلِس العِلمِيِّ بجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّد بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ، فِي العامَيْنِ الدِّرَاسِيَّيْنِ (١٣٩٨-١٤٠٠هـ).
- عضوًا فِي مَجْلِسِ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعةِ وأُصُولِ الدِّينِ، بفَرْعِ جامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ فِي القَصِيمِ، ورَئِيسًا لِقِسْمِ العَقِيدةِ فِيها.
- وفي آخِرِ فَترةِ تَدريسِهِ بالمَعْهَدِ العِلْمِيِّ شارَكَ فِي عُضويَّةِ لجْنَةِ الخِطَطِ والمَناهِجِ لِلمَعاهِدِ العِلْمِيَّةِ، وأَلَّفَ عَدَدًا مِنَ الكُتُبِ المُقَرَّرَةِ فِيهَا.
- عُضوًا فِي لجْنَةِ التَّوْعِيَةِ فِي مَوْسِمِ الحَجِّ، مِن عام (١٣٩٢هـ) حتَّى وفاته -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، حيثُ كانَ يُلقِي دُرُوسًا ومُحاضراتٍ فِي مكَّة والمَشاعِر، ويُفْتِي فِي المَسائِلِ والأَحكامِ الشَّرعيَّة.

---

(١) www.binothaimeen.net

- ترَأَّسَ جَمعيَّةَ تَحفيظِ القُرْآنِ الكَريمِ الخَيريَّةَ فِي عُنَيْزَةَ مُنْذُ تَأْسِيسِها عامَ (١٤٠٥هـ) حتَّى وفاتِه.
- أَلقَى مُحاضراتٍ عَديدةً داخِلَ المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ علَى فِئاتٍ مُتنوِّعةٍ مِنَ النَّاسِ، كَما أَلقَى مُحاضراتٍ عَبْرَ الهاتِفِ علَى تَجمُّعاتٍ ومَراكِزَ إسلاميَّةٍ فِي جِهاتٍ مُختلفةٍ مِنَ العالَمِ.
- مِن عُلماءِ المملكةِ الكِبارِ الذِين يُجيبُونَ علَى أَسئلةِ المُسْتفسِرينَ عن الأَحكامِ والمسائِلِ؛ عَقِيدةً وشَريعةً وسُلوكًا، وذَلكَ عَبْرَ البَرَامِجِ الإِذاعيَّةِ فِي المملكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، وأَشهرُها بَرْنامَجُ (**نُورٌ عَلَى الدَّرْبِ**) مِن إذاعةِ القرآنِ الكريمِ في المَمْلَكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.
- نَذَرَ نَفْسَهُ لِلإجابَةِ علَى أَسئلةِ السَّائِلِينَ؛ مُهاتَفةً ومُكاتَبةً ومُشافَهةً.
- رَتَّبَ لِقاءاتٍ عِلميَّةً مُجَدْوَلَةً، أُسْبُوعيَّةً وشَهْريَّةً وسَنَويَّةً.
- شارَكَ فِي العَدِيد مِنَ المُؤتَمَراتِ التِي عُقِدَت فِي المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.
- ولأَنَّه يَهتمُّ بالسُّلُوكِ التَّربويِّ والجانِبِ الوَعْظِيِّ اعتنَى بتَوْجِيهِ الطُّلَّابِ وإرشادِهِم إلَى سُلُوكِ المَنْهَجِ الجَادِّ فِي طَلَبِ العِلْمِ وتَحْصِيله، وعَمِلَ علَى استِقْطابِهِمْ والصَّبْرِ علَى تَعْلِيمِهِمْ وتَحمُّلِ أَسئلتِهِمُ الكثيرةِ المتنوِّعةِ، والاهتمامِ بأُمُورِهِمْ.
- ولِلشَّيخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَعمالٌ عَديدةٌ فِي مَيادِينِ الخَيرِ وأَبوابِ البِرِّ ومَجالاتِ الإِحْسانِ إلَى النَّاسِ، والسَّعْيِ فِي حَوائِجِهِمْ وكِتابَةِ الوَثَائِق والعُقُودِ بَيْنَهُمْ، وإِسداءِ النَّصِيحَةِ لهُمْ بِصِدْقٍ وإِخلاصٍ.

مَكَانَتُهُ العِلْمِيَّةُ:

يُعَدُّ فَضيلةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ الذِينَ وَهَبَهُمُ اللهُ -بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ- تَأْصِيلًا وَمَلَكَةً عَظِيمةً فِي مَعرِفَةِ الدَّلِيلِ واتِّبَاعِهِ واستِنْبَاطِ الأَحْكامِ والفَوائِدِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وسَبْرِ أَغْوارِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَعَانِيَ وإِعْرابًا وبَلاغَةً.

وَلِمَا تَحلَّى بِه مِن صِفاتِ العُلَماءِ الجَليلةِ، وأَخلاقِهِمُ الحَميدَةِ، والجَمْعِ بَيْنَ العِلْمِ والعَمَلِ؛ أَحَبَّهُ النَّاسُ مَحبَّةً عَظِيمَةً، وقَدَّرَهُ الجَميعُ كُلَّ التَّقديرِ، ورَزَقَهُ اللهُ القَبُولَ لَدَيْهِمْ، واطْمَأَنُّوا لِاخْتِيارَاتِهِ الفِقْهِيَّةِ، وأَقْبَلُوا علَى دُرُوسِهِ وفَتاواهُ وآثارِهِ العِلْمِيَّةِ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ، ويَسْتَفِيدُونَ مِنْ نُصْحِهِ ومَواعِظِهِ.

وقَدْ مُنِحَ جائِزَةَ المَلِك فَيْصَل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- العَالَمِيَّةَ لِخِدْمَةِ الإِسلامِ عامَ (١٤١٤هـ)، وجاءَ فِي الحَيْثِيَّاتِ التِي أَبْدَتْها لَجْنَةُ الاخْتِيارِ لِمَنْحِهِ الجائِزَةَ مَا يَأْتِي:

- أَوَّلًا: تَحلِّيهِ بأَخْلاقِ العُلَماءِ الفاضِلَةِ التِي مِنْ أَبْرزِها: الوَرَعُ، ورَحابَةُ الصَّدْرِ، وقَوْلُ الحَقِّ، والعَمَلُ لمَصْلحةِ المُسلمِينَ، والنُّصحُ لِخَاصَّتِهِم وعامَّتِهِم.
- ثانِيًا: انتِفاعُ الكَثِيرينَ بعِلْمِهِ؛ تَدْرِيسًا وإِفتاءً وتَأْلِيفًا.
- ثالِثًا: إِلقاؤُهُ المُحاضَراتِ العامَّةَ النَّافِعةَ فِي مُختلَفِ مَناطِقِ المملكةِ.
- رابِعًا: مُشاركتُه المُفيدةُ فِي مُؤتَمَراتٍ إسلاميَّةٍ كَثيرةٍ.
- خامِسًا: اتِّباعُه أُسلوبًا مُتميِّزًا فِي الدَّعْوةِ إِلَى اللهِ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنةِ، وتَقْدِيمُهُ مَثَلًا حَيًّا لِمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فِكْرًا وسُلُوكًا.

عَقِبُهُ:

لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ البَنِينَ، وثَلاثٌ مِنَ البَنَاتِ، وبَنُوهُ هُمْ: عَبْدُ الله، وعَبْدُ الرَّحْمَن، وإِبْرَاهِيمُ، وعَبْدُ العَزِيزِ، وعَبْدُ الرَّحِيم.

وَفَاتُهُ:

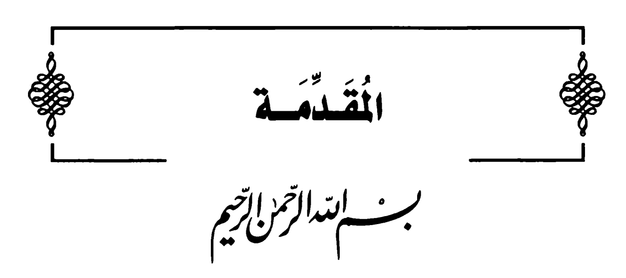
تُوُفِّيَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي مَدِينَةِ جدَّةَ، قبيلَ مغربِ يومِ الأَرْبِعاءِ، الخامِسَ عشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَّال، عامَ (١٤٢١هـ)، وَصُلِّيَ عَلَيه مِنَ الغَدِ فِي المسجِدِ الحَرَام بَعْدَ صَلاةِ العَصْرِ، ثُمَّ شَيَّعَتْهُ تِلكَ الآلافُ مِنَ المُصَلِّينَ والحُشُودِ العَظِيمَةِ فِي مَشاهِدَ مُؤَثِّرَةٍ، ودُفِنَ فِي مَقبرةِ العَدْلِ بمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ.

وبَعْدَ صَلاةِ الجُمُعةِ مِنَ اليَوْمِ التَّالي صُلِّيَ عَلَيه صَلاةَ الغائِبِ فِي جَمِيعِ مُدُنِ المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّة.

رَحِمَ اللهُ شَيْخَنَا رَحْمَةَ الأَبْرارِ، وأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، ومَنَّ عَلَيهِ بمِغْفِرَتِهِ ورِضْوَانِهِ، وجَزَاهُ عمَّا قَدَّم لِلإِسْلامِ والمُسلِمِينَ خَيْرَ الجَزَاءِ.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

•●○●•



المُقَدِّمَـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأُصَلِّي وأُسَلِّم على نبيِّنا مُحَمَّد خاتم النَّبِيِّين، وإمام المُتَّقين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، **أمَّا بعدُ:**

فإنَّنا نَسْتَفْتِحُ هذا الكِتَابَ: **(أَحْكام منَ القُرْآن الكَرِيمِ)**، راجينَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكون مُبَارَكًا، نَافِعًا لنا ولإِخْوَاننا المسلمين.

وأحكامُ القُرْآن العَظِيمِ هي ما تتضمَّنه الآياتُ الكريمةُ منَ الفَوَائِد الدِّينيَّة والدُّنْيَوِيَّة، والفَرْدِيَّة، والاجْتِمَاعِيَّة، ولا رَيْبَ أنَّ كلَّ آيةٍ في كتاب الله تتضمَّنُ فَوَائِدَ عَظِيمةً، يَعْرِفُها الإنسانُ بحسب عِلْمِه وفَهْمِه، ولا رَيْبَ كذلك أنَّ الإنسان يُؤْتَى العِلْمَ بحسب ما معه من الإيمان، والهُدَى، والتُّقى، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

وكُلَّما كان الإنسانُ أشدَّ إِقبَالًا على القُرْآن الكريم، وإيمانًا به، وحُبًّا له، وتدبُّرًا لآياته، كان به أَفْهَمَ، وبما يدلُّ عليه من الفَوَائِد العَظِيمَة والأَحْكَام أَوْسَعَ.

ولهذا فإنِّي أحثُّ إخواني المسلمين على تَدَبُّر كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ، وتفهُّم معانيه، والرُّجوع فيما لا يَعْرِفُونه إلى أهل العِلْمِ؛ ليُبَيِّنوه لهم، وإن لم يتيسَّر ذلك فإلى كُتُب

التَّفسير المَوْثُوق بها، كتَفْسِير ابن كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتَفْسِيرِ شيخنا عبد الرَّحْمَن بن سعْديٍّ، وتَفْسِير القُرْطِبيِّ، وتفسير الشَّوْكَانيِّ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وغَيْرِها من التَّفاسير المَعْرُوفة المَوْثُوق بمُؤَلِّفيها في عِلْمِهم ودِينِهم؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنَّما أَنْزَل القُرْآنَ لهذا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، فالقرآنُ الكريمُ لم ينزل لمُجَرَّد التِّلَاوة اللَّفْظِيَّة (تِلَاوَة الآياتِ الحَرْفِيَّة)، بل نَزَلَ من أجل هذا، ومن أجل ما هو أَتَمُّ وأَكْمَلُ، وهو تَدبُّر الآياتِ، وتَفَهُّم معانيها، ثُمَّ التَّذكُّر بما فيها من القَصَص، والأَخْبَار، والمَوَاعِظ، والأَحْكَام.

ولهذا كان الصحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لا يَتَجَاوَزُون عَشْرَ آياتٍ من القرآن حتى يتعلَّموها وما فيها من العِلْمِ والعَمَل، فتعلَّموا القُرْآن والعِلْمَ والعَمَلَ جميعًا[1]، وكثيرٌ من النَّاس اليومَ لا يهتمُّ بهذا الجانب، أعني: جَانِبَ المعنى، وجَانِبَ التَّدبُّر، وما تتضمَّنه الآياتُ من الفَوَائِد والأحكام، ولا يهتمُّون به، وهذا قُصُورٌ -بلا شَكٍّ- في الإنسان، وتَقْصِيرٌ منه.

ومن النَّاس مَن يَتَجَرَّأ، ويتكلَّمُ في القُرْآن بما لا يَعْلَمُ، فيكون شاهدًا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما لا يَعْلَم، وهذا مُحَرَّمٌ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، فكلُّ إنسانٍ يتكلَّمُ في معنى آيةٍ من كِتَاب الله فهو شَاهِدٌ على الله تعالى بأنَّه أرادَ بها كَذا وكَذا، وهَذا أمرٌ خَطِيرٌ؛ لأنَّه سَيُسْأَل عنه يوم القِيَامة، فيُقَال: ما الذي أَعْلَمك بأنَّ الله تعالى أراد كذا وكذا؟ ويكون قد قال في القرآن برَأْيِه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٤١٠).

ومن النَّاس مَن يَعْلَم أنَّ القُرْآنَ يدلُّ على كذا وكذا، ولكن لديه عَقِيدَة سابقة، ونِحْلَة يَؤُمُّها ويقتدي بها، وتَقْلِيد لِمَن يَثِقُ به، فتجده يُحَرِّفُ الكَلِمَ عن مواضعه، ويصرفُ آياتِ كِتَابِ الله عَزَّوَجَلَّ عن وُجُوهها إلى ما كان يعتقدُه ويَنْتَحِلُه من هذا المذهب، وهذا أشدُّ مِن الذي قَبْلَه؛ لأَنَّه خالف الحَقَّ عن عِلْمٍ به.

فالواجبُ على كلِّ مُسْلِمٍ مُؤْمنٍ أن يتَّقي الله عَزَّوَجَلَّ حين يتكلَّم في معنى آيةٍ من كلام الله، وأن يكون على حَذَرٍ، فلا يقول إلَّا ما يَعْلَمُ أنَّه هو المراد، أو يغلبُ على ظنِّه أنَّه هو المرادُ، وأمَّا مع الشَّكِّ فلا يجُوزُ له أن يتكلَّم بشيءٍ.

ونحن في هذا الكِتَاب لن نَتَكَلَّم كثيرًا عن تَفْسِير الآيات، وبيان وُجُوهها اللُّغويَّة من البلاغة والإِعْرَاب وغير ذلك؛ لأنَّ هذا -والحمد لله- مَوْجُودٌ في كثيرٍ من كتب المُفَسِّرين، ولكن يهمُّني أن أُبيِّن الفَوَائِدَ التي تُسْتَنْبَط من هذه الآيات، وأُبيِّنَ وَجْهَ ذلك غالبًا فيما يحتاجُ إلى بيانٍ، وفيما خَفِيَت دلالتُه؛ لأنَّ الاستفادة من القرآن الكريم بهذه الطَّريقة يحصلُ بها عِلْمٌ كثيرٌ، ولهذا سُئِلَ عليُّ بنُ أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: هل عَهِدَ إليكم النبيُّ ﷺ بشيءٍ؟ فقال: «لَا، وَالَّذِي بَرَأَ النَّسَمَةَ، وَفَلَقَ الحَبَّةَ، إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»، وهي فَكَاكُ الأسير، إلى آخر ما فيها[١]، لكن المهمُّ أنَّه قال: «إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ»، وهذا يدلُّ على أنَّ الفَهْمَ في كِتَاب الله يَحْصُلُ به خيرٌ كثيرٌ، وعِلْمٌ غَزِيرٌ.

ولكن يجبُ أن يكون الفَهْمُ مبنيًّا على أساسٍ كما أشرنا إليه؛ لأنَّ النَّاس أربعةُ أَقْسَامٍ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).

١- فمنهم مَن عنده عِلْمٌ ولكن ليس عنده فَهْمٌ.

٢- ومن النَّاس مَن عنده فَهْمٌ ولكن ليس عنده عِلْمٌ.

٣- ومِن النَّاس مَن عنده عِلْمٌ وفَهْمٌ.

٤- ومِن النَّاس مَن لا عِلْمَ عنده ولا فَهْمَ.

والمرادُ من هذا الكتاب: هو استنباطُ الفَوَائِد من كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ ليَحْصُلَ بذلك خيرٌ كثيرٌ.

واعلم أنَّ الدَّلالة تنقسمُ إلى ثَلَاثة أَقْسَامٍ: مُطَابَقَة، وتَضَمُّن، والْتِزَام.

- فدلالةُ اللَّفظ على جميع معناه دلالةُ مُطابَقةٍ.
- ودلالتُه على جُزْءِ معناه دلالةُ تَضَمُّنٍ.
- ودلالتُه على أمرٍ لازمٍ خارجٍ دلالةُ الْتِزَامٍ.

ولنضرب لذلك مَثَلًا معنويًّا ومَثَلًا حِسِّيًّا:

أمَّا المثَل المعنويُّ فانظر إلى اسمٍ من أسماءِ الله، وهو (الخَالِق)، تجد أنَّه دلَّ على صِفَة الخَلْق، وعلى الخَالِق نَفْسِه، فدلالتُه على الخَالِق نَفْسِه وعلى صِفَة الخَلْقِ جميعًا دلالةُ مُطَابَقَةٍ، ودلالتُه على الخَالِق نَفْسِه وَحْدَه أو على صِفَة الخَلْق وَحْدَها دلالةُ تضمُّنٍ، ودلالتُه على العِلْمِ والقُدْرَة دلالةُ الْتِزَامٍ؛ لأنَّ الخَلْقَ لابُدَّ فيه من عِلْمٍ وقُدْرَةٍ، فمَن لم يكن عالِمًا لا يستطيعُ أن يَخْلُقَ، ومَن لم يكن قادرًا لا يستطيعُ أن يَخْلُقَ.

أمَّا المثال الحسِّيُّ فكأنْ نقول: «هذا بيتٌ»، فكلمة (بيت) تدلُّ على كل ما يُحِيطُ به سورُ البيت دلالةُ مُطَابَقَةٍ، وتدلُّ على هذه الغُرْفَة، والغُرْفَة الثانية، والغُرْفَة الثالثة،

والغُرْفَة الرابعة، وعلى الحوش (البراح)، وعلى المَجْلِس، والصَّالَة، دلالةُ تَضَمُّنٍ، وتدلُّ على أنَّ لهذا البيت بانيًا دلالةُ الْتِزَامٍ.

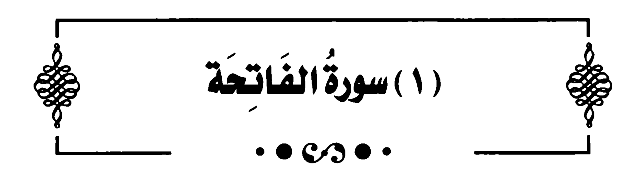
وهذه الأنواعُ الثَّلاثةُ من الدَّلالة إذا اسْتَعْمَلها الإنسانُ استعمالًا جيِّدًا حصَّل بها فَوَائدَ كثيرةً، ولهذا تجدُ بعض أهل العِلْمِ إذا تكلَّم عن آيةٍ أو حديثٍ -لاستنباط أَحْكَامها- اسْتَخْرَجَ منها أشياء كثيرةً؛ لاستعماله هذه الأنواعَ الثَّلاثةَ من الدَّلالة، ومن النَّاس مَن يَقْصُرُ فَهْمُه عنها، فلا يستطيعُ أن يَسْتَنْبِطَ إلا فَوَائِدَ قليلةً.

ولْيُعْلَمْ أنَّ ما يُذْكَرُ في هذا الكِتَاب من الفَوَائدِ ليس اسْتِيعَابًا للفَوَائد، فإنَّ كَلَام الله عَزَّوَجَلَّ لا يستطيعُ الواحدُ من النَّاسِ أن يَسْتَوعِبَ فَوَائدَه، ولكن يقولُ الإنسانُ ما يَسْتَطيع الوُصُولَ إليه، ويتكلَّمُ بحسب عِلْمِهِ وفهمِهِ، وإلَّا ففي كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ من الفَوَائِد شيءٌ كثيرٌ وكبيرٌ.

نَسْأَلُ اللهُ أن يُوَفِّقَنا لِخِدْمَة كِتَابه، وأن يُفَقِّهَنا في دَلَالَاتِه واسْتِنْبَاط فَوَائِدِه، وأن يَنْفَعَ بهذا العَمَل؛ إنَّه سميعٌ مُجِيبٌ.

محمَّد بنُ صالِحٍ العُثَيْمِين

•●○●•



(١) سورةُ الفَاتِحَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾

إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْزَل على رسولِه مُحَمَّدٍ ﷺ هذا القرآنَ العظيمَ، وأَنْزَل عليه سَبْعًا من المَثَاني، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، والسَّبْعُ المثاني: هي فَاتِحَةُ الكِتَاب، وهي أَعْظَمُ سورةٍ في كِتَاب الله، ولهذا فُرِضَت قِرَاءتُها في الصَّلوات، فلا صَلَاةَ لِمَن لم يقرأْ بفَاتِحَة الكِتَاب.

افْتَتَحها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالحمدِ، والثَّناءِ، والتَّمجيدِ، والحمدُ: هو وصفُ المَحْمُودِ بالكمالِ، والثَّناءُ: تكرارُ هذا الوَصْفِ، والتَّمجيدُ: ذكرُ المَجْدِ والعَظَمةِ وقوَّة السُّلْطَان، كما جاء في الحديث الصَّحيح الَّذي رواه أبو هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ،**

فَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

ففي قَوْلِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ على كَمال صِفَات الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى كَثْرَة نِعَمِه على عباده؛ لأنَّ الحمدَ لا يستحقُّه إلا مَن كان كَامِلًا في وَصْفِه، كاملًا في فِعْلِه، وأَعْنِي بالحمدِ: الحَمْدَ المُطْلَقَ الكاملَ، وإلا فقد يُحْمَد الإنسانُ حمدًا كاملًا على فعلٍ ناقصٍ، أو على كمالٍ ذاتيٍّ ناقصٍ.

وفي قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ دليلٌ على ثُبُوت أُلوهيَّة الله عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إِلَه الحقِّ، وما سِوَاه فهو باطلٌ.

وفي الإتيانِ باللَّام دليلٌ على اسْتِحْقَاق هذا الحَمْدِ للهِ وَحْدَه، لا يُشارِكُه فيه أحدٌ، فالحمدُ المُطْلَقُ الكاملُ لا يكونُ إلا للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ كلَّ ما سِوَاه إنَّما يُحْمَد على شيء مُعَيَّن حمدًا يَلِيقُ بهذا الشَّيء المُعَيَّن، ويُكافئُ هذا الشَّيْء المُعَيَّن.

وفي قَوْلِه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إثباتُ رُبُوبيَّة الله عَزَّوَجَلَّ، والرَّبُّ هو الخَالِق المَالِك المُدبِّر، فلا خَالِقَ إلا اللهُ، ولا مَالِكَ إلا اللهُ، ولا مُدَبِّرَ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وإضافةُ الخَلْق إلى غير الله، أو المُلْكِ إلى غَيْرِ الله، أو التَّدْبيرِ إلى غير الله إضافةٌ نَاقِصَةٌ في ذَاتِهَا، وناقصةٌ في شُمُولها وعُمُومها، أمَّا خَلْقُ الله ومُلْكُ الله وتَدْبِيرُ الله فهو كَامِل شَامِل عَامٌّ.

وفي الآية الكريمة: إِثْبَاتُ رَبٍّ ومَرْبُوب، ممَّا يدلُّ على التَّبايُن بين الخَالِق والمخلوقِ، ويكونُ فيه ردٌّ على قَوْل أَهْل الإلْحَاد القَائِلِينَ بوحدة الوُجُود.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة، رقم (٣٩٥).

وفي قَوْلِه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ العالَمِين كلَّهم يفْتَقِرُون إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه لا قِيَامَ للمَرْبُوب إلا بالرَّبِّ، فالرَّبُّ هو المُرَبِّي القائمُ على غَيْرِه من كلِّ وَجْهٍ.

وفي قَوْلِه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الملائكـةَ والرُّسُـلَ والأولياءَ لا حقَّ لهم في التَّدبير والخَلْق، ويتفرَّع على ذلك: أنَّه ليس لأحدٍ أن يَدْعُو هؤلاء، وأن يَسْتغيثَ بهم، وأن يَسْتَنصِرَ بهم؛ لأنَّهم مَرْبُوبون، هُمْ بأَنْفِسهم مُحتاجونَ إلى الرَّبِّ، غيرُ مُسْتَغْنِين عنه، فكيف يُمْكِن أن يكونوا مَلْجَأً للعِبَاد، ومَلَاذًا لهم، يَسْتَعينونَ بهم، ويَسْتَغيثُون بهم، ويَسْتَرحمون بهم؟!

وفي قَوْلِه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ العالَم حَادِث، وهو كَذَلِكَ، فإنَّ العالَم حادثٌ بعد أَنْ لم يَكُن، كما قال اللهُ تعالى -يَعْنَي نَفْسَه-: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، قال النبيُّ ﷺ في تَفْسِيرها: «**أَنْتَ الْأَوَّلُ، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ، فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ، فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»[1].

وفي قَوْلِه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دليل على أنَّ هذا العالَم عَلَمٌ وآيةٌ دالَّةٌ على الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ ما في هذا الكَوْن من الانْتِظَام البَدِيع، والاطِّرادِ، وعدمِ التَّناقُض، والإِحْكَام، دليلٌ على كَمَال مُوجِده عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١]، وقال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم، رقم (٢٧١٣/ ٦١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد:٤]، فهذا الكونُ المَرْبُوبُ المخلوقُ عَلَمٌ على خالقه عَزَّوَجَلَّ، ودليلٌ عليه، وآيةٌ من آياته.

وفي قَوْلِه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إثباتُ صِفَة الرَّحمة، والرَّحمةُ صفةٌ من صفات الله عَزَّوَجَلَّ الثَّابتة له حقيقةً على وَجْهِ الكَمال، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣]، وهي غيرُ الإرَادَة، وغيرُ الإحْسَان، بل هي صِفَة مُستقلَّة يَنْشَأ عنها إرادةُ الإحْسَان، وإيصالُ الإحْسَانِ إلى الخَلْق.

ووَصَفُ اللهُ نَفْسَه بـ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بعد ذكر رُبوبيَّته العامَّة، ففي ذلك دليلٌ على أنَّ رُبوبيَّته عَزَّوَجَلَّ رُبُوبيَّةُ رَحْمَةٍ وإِحْسَانٍ إلى الخَلْق، بجَلْب النِّعَم، ودَفْعِ النِّقَم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل:٥٣].

وفي وَصْفِه بـ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دليلٌ على سَعَة رحمتِه، وهذا مُستفادٌ من ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ لأنَّ (رَحْمَان) على وَزْنِ (فَعْلَان)، وهذه الصِّيغةُ تدلُّ على الامْتِلَاء والسَّعة، كما يقولون: «غَضْبَان»، و«نَدْمَان»، وما أشبه ذلك، للمُمْتَلِئ غَضَبًا ونَدَمًا.

وفي قَوْلِه: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ دليلٌ على إِيصَالِه هذه الرَّحْمَةَ إلى مَن شاء من عِبَاده.

ورحمةُ الله عَزَّوَجَلَّ عامَّة وخاصَّة، فأمَّا العامَّة فهي لجميع الخَلْق، فكلُّ الخَلْق مَرْحُومُون برحمة الله، ولولا رحمةُ الله ما أَكَلوا، وما شَرِبوا، وما اكْتَسَوْا، وما سَكَنُوا، ولكنَّ الله رَحِمَهم، فهيَّأ لهم ما تَقُوم به أبدانُهم من المعِيشَةِ الدُّنيويَّة.

وأمَّا رحمتُـهُ الخاصَّـةُ فهي خَاصَّـةٌ بالمؤمنين الذين تَسْتَمـرُّ رحمتُهم في الدُّنيا والآخرة، ففي الدُّنيا: رَحِمَهم اللهُ تعالى بحُصول ما تَقُوم به أَبْدَانُهم، وفي الآخِرَةِ: رَحِمَهم الله تعالى بحُصُول ما تَقُوم به أَدْيَانُهم.

وفي قَوْلِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ردٌّ على مُنْكِري الرَّحمةِ الَّذينَ يقولونَ: إنَّ الرَّحمةَ ليست صفةً حقيقيَّةً للهِ، بل هي إرادةُ الإِحْسَانِ، أو الإِحْسَانُ نفسُه، وذلك لأنَّ الأصلَ في الوَصْفِ الحقيقةُ، فإذا قِيلَ: «الرَّحْمَن» أي: ذو الرَّحمةِ فالأصلُ أنَّه مُتَّصفٌ بها حقيقةً، ولا يلزمُ من اتِّصافِ الله تعالى بالرَّحمةِ أن يكُونَ مُماثلًا للمَخْلُوق، ولا يلزمُ من ذلك أن يكُونَ نَاقِصًا؛ لأنَّ النَّقْصَ الذي يُمكنُ أن يكونَ في صِفَة الرَّحمة -إنْ كان- إنَّما ذلك في رَحْمَةِ المَخْلُوقِ الَّتي قد لا تكونُ عن حِكْمَةٍ، فتكونُ نَاقِصَةً.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يَوْمُ الدِّين هو يومُ القِيامة، والدِّينُ هنا بمعنى: الجَزَاءِ، وكما يكون الدِّين بمعنى: الجزاء، يكونُ أيضًا بمعنى: العَمَل، فمِن مَجيئِه بمعنى العَمَل: قَوْلُه تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، ومِن مَجيئِه بمعنى الجَزَاء: هذه الآيةُ، فقَوْلُه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: مَالِك يَوْمِ الجَزَاء الَّذي يُدَان فيه كلُّ عَامِلٍ بما عَمِلَ.

وأضافَ اللهُ تعالى المُلْكَ إلى يَوْمِ الدِّين، وإِنْ كَان سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مَالِكًا للدُّنيا والآخِرَة؛ لأنَّ مُلْكِيَّته تَظْهَر جَلِيَّةً واضحةً في ذلك اليوم، ويعترفُ بها كلُّ مَخْلُوق، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:١٥-١٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

ففي هذه الآيَـةِ الكَرِيمَـة: دليلٌ على أنَّ المُلْكَ في ذلك اليوم -يَوْمِ القيامة- لا يكون لأحدٍ، لا جُزْئيًّا ولا غَيْرَ جُزْئيٍّ، لا حَقِيقةً ولا مجَازًا؛ لأنَّ النَّاس كُلَّهم يومَ القِيَامة يُحْشَرونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا[1]، حُفَاةً: ليس في رِجْل أَحَدِهم نِعَالٌ، وعُرَاةً: ليس عليهم ثِيَابٌ، وغُرْلًا: لَيْسُوا مَخْتُونين، لا فَـرْقَ في ذلك بين السَّيِّد والعَبْـد، ولا بين الرَّاعي والرَّعِيَّة، ولا بين الأَبِ والابْنِ، فكلُّ النَّاس على حدٍّ سواء.

وفي قَوْلِه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أيضًا دليلٌ على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك اليومِ تامُّ المُلْكِ والسُّلْطَان، كما تدلُّ عليه القِرَاءةُ الثَّانيةُ الصَّحيحَةُ السَّبْعِيَّةُ، وهي ((مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ))، فهي قِرَاءةٌ صَحيحةٌ سَبْعِيَّةٌ[2]، فيَنْبَغِي للإنسان أن يَقْرَأ بها أحيانًا، لكن لا بحُضُور العَامَّة؛ لئَلَّا يُشَوِّش عليهم، فإنَّ المَلِكَ لَهُ مِن السُّلْطَة والنُّفُوذ ما ليس للمَالِك، لكن المَلِك أحيانًا لا يَملِكُ، فيكون مَلِكًا قَاصِرَ المُلْكَ، فباجْتِماع القِرَاءَتَيْن يكونُ الكَمالُ: أنَّ الله تعالى مَلِكٌ أي: ذُو سُلْطَان وقَهْر وعَظَمة وكلمةٍ نَافِذَة، ومَالِكٌ ذُو تصرُّف كَامِلٍ في مَلَكُوته عَزَّوَجَلَّ.

وفي قَوْلِه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إِثْبَاتُ اليوم الآخِرِ، وهو حقٌّ، والإيمانُ به أحدُ أَرْكَان الإيمان السِّتَّة، فاليومُ الآخِرُ حقٌّ ثابت، كما أنَّ الدُّنْيَا الآنَ حقٌّ ثابتٌ لا يُنْكِره أحد، فكذلك اليومُ الآخِرُ المُسْتَقْبَل المَوْعُود حقٌّ ثابتٌ، ولابُدَّ منه، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، فلو كَان

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، رقم (٣٣٤٩)، ومسلم: كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر، رقم (٢٨٥٩).

(٢) قرأ عاصم والكسائي بألف بعد الميم، وقرأ باقي السبعة بدون ألف، كما في «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١/ ٢٥).

النَّاسُ خُلِقُوا لِهَذِه الدُّنْيَا يَعِيشُون فيها مَا يَعِيشُون على مَا فيها من التَّعَب والنَّصَب واللَّأْوَاء والعُدْوَان والظُّلْم والصَّلاح والفَسَاد، لو كانوا خُلِقُوا لهذا فَقَط لَكَان ذلك نَقْصًا بَالِغًا فِي حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه سَفَه وبَاطِل ولَعِب، وَقَد أَشَار اللهُ تعالى إلى هذا المَعْنَى فِي قَوْلِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]، وقَوْلِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص:٢٧]، وقَوْلِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، إلى غَيْرِ ذلك من الآيات الدَّالَّة على أَنَّه لابُدَّ من لِقَاء ومُجَازَاة على هذه الأعمال التي عَمِلْنَاها في هذه الدُّنْيَا.

ولا يُمْكِن أن يقوم الإنسانُ بشَرْعِ الله حقَّ القيام إلَّا إذا كان مُؤْمِنًا بأَنَّ هناك يومًا يُلاقِي فيه الإنسانُ ربَّه، فيُحاسِبُه على عَمَلِه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

وفي قَوْلِه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أيضًا إِثْبَاتُ الجَزَاء والحِسَاب، وأنَّ الإنسان يُحاسَبُ على عَمَلِه، ويُجازَى عليه، وهو حقٌّ ثَابِت، ولكنَّه -أي: الحِسَابَ- على وَجْهَين:

الوجهُ الأوَّل: حِسَاب المُؤْمِن، وهذا لا يُنَاقَشُ الحِسَابَ، وإنَّما يَخْلُو به الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ، فيُكَلِّمُه وَحْدَه، ويُقَرِّرُه بذُنُوبِه، حتى يُقِرَّ بها، ثُمَّ يقولُ الله له: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1]، فالحَمْدُ للهِ على سِتْرِه، مَا أَكْثَر الذُّنُوبَ التي يَفْعَلُها العبدُ، إمَّا بَاطِنَةً في قَلْبِه، وإمَّا ظَاهِرةً في جَوَارِحه، لكن لا يَعْلَم بها

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

النَّاسُ! وَمَع هذا فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَمُنُّ عليه ويَسْتُرُه، ويقولُ الله عَزَّوَجَلَّ في حِسَابِهِ لَهُ يوم القِيَامة: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ».

أمَّا الوجه الثَّاني من الحِسَاب: فهـو حِسَاب الخِـزْي والعَـارِ -والعياذ بالله- وهو حِسَابُ الْكَافِر، فإنَّه يُجْزَى بأَعْمالِه يوم القِيَامة، ويُنَادَى على رُؤُوسِ الأَشْهَاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

وفي قَوْلِه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تَرْغِيبٌ وتَرْهِيبٌ: تَرْغيب في العَمَل الصَّالِح؛ لأنَّ الإنسانَ إذا أَيْقَن بأنَّه سيُحَاسَب على عَمَلِه، ويُثَابُ عليه حَرِصَ على الأعمال الصَّالحة، واجتهدَ، ورَغِبَ فيها؛ وتَرْهِيبٌ؛ لأنَّه إذا عَلِمَ بأنَّه سيُجَازَى على عَمَلِه، ويستحقُّ العِقَابَ على سيِّئه فإنَّهُ يَخْشَى من ذلك، ويتجنَّب الأعمالَ السَّيِّئَةَ؛ خوفًا من يَوْمِ الدِّين الَّذي يُجازَى فيه العَامِلُون بأعمالهم، كما قِيلَ: «كَما تَدِينُ تُدَانُ»، فعلينا أن نَأْخُذ لهذا اليوم عُدَّتَه، وأن نَعْمَل صالحًا يُقَرِّبُنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويُسْعِدُنا في ذلك اليوم.

وفي قَوْلِه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ دليلٌ على كَمال حِكْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حيث جَعَل لهذا الخَلْقِ مآلًا يُدَانُون فيه، ويُجازَوْن بأعمالهم؛ لأنَّه لَوْلَا ذلك لكان الأمرُ عَبَثًا كما سبق أن ذَكَرْنا.

وفي قَوْلِه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إشارةٌ إلى كَمال العَدْل؛ لأنَّ الدِّين هو المُجَازاةُ: مُجازاةُ العَامِل بقَدْرِ ما عَمِل، ولكن مع هذا نقولُ: إنَّ مُجازاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعِبَادِه دائرةٌ بين العَدْل والفَضْل، فهي بالنِّسْبَة للكَافِر عَدْل مَحْض ليس فيه ظُلْمٌ، فالكافرُ عُقُوبتُه الخُلُودُ في النَّار أَبَدَ الآبِدِين، لا يَخْرُج منها أَبَدًا، ولا تَفْنَى

النَّارُ الَّتي يُعَذَّب فيها أبدًا؛ لقَوْل الله تعالى في ثَلَاث آياتٍ من القُرْآن: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾، فالآيةُ الأُولى في سُورة النِّسَاء: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وتأبيدُ الخُلُود يدلُّ على تَأْبيدِ المكَانِ الَّذي فيه الخُلُودُ.

والآيةُ الثَّانية في سُورة الأحزاب: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

والآيةُ الثَّالِثَة في سُورة الجِنِّ: قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

ولا قَوْلَ لأحدٍ بَعْد أَنْ صرَّح الله عَزَّوَجَلَّ بتَأْبِيد الخُلُود في نار جهنَّم، وكلُّ قَوْل يُخالف هذا فهو مَرْدُودٌ على قَائِله؛ لأنَّ القَائِلَ بالتَّأبيد هو العَالِمُ بما سَيكونُ، وهو الخَالِق عَزَّوَجَلَّ، فمُجَازاةُ الله الكَافِرَ بالخُلُود في النَّار أَبَد الآبِدين هو عَدْل، وليس فيه ظُلْم.

قد يَقُول قَائِل: إنَّك إذا قِسْتَ مُدَّة بَقَاءِ الإنسانِ في الحَيَاة الدُّنْيَا فإنَّها لن تكُونَ شيئًا بالنِّسْبَة إلى التَّأبيد الأَبَدِيِّ، فيكونُ تَعْذِيبُه على أكثر من بَقَائِه في الدُّنْيَا شيئًا من الظُّلْم!

والجوابُ عن هذا: أَنْ لا ظُلْمَ في ذلك:

أوَّلًا: لأنَّ هذا الإنْسَانَ اسْتَغْرَق جميعَ حَيَاتِه في الكُفْر، فيكونُ من العَدْل أَنْ يَسْتَغْرِقَ جميع بَقَائه في الآخِرَة في العَذَاب.

وثانيًا: أنَّ هذا الإنسانَ الكَافِرَ قد أُرْسِلت إليه الرُّسُل، وأُنْزِلت معهم الكُتُب، وبيَّنُوا للنَّاس الطَّرِيقَ، ورغَّبُوا النَّاس في الحقِّ، وحذَّروهم من البَاطِل، ولم يَبْقَ للنَّاس حُجَّةٌ على الله بَعْدَ الرُّسُل، فيكُونُ هو الَّذي اخْتَار لنَفْسِه هذا المقامَ الأَبَديَّ؛ لأنَّـه يَعْلَم أنَّ الكافـر سيَبْقَى في هذا المكانِ الأَبَدِيِّ، فحينئذٍ يكـونُ هـو الظَّالِمَ لنَفْسِه؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧، والأعراف:١٦٠].

أمَّا الجَزَاءُ الفَضْليُّ الَّذي هو فَضْلُ الله عَزَّوَجَلَّ فهو جَزَاءُ المُؤْمِن، فالمُؤْمنُ يُجازَى بالنِّسْبَة للحَسَنة: الحَسَنة بعَشْر أَمْثالِها، إلى سَبْعِ مئة ضِعْفٍ، إلى أَضْعَاف كَثيرَةٍ، وأمَّا بالنِّسْبَة للسَّيِّئات فإنَّه تَحْتَ المَشِيئَة، إن شَاءَ اللهُ تعالى عَذَّبهُ، وَإن شَاءَ تعالى غَفَر له؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨،١١٦].

إِذَنْ: فَجزاءُ الله تعالى للمؤْمن من نَوْع الجَزَاء الفَضْليِّ، وأمَّا الظُّلْمُ فهو مُمْتَنِع في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يُمْكِن أن يَظْلِم أحدًا، فيَزِيدَ في سيِّئاتِه، أو يَنْقُصَ من حَسَناتِهِ.

• • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

العِبَادَةُ: هي التَّذلُّل لله عَزَّوَجَلَّ؛ محبَّةً وتعظيمًا، بامْتِثَال أمرِه، واجْتِنَاب نهيِه، والاسْتِعَانةُ: طلبُ العَوْن، والإنسانُ مُفتقر إلى الله عَزَّوَجَلَّ في العِبَادَة والاسْتِعَانة؛ أمَّا افتقارُهُ إِلَيْه في العِبَادَة فلأنَّ العِبَادَة هي مادَّة سعادتِه، وأمَّا الاسْتِعَانة فلأنَّ الله

إذا لم يُعِنْه وَكَلَهُ إِلى نفسه، فيَكِلُه إِلى ضعفٍ وعجزٍ وعَوْرة، ولا قِيام للإنسان إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ، ففي قَوْلِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إخلاصُ العِبَادَة لله عَزَّوَجَلَّ، ووجهُ ذلك: تقديمُ المَعْمُول: ﴿إِيَّاكَ﴾، ولو جاءَتْ على التَّرتيب لقال: «نعبُدُك»، فلمَّا قدَّم المعمُولَ دلَّ على الإخلاص، وتخصيصِ العِبَادَة بالله وَحْدَه؛ لأنَّ منَ القواعد المُقرَّرة في اللُّغة العربيَّة: أنَّ تقديمَ المعمُول يُفيد الحصر، أي: الاخْتِصَاص، فيكونُ قَوْلُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مُتضمِّنًا لمعنى قَوْلِ الإنسان: «لا إله إلَّا الله».

وفي قَوْلِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دليلٌ على اتِّباع شريعة الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّ العِبَادَة لا تتمُّ إلَّا بأمرين: الإخلاص لله، والمُوافقة لِشريعة الله، وذلك باتِّباع الرُّسُل، ولهذا نقول: لا إِشراكَ ولا ابْتِدَاعَ، فالْإِشراكُ يُنافي الإخلاص، والابْتِدَاعُ يُنافي الاتِّباع، فعبادتُنا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إخلاصٌ واتِّباعٌ، لا شِركٌ ولا ابْتِدَاعٌ.

وفي قَوْلِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دليلٌ على أنَّ العِبَادَة إذا أُشرك بها مع الله أحدٌ لم تكُن عِبادةً لله، ولا تُقبل من العابد، ويُؤيِّد ذلك: ما رواه أبو هُرَيْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1].

وفي قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليلٌ على إِفراد الله تعالى بالاسْتِعَانة، ووجهُه: تقديمُ المَعْمُول؛ لأنَّ تقديمَ المعمُول يُفيد -على ما تقتضيه اللُّغةُ العربيَّةُ- الحَصْرَ، أي: الاخْتِصَاص، فلا اسْتِعَانةَ للإنسان إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا يَسْتَطيعُ الإنسانُ أن يقُوم بشَيْءٍ إلَّا بمعُونة الله له.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب تحريم الرياء، رقم (٢٩٨٥).

وفي قَوْلِه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليلٌ على أَنَّهُ ينبغي للإنسان حالَ العِبَادَة أن يَسْتَحضرَ أَنَّهُ مُستعين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِتتيسَّر له العِبَادَة، ولتكُونَ عِبادةً؛ لكَوْنِها مُتَّبِعًا فيها الرَّسولَ ﷺ، مُخلصًا للهِ فيها، ولكَوْنِهِ مُسْتَعينًا بالله عليها.

ولهذا نقول: ينبغي للعابد أن يَسْتَحضرَ ثلاثة أشياء: الإخلاص، والمُتابعة، والاسْتِعَانة، فالإخلاصُ والاسْتِعَانةُ للهِ وحدَه، والمُتابعةُ لرسول الله ﷺ؛ ليُوصلَ إلى الله.

أمَّا الإخلاصُ للهِ فأنْ يقصدَ الإنسانُ بعبادته وجهَ الله والدَّارَ الآخرة، وأمَّا الاسْتِعَانةُ فأن يَشْعُر بأنَّ الله هو الَّذي أعانه على هذا، ويسَّر لَهُ أسباب القيام به، ولَوْلا أَنَّهُ أعانَهُ ما حصل، وأمَّا المُتابعة فأن يَسْتَحْضِرَ كأَنَّما الرَّسول ﷺ أمامَه، وهو خلفَه يقتدي به.

فهذِهِ ثلاثةُ أُمُور ينبغي للعابدِ أن يكون مُسْتَحضرًا لها؛ لِيكُونَ ذلك أَعْوَنَ له في إتمام العِبَادَة.

فوائدُ الآيةِ الكَرِيمَة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

١- أنَّ الإنسانَ دائرٌ بين أمرين: بين عِبادةٍ لله، واسْتِعَانةٍ لنفسِه، ولهذا قال اللهُ تعالى في الحديث القُدسيِّ عن هذه الآية: «**هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي**»[1]؛ فالعِبَادَةُ لله، والمعُونةُ للعبد.

٢- وفي هذه الآية دليلٌ على تخصيص الله بالاسْتِعَانة، أي: أنَّ الإنسان

(١) هو جزء من حديث سبق تخريجه (ص:٢٤).

لا يَسْتَعينُ اسْتِعَانةً مُطلقةً إلَّا بالله؛ لأنَّ الاسْتِعَانة المُقيَّدة جائزةٌ حتَّى بغَيْر الله فيما يقدر عليه المخلوقُ، ولهذا قال الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْها، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْها مَتَاعَهُ، صَدَقَةٌ**»[1]، فأثبت عَوْن الإنسان لأخيه، فالاسْتِعَانة بمَخْلُوقٍ فيما يقدر عليه لا بأسَ بها، ولا تُنافي العِبَادَةَ ولا الإخلاص، لكنَّها في الحقيقة استعانةٌ مُقيَّدة، وليست عامَّةً شاملةً، واسْتِعَانةٌ قاصرةٌ أيضًا؛ لأنَّها على عملٍ مُعَيَّنٍ يقدرُ عليه المُسْتَعانُ به.

وعلى هذا: فالاسْتِعَانةُ بأصحاب القُبُور على قضاء الحوائج مُحرَّمةٌ، بل هي من الشِّرك، وذلك لأنَّ أصحاب القُبُور لا يَسْتَطيعون أن يُعينوا أحدًا وهم أمواتٌ، فهم بأنفُسِهم لا يَسْتَطيعون أن يعملُوا لأنفُسِهم شيئًا، فكيف يعملون لغَيْرِهم؟! فإذا أردتَّ أن تسْتَعينَ في أمرٍ لا يقدرُ عليه إلَّا الله فلا تَسْتَعن إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ.

٣- وفي قَوْلِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليلٌ على أنَّهُ ينبغي للمُتكلِّم أن يأتِيَ بالأشياء الَّتي تُثيرُ فِطْنَةَ المُخَاطَب وتُنبِّهُه؛ وذلك لأنَّ الآياتِ الأُولى الثَّلاثَ كُلَّها في سِياق الغَيْبة، حَيْثُ قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ولكن في الآية الرَّابعة قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهذا الْتِفَات من الغَيْبة إلى الخطاب، والالْتِفَات -بلا شكٍّ- يُوجبُ اسْتِيقاظ المُخاطَب؛ لأنَّ الكلام إذا كان على نَسَقٍ واحدٍ انْسابَ الإنسانُ وغَفَلَ، ولم يحصُل له انْتِباهٌ، فإذا تغيَّر الأُسلُوب فإنَّ الذِّهن ينصدمُ بهذا التَّغيُّر، ثُمَّ ينتبهُ، فكأنَّه صَوْتُ مُنبِّه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، رقم (٢٨٩١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُنبِّه الإنسانَ على ما سيُخاطَبُ به، ولهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولم يقل: «إيَّاهُ نعبُدُ».

٤- وفي هذه الآية دليلٌ مبنيٌّ على الالْتِفَات الَّذي ذكرناه -وهو الانْتِقَالُ من الغَيْبة إلى الخطاب- ففيها دليل على أهمِّيَّة العِبادَة والاسْتِعَانة، وإخلاصِهما لله، كأنَّ هذا الَّذي أَثْنَيْتَ عليه فيما سبق من الآيات الثَّلاث -وهو الله عَزَّوَجَلَّ- كأنَّه لقُوَّة إيمانك به أمامك تُخاطبُه، ولا شكَّ أنَّ الإنسان إذا قَرَأَها في الصَّلاة فإنَّه يَسْتَقبلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، واللهُ تعالى يكون قِبَلَ وجهِه، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

ولكن ليُعلم أنَّ الله تعالى قِبَلَ وَجْهِه، وإن كان هو في السَّماء فَوْق العرش، ولا تناقُضَ في ذلك؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يُقاسُ بخَلْقِه؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

٥- وفي قَوْلِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليلٌ على اجْتِماع الأُمَّة؛ فإنَّه لم يقل: «إيَّاك أعبُدُ، وإيَّاك أسْتَعينُ»، وأنَّهُ ينبغي للأُمَّة أن تتَّفق وتجتمع على العِبادَة والاسْتِعَانةِ بالله عَزَّوَجَلَّ.

٦- وقد يُؤخذُ منها: إثباتُ عِلم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنَّ هذه السُّورة فُرِضَت قِراءتُها في جميع الصَّلوات، ومنها الصَّلاة الجَهريَّة الَّتي يجتمعُ فيها الإمامُ والمأمومُ، ولو جاءت بصيغة الإِفراد: «إيَّاكَ أعبُدُ، وإيَّاك أسْتَعينُ» لكان في ذلك إِخلالٌ بالنسبة للمأمُومين؛ لأنَّ الإمامَ سيكون -في هذه الحال- وَحْدَه هو الَّذي يَقُولُ: «إيَّاكَ أعبُد، وإيَّاكَ أسْتَعين»، فمن المعلوم أنَّ الَّذينَ وراءَه لم يَنَلْهُم نصيبٌ من هذا لو كانتِ الآيةُ بصيغة الإفراد، أمَّا إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنَّ المأموم يشعُرُ بأنَّه هو والإمام على حدٍّ سواءٍ في عِبادة الله تعالى، والاسْتِعَانةِ به.

٧- وفي الآية دليلٌ على أنَّ الإنسان ينبغي أن يستعين بالله في كلِّ شيء، حتَّى في الأُمُور الصَّغيرة، كالذَّهابِ والمجيء والأكل والشُّرب واللِّباس، فينبغي للإنسان أن يَسْتَعين بالله في كُلِّ شيء؛ حتَّى يكونَ بذلك مُدْرِكًا لحاجتِه، مُتعبِّدًا لربِّه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الاسْتِعَانة مِنَ العِبَادَة، وإذا اسْتَعان الإنسانُ بربِّه يسَّر لَهُ الأمر، وسَهَّلَهُ عليه؛ ولهذا يُؤْمَرُ الإنسانُ إذا حَلَفَ على شيء مُسْتَقبلٍ أن يقول: «إن شاءَ اللهُ»؛ حتَّى يشعُر باسْتِعَانتِه بربِّه، فإنَّه إذا قال: «إن شاءَ اللهُ» كان ذلك عَوْنًا على قضاء حاجتِه، وفي الصَّحيحَيْن في قِصَّة سُليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قال: «**لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ! فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَطَافَ عليهنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَايْمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ**»[1]، وهنا لم يقُل سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن شاءَ اللهُ؛ اعتمادًا على ما في قلبِه من العزيمة، فلم تَلِدْ إلَّا امرأةٌ واحدةٌ، جاءت بشقِّ إنسانٍ، لا إنسانٍ كامل، وذلك لِيتبيَّن له ولغَيْره أنَّ الأمرَ بيد الله، قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ**»[2].

•••

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ؟، رقم (٦٦٣٩)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤/ ٢٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان، رقم (٦٧٢٠)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤/ ٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾

هذه الآياتُ الثَّلاثُ كلُّها للإنسان، فسُورة الفاتحة سبعُ آياتٍ: ثلاثٌ منها للهِ خالصة، وثلاثٌ منها للإنسان خالصة، وآيةٌ وسطٌ بينهما، كما جاء في الحديث الصَّحيح: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1].

وقَوْلُه تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الهدايةُ بمعنى: الدَّلالةِ والتَّوْفيق، فإن كانت مُعَدَّاةً بـ: (إلى) فهي للدَّلالة، وإن كانت مُتَعَدِّيةً بنَفْسِها فهي للتَّوْفيقِ والدَّلالة، وهنا الهدايةُ مُتعدِّيةٌ بنفسِها، فيكونُ المُرادُ بها: الدَّلالة والتَّوْفيق، أي: أنَّ الله تعالى يرزُقُك علمًا تهْتَدي به إلى شَرِيعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويُوفِّقُك لهذه الشَّريعةِ حتَّى تقُومَ بها.

وقَوْلُه: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الصِّراطُ: هو الطَّريقُ الواسعُ، والمُسْتقيمُ: الَّذي

---

(١) سبق تخريجه (ص:٢٤).

ليس فيه اعْوِجَاجٌ، ولا ارْتِفَاعٌ، ولا انْحِدَارٌ.

فَوائِدُ وأَحْكَام:

١- في قَوْلِه تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ دليلٌ على أَنَّهُ ينبغي للإنسان أن يَدْعُوَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بهذا الدُّعاء: أن يَهديَه صِراطَه المُسْتَقيم.

٢- وفي قَوْلِه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أيضًا دليلٌ على أنَّ الإنسانَ مُفتقرٌ إِلى الله عَزَّوَجَلَّ في الهِدَايَة، ويتفرَّعُ عن ذلك: أَنَّهُ يجبُ على الإنسان أن يطردَ الإعجابَ بنَفْسِه، وأَلَّا يَقُولَ: «اهتديتُ لأَنَّني أَعْرِفُ الحقَّ، وهذا منِّي!» فيمُنُّ باهْتِدَائه على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد أنكر اللهُ عَزَّوَجَلَّ على الأَعْرَابِ الَّذينَ يمُنُّونَ على رسول الله ﷺ أن أَسْلَمُوا، فقال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧]، فالإنسانُ لو لم يَهدِه اللهُ لم يَهْتَدِ، قال اللهُ تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ [الكهف:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣].

فإن قال قائلٌ: إن قُلتُم هكذا فَتَحْتُمُ الأبوابَ للمُتهاونينَ والكُسالى الَّذينَ إذا دُعُوا إِلى الحقِّ قالُوا: الهدايةُ بيدِ الله، واحتجُّوا بذلك!

فالجوابُ أن نقُول: إنَّ الله تعالى لَمَّا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، وأرشدنا إِلى أن ندعُوَه هذا الدُّعاء، لم يُرِدْ منَّا أن نتوقَّف عن أسبابِ الهدايـة، بل نحـنُ نسألُ اللهَ الهِدَايَةَ، ونَسْعَى في أسبابِها، ولهذا قُلنا: إنَّ الهدايةَ هِدايةُ دَلَالةٍ وهدايةُ تَوْفيقٍ، فهِدايةُ الدَّلالة: الَّتي هي العلمُ، هل يُمكن أن تحصُل للإنسان بلا تعبٍ على تحصيله؟ لا، لو قال الإنسانُ: اللَّهُمَّ ارزُقني مالًا فهل معنى ذلك: أن يبقى في

بيته، ولا يتحرَّك؟! بل عليه أن يتحرَّك ويَسْعَى لأَسْبَابِ الرِّزق، كذلك الهدايةُ إذا سَأَلْتَ اللهَ إيَّاها فاسْعَ في أسبابِها، فلو سألتَ اللهَ تعالى أن يرزُقك أولادًا فهل تبقى لا تتزوَّج؟ لا، فلابُدَّ أن تتزوَّج حتَّى تُرزق بالأَوْلاد، فسُؤالُ الشَّيء مِنَ الله لا يَسْتَلزمُ أن يبقى الإنسانُ جامدًا لا يَتَحَرَّك، ولا يفعلُ الأسبابَ الَّتي تُوصل إلى هذا الشَّيء، إذن: فلا حُجَّةَ لهذا الَّذي يحتجُّ بهذه الآيةِ وأشباهِها على فِسْقِه وفُجُوره.

ثُمَّ إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا حَرَمَ الإنسانَ الهدايةَ فلِعْلِمِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ ليس أَهلًا لها؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥]، كما أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ جعَلَ الهُدى في قُلُوب أَهْلِ الهِدَايَة؛ لعِلْمِه أنَّهم أَهلٌ لذلك، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

٣- ومن الفوائدِ أَيْضًا الَّتي تُسْتَفادُ من الآيةِ الكريمة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: أنَّ فيها دليلًا على أنَّ دينَ الإسلامِ دِينٌ واسعٌ شاملٌ يَسَعُ لكُلِّ أحدٍ؛ لقَوْلِه: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، والصِّراطُ في اللُّغةِ العربيَّة: هو الطَّريقُ الواسعُ الَّذي يتَّسعُ لجميع السَّالكين.

٤- وفي الآية: دليلٌ على عُمُومِ الإسلامِ وشُمُولِه؛ لأَنَّهُ شاملٌ لكُلِّ ما يَتعَلَّقُ بالإنسانِ في معاشِهِ ومَعَادِه، ولهذا كان مُنظِّمًا للعبادِ فيما يَتعَلَّقُ بعبادةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفيما يَتَعَلَّقُ بالمُعاملةِ فيما بينهم.

وَيَتفَرَّعُ على هذه الفَائِدَةِ: الرَّدُّ على مَن زَعَمَ بأَنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ إنَّما يُنظِّمُ العملَ فيما يَتَعَلَّقُ بين العبدِ وربِّه، ويَرَى أنَّ أُمُورَ الدُّنيا لا علاقةَ لَها بدينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهذا خطأٌ عظيمٌ؛ فإنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ نظَّمَ كُلَّ شيء، وعلَّمَ النَّبيُّ ﷺ أُمَّتَهُ كُلَّ شيء

تحتاجُ إِلَيْه، قال أَبُو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تُوُفِّيَ رسُولُ اللهِ ﷺ، وما طائرٌ يُقلِّبُ جناحَيْهِ في السَّماءِ إِلَّا ذَكَرَ لنا منه عِلمًا[١].

ويدُلُّ على شُمُولِ الشَّرعِ ودِينِ الإسلامِ لِكُلِّ شَيْءٍ: أَنَّ أطولَ آيةٍ في كِتابِ اللهِ آيةُ الدَّيْن، وكُلُّها تَتعَلَّقُ بمُعاملةِ الخَلْقِ بعضِهم مع بعضٍ، فالدِّينُ الإسلاميُّ كما نظَّمَ المُعاملةَ بين العبدِ وربِّهِ نظَّمَ المُعاملةَ بين العبدِ وغَيْرِهِ من عِبادِ الله، بل نظَّمَ علاقةَ الإنسانِ بينه وبين البَهيمِ غَيْرِ النَّاطق، فقد ثَبَتَ في الحديثِ الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِـرَّةٍ رَبَطَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**»[٢]، وثَبَتَ عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قال: «**إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا[٣] رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ[٤]، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ[٥] مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا، فَغُفِرَ لَهَا**»[٦]، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَفَرَ لهذه المرأةِ رغمَ أنَّها بغيٌّ زانيةٌ، وهذا يدُلُّ على أنَّ الإسلامَ لَهُ تنظيمٌ في كُلِّ ما يَتعَلَّقُ بالعبد.

فإن قال قائلٌ: أليس النَّبيُّ ﷺ حين قَدِمَ المدينةَ، ورآهم يُؤبِّرُونَ النَّخْلَ -أي:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٣)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٤٨٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أي: زانية.

(٤) يطيف ببئر: يدور حولها.

(٥) أدلع لسانه: أخرجه؛ لشدة العطش.

(٦) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٤٦٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُلقِّحُونَها بوضع طَلْعِ الفُحَّالِ في ثمرِ النَّخل- قال: «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا»، فتَرَكُوهُ، فنَفَضتْ أو فنَقَصت، قال: فذَكَرُوا ذلك لَهُ، فقال: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»[1]، وهذا يدُلُّ على أنَّ أمرَ الدُّنيا مُفوَّضٌ للعباد!

والجوابُ عن ذلك: أنَّ هذا الَّذي أشارَ إليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَتعَلَّقُ بالأحكامِ، وإنَّما يَتعَلَّقُ بالصَّنائعِ والحِرَف، ومعلُومٌ أنَّ الإنسانَ بحِرْفَتِهِ قد يكُونُ أعلمَ من عالِمٍ بشرعِ اللهِ وأدرى بها، فالنَّجَّارُ -مثلًا- يعرفُ كيف يصُرِّفُ الخشبةَ حتَّى يجعلَ مِنها بابًا، والصَّانعُ يعرفُ كيف يصنعُ الحديد، فيجعلُهُ طائراتٍ وسيَّاراتٍ، أكثرَ ممَّا يعلمُهُ العالمُ الشَّرعيُّ في هذا، هذا هو الَّذي أرادَهُ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم-.

٥- وفي قَوْلِه: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ دليلٌ على أنَّ هناك صِراطًا غَيْرَ مُسْتَقيمٍ، وهو كذلك، بل هناك سُبُلٌ كثيرةٌ غَيْرُ مُسْتَقيمةٍ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فهناك طُرُقٌ كثيرةٌ للباطلِ مُتنوِّعةٌ من أفعالٍ وأقوالٍ وانْتِهاكاتٍ وتُرُوكٍ، وأمَّا الحقُّ فهو طريقٌ واحدٌ، يُوصِلُ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلى دارِ كَرامتِه.

٦- وفي قَوْلِه: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ دليلٌ على أنَّ دِينَ الإسلامِ كاملٌ لا اعْوِجَاجَ فيهِ ولا انْحِرَاف، وأنَّ مَن ظنَّ أنَّ فيه قُصُورًا فهو القاصرُ، ولا أَحَدَ يظُنُّ أنَّ في دِينِ الإسلامِ قُصُورًا إلَّا أن يكُونَ قاصرًا في فَهمِه، أو قليلًا في عِلْمِه، أو سيِّئًا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي، أرقام (٢٣٦١) (٢٣٦٢) (٢٣٦٣) من حديث طلحة ورافع وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

في قصدِه، أمَّا حَسَنُ النِّيَّةِ الَّذي آتاهُ اللهُ عِلمًا وفَهمًا فإنَّهُ يدري ويعلمُ عِلْمَ اليقينِ أنَّ دِينَ الإسلامِ ليس فيهِ قُصُورٌ، بل هو مُسْتَقيمٌ لا اعْوِجَاجَ فيه، وأنَّ النَّاسَ لو طبَّقُوهُ لكانُوا على الاسْتِقَامةِ والسَّدادِ والصَّواب، ولَـمَا ضاقتْ عليهم السُّبُلُ، ولكنْ قاصرُ الفَهمِ أو ناقصُ العلمِ أو سيِّئُ القصدَ هو الَّذي يظُنُّ أنَّ في الإسلامِ قُصُورًا، فيذهبُ يأتي بالقُشُورِ من هنا وهناك؛ لِيُطبِّقَها في بِلادِ الإسلام.

٧- وفي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ اَهْدِنَا اَلصِّرَاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ﴾ دليلٌ على كَمَالِ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكَمَالِ رحمتِه؛ حَيْثُ جَعَلَ الصِّراطَ المُوصِلَ إليه صِراطًا مُسْتَقيمًا لا مَتاهةَ فيه ولا ضلال.

ونحن نعلمُ أنَّ الصِّراطَ المُسْتَقيمَ يُوصلُ إلى المقصُودِ بسُرعةٍ، بخِلَافِ الطَّريقِ المُعْوَجِّ الَّذي ينحرفُ بالإنسانِ يمينًا وشِمَالًا، فإنَّهُ على تقديرِ إيصالِهِ إلى المطلُوبِ يكُونُ شاقًّا وبعيدًا؛ بسببِ التَّعرُّجاتِ أو الطُّلُوعِ أو النُّزُول، بل هذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ.

٨- وفي الآيَةِ الكَرِيمَةِ: دليلٌ على أنَّهُ لا هاديَ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فهو الَّذي يُلْجَأُ إليه في طلبِ الهدايةِ، لا إلى غَيْرِه.

فإن قَال قائلٌ: أليس قد قال اللهُ تعالى عن نبيِّهِ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]؟

فالجوابُ: بلى، قد قال اللهُ ذلك، وهو حقٌّ، لكن الهداية إلى الصِّراطِ المُسْتَقيمِ الَّتي أثبتَها اللهُ لرسُولِهِ هي هِدايةُ الدَّلالة، وكُلُّ إنسانٍ عنده عِلْمٌ بالشَّرعِ فإنَّهُ يَهدي النَّاسَ بهذا العلمِ إلى الشَّرع، فالدَّلالةُ على الخَيْرِ ليست هي التَّوفيقَ إلى

الخَيْر، أَمَّا الهدايةُ التَّامَّةُ الَّتي فيها الدَّلالةُ والتَّوْفيقُ فهي للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال اللهُ تعالى لنبيِّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾﴾ هُمُ الَّذينَ أتمَّ اللهُ عليهم النِّعمةَ بتَوْفيقِهم لشَريعتِه، وهم أربعةُ أصنافٍ، ذَكَرَهم اللهُ في قَوْلِه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:٦٩-٧٠].

وقَوْلُه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني: صِراطَ غَيْرِ المغضُوبِ عليهم، والمغضُوبُ عليهم: هم الَّذينَ عَلِمُوا الحقَّ واسْتكبرُوا عن اتِّباعِه، والضَّالُّون: الَّذينَ جَهلُوا الحقَّ، فأخطؤُوا في العمل، وأوَّلُ مَن يدخُلُ في المغضُوبِ عليهم: اليَهُودُ، وأوَّلُ مَن يدخُلُ في الضَّالِّين: هم النَّصارى.

فَوائِدُ وأَحْكَامُ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

١- وفي الآيةِ الكريمة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دليلٌ على أنَّ النَّاسَ انقسمُوا إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قِسمٌ أَنْعَمَ اللهُ عليهم، فهُدُوا إلى الحقِّ عِلمًا وعملًا، وقِسْمٌ غَضِبَ اللهُ عليهم، فهُدُوا إلى الحقِّ عِلمًا، لكن لم يُوَفَّقُوا للعملِ به، بل اسْتكبرُوا عنه، وهم المغضُوب عليهم، وقِسْمٌ ثالثٌ لم يُهْدَوا إلى الحقِّ لا عِلمًا ولا عملًا، فتَعبَّدُوا اللهَ تعالى عن جهلٍ، فضَلُّوا، وهم الضَّالُّون، فمن المغضُوبِ عليهم: اليَهودُ، ومن الضَّالِّين: النَّصارى.

٢- وفي قَوْلِه تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ دليلٌ على أَنَّهُ ينبغي أن نبحثَ عن سِيرةِ هَؤُلَاءِ الَّذينَ أنعمَ اللهُ عليهم: مَن هم؟ وكيف كانت حالُهم؟ حتَّى نَهتديَ بطَرِيقَتِهم.

ويتفرَّعُ على ذلك: الحثُّ على معرفةِ سِيرةِ النَّبيِّ ﷺ؛ لأَنَّهُ خَيْرُ مَن أَنْعَمَ اللهُ عليه.

وبِهذه المُناسبةِ فإنَّني أَحُثُّ إِخواني المُسلمينَ على قِراءةِ السِّيرةِ النَّبويَّةِ من الكُتُبِ المَوْثُوقِ بها، مِثل: (البدايةِ والنِّهايةِ) لابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإِنَّهُ كِتابٌ جيِّدٌ جِدًّا في بابِه.

٣- وفي قَوْلِه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ نِعمةَ الدِّينِ أكبرُ من نِعمةِ الدُّنيا، فإنَّ في المغضُوبِ عليهم والضَّالِّينَ مَن أَنْعَمَ اللهُ عليه نِعَمًا عظيمةً في الدُّنيا، لكن هذه النِّعم ليست بشيء بالإضافةِ إلى نِعَمِ الدِّين، ولهذا قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولمَّا دَخَلَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على النَّبيِّ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ، فوَجَدَهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد تأَثَّرَ جَنْبُهُ من الاضْطِجَاعِ على سريرِ اللِّيفِ الَّذي عنده بكى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ؟**» قال: أنتَ نبيُّ الله، وكِسْرَى وقَيْصرُ على أَسِرَّةِ الذَّهبِ! قال: «**يَا عُمَرُ! أَمَا تَرْضَى أَنَّ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَلَنَا الْآخِرَةَ؟**»[1].

وعلى هذا نقُولُ: إِنَّ النِّعمةَ الحقيقيَّةَ الكبيرةَ العظيمةَ هي نِعمةُ الله تعالى على عِبادِه بدينِه، ولا يخفى على الجميعِ أَنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾، رقم (٤٩١٣)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، رقم (١٤٧٩) من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فجَعَلَ إِكمالَ الدِّينِ من تَمامِ النِّعمة، وهو كذلك.

٤- وفي قَوْلِه تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن سَلَكَ هذا الصِّراطَ فهو في نِعمةٍ، في سُرُورٍ، في انْشِرَاحٍ، ويدُلُّ لذلك قَوْلُه تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، فمَن كان من هَؤُلَاءِ كان في نِعمةٍ وإن كان في ضِيقٍ من العَيْشِ باعْتِبَارِ نعمة الجسد؛ لأنَّ النِّعمةَ بالدِّينِ تقتضي أن يكُونَ الإنسانُ دائمًا مُنشرحَ الصَّدر، مُطمئنَّ القلب، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، ولَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[1]، وقال بعضُ السَّلف: لو يعلمُ المُلُوكُ وأبناءُ المُلُوك ما نحنُ فيه لجالدُونا عليه بالسُّيُوف.

٥- وفي قَوْلِه: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أَسْنَدَ النِّعمةَ لله وَحْدَه، وقال في الآخرين: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، فأَتَى بالغضبِ على وَجْهِ الإبهامِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَهُ المنَّةُ الكُبرى على هَؤُلَاءِ الَّذينَ أنعمَ اللهُ عليهم، وأَنَّهُ لا مِنَّةَ لأحدٍ عليهم بما أعطاهم اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويتفرَّعُ على ذلك: أن يحمدَ الإنسانُ ربَّهُ على كُلِّ عملٍ صالحٍ يفعلُهُ؛ لأنَّ ذلك بمعُونةِ الله وبنعمتِه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- وفي قَوْلِ الله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دليلٌ على عِظَمِ ذَنْبِ مَن أُوتيَ العلمَ، ولم يعمل به؛ لأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الغضبَ؛ حَيْثُ إِنَّ اللهَ تعالى أنعمَ عليه بوُجُودِ السَّببِ الَّذي به يهتدي، ولكنَّهُ استنكفَ واسْتكبر.

٧- وفي هذِه الآيةِ أَيْضًا: دليلٌ على أَنَّهُ ينبغي لنا أن نعرفَ سِيرةَ هَؤُلَاءِ المغضُوبِ عليهم، ولماذا غَضِبَ اللهُ عليهم؟ وبماذا أَخَذَهم؟ كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

٨- وفي قَوْلِه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دليلٌ على أَنَّهُ يجبُ على المُسلمِ الَّذي هداهُ اللهُ إلى الصِّراطِ المُسْتَقيمِ أن يَتبَرَّأَ من طريقةِ هَؤُلَاء، فكما سَأَلَ اللهَ أن يعصمَهُ من طريقِهم فلْيَتبرَّأ منهم، وليُبْعِدْ عنهم، وليَتَجَنَّب ما هم عليه من الضَّلال، بل إنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1]، فيجبُ علينا أن نَتَجَنَّبَ ما يختصُّونَ به حتَّى في غَيْرِ العبادات، وذلك لأَنَّنا إذا تَشَبَّهنا بهم في غَيْرِ العِبَادَات، وفَعَلْنا ما هو من خَصَائِصِهم فإنَّ هذا يجُرُّنا إلى أن نَتَشَبَّهَ بهم في العِبَادات، ولهذا قال العُلماءُ: إنَّ التَّشبُّهَ بهم في الظَّاهرِ يجُرُّ إلى التَّشبُّه بهم في الباطن، فيَهلكُ الإنسانُ كما هَلَكُوا.

٩- وفي قَوْلِه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دليلٌ على أَنَّهُ يجبُ علَيْنا مُعاداةُ هَؤُلَاء، وبُغْضُهُم، وعدمُ مُناصرتِهم، سواءٌ نَاصَرْنا بَعْضَهم على بعضٍ، أو نَاصَرْناهم على أحدٍ من المُسلمين، فكُلُّ ذلك حرامٌ، لكن الثَّاني أشدُّ وأعظمُ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)، وأحمد (٢/ ٥٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أَمَّا محبَّتُنا أن ينتصرَ بعضُهم على بعضٍ فإنَّ هذا لا بأسَ به، إذا كان هذا المُنتصِرُ أهونَ على المُسلمينَ وعلى الإسلامِ من الآخر، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم:١-٥]، يعني: بنَصْرِ اللهِ الرُّومَ على الفُرس، ومن المعلوم أنَّهم لم يفرحُوا بذلك إِلَّا لأنَّهم يُحبُّونَهُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يفرحُ بشيء إِلَّا وهو محبُوبٌ إليه، فلا حَرَجَ علَيْنا إذا أحبَبْنا أن ينتصرَ بعضُ الكُفَّارِ على بعضٍ؛ لكَوْنِهم أهونَ من الآخرين، وأقلَّ خطرًا على الإسلامِ والمُسلمين، لكنَّ الجميعَ يجبُ علَيْنا أن نتبَرَّأَ منهم، وأن نُعاديَهم، وألَّا يكُونَ بيننا وبينهم وَلَاءٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال:٧٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ قال اللهُ تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٥١-٥٢].

١٠- وفي قَوْلِه: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دليلٌ على أنَّ كِلتا الطَّريقتَيْنِ سيِّئةٌ، يجبُ البُعْدُ عنها، والتَّنزُّهُ منها؛ لا الاسْتِكبارَ على الحقِّ مع العلمِ به، ولا الجَهلَ بالحقِّ.

ويتفرَّعُ على هذِه الفَائِدَة: أنَّهُ ينبغي للإنسانِ أن يَتعَلَّم؛ حتَّى لا يكُونَ من الضَّالِّين، وأن يَتعَبَّدَ حتَّى لا يكُونَ من المغضُوبِ عليهم.

وطلبُ العلمِ قد يكُونُ فرضًا على الأعيان، وقد يكُونُ فرضًا على الكفاية، وقد يكُونُ مُسْتَحبًّا، فهو فرضٌ على الأعيانِ في كُلِّ ما يَتَوَقَّفُ عليه العلمُ بالعِبَادَةِ الَّتي يَتَعَبَّدُ بها الإنسانُ، فالطُّهُور والصَّلاةُ يجبُ على الإنسانِ أن يَتَعَلَّمَ منهما ما يحصُلُ به الواجبُ، وكذلك الأمرُ في الصِّيام، وكذلك في الحجِّ، وكذلك في الزَّكاة.

وأمَّا فرضُ الكفايةِ فهو ما لا يَتَعَيَّنُ على الإنسانِ العملُ به، فتَعَلُّمُهُ فرضُ كِفايةٍ، إذا قامَ به مَن يكفي سَقَطَ عن الباقين.

وأمَّا القسمُ الثَّالثُ -وهو السُّنَّةُ- فهو ما يكُونُ فرضَ كِفايةٍ، إذا قامَ به مَن يَكْفِي فإنَّهُ يكُونُ سُنَّةً في حقِّ الباقين.

وإنِّي -بِهذه المُناسبةِ- أحُثُّ إخواني -ولاسيَّما الشَّباب منهم- على أن يَحْرِصُوا على العلمِ الشَّرعيِّ؛ لأنَّ النَّاسَ الآنَ في حاجةٍ ماسَّةٍ- بل في ضرُورةٍ- إليه؛ لكثرةِ الجَهْلِ البسيطِ والجَهْلِ المُركَّب؛ لأنَّ كثيرًا من النَّاسِ لا عِلْمَ عندهم، وكثيرًا من النَّاسِ عندهم عِلمٌ، ولكنْ ليس عندهم فَهْمٌ.

وإنِّي أضربُ مَثَلًا لذلك بما سمعتُهُ من أنَّ بعضَ النَّاسِ قال: الأفضلُ للإنسانِ إذا كان عنده ماءان في أيَّامِ الشِّتاء: ماءٌ دافئٌ، وماءٌ باردٌ، الأفضلُ أن يَتَوَضَّأَ بالماءِ البارد، وكُلَّما كان أبردَ كان أفضل، يقُولُ ذلك؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أَخْبَرَ بأنَّ مِمَّا يرفعُ اللهُ به الدَّرجات، ويُكفِّرُ به الخطايا: إِسباغَ الوُضُوءِ على المكارِه[1]، قال: فينبغي أن يختارَ الأبرد؛ لأنَّهُ أكرَهُ إلى الإنسان، وهذا جَهْلٌ عظيمٌ، وفَهْمٌ قاصرٌ، والرَّسُول

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَقُل: إِسباغُ الوُضُوءِ بالماءِ البارد، لكن قال: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ**»، يعني: أنَّ الإنسانَ لا يمنعُهُ كراهةُ اسْتِعمالِ الماءِ عن إِسباغِ الوُضُوءِ، بل يُسبغُ الوُضُوءَ مع كراهةِ اسْتِعمالِ الماءِ؛ لشدَّةِ بُرُودتِه، ولا يُريدُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أُمَّتِه أن يَعْدِلَ الإنسانُ عن الماءِ الدَّافِئِ المُناسبِ لطبيعتِه إلى الماءِ الباردِ الَّذي قد يُفوِّتُهُ الإسباغَ، والمَعْرُوفُ من قاعدةِ الشَّريعةِ العظيمة: أنَّ كُلَّ ما كان أَيْسَرَ فهو أفضلُ وأَوْلى، قال اللهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال رسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**»[1]، وكان رسُولُ الله ﷺ يبعثُ أصحابَهُ، ويقُولُ: «**يَسِّرُوا ولَا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا ولَا تُنَفِّرُوا**»[2]، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُخَيَّرُ بين شَيْئَيْنِ إِلَّا اختارَ أَيْسرَهما ما لم يكُنْ إِثمًا[3]، ولا شكَّ أنَّ الأَيْسرَ للإنسانِ -إذا كان عنده ماءٌ دافئٌ وماءٌ باردٌ- أن يَتَوَضَّأَ بالماءِ السَّاخن، ووُضُوؤُهُ بالماءِ السَّاخنِ ليس إِثمًا، إِذن: فالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لو خُيِّرَ بين هذا وهذا لاختارَ الدَّافئ، وعلى هذا يكُونُ القَوْلُ بأن يختارَ الماءَ الباردَ قَوْلًا بلا عِلمٍ، وإن شِئتَ فقُل: قَوْلًا بلا فَهْمٍ.

لذا فإنَّني أَحُثُّ إِخواني -ولاسيَّما الشَّبابُ- على العِلْمِ، والفَهْمِ، والتَّأنِّي في الأُمُور، وعدمِ التَّسرُّعِ في الحُكمِ على الشَّيْءِ؛ حتَّى يُتقنُوا ذلك إِتقانًا بيِّنًا؛ لأنَّ المقامَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاف، رقم (٣٠٣٨)، ومسلم: كتاب الجهاد، باب في الأمر بالتيسير، رقم (١٧٣٢) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٦٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام، رقم (٢٣٢٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

خطيرٌ، والكلمةُ الخطأُ قد يَصْعُبُ انْتِشَالُ النَّاسِ منها فيما بَعْدُ.

١١- وفي قَوْلِه تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن عَلِمَ الحقَّ ولم يتَّبعهُ أسوأُ حالًا مِمَّنْ جَهِلَهُ؛ لأنَّ الأوَّلَ جُعِلَتْ عُقُوبتُهُ الغَضَبَ؛ حَيْثُ قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وَيَتَفَرَّعُ على هذا: التَّحذيرُ من عدمِ عَمَلِ العالِمِ بما عَلِمَ؛ لأنَّ العالِمَ إذا عَلِمَ قامت عليه الحُجَّةُ، وليس المُرادُ هنا بالعالِمِ: مَن كان عِلْمُهُ واسعًا، بل المُراد: كُلُّ مَن عَلِمَ بمسألةٍ من مسائل الدِّينِ فهو عالِمٌ بها، حتَّى وإن كان وَصْفُهُ عامِّيًّا، فكُلُّ مَن عَلِمَ حُكمًا من أحكام الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّ عليه أن يُطبِّقَهُ، وإن لم يفعل كان مُسْتَحقًّا لغضبِ الله عَزَّوَجَلَّ غضبًا بحسب ما خالفَ به أَمْرَ الله.

واللهُ تعالى قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقُل: «غَيْرِ مَن غَضِبْتَ عليهم»، كما قال في القسم الأوَّل: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا دليلٌ على أنَّ مَن غَضِبَ اللهُ عليه فإنَّهُ يغضبُ عليه كُلُّ وليٍّ لله.

وَيَتَفَرَّعُ على ذلك: أَنَّهُ يجِبُ علَيْنا- نحنُ المُسلمين- أن نغضبَ على كُلِّ من غَضِبَ اللهُ عليه، وأن نعلمَ بأنَّ كُلَّ مَن كان حَرْبًا لله فهو حَرْبٌ لنا، وأنَّ كُلَّ مَن كان عدُوًّا لله فهو عَدُوٌّ لنا، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨].

١٢- وفي قَوْلِه تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على مَهانةِ هَؤُلَاءِ، وخسَّتِهم، ودُنُوِّهم، ولهذا ذُكِرُوا باسْمِ المفعُول، ولم يُعْطَوا حقَّ اسْمِ الفاعل؛ لأنَّهم مغضُوبٌ عليهم، مُهانُون، مَطْرُودُون، مُبْغَضُون.

١٣- وفي قَوْلِه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على إثباتِ الغضبِ لله عَزَّوَجَلَّ، وهو من صِفاتِه الثَّابتةِ لَهُ في كِتابِه، وأجمعَ عليها السَّلفُ، قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

والغضبُ صِفةٌ من صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، تدُلُّ على كمالِ سُلطانِه وقُدرتِه، وتستَلزمُ عُقُوبةَ المغضُوبِ عليهم، قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥]، ولا يصحُّ تفسيرُ الغضبِ بالانْتِقام ولا بإرادةِ الانْتِقام؛ لأنَّ الغضبَ شيءٌ ينشأُ عنه إرادةُ الانْتِقام، ثُمَّ الانْتِقامُ، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبُونا، ثُمَّ قال: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:٥٥].

١٤- وفي قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الضَّلالَ صِفةٌ ممقُوتةٌ؛ لأنَّ المُؤمنَ يسأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يعصمَهُ من طريقِ الضَّالِّين، فيَتفرَّعُ على ذلك: أنَّ العِلْمَ صِفةُ كمالٍ، وهو كذلك، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩]، ولكن ما هو العلمُ الَّذي يَسْتَحقُّ المرءُ الثَّناءَ عليه به؟

الجواب: إنَّ العِلمَ الَّذي يَسْتَحقُّ المرءُ الثَّناءَ عليه به هو العِلمُ بشريعةِ الله، والعِلمُ بأسماءِ الله وصفاتِه، والعِلمُ بأفعالِ الله؛ لأنَّ ذلك هو الَّذي يُحقِّقُ العِبادَةَ الَّتي خُلِقَ من أجلِها الإنسُ والجنُّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وأمَّا العِلمُ بالصِّناعةِ والأُمُورِ السُّفليَّةِ الأرضيَّةِ فهذا لا يُحْمَدُ ولا يُذمُّ على الإطلاق، بل إن أدَّى إلى خَيْرٍ ونفعٍ كان محمُودًا، وإن أدَّى إلى شرٍّ وضررٍ كان مذمُومًا، وإن لم يُؤدِّ إلى هذا ولا إلى هذا كان لا هذا ولا هذا، لا يُحْمَد ولا يُذَم، إلَّا أن يفُوتَ به ما هو أنفعُ وأصلحُ، فإنَّهُ قد يُذَمُّ على ذلك.

١٥- وفي قَوْلِه: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دُونَ أن يُعلِّقَ الغضبَ على ضلالِهم دليلٌ على أنَّ الضَّالَّ لا يَسْتَحقُّ العُقُوبة، أي: أنَّ الإنسانَ إذا كان جاهلًا بالشَّيْءِ لا يَسْتَحقُّ العُقُوبةَ عليه، وهو كذلك؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، لكن إن كان مُفرِّطًا بتركِ التَّعلُّمِ فقد يُؤاخَذُ على تَفْرِيطِه، لا على جَهْلِه؛ لأنَّ الإنسانَ يجبُ عليه أن يَتعَلَّمَ من أحكامِ دِينِه ما يحتاجُ إليه.

وقد اختلف العُلماءُ -رَحمهم اللهُ تعَالَى- في الرَّجُلِ يتركُ المأمُورَ جهلًا به: هل يُؤْمَرُ بقضائِه، أو لا يُؤْمَرُ بقضائِه؟ فمنهم مَن قال: إنَّهُ يُؤْمَرُ بالقضاء؛ لأنَّ الواجبَ لا يسقُطُ بالجهل، ومنهم مَن قال: إنَّهُ لا يُؤْمَرُ بالقضاء؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يأمُرِ المُسيءَ في صلاتِه بقضاءِ ما كان قد فَعَلَهُ من قبلُ، وكان هذا الرَّجُلُ يُصلِّي ولا يطمئنُّ، فجاءَ ذاتَ يَوْمٍ، فصلَّى، والنَّبيُّ ﷺ ينظُرُ إليه، فلمَّا سلَّمَ على النَّبيِّ ﷺ قال لَهُ: «ارجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فرجَع، فصلَّى كما صلَّى، ثُمَّ جاء، فسلَّمَ على النَّبيِّ ﷺ، فقال: «ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ثلاثًا، فقال: والَّذي بعثكَ بالحقِّ! ما أُحسنُ غَيْرَهُ، فعلِّمني، فقال: «إِذَا قُمْتَ إِلى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وافْعَلْ ذَلِكَ فِي

صَلَاتِكَ كُلِّهَا»[١]، فلم يَأْمُـرهُ النَّبيُّ ﷺ بإعادةِ ما سَبَـقَ من الصَّـلاة، مع أنَّـهُ كان لا يُصلِّي على وَجْهٍ مُجْزٍ.

وكذلك المرأةُ المُسْتَحاضةُ الَّتي كانت تُسْتَحاضُ، فلا تطهُرُ، وتَدَعُ الصَّلاةَ في وقتِ الاسْتِحَاضةِ مع وُجُوبِها عليها، ولم يأمُرها النَّبيُّ ﷺ بإعادةِ الصَّلاة، قالُوا: فهذا دليلٌ على أنَّ الجاهلَ لا يُؤْمَرُ بقضاءِ ما تَرَكَهُ جَهلًا.

ومن الأدلَّةِ على هذا: حديثُ عمَّارِ بنِ ياسرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بَعَثَني رسُولُ الله ﷺ في حاجةٍ، فأَجْنَبْتُ[٢]، فلم أَجِدِ الماء، فتَمَرَّغتُ في الصَّعيدِ كما تَمَرَّغُ الدَّابَّةُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ، فذَكَرتُ ذلك لَهُ، فقال: «**إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيَدِكَ هَكَذَا**»، ثُمَّ ضَرَبَ بيدَيْه الأرضَ ضربةً واحدةً، ثُمَّ مَسَحَ الشِّمالَ على اليمينِ وظاهرَ كفَّيْه ووَجْهَهُ[٣]، فلم يأمُرهُ النَّبيُّ ﷺ بقضاءِ ما صلَّاهُ بذلك التَّيمُّمِ الَّذي لم يكُنْ على وفق الشَّرع.

وهذا القَوْلُ -بلا شكٍّ- مُوافقٌ لعُمُومِ قاعدةِ الشَّريعة، وهي: اليُسْرُ وعدمُ العُسْرِ؛ لأنَّ الإنسانَ لو أخلَّ بواجبٍ لسنواتٍ كثيرةٍ، ثُمَّ قُلنا: إِنَّهُ يجبُ عليك قضاءُ ما فاتَ لكان في هذا صُعُوبةٌ، ورُبَّما يكُونُ فيه تنفيرٌ، ورُبَّما يَكْرَهُ أن يقُومَ بالعِبَادَة؛ من أجلِ هذه المشقَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أي: أصابته جنابة.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب المتيمم هل ينفخ فيهما؟، رقم (٣٣٨)، ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

نعم، لو فُرِضَ أنَّ الإنسانَ بَلَغَهُ شيء من العلم، ولكنَّهُ تهاونَ وسكت، وقال كما يقُولُ البطَّالُون: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١]، فهذا قد نُلزِمُهُ بقَضَاءِ ما فات؛ من أجلِ تَفريطِه وتهاوُنِه في الأمر، ولكُلِّ مقامٍ مقالٌ.

والَّذي ينبغي في هذه المسألة: ألَّا يُفْتَى فيها بوَجْهٍ عامٍّ لكُلِّ النَّاس، بل تكُونُ الفتوى فيها حَسَبَ حالِ كُلِّ قضيَّةٍ بعَيْنِها، وبإمكانِ الإنسانِ أن يعرفَ مَن المُفرِّطُ من غَيْرِه.

١٦- وفي هذه السُّورةِ العظيمةِ الَّتي سمَّاها الرَّسُول ﷺ: «**أُمَّ الكتاب**»[1]، و«**أُمَّ القُرآن**»[2] دليلٌ على مضمُونِ ما جاء به القُرآنُ، فهي أُمٌّ وفاتحةٌ؛ لأنَّها تشتملُ على أنواعِ التَّوْحيد، وتشتملُ على الإشارةِ إلى الشَّرائع، وتشتملُ على الإشارةِ إلى الرُّسُلِ والملائكة، وعلى اليَوْمِ الآخر، وعلى أقسامِ النَّاس، فكُلُّ معاني القُرآنِ تَتَضَمَّنُها هذه السُّورةُ بالإشارة، والدَّلالةِ التَّضمُّنيَّة، والالتزاميَّة.

ففيها من تَوْحيدِ الأُلُوهيَّة: قَوْلُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فإنَّ اللهَ هو ذُو الأُلُوهيَّةِ على خَلْقِه أجمعين.

وفيها من تَوْحيدِ الرُّبُوبيَّة: قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والرُّبُوبيَّةُ تكُونُ عامَّةً، وتكُونُ خاصَّةً، وقد اجتمعَ النَّوْعانِ في قَوْلِه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب فاتحة الكتاب، رقم (١٤٥٧)، والترمذي: كتاب التفسير، باب سورة الحجر، رقم (٣١٢٤)، وأحمد (٢/ ٤٤٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾، رقم (٤٧٠٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة، رقم (٣٩٤/ ٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فرُبُوبيَّةُ اللهُ تعالى لُموسى وهارُونَ وأمثالِهما من الرُّسُلِ ليست كرُبُوبيَّتِه لِفِرْعَوْنَ وهامانَ وقارُون؛ لأنَّ رُبُوبيَّتَهُ لُموسى وهارُونَ وأمثالِهما من الرُّسُلِ رُبُوبيَّةٌ خاصَّةٌ، بها عِنايةٌ وتَوْفيقٌ لأمرٍ لم يُوفَّقْ لَهُ أكثرُ الخَلْقِ.

أمَّا الأسماءُ والصِّفاتُ ففيها -أي: ففي السُّورة- الأُلُوهيَّةُ، والرَّحمةُ، والوصفُ بالحمد، والثَّناءُ، كُلُّ هذا من أجلِ كمالِ صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ.

أمَّا اليَوْمُ الآخرُ ففي قَوْلِه: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

وأمَّا العِبادَةُ والاسْتِعَانةُ ففي قَوْلِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وهي تشملُ جميعَ الشَّريعة؛ لأنَّ الشَّريعة أقوالٌ وأفعالٌ واعْتِقَاداتٌ، إمَّا شيء يُطلبُ إيجادُهُ، وإمَّا شيء يُطلبُ اجْتِنَابُهُ، وكُلُّها داخلةٌ في ضِمنِ قَوْلِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؛ إِذْ لا يُمكنُ للإنسانِ أن يَدَعَ شَيْئًا إِلَّا بمعُونةِ الله، ولا يقُومَ بشيء إِلَّا بمعُونةِ الله.

وأمَّا الإيمانُ بالملائكةِ فإنَّهُ يُؤخذُ من قَوْلِه: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عليهم هم الرُّسُلُ، والواسطةُ بين الله ورُسُلِه هو جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأَنَّهُ مُوكَّلٌ بالوحي، ثُمَّ إنَّ صِراطَ هَؤُلَاءِ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عليهم مُتضمِّنٌ للإيمانِ بالملائكة.

وأمَّا الإيمانُ بالقَدَرِ فيُؤْخَذُ من قَوْلِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ لأنَّ مُقتضى الرُّبُوبيَّةِ أن يكُونَ كُلُّ شيء بتَقْدِيره وقَضَائِه وقَدَرِه.

وأمَّا أقسامُ النَّاسِ فيما أَوْحى اللهُ إلى رُسُلِه فقد تضمَّنَهُ قَوْلُهُ: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

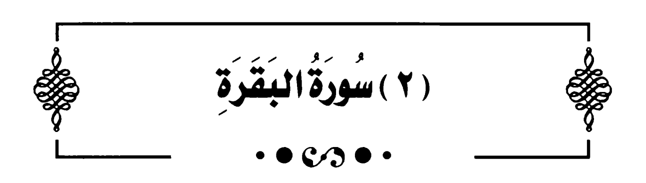
فالمهمُّ: أنَّ من تدبَّرَ هذه السُّورةَ وَجدَها كما وَصفَها رسُولُ الله ﷺ: أُمَّ القُرآن، وفاتحةَ الكتاب، ولهذا أَوْجبَ اللهُ تعالى على لِسَانِ رسُولِه ﷺ قِراءتَها على كُلِّ مُصلٍّ، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديثِ عُبادةَ بنِ الصَّامتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثَّابتِ في الصَّحيحَيْن: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**»[1]، وفي حديثِ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كُلُّ صَلَاةٍ لا يُقْرَأُ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ**»[2]، يعني: فاسدة، وهذا يدُلُّ على أَهمِّيَّةِ هذه السُّورةِ وعِظَمِها.

ولكن هناك شيء ينبغي التَّنبُّهُ لَهُ، وهو أنَّ بعضَ النَّاسِ يَسْتَفْتِحُ بها كُلَّ شيء، ويجعلُها السُّورةَ الَّتي يُتبرَّكُ بها في كُلِّ مُناسبةٍ، وهذا شيء من البِدَعِ؛ لأَنَّهُ لم يَرِدْ عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ كان يَسْتَفْتِحُ الأُمُورَ بها، وإنَّما كان يبتدئُ بها قِراءةَ الصَّلاة، نعم، هي رُقيةٌ إذا قُرئَ بها على المريضِ أو على اللَّديغ بإخلاصٍ فإنَّهُ ينتفعُ بها بإذنِ الله، واللهُ المُوفِّقُ.

• • ◦ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة، رقم (٣٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم -بمعناه-: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة، رقم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تعَالَى:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

في هذه الآياتِ يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وهو القُرْآنُ الكَرِيمُ، وأشار اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِلَيْه بإِشارَةِ البَعِيدِ؛ لعُلُوِّ مَرْتَبتِهِ، وعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ؛ فإِنَّهُ كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذي أَنْزَله على رَسُولِه مُحَمَّدٍ ﷺ، وقد وصَفَه اللهُ تعالى في القُرْآنِ بأوصافٍ عَظِيمَةٍ بالِغَةٍ.

وسَمَّاه اللهُ: كِتابًا؛ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ في اللَّوْحِ المحْفُوظِ، ومَكْتُوبٌ في الصُّحُفِ التي بأَيْدِي الملائِكَةِ، ومكتوبٌ في الصُّحُفِ التي بأَيْدِينا.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: ليس فيه رَيْبٌ ولا شَكٌّ في أَنَّهُ حقٌّ نازِلٌ من عند اللهِ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين اتَّقَوا عَذابَ الله عَزَّوَجَلَّ بفِعْلِ أوامِرِه، واجْتِنابِ نَواهِيهِ.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: الذين يُؤْمِنُون بما غابَ عنهم، لإِخْبارِ اللهِ تعالى به ورَسُوله، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يَأْتُون بها قائِمَةً مُسْتَقِيمَةً على وَفْقِ الشَّرِيعَةِ،

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: يُنْفِقُون ممَّا رَزَقَهم اللهُ من الزَّكَواتِ الواجِبَةِ، والصَّدَقاتِ المُسْتَحَبَّةِ، والنَّفَقاتِ اللَّازِمَةِ.

وقَوْلُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: من الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ على الرُّسُل، مثل: التَّوْراةِ، والإِنْجِيلِ، والزَّبُورِ، ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: إِيقانًا كامِلًا لا مِرْيَةَ فيه.

وقَوْلُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: على صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ وعِلْمٍ نافِعٍ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين اهْتَدَوْا بهِدايَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، واتَّبَعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ، فأَصْبَحَ مَآلُهم هو الفَلاح، والفلاحُ: هو حُصُول المطْلُوب، والنَّجاةُ من المرْهُوب.

فَوائِد وأحْكام هذه الآيات الكَرِيمات:

١- في هذه الآياتِ إِشارَةٌ إلى الصِّنْفِ الأَوَّلِ والأعلى من أَصْناف بني آدَمَ نَحْوَ هذا الكِتابِ العَزِيزِ؛ فإنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا في هذا الكِتابِ العَزِيزِ إلى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ: قِسْمٌ آمَنُوا به ظاهِرًا وباطِنًا، وقِسْمٌ آمَنُوا به ظاهِرًا وكَفَرُوا به باطِنًا، وقِسْمٌ كَفَرُوا به ظاهِرًا وباطِنًا، فبَدَأَ اللهُ تعالى بالذين آمنُوا به ظاهِرًا وباطِنًا، ثُمَّ ثَنَّى بالَّذينَ كَفَرُوا به باطِنًا وظاهِرًا، ثُمَّ ثَلَّثَ بالذين آمَنُوا به ظاهِرًا، وكَفَرُوا به باطِنًا، وهذا التَّقْسِيمُ من أَحْسَنِ التَّقاسِيمِ، وأَجْمَعِها، وأوضَحِها، فبَدَأَ بالأعلى، ثُمَّ بما يُقابِلُه تمامًا، ثُمَّ بما هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وأَخَّرَ الْكَـلامَ عليهم؛ لطُـولِهِ ولِبَيان أوصافِهم حتَّى يُحْتَرَزَ منهم.

ففي قَوْلِهِ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا القُرْآنَ العَظِيمَ الَّذي أَعْجَز أُمَراءَ الفَصاحَةِ ومَنْ هُمُ الغايَةُ في البَلاغَةِ لم يَكُنْ بأَحْرُفٍ خارِجَةٍ عن الأَحْرُفِ التي

كانُوا يَتحدَّثُونَ بها، بل هو من نَفسِ الأحْرُفِ التي كانُوا يَتحدَّثُونَ بها، ومع ذلك أعْجَزهم، فعَجزُوا أنْ يَأتُوا بمِثْلِه، أو بسُورَةٍ من مِثْلِه، أو بعَشْر سُوَرٍ مِثْلِه، قال اللهُ تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور:٣٤]، وهذا يَشْمَلُ ما يَكُونُ به الإعجازُ وإن قَلَّ، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١٣]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، فهذا القُرْآنُ الَّذي أعْجَزكم -أيُّها البُلَغاءُ والفُصَحاءُ- لم يَأْتِ بحُرُوف جَدِيدةٍ حتَّى تَقُولُوا: ليستْ هذه الحُرُوفُ مَعْلُومةً لنا، فلا نَسْتَطيعُ، هذا هو الأصحُّ في الحِكْمَةِ من ذِكْرِ الحُرُوفِ الهِجائِيَّةِ في أوائِلِ بَعْضِ السُّوَرِ، أمَّا الحُرُوفُ نَفْسُها فليس لها مَعْنًى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أنْزَل هذا القُرْآنَ بلِسانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ، وهذه الحُرُوفُ الهِجائيَّةُ ليس لها مَعْنًى في اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ.

٢- وفي قَوْلِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ دَلِيلٌ على عُلُوِّ مَرْتَبةِ القُرْآنِ، وهو كذلك؛ لأنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذي لا يَأْتِيه الباطِلُ من بين يَدِيهِ ولا من خَلْفِه، فهو أعْلَى الكَلامِ في الفَصاحةِ، والبَلاغةِ، وما يَحْتَوي عليه من العُلُومِ النَّافِعَةِ.

٣- وفي قَوْلِهِ: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ دَلِيلٌ على أنَّ هذا القُرْآنَ مَكْتُوبٌ، وهو كذلك، قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢]، وقال اللهُ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٢-١٦]، وهو كذلك مَكْتُوبٌ في الصُّحُفِ التي بأيْدِينا.

٤- وفي قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ (أل) دَلِيلٌ على أنَّ هذا الكِتابَ مَعْرُوفٌ مَعْهُودٌ، وهو كذلك، فإنَّ كِتابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كان مَعْرُوفًا مَعْهُودًا بين الصَّحابةِ، لم يُفْتَقد منه شيءٌ، وقد ذَكَرَ أَهْلُ العِلْمِ أنَّ مَن أنْكَر حَرْفًا واحدًا اتَّفق القُرَّاءُ على إثْباتِهِ فهو كافِرٌ.

وأمَّا اخْتِلافُ القِراءات السَّبْع فإنَّ هذا ممَّا ثَبَت عن النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنَّ هذه القِراءاتِ السَّبْعَ كلَّها حقٌّ تَجُوزُ القِراءَةُ بها.

٥- وفي قَوْلِهِ تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ دَلِيلٌ على أنَّ الاهْتِداء بالقُرْآن مَرْبُوطٌ بالتَّقْوى، فكُلَّما كان الإنسانُ أتْقى للهِ كان أهْدَى بكِتاب الله.

٦- وفي قَوْلِهِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ دَلِيلٌ على أنَّ غير المُتَّقي لا يُهْدَى بالقُرْآن، وهو كذلك، ولهذا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:٧-١٤]، فأخْبرَ اللهُ تعالى أنَّ هذا إذا تُتْلَى عليه آياتُ اللهِ لم يَنْتَفع بها، ولم تَصِلْ إلى قَلْبِهِ، ولم يرَ لها شَأْنًا عَظِيمًا، بل يقولُ: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يعني: مثل الحِكايات التي تُحْكَى عن الأوَّلين، ويُتحدَّثُ بها، وذلِك لأنَّهُ ران على قَلْبه ما كان يَكْسِبُهُ من الآثام، فلم يَنْتَفع بالقُرْآنِ، وكُلَّما كان الإنسانُ أتْقى للهِ كان أهْدَى بكِتابِ الله، ويدلُّ على ذلك آياتٌ كثيرةٌ، منها: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، وقَوْلُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]، وكُلَّما نَقَصَ الإنسانُ من التَّقْوى نَقَصَ من اهْتِدائه بكِتابِ الله بقدْرِ ما نَقَصَ من تَقْواه.

قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

هنا بَيَّن اللهُ تعالى أوصافَ هؤلاء المُتَّقينَ، فوَصَفهم سُبْحانه بأنَّهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: بما غابَ عنهم ممَّا أخْبَرَ اللهُ به ورُسُلُهُ؛ لأنَّهم يُصَدِّقون بما أخْبَرَ اللهُ به ورُسُلُهُ أكثرَ ممَّا يُصَدِّقون بما شاهَدُوه بأعْيُنِهم أو سَمِعُوه بآذانِهم، وأُمُورُ الغَيْب التي أخْبَرَ اللهُ بها ورُسُلُهُ كثيرةٌ مَعْرُوفةٌ في كِتاب اللهِ وفي سُنَّة رَسُولِ اللهِ ﷺ.

ومن أوصافهم: أنَّهم يُقِيمونَ الصَّلاةَ، أي: يأتونَ بها قائِمةً تامَّةً بشُرُوطها، وأرْكانها، وواجِباتها، ويُتَمِّمونَ ذلك بمُكَمِّلاتها من المُسْتَحبَّات.

ومن أوصافهم أيضًا: أنَّهم يُنْفِقُون ممَّا رَزَقَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ على حسب ما تَقْتَضيه الشَّريعَةُ إنْفاقًا دائرًا بين الإفْراطِ والتَّفْريطِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

وَفي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يُخْبِر اللهُ تعالى في هذه الآية بأنَّ هؤلاء على هُدًى، وعلى عِلْمٍ ممَّا وهَبَهم الله عَزَّوَجَلَّ، وبيَّن اللهُ تعالى مآلهم، وهو الفلاحُ، والفلاحُ: هو حُصُولُ المطْلُوب، والنَّجاةُ من المرْهُوب.

فوائد الآيات الكَريمات:

١- أنَّ الإيمانَ بالغَيْب من تَقْوى الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أساسُ التَّقْوى؛ لأنَّ ضدَّ الإيمانِ الشَّكُّ والتكذيبُ، فإنَّ النَّاسَ فيما أخْبَرَ اللهُ به ورُسُلُهُ يَنْقِسُمون إلى ثَلاثةِ أقسامٍ: قِسْمٌ يُؤْمِنُون بذلك ويُوقِنُون به، وقِسْمٌ يُنْكِرون ذلك ويَجْحَدُونه، وقِسْمٌ

يترَدَّدونَ فيه ويَشُكُّون فيه، والنَّاجي من هذه الأقْسامِ هو القِسْمُ الأوَّلُ الذين يُؤْمِنون به ويُصَدِّقون به.

٢- أنَّ الإِيمانَ بالشَّيء المُشاهَد لا يُجْدِي ولا ينفعُ؛ لأَنَّهُ إيمانٌ يَقْتَضيه الواقِعُ؛ فلا يُمْدَحُ الإنسانُ عليه، فالإنسانُ الَّذي يقولُ: أنا أُؤْمِن بالشَّمْسِ، وأُؤْمِن بالقَمَر، وأُؤمِنُ بالنُّجُوم لا نَمْدَحُه على ما يُؤْمِن به من هذه الأشْياء المحْسُوسة، وإنَّما يُمْدَح الإنسانُ على ما يُؤْمِنُ به من الأشْياء الغائِبَة، ولهذا لا يَنْفَعُ الإنسانَ إيمانُهُ إذا شاهَد الأمرَ عِيانًا، كما قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٤-٨٥]، وقال اللهُ تعالى في فِرْعَون لَمَّا أدْرَكه الغَرَقُ: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾، فقِيلَ له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩٠-٩١].

٣- فَضِيلَة إِقامة الصَّلاة، وأنَّ ذلك من تَقْوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والصَّلاةُ هنا شامِلَة لصِلاة الفَرِيضَة وصَلاة النَّافِلَة.

٤- أن الصَّلاة قد يَفْعَلها الإنسانُ على غير وَجْهِ الإقامةِ لها، مثل: أنْ يَفْعَلها ناقِصَةً من الأرْكان، أو من الواجِبات.

فمن النَّقْص في الأرْكان الَّذي يَتَهاونُ به الكَثِيرُ من النَّاس: الطُّمْأنينَة، فإن بَعْضَ النَّاس يَتَهاونُ في الطُّمْأنينَةِ، ولا يطمئنُّ، لاسِيَّما في القِيام بعد الرُّكُوع، وفي الجُلُوس بين السَّجْدَتين، ومن المعْلُومِ أنَّ الطُّمَأْنِينَة في هذين الرُّكْنَين وفي غيرهما من أرْكان الصَّلاة، وأنَّ الصَّلاة لا تصحُّ بدون الطُّمَأْنِينَة فيهما وفي غيرهما من الأرْكان،

ففي الصَّحِيحَيْن من حَدِيث أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دخلَ المسجدَ، فدَخَلَ رجلٌ، فصلَّى، فسَلَّمَ على النبي ﷺ، فردَّ، وقال: «ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فرجع، فصلَّى كما صلَّى، ثُمَّ جاء، فسَلَّمَ على النبي ﷺ، فقال: «ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ثلاثًا، فقال: والَّذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما أُحسِنُ غيره، فعَلِّمْني! فقال: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»[1]، وإنَّما أمَرَه الرَّسُولُ ﷺ أنْ يُعِيدَ الصَّلاةَ مرَّةً بعد أُخْرى؛ من أجل أنْ يَشْتدَّ تَوَقانُه إلى مَعْرِفَة الصَّلاة وأحْكامِها؛ حتَّى يتلقَّى ذلك بنَفْس مُشْرَئِبَّةٍ مُتطلِّعَةٍ إلى مَعْرِفة الحُكْم، فيكونَ ذلك أرْسَخَ في قَلْبه.

وفي رِوايَة للحديث: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، فَكَبِّرْ»[2]، وإنَّما قال له النبي ﷺ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ»، مع أنَّهُ لم يُشاهِدْه ﷺ وهو يتوضَّأ؛ لأنَّ مَن جَهِلَ هذه الأرْكانَ في صَلاته قد يَكُونُ جاهلًا للوُضُوء، فأرْشَده النبيُّ ﷺ إلى ما يَنْبَغِي أنْ يَقُوم به من إِسْباغ الوُضُوء، المهمُّ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أمَرَه أن يطمئنَّ في هذه الأركانِ، وهو دَلِيلٌ على أنَّ الصَّلاة لا تصحُّ دون الطُّمَأْنِينَة فيها، فالكثيرُ من النَّاس يُضيع الطُّمَأْنِينَة في هذه الأرْكان؛ فيكون غير مُقِيم للصَّلاة.

---

(١) سبق تخريجه (ص:٥٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب مَن رد، فقال: عليك السَّلام، رقم (٦٢٥١)، ومسلم: كتاب الصَّلَاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلِّ ركعة، رقم (٣٩٧/٤٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن إقامة الصَّلاة: صلاتُها في المساجد مع الجماعة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا يُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْها، فَآمُرَ بِهِمْ، فَيُحَرِّقُوا عَلَيْهِمْ بِحُزَمِ الحَطَبِ بُيُوتَهُمْ**»(١).

وعن أبي هُرَيْرَة قال: أتى رجلٌ أعْمَى، فقال: يا رَسُولَ الله! إنَّه ليس لي قائِدٌ يَقُودُني إلى المسْجِد، فسأل رَسُولَ اللهِ ﷺ أنْ يُرَخِّصَ له، فيُصَلِّيَ في بَيْتِه، فرَخَّصَ له، فلما ولَّى دَعاهُ، فقال: «**هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟**» فقال: نَعَمْ، قال: «**فَأَجِبْ**»(٢)، فمَن لم يَأْتِ بصِلاة الجماعة، مع قُدْرَته عليها وعدمِ وُجُود عُذْر شَرعيٍّ في تَرْكِها، فإنَّهُ غير مُقِيم للصَّلاة، فلا يَكُونُ داخلًا في هذه الأوصاف الحَمِيدَة الجَلِيلة.

أمَّا النِّساءُ فلا تجبُ عليهنَّ صلاةُ الجماعةِ في المساجد؛ لأنَّ الرِّجال هم المُخاطَبُون بالاجتماعِ إِلَيْها، أمَّا النِّساءُ فقد قال النبي ﷺ: «**وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ**»(٣)، ولكنَّ المرْأة مأمورةٌ بأن تَحْضُر صَلاةَ العِيدِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ أمَر أنْ يُخْرَج إِلَيْها النِّساءُ، حتَّى الحُيَّض وذَوات الخُدُور، إلَّا أنَّهُ أمَر الحُيَّضَ أنْ يَعْتَزِلن المُصَلَّى(٤)؛ لأنَّ مُصَلَّى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب صلَاة الجماعة، رقم (٦٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب فضل صلَاة الجماعة، رقم (٦٥١/ ٢٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء، رقم (٦٥٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصَّلَاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المساجد، رقم (٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٧٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) يُنْظَر: صحيح البخاري: كتاب العيدين، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى، رقم (٩٧٤)، وصحيح مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى، رقم (٨٩٠) من حديث أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

العيد مسجدٌ، تَثْبُت له أحْكامُ المسجدِ كلُّها.

ومن إقامةِ الصَّلاةِ: المحُافَظَةُ عليها في أوقاتها، بل هذا من أهمِّ إقامَتِها، وأوقاتُ الصَّلَوات مَعْرُوفةٌ، ولله الحمد، وهي خمسة:

فالفَجْرُ: من طُلُـوع الفجر إلى طُلُـوع الشَّمْس، والظُّهْـرُ: من زَوال الشَّمْس -أي: مَيْلِها إلى جِهَة المغْرِب- حتَّى يَصِيرَ ظِلُّ كُلِّ شيء مِثْلَه بعد فَيْء الزَّوال، والعَصْرُ: من ذلك الوَقْت -أي: من صَيْرُورة ظِلِّ كُلِّ شيء مِثْلَه- إلى أن تَصْفرَّ الشَّمْس، هذا وقْتُ الاخْتِيار، والضَّرُورَة: إلى غُرُوب الشَّمْس.

أمَّا صلاةُ المغْرِب فوَقْتُها: من غُرُوب الشَّمْس إلى مَغِيب الشَّفَـق الأحْمَـر، والعِشاءُ: من مَغِيب الشَّفَق الأحْمَر إلى نِصْفِ اللَّيل.

وطُلُوع الفَجْر إلى طُلُوع الشَّمْس يُمْكِن إدْراكه بالمُشاهَدة.

وزوالُ الشَّمْس إلى أنْ يصير ظِـلُّ كُلِّ شيء مِثْلَه يُمْكِـنُ أنْ يُعْرَف بوَضْـعِ عَصًا أو نَحْوِ ذلك قائمةً في الشَّمس، ويُنْظَر إلى ظِلِّها، فما دام الظِّلُّ يَنْقُص فالشَّمْس لم تَزُلْ، فإذا بَدَأ الظِّلُّ يزيد ولو يسيرًا جدًّا فقد زالَت الشَّمْس، وحينئذٍ اضْبِط مكان الزِّيادة، فإذا صارَ من مَكان الزِّيادة إلى مُنْتَهى ظِلِّها طُولَها فقد خَرَج وقْتُ الظُّهر، ودَخَل وقْتُ العَصْر، أمَّا انْتِهاء وقْت العَصْر فهو مَعْلُومٌ بالمُشاهَدة، وهو اصْفِرار الشَّمْس؛ أي: أن تكون الشَّمْس صَفْراء، ومن اصْفِرار الشَّمْس إلى الغُرُوب أيضًا مَعْلُوم بالمُشاهَدة.

أمَّا صلاة المغْرِب فوَقْتُها من الغُرُوب إلى مَغِيب الشَّفَق الأحْمَر، وهو مَعْلُوم بالمُشاهَدة أيضًا، وتَقْرِيبُه في السَّاعَة: ما بين ساعَةٍ ورُبُع أو سَبْعَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً من

الغُرُوب، إلى ساعَة ونِصْفِ ساعَةٍ أو ساعَةٍ واثْنَتَين وثلاثين دقيقةً بعد الغُرُوب؛ لأنَّ طُول مُدَّة وقت المغْرب يَختلفُ باختلافِ الفُصُول.

ومن بعد ذلك يَدْخُلُ وقتُ العِشاء مُباشرةً إلى نِصْف اللَّيْل، وبيانُ ذلك: أن تَنْصِفَ ما بين غُرُوب الشَّمْس إلى طُلُوع الفَجْر، فالنِّصْفُ هو مُنْتَهى وقْت صَلاة العِشاء.

فَلا يَجُوز للإِنْسان أنْ يُؤَخِّر الصَّلاة عن وقْتِها المُحدَّد لها شرعًا، إلَّا لِعُذْر يُبيحُ الجمعَ، فيجوزُ أنْ يُؤَخِّر الصَّلاة الأُولى التي تُجْمَع لِما بعدها إلى دُخُول وقْت الثَّانية؛ لأنَّ السَّبَب المُبيحَ للجَمْع يَجْعَلُ وقتَ الصَّلاتين وقْتًا واحدًا، فمَن أخَّر الصَّلاة عن وقْتها، وصلَّاها بعد الوَقْت بدون عُذْر شَرْعيٍّ، فإن صَلاتَه مَرْفُوضة لا تُقْبَل؛ لقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق:١]، وقَوْلِه في آية أُخْرَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩]، والظَّالِم لا يُقْبَل منه عَمَل؛ لأنَّهُ ظُلْمٌ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُحِبُّ الظَّالمين.

ويُؤَيِّد القولَ بأنَّ الصَّلاة بَعْدَ وقْتِها لا تَصِحُّ بدون عُذْر: قولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، ومِنَ المعْلُومِ أنَّ مَن أخَّر الصَّلاة عن وقْتِها بدون عُذْر فقد عَمِل عملًا ليس عليه أمْرُ اللهِ ورسولِهِ؛ فيكونُ مردودًا غير مَقْبول.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٨/١٧١٨)، وأخرجه بمعناه البخاريُّ: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على حكم جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

٥- فَضِيلةُ الصَّلاة؛ حيثُ نصَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على إِقامَتِها بخُصُوصها، ومن المعْلُوم أنَّ النصَّ على الشَّيء بخُصُوصه يدلُّ على عِنايَةٍ كاملةٍ به، وعلى مَرْتَبةٍ عاليةٍ له.

٦- فَضِيلةُ الإِنفاق ممَّا رَزَق اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، والإِنفاقُ من المال يَنْقَسِم إلى واجبٍ ومُستحبٍّ، وأوجَبُ الواجباتِ: الزَّكاةُ التي فَرَضَها الله عَزَّوَجَلَّ على العِباد، فمَن قام بها وأدَّاها فإنَّهُ يَدْخُل في هذه الآية الكَرِيمة أوَّلَ مَن يَدْخُل.

ويَدْخُل في الإِنفاق أيضًا: الإِنفاقُ على مَن يجبُ الإِنفاقُ عليه من زوجةٍ، وقريبٍ، ومملوكٍ.

وإنَّني -بهذه المُناسَبة- أُحَذِّرُ بَعْض النَّاس الذين يَبْخَلُون بما آتاهم اللهُ من فَضْلِه، فيظنُّون أنَّ ذلك خيرٌ لهم، وأنَّ ذلك تَنْمِيَة لأمْوالهم؛ فإنَّ هذا ليس خيرًا لهم، بل هو شَرٌّ لهم؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨٠]، أُحَذِّر هؤلاء البُخَلاءَ من أنْ يَمْنعُوا الزَّكاة، وأُحَذِّرهم من أنْ يَمْنَعُوا الإِنفاقَ على زَوْجاتهم، وأُحَذِّرهم من أنْ يَمْنَعُوا الإِنفاقَ على مَن أوجَب اللهُ عليهم الإِنفاقَ عليهم، وأُحَذِّرهم من أنْ يَمْنَعُوا ما أوجَب الله عليهم بَذْلَه من المال: من إِطْعام جائع، أو كِسْوَة عارٍ، أو غير ذلك ممَّا ذَكَر أهلُ العِلْم وُجُوبَ الإِنفاقِ فيه.

ولْيَعْلَمِ الإنسانُ أنَّ كُلَّ نَفَقَة يُنْفِقُها يَبْتَغي بها وَجْهَ الله فإنَّ اللهَ تعالى يُثيبُهُ عليها، ويَأْجُرُه عليها، ولا تَزِيدُ مالَه إلَّا نَماءً وبركةً؛ كما جاء في الحديث الصَّحيح:

«مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»[1].

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾

من فوائد وأحكام هذه الآية: أنَّ هؤلاء المُتَّقِينَ المُتَّصفينَ بهذه الصِّفات على هُدًى مِنَ الله، وعلى بَصِيرةٍ، وعلى بُرْهانٍ، وأنَّ مآلَهم الفلاحُ، وهو الفَوْزُ بالمطلوب، والنَّجاةُ من المرْهُوب، وهذا غايةُ كُلِّ إنسانٍ؛ قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، نَسْأَلُ اللهَ تعالى أن نَكُون من الفائِزِينَ السُّعَداء في الدُّنْيا والآخِرَة.

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧﴾

يُبَيِّن اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حالَ هؤلاء الكُفَّارِ المُكَذِّبينَ لرَسُول اللهِ ﷺ ومآلَهم، أمَّا حالُهم فقد قَال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أي: أنَّهم لا يُؤْمِنون، سواء أنْذرتَهم أم لم تُنْذِرهم، وذلك لأنَّ الله خَتَمَ على قُلُوبهم وعلى سَمْعِهم، وجَعَلَ على أَبْصَارهم غِشاوةً، وهذا كقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، ولا يُنافي هذا ما عُلِمَ من أنَّ بَعْض النَّاسِ يَكُون كافرًا باللهِ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ يَهْدِيه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى الإسلامِ، فيكـون من أئمَّةِ المُسْلِمين، ودُعاةِ المُسْلِمين، وأنْصارِ الدِّين؛ لأنَّ الكَلامَ فيمَن كان كافِرًا، وقد حقَّت عليهم كَلِمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّهُ لا يُمْكِنُ لأحدٍ أنْ يَهْدِيَهم، أمَّا مَن كان كافرًا، ولم تَحِقَّ عليه كلمةُ اللهِ، وعَلِمَ اللهُ منه أنَّهُ سيَتُوبُ، ويَدْخُلُ في الإِسْلامِ، فإنَّهُ لا يَدْخُلُ في هذه الآية.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي: جَعَلَ اللهُ عليها الخَتْمَ، وهو الطَّبْعُ بعد الإِغلاقِ والاسْتِيثاقِ، يُخْتَمُ على الشَّيء حتَّى يَبْقَى مَخْتُومًا لا يَصِلُ إِلَيْه خيرٌ، فهَؤُلاء خَتَمَ الله على قُلُوبِهم، فلا يَصِلُ إِلَيْها الإِيمانُ، وعلى سَمْعِهم، فلا يَسْتَمِعُون إلى ما يُتْلَى عليهم على وَجْهٍ ينتفعونَ به، أمَّا الأَبْصارُ -والعياذُ بالله- فجَعَل اللهُ عليها غِشاوةً، لا يُبْصِرُونَ ولا يَنْظُرونَ إلى آيات اللهِ عَزَّوَجَلَّ التي تَدُلُّهم على الحَقِّ.

وبيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ لهم في الآخرةِ عَذابًا عَظِيمًا؛ حيثُ قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فَوائدُ هذه الآيةِ الكَريمَة:

١ - أنَّ مَنْ حقَّت عليه كَلِمَةُ اللهِ من الكافِرينَ لا يُمْكِنُ أنْ يُؤْمِنَ، سواء أُنْذِرَ أم لم يُنْذَرْ، وسواء رُغِّبَ أم لم يُرَغَّبْ؛ لأنَّهُ قد طُبِعَ على قَلْبِه، فلا يُمْكِنُ وُصُولُ الهدايةِ إِلَيْه.

٢- ومن فَوائِد هذه الآية أيضًا: تَسْلِيَةُ النبي ﷺ حتَّى لا يَضِيقَ صَدْرُه، ولا يَكُونَ في نَفْسِه حَرَجٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، فالنبيُّ ﷺ ومَن ورِثَهُ من أهْلِ العِلْمِ عليهمُ البلاغُ والدَّعْوةُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وبعد ذلك لا يَضُرُّهم مَن ضَلَّ ما دامُوا على الاهْتِداء، كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥].

٣- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: أنَّه يَنْبَغِي للمُؤْمِن الَّذي مَنَّ اللهُ عليه بالإِيمانِ أنْ يَحْمَدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه النِّعْمَةِ العَظِيمةِ، حَيْثُ أَضَلَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كثيرًا من النَّاسِ عمَّا اهْتَدَى إِلَيْه المُؤْمِنُ، ولم يَهْتَدوا إليه، مع بَيانِه ووُضُوحِه.

٤- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قد قامَ بإِنْذار هؤلاء الكافِرين، ولكنَّ هؤلاء الكافِرينَ قد حقَّت عليهم كَلِمَةُ العَذاب؛ فلم يُجْدِ فيهم الإِنْذارُ شيئًا.

٥- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمُنُّ على مَن يَشاء من عِبادِه، فمِن عِباد الله مَن يَشْرَحُ الله له صَدْرَه، ويُيَسِّرُ له أمْرَه، يَشْرَحُ صَدْرَه للإسلامِ حتَّى يَفْرَحَ به ويَسْتَبشرَ به، ويتَّسِعَ صَدْرُه لقَبُولِه، فيقْبَلُه، ويُنَفِّذُ أحْكام الله عَزَّوَجَلَّ على الوَجْهِ الَّذي يَرْضاه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومِن النَّاس مَن يَكُون على العَكْسِ من هذا، فيَضِيقُ صَدْرُه حَرَجًا بما سَمِعَ من آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا

يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

فَإن قال قائِلٌ: كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْمًا، ويُضِلُّ آخَرين؟

فالجَوابُ: أنَّ هذا السُّؤال لا يَرِدُ؛ لأنَّ الله تعالى له أنْ يَفْعَل ما يَشاء، فله أنْ يَمُنَّ على مَن يَشاء من عِبادِه، فيَهْدِيَهم إلى صِراطِه المُسْتَقِيم، كما قالت الرُّسُل لأقْوامِهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:١١].

ونقول ثانيًا: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَهْدِي إلَّا مَن كان أهلًا للهِدايَة، ولا يُضِلُّ إلَّا مَن كان أهلًا للضَّلالةِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥]، فلا يضِلُّ مَن ضَلَّ إلَّا بسَببٍ من نَفْسِه، يَكُونُ قَلْبُه غير مُريد للحَقِّ، وغير قابِلٍ له، واللهُ تعالى يَعْلَمُ منه ذلك، فيَكْتُبُ اللهُ له الشَّقاء والضَّلال، نَسْأل الله الهِدايَة.

٦- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: أَنَّهُ يَنْبَغِي للإِنْسان أنْ يَكُون دائمًا على حَذَرٍ، وألَّا يَعْتَمد على نَفْسِه، وأن يَخْشَى من الزَّيْغ والضَّلال، وأن يَسْأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائمًا الثَّباتَ على الحقِّ، والموتَ عليه، وأن يَحْمَد الله الَّذي مَنَّ عليه بالهِدايَة، وقد أضَلَّ قومًا آخَرين.

٧- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: إثباتُ الجَزاء في قَوْلِه تعالَى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٨- ومن فَوائِدها: إِثْباتُ حِكْمَةِ الله؛ فإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُعَذِّب هؤلاء إِلَّا لاسْتِحْقاقهِمُ العَذابَ بكُفْرِهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبما يَجِبُ عليهِمُ الإِيمانُ به.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

وهذا هو القِسْمُ الثَّالِثُ مِنَ الأَقْسام التي ابْتَدَأ اللهُ بها هذه السُّورَة، وهم: المُؤْمِنُون الخُلَّصُ، والكافِرُون الخُلَّصُ، والمُؤْمِنُون بألْسِنَتِهم دون قُلُوبِهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ أي: بَعْض النَّاس يقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، لكن يَقُولُ ذلك بلِسانِه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما هُمْ بمُؤْمِنينَ بقُلُوبِهم، بل هم في قُلُوبِهِم مُنْكِرُون، لا يَعْتَرِفُون بهذا، ولا يُقِرُّون به، والعِياذ بالله.

وقَوْلُه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: أَنَّهم في عَمَلِهم هذا وسِيرَتِهم هذه يُخادِعُون اللهَ والذين آمَنُوا، وما يَخْدَعُون إِلَّا أَنْفُسَهم.

والخِداعُ والمكْرُ والكَيْدُ مَعانيها مُتَقاربةٌ، وهي الإيقاعُ بالخَصْم من غير أَنْ يَشْعُر، فهؤلاء يَتَظاهَرُون بالإيمانِ؛ ليُخادِعُوا اللهَ والمُؤْمِنين، فيظنُّون أَنَّهم أَحْسَنُوا صُنْعًا، ولكنَّهم أساؤُوا صُنْعًا وسَبِيلًا، ولهذا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، فهم -في الحقيقة- خَدَعُوا أَنْفُسَهم، ولَعِبُوا بها، وغَرُّوها، واغْتَرُّوا

بصُنْعِهم، فلم يَنْفَعْهُمُ هذا الخِداعُ؛ لأنَّ الحِساب يَوْمَ القِيامَة على ما في القُلُوب، كما قَال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق:٨-١٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾ [العاديات:٩-١١].

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: أنَّ هؤلاء المُنافِقِين الذين ظنُّوا أنَّهم خَدَعُوا اللهَ والمُؤْمِنينَ بما يَتَظاهرون به من الإيمانِ، وهم على الكُفْر، لا يَخْدَعُون إلَّا أنْفُسَهم؛ لأنَّهم غَرُّوها، واغترُّوا بما صَنَعُوا، وظَنُّوا أنَّهم يُحْسِنُون صُنْعًا، فهَذِه المُخادَعة ضَرَرُها ووَبالُها عليهم.

ثُمَّ قال: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: لا يَشْعُرونَ أنَّهم خَدَعُوا أنْفُسَهم، حَيْثُ زُيِّن لهم سُوءُ عَمَلِهم، ولهذا اسْتَمرُّوا على ما هُمْ عليه من النِّفاق.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: شَكٌّ ورَيْبٌ ونِفاق ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾ أي: أعْطاهم مَرَضًا أكْثَرَ من المَرَض الأوَّلِ، وهذا كقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، فهَؤُلاء المُنافِقُونَ لَمَّا كانت قُلُوبُهم مَرْضى صارُوا يَزْدادون مرضًا فَوْقَ مَرَضِهم؛ لأنَّهم كُلَّما كذَّبُوا شيئًا وأنْكَرُوا شيئًا ازْدادُوا بذلك كُفْرًا وبُعْدًا من اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ أي: مُؤْلِم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ أي: بسَبَب كَذِبِهم؛ حيث قالوا: إنَّهم مُؤْمِنُون، وما هم بمُؤْمِنين.

في هذه الآيات الكَرِيمَة: يُبيِّنُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ مِن النَّاس مَن يُنافِقُ، والنِّفاقُ: هو إِظْهارُ الخَيْر، وإِبْطانُ الشَّرِّ، وهو بالنِّسْبَة لحقِّ الله نِفاقٌ عَقديٌّ مُخْرِج عن الإِيمان، وقد يَكُون نِفاقًا عَمَلِيًّا كالرِّياء، وبالنِّسْبَة لحقِّ المخلوق نِفاق عَمَلِيٌّ لا يُخْرِج من الإِيمان، كما قال النبي ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1].

فَوائِدُ وأحْكامُ هذه الآيات:

١- إِثْباتُ النِّفاق في بَعْض النَّاس؛ لقَوْلِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾، والنِّفاق لم يَحْدُث في هذه الأُمَّة إلَّا بعد أن قَوِيَت، وكان لها سُلْطان وعِزَّة ورِفْعَة، ولهذا قال العلماء: إنَّهُ لم يَظْهَر النِّفاقُ في هذه الأُمَّة إلَّا بعد غَزْوَة بَدْرٍ؛ حيث انْتَصَرَ فيها المُسْلِمُون على أعْدائهم، ووَجْهُ هذا ظاهِر؛ فإنَّ المُنافِق إنَّما يُنافِق؛ خوفًا على نَفْسِه ومالِه، ولا يُمْكِنُ الخوفُ على النَّفْس والمال إلَّا مع قُوَّة المخُوفِ منه.

٢- ومن فَوائِدها: أنَّ الأَقْوالَ لا تَنْفَعُ إذا لم يَكُنِ القَلْبُ مُطابِقًا لها، فإذا قال الإنسانُ قولًا، ولكنَّ قَلْبَه مُنْكِر لَهُ، فإنَّ هذا القولَ لا يَنْفَعُه عند الله، بل لا يَزِيدُه من الله إلَّا بُعْدًا.

٣- ومن فَوائِدها: أنَّ أحْكام الدُّنْيا تُجْرَى على الظَّاهِر، أي: على ما يَظْهَر من حالِ الإِنْسان دون الأَمْرِ الباطِن الَّذي في قَلْبِه؛ لأنَّ الأَمْرَ الباطِنَ لا يَعْلَمُه إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أمَّا الأَمْرُ الظَّاهِر فيَعْلَمُه كُلُّ مَن ظَهَر له، ولهذا لم يَقْتُل النَّبيُّ ﷺ المُنافِقين،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال النفاق، رقم (٥٩/ ١٠٧) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقال حِينَ اسْتُؤذِن في قَتْلِهم: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[١].

ويتفَرَّعُ على ذلك: أنّنا نُجْرِي النَّاسَ في أحْكام الدُّنْيا على ظاهِر حالهم، ولا نُسيءُ الظَّنَّ بأحد إذا لم تَظْهَر لنا قَرائنُ قَويَّةٌ تُزِيلُ هذا الأَصْلَ، ومِن ثَمَّ قَالَ الفُقَهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّه يَحْرُم سُوءُ الظَّنِّ بمُسْلِمٍ ظاهِرُه العَدالةُ.

ومن هنا أُحَذِّر بَعْضَ الإِخوة الذين يُطْلِقُون مثلَ قَوْلِهم: هذا مُنافِق، هذا كافِر، هذا كذا... إلخ، ويَصِفُونه بأوصافٍ تُخالِفُ ظاهِرَ حالِه؛ بناءً على ما يظنُّونَه في قَلْبِه، وهذا خَطَأ؛ لأَنَّهُ ليس لنا أن نَحْكُم إلَّا بما ظَهَر، قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ»[٢]، فدلَّ هذا على أَنَّهُ ليس لنا أن نَحْكُم إلَّا بما هو ظاهِر، أمَّا ما هو باطِن فأمْرُهُ إلى اللهِ، ولا يجُوز لنا أن نَرْمِيَ عِباد الله بما يُخالِف ظاهِر حالِهم، اللَّهُمَّ إلَّا إذا وُجِدَت قَرائِنُ قَويَّةٌ تُبيِّن كَذِبَه، فهذا يُحْكَم له بما تَقْتَضِيه الشَّريعَةُ.

٤- ومن فَوائِدِها: أنَّ المُنافِقَ ليس بمُؤْمِن؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، وهو كذلك، ولكن هل يَصِحُّ أن نقول: إنَّه مُسْلِم؟ يرى بَعْضُ أهْل العِلْمِ أَنَّهُ يصحُّ أن نقول عن المُنافِق: إنه مُسْلِم؛ لأَنَّهُ مُسْلِم ظاهِرًا، ورُبَّما يَسْتَدِلُّون بقَوْلِه تعالى في قصَّة لُوط عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٥٨٤/ ٦٣) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام الخصوم، رقم (٧١٦٩)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣) عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، وهذا البَيْتُ يَضُمُّ زَوْجَة لُوط عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهي تَتَظاهر بالإِسْلام، وليست بمُؤْمِنَة، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم:١٠]، فسمَّى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا البَيْتَ: بَيْتَ مُسْلِمين، بل سمَّى مَن فيه: مُسْلِمين، مع أنَّ فيه هذه الزَّوجةَ التي ليست بمُؤْمِنة.

والمُنافِقُون -في الحقيقة- مُسْلِمُون اسْتِسْلامًا عَمَليًّا؛ لأنَّهم لا يُخالِفُون في الظَّاهِر ما كان عليه المُسْلِمُون، وإن كان ذلك يَثْقُلُ عليهم، ويَشُقُّ عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال النبي ﷺ: «**لَيْسَ صَلاةٌ أَثْقَلَ عَلَى المُنافِقِينَ مِنَ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»[1]، وعلى كُلِّ حال فالمُنافِق إذا لم يُظْهِر نِفاقَه ويُعْلِنْه فهو مُسْلِم ظاهِرًا، وإن كان غَيْر مُؤْمِن.

٥- ومن فَوائِد الآية الثَّانِيَة، وهي قَوْلُه تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ مِن فَوائِدها: أنَّ هؤلاء المُنافِقين إنَّما صَنَعُوا ما صَنَعُوا؛ مُخادَعةً ومَكْرًا وكَيْدًا، فيدُلُّ هذا على ذَمِّ الخِداع والمكر والكَيْد، وهو كذلك، فالمكْرُ والخِداع والكَيْد أُمُور مَمْقُوتةٌ ومَذْمُومةٌ، إلَّا إذا كان في ذلك مَصْلَحة،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل صلاة العشاء في الجماعة، رقم (٦٥٧)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٥١/ ٢٥٢) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بحيث يَكُونُ في مُقابِلِ مَن يَخْدَعُك، فإنَّهُ يَجُوز أن تَخْدَعَ مَن خَدَعَك، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، ولهذا نقول: إنَّ الحَرْب خُدْعَةٌ، ويُذْكَر أنَّ عَلِيَّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ لمَّا خَرج إِلَيْه عَمْرُو بْنُ وُدٍّ ليُبارِزه صَرَخ عليٌّ، فقال: إنِّي لم أخْرُج لأُبارِزَ رَجُلَين، فظَنَّ عَمْرٌو أنَّ معه آخرَ، فالْتَفَتَ، فضَرَبه عليٌّ حتَّى قتَله[١]، فإنَّ هذا لا شَكَّ أنَّهُ خِداع، لكنَّه خِداع لِمَن يَحْسُن خِداعُه؛ لأَنَّهُ مُسْتحقٌّ له.

ويترتَّبُ على ذلك: أنَّه يَجِبُ على المُؤْمِنينَ الحَذَرُ مِنْهُم، ومن خِداعِهم، وألَّا يَأْخُذُوا بظاهِرِ أقْوالِهم أو بظاهِرِ أفْعالهم؛ لأنَّهم أهْلُ مَكْرٍ وخِداع.

٦- ومن فَوائِدها: بَيانُ أنَّ المُنافِقين من أعْداء المُؤْمِنين، ولهذا يَقُولُ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، كما أنَّهم أعْداءٌ لله عَزَّوَجَلَّ.

ويترتَّبُ على هذه الفائِدة: الحَذَرُ من المُنافِقين، وأن يَحْترز الإنسانُ من الإِفْضاء إِلَيْهم بالأسْرار والأُمُور المُهِمَّة؛ خوفًا من أنْ يُطِيحُوا به، وأن يُلْقُوه في المَهْلَكَة.

٧- ومن فَوائِد قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ الإِنْسان قد يَعْمَى عن الضَّلالة، فيَظُنُّ أنَّ ما فَعَلَه حَسَن، وهو سَيِّئ، وهَؤُلاء هم أخْسَر النَّاس أعمالًا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

فَإن قال قائِل: بِمَ نَزِنُ حُسْنَ الفِعْل وقُبْحه؟

---

(١) انظر: القصة في سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٥)، بنحوها.

قلنا: نَزِنُ ذلك بكِتاب الله، وسُنَّة رَسُولِهِ ﷺ، وما كان عليه السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ فإنَّ خَيْرَ الكُتُب كِتابُ الله، وخَيْرَ الهدي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشَرَّ الأُمُور مُحْدَثاتُها.

•●◯●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

من فَوائِد هذه الآية الكَرِيمَة:

١- أنَّ قُلُوب المُنافِقِين مَرْضَى، والمرضُ هنا ليس مَرَضًا عُضْوِيًّا يَكُون به الأَلَمُ الجَسَدِيُّ، ولكنَّه مَرَضٌ مَعْنَوِيٌّ يَرْفُض به القَلْبُ الحقَّ، ويَقْبَلُ الباطِل، وهذا وَصْفٌ مُنْطَبِق تمامًا على المُنافِقين.

٢- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: أنَّ القَلْبَ عليه مَدارُ الصَّلاح والفَساد بالنِّسْبَة للعَمَل؛ لأنَّ الله تعالى وصَفَ القَلْبَ بالمَرَضِ، وهو دَلِيلٌ على أنَّهُ إذا مَرِضَ مَرِضَ معه الجَسَدُ، وإذا صَحَّ صَحَّ معه الجَسَدُ، ويُؤَيِّد هذا: قولُ النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»[1].

٣- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: أَنَّهُ يَنْبَغِي للإِنْسان أنْ يَعْتَنِيَ بقَلْبِه، فيَنْظُرَ: أَصَحِيحٌ هو، أم مَرِيضٌ؟ فإن كان مَرِيضًا فلْيَحْرِص غايَةَ الحِرْص على طَلَب الشِّفاء له، وإن كان صَحِيحًا فلْيَحْمَدِ الله على ذلك، ولْيَسْأَلْهُ الثَّباتَ عليه.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩/ ١٠٧) عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ونحن نُشاهِد أنَّ الإنسان إذا مَرِضَ عُضْوٌ من أعْضائه مَرَضًا جِسْميًا ذهب إلى كُلِّ طَبيبٍ؛ من أجْل أنْ يَحْصُل على شِفاءٍ من هذا المَرَض، ولكنَّ مَرَض القَلْب لا يَهْتَمُّ به كَثِير من النَّاسِ، مع أنَّ مَرَض القَلْب أشدُّ خطرًا، وأعْظَمُ فتكًا من مَرَض البَدَن.

٤- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: أنَّ الإنْسان إذا لم يَحْرِص على عِلاج مَرَض قَلْبِه فإنَّهُ يُعاقَب بزِيادة المرَض؛ لقَوْلِه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾، ولا شَكَّ أنَّ هذه العُقُوبة أعْظَمُ من العُقُوبة بفَقْدِ الوَلَد والأهْل والمال، وكَثِير من النَّاس يَغْفُل عنها، فكَثِير من النَّاس يَظُنُّون أنَّ العُقُوبةَ إنَّما تكُونُ في الأُمُور الظَّاهِرَة، كالأبْدان والأمْوال والأولاد، والحقيقةُ أنَّ العُقُوبة بمَرَض القُلُوب وفَسادِها أشَدُّ وأعْظَمُ من العُقُوبة بمِثْل تِلْك الأُمُور، بل إنَّ كثيرًا من النَّاس يَكُونُ قَلْبُه مَيِّتًا، يُصابُ بالمصائِب من الخَوْف والجُوع وغير ذلك من المصائِب المادِّيَّة المحْسُوسة، ولا يَرْعَوِي ولا يَرْتَدِعُ عمَّا هو عليه من الفُسُوق والعِصْيان.

٥- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَدْلٌ في قَضائه وقدَرِه؛ فإنَّهُ لم يُجازِ هؤلاء المُنافِقين بزِيادَة المرَض إلَّا حَيْثُ كانت قُلُوبُهم مَرِيضةً عَفِنَةً، ولهذا قال: ﴿فَزَادَهُمُ﴾، فأتَى بالفاء الدَّالَّة على تَفَرُّع ما بَعْدَها على ما قَبْلَها.

٦- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: أنَّ المُنافِقين كما يُبْتَلَون بزِيادة مَرَض القَلْب يُبْتَلَون أيضًا بالعَذاب، وهو العُقُوبة على أعمالِهم السَّيِّئة، وهو عَذابٌ أَلِيم مُؤْلِم، ولا يُقاس بألَم الدُّنْيا وعُقُوبَتِها، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٧- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: إثْباتُ السَّبَب وأنَّ للأسباب تَأْثِيرًا في مُسَبَّباتها؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، والباءُ هنا للسَّببِيَّة، ولا شَكَّ أنَّ ارْتِباط المُسَبَّبات

بأسبابها وتَرَتُّبها عَلَيْها من مُقْتَضيات حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ، ونحن نَعْلَمُ جميعًا أنَ من أسْماء الله: (الحَكِيم) الَّذي يَضَعُ الأشياءَ مَواضِعَها، ومن ذلك: تَرْتِيبُ المُسَبَّبات على أسبابها.

ويتَفَرَّعُ على هذه الفائِدة: الرَّدُّ على مَن أنْكَـرُوا تَأْثِير الأسبابِ، وقالـوا: إنَّ الأسباب ليس لها أثَر في مُسَبَّباتِها، وظنُّوا أنَّ هذا هو التَّوحيدُ، وأنَّ إثْباتَ تَأْثِير الأسباب في مُسَبَّباتِها نَوْعٌ من الشِّرْك، ونحن نقول: إنَّ تَأْثِير الأسباب في مُسَبَّباتِها ليس تأثيرًا ذاتيًّا كان مِنْها، ولكنَّه تَأْثِيرُ وسِيلَة، فالأسباب وسِيلَة لحُصُول المُسَبَّبات، والذي جَعَلَها سببًا لُمسَبَّباتها هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قد تتخلَّفُ المُسَبَّبات عن أسبابها بقَضاء الله وقدَرِه، أفلا تَرَى إلى النَّار المُحْرِقة تَكُونُ بَرْدًا وسلامًا بأمْر الله، كما في قِصَّة إبراهيم الخَلِيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين أضْرَم قَوْمُه النَّار ليُحْرِقوه، وألْقَوْه في النَّار فِعْلًا، ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال للنَّار التي ألْقَوه فيها: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩]؛ فكانت بَرْدًا وسلامًا، ﴿بَرْدًا﴾ لم تُحْرِقه، ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لم تُؤْذِه، قال أهْلُ العِلْمِ: لو قال اللهُ لها: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ ولـم يَقُل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لكانت بَرْدًا مُؤْذِيًا له أو مُؤَثِّرًا عليه ضارًّا به، ولكنَّه قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَلَٰمًا﴾، فكانت بَرْدًا لَطِيفًا لا يضرُّهُ ولا يتأثَّرُ به، وهذا من تَمام قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أكْبَر دَلِيلٍ على أنَّ الأشياء لا تُؤَثِّر تأثيرًا ذاتيًّا بنَفْسِها، وإنَّما تُؤَثِّر بتَقْدِير الله عَزَّوَجَلَّ، وأنت إذا أثْبتَّ الأسباب على هذا الوَجْهِ لم تَكُـن مُثْبِتًا مع الله تعالى فاعِلًا، بل الأسبابُ ومُسَبَّباتُها كلُّها مَفْعُولاتٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

٨- ومن فَوائِد قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ مَعْرِفةُ سُوءِ النَّتائِج والعَواقِب للكَذِب، وأنَّ الكَذِب سَبَب للعَذاب، ولكن لا شَكَّ أنَّ الكَذِبَ

تَتَفاوتُ مَراتِبُه، وإذا تَفاوَتَت مَراتِبُه تَفاوَتَت عُقُوباتُه، فالكَذِبُ على الله ورَسُولِه -مثلًا- أعْظَمُ من الكَذِب على غَيْر الله ورَسُولِهِ، والكَذُب الَّذي يترتَّب عليه إتْلافُ مالٍ أو إتْلافُ أنفُس أعْظَمُ من الكَذِب الَّذي لا يترتَّبُ عليه ذلك.

ولكِنَّ الكَذِبَ كلَّه حَرام، ولا يصحُّ تَقْسِيمُ مَن قسَّم الكَذِب من العامَّة إلى كَذِب أَبيَض وكَذِب أسْوَدَ، ويقولون: إنَّ الكَذِبَ الأبْيَض هو الكَذِبُ الَّذي لا يترتَّبُ عليه إتلافُ مالٍ ولا إتْلافُ نَفْسٍ، وإنَّ الكَذِب الأسْوَد هو الَّذي يترتَّبُ عليه شيءٌ من ذلك، فنقول: إنَّ الكَذِبَ كُلَّه أسْوَدُ، وليس في الكَذِب شيءٌ مَمْدُوح، سواء تَرَتَّب عليه إتْلافُ مالٍ أو أنْفُس، أو ظُلْمٌ لأحد، أم لم يترتَّبْ عليه شيءٌ، ويَدُلُّ لذلك: أنَّ النبي -صلَّى اللهُ عَليْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم- جَعَلَ الكَذِبَ من صِفات المُنافِقين ومن عَلاماتِهم، فقال: «آيَةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[١].

ويَدُلُّ لهذا: أنَّ جَمِيعَ العُقَلاء يُنْكِرون الكَذِبَ، ولا يَرْضَون أنْ يَكُونَ خُلُقًا لهم، ألا ترى إلى أبي سُفْيان حين قدِمَ على هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّوم قبل أنْ يُسْلِمَ، فسَأله هِرَقْلُ عن حال النبي ﷺ وصِفاتِه، وحالِ أصْحابه، فلم يَشْأ أبو سُفْيان أنْ يتكلَّم بكَلِمَة كَذِبٍ، فتُؤْثَرَ عليه[٢]، وكلُّ العُقَلاء يَذُمُّون الكَذِب، ولا يَرْضَى أحدٌ منهم أنْ يُوصَف بأنَّهُ كذَّاب.

وقد حَذَّر النبيُّ ﷺ من الكَذِب، وقال: «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ! فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي

(١) سبق تخريجه (ص:٧٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، رقم (١٧٧٣/ ٧٤).

إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[1].

والكَذُوبُ المعْرُوفُ عند النَّاسِ بالكَذِب لا يُوثَقُ بخَبَرِه حتَّى وإن كان صادِقًا؛ لأنَّ النَّاس يَحْكُمون على الإِنْسان بغالِب أحْواله، ويَصِفُونه بغالِب أَخْلاقِه، فعلى المُسْلِم أنْ يَبْتَعِدَ عن الكَذِب كُلِّه صَغِيرِه وكَبِيرِه، ما تضمَّن الظُّلْمَ منه وما لم يتضمَّنْه.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: قِيلَ للمُنافِقِينَ ﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، لم يُبيِّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القائِلَ للمُنافِقين هذا القَوْل؛ لِيَشْمَل كُلَّ مَن قال لهم مِنَ النَّاس، فكُلُّ مَن قال لهم من النَّاسِ: لا تُفْسِدُوا في الأَرْض بالوِشايَة، والكَذِب، والخِيانة، وإِظْهار الإِسْلام أمام المُؤْمِنين، وإِظْهار الكُفْر أمام الكافِرين، قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ من أجْل أن نَسْلَم من القَتْل والحَرْب مع المُؤْمِنين، ونَسْلَمَ من الكَراهِيَة والبُغْض من الكافِرين، نُصْلِح طَرِيقَنا وسِيرَتَنا مع هؤلاء وهؤلاء، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤].

وتأَمَّلْ قَوْلَه: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، حيث حَصَرُوا حالَهم في الإِصْلاح، فقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُكَذِّبًا لهم ورادًّا عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. واللفظ لمسلم.

فقابَل اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القَوْلَ بقَوْلٍ أبلَغَ منه؛ حَيْثُ حَصَر الإِفْسادَ فيهم، وصَدَّره بـ: ﴿أَلَآ﴾ الدَّالَّة على التَّوْكِيد، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، وصَدَق اللهُ عَزَّوَجَلَّ! فإنَّ المُنافِقِينَ هم المُفسِدُون الذين يُفسِدُون في الأَرْض، ويَجْعَلُون فيها الفِتْنَة بما يَسِيرُون عليه من النِّفاق.

من فَوائِد وأحْكام هاتَيْن الآيتين:

١ - أنَّ المُنافِقِينَ قد يَأْتِيهم مَن يَنْصَحُهم، ويُبَيِّن لهم حالهم.

٢ - أنَّهم مُفْسِدُون في الأَرْض، ووَجْهُ الإِفْساد من هؤلاء: أنَّهم يُعْطُون للمُسْلِمين أَلْسِنةً طَيِّبةً وقولًا مَعْسُولًا، فيَظُنُّ المُؤْمِن أنَّهم من أولِيائه، فيُفْضِي إِلَيْهم بأَسْراره، ولكنَّهم كاذِبُون في ذلك، ويَحْصُل بهذا الفَسادُ؛ حيث يَحْصُلون على أَسْرار المُؤْمِنين، ويَنْشُرونها بين الكُفَّار.

ومِن إِفْساد المُنافِقينَ في الأَرْض أيضًا: أنَّهم يُريدون أن تُمْحَى شَرِيعَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأن يَكُونَ الحُكْم والتَّحاكُم إلى الطَّاغُوت، والطَّاغُوت: كلُّ نِظام يُخالِفُ ما شَرَعه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِعِباده، فالمُنافِقُون يُحاوِلُون بكُلِّ جُهُودِهم أنْ يَكُون التَّحاكُم إلى غير الله ورَسُولِه؛ لقَوْلِ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ

فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء:٦٠-٦٣]، فالمُنافِقُون لا يُريدُون أن تَبْقى شَرِيعةُ الله هي الحَكَمَ بين خَلْقِه في أرْضِه تَحْتَ سَمائِه، ولكن يُريدون أنْ يَكُون التَّحاكُم إلى الطَّاغوت، وهو كُلُّ ما خالَف شَرِيعَة الله ممَّا سَنَّهُ البَشَرُ.

ولا شَكَّ أنَّ هذا -أعني: رُجُوعَ النَّاسِ إلى غير شَرِيعَة الله في التَّحاكُم بينهم- فَسادٌ عَظِيمٌ، فيه الفَوْضَى، وفيه الظُّلْم، وفيه الجَوْر؛ لأنَّ كُلَّ حُكْم يُخالِفُ حُكْمَ الله لا شَكَّ أنَّهُ جَوْر؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الَّذي يَحْكُم بين عِبادِه بالقِسْط، وقد أمَر اللهُ سُبْحانه أنْ يَكُون التَّحاكُم إلَيْه، لا إلى غيره، فقال: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩].

ومن إفْساد المُنافِقين في الأرْض: أنَّهم يُؤْذُون رَسُولَ الله ﷺ بكُلِّ ما يَسْتَطِيعون من أذِيَّة قَوْلِيَّةٍ أو فِعْلِيَّةٍ، صَرِيحَةٍ أو تَلْمِيحيَّةٍ، كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٦١].

وهُمْ يُؤْذُون رَسُولَ الله ﷺ لا لِشَخْصِه، لا لأنَّهُ مُحَمَّدُ بن عَبْدِ الله، ولكن لِما جاءَ به من الشَّريعَة؛ لأنَّهم يَكْرَهُونها، ويَرَوْن أنَّ مَن قام بها فإنَّهُ مُسْتَحِقٌّ للأذِيَّة، ولكنَّهم -بِحَمْدِ الله، ورَحْمَته، وعِزَّتِه، وقُدْرَته، ونُصْرَته لِنبيِّه ﷺ- لا يَضُرُّون النبيَّ ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١]، فهم لا يَضُرُّون الرَّسُول ﷺ بأذِيَّتهم.

وإذا عَلِمْنا أنَّهم يُؤْذُون رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ من أجل أنْ يَتنازَل عن شيء من شَرِيعَة الله؛ خَوْفًا من أذِيَّتِهم، فإننا نَعْلَم كذلك أنَّهم يُؤْذُون أتْباع رَسُول اللهِ ﷺ لعلَّهم يَحِدُّون من التمسُّكِ بشَرِيعَته ﷺ.

وإذا كانُوا يُؤْذُون مَن اتَّبع رَسُولَ اللهِ ﷺ فإنَّ على المُؤْمِنينَ المُتَّبعين لرَسُولِ الله ﷺ الصَّبْرَ على أذِيَّتهم القَوْلِيَّة أو الفِعْلِيَّة، التَّصْرِيحيَّة أو التَّلْمِيحيَّة، ولْيَعْلَمُوا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جاعلٌ كَيْدَهم في نُحُورهم.

ومن إفْساد المُنافِقين في الأرْض: أنَّهم يُثبِّطُون عن الجِهاد في سَبِيل الله، وعن قِتال أعْداء الله؛ لأنَّ أعْداء الله يُوافِقُونهم في الكُفْر، فالكُلُّ كافِرٌ، لكن هؤلاء مُخادِعُون يُظْهِرون الإِسْلام، والكافِرُون صُرَحاء أشْجَعُ منهم، يُعْلِنُون كُفْرَهم ولا يُبالُون، وهم يُثبِّطون عن قِتال هؤلاء الكافرين، كما ذَكَر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك عنهم في عِدَّة آيات من القُرْآن العَزِيز.

ومِن إفْساد هؤلاء -أعني: المُنافِقينَ- في الأرْض: أنَّهم يُوالُون أعْداء الله، ويَتَوَلَّونهم أكْثَر ممَّا يَتوَلَّون المُؤْمِنينَ؛ لأنَّ أعْداء الله الكُفَّارَ إخْوانُهم الحَقِيقيُّون؛ لأنَّهم مُتَّفِقُون وإيَّاهم على الكُفْرِ بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهم يَتَوَلَّونهم أكْثَر ممَّا يَتوَلَّون المُؤْمنينَ؛ لأنَّهم إنَّما يَتوَلَّون المُؤْمِنينَ في الظَّاهِر، لا في الباطِن، ومن المَعْلُومِ أن تَوَلِّيَهم لِلْكافِرِينَ يَزِيدُ الكافِرينَ قُوَّةً، ويَزِيدُهم ثَباتًا في مُجابَهَة المُؤْمنين، وهذا يتضمَّنُ نَصْرَ الكُفْر على الإيمان.

وأنْواعُ إفْسادِهم في الأرْض كَثِيرَةٌ، يَعْرِفُها مَن يتتبَّعُ الآياتِ الكَرِيمَة في كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ، كما في هذه السُّورَة، وكما في سُورَة آل عِمْران، وكما في سُورَة النِّساء،

وكما في سُورَة التَّوْبَة، وكما في سُورَة الأحْزاب، وكما في سُورَة الْمُنافِقون، نَسْأَلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يَحْمِي الإِسْلام من كَيْدِهم، وأن يَنْصُر الْمُسْلِمين عليهم.

يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهذه دَعْوَى منهم، يُنْظَرُ: هل يُصَدِّقها الواقِعُ، أو لا يُصَدِّقها؟ فبَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ لا يُصَدِّقها الواقِعُ.

ويُسْتَفاد من هذا: أن كُلَّ إِنْسان يَدْعُو إلى باطِلٍ فإِنَّما يَزْعُم أَنَّهُ على حَقٍّ، وأنَّ كُلَّ إِنْسانٍ يَدْعُو إلى فَساد فإِنَّما يَزْعُم أَنَّهُ يَدْعُو إلى صَلاحٍ.

فإذا قال قائِل: بِأيِّ شَيْءٍ يُوزَنُ الصَّلاحُ والفَسادُ، والحَقُّ والباطِل؟

قلنا: بالرُّجُوع إلى كِتاب الله، وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ، فبِهما يُعْرَفُ الحقُّ من الباطل، ويُعْرَف الصَّلاحُ من الفَساد.

• • ◦ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

قَوْلُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لم يُبَيِّن اللهُ تعالى القائِلَ.

وقَوْلُهُ: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ الْمُرادُ بهم: الْمُؤْمِنُون: رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَصْحابُه، وقد قال هؤلاء الْمُنافِقُون في الجواب على مَن يَدْعُوهم إلى الإِيمان: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، وهذا الاسْتِفْهام للإِنْكار، يعني: لن نُؤْمِنَ كما آمن السُّفَهاء؛ لأَنَّهم سُفَهاء،

وليسُوا راشِدِين -أي: ليس عَنْدَهم رُشْدٌ، بل هم في سَفَهٍ-، قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

وتأمَّلْ في الفَرْق بين قَوْلِهِ هنا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وقَوْلِهِ في الآية التي قَبْلَها: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، هناك نَفَى الشُّعُورَ عنهم؛ لأنَّ الإِفْساد أمْرٌ ظاهِر مَعْلُوم يُدْرَك بالحِسِّ والحَواسِّ الظَّاهِرَة، أمَّا الإيمانُ فإنَّهُ أمْرٌ باطِن يُدْرَك بالبَصِيرَة الباطِنَة، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، فأبْطَل اللهُ تعالى دَعْواهم بأنَّ المُؤْمِنينَ سُفَهاء، وبيَّن أنَّهم هم السُّفَهاء، وحَصَرَ السَّفَهَ فيهم، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي: لا غيرُهم، ولكنَّهم في عَمًى وضَلالٍ، لا يَعْلَمون أنَّهم سُفَهاء، ولهذا اسْتَمرُّوا على ما هُمْ عليه من الضَّلال والعَمَى.

من فَوائِد الآية الكَرِيمَة:

١- أنَّ هؤلاء المُنافِقينَ قد دُعُوا إلى الحقِّ، ودُعُوا إلى الإيمان، ولكنَّهم -لكِبْرِيائهم، وغَطْرَسَتِهم، واحْتِقارهم غيرَهم- يُجِيبُون مَن يَدْعُوهم إلى ذلك بأنَّهم لا يُؤْمِنون كما آمَنَ السُّفَهاء.

٢- ومن فَوائِد هذه الآية الكَرِيمَة: أنَّ هؤلاء المُنافِقين يَدَّعون أنَّ الإيمان سَفَه، يَدَّعون ذلك إمَّا عن اعْتِقاد، وإمَّا عن إضْلال للخَلْق؛ فيحتملُ أنَّ الله تعالى أعْمَى بَصِيرَتَهم، فرَأوا الحَقَّ باطِلًا، ويحتملُ أنَّهم يَرَوْن الحقَّ حقًّا، ولكن لم يُوَفَّقُوا لاتِّباعِه، وهذا هو الأَقْرَب.

إِذَنْ: فهم يُرِيدُون بوَصْفِ المُؤْمِنينَ بالسُّفَهاء، يُرِيدُون بذلك: تَنْفيرَ النَّاس من المُؤْمِنينَ، ومن طَرِيقَتِهم، وهِيَ: الإيمانُ بالله.

٣- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: أنَّ لِتَنْفير المُنافِقين عن دِينِ الله عِدَّةَ طُرُق، منها: عَيْبُ أتْباعِه، كما في هذه الآية.

٤- ومن فَوائِد الآية الكَرِيمَة: أنَّهُ يجِبُ أنْ يُرَدَّ على ذي الْباطِلِ باطِلُه، ويُبيَّنَ أنَّهُ هو الَّذي على الباطِلِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

٥- ومن فَوائِد الآية: أنَّ السَّفَه وَصْف رَدِيء، كُلُّ أحَد يَنْفُر منه، وهذا أمْر لا شَكَّ فيه، ولكن ما هو السَّفَه؟ السَّفَهُ كُلُّ السَّفَه أنْ يَرْغَب الإنسانُ عن دِينِ الله عَزَّوَجَلَّ، وعن المِلَّة التي عليها الأنْبياءُ والصَّالِحُون، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]، ولهذا نقول: كُلُّ إِنْسانٍ يَرْغَب عن دِينِ الإسلامِ فإنَّهُ سَفيه مَهْما بَلَغ في الذَّكاء، ومَهْما بَلَغ في الإِدْراك؛ لأنَّه لو كان راشِدًا عاقِلًا عَقْلَ تصرُّفٍ وتَدْبيرٍ لكان مُتَّبِعًا لِما جاء به رَسُولُ اللهِ ﷺ.

•●෴●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالى:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

هَؤُلاء المُنافِقُونَ من أَوْصَافِهم: المُراوَغة، والدَّجَل، والتَّمْويه، فهم إذا ﴿لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ إرْضاءً للمُؤْمِنينَ، وخِداعًا لهم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ طَواغِيتِهم أئِمَّةِ الكُفْرِ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يعني: ولَسْنا مُؤْمِنينَ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: مُسْتَهزِؤونَ بالمُؤْمِنينَ، نَسْخَرُ منهم، ونَلْعَب بعُقُولهم، هكذا زَعَمُوا، فقال اللهُ تعالى ردًّا عليهم: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

واسْتِهْزاءُ الله بهم يعني: أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَسْتَهْزِئ بهم، يتَّخِذُهم هُزُوًا، فيُمْلِي لَهُم، ويُمْهِل لهم، وهذا تَفْسِير بلازِم الاسْتِهْزاء، وإِلَّا فالاسْتِهْزاء صِفَةٌ من صِفات الله الثَّابِتَة لَهُ على وَجْه الحَقِيقَة، ولازِمُه: أَنَّ الله يُمْهِل هَؤُلاء، ويَمُدُّهم ويَدَعُهم في هذا الطُّغْيان يَضِيعُونَ ويَتِيهُونَ.

من فَوائِد الآيتين الكَرِيمتين:

١- بَيانُ مُراوَغَة هؤلاء المُنافِقين؛ حيث يَقُولُون للمُؤْمِنِينَ قَوْلًا، ويَقُولُون لِشَياطِينِهم من الكافِرِينَ قَوْلًا آخَرَ مُضادًّا له، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وهذه غايَة المُراوَغة، ففيها خِداعٌ لِهَؤُلاء ولِهَؤُلاء: خِداعٌ للمُؤْمِنِينَ بأَنَّهم مُؤْمِنُون، وخِداعٌ للكافِرِين بأَنَّهم مَعَهم، ولكنَّ خِداعَهم للكافِرِينَ ليس كَخِداعِهم للمُؤْمِنين؛ لأَنَّ حَقِيقَة حالِهم أَنَّهم مع الكُفَّار، فهم لَيْسُوا بمُؤْمِنِينَ حقًّا، وهم كافِرُون حقًّا.

٢- ومن فَوائِدهما: أَنَّ الإنسانَ يُؤْخَذُ بظاهِرِه، فالمُؤْمِنُون إذا قال لهم هؤلاء المُنافِقُون: «آمَنَّا» تَرَكُوهم وظاهِرَهم، ولهذا كان رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعامِلُهم على ظاهِرِهم، حتَّى إِنَّهُ اسْتُؤْذِنَ في قَتْلِهم، فقال: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1].

وهَكَذا الأَحْكامُ في الدُّنْيا إِنَّما تَكُونُ على الظَّاهِر، لا على الباطِن، أَمَّا في الآخِرَة فتكُون الأَحْكامُ على الباطِن، وقد ثَبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ**

---

(١) سبق تخريجه (ص:٧٦).

مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ؛ فَإِنَّما أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[1].

٣- ومن فَوائِدهما: أنَّ هؤلاء المُنافِقينَ لا يَقُولُون للمُؤْمِنينَ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، بل يَقُولُون: ﴿ءَامَنَّا﴾، ولَكِنَّهم في خِطاب الكافِرينَ يَقُولُون: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وهذا ظاهِرٌ في عَقْدِ المُوالاة بينهم وبين الكُفَّار؛ لأنَّ المعِيَّة تَقْتَضي المُناصَرَة والمُوالاة، فهم مع الكُفَّار أولِياءُ مُناصِرُون، لكن مع المُؤْمِنينَ يَقُولُون: ﴿ءَامَنَّا﴾، وما يُدْرِينا فلعلَّهم يُرِيدُون بقَوْلِهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ يَعْنِي: آمَنَّا بالطَّاغُوت.

٤- ومن فَوائِد هاتَيْن الآيتين: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَسْتَهْزِئ بمَن يَسْتَهْزِئ به وبِعِبادِه، حينَ قال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وهذا الوَصْفُ الَّذي وصَفَ اللهُ به نَفْسَه -وهو الاسْتِهْزاءُ- على قاعِدَة أهْلِ السُّنَّة والجَماعَة السَّلَفيَّة يُجْرَى على ظاهِرِه، لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعْلَمُ بنَفْسِه وبِغيره، وأصْدَقُ قِيلًا، وأحْسَن حَدِيثًا من غيره، وقد وصَف اللهُ نَفْسَه بصِفاتٍ كَثِيرَة في كِتابه وعلى لِسان رَسُولِه ﷺ، فالواجِبُ إجْراؤُها على ظاهِرِها اللَّائِقِ بالله، ويُقال: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَسْتَهْزِئ بمَن يَسْتَحِقُّ الاسْتِهْزاء، وهو اسْتِهْزاء حَقِيقيٌّ يَلِيقُ بالله عَزَّوَجَلَّ، ليس اسْتِهْزاءً يَتَضَمَّن نَقْصًا؛ لأنَّ الله وصَفَ به نَفْسَه، وَكُلُّ ما وصَفَ الله به نَفْسَه فهو كَمالٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]، ولهذا لا تَجِدُ الله عَزَّوَجَلَّ يَصِفُ نَفْسَه بالاسْتِهْزاء على وَجْه الإِطْلاق، وإنَّما وصَفَ نَفْسَه بالاسْتِهْزاء في مُقابَلة المُسْتَهْزِئين بعِبادِه؛ لِيُبَيِّن بذَلك أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أقْوَى منهم وأعْظَمُ، فإذا سَخِرُوا من المُؤْمِنينَ سَخِرَ اللهُ منهم،

---

(١) سبق تخريجه (ص:٧٦).

والاسْتِهْزاءُ إذا كان في مُقابَلة المُسْتَهْزِئ كان صِفَة كَمال؛ لأنه يَدُلُّ على أنَّ المُتَّصِفَ به أكْمَلُ من الآخَر وأقْوَى، وأنَّ الآخَرَ يُعامَل بمِثْل ما يُعامِل غيره.

٥- ومن فَوائِد الآيتين: بَيان حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث جَعَلَ الجَزاء من جِنْس العَمَل، فكما أنَّ هؤلاء اسْتَهْزَؤُوا بالمُؤْمِنينَ فاللهُ تعالى اسْتَهزَأ بهم، وهذا من عَدْل الله عَزَّوَجَلَّ، وهو ثابِتٌ في الدُّنْيا وفي الآخِرَة، بل إنَّ جَزاء الله عُمُومًا دائرٌ بين العَدْل والفَضْل، فهو بالنِّسْبَة للعُصاة عَدْلٌ، وبِالنِّسْبَة للطَّائِعين فَضْلٌ.

وإنَّني بمُناسَبة هذه الآية أقُولُ: إنَّ القاعِدَة العامَّة عِنْد أهْل السُّنَّة والجَماعة، والسَّلَف الصَّالِح: أنَّ كُلَّ ما وصَف الله به نَفْسَه فهو حقٌّ على حَقِيقَتِه، سواء أكان ذلك في كِتاب الله، أم فيما صحَّ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ.

ويجبُ أن نَعْلَم عِلْمَ اليقين أنَّ كُلَّ صِفَة وصَف الله بها نَفْسَه فإن حَقِيقَتَها تُخالِف حَقِيقة ما يتَّصِفُ به العَبْدُ من جِنْسِها؛ وذلك لأنَّ الصِّفَة تابِعَة للمَوْصُوف، فكما أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كمِثْلِه شيء في ذاتِه؛ فلَيس كمِثْلِه شيء في صِفاتِه، لا يَجُوز -مثلًا- أن نَقُول: إنَّ هذه صِفَة لا تَلِيقُ بالله، فالواجِبُ نَفْيُها وتَحْرِيفُها إلى مَعْنًى آخر؛ لأننا إذا قُلْنا بذلك صِرْنا نَحْكُم على الله تعالى في صِفاتِه بعُقُولِنا، لا بما بَلَغَنا عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن المعْلُومِ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أنْزَل هذا الكِتاب؛ ليُبيِّن للنَّاس الهُدَى، كما قال اللهُ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء:١٧٦]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:٢٦]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ

صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١] وقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، والآياتُ في هذا المعْنَى كَثِيرَة، وليس مِن حَقِّنا، ولا يَسُوغُ لنا أن نَحْكُم على الله تعالى بعُقُولِنا، بل نَقُول: سَمِعْنا، وأطَعْنا، وآمَنَّا، وصَدَّقْنا؛ فوَظِيفَتُنا نَحْوَ ما أَخْبَرَ اللهُ به عن نَفْسِه أن نَقُول: سَمِعْنا، وأطَعْنا، وآمَنَّا، وصَدَّقْنا، وألَّا نُحَرِّف ظَواهِر النُّصُوص إلى مَعانٍ نُعَيِّنُها بعُقُولِنا، ونَحْكُم بها على رَبِّنا، كما أنَّهُ يجبُ علينا نَحْوَ هذه النُّصُوص ألَّا نَعْتَقِد فيها تَمْثِيلًا، أي: أنَّ الله تعالى يُماثِل لخَلْقِه فيها؛ فإنَّ الله تعالى يَقُول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، فنَحْنُ نَعْلَمُ بالعَقْل أنَّهُ لا يَسْتَوي المخْلُوق مع الخالِق في أيِّ صِفَة من الصِّفات.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

الإِشارَةُ في قَوْلِهِ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إلى المُنافِقِينَ، وأشار إِلَيْهِم باسْمِ الإِشارَة الدَّالِّ على البَعِيدِ -وإن كان الكَلامُ فيهم قريبًا- للتَّبَرُّؤ منهم، والبُعْدِ عنهم؛ فإِنَّ الإِشارَة للبَعِيد تارَةً تَكُونُ لعُلُوِّ مَنْزِلَة المُشار إِلَيْه، وتارَةً تَكُونُ لدُنُوِّ مَنْزِلَتِهِ، وهذا هو المَقْصُود في هذه الآية.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ أي: أخَذُوا الضَّلالَة، وتَرَكُوا الهُدَى، فسَلَكُوا طَرِيقَ الضَّلال، وتَرَكُوا طَرِيقَ الهُدَى، ولكنَّهُ عَبَّر بالاشْتِراء؛ ليُبَيِّن أنَّهم سَلَكُوا هذه الطَّرِيق عن مَحَبَّةٍ وشَغَفٍ، كما يُحِبُّ المُشْتَري أنْ يَحْصُل على السِّلْعَة التي

يَشْتَرِيها، والمُرادُ بالضَّلالة هنا: ما خالَف الحقَّ، وبالهُدَى: ما وافَقَ الحقَّ.

قال اللهُ تعالى مُبَيِّنًا نَتِيجَة هذا الفِعْلِ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، بل خَسِرُوا خُسْرانًا عَظِيمًا، وضَلُّوا ضَلالًا بَعِيدًا.

من فَوائِد وأحْكام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بَيانُ سَفَه المُنافِقين؛ حَيْثُ اخْتارُوا الضَّلالة، وتَرَكُوا الهُدَى، وكُلُّ إِنْسان يَسْلُك هذا المَسْلَك فإِنَّهُ سَفيه بلا رَيْبٍ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠].

٢- ومن فَوائِدها: أنَّ المُنافِقينَ يَحْرِصُون على كُلِّ ما فيه ضَلالة، سواءٌ أكان من الأُمُور الكَبِيرَة العامَّة، أم كان من الأُمُور الصَّغِيرَة، حتَّى الوَسائل التي يتوصَّلُون بها إلى إِضْلال الخَلْقِ يَأْخُذُونها ويَسْلُكُونها.

•••

ثُمَّ ضَرَبَ اللهُ لهم مَثَلًا مُطابِقًا لِحالِهِم تمامًا، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، وهذا المَثَل مُطابِق لحالِهم تمامًا، وهو من أَمْثال التَّمْثِيل، كما في عِلْم البَلاغَة، فهذا رَجُل احْتاجَ إلى نارٍ يَسْتَدْفِئُ بها ويَسْتَنِيرُ بها، ولَكِنْ ليس مَعَهُ ما يَسْتَنِيرُ به، فاسْتَوْقد نارًا من شَخْصٍ، أي: طَلَب أنْ يُوقِدَ له نارًا، فأوقد لَهُ النَّار، فلمَّا تَبَيَّن ضَوْؤُها من الشُّعْلَة طَفِئَت الشُّعْلَةُ، فبَقِيَ في ظُلْمَة بعد أنْ كان في نُورٍ، وبَقِيَت حَرارَةُ النَّار التي قد يَكُونُ فيها ضَرَر، ولهذا قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، ولم يَقُل: «بِنارِهم»، أي: بَقِيَت النَّار بحَرارَتها، وذَهَب النُّورُ المُسْتَفادُ من الشُّعْلَة التي انْطَفَأت، وبَقُوا في ظُلُماتٍ

لا يُبْصِرونَ، وإنَّما كانُوا في ظُلُماتٍ؛ لأنَّ انْطِفاءَ النُّور بعد وُجُودِه يُحْدِثُ ظُلْمَةً، ولاسِيَّما عند انْطِفائِه في أوَّل وهْلَةٍ.

فهؤلاء المُنافِقُون ليس عندهم نُورٌ في قُلُوبهم، إنَّما يَسْتَفيدُون ما يَسْتَفيدُونه من النُّور من بَعْض المُؤْمِنين من أقارِبهم أو جِيرانِهم، فيَسْتَضِيؤُون به لَحَظْةً، ولكنَّهم يَعُودُون إلى أصْلِهم من الظُّلْمَة والضَّلالَة، يَسْتَضِيؤُون به لَحْظَةً، ثُمَّ يَنْطَفِئ، فيَبْقَى ذلك حَرارَةً في قُلُوبِهم؛ لأنَّهم ليس لهم نُورٌ يَهْتَدُون به.

ثُمَّ قال: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ ﴿صُمٌّۢ﴾ يعني: لا يَسْمَعُون الهُدَى، ﴿بُكۡمٌ﴾ لا يَنْطِقُون به، ﴿عُمۡىٞ﴾ لا يُبْصِرُونه، فنَفَى عنهم طُرُقَ الهِدايَةِ كُلَّها، وقال: ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾، فهذه حالُ المُنافِق، لا يَنْطِقُ بالحَقِّ، ولا يَسْتَمِعُ إِلَيْه، ولا يَنْتَفِعُ به لو سَمِعَه، ولا يُبْصِرُه، وإن أبْصَره لم يَنْتَفِع به، فهو بمَنْزِلَة الأعْمَى.

فَوائِد الآيتَيْنِ الكَرِيمتَين:

١- يَضْرِبُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأَمْثَال هنا، فيُسْتَفادُ من ذلك: أنَّ من البَلاغَة أنْ يَضْرِبَ المُتكَلِّمُ الأمْثالَ المحْسُوسَةَ للمُخاطَب؛ ليَتوصَّل بها إلى المعاني المعْقُولَة؛ لأنَّ إِدْراك الشَّيء المحْسُوس أقْرَبُ من إِدْراك الشَّيء المعْقُول، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]، فالأمْثالُ مُهِمَّةٌ في تَعْلِيم المُخاطَب؛ لتَقْرِيب المعاني إلى ذِهْنِه، وتَصوُّرِها.

٢- ومن فَوائِدهما: أنَّ المُنافِقين ليس لهم نُورٌ ذاتِيٌّ يَسْتَضِيؤُون به، وإنَّما نُورُهم من نُورٍ خارِجِيٍّ يُضِيءُ عليهم، ثُمَّ يَخْبُو، ويَبْقَون في ظُلْمَة، فتَشْتَدُّ الظُّلْمَة عليهم بعد النُّور الَّذي أضاءَ لهم.

٣- ومن فَوائِدهما: أنَّ هؤلاء المُنافِقِينَ إذا اسْتَضاؤُوا بهذا النُّور الَّذي يَأْخُذُونَه من غيرهم فإنَّهم قد يَلُوحُ لهم شيءٌ من الهُدَى، ولكن لِعِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ بحالِهم، وأنَّهم لَيْسُوا أهلًا للهِدايَة؛ لِمَا في قُلُوبهم من الزَّغَل، والأَسْرارِ الخَبِيثَة، يَذْهَبُ الله بنُورِهم، ويَدَعُهم.

وعلى هَذِه الفائِدَة تَتَفَرَّعُ فائِدَةٌ أُخْرَى عَظِيمَة، وهي: أَنَّهُ يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يُطَهِّر قَلْبَه تَطْهِيرًا كامِلًا من كُلِّ زَغَلٍ وخَبَثٍ، وأن يَعْتَنِي بطَهارَة قَلْبِه أَكْثَر ممَّا يَعْتَنِي بطَهارَة بَدَنِه وثِيابِه؛ لأنَّ طَهارَةَ القَلْب عليها المَدارُ، وبها تَكُونُ طَهارَةُ الأعْمال الظَّاهِرَة.

٤ -ومن فَوائِد الآيَتَيْن السَّابِقَتَين: بيانُ حالَ المُنافِقِينَ، وأَنَّهم -والعِياذُ بالله- لا يَصِلُ إِلَيْهم الهُدَى من أيِّ طَرِيقٍ، فهم صُمٌّ لا يَسْمَعُونه، ولو سَمِعُوا ما اهْتَدَوا به، بُكْمٌ لا يَنْطِقُون به، بل يَنْطِقُون بالباطِل، وما يَنْطِقُون به من الحقِّ فإنَّما يُرِيدُون به باطِلًا، لا يُرِيدُون به حَقِيقَة مَعْناه، وهم عُمْيٌ لا يُبْصِرُون الحَقَّ، ولو أَبْصَرُوا الحَقَّ ما انْتَفَعُوا به.

٥- ومن فَوائِدهما: أنَّ هؤلاء المُنافِقِينَ قد رَأوا أنَّهم على صَوابٍ، وعلى حقٍّ، وعلى طَرِيقٍ صَحِيحٍ؛ ولهذا لا يَرْجِعُون عن غَيِّهم، بل يَبْقَون على ما هُمْ عليه.

ويتفَرَّعُ على هذه الفائِدَة فائِدةٌ أُخْرَى، وهي: أَنَّهُ يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَعْتَنِي دائمًا بالتَّنْقِيب والنَّظَر في عَمَلِه، وهل هو صَواب، أو خَطَأ؟ فإن كان صَوابًا فلْيَحْمَد الله، وليستَمِرَّ عليه، وإن كان خَطَأً فلْيَتُبْ إلى اللهِ، ولْيَرْجِع إلى الصَّواب أيْنَما كانَ.

••◌••

ثُمَّ قَالَ تعَالَى فِي المثَل الثَّانِي:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

هذا المثَلُ الثَّانِي لِطائِفَةٍ أُخْرَى من المُنافِقينَ، وإن شِئْتَ فقل: لِحالٍ أُخْرَى من المُنافِقينَ، ضَرَب اللهُ لهم مَثَلًا بصَيِّبٍ من السَّماء، أي: مَطَرٍ نازِلٍ من السَّماء، وهو الوَحْيُ الَّذي نَزَل على رَسُول اللهِ ﷺ، وهذا الصَّيِّب فيه ظُلُماتٌ: ظُلْمَةُ المطَر، وظُلْمَةُ السَّحاب، وظُلْمَةُ اللَّيْل، وفيه -أيضًا- رَعْدٌ وبَرْقٌ، وهذا الرَّعْدُ رَعْدٌ شَدِيدٌ فيه صَواعِقُ، والصَّواعِقُ: عِبارَةٌ عن كَشْفِ حالِ هؤلاء المُنافِقين، وبَيان أَسْرارِهم، وخُبْثِهم، وعمَّا في القُرْآن من الزَّواجِر والوَعِيد لِمَن عَصَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

لكنَّ هؤلاء المُنافِقين يَجْعَلُون جُنَّةً لا تُجِنُّهم، ويَسْتَتِرون بسِتْرٍ لا يَنْفَعُهم: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾، يَظُنُّون أنَّهم إذا لم يَسْمَعُوا الصَّاعِقَة لم تَنْزِل عليهم، ولكنَّهم أخطَؤُوا في هذا التَّقْدِير.

وهذه الآيَةُ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون:٤]، فيَظُنُّون كُلَّ آيةٍ نَزَلَت في وَصْفٍ يُبيِّن عُيُوبَهم، ويَهْتِك أسْتارَهم، يظنُّ كُلُّ واحِدٍ مِنْهم أنَّهُ هو المعْنِيُّ بذلك، فيَمْشِي في النَّاس وكَأنَّه خائِف حَذِر، ولكن هذا لا يُغْنِيهِ شَيْئًا.

ثُمَّ هَذا البَرْقُ -لشِدَّتِه، وقُوَّتِه- يقعُ على بَصَرٍ ضَعِيف لا يَتحَمَّل، ليس عنده قُوَّة ولا قُدْرَة على تحمُّلِ الإضاءَة؛ ولهذا قال: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾، والبَصَرُ الضَّعِيفُ يَتَأثَّر بكُلِّ نُورٍ، وكُلَّما قَوِيَ النُّورُ قَوِيَ تَأْثِيرُه، وانْظُرْ إلى الأعْشَى إذا خَرَج، أو انْظُرْ إلى ضَعِيفِ البَصَر إذا خَرَجَ إلى الشَّمْسِ تَجِدُه يَنْكَسِفُ بَصَرُه، وتَهِلُّ دُمُوعُه؛ لأنَّهُ لا يَقْوَى على تَحَمُّل هذا النُّور، فهم كذلك بَصَرُهم ضَعِيفٌ، ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾؛ لأنَّ النُّورَ قَـوِيٌّ، والبَصَرَ غير مُقاوِمٍ لضَعْفِـه، فيَكـادُ البَرْقُ يَخْطَف أبْصارهم؛ لشَدَّتِه، وضَعْفِ البَصَر، وعَجْزِه عن المُقاوَمة.

ومع ذلك فهم يَنْتَهِزُون الفُرْصَةَ: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾؛ لأنَّهم لا يَسْتَطِيعُون المشْيَ مع هذه الظُّلُماتِ، وبعد هذا النُّورِ العَظِيم.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ لَذَهَب بسَمْعِهم، فلم يَكُن لهم سَمْعٌ، وبِأبْصارِهم، فلم يَكُنْ لهم بَصَر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فَوائِد الآيَتَيْن الكَرِيمتَين:

١- أنَّ حالَ هؤلاء المُنافِقين حالٌ ضَعِيفَة لا تَسْتَطِيع المُقاوَمَة، ولا القِيامَ بشَرْع الله عَزَّوَجَلَّ.

٢- أنَّ هؤلاء المُنافِقِينَ عِنْدَهم من الخَوْف والذُّعْر والرُّعْب ما يَجْعَلُهم يَظُنُّون أنَّ كُلَّ صَيْحَةٍ عليهم، وأنَّ كُلَّ وعِيدٍ لهم، وأنَّ كلَّ إنْذارٍ لهم أيضًا، فهم جُبَناءُ

ضُعَفاءُ لا يَسْتَطِيعُون أنْ يُقاوِمُوا الحقَّ؛ لقُوَّتِه أمامَهم، وضَعْفِهم أمامَه.

ويترتَّبُ على هذه الفائِدَة فائِدَةٌ أُخرَى عَظِيمَةٌ، وهي: أَنَّهُ يَنْبَغِي للإِنْسان أنْ يَتقَبَّل الحقَّ حَيْثُما كان، وأن يَكُون عازِمًا على تَطْبِيقِه، سواء أكان ذلك شاقًّا على نَفْسِه، أم هيِّنًا عليها؛ لأنَّ المُؤْمِنَ -كما ذَكَر الله تعالى من وَصْفِه- يَقُولُ: سَمِعْنا وأطَعْنا، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

٣- ومن فَوائِدهما: أنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ كالمطَر، غَيْثٌ للأَرْضِ تَنْتَفِع به، ويَنْتَفِع به أَهْلُ الأَرْض أيضًا، وهَكَذا وحْيُ الله تعالى وشَرْعُه الَّذي نَزَل، هو كالغَيْث، فمن النَّاسِ مَن يَقْبَلُ هذا المطَرَ، ويَسْتَخْرِجُ منه الثَّمَراتِ العَظِيمَةَ، ويَنْتَفِعُ النَّاس به، ومن النَّاس مَن لا يَنْتَفِع بهذا الوَحْي، ويَكُونُ كالأَرْض الصَّمَّاء التي تَبْتَلِع الماءَ، ولا تُنْبِتُ شيئًا، ومن النَّاس مَن يَكُونُ على أَوصافٍ أُخْرَى بالنِّسْبَة لهذا المطَر النَّازِلِ من السَّماء.

٤- ومن فَوائِد الآيَةِ الكَرِيمَة التي فيها المثَلُ الثَّانِي: أنَّ هؤلاء المُنافِقِينَ قد يَسْتَضِيؤُون بَعْض الشَّيْء أحْيانًا بما يَرَون من النُّور الحاصِل من الوَحْي، ولكن سَرَعان ما يَزُول ويَذْهَب، مع أنَّهم يَنْتَفِعُون به على مَشَقَّة، حتَّى إنَّه يَكادُ يَخْطَفُ أبْصارَهم.

٥- ومن فَوائِد الآيَةِ الكَرِيمَة: إِثْباتُ المشِيئَة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾، وقد أثْبَت اللهُ تعالى مَشِيئَتَه في عِدَّة آياتٍ من القُرْآن، وكلُّ شيء فإِنَّهُ بمَشِيئَة الله، ولهذا أجْمَع المُسْلِمُون على هذه الكَلِمَة: «ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يَشَأْ لم يَكُن».

ولكن مَشِيئَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تابِعَة لِحِكْمَتِه، فلا يَشاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلَّا ما اقْتَضَت حِكْمَتُه مَشِيئَتَه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، فبَيَّن أنَّ مَشِيئَتَه مَقْرُونة بعِلْمِه وحِكْمَته، وهو كذلك.

ولكن حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ منها ما هو مَعْلُوم لنا ومَفْهُوم نُشاهِدُه ونَعْرِفُه، ومنها ما هو خَفيٌّ علينا؛ لأنَّنا قاصِرُون في العِلْم والإِدْراك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، فما يَرِدُ على الذِّهْنِ أحْيانًا منَ الإِشْكالِ في بَعْض الآياتِ الكَوْنِيَّة أو الآياتِ الشَّرْعِيَّة إنَّما يَنْشَأُ من قُصُور الإِنْسان أو تَقْصِيرِه، ولو أنَّ الإِنْسان بَحَث بَحْثًا جِدِّيًّا يُرِيدُ به الحَقَّ لَتبيَّن له من حِكْمَة الله تعالى في أحْكامِه الكَوْنِيَّة والشَّرْعِيَّة ما لا يتبَيَّن للغافِل المُعْرِض الَّذي لا يُرِيدُ إلَّا أنْ يُشَكِّك النَّاسَ في بَعْض الأُمُور التي تَخْفَى حِكْمَتُها، كما يُعْرَف من بَعْض النَّاس الذين يَأْتُون، ويَقُولُون: ما الحِكْمَةُ في كَذا؟ ما الحِكْمَةُ في كَذا؟ نَحْن لا نُسِيءُ الظَّنَّ بأحَدٍ، لكن مِن النَّاسِ مَن يَقُول ذلك؛ لِيُشَكِّك العامَّةَ فيما هم عليه من الهُدَى والحَقِّ، لا لِقَصْد أنْ يَصِلَ إلى المعْنَى المطْلُوب الَّذي يَسْأَل عنه.

ومع هذا فإِنِّي أقُولُ: إن عَلِمْتَ حِكْمَة الشَّيء الواقِع بقَضاء الله وقدَرِه، وحِكْمَةَ الشَّيء الواقِعِ بشَرْعِ الله ودِينِه، فهذا -بلا شَكٍّ- من نِعْمَة الله عليك، وإن لم تَعْلَم فسَلِّم الأمْرَ وكِلِ الأمرَ إلى عالِمِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واعْلَمْ أنَّهُ لا يَحْكُم إلَّا لِحِكْمَة عَظِيمَة، عَلِمَها مَنْ عَلِمَها، وجَهِلَها مَنْ جَهِلَها.

٦- ومن فَوائِد الآيَةِ: أنَّ الله تعالى على كُلِّ شيء قدِير، وقُدْرَتُه عَزَّوَجَلَّ قُدْرَة تامَّة، لا يَعْتَرِيها عَجْز بوَجْه من الوُجُوه؛ ولهذا كان أمْرُه بالشَّيء أمْرًا واحِدًا لا يُكَرِّرُه،

بل إذا أَمَر بشَيْءٍ كان بلَحْظَـة، قَال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمۡحٍۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

فتَأَمَّل قَوْلَهُ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ يعني: لا يَقُول للشَّيْء: «كُنْ»، ثُمَّ يَقُولُ له: «كُنْ» مرَّةً ثانِيَةً، بل إذا قال: «كُنْ» كان كلَمْحِ البَصَر.

وتَأَمَّل قَـوْله تعـالَى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقَوْلَهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤] تَجِدْ أَنَّها زَجْرَةٌ أو صَيْحَةٌ واحِدَةٌ، يُبْعَث فيها الخَلائِقُ كُلُّهُم؛ فيَحْضُرُون للقَضاء بينهم بقُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا دَلِيلٌ على كَمال قُدْرَته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ﴾، ولا يُسْتَثْنَى من هذا شَيْءٌ أبدًا، فكلُّ شَيْءٍ اللهُ قادِرٌ عليه.

ويتَفَرَّعُ على الإيمانِ بهذه الفائِدَة: أَنَّ الإنسانَ يَنبَغِي أَنْ يَسْأل ربَّهُ كُلَّ ما يَرَى فيه مَصْلَحةً، ولا يَسْتَصْعِب الأَمْرَ، ولا يَقُولُ: هذا لن يَكُونَ! هذا بَعِيد! ولهذا قال النبي ﷺ: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلْيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ، إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لَا مُكْرِهَ لَهُ**»(١)، فلا أَحَدَ يُكْرِه اللهَ حتَّى يُقال: إنْ شِئْتَ فافْعَل، وإن شِئْتَ فلا تَفْعَل. ولا يُقال: «إنْ شِئْتَ» إلَّا لِمَن هو مُكْرَه، فيُنْظَر: هل يَشاء، أو لا يَشاء؟ أمَّا الَّذي يَفْعَلُ باخْتِياره وبإرادَته وبقُدْرَته فإنَّهُ لا يُقال في حقِّه: «إنْ شِئْتَ»، ولهذا نَهَى النبيُّ ﷺ عن ذلك، وقال: «**إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لَا مُكْرِهَ لَهُ**».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، رقم (٧٤٧٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء، رقم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

وَجَّه اللهُ الخِطابَ إلى النَّاس؛ لأنَّ النَّاس جميعًا يَجِبُ عليهم عِبادَةُ الله وَحْدَه لا شَرِيكَ له، والعِبادَة: هي التَّذَلُّل لله عَزَّوَجَلَّ بفِعْلِ أوامِرِه، واجْتِناب نَواهِيه، وقد تُطْلَق على المُتَعَبَّد به، وهي العِبادات التي يَقُومُ بها الإنسانُ، كالصَّلاة، والزَّكاة، والصِّيام، والحَجِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ الرَّبُّ: هو الخالِق المالِك المُتَصَرِّف المُدَبِّر لجَمِيع الأُمُور.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ يعني: الَّذي أوجَدَكم من العَدَم ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: خَلَقَهم وأوجَدَهم اللهُ من العَدَم كما أوجَدَكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: من أجل أن تَصِلُوا إلى هَذِه المَرْتَبَة العالِيَة، وهي تَقْوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والتَّقْوَى: اتِّخاذُ وقايةٍ من عَذابِ اللهِ بفِعْلِ أوامرِهِ، واجْتِنابِ نَواهِيهِ.

فَوائِدُ وأحْكامُ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

١- بيانُ أهَمِّيَّةِ هذا الطَّلَبِ، وهو عِبادةُ اللهِ تعالى وحدَهُ، ووَجْهُ ذلكَ: أنَّهُ لا يُصَدَّرُ الخِطابُ بالنِّداءِ إلَّا للعِنايةِ به؛ لأنَّ النِّداءَ نوعٌ مِنَ التَّنبِيهِ، فإنَّك إذا نادَيْتَ المُخاطَبَ انتبَهَ واتَّجَهَ إليكَ.

٢- ومن فَوائِد الآيَة: أنَّ العِبادةَ حقٌّ للهِ، واجِبٌ على جَمِيعِ النَّاسِ؛ ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، فكُلُّ النَّاسِ يَجِبُ عليهم عِبادَةُ اللهِ، وعِبادَةُ اللهِ تعالى:

هي التَّذَلُّلُ لَهُ بِفعلِ أوامرِهِ واجتِنابِ نهيِهِ، حَسبَ شَرعِهِ الذي أرسَلَ به رُسُلَهُ، وهي مُختَلِفةٌ، بمعنى: أنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يَجعَلُ اللهُ لَهُ شَرِيعةَ كَذا، والآخر شَرِيعَةَ كَذا، والآخَر شَرِيعَةَ كَذا، حَسبَ ما يَصلُحُ به الخَلْقُ، ولكنَّ الشَّرائعَ كُلَّها اجتَمَعَت بشَرِيعةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وصارَت شَرِيعَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ ناسِخَةً لجَمِيعِ الشَّرائعِ، فلا عِبادَةَ للهِ إلَّا عنْ طَرِيقِ شَرِيعةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

والعِبادَةُ لابُدَّ أن تَكُونَ مَبنِيَّةً على أساسَيْنِ، هُما: الإِخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، والمُتابَعةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

أمَّا الإِخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ فهو أن يَنْوِيَ الإِنسانُ بعِبادَتِه وَجْهَ الله والدَّارَ الآخِرَةَ، لا يَنْوِي بذلك حُطامًا مِنَ الدُّنيا، ولا جاهًا، ولا رِئاسَةً، ولا تَزَلُّفًا لمَخلُوق، بل يَنْوِي بذلك وجهَ الله والدَّارَ الآخِرَة، ومتى كانَت هذه نِيَّتَه فإنَّهُ سوف يُحسِنُ العَمَل، سوف يَعبُد الله كأنَّهُ يَراه، فإن لم يَكُن يَراه فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَراهُ.

وضِدُّ الإِخلاص في العِبادَة: الشِّركُ في العِبادَة، بأن يَنوِيَ بعِبادَتِه غيرَ وجهِ الله والدَّارِ الآخِرَة؛ يَنوِي بها حُطامًا من الدُّنيا، يَنْوِي بها تَزَلُّفًا لمَخلُوق، يَنْوِي بها الحُصُولَ على الجاهِ بين النَّاس، وهكذا، وهذه النِّيَّةَ باطِلَةٌ مُبطِلَةٌ للعَمَل.

أمَّا الرُّكنُ الثَّانِي أوِ الشَّرطُ الثَّانِي فهو مُتابَعَة الرَّسُول مُحَمَّد ﷺ، ولا يُمكِنُ أن تتحقَّقَ المُتابَعَةُ إلَّا إذا كانَتِ العِبادَة مُوافِقَةً للشَّرِيعَة في أُمُور سِتَّة: في سَبَبِها، وجِنْسِها، وقَدْرِها، وصِفَتِها، وزَمانِها، ومَكانِها، فإن خالَفَت الشَّرِيعَةَ في واحِدٍ من هذه الأُمُور السِّتَّة لم يَكُنِ الإِنسانُ مُتَّبِعًا فيها لرَسُولِ الله ﷺ.

فمَن أَحْدَث عِبادَةً لسَبَب غير شَرعِيٍّ فإنَّ عِبادَتَه غيرُ مَقبُولَة، بل مَردُودَةٌ عليه؛

لقَولِ النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، وهذا الحَديثُ أساسٌ لِكُلِّ الأوصاف التي ذَكَرْناها.

ومَن تَعَبَّدَ للهِ بجِنسٍ غير مَشْرُوع فإنَّ عِبادَتَه غيرُ مَقبُولَة، فلو أنَّ الإنسان ضَحَّى بفَرسٍ فإنَّ أُضحِيتَه لا تُقبَل؛ لأنَّهُ ضَحَّى بجِنسٍ غير مَشْرُوع؛ فإنَّ الأُضحِيَة إنَّما تُشرَعُ من بَهِيمَة الأنعام: مِنَ الإِبِل، والبَقَر، والغَنَم.

ولابُدَّ أن تَكُون مُوافِقَةً للشَّرع في قَدْرِ العِبادَة، فمَن تَعَبَّد للهِ بأمرٍ زائِدٍ على ما شَرَعَه فإنَّ هذا الزَّائِدَ لن يُقبَل، ثُمَّ قد يُبطِل العِبادَة كُلَّها، وقد لا يُبطِلها، لو صلَّى الإِنسانُ الظُّهرَ خمسًا لم تُقبَل منه؛ لأنَّها على غير القَدْر الوَارِد في الشَّرع، وهذه الزِّيادَة تُبطِل العِبادَة.

لكن لو أخرَج الفِطْرَة صاعَيْن من الطَّعام لم يُثَبْ ثَوابَ الفِطْرَة على كِلا الصَّاعَيْن، وإنَّما يَكُون أحَدُ الصَّاعَيْن هو الذي يُثاب عليه ثَوابَ الفِطْرَة، والثَّاني يُثاب عليه ثَوابَ الصَّدَقَة، وهناك فَرقٌ بين الفِطْرَة والصَّدَقَة؛ لأنَّ الصَّدَقَة تَطَوُّع، والفِطرَةَ فَرْضٌ، والإِنسانُ يُثاب على الفَرْض أكثَرَ مِمَّا يُثاب على التَّطَوُّع، ويدلُّ على الفَرقِ: حَدِيثُ ابنِ عَبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: فَرَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَكاةَ الفِطرِ؛ طُهرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغوِ والرَّفَثِ، وطُعمَةً لِلمَساكِينِ، مَن أدَّاها قَبْلَ الصَّلاةِ فهي زَكاةٌ مَقبُولَةٌ، ومَن أدَّاها بعد الصَّلاةِ فهي صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقاتِ[2].

---

(١) سبق تخريجه (ص:٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، رقم (١٦٠٩)، وابن ماجه: كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر، رقم (١٨٢٧).

ولابُدَّ أن تَكُونَ مُوافِقَةً للشَّرع في صِفَتِها، فإن خالَفَتِ الشَّرع في الصِّفَة لم تكُن مَقبُولَةً، لو أنَّ الإنسانَ صَلَّى، فبَدأ بالسُّجُود قبل الرُّكُوع، لم تَكُن صَلاتُه مَقبُولَةً؛ لأنَّ ذلك على خِلاف الصِّفَة التي ورَدَ بها الشَّرعُ، فتَبطُل الصَّلاة ولا تُقبَل.

وكَذلِكَ -على القَول الرَّاجِح من أقوال أهل العِلْم- لو تَوَضَّأ الإنسانُ، فبَدأ برِجلَيه، ثُمَّ رَأْسِهِ، ثُمَّ يَدَيْه، ثُمَّ وَجْهِه، لم يَكُن وُضُوؤُه مَقبُولًا؛ لأَنَّهُ على غير الصِّفَة الوارِدَة عن رَسُولِ اللهِ ﷺ.

ولابُدَّ أيضًا أن تَكُون مُوافِقَةً للشَّرع في الزَّمان، فلو تَعَبَّد الإنسانُ عِبادَةً للهِ عَزَّوَجَلَّ في غير زَمانِها لم تكُن مَقبُولَةً، لو أنَّ الإنسانَ حَجَّ -مثلًا- في غير وقتِ الحَجِّ لم يَكُن حَجُّهُ مَقبُولًا، ولو زارَ كُلَّ أمكِنَة المناسِك؛ لأنَّه في غير الوَقتِ.

ولابُدَّ أن تَكُونَ مُوافِقَةً للشَّرع في مَكانِها، فلو اعتكَفَ الإنسانُ في بَيْتِه لم يَكُنِ اعتِكافُه مَقبُولًا؛ لأنَّ البَيْتَ ليس مَكانًا لِلاعتِكاف، وإِنَّما مَكان الاعتِكاف المساجِدُ التي تُقام فيها الجَماعَة؛ لقَولِ الله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧]، فمَن تَعَبَّد بالاعتِكاف في غير مَسجِد لم يَكُن اعتِكافُه مَقبُولًا؛ لأَنَّهُ لم يتَّبِع فيه شَرِيعَةَ الله.

والخُلاصَةُ: أنَّ العِبادَة لا تَكُونُ مَقبُولَةً إلَّا بمُوافَقَةِ الشَّرع، ولا تَكُونُ مُوافِقَةً للشَّرع إلَّا إِذا وافَقَت ما جاءَ به الشَّرعُ في السَّبَب، والجِنس، والقَدْرِ، والصِّفَة، والزَّمان، والمكان.

• • ∽ • •

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

هذه الآيَةُ تَكْمِلَةٌ للآيَة التي قَبْلَها، وهي قَوْلُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ففي الآيَة الأُولَى: الإيجادُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وفي الآيَة الثَّانِيَة: الإمْدادُ؛ فإنَّ الله تعالى خَلَقَنا وأمَدَّنا بالرِّزْق الذي نَتَأهَّل به لإعْداد أنْفُسِنا لقَبُول شَرِيعَتِه، فذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أمَدَّنا به من المقَرِّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، ومِن الرِّزْق الذي به قَوامُ البَدَن: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

وبِتَمام الإمْداد يَجِبُ الاسْتِعْدادُ لِما أَمَرَ اللهُ به، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: شُرَكاء في عِبادَته أو في شيءٍ من حُقُوقِه وخَصائِصِه ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تَعْلَمُون أنَّهُ لا نِدَّ له في رُبُوبِيَّتِه، فإذا كُنْتُم تَعْلَمون أنَّهُ لا شَرِيكَ له في رُبُوبِيَّتِه فإنَّ مُقْتَضى ذلك ألَّا تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكًا في عِبادَتِه، تَتَألَّهُون إليه، وتَعْبُدُونه، وتَتَقَرَّبُون إليه كما تَتَقَرَّبُون إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فَوائِد وأَحْكام هذه الآيَة:

١- في هذه الآيَة من الأحْكام: أنَّ الأرْض جَعَلَها الله تعالى فِراشًا لبني آدَمَ، أيْ: قَرارًا مُسْتَقِرَّةً لا تَمِيدُ ولا تَضْطَرِبُ، ولو كانت تَمِيدُ أو تَضْطَرِب ما صَحَّ أن تَكُون فِراشًا يَطْمَئِنُّ فيه الإنْسانُ ويَسْتَوطِنُ.

٢- من فَوائِدها: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ السَّماء بناءً، وسَمَّاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في

آيَةٍ أُخْرَى: سَقْفًا مَحْفُوظًا، فهو مَبْنِيٌّ ومَحْفُوظٌ بحِفْظِ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥]، فلولا أنَّ الله أحْكَم بناءَه لوَقَع على الأرْض، وهذا من نِعْمَة الله علينا.

٣- ومن أحْكامِها: أنَّ الأسباب لها أثَرٌ في مُسَبَّباتها؛ لقَوْلِه تعالى حين ذَكَر إنْزال الماءِ من السَّماء: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: أَخرَجَ بسَبَبه، ولا يَشُكُّ عاقِل في أنَّ للأسباب تَأْثِيرًا في مُسَبَّباتها.

وهذا التَّأْثِير الذي أَوْدَعه الله في الأسباب هو من خَلْقِ الله عَزَّوَجَلَّ، فمَن أنكَر تَأْثِيرَ الأسباب في مُسَبَّباتها فقد خالَفَ ما هو مَعلُومٌ ببَداهَة العُقُول، ومَن جَعَلَ الأسباب مُؤَثِّرةً بذاتِها فقد أثبَت مع الله شَرِيكًا، ومَن أَثْبَت تَأْثِيرَ الأسباب، لكن بإرادَة الله تعالى ومَشِيئَتِه، فقد وافَقَ الحَقَّ والواقِعَ، وهذا هو المذهَب الرَّاجِح الذي جَرَى عليه المُحَقِّقون من أهل العِلْمِ، خلافًا لِمَن قال: إنَّ الأسباب لا تُؤَثِّر، وإنَّ ما يَحصُل بها من الأسباب حاصِل عندها لا بها؛ لأنَّ هذا مُكابَرَة للواقِع، فهؤلاء يَقُولُون: إنَّ النَّارَ إذا أحرَقت الوَرَق لم تَكُن هي التي أحرَقَت، ولكن حَصَل الإحراق عندها لا بها، ونحن نقول: بل حَصَل الإحراق بها، لكن بأمر الله، فهو الذي خَلَقَ فيها هذه القُوَّة المُحرِقَة، ولو شاءَ الله تعالى لَسَلَبَها هذه القُوَّة، بدَلِيل: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال للنَّار التي أُلقِيَ فيها إبراهيم: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فكانت بَرْدًا وسَلامًا عليه، ﴿بَرْدًا﴾ خِلاف طَبِيعَتِها التي هي الحَرارة، ﴿وَسَلَٰمًا﴾ خِلاف أثَرِها الذي هو الإحراق، قال بَعضُ العُلَماء: ولو قال الله: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾، ولم يَقُل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لأَهْلَكه بَرْدُها.

المهمُّ: أنَّ في هذه الآيَة الكَرِيمَة إثباتَ الأسباب، وتَأثِيرَها في مُسَبَّباتها، ولكن مَن الذي جَعَلَ السَّبَب مُؤَثِّرًا؟ هو الله، ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، فالمُخرِجُ هو الله، والسَّبَبُ هو المطَر.

٤- وفي الآيَة الكَرِيمَة من الفَوائِد: مِنَّةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عِبادِه بهذا الماءِ النَّازِل من السَّماء؛ حيث أَخْرَج به من الثَّمَرات رِزقًا لنا، ورِزقًا لَمواشِينا أيضًا، كما قال تعالى في سُورَة النَّحل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل:١٠] أي: تَرْعَون أنعامَكم.

٥- ومن فَوائِد الآيَة الكَرِيمَة: وُجُوب شُكرِ المُنْعِم؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: هذا الذي أَنْعَم عليكم يَجِبُ أن تَشكُرُوه وتُوَحِّدوه بالعِبادَة، كما أَنَّهُ هو الذي أنعَم عليكم وَحْدَهُ، فلا تَجعَلُوا له أندادًا.

٦- وفي الآيَة الكَرِيمَة من الفَوائِد: شِدَّةُ اللَّوْم على مَن اجْتَرَأ على المُحَرَّمات مع العِلْمِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فإنَّ مَن عَلِمَ بالقَبِيح وتَجَرَّأ عليه أعظَمُ جُرمًا وقُبحًا ممَّن لم يَعْلَم به، ولو تَجَرَّأ عليه.

٧- وفي الآيَة الكَرِيمَة من الفَوائِد أيضًا: أنَّ الأرض التي يَسْتَولي عليها الإنسانُ تَكُون مُلكًا له، قَرارًا وهَواءً؛ قرارًا يُؤخَذ من قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، وهَواءً من قَوْلِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، فكُلُّ ما كان فِراشًا لي من الأرض فإنَّ ما يُقابِلُه من السَّماء بناءٌ لي، ولهذا قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ الهَواء تابع للقَرار، أي: أنَّ مَن مَلَكَ أرضًا فَلَهُ قَرارُها، ولَهُ هَواؤُها إلى السَّماء، فلا يَملِك أحدٌ من جِيرانِه أن يَبنِيَ جَناحًا يَكُون ظِلُّهُ على أرض الجارِ، بل قال العُلَماء: لو أنَّ أغصان شَجَرَةِ جارِك صارَت فَوْقَ بَيْتِك فلَك المُطالَبَة بإزالَة هذا الغُصن.

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

هاتان الآيَتان لهما ارتِباطٌ بما قَبْلَهما من حَيْثُ المعنَى، وذلك أنَّ في الآيتَيْن السَّابِقَتَيْن تَحقِيقَ شَهادَة أن لا إلَه إلَّا اللهُ، بإفراد الله تعالى بالعِبادَة، وفي هاتَيْن الآيتَيْن تَحقِيق رِسالَة النبي ﷺ؛ وذلك في قَوْلِه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، فالآياتُ الأربَعُ مُتَضَمِّنةٌ لشَهادة أن لا إلَه إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله.

والرَّيْبُ: هو الشَّكُّ مع القَلَق والضَّجَر، والمُراد بالعَبدِ هنا: مُحَمَّد ﷺ، وأشرَفُ أوصافه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وَصْفَان: العُبُودِيَّة، والرِّسالَة.

وقد ذَكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَصْفَ نَبيِّه مُحَمَّد ﷺ بالعُبُودِيَّة في أَعْلَى مَقاماتِه، فوَصَفَه بالعُبُودِيَّة حالَ إنزال القُرآن، وحالَ الإِسْرَاء، وحالَ المِعْرَاج، وحال التَّحَدِّي والذَّوْدِ عَنه:

فقَـال في الحالِ الأُولَـى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف:١]، وقَال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وقـال في الحالَيْن الثَّانِيَـة والثَّالِثَـة: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، وقال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:٨-١٠].

وقال في الحالِ الرَّابِعَة (مَقامِ التَّحدِّي): ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

والمُرادُ هنا بِما نَزَّل: القُرآنُ الكَريم ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، ولكِنَّهم لن يَسْتَطِيعُوا ذلك، وقال: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: كُلَّ مَن تَقْدِرُون على الاستِعانَة به ممَّن تَدعُونَهم أولِياء أو شُفَعاء فادْعُوهم مَعَكُم؛ لِيُعِينُوكم على أن تأتُوا بسُورَة من مِثلِه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تَدَّعُونه من أنَّ هذا القُرآنَ ليس من عند اللهِ، ولَكِنَّهم لن يَفعَلُوا ذلك، ولهذا قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي: فإنَّ النَّار سَتكُون مَأْواكم، فاتَّقُوها واحذَرُوها، وذلك بالرُّجُوع إلى الحَقِّ وتَصدِيق رَسُول الله ﷺ.

وهذه النَّارُ التي وقُودُها النَّاسُ -أي: النَّاسُ المُستَحِقُّون لها من الكُفَّار والمُنافِقينَ- والحِجارةُ، وهي حِجارَة عَظِيمَة ليست كحِجارَتِنا في الدُّنيا، تُحمَى في نار جَهَنَّم، فتَزداد حَرارة النَّار، ويَزداد اشتِعالها، والعِياذُ بالله.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: أعَدَّها الله للكافِرين به وبِرُسُله، وكذلك للمُنافِقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠].

فَوائِد الآيتَيْن الكَريمَتَيْن:

١- في هاتَيْن الآيتَيْن الكَريمَتَيْن يُبيِّنُ الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صادِق فيما جاءَ به من الوَحي، وأنَّ هذا الوَحي نازِلٌ من عند الله.

٢- ومن فَوائِدهما: تَحدِّي المُكَذِّبينَ لرَسُول الله ﷺ، ومَن كان معهم من أَعْوانِهم أن يأْتُوا بسُورَةٍ من مِثلِه، ولكنَّهم لن يَسْتَطِيعُوا إلى ذلك سَبيلًا، قال أهل

العِلْمِ: وتحدِّي الله المُكذِّبينَ بالقرآنِ جاء على أَرْبَعة أوجُهٍ، فتحَدَّاهم بالقرآنِ كلِّه في قَوْلِهِ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، وتحدَّاهم أن يأتُوا بعشر سُوَرٍ من مِثْلِه، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١٣]، وتحدَّاهم أن يأتُوا بسُورَةٍ من مِثْلِه، كما في هذه الآيَة الكَرِيمَة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، وتحدَّاهم أن يأتُوا بأقَلَّ من ذلك، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٤].

وكُلُّ هذه التَّحَدِّيات لم يَتَصَدَّ لها أحدٌ من بُلَغاء النَّاس وفُصَحائهم في عَهد النَّبيِّ ﷺ، ويدلُّ هذا على صِدق رِسالَتِه صَلَوات الله وسلامُه عليه، وأنَّ هذا القُرآنَ ليس من عنده.

٣- ومن فَوائِد الآيَتَيْن الكَرِيمَتَيْن: إثبات عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، والنُّزُول إنَّما يَكُونُ من الأعلَى إلى الأدنَى، وعُلُوُّ الله عَزَّوَجَلَّ ينقَسِم إلى قِسمَين: عُلُوِّ ذاتٍ، وعُلُوِّ صِفَة.

فأمَّا عُلُوُّ الذَّات فهو أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالٍ على كُلِّ شيء، مُسْتَوٍ على عَرْشِه الذي هو أعلَى المخلُوقات، وهذا العُلُوُّ ثابت بالقُرآنِ، والسُّنَّة، وإجماع السَّلَف، والعَقلِ، والفِطرَة.

أمَّا الكِتابُ فأدِلَّتُه على عُلُوِّ الله بذاتِه أكثَرُ من أن تُحصَى، وقد جاءَت على وُجُوه مُتَنَوِّعة؛ تحقِيقًا لهذا العُلُوِّ.

وأمَّا السُّنَّة فكذلك دَلَّت على عُلُوِّ الله بذاتِه بأدِلَّة كَثِيرَة مُتَنَوِّعة، فمنها ما دَلالَتُه

بالقَـوْل، ومنها ما دَلالَتُه بالفِعل، ومنها ما دَلالَتُه بالتَّقرِير، أي: بإقـرار الغَيْر على ذلك.

وأمَّا الإجماعُ فقد أجمَع السَّلَفُ من الصَّحابة، والتَّابِعِين، وأئِمَّة الأُمَّة، بل وعامَّة الأُمَّة الذين بقُوا على فِطْرَتِهم، على عُلُوِّ الله تعالى بذاتِه، ولم يَقُل أحَد منهم: إنَّ الله في كُلِّ مَكان، ولَم يَقُل أحَدٌ منهم: إنَّ الله ليس في العالَم ولا خارِجَه، بل كُلُّهم مُجْمِعُون على أنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوق كُلِّ شيء.

وأمَّا العَقلُ فلأنَّ العُلُوَّ صِفَة كَمال، لا شَكَّ في ذلك، واللهُ عَزَّوَجَلَّ قد ثَبَتَ له جَميعُ صِفات الكَمال؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠].

وأمَّا الفِطْرَة فإنَّ كُلَّ شَخص مَفطُورٌ على عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ، حتَّى وإن لم يَقْرَأ كِتابًا أو يَدْرُس على عالِم، ألا تَـرَى إلى الرَّجُل إذا دَعا الله تعالى يَرْفَـع يَدَيْه إلى السَّماء، ويَرْفَع قَلبَه كذلك إلى السَّماء بدُون أن يُدَرِّسَه أحدٌ ذلك؟! لأنَّهُ يَعْلَم ذلك من فِطْرَتِه.

وقد ذُكِرَ أنَّ أبا المعالي الجُوَيْنِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يُقَرِّر، ويَقُولُ: إنَّ الله كان ولا شَيْءَ، وهو الآن على ما كان عليه! يُريدُ أن يُنكِر استِواء الله على العَرش، فقال له أبو العَلاء الهَمْدَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا أُستاذُ! دَعنا من ذِكر العَرش، وأخبِرنا عن هذه الضَّرُورَة التي نَجِدُها في قُلُوبِنا، ما قال عارِفٌ قَطُّ: يا اللهُ! إلَّا وَجَدَ من قَلبِه ضَرُورَةً بطَلَب العُلُوِّ، فلَطَم أبُو المعالي على رَأسِه، وجَعَل يَقُول: حَيَّرَني الهَمْدَانِيُّ! حَيَّرَني الهَمْدَانِيُّ![1]

أي: أنَّ هذا دَلِيلٌ فِطرِيٌّ على عُلُوِّ الله لا يُنكِرُه أحَد.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧٤).

ولكن يَجِبُ أن نَعلَم أنَّ الله تعالى فَوْق كُلِّ شَيْء، لكنَّه ليس محَصُورًا بشَيء، كما يَكُونُ الواحِد منَّا فَوْقَ السَّطح، فيَكُون محَصُورًا بجُدران السَّطح، ولكنَّ الله تعالى فَوْقَ كُلِّ شيء، وليس محَصُورًا بأيِّ شيء من الأشياء؛ لأنَّ الفَوْقَ المُطلَق ليس فيه شيء إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا القِسمُ الثَّاني -وهو عُلُوُّ الصِّفَة- فمَعناه: أنَّهُ ما من صِفَةِ كَمالٍ إلَّا ولله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلاها وأَكْمَلُها؛ ودَلِيلُ ذلك: قَوْلُهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، وقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم:٢٧]، ودَلالَةُ هذا القِسم في كِتابِ الله، وفي سُنَّة رَسُولِه ﷺ، وفي إجماع الصَّحابَة، وفي العَقل، ورُبَّما يَكُون في الفِطْرَة دَلِيلٌ عليه أيضًا.

فأمَّا الكِتاب فذكَرنا منه ما سَبَق، وهو قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم:٢٧]، وقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، وقَوْلُهُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١].

وأمَّا السُّنَّة فالأحاديث فيها كَثِيرَةٌ دالَّةٌ على كَمال الله عَزَّوَجَلَّ، فقد حَدَّث النبيُّ ﷺ عن كَمال الله، وعن عَظَمَة صِفَاتِه بأحادِيثَ لا تُحْصَى، وكان رَسُول الله ﷺ يَقُولُ في سُجُودِه: «سُبحانَ رَبِّيَ الأعلَى»[1]، فيُثْبِتُ له العُلُوَّ المُطلَق، وهو كما يَشمَل عُلُوَّ الذَّاتِ أيضًا يَشمَل عُلُوَّ الصِّفات.

وأمَّا الإجماعُ فقد أجمَع المُسلِمُون على أنَّ للهِ تعالى صِفاتِ الكَمال من كُلِّ وجه.

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا العَقلُ فلأنَّ من المعلُوم أنَّهُ لا يُمكِنُ أن يُعْبَد باستِحقاق للعِبادَة إلَّا مَن كان كامِل الصِّفات، ومِن ثَمَّ أنكَر إبراهِيم الخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أبيْه أن يَعبُد ما لا يَسْمَع، ولا يُبْصِر، ولا يُغْنِي عنه شَيْئًا، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٤٢]؛ لأنَّ مِثلَ هذا ناقِصٌ، والنَّاقِص لا يُمكِنُ أن يَكُون ربًّا يُعْبَد لنَقْصِه، ولا أحَدَ من المخلُوقات له الكَمال المُطلَق سِوَى رَبِّ الأرض والسَّموات.

وأمَّا دَلالةُ الفِطْرَة على عُلُوِّ الصِّفَة فلأنَّ الإنسانَ بفِطرَتِه يَلجَأ عند المصائِب والشَّدائِد إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لعِلْمِه أنَّ الله قادِر على كَشْفِ هذه المصائِب والشَّدائِد.

٤- ومن فَوائِد الآيَة الكَرِيمَة: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ إثبات أنَّ القُرآن كَلامُ الله، وذلك لأنَّ القُرآن كَلام، ليس عَيْنًا قائِمَةً بنَفسِها، وإنَّما هو كَلامٌ، وإذا كان نازِلًا من عند الله لَزِمَ أن يَكُون كَلامَ الله، وهذا هو الذي أجمَع عليه السَّلَف وأئِمَّة الأُمَّة: أنَّ القُرآن كَلامُ الله غيرُ مَخلُوقٍ، فقد تَكَلَّم الله تعالى به حَقِيقَةً، وسَمِعَه جِبريلُ من الله، وألقاه على قَلب النَّبي ﷺ، قال اللهُ تعالى في سُورَة الشُّعَراء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، فبَيَّن اللهُ في هذه الآيَة خَمسَة أشياء: المُنزِّل، والمُنَزَّل، والنَّازِل به، والنَّازِل عليه، واللُّغَة التي نَزَل بها، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القُرآنَ المُنَزَّل ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذا المُنَزِّلُ، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ هذا النَّازِلُ به، ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ هذا المُنَزَّلُ عليه، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ هذه اللُّغَة، فالقُرآن جَمَعَ هذه الأوصاف كُلَّها، إذَن: فهو كَلام الله عَزَّوَجَلَّ بهذه اللُّغَة: اللُّغَةِ العَرَبِيَّة.

والكلامُ لا أَحَدَ يَشُكُّ في أَنَّهُ من صِفات الكَمال؛ فإنَّ المُتكلِّمَ أكمَلُ من الذي لا يَتكَلَّم، وبهذا احتَجَّ السَّلَف على مَن قالُوا: إنَّ القُرآن مَخلُوقٌ، فإنَّهُ لو كان مَخلُوقًا لم يَكُن هناك كَمال في الله من هذا الوَجه.

٥- ومن فَوائِد هذه الآيَة أيضًا: الإشارةُ إلى فَضْلِ القُرآن؛ حَيْثُ إنَّه كَلامُ اللهِ؛ فإنَّ الكَلام يَشْرُفُ بشَرَف مَن تَكَلَّمَ به، لاسِيَّما إذا كان هذا الكَلامُ مُتَضَمِّنًا لمعالِي الأخلاق، وكَمال الآداب؛ كما في القُرآنِ الكَرِيم.

ولا شَكَّ أنَّ القُرآنَ الكَرِيم أشرَفُ الكَلام وأكمَلُه من جَمِيع الوُجُوه، من حيث الفَصاحَة، والجَوْدَة، والنَّفع، والحِكَم، ولو لم يَكُن منه إلَّا أنَّهُ كَلامُ الله لكان كافيًا في الشَّرَف والفَضل.

٦- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَـرِيمَة: فَضلُ رَسُول اللهِ ﷺ؛ لكَـوْنِه عَبْدًا لله، ولا شَكَّ أنَّ العُبُودِيَّة للهِ من أشرَف المناقِب، بل هي أشرَفُ المناقِب، ومَن لم يَكُن عَبدًا للهِ صار عَبْدًا لِهَواهُ؛ لأنَّ الإنسان لابُدَّ أن يَكُون مُتذَلِّلًا لشيء، فإمَّا أن يَكُون مُتَذَلِّلًا لِرَبِّه، وإمَّا أن يَكُون مُتَذَلِّلًا لِهَواهُ وشَيْطانِه.

٧- ومن فَوائِد الآيَة الكَرِيمَة: إثباتُ عُبُودِيَّة النَّبِيِّ ﷺ، وأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا حقَّ لَهُ في شيء من خَصائِص الرُّبُوبِيَّة؛ لأنَّ العَبد خِلافُ الرَّبِّ، فلا شَيْءَ لِرَسُول الله ﷺ من خَصائِص الرُّبُوبِيَّة، فلا يَملِك نفعًا لأحَدٍ، ولا دَفعَ ضَرَر عنه، ولا يَعلَم الغَيْبَ، وليس عنده خَزائِن الله، وقد أمَرَه اللهُ تعالى أن يُعلِن ذلك للمَلَإ، فقال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام:٥٠]، يعني: ما أنا إلَّا رَسُولٌ عامِل بما أُوحِيَ إليَّ مُبَلِّغ لَهُ،

وقال الله تعالى لَهُ: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن:٢١-٢٣]، يعني: لَستُ إِلَّا مُبَلِّغًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ورَسُولًا من عنده، وأنا لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا رَشَدًا، ولو كان يَملِك شيئًا لَمَلَك أن يُنقِذ مَن شاء من الهَلاك والضَّلال، ويَهدِيَ مَن شاء، وهذا ليس إليه، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، وأمَرَه تعالى أن يَقُولَ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

ويتفَرَّعُ عن هذه الفائِدَة: بَيانُ ضَلال أُولئك الذين يَتَعَلَّقُون برَسُول الله ﷺ، فيَدْعُونَه، ويَسْتَغِيثُون به، ويَرجُون شِفاء المَرَض، وإزالَة الضَّرَر، وحُصُولَ المطلُوب، ويُعرِضُون بذلك عن ربِّ العالَمِين عَزَّوَجَلَّ، كما أنَّ بعضَهم رُبَّما يَظُنُّ أنَّ ما عند الرَّسُول ﷺ أقربُ ممَّا عند الله، مع أنَّ النبي ﷺ لا يَملِك من هذا الأمر شيئًا.

وقد ضَلَّ من هذا الوَجْهِ طائِفتان: طائِفَةٌ ادَّعَت أنَّ لرَسُول الله ﷺ شيئًا من خُصُوصِيَّات الرُّبُوبِيَّة، وطائِفَةٌ أُخرَى كَذَّبَت الرَّسُولَ ﷺ، وقالت: إنَّه ليس برَسُول، إمَّا أنَّها نَفَت رِسالَتَه مُطلَقًا، أو نَفَت عُمُومَ رِسالَتِه، وكِلتا الطَّائِفَتَيْن ضالَّتان، والحقُّ أنَّ رَسُول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبدٌ رَسُول، أشهَد أن لا إله إلَّا اللهُ، وأشهَد أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُه.

والعُبُودِيَّةُ تنقَسِم إلى قِسمَيْن: عُبُودِيَّة عامَّة، وعُبُودِيَّة خاصَّة، فالعُبُودِيَّة العامَّة هي التَّعبُّد للقَدَر، وهي العُبُودِيَّة الكَوْنِيَّة القدَرِيَّة التي تَشمَل كُلَّ المخلُوقات،

فما من مَخلُوقٍ إلَّا وهو عابِدٌ ذَلِيلٌ لِقَضاء الله وقَدَرِه، حتَّى أَكْفَر الخَلق، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٣]، فكُلُّ النَّاس عَبِيد للهِ بالعُبُودِيَّة الكَوْنِيَّة القدَرِيَّة، وهذه لا يُمدَح الإنسانُ عليها؛ لأنَّها تكُون قَهرًا عليه، وبغَيْر اختِيار منه.

أمَّا القِسم الثَّانِي فهو العُبُودِيَّة الخاصَّة، وهي التَّعَبُّد للهِ تعالى بشَرعِه، وهذه لا تكُون إلَّا من المُؤمِنين، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان:٦٣]، وذَكَر بَقِيَّة صِفاتِهم.

وهذه العُبُودِيَّةُ فيها أيضًا ما هو أخَصُّ من مُطْلَق العُبُودِيَّة، وهي عُبُودِيَّة الوَحي والرِّسالَة، كما في هذه الآية الكَرِيمَة: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾.

٨- ومن فَوائِد الآيَة الكَرِيمَة: الفَضِيلَةُ العَظِيمَةُ لرَسُول الله ﷺ بإضافَة عُبُودِيَّتِه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، أي: أنَّ الله أضافَ إليه عُبُودِيَّة مُحَمَّد ﷺ، ولا شَكَّ أنَّ في هذا فَخرًا لرَسُول الله ﷺ، وعِزَّةً، ورِفعَةً.

٩- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ من آدابِ المُحاجَّة والمُناظَرَة: تَحَدِّيَ الخَصم؛ فإنَّ الله تعالى يَقُول هنا: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾، ولا شَكَّ أنَّ في تَحَدِّي الخَصم إظهارًا لضَعفِه، وأنَّه لا يَسْتَطِيع المُقابَلَة، والتَّحَدِّي طَرِيقٌ من طُرُق المُناظَرَة المُفيدَة.

ولكن يَنبَغِي أَلَّا يَتَحَدَّى الإنسانُ أحدًا إلَّا وهو واثِقٌ من أَنَّهُ عاجِزٌ؛ لأَنَّهُ لو أتى بالشَّيْء على صِيغَة التَّحَدِّي، ثُمَّ تَبَيَّن قُدرَة المُتَحَدَّى صار في ذلك انهِزامٌ شَدِيدٌ

للمُتَحَدِّي، ولهذا قال اللهُ تعالى في هذه الآيَة: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ إشارةً إلى أنَّهم عاجِزُون عمَّا تُحدُّوا به، ولن يَسْتَطِيعُوا ذلك.

١٠- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّهُ لا أحَدَ يَسْتَطِيع أن يَأتِي بسُورَة من مِثْلِ هذا القُرآن، ولو دَعا مَن دَعا إليه ليُعاوِنَه؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: كُلَّ مَن تَعبُدُونه وتَستَعِينُون به من دون الله فادعُوهُم؛ ليَكُونُوا معكم في الإِتْيَان بسُورَةٍ من مِثلِه.

١١- ومن فَوائِد هاتَيْن الآيَتَيْن: أنَّهُ لن يَسْتَطِيع أحَدٌ من هؤلاء المُعارِضين لرَسُول الله ﷺ أن يَأتِيَ بسُورَة من مِثْلِ ما جاءَ به الرَّسُول ﷺ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾.

١٢- ومن فَوائِدهما: أنَّ مَن كابَر، وأصَرَّ على عِنادِه، وكَذَّبَ الرَّسُول -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم-، فإنَّ النَّار مَثْوَاه؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

١٣- ومن فَوائِدهما: أن يَأتِي المُتكَلِّم بما يَقتَضِي التَّهدِيدَ؛ لقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، فإنَّهُ إذا قِيلَ: إنَّ النَّارَ وَقُودُها النَّاس فلا بُدَّ أن يَحْذَر الإنسان منها، ويَخشَى أن يَكُون من جُملَة الوَقُود.

١٤- ومن فَوائِد الآيتَيْن: أنَّ النَّار مَوْجُودةٌ الآن؛ لقَوْلِهِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، فإنَّ الإعداد بمعنى التَّهيئَة، ولا شَكَّ أنَّ الجَنَّة والنَّار مَوْجُودَتان الآن، كما دلَّ على ذلك القُرآن والسُّنَّة، فقال الله تعالى في الجَنَّة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقال في النَّار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وعُرِضَت الجَنَّةُ والنَّارُ على النبي ﷺ وهو يُصَلِّي

بالنَّاس صَلاةَ الكُسُوف، ورَأى في النَّار مَن يُعَذَّبُ[(١)].

وكما أنَّ الجَنَّةَ والنَّارَ مَوْجُودَتان الآن فهُما باقِيَتان أَبَدَ الآبِدِينَ، لا تَفنَيانِ؛ لأنَّ الله تعالى ذَكَر التَّأبِيدَ في عِدَّة آياتٍ، فأمَّا التَّأبِيدُ في الجَنَّة فالآياتُ في هذا كَثِيرَةٌ، وأمَّا التَّأبِيدُ في النَّار ففي ثَلاث آياتٍ من القُرآنِ: في سُورَة النِّساء في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وفي سُورَة الأحزاب في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سُورَة الجِنِّ في قَوْلِه تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

ولهذا كان من عَقِيدَة أهلِ السُّنَّة والجَماعَة: اعتِقادُ أنَّ الجَنَّة والنَّار مَوْجُودَتان الآن، وأنَّهما لا تَفنَيان أَبَدَ الآبِدِين، وإن كان قد ذُكِرَ خِلافٌ في أبَدِيَّة النَّار فإنَّهُ خِلافٌ مَرجُوحٌ، فالرَّاجِحُ -بل المُتعَيِّن- القَوْلُ بأنَّ النَّار لا تَفنَى، كما أنَّ الجَنَّة لا تَفنَى.

١٥- ومن فَوائِد هاتَيْن الآيَتَيْن: أنَّ القُرآن الكَرِيم سيَبقَى آيَةً إلى الأبَد لِرَسُول الله ﷺ؛ لأنَّ هذا التَّحَدِّيَ الذي وَقَعَ به ثابِتٌ إلى يوم القِيامَة، فلن يَسْتَطِيع أحَد أن يَأتِي بمِثْلِ هذا القُرآن إلى يَوْم القِيامَة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾، رقم (٤٦٢٤)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١/٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، رقم (٩٠٤) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٦- ومن فَوائِد الآيتَيْن الكَرِيمَتَيْن: الإشارةُ إلى أنَّ هذا القُرآن سيَبْقَى، وذلك أنَّهُ قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، وإذا كان وَقُودُها النَّاسَ -وهو يَشمَل النَّاس المُخالِفين لهذا القُرآن إلى يَوْمِ القِيامَةِ- دلَّ هذا على أنَّ القُرآن سيَبقَى مُتحَدِّيًا لجَمِيع النَّاس إلى يَوْم القِيامَة، وأنَّ مَن خالَفَه فسَيَكُون وَقُودَ النَّار.

١٧- ومن فَوائِد الآيتَيْن: إثباتُ الجَزاء، فيدلُّ على إثبات اليَوْم الآخِر، وهو أحَدُ أركان الإيمان السِّتَّة التي هي: الإيمانُ بالله، ومَلائِكَتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَوْم الآخِر، والقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه.

•●❧●•

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

هذه الآيةُ الكَرِيمَة لها ارتباطٌ بما قبلها؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَ فيما سبق أنَّ النَّار أُعِدَّت للكافِرين، وكان هذا القُرآنُ الكَريمُ مَثانِيَ، تُثَنَّى فيه المعاني، فإذا ذُكِرَ الثَّوابُ ذُكِرَ العِقابُ، وإذا ذُكِرَ الكُفر ذُكِرَ الإيمانُ، وهَكَذا؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣].

وفي هذه الآيـة الكَـريمَة يَقُـولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، وهنا الخِطابُ للرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو لِكُلِّ مَن يَتَأَتَّى خِطابُه، فهو مَأمُورٌ بالبشارَة، إن

كان للرَّسُول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فكلُّ مَن خَلَفَه في العِلم والدَّعوَة فإنَّهُ يُمكِنُ أن يَقُوم بهذه البشارَة.

والبشارَة: هي الإخبارُ بما يَسُرُّ، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّ الإنسان إذا أُخبِر بما يَسُرُّه ظَهَر ذلك على بَشَرَتِه.

وهنا المُبَشَّرُ: الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحات، والمبشَّرُ به: جَنَّاتٌ تَجري مِن تَحتِها الأنهار، والمُبَشِّرُ: الرَّسُول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، والآمِرُ بالتَّبشِير: هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

والذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحات: هم الذين جَمَعُوا بين الاستِسلام الباطِن والاستِسلام الظَّاهِر، فالاستِسلام الباطِن في الإيمان، والظَّاهِرُ في عَمَل الصَّالِحات، وجَمَعُوا أيضًا بين الإخلاص والمُتابَعَة، فالإخلاصُ في القَلب، وهو أمرٌ باطِنٌ، والمُتابَعَةُ في الجَوارِح، وهي أمرٌ ظاهِرٌ، فالبُشرَى لِمَن جَمع بين الأمرَيْن: بين الصَّلاح في الباطِن، والصَّلاح في الظَّاهِر.

والصَّالِحاتُ: هي الأعمالُ التي اشتَمَلَت على الإخلاص لله، والمُتابَعَةِ لرَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلا صَلاحَ لِأيِّ عَمَلٍ إلَّا بالإخلاصِ للهِ، والمُتابَعَةِ لِرَسُولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عَليْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم-.

أمَّا الإخلاصُ لله فأن يَنوِيَ الإنسانُ بعَمَلِه وجهَ الله، والدَّارَ الآخِرَة، وامتِثالَ أمرِ الله.

وأمَّا المُتابَعَةُ فأن يَكُونَ مُتَّبِعًا لرَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما يَقُولُ ويَفعَلُ ويَذَرُ، ولا تتحَقَّقُ المُتابَعَة إلَّا بمُوافقَة العِبادَة للشَّرِيعَة في أُمُورٍ سِتَّةٍ: السَّبَب، والجِنس، والقَدْر، والكَيْفيَّة، والزَّمان، والمكان.

فمَن تَعَبَّدَ للهِ تعالى عِبادَةً مُقَيَّدةً بسَبَب لم تَرِد به الشَّرِيعَةُ فعِبادَتُه مَردُودَةٌ عليه غير مَقْبُولَة منه، كما لو تَعَبَّد الإنسان للهِ بذَبح شاةٍ -تَقَرُّبًا إلى الله تعالى- عند مُناسَبةٍ لا يُشرَعُ فيها ذلك، فإنَّ هذا يَكُونُ غَيْرَ مَقبُولٍ عند الله؛ لقَوْل النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، ولو ضَحَّى الإنسانُ بفَرَسٍ لم تُقبل منه؛ لأنَّها ليست من جِنس ما يُضَحَّى به شَرعًا، ولو زادَ الإنسانُ في عِبادَتِه لم تُقبَل منه هذه الزِّيادَة؛ لأنَّه ليس عَلَيها أمرُ الله ورَسُولِه، ولو فَعَلَ العِبادَة على غَيْر الوَجه الذي وَرَدَت عليه لم تُقبَل منه، كما لو تَوَضَّأ مُنَكِّسًا -مثلًا- فإنَّ ذلك لا يُقبَلُ منه؛ لأنَّهُ على خِلاف ما جاءَ عن الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولو ضَحَّى في غَيْر وقتِ الأُضحِيَة لم تُقبل منه؛ لأنَّها في غَيْر الزَّمان المُعَيَّن للأُضحِيَـة، ولـو اعتكَف في غَيْر المسجِد لم يُقبَل منه؛ لأنَّهُ ليس في المكان الذي خُصِّصَ شَرعًا للاعتِكاف.

فإذَنْ: لا تتحَقَّق المُتابَعَة لرَسُول الله ﷺ إلَّا إذا تضَمَّنَت العِبادَةُ هذه الأُمُور السِّتَّة.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجَنَّاتُ: جَمعُ جَنَّة، وجُمِعَت لاختِلاف أنواعِها، وأسمائِها، وأحوالِها، والأصلُ في معنى الجَنَّة: أنَّها البَساتِين الكَثِيرَة الأشجارِ؛ لأنَّها تُجِنُّ مَن فيها؛ لكَثْرَة أشجارِها وأغصانِها، والمُرادُ بالجَنَّة التي ذَكَرَها اللهُ هنا: دارُ النَّعِيم التي أعَدَّها اللهُ تعالى للمُتَّقِين.

والأنهارُ التي تَجرِي من تَحتِها -أي: من أسفَلِها- وتَحتَ القُصُور والأشجار أربَعَةُ أصنافٍ، بَيَّنها اللهُ تعالى في سُورَةِ القِتالِ في قَوْلِهِ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ

---

(١) سبق تخريجه (ص:٦٧).

فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غَيْر مُتغَيِّر ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

وبَيَّن اللهُ تعالى أَنَّهُ كُلَّما رُزِقُوا من هذه الثَّمَرات رِزقًا قالُوا: هذا الذي رُزِقنا من قَبلُ؛ لأَنَّهُ يُشبِهُه في اللَّوْن والحَجم، فيَقُولُون: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾، ولَكِنَّهم إذا طَعِمُوه تَبَيَّنَ لهم أَنَّهُ غَيْرُه، وهذا من تَمامِ لَذَّة الآكِلِين، إذا أُتُوا بالطَّعام أو بالثَّمَرة مُتَشابهًا، ولكنَّه يَختَلِف في الذَّوْق، صار في هذا شَيْءٌ من اللَّذَّة؛ ولهذا قال: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾.

وبَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ فيها أزواجًا مُطَهَّرةً، أيْ: مُطَهَّرَةَ الظَّاهِر والباطِن، فهي مُطَهَّرة الباطِن من الحِقدِ على زَوْجِها والكَراهَةِ له، وفي الظَّاهِر من كُلِّ قَذَر وأذًى، وتَمامُ هذا النَّعِيم أنَّهم فيها خالِدُون.

فَوائِد هذه الآيَة:

١- في هذه الآيَـة الكَـرِيمَة من الحِكَـم والفَـوائِد: أَنَّهُ يَنبَغِي أن يُبَشَّر العامِلُ بما يَسْتَحِقُّ من الثَّواب؛ لأنَّ ذلك أبلَغ في نَشاطِه ومُثابَرَتِه على العَمَل.

٢- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ البُشرَى بالجَنَّة لا تَكُون إلَّا لِمَن آمَنَ وعَمِل، فمُجَرَّد العَقِيدَة لا تَكفـي في البشارَة بالجَنَّة، بل لا بُـدَّ من إيمانٍ وعَمَلٍ، ولهذا يَرْبِطُ اللهُ تعالى دائمًا الإيمانَ بالعَمَل الصَّالِح.

٣- ومن فَوائِد الآيَة الكَرِيمَة: أَنَّهُ كُلَّما كان الإنسانُ أقوَى إيمانًا وأَكْثَرَ عَمَلًا كان أَحَقَّ بالبشارَة بالجَنَّة؛ وذلك لأنَّ الحُكمَ المُعَلَّق على وَصْفٍ يَقوَى بقُوَّة ذلك الوَصف، ويَضعُف بضعفِه.

٤- ومن فَوائِد الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ الأعمالَ الفاسِدَة لا تَرفَع صاحِبَها ولا تَنفَعُه، بل هي حَرامٌ عليه؛ لأنَّها نَوْع من الاستِهزاء بالله عَزَّوَجَلَّ.

ويتَفَرَّعُ على هذه الفائِدَة: أنَّهُ لا يَجُوز للإنسان -مثلًا- أن يُصَلِّيَ بلا وُضُوء، أو يُصَلِّي بنَجاسَةٍ لا يُعفَى عنها؛ لأنَّ ذلك من العَمَل الفاسِد، وإذا فَعَلَه صارَ كالمُستَهزِئ بالله.

٥- ومن فَوائِد الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ هؤلاء المُؤمِنين العامِلَين للصَّالِحات جَزاؤُهم الذي يُبَشَّرون به هذه الجَنَّاتُ العَظِيمَةُ التي تَشتَمِل على كُلِّ خَيْرٍ، وقد بَيَّن الله تعالى في آياتٍ أُخرَى أنَّ فيها ما تَشتَهِيه الأنفُسُ، وتَلَذُّ الأعيُن.

٦- ومن فَوائِد الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ هذه الجَنَّات فيها القُصُورُ الشَّامِخَة والأشجارُ العالِيَة؛ لقَوْلِهِ: ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾، فإنَّ التَّحتَ لابُدَّ أن يَكُون له فَوْقٌ، ومَعلُومٌ أنَّ هذه الأنهار لا تَجرِي من أسفَل أرضِ الجَنَّة، ولكنَّها تَجرِي من تحت ما فيها من الأشجار والقُصُور، وقد قال اللهُ تعالى في سُورَة الرَّحمَن: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢]، وبَيَّنت السُّنَّةُ هذه الخِيامَ الجَمِيلَةَ الرَّفيعَةَ[1].

٧- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ في الجَنَّة أنهارًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾، وأنَّ فيها ثِمارًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾، ولكن هذه الأنهار وهذه الثِّمار لا تُشبِه في الحَقِيقَة ما في الدُّنيا من الأنهار والثِّمار، بل هي تَختَلِفُ عنها اختِلافًا عَظِيمًا لا يُمكِنُ أن يُدرِكه الإنسان

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة، باب في صفة خيام الجنة، رقم (٢٨٣٨) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بحِسِّه في الدُّنيا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وكما في الحَدِيث القُدسِيِّ: «قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١)، وقَال ابنُ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ليس في الدُّنيا ممَّا في الجَنَّة إلَّا الأسماء(٢). يعني: أنَّ فيها مِثلَ الاِسمِ، لكن تختَلِف الحَقِيقَةُ، فقَوْلُهُ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ [الرحمن:٦٨] النَّخل والرُّمَّان والفاكِهَة مَوْجُودة في الدُّنيا، لكن تختَلِف، كما أنَّ الحَياةَ هناك تَختَلِفُ عن الحَياة في الدُّنيا، انظر -مثلًا- إلى النَّاس في هذه الدُّنيا يَحتاجُون إلى النَّوْم، وفي الجَنَّة لا يَحتاجُون إلى النَّوم، فلا يَنامون، تُصِيبُهم الأمراض والأوصاب في الدُّنيا، وفي الجَنَّةِ لا تُصِيبُهم، في الدُّنيا إذا سَقَط الإنسانُ في النَّار احتَرَقَ ومات، وفي الآخِرَة إذا سَقَط في النَّار فإنَّهُ وإن احتَرَقَ ونَضِجَ جِلدُه من النَّار لا يَموت، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:٥٦].

٨- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ أهلَ الجَنَّة كما يَتَنعَّمون بالطَّعم يَتَنَعَّمُونَ أيضًا باللَّوْنِ، حيث يُؤتَى إليهم بهذه الفاكِهَة المُتَشابِهَة، ثُمَّ إذا أكَلُوها صارَت مُختَلِفةً عمَّا سَبَقَ، وهذا يُعطِي الإنسانَ زِيادَةً في اللَّذَّة وشَهوَةِ الطَّعام.

٩- ومن فَوائِد الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ في الجَنَّة أزواجًا مُطَهَّرةً يَتَلَذَّذُ الإنسانُ بهنَّ، ويتمتَّعُ بهنَّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمۡ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة، باب صفة الجنَّة، رقم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه هناد بن السري في (الزهد) (١/ ٤٩).

وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٥-٥٨]، وقال تعالى في سُورَة الرَّحمَن: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٢-٥٦]، وهذا يَدُلُّ على أنَّهم يَتَلَذَّذُون بهذه الزَّوْجات في الجُلُوس على الأرائِك، والاتِّكاء عليها، مع تَقدِيم الفَواكِه من الوِلدان والخَدَم.

١٠- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ أهلَ الجَنَّة خالِدُون فيها، وقد بَيَّنت الآياتُ الأُخرَى أنَّ هذا الخُلُود خُلُودٌ أَبدِيٌّ، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]، ولا يُخرَجُونَ منها.

١١- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: الحثُّ على الإيمان والعَمَلِ الصَّالِح، والتَّرغِيبُ فيه؛ لأنَّ الأمرَ بالبشارَة في الجَنَّة لِمَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا يَقتَضِي حَثَّ هؤلاء المُبَشَّرِينَ على الإيمان والعَمَل الصَّالِح.

• • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

في هذه الآيَة يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ أيَّ مَثَلٍ كانَ، وذلك لأنَّ الأمثالَ التي يَضرِبُها اللهُ لِلنَّاسِ فيها مِنَ العِبرِ والمصالِحِ ما يَجعَلُ

ضَرْبَها مِنَ الحِكَمِ العَظِيمَةِ التي يَنتَفِعُ بها العِبادُ، فقد ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا بالعَنكَبُوتِ، ومَثَلًا بالذُّبابِ، وهنا قال: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، وقال اللهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ يَضرِبُ هذه الأمثالَ؛ من أجل العِبَرِ ومَصالِحِ العِبادِ، ولهذا لا يَسْتَحيِي أن يَضرِبَ هذه الأمثالَ وإن قَلَّت.

قال هنا: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ البَعُوضَةُ: واحِدَةُ البَعُوضِ، وهو مَعرُوفٌ، ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ كالذُّبابِ والعَنكَبُوتِ، فاللهُ لا يَسْتَحيِي من ذلك؛ لأَنَّهُ حَقٌّ، واللهُ تعالى لا يَسْتَحيِي من الحَقِّ؛ لِما في هذه الأمثالِ من المصالِحِ والمنافِعِ العَظِيمَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآيَة أنَّ النَّاسَ انقَسَمُوا نحو هذه الأمثالِ إلى قِسمَيْنِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ لِما تَتَضَمَّنُهُ هذه الأمثالُ من المصالِحِ والمنافِعِ، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، يَقُولُونَ ذلك استِهزاءً، وسُخرِيةً، واحتِقارًا لهذه الأمثالِ.

وَبَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ يُضِلُّ بهذا المثَلِ كَثِيرًا مِمَّنِ اقتَضَت حِكمَتُهُ أن يَضِلُّوا، ويَهدِي به كَثِيرًا مِمَّنِ اقتَضَت حِكمَتُهُ أن يَهتَدُوا، ولهذا قال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارِجِينَ عن طاعَةِ اللهِ.

في هذه الآيَة الكَريمَة: إشارَة إلى انتِفاءِ استِحياءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ من الحَقِّ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَسْتَحيي من غير الحَقِّ؛ لأنَّ الحَياءَ من غير الحَقِّ وصفُ كَمالٍ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُتَّصِفٌ بصِفاتِ الكَمالِ؛ ولهذا جاءَ ثُبُوتُ الحَياءِ للهِ في حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[1]، فالحَياءُ -في هذا الحديث- ثابِتٌ للهِ نُطقًا صَريحًا بدَلالَةِ المنطُوقِ، وفي الآيَة الكَرِيمَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ﴾ ثابِتٌ للهِ بطَرِيقِ المفهُومِ.

والحَياءُ كَسائِرِ صِفات اللهِ، يَجِبُ على الإنسانِ اعتِقادُ ثُبُوتِه للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ اللهَ أَثْبَتَهُ لِنَفسِهِ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلَمُ بنَفسِهِ وبغَيرِه، فإذا أخبَرَ عِبادَهُ بصِفَةٍ من صفاته وَجَبَ عليهم قَبُولُ هذه الصِّفَةِ، ولا يَجُوزُ لهم أن يُعارِضُوها بما يَظُنُّونَهُ عَقلًا وهو وَهْمٌ في الواقِعِ، وذلك لأنَّ كَلامَ اللهِ اجتَمع فيه كُلُّ الصِّفاتِ التي تَستَلزِمُ قَبُولَ الخَبَرِ؛ فإنَّهُ صادِرٌ عن تَمامِ العِلْمِ، وتَمامِ النُّصحِ والبَيانِ، وكَمالِ الفَصاحَةِ، وكَمالِ الصِّدقِ، فالكَمالاتُ التي تَكُونُ في الكَلامِ هي هذه الأوصافُ الأربَعَةُ: العِلْمُ، والصِّدقُ، وحُسنُ الإرادَةِ والقَصدِ، والفَصاحَةُ والبَيانُ.

أمَّا العِلْمُ فلا أحَدَ يَشُكُّ أو يُنكِرُ أنَّ اللهَ تعالى أَعْلَمُ بنَفسِهِ من غيره، وأمَّا الصِّدقُ فكَلامُ الله تعالى أصدَقُ الكَلامِ، وأمَّا الفَصاحَةُ فكَلامُ الله تعالى أفصَحُ الكَلامِ؛ ولهذا عَجَزَ العَرَبُ -مع كَمالِ فَصاحَتِهِم- عَنِ الإتيانِ بمِثلِهِ، وأمَّا الإرادَةُ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٥٦)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥)، وأحمد (٥/ ٤٣٨) من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقد قال اللهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:٢٦]، وقال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ أي: لِئَلَّا تَضِلُّوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء:١٧٦].

فإذا أَخْبَرَنا اللهُ تعالى عن صِفَةٍ من صِفاتِهِ وجَبَ علينا قَبُولُ هذا الخَبَرِ، واعتِقادُ مَدلُولِهِ، ولا يَجُوزُ لَنا أن نُحَرِّفَ مَعناهُ إلى ما يُخالِفُ ظاهِرَهُ إلَّا بدَلِيلٍ من كِتابِ اللهِ أو سُنَّة رَسُولِهِ ﷺ، وهذه هي الجادَّةُ التي بَنَى أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ عَقِيدَتَهم عليها.

فَوائِدُ هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- من فَوائِد هذه الآيَة: ضَرْبُ الأمثالِ لِتَقرِيبِ المعقُولاتِ؛ لأنَّ الأمثالَ تَكُونُ أُمُورًا مَحسُوسَةً يُستَدَلُّ بها على الأُمُورِ المعقُولَةِ.

٢- ومن فَوائِدِها: أنَّهُ يَنبَغِي لِمَن أرادَ الإيضاحَ والبَيانَ، وكان ذلك يَتَوَقَّفُ على ضَربِ المَثَلِ، أن يُبَيِّنَ ذلك بالمَثَلِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم:٥٨].

٣- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ النَّاسَ يَنقَسِمُونَ فيما ضَرَبَ اللهُ من الأمثالِ إلى قِسمَيْنِ: قِسمٌ مُصَدِّقٌ مُؤمِنٌ مُوقِنٌ بأنَّ ذلك حَقٌّ، وقِسمٌ آخَرُ مُستَكبِرٌ ساخِرٌ يَقُولُ: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، هَكَذا أخبَرَ اللهُ في هذه الآيَة، وهذا هو الواقِعُ.

ونَظِيرُ هذه الآيَة الكَرِيمَة: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا

ﱡﭐ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﱠ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، فهذا القُرآنُ يَنقَسِمُ النَّاسُ فيه إلى هَذَيْنِ القِسمَيْنِ، فمَنِ اهتَدَى به فقد وُفِّقَ، ومَن ضَلَّ عَنهُ واستكبَرَ فقد حُرِمَ خَيْرًا كَثِيرًا.

٤- ومن فَوائِد الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ الهِدايَةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ، ﱡﭐيُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﱠ، وأَخْبَرَ اللهُ بذلك من أجل أن نَلْجَأَ إليه.

ويَتَرَتَّبُ على هذا فائِدَةٌ، وهِيَ: اللُّجُوءُ إلى اللهِ تعالى بطَلَبِ الهِدايَةِ مِنهُ، والعِصمَةِ من الضَّلالِ، وألَّا يَعتَمِدَ الإنسانُ على نَفسِهِ، فيُزَكِّيَها، ولا يَرَى للهِ عليهِ فَضلًا بالهِدايَةِ، فالهِدايَةُ بيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

٥- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ هِدايَةَ اللهِ وإضلالَهُ مَبنِيَّانِ على الحِكمَةِ؛ لأنَّ اللهَ لا يُضِلُّ إلَّا مَن كان أهلًا لِلإضلالِ، وهُمُ الفاسِقُونَ.

ونَظِيرُ هذا: قَوْلُ اللهِ تعالى: ﱡﭐفَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﱠ [الصف:٥]، فَمَن كان طالِبًا لِلخَيْرِ، وسَلَكَ الطُّرُقَ التي تُوصِلُهُ إليهِ وُفِّقَ لَهُ، ومَن فَسَقَ وأعرَضَ فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفسَهُ، رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبنا بعد إذ هَدَيْتَنا، وهَبْ لنا من لَدُنْكَ رحمةً، إنَّكَ أنت الوَهَّابُ.

٦- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: إثباتُ الإرادَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، والإرادَةُ المُضافَةُ إلى اللهِ تَنقَسِمُ إلى قِسمَيْنِ: إرادَة شَرعِيَّة، وإرادَة كَوْنِيَّة.

فالإرادَةُ الشَّرعِيَّةُ: هي التي بمعنى المَحبَّةِ، مِثلُ قَوْلِهِ تعالى: ﱡﭐوَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﱠ [النساء:٢٧].

والإرادةُ الكَوْنِيَّةُ: هي التي بمعنى المشيئَةِ، مِثلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤]، ومِثلُ قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

والفَرقُ بينهُما: أنَّ الإرادَةَ الشَّرعِيَّةَ تَتَعَلَّقُ بما أَحبَّهُ اللهُ، سَواء وَقَعَ أم لم يَقَع، والإرادَةُ الكَوْنِيَّةُ تَتَعَلَّقُ بما قَدَّرَهُ وقَضاهُ، سَواء كان يُحِبُّهُ، أو لا يُحِبُّهُ.

والفَرقُ الثَّاني: أنَّ الإرادَةَ الشَّرعِيَّةَ قد يَقَعُ فيها المُرادُ، وقد لا يَقَعُ، والإرادَة الكَوْنِيَّة يَقَعُ فيها المُرادُ بكُلِّ حالٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا أراد شَيْئًا فإنَّما يَقُولُ لَهُ: «كُن» فيَكُون، ولا مُعَقِّب لِحُكمِهِ، وهو السَّمِيعُ العَلِيمُ.

٧- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَريمَة: إثباتُ الأَسْبابِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، فكان فِسقُهم سَبَبًا في إضلالِ اللهِ لَهُم.

٨- ومن فَوائِدِها: الحَذَرُ من الفِسْقِ، وهو الخُرُوجُ عن طاعَةِ اللهِ، والفِسْقُ قد يَكُونُ كُفرًا، مِثلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:١٨-٢٠].

••~••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى فِي وَصْفِ هؤلاء الفاسِقِين:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

هذه من أَوْصَافِ أهلِ الفِسقِ، يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ من بعد مِيثاقِهِ، وعَهدُ اللهِ الذي عَهِدَ به إلى عِبادِهِ: أن يَعبُدُوهُ، ولا يُشرِكُوا به شَيْئًا، فقد رَكَزَ اللهُ تعالى في فِطْرَةِ كُلِّ إنسانٍ أنَّ الرَّبَّ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّهُ هو الذي يَجِبُ أن يُعْبَد؛ كما جاءَ في الحديث الصَّحِيحِ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[1].

ومن أوصافِهِم: أنَّهم يَقطَعُونَ ما أمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ من حُقُوقِهِ وحُقُوقِ عِبادِهِ، فهم لا يُبالُونَ بقَطِيعَةِ شَرِيعَةِ اللهِ، والبُعْدِ عَنها، بل يَحرِصُونَ غايَةَ الحِرصِ على أن يَصُدُّوا عن سَبيلِ اللهِ مَن آمَنَ، ويَبغُونها عِوَجًا، وهم كَذلك يَقطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ به أن يُوصَل من الأقارِبِ والجِيرانِ واليَتامَى والمساكِينِ وغير ذلك؛ لأنَّهم لا يُؤمِنُونَ بما عند اللهِ من الأجرِ والثَّوابِ، ومَن فَعَلَ مِنهم شَيْئًا من هذه الصِّلاتِ -صِلاتِ الخَلْقِ- فإنَّما يَفعَلُها لا من بابِ التَّعَبُّدِ، ولكن من بابِ العادَةِ أوِ السَّجِيَّةِ التي تَقتَضِيها طَبِيعَةُ المُجتَمَعِ.

وأمَّا الوَصفُ الثَّالِثُ من أوصافِ أهلِ الفِسقِ فهو أنَّهم يُفسِدُونَ في الأرضِ بالمعاصِي؛ فإنَّ المعاصِيَ سَبَبُ الفَسادِ في الأرضِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، رقم (٤٧٧٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**»، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، فالفَسادُ في الأرضِ ليس بتكسيرِ الجُسُورِ، وحَفرِ الخَنادِقِ لِلسُّقُوطِ فيها، وما أشبه ذلك من الفَسادِ، ليس بهذا فحَسْبُ، بل بكُلِّ مَعصِيَةٍ يَعصُونَ اللهَ بها، فإنَّها سَبَبٌ لِلفَسادِ في الأرضِ.

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ نَتِيجَةَ هؤلاء ومَآلَهُم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، هؤلاء يَظُنُّونَ أنَّهم على خَيْرٍ، وأنَّهم رابِحُونَ، ولكنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ أنَّهم هم الخاسِرُونَ.

وحَصَرَ الخُسرانَ فيهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وذلك لأنَّ الرِّبحَ إنَّما يَكُونُ لِمَن اتَّصَفَ بالصِّفاتِ المُوجِبَةِ له، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]، فكُلُّ إنسانٍ خاسِرٌ إلَّا مَن اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ الأربَعِ.

فَوائِدُ هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- في هذه الآيَة الكَرِيمَة من الفَوائِدِ: بَيانُ شَيْءٍ من أوصافِ الفَسَقَةِ، وهو أنَّهم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- ومن فَوائِدِها: التَّحذِيرُ من هذه الصِّفاتِ؛ لأنَّها صِفاتُ الفاسِقِينَ الذين هم أهلُ الضَّلالِ، وهُمُ المُستَحِقُّونَ لِإضْلالِ اللهِ إيَّاهُم.

٣- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: وُجُوبُ الوَفاءِ بعَهدِ اللهِ، ومَن أوفَى بعَهدِ اللهِ أَوْفَى اللهُ لَهُ بعَهدِهِ؛ كما قال اللهُ تعالى في بَني إسرائِيلَ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠].

٤- ومن فَوائِدِها: وُجُوبُ صِلَةِ ما أَمَرَ اللهِ بصِلَتِهِ، وعلى رَأسِ ذلك: صِلَةُ الأرحامِ الشَّامِلَة لِبرِّ الوالِدَيْنِ، وصِلَةِ مَن عَداهُما، فالواجِبُ على المُسلِمِ: أن يَصِلَ ما أمَرَ اللهُ به أن يُوصَل، ولا شَكَّ أنَّ في صِلَةِ ما أمَرَ اللهُ به أن يُوصَل فَوائِدَ عَظِيمَةً، فإنَّ مَن وصَلَ رَحِمَهُ وصَلَهُ الله، ومَن قَطَعَ رَحِمَهُ قَطَعَهُ اللهَ.

فعلى المرءِ أن يَكُونَ قائِمًا بالقِسطِ والعَدلِ؛ حَتَّى تَحصُلَ لَهُ الصِّلَةُ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَن وصَلَهُ اللهَ فهو على خَيْرٍ.

٥- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: الإشارَةُ إلى أنَّ الإفسادَ في الأرضِ من صِفاتِ الفاسِقِينَ، وعلى هذا فيَكُونُ الإصلاحُ في الأرضِ من أوصافِ أهلِ الخَيْرِ والعَدلِ والاِستِقامَة.

فَيَتَفَرَّعُ على هذه الفائِدَةِ: أنَّهُ يَجِبُ على الإنسانِ أن يَبتَعِدَ عن كُلِّ ما يَكُونُ سَبَبًا لِلإفسادِ، وأن يَسعَى في كُلِّ ما يَكُونُ سَبَبًا لِلإصلاحِ.

٦- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ هؤلاء المُتَّصِفينَ بهذه الصِّفاتِ -الفِسق، وما أُضِيفَ إليهِ من هذه الأوصافِ- هم الخاسِرُونَ الذين لا رِبحَ لهم في الدُّنيا، ولا في الآخِرَةِ.

••••

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

في هذه الآيَة استِفهامٌ بمعنى التَّعَجُّبِ والإنكارِ لِأُولَئِكَ القَوْمِ الذين يَكفُرُونَ باللهِ، وهم يَعلَمُونَ أنَّهم كانُـوا أمواتًا، فأحياهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، كانُـوا أمواتًا قبل أن يَنفخَ اللهُ فيهمُ الرُّوحَ؛ لأنَّ الإنسانَ قبل نَفْخِ الرُّوحِ فيه مَيِّتٌ جَمادٌ، فيُحيِيهِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بنَفخِ الرُّوحِ فيه، ويَخرُجُ إلى هذه الدُّنيا، ويَعمَلُ ويَكدَحُ، ثُمَّ يُمِيتَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ يُحيِيهِ الحَياةَ الآخِرَةَ التي ليس بعدها مَوْتٌ، ويرجِعُهُ إليهِ؛ لِيُوَفِّيَهُ ما عَمِلَ.

فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- في هذه الآيَة الكَرِيمَة: الإنكارُ على أُولَئِكَ الذين كَفَرُوا باللهِ، مع أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ اعْتَنَى بهم هذه العِنايَةَ، فأوجَدَهم من العَدَمِ، وأحياهم من المَوْتِ، وكان من الواجِبِ عليهم أن يَقُومُوا بشُكرِ هذا المُنعِمِ عليهِم، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢- من فَوائِد هذه الآيَـة: أَنَّ الإنسانَ قبل أن تُنْفَخَ فيه الـرُّوحُ مَيِّتٌ جَمادٌ، لا يَتَعَلَّقُ بِهِ حُكمٌ من أحكامِ الأحياءِ.

ويَتَفَرَّعُ على ذلك: أَنَّـهُ لـو سَقَطَ قبل أن تُنفَخَ فيه الرُّوحُ من بَطْـنِ أُمِّهِ فإنَّهُ لا يُغَسَّلُ، ولا يُكَفَّنُ، ولا يُصَلَّى عليهِ، ولا يُدفَنُ مع النَّاسِ؛ لأَنَّهُ عِبارَةٌ عن قِطعَةِ لَحمٍ، يُدفَنُ في أيِّ مَكانٍ من الأرضِ، ولا يَحتاجُ إلى تَسمِيَةٍ، ولا إلى عَقِيقَةٍ.

فَإن قال قائِلٌ: مَتَى تَكُونُ الحَياةُ فيه؟

فالجَوابُ: أنَّها تَكُونُ إذا تَمَّ لَهُ أربَعَةُ أشهُرٍ؛ كما يَدُلُّ على ذلك حَدِيثُ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، قال: حَدَّثَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ وهو الصَّادِقُ المصدُوق، قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ»[1]، فالأربعُونَ الثَّلاثُ تكُونُ أربَعَةَ أشهُرٍ.

٣- ومن فَوائِد هذه الآيَة: بَيانُ قُدرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بإحياءِ الموْتَى، فإنَّهُ لا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ إحياءَ الموْتَى إلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ولهذا لَمَّا حاجَّ إبراهِيمُ ذلك الرَّجُلَ الذي حاجَّهُ في اللهِ، قال لَهُ إبراهِيمُ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فبَيَّنَ لَهُ إبراهِيمُ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أنَّ رَبَّهُ هو الذي يُحيِي ويُمِيتُ؛ لأَنَّهُ لا يَملِكُ ذلك إلَّا اللهُ.

وأمَّا قَوْلُ هذا المُحاجِّ: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ فهذا من بابِ التَّلبِيسِ والتَّموِيهِ؛ حَيْثُ زَعَمَ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ الإِحْيَاء والإماتَة، ولَمَّا كان هذا أمرًا قد يَخفَى على النَّاسِ أو يَلتَبِسُ عليهم قال لَهُ إبراهِيمُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

٤- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: تَقرِيرُ البَعثِ بأحسَنِ حُجَّةٍ، وذلك أنَّ الإنسانَ كان جَمادًا مَيِّتًا، ثُمَّ أحياهُ اللهُ، ثُمَّ يُمِيتُهُ مَرَّةً ثانِيَةً، ثُمَّ يُحيِيهِ، فالقادِرُ على

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي، رقم (٢٦٤٣).

إحيائِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ قادِرٍ على إحيائِهِ في المَرَّة الثَّانِيَة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٨-٧٩].

٥- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: إثباتُ الرُّجُوعِ إلى اللهِ تعالى؛ لِلمُجازاةِ على العَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٦- ومن فَوائِدِها: أَنَّهُ يَنبَغِي للإنسانِ أن يَسْتَعِدَّ لهذه الرَّجعَةِ إلى اللهِ؛ لِيَنظُرَ ماذا يُقابِلُ به رَبَّهُ؟ فَلْيَحرِص على أَلَّا يَفقِدَهُ اللهُ حَيْثُ أَمَرَهُ، أو يَراهُ حَيْثُ نَهاهُ؛ لأَنَّهُ سَوْفَ يُرجَعُ إلى اللهِ، ويُنَبِّئُهُ بعَمَلِهِ.

٧- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ المَوْتَ قد يُطلَقُ على الشَّيْءِ الذي لم تَسبِق مَوْتَهُ حَياةٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾، فإنَّ المُرادَ بالمَيِّتِ هنا: مَن لم تُنفَخ فيه الرُّوحُ.

• • ● ● •

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

قَوْلُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: أوجَدَهُ لَكم لِمَنافِعِكم ومَصالِحِكُم؛ عِنايَةً بكم ورَحمَةً.

وَ﴿مَا﴾ هنا: اسمٌ مَوْصُولٌ عامٌّ شامِلٌ لِكُلِّ ما في الأرضِ، وأكَّدَ هذا العُمُومَ بقَوْلِهِ: ﴿جَمِيعًا﴾.

ثُمَّ بعد خَلْقِ هذا ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ عَلا إليها، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: أتَمَّهُنَّ وأكملَهُنَّ سَبعَ سَماواتٍ، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فهو مع عُلُوِّهِ عَزَّوَجَلَّ على هذه السَّمَواتِ السَّبعِ لا يَخفَى عليهِ شَيْءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، بل هو بكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ.

وهذه الآيَـةُ لها صِلَـةٌ بما قبلها؛ حَيْثُ تَدُلُّ على عِنايَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنا، وتَيْسِيرِهِ، وتَسهِيلِهِ.

فَوائِدُ هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- أنَّ الخالِـقَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لقَـوْلِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وأنَّهُ لا خالِقَ إلَّا اللهُ.

وقَـد تَحَدَّى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الخَلْـقَ أن يَخلُقُـوا شَيْئًا ولـو قَـلَّ؛ كـما في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]، وكـما في قَـوْلِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨-٥٩]، وقَوْلِه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤]، وقَوْلِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، وقَوْلِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة:٧١-٧٢]، فالله تعالى هو الخالِقُ لِكُلِّ ما في الأرض.

٢- ومن فَوائِد الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ الأَصلَ في كُلِّ ما في الأرضِ من أعيانٍ ومَنافِعَ

الأصلُ فيه الحِلُّ والإباحَةُ حتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ على التَّحرِيمِ؛ لأنَّ اللَّامَ بمعنى الإباحَةِ هنا، فكُلُّ ما في الأرضِ مِنَ الأعيانِ والمنافِعِ الأصلُ فيه الحِلُّ، ومَن ادَّعَى تَحرِيمَ شَيْءٍ مِنهُ فعليهِ الدَّلِيلُ.

وهذه القاعِدَةُ قاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ تَنفَعُكَ في كَثِيرٍ من المسائِلِ، فعندما يَختَلِفُ اثنانِ في حِلِّ هذا المأكُولِ أو تَحرِيمِهِ نقول: الأصلُ الحِلُّ، فمَن يَدَّعِي أَنَّهُ حَرامٌ فعليهِ الدَّلِيلُ، فإن لم يَأتِ بدَلِيلٍ خاصٍّ على تَحرِيمِ هذا الشَّيْءِ المُعَيَّنِ أو بدَلِيلٍ عامٍّ على تَحرِيمِ هذا الشَّيْءِ المُعَيَّنِ فإنَّ القَوْلَ قَوْلُ مَن قال بالحِلِّ.

وعندما يَختَلِفُ اثنانِ في عَمَلٍ في الأرضِ من حِراثَةٍ أو غيرها فإنَّنا نقول: الأصلُ الحِلُّ إلَّا ما قامَ الدَّلِيلُ على تَحرِيمِهِ.

ولو تَنازَعَ رَجُلانِ في حِلِّ حَيَوانٍ، فقال أحَدُهُما: هذا حَلالٌ، وقال الثَّانِي: هذا حَرامٌ، فإنَّ القَوْلَ قَوْلُ مَن يَقُولُ بأَنَّهُ حَلالٌ حَتَّى يُوجِدَ مُدَّعِي التَّحرِيمِ دَلِيلًا على أَنَّهُ حَرامٌ.

وعلى هذه القاعِدَةِ: يَجُوزُ لِلإنسانِ أن يَتَمَتَّعَ بكُلِّ ما في الأرضِ من مَأكُولٍ ومَشرُوبٍ، ولا حَرَجَ عليهِ في ذلك، إلَّا أن يَقُومَ دَلِيلٌ على التَّحرِيمِ.

٣- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: بَيانُ فَضلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على عِبادِهِ؛ حَيْثُ وسَّعَ لهم هذه التَّوْسِعَةَ البالِغَةَ بأنَّ كُلَّ ما في الأرضِ فهو حَلالٌ لَهُم.

٤- ومن فَوائِدِها: أنَّ الأرضَ خُلِقَت قبل السَّماءِ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾، وهذا هو الذي تَدُلُّ عليهِ آيَةُ فُصِّلَت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ

أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:٩-١٢].

وأمَّا الآياتُ في قَوْلِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات:٢٧-٣٣] فإنَّها لا تُنافي هذه الآيَةَ، ولا آيَةَ فُصِّلَت؛ لأنَّ قَوْلَه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ يَدُلُّ على أنَّ دَحْوَ الأرضِ كان بعد خَلْقِ السَّماءِ، وأمَّا خَلْقُ الأرض فإنَّهُ كان سابِقًا على خَلْقِ السَّماءِ.

٥- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَريمَة: إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بذاتِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، وقد سَبَقَ أن ذَكَرنا هذا، وأنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَوْقَ عِبادِهِ، وأنَّ لَهُ العُلُوَّ المُطلَقَ: عُلُوَّ الذَّاتِ، وعُلُوَّ الصِّفَةِ.

فَعُلُوُّ الذَّاتِ: هو أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وعُلُوُّ الصِّفَةِ: هو أَنَّ جَمِيعَ صِفاتِهِ عُليا كامِلَةٌ، ليس فيها نَقصٌ بوَجهٍ من الوُجُوهِ.

٦- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَريمَة: أنَّ السَّمواتِ سَبعٌ، وهذا مَذكُورٌ في عِدَّةِ آياتٍ من القُرآنِ؛ كما في قَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، وفي قَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، وأمَّا الأرضُ فلم تُذكَر صَريحًا بهذا العَدَدِ في القُرآنِ الكَريمِ، ولكن في القُرآنِ إشارَة إلى أنَّها سَبعٌ، وذلك في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾

[الطلاق:١٢]، فإنَّ المِثْلِيَّةَ هنا ليست في الصِّفَةِ ولا في الحَجْمِ؛ لأنَّ السَّماءَ أعظَمُ من الأرضِ وأوسَعُ وأكبَرُ، ولَكِنَّها في العَدَدِ.

وأمَّا السُّنَّةُ فقد جاءَت صَرِيحَةً بأنَّ الأرَضِيْنِ سَبعٌ، كما في قَوْلِه ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

٧- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: عُمُومُ عِلْمِ اللهِ، وأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلِيم بكُلِّ شَيْءٍ، وهذا مُكَرَّرٌ في القُرآنِ الكَرِيمِ كَثِيرًا، مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، وهذا العِلْمُ عِلمٌ كامِلٌ ليس فيه نَقصٌ بوَجهٍ من الوُجُوهِ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥]، وقَوْلِه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس:٦١].

• • ◦ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

في هذه الآيَة الكَريمَة يُبَيِّنُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبادِهِ ما جَرَى بينهُ وبين الملائِكَةِ حَوْلَ خَلقِ آدَمَ وذُرِّيَّتِه، فيَقُولُ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، وهذا التَّرْكِيبُ كَثِيرٌ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٨)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم، رقم (١٦١٠/ ١٣٧)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في القُرآنِ، أعنِي: (إذ) التي تُبتَدَأُ بها القِصَّةُ، قال أهلُ العلم: وهي مَنصُوبَةٌ بفِعلٍ محذُوفٍ تَقدِيرُهُ: «اذكُر».

والملائِكَة: هم عالَمٌ غَيبِيٌّ خُلِقُوا من نُورٍ، خَلَقَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِعِبادَتِهِ، فقامُوا بها، فكانُوا يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ والنَّهارَ لا يفتُرُونَ، وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى أَنَّهُ جَعَلَهم رُسُلًا أُولِي أجنِحَةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ.

قال لهم عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: خَلِيفَةً لِمَن سَبَقَهُ، وذلك لأنَّ الجانَّ قد سَبَقَ خَلْقُهم خَلْقَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٦-٢٧].

وكان الجِنُّ قد أفسَدُوا في الأرضِ، وسَفَكُوا الدِّماءَ، فلَمَّا قال الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ لِلمَلائِكَةِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالُوا مُستَفهِمِينَ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، فسَأَلُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ: هَل يَجعَلُ فيها خَلِيفَةً تَكُونُ كَمَن سَبَقَهم من الفَسادِ وسَفكِ الدِّماءِ؟ مُستَفهِمِينَ هذا الِاستِفهامَ؛ لأنَّهم يَعلَمُونَ أنَّ اللهَ تعالى لن يَفعَلَ شَيْئًا إلَّا لِحِكمَةٍ، فقال اللهُ لَهُم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أنَّ عنده عَزَّوَجَلَّ من العِلْمِ ما ليس عند الملائِكَةِ، وهو عالِمٌ جَلَّوَعَلَا بأنَّ هذه الخَلِيفَةَ سَيَكُونُ مِنها الأنبِياءُ، والصِّدِّيقُونَ، والشُّهَداءُ، والصَّالِحُونَ، ونِعمَ الخَلِيفَةُ يَكُونُونَ لِمَن سَبَقَهُم.

فَوائِدُ وأحكامُ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

١- إثباتُ القَوْلِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وأَنَّهُ يَقُولُ القَوْلَ بصَوْتٍ مَسمُوعٍ، وحُرُوفٍ مُتَتالِيَةٍ؛ لأنَّ هذا هو الكَلامُ المعرُوفُ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ التي نَزَلَ بها القُرآنُ الكَرِيمُ،

وعلى هذا جَرَى السَّلَفُ الصَّالِحُ ومَن تَبِعَهم من الأئِمَّةِ، بأنَّ اللهَ تعالى يَتكلَّمُ بكَلامٍ مَسمُوعٍ بحُرُوفٍ مُتَتالِيَةٍ، وأنَّهُ يَقُولُ كَذلك قَوْلًا بحُرُوفٍ مُتَتابِعَةٍ، وصَوْتٍ مَسمُوعٍ، والأدِلَّة على ذلك كَثِيرَةٌ جِدًّا.

٢- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: عِنايَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ برَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ وذلك بإضافَةِ رُبُوبِيَّتِهِ تعالى إليهِ، أي: إلى الرَّسُولِ ﷺ؛ حَيْثُ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، والرُّبُوبِيَّةُ الخاصَّةُ تَقتَضِي عِنايَةً أكثَرَ وأتَمَّ؛ وذلك أنَّ رُبُوبِيَّةَ اللهِ تعالى عامَّة وخاصَّة، فالعامَّةُ: الشَّامِلَةُ لِجَمِيعِ الخَلقِ، المُقتَضِيَةُ لِلمُلكِ وتَدبيرِ شُؤُونِ الخَلقِ عُمُومًا، مِثلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١-٦]، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ عُمُومًا، والآياتُ في هذا كَثِيرَة.

وأمَّا الرُّبُوبِيَّةُ الخاصَّةُ: فهي التي يُضِيفُها اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى ساداتِ البَشَرِ، كالأنبياءِ ونَحوِهم.

٣- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: إثباتُ الملائِكَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، وأنَّ الملائِكَةَ لهم عُقُولٌ وفُهُومٌ يَتكَلَّمُونَ ويُحاوِرُونَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال لَهُم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

وفي هذا: إبطالٌ لِقَوْل مَن قال: إنَّ الملائِكَةَ عِبارَة عن القُوَى الخَيْرِيَّةِ أو الخَيِّرَةِ، وليست أجسامًا تَتكَلَّمُ أو تَسمَعُ؛ فإنَّ هذا قَوْلٌ باطِلٌ، يَرُدُّهُ الكِتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ الأُمَّةِ.

٤- ومن فَوائِد الآيَة الكَريمَة: إثباتُ قِيامِ الأفعالِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فإنَّ الجَعْلَ يَقتَضِي إيجادًا بعد عَدَمٍ، وهو كَذلك، واللهُ عَزَّوَجَلَّ مَوْصُوفٌ بِصِفاتِ الذَّاتِ اللَّازِمَةِ لِذاته، وبِصِفات الأفعالِ المُتَعَلِّقَةِ بمَشِيئَتِهِ وحِكمَتِهِ، هذا هو مَذهَبُ السَّلَفِ وأئِمَّةِ الأُمَّةِ.

٥- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: الإشارَةُ إلى أنَّ لِلأرضِ عُمَّارًا قبل آدَمَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وذُرِّيَّتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي: يَخْلُفُونَ مَن سَبَقَهُم.

٦- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ الأُمَمَ السَّابِقَةَ على آدَمَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وذُرِّيَّتِهِ كان فيهم من الشَّرِّ والفَسادِ وسَفكِ الدِّماءِ ما اقتَضَى أن تَسأَلَ الملائِكَةُ رَبَّها عَزَّوَجَلَّ: هَل يَجعَلُ في هذه الخَلِيفَةِ مَن يَكُونُ كَمَن سَبَقَهُم؟ لِقَوْلِهِم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

٧- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: تَعظِيمُ شَأنِ الدِّماءِ؛ ولهذا خَصَّتها الملائِكَةُ بالذِّكرِ في قَوْلِهِم: ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، وإلَّا فمِنَ المعلُومِ أنَّ سَفكَ الدِّماءِ من الفَسادِ في الأرضِ، لكن لَمَّا عُطِفَ على العامِّ -وهو خاصٌّ- دَلَّ ذلك على أهَمِّيَّتِهِ، وأنَّهُ من أعظَمِ الفَسادِ في الأرضِ.

٨- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ الملائِكَةَ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ قد شَغَلُوا أوقاتَهم بتَسبِيحِ اللهِ وتَقدِيسِهِ.

وتَسبِيحُ اللهِ مَعناهُ: تَنزِيهُهُ عن كُلِّ عَيْبٍ ونَقصٍ، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُنَزَّه عَنِ العُيُوبِ والنَّقائِصِ، سَواءٌ أكان النَّقصُ في صِفَةِ كَمالِهِ، أم كان نَقصًا مُستَقِلًّا، وكذلك

نقول في العُيُوبِ، فيُنَزَّهُ اللهُ تعالى عن الوَصفِ بالعَجزِ والجهلِ والعَمَى والموْتِ وما أشبَهُ ذلك من الصِّفاتِ النَّاقِصَةِ.

وتُنَزَّهُ صِفاتُهُ الكامِلَةُ عن أن يَلحَقَها شَيْءٌ من النَّقصِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، فمع خَلْقِ هذه المخلُوقاتِ العَظِيمَةِ في هذه المُدَّةِ القَصِيرَةِ لم يَلحَقهُ عَزَّوَجَلَّ لُغُوبٌ، وهو التَّعَبُ والإعياءُ.

ويُنَزَّهُ عَزَّوَجَلَّ عن مُشابَهَةِ المخلُوقِينَ؛ لأنَّ مُشابَهَةَ النَّاقِصِ نَقصٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

إذَن: الذي يُنَزَّهُ اللهُ عَنهُ ثَلاثَةُ أشياءَ: مُشابَهَةُ المخلُوقِينَ، والنَّقصُ المُجَرَّدُ، والنَّقصُ في صِفاتِ كَمالِهِ.

وَقَوْلُ الملائِكَةِ: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ولَم يَقُولُوا: «نُقدِّسَكَ» يُستَفادُ مِنهُ: إخلاصُ الملائِكَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ اللَّامَ هنا للاخْتِصَاصِ، وإلَّا فإنَّ الفِعلَ يَتَعَدَّى بنَفسِهِ، لكن عُدِّي باللَّامِ؛ إشارَةً إلى إخلاصِهِم، وأنَّ التَّقدِيسَ خالِصٌ للهِ تعالى وَحْدَهُ.

٩- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: بَيانُ كَمالِ عِلْمِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٠- ومن فَوائِدِها: إثباتُ التَّفضِيلِ في صِفاتِ اللهِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وفي ذلك: رَدٌّ على مَن إذا مَرُّوا على مِثلِ هذه الآيَةِ التي فيها اسمُ تفضِيلٍ حَوَّلُوا اسمَ التَّفضِيلِ إلى اسمِ فاعِلٍ، وقالُوا: ﴿أَعْلَمُ﴾ أي: عَالِمٌ؛ فإنَّ هذا صَرْفٌ لِلكَلامِ عن ظاهِرِهِ بلا دَلِيلٍ، وفي الوَقتِ نَفسِهِ هو تَنقِيصٌ من المعنَى؛ لأنَّ (أَفْعَل) التَّفضِيلَ يَمنَعُ المُشارَكَةَ في الكَمالِ، لكن اسم الفاعِلِ لا يَمنَعُ المُشارَكَةَ في الوَصفِ، بل ولا يَمنَعُ المُساواةَ والمُماثَلَةَ أيْضًا.

١١- نَقصُ عِلْمِ المخلُوقِ، وعلى هذا فإذا أشكَلَ عليكَ شَيْءٌ فكِلْ عِلْمَهُ إلى مَن هو بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، واسألِ اللهَ أن يُعَلِّمَكَ ما لا تَعلَمُ، وقُل: رَبِّ زِدني عِلمًا.

•●◦◦●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

يُخبِرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ عن تَعلِيمِهِ لِآدَمَ -وهو أبُو البَشَرِ- الأسماءَ كُلَّها، فَقد عَلَّمَهُ أسماءَ كُلِّ شَيْءٍ يَحتاجُ إليهِ البَشَرُ، ثُمَّ عَرَضَ هذه المُسَمَّياتِ على الملائكَةِ، فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ أي: أخبِرُوني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ لِيُرِيَهم عَزَّوَجَلَّ مِقدارَ عِلمِهِم، وأنَّ عِلْمَهم ناقِصٌ؛ حَيْثُ جَهِلُوا أسماءَ هذه المُسَمَّياتِ، فإذا جَهِلُوا أسماءَ هذه المُسَمَّياتِ فإنَّهم بجَهلِ المُستقبَلِ لهذه الخَلِيفَةِ التي أخبَرَهُمُ اللهُ تعالى بأنَّهُ سَيَجعَلُها في الأرضِ من باب أَوْلَى وأحرَى.

وقال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، ولَم يَقُل: «عَرَضَها» أي: الأسماءَ؛ لأَنَّهُ عَرَضَ عليهم المُسَمَّياتِ؛ كما يَدُلُّ عليهِ قَوْلُهُ: ﴿فَقَالَ أَنبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فيما عندكم من العِلْمِ، ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي: نُنَزِّهُكَ أن يَكُونَ لَدَيْنا عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فَوائِدُ هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ:

١- في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: إظهارُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِفَضلِ آدمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ حَيْثُ عَلَّمَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسماءَ كُلِّ شَيْءٍ يَحتاجُ إليهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

٢- ومن فَوائِدِها: حِكمَـةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بامتِحانِ الملائِكَـةِ بعَرضِ هذه المُسَمَّياتِ التي عَلَّمَ آدمَ بأسمائِها؛ حَتَّى يَتبَيَّنَ نُقصانُ عِلْمِهِم.

٣- ومن فَوائِدِها: إثباتُ كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأَنَّهُ بصَوْتٍ مَسمُوعٍ وحُرُوفٍ مُتَتابِعَةٍ؛ كما في قَوْلِهِ: ﴿أَنبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

٤- تَنزِيهُ الملائِكَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وتَعظِيمُهم لَهُ؛ لِقَوْلِهِم: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾، وقد سَبَقَ فيما مَضَى ذِكرُ ما يُنَزِّهُ اللهُ عَنهُ من النَّقائِصِ، والعُيُوبِ، ومُماثَلَةِ المخلُوقِينَ.

٥- أنَّ جَمِيعَ العُلُومِ التي عند المخلُوقاتِ من عند اللهِ؛ لِقَوْلِ الملائِكَةِ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، وإذا كان هذا في الملائِكَةِ الذين لهم من المزِيَّةِ والفَضلِ ما هم أهلٌ لَهُ فغيرهم من باب أولَى، ولهذا لا أحَدَ يُحِيطُ بعِلْمِ اللهِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ

بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

٦- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: إثباتُ اسمَيْنِ من أسماءِ اللهِ، وهُما: (العَلِيمُ) و(الحَكِيمُ)، فَأَمَّا العَلِيمُ: فهو ذُو العِلْمِ الكامِلِ المُحِيطِ بكُلِّ شَيْءٍ، وقد سَبَقَ لنا بيانُ إحاطَةِ عِلْمِ اللهِ تعالى بكُلِّ شَيْءٍ جُملَةً وتَفصِيلًا.

وأَمَّا الحَكِيمُ: فهو من الحُكمِ والإحكامِ أيْضًا، فاللهُ تعالى لَهُ الحُكْمُ في الأُولَى والآخِرَةِ، لَهُ الحُكمُ الكَوْنِيُّ والشَّرعِيُّ، فلا حاكِمَ في الخَلقِ إلَّا اللهُ، ولا حاكِمَ بينهم إلَّا اللهُ.

وأَمَّا الإحكامُ فهو إتقانُ الشَّيْءِ، بحَيْثُ يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ في مَوْضِعِهِ، ولهذا قالُوا: الحِكمَةُ هي وضعُ الشَّيْءِ في مَواضِعِهِ، وبذلك يَتبَيَّنُ كَمالُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في العِلْمِ والحِكمَةِ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

في هذه الآيَةِ يُنادِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيأمُرُهُ أن يُنبِّئَ الملائكَةَ بأسماءِ هؤلاء المُسَمَّياتِ؛ من أجلِ أن يَظهَرَ فضلُ آدمَ بما أعطاهُ اللهُ من عِلْمِ هذه الأسماءِ ومُسَمَّياتِها.

فَلَمَّا أنبأهم آدمُ بأسمائِهم -أي: بأسماءِ هذه المُسَمَّياتِ- قال اللهُ تعالى مُخاطِبًا الملائِكَةَ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما غابَ في السَّمواتِ والأرضِ عن مُشاهَدَة غَيْر اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويَشمَلُ هذا: ما غابَ عن المخلُوقِينَ في مَكانٍ آخر لَيْسُوا فيه، وما غابَ عن المخلُوقِينَ من عِلْمِ المُستَقبَلِ.

وكَوْنُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَعلَمُ غَيْبَ السَّمواتِ والأرضِ يَقتَضِي -بالأولَوِيَّةِ- أن يَكُونَ عالِمًا بالشَّهادَةِ.

وقال: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: ما تُبدُونَهُ وتُظهِرُونَهُ، وما كُنتُم تَكتُمُونَ، فلا تُبدُونَهُ لأحَدٍ.

من أحكام وفوائِد هذه الآية:

١- إثباتُ كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأَنَّهُ يَتكَلَّمُ بصَوْتٍ مَسمُوعٍ، وحُرُوفٍ مُتَتابِعَةٍ، يَسمَعُهُ المُخاطَبُ ويَفهَمُهُ، وهذا هو مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ.

٢- وفيها من الفَوائِدِ العَظِيمَةِ: الرَّدُّ على مَن زَعَمَ أَنَّ كَلامَ اللهِ هو المعنَى النَّفسِيُّ القائِمُ بالنَّفسِ؛ فإِنَّ الكَلامَ بهذا المعنَى ليس بكَلامٍ، ولا يُسمَع.

٣- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: فضلُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بما عَلَّمَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هذه الأَسْماءِ، ومُسَمَّياتِها.

٤- ومن فَوائِدِها أَيْضًا: مِنَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الملائِكَةِ بما أظهَرَ لهم من عِلْمِهِ، وأَنَّهُ يُحِيطُ بكُلِّ شَيْءٍ؛ فإِنَّ من تَمامِ نِعمَةِ اللهِ على عَبدِهِ: أن يُبَيِّنَ لَهُ الحَقَّ بالطُّرُقِ التي يَطمَئِنُّ إليها، ولو شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لم يُبَيِّن الحَقَّ، ولَتَرَكَ الإنسانَ يَعْمَهُ ويَضِيعُ في ضَلالِهِ.

ويَتَفَرَّعُ على هذا: أَنَّهُ يَجِبُ على الإنسانِ أن يَشكُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ما يُعَلِّمُهُ من الحَقِّ الذي قد يَضِلُّ عنه كَثِيرٌ من النَّاسِ.

٥- ومن فَوائِد الآيَةِ الكَرِيمَةِ: إثباتُ عُمُومِ عِلْمِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وذلك لأنَّ العالِمَ بالغَيْبِ عالِمٌ بالشَّهادَةِ من باب أَوْلَى.

٦- ومن فَوائِدِها أيْضًا: تَذكِيرُ المُخاطَبِ بما كان من قبلُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال لِلمَلائِكَةِ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يُقَرِّرُ ذلك عَزَّوَجَلَّ عليهِم؛ لِيُبَيِّنَ لهم أنَّ ما قاله لهم هو الحَقُّ المُطابِقُ لِلواقِعِ.

٧- ومن فَوائِدِها: عُمُومُ عِلْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما فَعَلَهُ خَلْقُهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٨- ومن فَوائِد الآيَةِ الكَرِيمَةِ: أنَّ لِلمَلائِكَةِ إرادَةً وقُدرَةً على أعمالِهم وأفعالِهم، وهذا فيه تَكذِيبُ دَعْوَى مَن ادَّعَى أنَّ الملائِكَةَ ليس لهم عُقُولٌ، بل الملائِكَةُ لهم عُقُولٌ بلا شَكٍّ، ولهم إراداتٌ، ولهم قُدرَةٌ على الأعمالِ، يُؤخَذُ هذا: من قَوْلِهِ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ فإنَّ هذا يَدُلُّ على أنَّ الملائِكَةَ تُبدِي ما تُبدِي، وتَكتُمُ ما تَكتُمُ، وهذا لا يَكُونُ إلَّا عن عِلمٍ وإرادَةٍ وقُدرَةٍ.

•••

ثُمَّ قَالَ تعالَى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ﴾ كَلِمَةٌ مُقدَّرَةٌ يُبيِّنُها السِّياقُ، والتَّقدِيرُ: «واذكُر إذ قُلنا لِلمَلائِكَةِ: اسجُدُوا لِآدَمَ»، يعني: اذكُر هذه القَضِيَّةَ، مُنوِّهًا بفَضلِ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ حَيْثُ أُمِرَتِ الملائِكَةُ أن يَسجُدُوا لَهُ؛ تَعظِيمًا واعتِرافًا بما أعطاه اللهُ من الفَضلِ.

لَكِنَّ هذا السُّجُودَ ليس سُجُودَ عِبادَةٍ، يَكُونُ كَسُجُود المخلُوق لِلخالِقِ، بل هو سُجُودُ تَعظِيمٍ مُجَرَّدٌ عن التَّعبُّدِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يَشمَلُ جَمِيعَ الملائِكَةِ؛ لأنَّ الأصلَ في صِيغَةِ العُمُومِ: أن تَكُونَ شامِلَةً لِجَمِيعِ أفرادِها، ما لم يَكُن هناكَ دَلِيلٌ على التَّخصِيصِ، أو إرادَةِ الخُصُوص.

وَبَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ الملائِكَةَ لَمَّا أُمِرُوا بالسُّجُودِ لِآدَمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سَجَدُوا، ولَم يَسْتَنكِفُوا عن أمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إلَّا إبلِيس، فإنَّهُ أَبَى أن يَسجُدَ، واستَكبَرَ عن السُّجُودِ.

والجَمعُ بين الإباءِ والاستِكبارِ يَدُلُّ على أنَّ إباءَهُ لم يَكُن لِعُذرٍ أو لِمانِعٍ يُعْذَرُ به، وإنَّما كان عن استِكبارٍ في قَلبِهِ.

وقد بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آياتٍ أُخرَى سَبَبَ إبائِهِ واستِكبارِهِ؛ حَيْثُ قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١].

وَقَوْلُهُ هنا: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ اختَلَفَ أهلُ العِلْمِ في هذا الاِستِثناءِ: هَل هو استِثناءٌ مُتَّصِلٌ، أم هو استِثناءٌ مُنفَصِلٌ؟ والاِستِثناءُ المُتَّصِلُ: هو أن يَكُون المُسْتَثنى من جِنس المُسْتَثنَى منه، وهذا هو الأصلُ في الاِستِثناء، ولا يُعْدَل عنه إلا بقَرِينَةٍ، أي: بدَلِيلٍ يَدُلُّ على أنَّ الاِستِثناء مُنقَطِع.

والاِستِثناءُ المُنقَطِعُ: هو الذي يَكُون المُستَثنَى فيه من غير جِنسِ المُسْتَثنى منه.

فَمِنهُم مَن قال: إنَّ الاِستِثناءَ هنا مُتَّصِلٌ؛ لأنَّ الأصلَ في الاِستِثناءِ أن يَكُونَ المُستَثنَى من جِنسِ المُستَثنَى مِنهُ.

ومِنهم مَن قال: إنَّ الاِستِثناءَ مُنقَطِعٌ، أي: أنَّ المُستَثنَى ليس من جِنسِ المُستَثنى منه، واستَدَلَّ هَؤُلاءِ بقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠]، وبِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»[1]، وهذا القَوْلُ أرجَحُ، لَكِنَّهُ يُشكِلُ عليهِ: كَيْفَ يَكُونُ إبلِيس من غير الملائكَـةِ، ويَصِحُّ أن يَتَوَجَّهَ إليهِ الخِطابُ في قَوْلِهِ: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾؟

والجَوابُ عن هذا أن نَقُولَ: صَحَّ أن يَتَوَجَّهَ إليهِ الخِطابُ؛ لأَنَّهُ كان في عامَّتِهِم، أي: أَنَّهُ كانَ مَعَهُم، يَعمَلُ بعمَلِهِم، ويَتَعَبَّدُ كما يَتَعَبَّدُونَ، لكن غَلَبَ عليهِ الطَّبعُ الخَبِيثُ، فلَمَّا أُمِرَ بالسُّجُودِ لِآدَمَ رَأى أَنَّهُ فَوْقَ مَرتَبَةِ آدَمَ، وأنَّ الأَعْلَى لا يُمكِنُ أن يُعَظِّمَ الأدنَى، فحَمَلَهُ إعجابُهُ بنَفسِهِ، واحتِقارُهُ لِآدَمَ، على أن يَسْتَكبِرَ عن أمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وبِهذا يَزُولُ الإشكالُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرقة، رقم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

وهنا قـال: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كان من الكافـرين بإبائِهِ واستِكبارِهِ، وعلى هذا فلا تَكُونُ (كانَ) هنا دالَّةً على المُضِيِّ.

ومِنهم مَن قال: إنَّ (كانَ) دالَّةٌ على المُضِيِّ، ولَكِنَّهُ كان في عِلْمِ اللهِ من الكافِرِينَ، والأوَّلُ أصَحُّ، أي: أنَّ المُرادَ بها: مُجَرَّد بَيانِ اتِّصافِ اسمِها بخَبَرِها، وهذا مَوْجُودٌ في القُرآنِ كَثِيرًا، أي: أن تَأتِيَ (كانَ) مَسْلُوبَةَ الدَّلالَةِ على الزَّمَنِ، ويَكُونُ المُرادُ بها: مُجَرَّدَ تَحقِيقِ الصِّفَةِ، ويَقَعُ ذلك كَثِيرًا في صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ألَم تَرَ إلى قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧]، وقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، مع أنَّهُ لم يَزَل ولا يَزالُ كذلك؟

فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بَيانُ فَضِيلَةِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حَيْثُ أُمِرَ الملائِكَةُ الكِرامُ بأن يَسجُدُوا لَهُ.

٢- أنَّ عِبادَةَ اللهِ هي طاعَتُهُ، حَتَّى في الأمرِ الذي لولا أَمْرُهُ به لَكان شِركًا، فالسُّجُودُ لِغَيْرِ اللهِ شِركٌ، ولكن إذا كان بأمرِ اللهِ كان طاعةً، كما أنَّ قَتلَ النَّفسِ التي حَرَّمَ اللهُ بغير حَقٍّ من كَبائِرِ الذُّنُوبِ، وإذا وقَعَ امتِثالًا لِأمرِ اللهِ كان من الطَّاعَةِ، فهذا إبراهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمَرَهُ اللهُ أن يَقتُلَ ابنَهُ، وقَتلُ الابنِ من كَبائِرِ الذُّنُوبِ بلا شَكٍّ، ومع ذلك كان امتِثالُ إبراهِيمَ لهذا الأمرِ من أرفَعِ المقاماتِ لِإبراهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَـمَّا ابتلاهُ واختبَرَهُ بهذا الأمرِ العَظِيمِ، وعَلِمَ عَزَّوَجَلَّ أنَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنَفِّذٌ لِأمرِهِ، حَتَّى تَلَّ ابنَهُ لِلجَبِينِ لِيَذبَحَهُ، نَزَلَ الفَرَجُ من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنَسخِ هذا الأمرِ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٧]، أقُولُ:

إنَّ في هذه الآيَة دَلِيلًا على أنَّ الشَّيْءَ قد يَكُونُ كُفرًا أو كَبِيرَةً، فإذا وقَعَ بأمرِ اللهِ كان طاعَةً وقُربَةً.

٣- ومن فَوائِد الآيَةِ الكَرِيمَةِ: إجراءُ الأحكامِ على الظَّاهِـرِ، وأنَّ مَن كان مُتَظاهِرًا بعَمَلِ قَوْمٍ فهو منهم ظاهِرًا، ولهذا صَحَّ تَوَجُّهُ الخِطابِ من اللهِ لِلمَلائِكَةِ إلى إبلِيسَ، مع أنَّهُ ليس من جِنسِهِم، لَكِنَّهُ لَمَّا كان فيهم يَعمَلُ عَمَلَهم تَوَجَّهَ الخِطابُ إليهِ.

وهَكَذا كان الرَّسُولُ ﷺ يُعامِلُ مَن تَلَبَّس بالإسلامِ ظاهِرًا مُعامَلَةَ المُسلِمِينَ، ولهذا لم يَقتُلِ المُنافِقِينَ مع أنَّهم كُفَّارٌ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٣]، لَكِنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عامَلَهم مُعامَلَةَ الظَّاهِرِ.

٤- وفي هذه الآيَةِ الكَرِيمَةِ من الفَوائِدِ: الحَذَرُ من الرِّجسِ والسَّرِيرَةِ الخَبِيثَةِ؛ لأنَّ إبلِيسَ غَلَبَهُ ما في قَلبِهِ من الرِّجسِ والسَّرِيرَةِ الخَبِيثَةِ حَتَّى استكبَرَ وأبى، فرَجَعَ إلى أصلِهِ، فالواجِبُ على المرءِ: الحَذَرُ من مِثلِ هذه السَّرِيرَةِ التي تَكُونُ في القَلبِ، وأن يَصقُلَ قَلبَهُ دائِمًا منها؛ حَتَّى لا تُوقِعَهُ في الهَلاكِ، وقد صَحَّ عن النَّبِيِّ ﷺ: أنَّ الرَّجُلَ يَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجَنَّةِ فيما يَبدُو لِلنَّاسِ، وهو من أهلِ النَّارِ، ففي (الصَّحِيحَينِ) عن سَهْلِ بنِ سَعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ التَقى هو والمُشرِكُونَ فاقتَتَلُوا، فلَمَّا مالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى عَسكَرِهِ، ومالَ الآخَرُونَ إلى عَسكَرِهِم، وفي أصحابِ رَسُولِ اللهِ رَجُلٌ لا يَدَعُ لهم شاذَّةً ولا فاذَّةً[1] إلَّا اتَّبَعَهُ يَضرِبُهُ بسَيْفِهِ، فقالُوا: ما أَجْزَأَ

(١) أي: أنَّهُ لا يدع أحدًا؛ على طريق المبالغة، قال ابن الأعرابي: يقال: فلَان لا يدع شاذة ولا فاذة إذا كان شجاعًا، لا يلقاه أحد إلَّا قتله.

مِنَّا اليَوْمَ أحَدٌ كما أجزأ فُلانٌ! فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فقال رَجُلٌ من القَوْمِ: أنا صاحِبُهُ، قال: فخَرَجَ معه، كُلَّما وَقَفَ وَقَفَ معه، وإذا أَسْرَعَ أَسْرَعَ معه، قال: فجُرِحَ الرَّجُلُ جُرحًا شَدِيدًا، فاستعجَلَ المَوْتَ، فوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بالأرضِ، وذُبابَهُ[1] بين ثَدْيَيه، ثُمَّ تحامل على سَيْفِهِ، فقتَلَ نَفْسَهُ، فخرج الرَّجُلُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقال: أشهَدُ أنَّكَ رَسُولُ اللهِ! قال: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قال: الرَّجُلُ الذي ذَكَرْتَ آنِفًا أنَّهُ من أهلِ النَّارِ، فأَعْظَمَ النَّاسُ ذلك، فقُلتُ: أنا لكم به، فخَرَجْتُ في طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرحًا شَدِيدًا، فاستَعجَلَ المَوْتَ، فوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بالأرضِ، وذُبابَهُ بين ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تحامل عليه، فقتَلَ نَفسَهُ، فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ عند ذلك: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[2]، وهذا يَدُلُّ على أنَّ في قَلبِ الرَّجُلِ سَرِيرَةً أَوْدَت به إلى أن يَقتُلَ نَفسَهُ، فالواجِبُ على المرءِ: أن يَتَفَقَّدَ قَلبَهُ في كُلِّ وقتٍ، وفي كُلِّ حِينٍ؛ حَتَّى يُطَهِّرَهُ ويُمَحِّصَهُ؛ لِئَلَّا تَسُوءَ خاتِمَتُهُ.

٥- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ تَركَ السُّجُودِ للهِ عَزَّوَجَلَّ كُفرٌ، وقدِ استَدَلَّ بهذِهِ الآيَةِ مَن قال: إنَّ تارِكَ الصَّلاةِ يَكفُرُ، فقال: إنَّ إبلِيسَ كَفَرَ بتَركِ سَجدَةٍ واحِدَةٍ أُمِرَ بها لِغيرِ اللهِ، فما بالُكَ بمَن يَترُكُ صَلاةً أمَرَ اللهُ بِها، وأن تَكُونَ لِنفسِهِ عَزَّوَجَلَّ؟! فيَكُونُ كُفرُهُ من باب أَوْلَى، والاستِدلالُ بهذِهِ الآيَةِ على هذه المسألَةِ فيه شَيْءٌ من البَحثِ والنَّظَرِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ذباب السيف: طرفه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب لا يُقال: فلان شهيد، رقم (٢٨٩٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢).

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

في هذه الآيَةِ الكَرِيمَةِ يُخبِرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ قال لِآدَمَ مُمتَنًّا عليه: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾، وزَوْجُهُ: هي حَوَّاءُ التي خَلَقَها اللهُ تعالى من ضلعِ آدَمَ، فهي من أبٍ بلا أُمٍّ.

والمُرادُ بِالجَنَّةِ: إمَّا جَنَّةُ الخُلْدِ التي هي مَأْوَى المُتَّقِينَ، وإمَّا جَنَّةٌ في الدُّنيا، بُستانٌ ذُو أشجارٍ كَثِيرَةٍ، لِلعُلَماءِ في هذا قَوْلانِ:

القَوْلُ الأَوَّلُ: أَنَّها جَنَّةُ المأوَى التي هي مَأْوَى المُتَّقِينَ.

والقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّها جَنَّةٌ في الدُّنيا في الأرضِ، وهي عِبارَةٌ عن بُستانٍ ذِي أشجارٍ كَثِيرَةٍ.

والأقرَبُ -واللهُ أعلَمُ- أَنَّها جَنَّةُ المأوَى، جَنَّةُ الخُلدِ التي وُعِدَ المُتَّقُونَ؛ لِأَنَّها هي المعلُومَةُ عند الإطلاقِ، والأصلُ: أَنَّهُ إذا كان لِلَّفظِ مَعنًى مَفهُومٌ عند الإطلاقِ فإِنَّهُ يُحمَلُ عليهِ إِلَّا بدَلِيلٍ يَدُلُّ على خِلافِ ذلك، وهذه القاعِدَةُ مُفيدَةٌ في عِلْمِ التَّفسِيرِ وغيرِه: أَنَّ الأصلَ في النُّصُوصِ: حَملُها على ما هو مَعلُومٌ ومَفهُومٌ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ على خِلافِ ذلك.

وَأَذِنَ اللهُ تعالى لَهُما أن يَأكُلا من هذه الجَنَّةِ رَغَدًا بطُمَأنِينَةٍ وسَعَةٍ وكَثرَةٍ، حَيْثُ شاءا من أيِّ مَكانٍ، إِلَّا أَنَّهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ نَهاهُما عن قُربانِ شَجَرَةٍ عَيَّنَها لَهُما بالإشارَةِ، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، ولَم يُبَيِّنِ اللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ جِنسَ هذه الشَّجَرَةِ؛ لأَنَّهُ ليس هناكَ ضَرُورَةٌ إلى مَعرِفَةِ جِنسِها، المُهِمُّ: مَعرِفَةُ القَضِيَّةِ ومَغْزَاها.

وبَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّهما إذا قَربا هذه الشَّجَرَةَ، وأكَلا منها، فإنَّهما يَكُونانِ من الظَّالِمِينَ لِأنفُسِهما؛ لِتعَرُّضِهما لِما حَصَلَ؛ حَيْثُ أخرَجَهُما أكلُهُما منها من الجَنَّةِ.

من فَوائِد هذه الآية:

١- إثباتُ القَوْلِ لله، وأنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُخاطِبُ مَن شاءَ من عِبادِهِ بصَوْتٍ مَسمُوعٍ، وحُرُوفٍ مُرَتَّبَةٍ، ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ الآية.

٢- ومن فَوائِدِها: امتِنانُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على آدَمَ؛ حَيْثُ أسكَنَهُ وزَوْجَهُ الجَنَّةَ.

٣- ومن فَوائِدِها: بَيانُ قُدرَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ حَيْثُ خَلَقَ حَوَّاءَ من ضلع آدَمَ، من أبٍ بلا أُمٍّ، قال أهلُ العِلْمِ: والإنسانُ باعتِبارِ مَبْدَإِ خَلْقِهِ أربَعَةُ أقسامٍ:

▪ قِسمٌ خُلِقَ بلا أُمٍّ ولا أبٍ، وهو آدَمُ؛ فإنَّ اللهَ تعالى خَلَقَهُ من تُرابٍ، ثُمَّ قال لَهُ: «كُن»، فكانَ.

▪ وقِسمٌ خُلِقَ من أبٍ بلا أُمٍّ، وهي حَوَّاءُ، خُلِقَت من ضلعِ آدَمَ.

▪ وقِسمٌ خُلِقَ من أُمٍّ بلا أبٍ، وهو عِيسَى ابنُ مَريَمَ.

▪ والقِسمُ الرَّابعُ: مَن خُلِقَ بين أبَوَيْنِ، أي: من أُمٍّ وأبٍ، وهم سائِرُ البَشَرِ.

ومع هذا فإنَّ اللهَ تعالى يَخلُقُ ما يَشاءُ، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى:٤٩-٥٠]، ففي هذه الآيَة أنَّ النَّاسَ أربَعَةُ أصنافٍ من حَيْثُ الإنجابُ وعَدَمُهُ، فَمِنهم مَن يَهَبُهُ اللهُ ذُكُورًا بلا إناثٍ، ومِنهم مَن يَهَبُهُ اللهُ إناثًا بلا ذُكُورٍ، ومِنهم مَن يُزَوِّجُهُ اللهُ، أي: يَجعَلُ نَسلَهُ صِنفَيْنِ، والزَّوْجُ في هذه الآيَةِ بمعنى: الصِّنفِ، ولَها نَظائِرُ في أنَّ

الزَّوْجَ يُرادُ به الصِّنفُ؛ كما في قَوْلِهِ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨]، وقَوْلِهِ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]؛ أي: أَصْنَافَهم ونُظَراءَهُم.

والصِّنفُ الرَّابِعُ: مَن يَجعَلُهُ عَقِيمًا لا يُولَدُ لَهُ، وكُلُّ هذا بقُدرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحِكمَتِهِ.

٤- ومن فَوائِد الآيَةِ الكَرِيمَةِ: أنَّ الإنسانَ رُبَّما يَختارُ ما هو أدنَى على ما هو خَيْرٌ؛ لِما تُسَوِّلُ به نَفسُهُ لَهُ، فهنا آدَمُ وحَوَّاءُ أَذِنَ اللهُ لَهُما أن يَأكُلا رَغَدًا من حَيْثُ شاءا، ومَنَعَهُما من شَجَرَةٍ واحِدَةٍ، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، ومع ذلك حَصَلَت مِنهُما مُخالَفَةٌ، كما سَيَأتِي إن شاءَ اللهُ تعالى.

٥- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ التَّعيينَ يَكُونُ بالإشارَةِ كما يَكُونُ بالنُّطقِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، ولهذا لو قال الرَّجُلُ: «زَوْجَتِي هذه طالِقٌ» طَلَقَت وإن لم يُسَمِّها، ولو قال الرَّجُلُ: «زَوَّجْتُكَ ابنَتِي هذه» انعقدَ النِّكاحُ وإن لم يُسَمِّها، ما دامَت تَعَيَّنَت بالإشارَةِ، فالُمهِمُّ: أنَّ في الآيَةِ دَلِيلًا على أنَّ التَّعيِينَ كما يَكُونُ بالنُّطقِ، يَكُونُ -أيضًا- بالإشارَةِ.

٦- ومن فَوائِد الآيَةِ الكَرِيمَةِ: أنَّهُ إذا أُرِيدُ حِمَى المحارِمِ نُهِيَ عن قُربانِها، وذلك حَيْثُ تَدعُو النَّفسُ إلى فِعلِ هذا الُمحَرَّمِ والقُربِ منه، فإنَّ النَّهيَ يَأتِي عن قُربانِهِ؛ كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٣٤]، فإنَّ الزِّنَى قد تَدعُو النَّفسُ إلى قُربانِهِ وانتِهاكِهِ، وكَذلك مالُ اليَتِيمِ لَمَّا لم يَكُن لَهُ مَن يَحمِيهِ فإنَّ النَّفسَ قد تَتَجَرَّأُ عليهِ، فنُهِيَ عن قُربانِهِ.

٧- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ الإقدامَ على المُحَرَّم ظُلمٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ووَجْهُ كَوْنِهِ ظُلمًا: أنَّ نَفْسَ الإنسانِ عنده ودِيعَةٌ وأمانَةٌ، فيَجِبُ عليهِ أن يَرعاها حَقَّ رِعايَتِها، وألَّا يُقْدِمَ على شَيْءٍ يَكُونُ فيه مَضَرَّتُها، فإن فَعَلَ فقد ظَلَمَها؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١]، والآياتُ في هذا المعنى كَثِيرَةٌ.

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: أوقَعَهما في الزَّلَلِ، أو أزاحَهما وأزلَقَهما.

و﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عَلَمٌ أو وصفٌ لهذا المخلُوقِ الذي قال اللهُ عَنهُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، وهو من: (شاط) بمعنى: غَضِبَ، أو من: (شَطَنَ) بمعنى: بَعُدَ، والإشتِقاقُ الأخِيرُ أصَحُّ، فالنُّون فيه أصلِيَّة، ولا شَكَّ أنَّ الشَّيْطانَ أبعَدُ مَن يَكُونُ عن رَحمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي: عن هذه الشَّجَرَةِ، وعلى هذا فتكُونُ (عن) لِلسَّبَبِيَّةِ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف:٨٢]؛ أي: ما فَعَلتُهُ فِعلًا صادِرًا عن أمرِي، وهنا تكُونُ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي: إزلالًا صادِرًا عن هذه الشَّجَرَةِ.

وذَهَبَ بَعضُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ الضَّميرَ في قَوْلِهِ: ﴿عَنۡهَا﴾ يَعُودُ إلى الجَنَّةِ، أي: أزالَهُما الشَّيْطانُ عن هذه الجَنَّةِ؛ بسَبَبِ المعصِيَةِ التي فعَلَها آدمُ؛ كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: كان سَبَبًا في إخراجِهِما مِمَّا كانا فيه من النَّعيمِ في هذه الجَنَّةِ، وذلك بأن وَسْوَسَ لَهُما، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١]، و﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾ [طه:١٢٠-١٢١]، مع أنَّ اللهَ تعالى قد نَهاهُما عن ذلك.

وحِينَئِذٍ أمَرَهُما اللهُ تعالى أن يَهبِطا منها، فقال: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾، والضَّميرُ في قَوْلِهِ: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ يَعُودُ على آدَمَ وحَوَّاءَ، ووُجِّهَ الخِطابُ إليهما بِصيغَةِ الجمعِ: إمَّا لأنَّ أقَلَّ الجمعِ اثنانِ كما قِيلَ به، أو لأنَّ الخِطابَ يَشمَلُهُما ويَشمَلُ ذُرِّيَّتَهُما؛ فإنَّ ذُرِّيَّةَ آدمَ في صُلبِهِ، فإذا هبَطَ هبَطَتِ الذُّرِّيَّةُ، وقِيلَ: إنَّ الضَّميرَ يَعُودُ على آدَمَ وحَوَّاءَ وإبليسَ، وإنَّ اللهَ أمرَهم أن يَهبِطُوا إلى الأرضِ بعد أن كانُوا في السَّماءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ يعني: أنَّ الشَّيْطانَ عَدُوٌّ لِآدَمَ وزَوْجِهِ وبَنِيهِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

وقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ المُستَقَرُّ: مَوْضِعُ القَرارِ، والمتاعُ: ما يَتَمَتَّعُ به الإنسانُ من طَعامٍ، وشَرابٍ، ولِباسٍ، وغيره.

ولكنَّ هذا المُستَقِرَّ والمتاعَ مُؤَجَّلانِ إلى أجلٍ وحِينٍ، وهو مَوْتُ الإنسانِ،

فإنَّ الإنسانَ إذا ماتَ انقطَعَ مَتاعُهُ من الدُّنيا، وانتَقَلَ منها إلى دارِ الجَزاءِ، وهذا الحِينُ غير مَعلُومٍ، لا بالنِّسبَةِ لِكُلِّ فَردٍ من النَّاسِ، ولا بالنِّسبَةِ لِلجَمِيعِ؛ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤]، ومَن جَهِلَ مَكانَ مَوْتِهِ فهو بجَهلِ زَمانِ مَوْتِهِ أَوْلَى، وقال عَزَّوَجَلَّ عن السَّاعَةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:١٨٧].

فَوائِد وأحكام هذه الآية:

١- بَيانُ عَداوَةِ الشَّيْطانِ لِلإنسانِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾، فإنَّ مِن عَداوَتِهِ: أَنَّهُ كان سَبَبًا في إغواءِ آدَمَ وزَوْجِهِ حَتَّى خَرَجا من هذه الجَنَّةِ التي أسكَنَهُما اللهُ عَزَّوَجَلَّ إيَّاها.

٢- إثباتُ الأسبابِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، وسَبَبُ هذا الإخراجِ: أَنَّهُ لَمَّا أَكَلَ آدَمُ وزَوْجُهُ من الشَّجَرَةِ ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٢]، وأمَرَهُما اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالخُرُوجِ منها.

٣- ومن فَوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ: إضافَةُ الشَّيْءِ إلى سَبَبِهِ، وأنَّ لِلأسبابِ تَأثِيرًا في مُسَبَّباتِها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ لأنَّ الذي أخرَجَهُما هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أمَرَهُما أن يَهبِطا من الجَنَّةِ، ولكنَّ السَّبَبَ في هذا الإخراجِ هو الشَّيْطانُ، فنُسِبَ الإخراجُ إليهِ؛ لأَنَّهُ سَبَبُهُ، ولا رَيْبَ أنَّ الأسبابَ مُؤَثِّرَةٌ في مُسَبَّباتِها، ولكنَّ تَأثِيرَها في مُسَبَّباتِها من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهو الذي أَوْدَعَ فيها هذه القُوَّةَ المُؤَثِّرَةَ.

وقدِ انقَسَمَ النَّاسُ في الأسبابِ إلى طَرَفَيْنِ ووَسَطٍ، فطَرَفٌ من النَّاسِ غَلا في إثباتِ الأسبابِ حَتَّى جعَلَها مُؤَثِّرَةً بنَفسِها، وأنكَرَ ما يَخرُجُ عن سُنَّةِ الأسبابِ.

ومِنَ النَّاسِ مَن فَرَّطَ فيها، ولَم يَجعَل لها أثَرًا في مُسَبَّباتِها، وقال: إنَّ المُسَبَّبَ يَحدُثُ عند السَّبَبِ، لا بالسَّبَبِ.

وكِلا القَوْلَيْن خطَأ؛ فإنَّ مِن المعلُومِ بالحِسِّ والعَقلِ أنَّ الحَجَرَ إذا رُمِيَ على زُجاجَةٍ انكَسَرَت به، وأنَّ الوَرَقَ إذا أُلقِيَ في النَّارِ احتَرَقَ بها، ولا أحَدَ يُنكِرُ ذلك، ومَن قال: إنَّهُ احتَرَقَ عند إلقائِهِ في النَّارِ لا بالنَّارِ، أو إنَّ الزُّجاجَةَ انكَسَرَت عند مُلامَسَةِ الحَجَرِ لا بالحَجَرِ، فقد أبْعَدَ النُّجْعَةَ.

ولكن نقول: إنَّ الزُّجاجَةَ انكَسَرَت بالحَجَرِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ هذه الصَّدمَةَ سَبَبًا لِلكَسرِ، والوَرَقَةُ احتَرَقَت بالنَّارِ؛ لأنَّ اللهَ جَعَلَ النَّارِ مُحرِقَةً، ولهذا إذا أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَتَخَلَّفَ المُسَبَّبُ عن السَّبَبِ تَخَلَّفَ، فهاهو إبراهِيمُ الخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُلقِيَ في النَّارِ العَظِيمَةِ التي أضرَمَها قَوْمُهُ المُكَذِّبُونَ لَهُ؛ لِيُحرِقُوهُ بها، فقال اللهُ تعالى لِلنَّارِ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فكانَت بَردًا وسَلامًا عليهِ، ولَم يَحتَرِق بها، وهذا دَلِيلٌ على أنَّ اللهَ تعالى هو الذي يُودِعُ في الأسبابِ ما يَجعَلُها مُؤَثِّرَةً.

وأمَّا مَن قال: إنَّ الأسبابَ مُؤَثِّرَةٌ بذاتِها، وإنَّهُ لا يُمكِنُ أن يَتَخَلَّفَ المُسَبَّبُ عن السَّبَبِ، فقَوْلُهُ خَطَأٌ؛ فإنَّ هذا يَسْتَلزِمُ إنكارَ خَوارِقِ العاداتِ التي يُجرِيها اللهُ تعالى على غيرِ الأسبابِ العادِيَّةِ، ولا أحَدَ عنده عِلمٌ بالسَّمعِ أو عَقلٌ راجِحٌ إلَّا أنكَرَ هذا القَوْلَ.

٤- ومن فَوائِد الآيَةِ الكَرِيمَةِ: أنَّ آدَمَ وحَوَّاءَ عُوقِبا بالإخراجِ من الجَنَّةِ؛ بسَبَبِ مَعصِيَةٍ واحِدَةٍ، فما بالُكَ بمَن كان عنده من المعاصِي ما لا يَعلَمُهُ إلَّا اللهُ؟! أفَلا يَكُونُ مُعَرِّضًا نَفسَهُ لِلعُقُوبَةِ العَظِيمَةِ؟! وإن كان المعلُومُ في الشَّرِيعَةِ الإسلامِيَّةِ

أنَّ المعاصِيَ -ما عَدا المعاصِيَ المُخرِجَةَ من الإسلامِ- تحت مَشِيئَةِ اللهِ، إن شاءَ اللهُ عَذَّبَ عليها، وإن شاءَ عَفا عَنها وغَفَرَ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

٥- ومن فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: إثباتُ العَداوَةِ بين الشَّيْطانِ وآدَمَ وبَنِيهِ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

ويَتَفَرَّعُ من هذه الفائِدَةِ: أَنَّهُ يَجِبُ على الإنسانِ أن يَحتَرِزَ غايَةَ الِاحتِرازِ من كَيْدِ الشَّيْطانِ، وألَّا يَخْنَع لَهُ، وألَّا يَأتَمِرَ بأمرِهِ؛ لأنَّهُ عَدُوٌّ، وكُلُّ عَدُوٍّ لِلإنسانِ فإنَّهُ لن يَحمِلَهُ إلَّا على أَسْوَإِ الحالاتِ، ولهذا حَذَّرَنا اللهُ تعالى من الشَّيْطانِ بقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، وقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور:٢١].

٦- ومن فوائِد الآيَةِ الكَرِيمَةِ: أنَّ الأرضَ هي مُستَقَرُّ آدَمَ وبَنِيهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٧- ومن فَوائِدِها: أنَّ هذا المُستَقَرَّ والمتاعَ لن يَدُومَ، ولن يُؤَبَّد؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، وما كان غير دائِمٍ ولا مُؤَبَّدٍ فما أَسرَع انتِهاءَهُ! لأنَّ هذا المُؤَجَّلَ يَنقَضِي بالسَّاعاتِ، بل بالدَّقائِقِ، بل باللَّحَظاتِ، ولا يُمكِنُ لِلَحظَةٍ مَرَّت أن تَعُودَ إِلَيْكَ مَرَّةً أُخرَى، ولهذا قِيلَ: كُلُّ يَوْمٍ يَمضِي على ابنِ آدَمَ فإنَّهُ يُبعِدُهُ من الدُّنيا، ويُدنِيهِ من الآخِرَةِ، فيَجِبُ علينا أن نَستَعِدَّ، وأن نَنتَهِزَ الفُرصَةَ بأعمارِنا بما يُقَرِّبُنا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾

التَّلَقِّي: بمعنى الأخذِ عن الغير، أي: فأَخَذَ آدَمُ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَلِماتٍ أعلَمَهُ اللهُ تعالى بها، ومنها: قَوْلُهُ تعالى عن آدَمَ وزَوْجِهِ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

ثُمَّ قال: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ أي: تابَ اللهُ على آدَمَ، وكَذلك على زَوْجِهِ؛ لأنَّ قَضِيَّتَهما واحِدَةٌ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وهذه الجُملَةُ تَعليلٌ لِما سَبَقَ، أي: تابَ عليهِ؛ لأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ تَوَّابٌ رَحِيمٌ، يَتُوبُ على مَن تابَ ويَرحَمُهُ، حَتَّى يَكُونَ أحيانًا بعد التَّوْبَةِ خَيْرًا منه قبل فِعلِ الذَّنبِ، ولهذا لم يَحصُلِ الِاجتِباءُ لِآدَمَ -فيما نَعلَمُ- قبل أن يَتُوبَ إلى اللهِ تعالى مِمَّا جَرَى منه من المعصِيَةِ.

فَوائِد وأحكامُ هذه الآية:

١- مِنَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على آدَمَ بما أَلْهَمَهُ من هذه الكَلِماتِ التي كانَت بها تَوْبَةُ اللهِ عليهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾.

٢- أنَّ رُبُوبِيَّةَ اللهِ تَنقَسِمُ إلى قِسمَيْنِ: رُبُوبِيَّةٌ عامَّةٌ، تَقتَضِي تَمامَ المُلكِ والتَّدبيرِ والتَّصَرُّفِ في الخَلقِ، وهي شامِلَةٌ لجَمِيعِ المخلُوقاتِ، ورُبُوبِيَّةٌ خاصَّةٌ تَقتَضِي العِنايَةَ والتَّربِيَةَ الخاصَّةَ، وهي التي تَكُونُ لِعِبادِ اللهِ المُخْلَصِينَ، ومنها: قَوْلُهُ تعالى هنا: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾.

٣- ومن فَوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ: أنَّ اللهَ تعالى تابَ على آدَمَ، بل قد قال اللهُ تعالى

في آيَةٍ أُخرَى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، وتَوْبَةُ اللهِ على العَبدِ تَتَضَمَّنُ العَفوَ عن الذَّنبِ، وسَتْرَهُ عن العِبادِ، وعَدَمَ المُؤاخَذَةِ عليهِ.

وما دُمنا في الكَلامِ عن التَّوْبَةِ فإنَّنا نقول: إذا تابَ العَبدُ إلى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا تابَ اللهُ عليهِ، والتَّوْبَةُ النَّصُوحُ هي التي جَمَعَت شُرُوطًا خَمسَةً:

الأوَّلُ: الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، بألَّا يَحمِلَهُ على التَّوْبَةِ إلَّا الخَوْفُ من اللهِ، ورَجاءُ ما عنده من الثَّوابِ.

الثَّانِي: النَّدَمُ على ما وَقَعَ منه من الذُّنُوبِ، بحَيْثُ يَحزَنُ، ويَتَأثَّرُ، ويَتَمَنَّى أن لم يَكُن فَعَلَ هذا الذَّنبَ.

الثَّالِثُ: الإقلاعُ عن الذَّنبِ، بأن يَتَخَلَّصَ منه، فإن كان واجِبًا قامَ به، وإن كان مُحرَّمًا فارَقَهُ، وإن كان لِلعِبادِ أدَّاهُ إليهِم.

الرَّابِعُ: العَزمُ على ألَّا يَعُودَ في المُستقبَلِ.

الخامِسُ: أن تَكُونَ التَّوْبَةُ في الوَقتِ الذي تُقبَلُ فيه، وذلك بأن تَكُونَ قبل الموْتِ، وقبل طُلُوعِ الشَّمسِ من مَغرِبِها؛ لأنَّ الشَّمسَ إذا طَلَعَت من مَغرِبِها لا تُقبَلُ التَّوْبَةُ، وإذا حَضَرَ المَوْتُ لم تُقبَلِ التَّوْبَةُ؛ لِقَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، ولقَوْلِهِ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، وبَعضُ الآياتِ: هي طُلُوعُ الشَّمسِ من مَغرِبِها؛ كما فَسَّرَها

بذلك النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]، نسألُ اللهَ أن يَمُنَّ علينا بالتَّوْبَـةِ، وقَـبُولِها؛ إنَّـهُ جَوادٌ كَرِيمٌ.

٤- ومن فَوائِدِ الآيَةِ: إثباتُ هَذَيْنِ الِاسمَيْنِ من أسماءِ اللهِ، وهُما: (التَّوَّابُ) و(الرَّحِيمُ)، فالتَّوَّابُ: هو الذي يُوَفِّقُ لِلتَّوْبَةِ، ويَقبَلُ التَّوْبَةَ من التَّائِبِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨]، فهو التَّوَّابُ الذي يُوَفِّقُ لِلتَّوْبَةِ، وهو التَّوَّابُ الذي يَقبَلُ التَّوْبَةَ عن عِبادِهِ، ويَعفُو عن السَّيِّئاتِ.

وجاءَت بِصِيغَةِ المُبالَغَةِ: (التَّوَّاب)؛ لأنَّ هذه صِفَةٌ لازِمَةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فَمن صِفاتِهِ الكامِلَةِ: التَّوْبَةُ، ولأنَّ المُذنِبِينَ الذين يَتُوبُونَ إلى اللهِ كَثِيرُونَ.

وأمَّا الرَّحِيمُ فهو ذُو الرَّحمَةِ الواصِلَةِ إلى مَن شاء من عِبادِهِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

قال أهلُ العِلْمِ: ورَحمَةُ اللهِ تعالى نَوْعانِ: عامَّةٌ وخاصَّةٌ، فالعامَّةُ: هي الشَّامِلَةُ لِجَميعِ الخَلْقِ، فإنَّ كُلَّ الخَلْقِ داخِلُونَ في رَحمَةِ اللهِ العامَّةِ التي بها قَوامُ البَدَنِ، وقَوامُ الحَياةِ، ولهذا نقول: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد رَحِمَ الكُفَّارَ بما أعطاهم من نِعَمِ الدُّنيا، من عَقلٍ، وصِحَّةٍ، وطَعامٍ، وشَرابٍ، ولِباسٍ، ومَنكَحٍ، ومَسكَنٍ، وغير ذلك، كما أنَّهُ راحِمٌ لِلمُؤمِنِينَ بهذا.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القُرْآن، باب سورة الأنعام، رقم (٣٠٧١)، وأحمد (٣/ ٣١) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأمَّا الرَّحمَةُ الخاصَّةُ فهي التي تكُونُ بها سَعادَةُ الدُّنيا والآخِرَةِ، وهذه خاصَّةٌ بالمُؤمِنِينَ؛ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَنَّ على المُؤمِنِينَ بما رَحِمَهم به من العِلْمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالِحِ، والإيمانِ، والتَّقوَى، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ إلى آخرِ الآيَةِ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

واعلَم أنَّ أسماءَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَتَضَمَّنُ الدَّلالَةَ على ذاتِه، وعلى الصِّفَةِ، وعلى الأثَرِ والحُكمِ إذا كانَت مُتَعَدِّيَةً، فالعَظِيمُ -مَثَلًا- اسمٌ من أسماءِ اللهِ، دالٌّ على ذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وعلى عَظَمَةِ اللهِ، والرَّحِيمُ: اسمٌ من أسماءِ اللهِ، دالٌّ على ذاتِ اللهِ، وعلى رَحمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وعلى الأثَرِ المُتَرَتِّبِ على هذه الصِّفَةِ، وهو أنَّهُ يَرحَمُ مَن يَشاءُ؛ كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

• ● ❁ ● •

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ هذا كالتَّوطِئَةِ والتَّمهيدِ لِما بعدَهُ، يعني: اهبِطُوا من الجَنَّةِ جَمِيعًا، وسَوْفَ يَأتِيكُمُ الهُدَى مِنِّي، ويَنقَسِمُ النَّاسُ في هذا الهُدَى إلى قِسمَيْنِ: قِسمٌ يَتَّبِعُ هُدَى اللهِ، فهؤلاء لا خَوْفٌ عليهم ولا هم يَحزَنُونَ، وقِسمٌ آخَرُ يَكفُرُونَ ويُكَذِّبُونَ بآياتِ اللهِ، وهؤلاء هم أصحابُ النَّارِ هم فيها خالِدُون.

يقـول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾، ونقـول في الخِطابِ هنا في قـوْلِهِ: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ ما قُلناهُ في الخِطابِ السَّابِقِ[1].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ هذه الجُملَةُ شَرطِيَّةٌ، فيها: (إن) الشَّرطِيَّةُ المُدغَمَةُ بـ(ما)، وفِعْلُ الشَّرطِ فيها: ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾، وجَوابُ الشَّرطِ: مُرَكَّبٌ من قَوْلِهِ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

والمعنَى: إن أتاكم مِنِّي هُدًى فإنَّ مَن اتَّبَعَ هذا الهُدَى فليس عليهِ خَوْفٌ مِمَّا يُستَقبَلُ، ولا حُزنٌ على ما مَضَى، أمَّا كَـوْنُهُ لا خَوْفَ عليهِ في المُستَقبَلِ فلأنَّهُ عَمِلَ ما يَحصُلُ به الأمنُ من اتِّباعِ هُدَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا كَوْنُهُ لا يَحزَنُ فلأنَّهُ استَغَلَّ وقتَهُ في طاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا يَحزَنُ على ما مَضَى منه؛ لأنَّهُ لم يُفَرِّط، بَلِ اكتَسَبَ فيه خَيْرًا، والذي يَحزَنُ هو الذي يَفُوتُهُ مَطلُوبُهُ، أو يَحصُلُ لَهُ مَرهُوبُهُ.

وأمَّا الكافِرُ المُكَذِّبُ بآياتِ اللهِ فهذا جَزاؤُهُ أن يُخَلَّدَ في نارِ جهَنَّمَ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٣٩]، وأصحابُ النَّارِ: هم أهلُها المُلازِمُونَ لها، والخُلُـودُ: هو المُكثُ الدَّائِمُ، هذا هو الأصلُ في الخُلُـودِ، إلَّا أن يَقُومَ دَلِيلٌ على أنَّ الخُلُودَ مُؤَقَّتٌ، فيُتبَعَ الدَّلِيلُ.

من فَوائِد هذه الآيَةِ:

١ - أنَّ من حُسنِ التَّعلِيمِ، والتَّوْجِيهِ، والإرشادِ: التَّوْطِئَةَ لِلكَلامِ، والتَّمهِيدَ لَهُ، حَتَّى وإن حَصَلَ في ذلك تكرارٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾، مع قَوْلِهِ فيما سَبَقَ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

---

(١) انظر: (ص: ١٦٠).

٢- أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمَتِهِ وحِكمَتِهِ لم يَكِلِ الأمرَ في عِبادَتِهِ إلى عُقُولِ البَشَرِ، بل جاءَهم بما فيه هُدًى، وذلك عن طَرِيقِ الرُّسُلِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥].

٣- أنَّ ما جاءَت به الرُّسُلُ هُدًى، يَهتَدِي به النَّاسُ في ظُلُماتِ الجهلِ والكُفرِ.

٤- أنَّ الهُدَى من اللهِ، ويَتَفَرَّعُ عن هَذا: أَلَّا تَطلُبَ الهُدَى إلَّا من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فتكُونَ دائِمًا مُلِحًّا على رَبِّكَ بطَلَبِ الهِدايَةِ؛ حَتَّى تَستَقِيمَ على أمرِ اللهِ على بَصِيرَةٍ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

٥- أنَّ اللهَ أضافَ هذا الهُدَى إلى نَفسِهِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ هذا الهُدَى حَقٌّ ليس فيه باطِلٌ، ولا تَناقُضٌ، ولا اختِلافٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

٦- أنَّ مَن اتَّبَعَ هُدَى اللهِ فقد نَجا وسَلِمَ، وأَمِنَ من الخَوْفِ في المُستقبَلِ، ومن الحُزنِ على ما مَضَى.

٧- أنَّ المُؤمِنَ المُتَّبِعَ لِهُدَى اللهِ هو الذي غَنِمَ وسَلِمَ، فلا يَحزَنُ على ما مَضَى من زَمانِهِ؛ لأنَّهُ استَغَلَّهُ فيما يَنفَعُ، ولا يَحزَنُ على ما يُستَقبَلُ؛ لأنَّهُ قد وُعِدَ بالثَّوابِ الجَزِيلِ، والنَّجاةِ من العِقابِ؛ باتِّباعِهِ هُدَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

• • ❊ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

هذهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ قَسِيمَةٌ لِلآيَةِ التي قبلها، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ذَكَرَ في الآيَةِ التي قَبلَها ثَوابَ الذين اتَّبَعُوا هُدَى اللهِ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وذَكَرَ هنا ما يُقابِلُهم من الكُفَّارِ الذين جَمَعُوا بين الكُفرِ والتَّكذِيبِ، بين الكُفرِ -وهو الاستِكبارُ عن آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وتَركُ العَمَلِ بها- والتَّكذِيبِ بالخَبَرِ، فهم كافِرُونَ بالأمرِ، مُكَذِّبُونَ بالخَبَرِ، أيْ: مُكَذِّبُونَ ما أخبَرَ اللهُ به في كُتُبِهِ المُنَزَّلَةِ، وما أخبَرَت به رُسُلُهُ.

وهؤلاء القَوْمُ الذين كَفَرُوا وكَذَّبُوا بآياتِ اللهِ هم أصحابُ النَّارِ، أيْ: أهلُها المُلازِمُونَ لها، المُخَلَّدُونَ فيها.

فَوائِد وأحكامُ هذه الآيَة:

١ - كَمالُ هذا القُرآنِ؛ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إذا ذَكَرَ فيه أهلَ الجَنَّةِ وثَوابَهم ذَكَرَ بعد ذلك أهلَ النَّارِ وعِقابَهم في الغالِبِ، وهذا من معنى قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر:٢٣]، أي: تُثَنَّى فيه الأحكامُ والمعانِي.

وَلا رَيْبَ أنَّ هذا من كَمالِ البَلاغَةِ؛ فإنَّ الإنسانَ لو أتاهُ الخِطابُ بالرَّجاءِ دُونَ التَّخويفِ لَأدَّى ذلك إلى الأمنِ من مَكرِ اللهِ، ولو جاءَهُ الخِطابُ بالتَّحذِيرِ والتَّخويفِ لَأدَّى ذلك إلى القُنُوطِ من رَحمَةِ اللهِ، فجاءَ القُرآنُ الكَرِيمُ النَّازِلُ من عند اللهِ بِالتَّقسِيمِ والمُقابَلَةِ، إذا ذَكَرَ شيئًا ذَكَرَ ما يُقابِلُهُ؛ حَتَّى يَبقَى الإنسانُ دائِرًا بين الرَّجاءِ والخَوْفِ؛ ولهذا قال الإمامُ أحمَدُ رَحِمَهُٱللَّهُ: يَنبَغِي أن يَكُونَ خَوْفُهُ ورَجاؤُهُ واحِدًا، فإن غَلَبَ

أَحَدُهُما هَلَكَ صاحِبُهُ[١].

٢- ومن فَوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ: أنَّ التَّكذِيبَ بِآياتِ اللهِ كُفرٌ، مُوجِبٌ لِلخُلُودِ في النَّارِ، ولكنَّ التَّكذِيبَ أحيانًا يُذْكَرُ وَحْدَهُ، وأحيانًا يُذْكَرُ مَقرُونًا بِالكُفرِ، فإذا ذُكِرَ مَقرُونًا بِالكُفرِ حُمِلَ على تَكذِيبِ الخَبَرِ، وحُمِلَ الكُفْرُ على تَركِ الأمرِ.

وآياتُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَنقَسِمُ إلى قِسمَيْنِ: آياتٍ كَوْنِيَّةٍ، وآياتٍ شَرعِيَّةٍ، فالآياتُ الكَوْنِيَّةُ: هي مَخلُوقاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّ هذه المخلُوقاتِ آياتٌ دالَّةٌ على عَظَمَةِ خالِقِها جَلَّ وَعَلَا، وعلى رَحمَتِهِ، وعلى حِكمَتِهِ، وعلى كُلِّ ما تَقتَضِيهِ من صِفَةٍ، وسُمِّيَت آيَةً؛ لِعَجزِ المخلُوقِ عن مِثلِها، فهي آيَةٌ دالَّةٌ على الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

والتَّكذِيبُ بِالآياتِ الكَوْنِيَّةِ يَكُونُ:

- بِإضافَةِ هذه الآياتِ إلى غيرِ اللهِ، كالذين يُضِيفُونَها إلى الطَّبِيعَةِ.
- أو بِإثباتِ مُشارِكٍ للهِ فيها، كالذين يَقُولُونَ: هذا الشَّيء أوجَدَهُ الوَلِيُّ الفُلانِيُّ مع اللهِ.
- أو بِاعتِقادِ أنَّ للهِ تعالى فيها مُعِينًا.

فَكُلُّ هذا من التَّكذِيبِ بِآياتِ اللهِ، والإلحادِ فيها.

وأمَّا الآياتُ الشَّرعِيَّةُ فهي ما جاءَت به الرُّسُلُ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ من الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ من عند اللهِ؛ لأنَّ هذه الكُتُبَ فيها من التَّنظِيمِ لِلخَلقِ في عِباداتِهم ومُعامَلاتِهم ما يَعجَزُ البَشَرُ عن مِثلِهِ.

---

(١) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (٦/ ١٠)

والقُرآنُ الكَرِيمُ قد تحدَّى اللهُ الخَلْقَ جَمِيعًا أن يَأتُوا بِمِثْلِهِ، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، بل قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١٣]، بل تحدَّاهم أن يَأتُوا بِسُورَةٍ من مِثْلِهِ، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨].

٣- ومن فَوائِدَ الآيَةِ الكَرِيمَةِ: أنَّ الكُفَّارَ المُكَذِّبِينَ بآياتِ اللهِ مُلازِمُونَ لِلنَّارِ؛ لأنَّهم أصحابُها، لا يَخرُجُونَ منها أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

٤- ومن فَوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ: إثباتُ الخُلُودِ في النَّارِ، وهو خُلودٌ مُؤَبَّدٌ، ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَأبيدَهُ في ثَلاثِ آياتٍ من كِتابِهِ، في سُورَةِ النِّساءِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وفي سُورَةِ الأحزابِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سُورَةِ الجِنِّ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

ولهذا كان من عَقِيدَةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ تَأبيدُ الجَنَّةِ وتَأبيدُ النَّارِ أيضًا، وأنَّهُ لا فَرقَ بينهما، وإن كان قد وُجِدَ خِلافٌ يَسِيرٌ، لَكِنَّهُ مَرجُوحٌ، والخِلافُ الذي وقَعَ هو أنَّ بَعضَ السَّلَفِ رُوِيَ عنهم أنَّ النَّارَ غير مُؤَبَّدَةٍ، لَكِنَّهُ قَوْلٌ مُخالِفٌ لِصَرِيحِ القُرآنِ؛ فلا يُعَوَّلُ عليه.

ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

الخطاب هنا مُوَجَّهٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وإِسْرَائِيلُ: هو يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويَعْقُوبُ هو أَبُو يُوسُفَ، وهو أَبُو بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فإِنَّهم كُلَّهم يَجْتَمِعُونَ فيه، ومعنى إِسْرَائِيلَ: العَابِدُ للهِ.

﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: تَذَكَّرُوها بقُلُوبِكم، واذْكُرُوها بأَلْسِنَتِكم؛ لِتَقُومُوا بشُكْرِها، فتَتَّبِعُوا مُحَمَّدًا ﷺ، وتُؤْمِنُوا به.

﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: في السَّابِقِ واللَّاحِقِ؛ لأنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أُمَّةٌ واحِدَةٌ سَابِقُهم ولاحِقُهم، ولهذا يَذْكُرُ اللهُ تعالى ما أنعمَ به على بَنِي إِسْرَائِيلَ في عَهْدِ مُوسَى مُمْتَنًّا به على بَنِي إِسْرَائِيلَ المَوْجُودِينَ في عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لأنَّهم أُمَّةٌ واحِدَةٌ.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يعني: أوفُوا بعَهْدِي الذي عَاهَدْتُكم به وعليه، أُوفِ بعَهْدِكم الذي عَاهَدْتُكم به وعليه، وهذا العَهْدُ مُبَيَّنٌ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:١٢]، فالعَهْدُ الذي أَخَذَهُ اللهُ عليهم هو قَوْلُهُ: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾،

والعَهْدُ الذي لهم على اللهِ أوجبَهُ عَزَّوَجَلَّ على نَفْسِهِ: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

والقرآن يُفَسِّرُ بعضُهُ بعضًا، ويُبَيِّنُ بعضُهُ بعضًا، ولهذا قِيلَ: إنَّهُ يُرْجَعُ في تَفْسِيرِ القرآن إلى القرآن، ثُمَّ إلى السُّنَّةِ، ثُمَّ إلى تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ إلى تَفْسِيرِ كِبَارِ التَّابِعِينَ.

ولَمَّا أمَرَهم اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُوفُوا بعَهْدِهِ، ووَعَدَهم أن يُوفيَ لهم بعَهْدِهم، أمَرَهم أن يَرْهَبُوهُ؛ حيث قال: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾، وَالرَّهْبَةُ: هي أَشَدُّ الخَوْفِ.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- في هذه الآية من الفوائد: تَذْكِيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بنِعْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم في السَّابِقِ واللَّاحِقِ.

٢- ومن فوائدها: أَنَّهُ يَجِبُ على المَرْءِ أن يَذْكُرَ نِعْمَةَ اللهِ عليه وعلى مَنْ سَبَقَه؛ حتى يُحْدِثَ لذلك شُكْرًا للهِ على هذه النِّعْمَةِ؛ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المُتَفَضِّلُ بالنِّعَمِ أوَّلًا، وهو الذي يَتَفَضَّلُ بها ثَانِيًا؛ بإعَانَةِ الإنسانِ على شُكْرِ هذه النِّعْمَةِ التي أنعَمَ اللهُ بها عليه.

٣- ومن فوائدها: بَيَانُ كَرَمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حيث جَعَلَ على نَفْسِهِ عَهْدًا أن يُوفيَ لِمَنْ أوفَى بعَهْدِهِ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

٤- ومن فوائدها: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ الفِعْلِيَّةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ في قَوْلِهِ: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

٥- ومن فوائدها: وُجُوبُ تَوْحِيدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالرَّهْبَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّـٰىَ

فَٱرْهَبُونِ ﴾، والإنسان لابُدَّ له من رَغْبَةٍ ورَهْبَةٍ: رَغْبَةٍ فيما عند اللهِ، ورَهْبَةٍ فيما يَفْعَلُهُ من أَسْبَابِ عُقُوبَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ عنده الثَّوَابُ العظيمُ للمُحْسِنِ، وعنده العِقَابُ الأليمُ للمُسِيءِ، كما قَالَ تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

الخطاب هنا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ على سِيَاقِ الخِطَابِ السَّابِقِ، وقد كان في المدينةِ من بَنِي إِسْرَائِيلَ في عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ ثَلاثُ قَبَائِلَ: بَنُو النَّضِيرِ، وبَنُو قَيْنُقَاعَ، وبَنُو قُرَيْظَةَ، فوَجَّهَ اللهُ إليهم هذا الخِطَابَ: أن يُؤْمِنُوا بما أنزَلَ مُصَدِّقًا لِمَا معهم، يعني: لِمَا معهم من التَّوْرَاةِ.

والتَّصْدِيقُ لِمَا معهم له مَعْنَيَانِ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ جاء مُطَابِقًا لِمَا أخبرَتْ به، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

والثَّانِي: أَنَّهُ شَاهِدٌ لها بالصِّدْقِ، وأَنَّهَا من عند اللهِ، وقد شَهِدَ القرآن الكريمُ بأَنَّ التَّوْرَاةَ والإنْجِيلَ كِلاهُمَا من عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ الخطاب هنا من اللهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، حيث يَنْهاهم عن أن يَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ به، وَقَدِ اسْتَشْكَلَ بعضُ أهلِ العِلْمِ قَوْله: ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾؛ حيث كان مُفْرَدًا، مع أنَّ الخطاب لِجَماعَةٍ، وأُجِيبَ عن ذلك: بأنَّ المراد: لا تكونُوا أَوَّلَ فَرِيقٍ كافِرٍ به، والفريقُ جَمْعٌ، يعني: لا تكونُوا أَوَّلَ مَن يَكْفُرَ به مع أنَّ عندكم عِلْمًا بأَنَّهُ حَقٌّ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة:١٤٦، الأنعام:٢٠]، فإِنَّهُ إذا كُنْتُمْ أَوَّلَ فَرِيقٍ كافِرٍ به -مع عِلْمِكم بأَنَّهُ حَقٌّ- كان ذلك أَشَدَّ وأَقْبَحَ.

ثُمَّ قال: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ أي: لا تَأْخُذُوا ثَمَنًا قليلًا بَدَلًا عن العَمَلِ بآيَاتِي، وذلك بتَقْدِيمِكم الرِّئَاسَةَ على ما جاء به الرَّسُولُ ﷺ؛ فإنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كانوا يَسْتَفْتِحُونَ على الذين كَفَرُوا، ويَقُولُونَ: سَيُبْعَثُ نبيٌّ، ونَتَّبِعُهُ، ونَغْلِبُكم. ولَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ من بَنِي إِسْمَاعِيلَ حَسَدُوهم، وقَالُوا: إنَّ هذا ليس هو النَّبِيَّ المَوْعُودَ، فاشْتَرَوْا بآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قليلًا؛ لِيَبْقَوْا على رِئَاسَتِهم، ولكن صار الأَمْرُ بالعَكْسِ -ولله الحمد- فلم يَبْقَوْا على رِئَاسَتِهم، بل فتَحَ المُسْلِمُونَ بلادَهم، ففَتَحُوا بلادَ الشَّامِ -وهي مُسْتَوْطَنُ الرُّومِ النَّصارى- وفَتَحُوا بلادَ العِرَاقِ -وهي مُسْتَوْطَنُ المَجُوسِ الفُرْسِ- واسْتَوْلَى -ولله الحمد- المُسْلِمُونَ على بلادِ هَؤُلاءِ، فأورَثَهم اللهُ أَرْضَهم، ودِيَارَهم، وأَمْوَالهم.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾، نقول في هذه الآية ما سَبَقَ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّٰيَ

فَٱرۡهَبُونِ ﴾، وهنا أمَرَهم بالتَّقْوَى، وَالتَّقْوَى: اتِّخَاذُ وِقَايَةٍ من عَذَابِ اللهِ، بِفِعْلِ أوَامِرِه، واجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

فوائد وأحْكَامُ هذه الآية الكريمَةِ:

١- أنَّ اليَهُودَ والنَّصارى مُخاطَبُونَ بالإيمَانِ بما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ، مُلْزَمُونَ به، وعندهم شَاهِدٌ على صِدْقِهِ؛ حيث كان ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ مُصَدِّقًا لِمَا معهم، وعلى هذا فإذا كَفَرُوا به لم يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَإِنْ قَالُوا: نَحْنُ نُؤْمِنُ باللهِ واليوم الآخِرِ، فإنَّهم لا يَتِمُّ لهم ما أرَادُوا حتى يُؤْمِنُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ، ولهذا أقْسَمَ ﷺ أنَّهُ لا يَسْمَعُ به يَهُودِيٌّ ولا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لا يُؤْمِنُ بما جاء به، إلَّا كان من أصْحَابِ النَّارِ[1].

٢- ومن فوائدها: أنَّ القرآن مُنَزَّلٌ من عند اللهِ، والقرآن -كما نَعْلَمُ- كَلامٌ، فإذا كان نَازِلًا من عند اللهِ، وهو كَلامٌ لا يكون إلَّا بمُتَكَلِّمٍ به، دَلَّ هذا على أنَّ القرآن كَلامُ اللهِ، وهذا ما أَجْمَع عليه سَلَفُ الأُمَّةِ: أنَّ القرآن كَلامُ اللهِ مُنَزَّلٌ.

٣- ومن فوائدها: إثْبَاتُ عُلُوِّ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾، والإنْزَالُ لا يكون إلَّا من فَوْقُ، وإذا كان الكَلامُ كَلامَ اللهِ، وهو صِفَةٌ من صِفَاتِهِ، ووُصِفَ بأنَّهُ مُنَزَّلٌ، دَلَّ ذلك على أنَّ المُتَكَلِّمَ به عَالٍ فَوْقَ العِبَادِ، سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

٤- ومن فوائدها: أنَّ الإنسانَ كُلَّمَا كان معه حَقٌّ يَسْتطيعُ أن يَتَّبِعَهُ، ولكنَّه نَكَصَ على عَقِبَيْهِ، كان أشَدَّ لومًا من الإنسانِ الجَاهِلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾؛ فإنَّ قَوْله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ كالبُرْهانِ المُلْزِمِ لهم بالإيمَانِ؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا مُحَمَّد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

لأنَّ هذا القرآن لم يَأْتِ بأَمْرٍ غريبٍ لا يَعْرِفُونَهُ، بل أَتى بأَمْرٍ يَعْرِفُونَه، ويَعْلَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ، لكنَّهم اسْتكْبَرُوا وأَبَوْا؛ حَسَدًا من عند أنفُسِهم.

٥- ومن فوائد الآيَةِ الكريمَةِ: أنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ بما عندهم من العِلْمِ بأنَّ ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ كان الأَلْيَقُ بهم أن يكونوا أَوَّلَ مُؤْمِنٍ به، ولكنَّهم كانوا كافرينَ به، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾، مع أنَّ قُرَيْشًا كانوا كَفَرُوا به من قبلُ، لكن لَمَّا كانت قُرَيْشٌ ليس معهم كِتَابٌ، وهؤلاء معهم كِتَابٌ يُصَدِّقُهُ ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ، كانوا أَوَّلَ كافِرٍ به، مع العِلْمِ بأَنَّهُ حَقٌّ.

٦- ومن فوائد الآيَةِ الكريمَةِ: أنَّ مَا في الدُّنْيَا قليلٌ ولو كَثُرَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٧- ومن فوائد الآيَةِ الكريمَةِ: أَنَّهُ لا يَجُوزُ طَلَبُ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ من أجل الدُّنْيَا؛ لأنَّ طَلَبَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ من أجل الدُّنْيَا نَوْعٌ من الاشْتِرَاءِ بآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قليلًا، ولهذا جاء في الحديثِ عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ عِلْمًا وَهُوَ مِمَّا يُبْتَغَى به وَجْهُ اللهِ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَنَالَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»[1].

٨- ومن فوائد الآيَةِ الكريمَةِ: وُجُوبُ تَقْوَى اللهِ، وإفْرَادِهِ بذلك؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾، فهو أهلُ التَّقْوَى وأَهْلُ المَغْفِرَةِ.

ولا يُنَافِي هذا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]؛

---

(١) أخرجه بمعناه أبو داود: كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله، رقم (٣٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب الانتفاع بالعلم، رقم (٢٥٢)، وأحمد (٢/ ٣٣٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأنَّ المراد بقَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ اتَّقُوا ما يكون في هذا اليوم ممَّا يُقَدِّرُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ من الأَهْوَالِ العظيمَةِ، والعِقَابِ لِمَنْ كَذَّبَ.

•••

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

والخطاب هنا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لأنَّ السِّيَاقَ واحِدٌ، ومَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿تَلۡبِسُواْ﴾ أي: تَخْلِطُوا ﴿ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ حتى يَلْتَبِسَ ويَشْتَبِهَ على النَّاسِ.

والحَقُّ في اللُّغَةِ: الشَّيْءُ الحَاقُّ، أي: الثَّابِتُ الذي لا يَتَزَعْزَعُ، والبَاطِلُ عَكْسُهُ، أي: الشَّيْءُ الذَّاهِبُ سُدًى، الذي لا يَثْبُتُ، ولا يَبْقَى.

والمراد بالحَقِّ هنا: ما جاءتْ به الرُّسُلُ من وحْيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قَال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام:١١٥]، والبَاطِلُ ما خَالَفَ ذلك.

وبَنُو إِسْرَائِيلَ عندهم الأَحْبَارُ والرُّهْبَانُ، يَخْلِطُونَ الحَقَّ بالبَاطِلِ كالكُهَّانِ، يَصْدُقُونَ مَرَّةً واحدةً، ويَكْذِبُونَ مِئَةَ مَرَّةٍ، فهؤلاء أيضًا يَأْتُونَ بالحَقِّ مَرَّةً، ولكنَّهم يَلْبِسُونَهُ بالبَاطِلِ، وهم لا يَأْتُونَ بالحَقِّ من أجل الحَقِّ، ولكن من أجل التَّمْوِيهِ، حتى يقول القائلُ: هذا الذي قالوه حَقٌّ، ثُمَّ يُلْحِق به كُلَّ ما قَالُوهُ من البَاطِلِ، فيَلْتَبِسُ الأَمْرُ، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي: لا تَخْلِطُوهُ به حتى يَلْتَبِسَ ويَشْتَبِهَ.

﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وهذه طريقَةٌ أخرى من طُرُقِهِم: أنَّهم يَكْتُمُونَ

الحَقَّ، فلا يُبْدُونَهُ؛ خَوْفًا من أن يَتَّبِعَهُ النَّاسُ، وهم لا يُرِيدُونَ من النَّاسِ أن يَتَّبِعُوا الحَقَّ؛ بل يُرِيدُونَ أن يَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهم.

وجُمْلَةُ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حَالٌ من الفَاعِلِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ﴾، وفي قَوْلِهِ: ﴿وَتَكْتُمُواْ﴾، أي: تَعْلَمُونَ أَنَّكم فعَلْتُمْ ذلك، فكَتَمْتُمْ ولَبَسْتُمْ.

وهذه الجُمْلَةُ الحَالِيَّةُ تُفِيدُ بَيَانَ مَأْخَذِ اللَّوْمِ عليهم، وأنَّهم لم يَفْعَلُوا هذا الفِعْلَ -وهو لَبْسُ الحَقِّ بالبَاطِلِ، أو كِتْمَانُ الحَقِّ- عن جَهْلٍ منهم، ولكن عن عِلْمٍ وإِصْرَارٍ، فيكون هذا أَظْهَرَ في عِنَادِهم، وأَبْيَنَ في اسْتِكْبَارِهم عن الحَقِّ.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- من فوائدها: تَحْرِيمُ لَبْسِ الحَقِّ بالبَاطِلِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى نَهَى عنهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَا نُهِي عنه بَنُو إِسْرَائِيلَ ممَّا هو قبيحٌ لِذَاتِهِ يُنْهَى عنه سَائِرُ الأُمَمِ.

ويَتَفَرَّعُ عن هذه الفائدة: التَّحْذِيرُ ممَّا يَصْنَعُهُ أهلُ البِدَعِ من زَخَارِفِ القول التي يُرِيدُونَ بها أن يُمَكِّنُوا بدَعَهم من قُلُوبِ النَّاسِ، فإنَّك إذا قَرَأْتَ كُتُبَهم ظَنَنْتَ أنَّ الحَقَّ معهم، ولكن عند التَّأَمُّلِ يَتبَيَّنُ أنَّهم يُرِيدُونَ إِلْبَاسَ الحَقِّ بالبَاطِلِ، ولهذا تَجِدُهم يَأْتُونَ بعِبَارَاتٍ مُجْمَلَةٍ، فيَقُولُونَ مَثَلًا: إنَّ اللهَ تعالى ليس في حَيِّزٍ، وليس في جِهَةٍ، وليس بجِسْمٍ، وما أشبه ذلك من العِبَارَاتِ التي يُرِيدُونَ بها التَّوَصُّلَ إلى إنْكَارِ صِفَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإنْكَارِ عُلُوِّهِ على خَلْقِهِ، فإذا قَرَأَ القَارِئُ مِثْلَ هذا الكَلامِ، ومَا مَوَّهُوا به من العِبَارَاتِ التي يَحْسَبُها الظَّمْآنُ مَاءً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور:٣٩]، إذا قَرَأَ القَارِئُ هذا الذي كَتَبُوا ظَنَّ أنَّ هذا هو الصَّوَابُ.

٢- ومن فوائدها: أنَّ مَن سَلَك هذا المَسْلَك من هذه الأُمَّةِ ففيه شَبَهٌ من اليَهُودِ والنَّصارى، فعليه أن يَحْذَرَ من ذلك؛ لأنَّ مَنْ تَشَبَّهَ بقَوْمٍ فهو منهم.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمَةِ: تَحْرِيمُ كِتْمانِ الحَقِّ، وَكِتْمانُ الحَقِّ يكون في حالَيْنِ:

الحَالُ الأُولَى: أن يَسْأَلَ سَائِلٌ عن الحَقِّ، فيُكْتَمَ الحقُّ عنه، ولا يُجَابَ به؛ لِغَرَضٍ من أغْرَاضِ الدُّنْيا.

والحَالُ الثَّانِيَةُ: أن يَحْتَاجَ النَّاسُ إلى بَيَانِ الحَقِّ وإن لم يَسْأَلُوا، فإذا رَأَى العَالِمُ النَّاسَ مُحْتَاجِينَ إلى الحَقِّ وجَبَ عليه بَيَانُهُ وإن لم يَسْأَلُوهُ.

والفَرْقُ بين الحَالَيْنِ: أنَّ الحَالَ الأُولَى التي يكون فيها الكِتْمانُ عند سُؤَالِ السَّائِلِ يَقَعُ السُّؤَالُ فيها بلِسَانِ المَقَالِ، أمَّا الثَّانِيَةُ فيَقَعُ السُّؤَالُ فِيها بلِسَانِ الحَالِ.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمَةِ: أنَّهُ إذا كَتَمَ الحَقَّ مع العِلْمِ به كان أَشَدَّ قُبْحًا، أمَّا إذا لم يَعْلم به الإنسانُ فإنَّهُ لا يَجُوزُ أن يَتكَلَّمَ به أصْلًا؛ لأنَّهُ إذا تَكَلَّمَ بما لا يَعْلَمُ فقد قال على اللهِ ما لا يَعْلَمُ، وهذا من المُحَرَّمِ الذي حَرَّمَهُ اللهُ في كِتَابه في قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

•●❧●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: ائْتُوا بها مُسْتقيمَةً تَامَّةً، وليس المراد بقَوْلِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قُومُوا بالإقَامَةِ التي هي إِعْلَامٌ بالقِيَامِ إلى الصَّلاةِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أَعْطُوها لِمُسْتَحِقِّها، والزَّكَاةُ: هي جُزْءٌ مُعَيَّنٌ في أمْوَالٍ مَخْصُوصَةٍ تُدْفَعُ لِمُسْتَحِقِّها، ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: اخْضَعُوا للهِ عَزَّوَجَلَّ مع الخَاضِعِينَ له، فيكون المراد بالرُّكُوعِ هنا: مُطْلَقَ الذُّلِّ؛ لأنَّ الرُّكُوعَ في اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ يُرَادُ به مُطْلَقُ الذُّلِّ؛ كما في قَوْلِ الشَّاعِرِ:

لا تُهِينَ الْفقيرَ عَلَّك أن ... تَرْكَعَ يَوْمًا، والدَّهْرُ قد رَفَعَهْ[1]

ويَحْتَمِلُ أن يكون المراد به: رُكُوعَ الصَّلاةِ، ويكون تَخْصِيصًا بعد تَعْمِيمٍ؛ لأنَّ قَوْله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَشْمَلُ إقَامَتَها بقِيَامِها، ورُكُوعِها، وسُجُودِها، وقُعُودِها.

ففي هذه الآية يَأْمُرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بإقَامَةِ الصَّلاةِ، وإيتَاءِ الزَّكَاةِ، والرُّكُوعِ مع الرَّاكِعِينَ.

فوائد هذه الآية الكريمَةِ:

١- وُجُوبُ إقَامَةِ الصَّلاةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بها، والأَصْلُ في الأَمْرِ الوُجُوبُ، ولكنَّ إقَامَةَ الصَّلاةِ من حيث الوَاقِعُ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ:

- إقَامَةٍ واجِبَةٍ، وهي أن يَأْتِيَ بوَاجِبَاتِ الصَّلاةِ، وأَرْكَانِها، وشُرُوطِها، أي:

---

(١) البيت للأضبط بن قريع السعدي، يُنْظَر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٨٢).

أن يَأْتِيَ بما لا تَصِحُّ الصَّلاةُ إلَّا به، فهذه إقَامَةٌ واجِبَةٌ لابُدَّ منها.

▪ وإقَامَةٍ غير واجِبَةٍ، وهي أن يَأْتِيَ بمُكَمِّلاتِ الصَّلاةِ التي تَصِحُّ الصَّلاةُ بدُونِها، وكُلُّهُ مَأْمُورٌ به، لَكِن ما لا تَصِحُّ الصَّلاةُ بدُونِهِ مَأْمُورٌ به على وَجْهِ الوُجُوبِ، ومَا تَصِحُّ الصَّلاةُ بدُونِهِ مَأْمُورٌ به على سبيلِ الاسْتِحْبَابِ.

٢- ومن فوائد الآيَةِ الكريمَةِ: وُجُوبُ إيتَاءِ الزَّكَاةِ، وهي المَالُ المَدْفُوعُ لِمُسْتَحِقِّهِ من أمْوَالٍ مُعَيَّنَةٍ مَعْرُوفَةٍ عند أهلِ العِلْمِ.

٣- ومن فوائدها: أهَمِّيَّةُ إقَامَـةِ الصَّلاةِ، وإيتَاءِ الزَّكَـاةِ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَ بهما بخُصُوصِهِمَا بعد قَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾، مع أنَّ التَّقْوَى تَشْمَلُ فِعْلَ جميعِ الأَوَامِرِ، وتَرْكَ جميعِ النَّوَاهِي.

٤- ومن فوائدها: فضِيلَةُ الرُّكُوعِ في الصَّلاةِ إذا قلنا بأنَّ المراد بالرُّكُوعِ: الرُّكُوعُ في الصَّلاةِ، أمَّا إذا قلنا بأنَّ المراد بالرُّكُوعِ: التَّوَاضُعُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، والذُّلُّ له، فإنَّ في الآيَةِ فائِدَةً، وهي وُجُوبُ الذُّلِّ للهِ، والخُضُوعِ له.

٥- ومن فوائدها: مَا اسْتَدَلَّ به بعضُ العُلَمَاءِ على وُجُوبِ صَلاةِ الجَمَاعَةِ؛ لأنَّهُ قال: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وهذا الاسْتِدْلالُ محَلُّ نَظَرٍ وتَأَمُّلٍ؛ لأنَّ الآيَةَ ليست صريحَةً في ذلك؛ إذ يَحْتَمِلُ أن يكـون المعنى: كُـونُوا معهم في الجُمْلَةِ، أي: ارْكَعُـوا كما يَرْكَعُ النَّاسُ، ولا يَلْزَمُ أن يكون في ذلك مُصَاحَبَةٌ، والعِلْمُ عند اللهِ.

••❦••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

الْخِطَابُ هنا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، والاسْتِفْهامُ لِلتَّوْبِيخِ والإِنْكَارِ، يعني: كيف تَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ، وتَتْرُكُونَ أنفُسَكم، وأنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ؟!

وقَوْلُهُ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ البرُّ هنا: كُلُّ ما يُقَرِّبُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ من الطَّاعَاتِ، ويَدْخُلُ في ذلك أيضًا: تَرْكُ المَعَاصِي؛ لأنَّ البرَّ إذا ذُكِرَ وحده شَمَلَ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وتَرْكَ المَعَاصِي، وإذا قُرِنَ بالتَّقْوَى صار المراد بالبِرِّ: فِعْلَ الطَّاعَاتِ، والمراد بالتَّقْوَى: تَرْكُ المُحَرَّمَاتِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: تَتْرُكُونَها، لا تَأْمُرُونَها بالبِرِّ، ولا تَهْتَمُّونَ بها، والحَالُ أَنَّكم تَتْلُونَ الكِتَابَ المُنَزَّلَ عليكم، وتَعْرِفُونَ ما فيه من بَشَاعَةِ هذا المَنْهَجِ، وهو أمْرُكم النَّاسَ بالبِرِّ مع نِسْيَانِ أنفُسِكم.

ثُمَّ وبَّخَهم اللهُ مَرَّةً أخرى بقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أنَّ فِعْلَكم هذا ليس فِعْلَ ذِي عقلٍ؛ لأنَّ العَاقِلَ يَبْدَأُ -أَوَّلَ ما يَبْدَأُ- بنَفْسِهِ، ثُمَّ يُثَنِّي بإِصْلاحِ غيرِهِ.

فوائد الآيَةِ الكريمَةِ:

١- الإِنْكَارُ الشَّدِيدُ على مَنْ يَأْمُرُ النَّاسَ بالبِرِّ، ولا يَفْعَلُهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

٢- أنَّ هذا المَنْهَجَ كما هو مُخَالِفٌ لِلشَّرْعِ فهو مُخَالِفٌ للعقلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٣- أنَّ هذا المَنْهَجَ يُوجِبُ ألَّا يَأْتَمِرَ النَّاسُ بأَمْرِ الآمِرِ، ولا يَنْتَهُوا بنَهْيِهِ؛ لأنَّهم سَيَقُولُونَ: لو كان هذا خَيْرًا لكان أوَّلَ من يَفْعَلُهُ، ولو كان شَرًّا لكان أوَّلَ من يَجْتَنِبُهُ، فكيف يَأْمُرُنا ولا يَفْعَلُ، أو يَنْهَانا ويَفْعَلُ؟! فيكون في هذا مَنْعٌ لِسُلُوكِ النَّاسِ سبيلَ البِرِّ.

٤- ومن فوائد الآيَةِ الكريمَةِ: الإشَارَةُ إلى أنَّ الإنسانَ يَنْبَغِي له -إنْ لم نَقُلْ: يَجِبُ عليه- أن يَبْدَأَ بنَفْسِهِ، وقد دَلَّتِ السُّنَّةُ على ذلك، قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ابْدَأْ بِنَفْسِكَ، فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ**»[1]، ولا رَيْبَ أنَّ أقْرَبَ شيء إليك هو نَفْسُكَ، فكونُك تَسْعَى بإصْلاحِ غيرِك -مع فسَادِ نَفْسِكَ- لا شَكَّ أنَّ هذا خِلافُ الشَّرْعِ، وخِلافُ العقلِ.

٥- ومن فوائد الآيَةِ الكريمَةِ: أنَّ العَالِمَ يَلْحَقُهُ من اللَّوْمِ ومن الذَّمِّ أكثرُ ممَّا يَلْحَقُ الجاهِلَ؛ لِقَوْلِهِ هنا: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٦- ومن فوائد الآيَةِ الكريمَةِ: أنَّ كُلَّ ما يُخَالِفُ الشَّرْعَ فهو مُخَالِفٌ للعقلِ، لكنَّ المراد بالعقلِ: العقلُ الصَّريحُ السَّالِمُ من الشُّبُهاتِ والشَّهَوَاتِ، أمَّا العقلُ الفَاسِدُ المَغْمُورُ بالشَّهَوَاتِ والشُّبُهاتِ فليس بعقلٍ، ولهذا يَصِفُ اللهُ الكُفَّارَ بأنَّهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، مع أنَّهم أذْكِيَاء، لكنَّ الذَّكَاءَ شيءٌ، والعقلَ شيءٌ آخرُ، فالعقلُ: ما يَعْقِلُ الإنسانَ عمَّا يَضُرُّهُ، ويَمْنَعُهُ ممَّا يَضُرُّهُ، والذَّكاءُ: هو سُرْعَةُ إدْرَاكِ الأُمُورِ وفَهْمِها.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة بالنفس، رقم (٩٩٧) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

في هذه الآية الكريمةِ يَأْمُرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالاسْتِعَانَةِ بأَمْرَيْنِ: الصَّبْرِ، والصَّلاةِ، فالصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عن التَّشَكِّي والتَّسَخُّطِ، والصَّلاةُ: هي التَّعَبُّدُ للهِ عَزَّوَجَلَّ بالعِبَادَةِ المَعْرُوفَةِ المُفْتَتَحَةِ بالتَّكْبِيرِ، المُخْتَتَمَةِ بالتَّسْلِيمِ.

ويُبَيِّنُ أنَّ الاسْتِعَانَةَ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ كبيرَةٌ إلَّا على الخَاشِعِينَ، أو أنَّ الصَّلاةَ نَفْسَها كبيرَةٌ إلَّا على الخَاشِعِينَ.

والخُشُوعُ: هو الذُّلُّ، بل هو أعْظَمُ الذُّلِّ وأَكْمَلُهُ، والمراد بذلك: الخُشُوعُ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

أحْكَامُ وفوائد هذه الآيَةِ:

١- طَلَبُ الاسْتِعَانَةِ بالصَّبْرِ في مُكَابَدَةِ الأُمُورِ؛ لأنَّ الإنسانَ الذي لا يَصْبِرُ لا يَتِمُّ له مَطْلُوبُهُ؛ فإنَّ كثيرًا من الأُمُورِ لا تَأْتِي الإنسانَ بسُهُولَةٍ، بل تَحْتَاجُ إلى تَحَمُّلٍ وصَبْرٍ.

وقد ذَكَرَ أهلُ العِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنَّ الصَّبْرَ ثَلاثَةُ أقْسَامٍ: صَبْرٌ على طَاعَةِ اللهِ، وصَبْرٌ عن مَعْصِيَةِ اللهِ، وصَبْرٌ على أقْدَارِ اللهِ المُؤْلِمَةِ.

فأَمَّا الصَّبْرُ على طَاعَةِ اللهِ فهو أن يَقُومَ الإنسانُ بأَوَامِرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ غير مُتَضَجِّرٍ، ولا ضَائِقٍ بها صَدْرُهُ، بل يَتَقَبَّلُها بانْشِرَاحٍ وسُرُورٍ، حتى يَقُومَ بالعِبَادَةِ وهو يُحِبُّ أن يَقُومَ بها.

وأَمَّا الصَّبْرُ عن مَحَارِمَ اللهِ فهو الكَفُّ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عليه، سَوَاءٌ أكان مِمَّا يتعلَّق

بحُقُوقِ اللهِ، أم يتعلَّق بحُقُوقِ العِبَادِ، فيَكُفُّ نَفْسَهُ عن العُدْوَانِ، والظُّلْمِ، والكَذِبِ، وعمَّا هو أعْظَمُ من ذلك من الشِّرْكِ، والكُفْرِ، ونَحْوِ هذا.

والثَّالِثُ: الصَّبْرُ على أقْدَارِ اللهِ المُؤْلِمَةِ؛ لأنَّ أقْدَارَ اللهِ تعالى قد تكونُ مُلائِمَةً للإنْسَانِ يَفْرَحُ بها، ويَطْمَئِنُّ إليها، ويُسَرُّ بها، وهذه لا تَحْتَاجُ إلى صَبْرٍ، اللَّهُمَّ إلَّا إلى صَبْرٍ على شُكْرِها.

والثَّانِي: أقْدَارٌ مُؤْلِمَةٌ شَاقَّةٌ على الإنسانِ، يَتْعَبُ منها، فهذه تَحْتَاجُ إلى مُصَابَرَةٍ، وإلى عَنَاءٍ، فكُلَّما مَرَّنَ الإنسانُ نَفْسَهُ على الصَّبْرِ والتَّحَمُّلِ ازْدَادَ ثَبَاتًا، وحَصَلَ له من مَطْلُوبه ما لم يَحْصُلْ له لو تَضَجَّرَ، وهذا شيءٌ مُجَرَّبٌ، فإنَّ الإنسانَ إذا تَمَرَّنَ على الصَّبْرِ والتَّحَمُّلِ صار عنده من مُدَافَعَةِ الأُمُورِ ما ليس عند غيرِه.

٢- الاسْتِعَانَةُ بِالصَّلاةِ على مُكَابَدَةِ الأُمُورِ أيضًا، وقد ذُكِرَ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ كان إذا حَزَبَهُ أمْرٌ -يعني: كَرَبَهُ وشَقَّ عليه- فزِعَ إلى الصَّلاةِ[1]، وذلك لأنَّ الصَّلاةَ تُنْسِي الإنسانَ الدُّنْيَا إذا كان مُخْلِصًا فيها؛ فإنَّ الإنسانَ يَقِفُ بين يَدَيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُنَاجِيهِ، ويَتَقَرَّبُ إليه بتَعْظِيمِهِ وتِلاوَةِ كِتَابه، ويُنَاجِيهِ بالدُّعَاءِ؛ يَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ ارْحَمْنِي، وما أشبه ذلك، فيَتَسَلَّى بها الإنسانُ عن أُمُورِ الدُّنْيَا، وحينئذٍ يَتَحَمَّلُ المَشَاقَّ؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**حُبِّبَ إلَيَّ من دُنْيَاكم النِّسَاءُ والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**»[2]، فهي قُرَّةُ عَيْنِ المُؤْمِنِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب التطوع، باب وقت قيام النبي ﷺ، رقم (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه بنحوه النسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (٣٣٩١)، وأحمد (٣/ ١٢٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويُذْكَرُ عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهو من الفُقَهاءِ السَّبْعَةِ الذين اشْتَهَرُوا في زَمَنِ التَّابِعِينَ- أَنَّهُ أَصَابَتْهُ آكِلَةٌ في رِجْلِهِ، وقَـرَّرَ الأَطِبَّاءُ أَنَّهُ لابُدَّ من قَطْعِـها، ولم يَكُنْ في ذلك الوَقْتِ بَنْجٌ يُبَنَّجُ به الإنسانُ، فقال لهم: إذا دَخَلْتُ في الصَّلاةِ فأْتُوا واقْطَعُوها؛ لأَنَّهُ إذا دَخَلَ في الصَّلاةِ اشْتَغَلَ بها عمَّا سِوَاها، فتُقْطَعُ رِجْلُهُ وهو لا يَشْعُرُ؛ لِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٣- ومن فوائدها أيضًا: أنَّ الخَاشِعَ المُطْمَئِنَّ لِأَمْرِ اللهِ المُخْبِتَ له تَسْهُلُ عليه الصَّلاةُ، ويَسْهُلُ عليه الصَّبْرُ، ولا يكون أمْرًا شَاقًّا عليه؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

•●☙●•

وقَوْلُهُ تعَالَى:

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي: يَتيقَّنُونَ ذلك؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، فهم مُوقِنُونَ بأنَّهم مُلاقُو رَبِّهم، ورَاجِعُونَ إليه، وأنَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ سَيُحَاسِبُهم على أعْمَالِهم.

أحْكَامُ وفوائد هذه الآيَةِ:

١- ومن فوائد هذه الآية الكريمَةِ: إثْبَاتُ لِقَاءِ اللهِ، وأنَّ الإنسانَ سَيُلاقِي رَبَّهُ، وهو كذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

٢- ومن فوائدها: الثَّنَاءُ على المُوقِنِ بهذا اللِّقَاءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي: يَتيقَّنُونَ.

٣- ومن فوائدها أيضًا: أنَّ هذا اليقينَ أو العِلْمَ سَبَبٌ لِلسَّعادَةِ ولِلتَّقوِّي على الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنَّهُ سَيَرْجِعُ إلى رَبِّهِ عَمِلَ لذلك عَمَله، بخِلافِ الإنسانِ الغَافِلِ الذي لا يَهْتَمُّ بما أمَامَهُ، فنَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن يجْعَلَنا جميعًا من المُعْتَبِرِينَ بآيَاتِهِ، القَائِمِينَ بمَرْضَاتِهِ؛ إنَّهُ جَوادٌ كريمٌ.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

في هاتين الآيتين يُذَكِّرُ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وإِسْرَائِيلُ: هو يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخليلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يُذَكِّرُهم بنِعْمَتِهِ التي أنعَمَ اللهُ بها عليهم، ومَا أكثر النِّعَمَ التي أنعَمَ اللهُ بها على بَنِي إِسْرَائِيلَ!

ومن أهَمِّها: أَنَّهُ فضَّلهم على العَالمينَ، أي: على عَالَمِي زَمَانِهِم، وليس على العَالمينَ إلى يوم القيامةِ؛ لأنَّ هذه الأُمَّةَ أفْضَلُ الأُمَمِ وأَكْرَمُها على اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثُمَّ يَأْمُرُهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَتَّقُوا ذلك اليوم الذي لا تَجْزِي فيه نَفْسٌ عن نَفْسٍ شَيْئًا، فلا أحَدَ يَفْدِي غيرهُ، بل لِكُلِّ امْرِئٍ منهم يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ، ولا يُقْبَلُ من النَّفْسِ شَفَاعَةٌ، ولا يُؤْخَذُ منها عَدْلٌ، أي: فِدْيَةٌ، بل كُلُّ إنْسَانٍ مَرْهُونٌ بعَمَلِهِ، لا يُنْصَرُ، ولا يُقْبَلُ منه شَفَاعَةٌ، ولا يُؤْخَذُ منه عَدْلٌ.

ما يُسْتَفَادُ من هاتين الآيتين:

١- بَيَانُ نِعْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على بَنِي إِسْرَائِيلَ، حيث ذَكَّرَهم بهذه النِّعْمَةِ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾، وهي مُفْرَدٌ مُضَافٌ، فيَشْمَلُ جميعَ النِّعَمِ التي أنعمَ اللهُ بها عليهم.

٢- ومن فوائدها: أنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ دَاعِيَةٍ أن يُذَكِّرَ المَدْعُوَّ بنِعَمِ اللهِ؛ لأنَّ التَّذْكِيرَ بنِعَمِ اللهِ يَسْتَلْزِمُ أن يَقُومَ المَدْعُوُّ بطَاعَةِ المُنْعِمِ؛ لأنَّ ذلك هو حقيقةُ الشُّكْرِ.

٣- ومن فوائد الآيَةِ: أنَّ اللهَ فضَّلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ على غيرهم من العَالمينَ، ولكنَّ هذا خَاصٌّ في زَمَانِهِم كما أسلفنا آنفًا، أمَّا هذه الأُمَّةُ فهي أفْضَلُ من بَنِي إِسْرَائِيلَ.

٤- ومن فوائد هاتين الآيتين: التَّذْكِيرُ بيوم القيامةِ الذي لا تَجْزِي فيه نَفْسٌ عن نَفْسٍ شَيْئًا.

٥- ومن الفوائد: وُجُوبُ تَقْوَى هذا اليوم، وذلك باتِّخَاذِ الوِقَايَةِ من عَذَابه، وَلا وِقَايَةَ من عَذَابِ يوم القيامةِ إلَّا بفِعْلِ أوَامِرِ اللهِ، واجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ؛ لأنَّ هذا هو الذي يَقِي من عَذَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهذا المعنى الذي ذكرناه لِلتَّقْوَى هو أَجْمَعُ ما قِيلَ فيها.

٦- ومن فوائد هاتين الآيتين: أنَّهُ لا تُقْبَلُ الشَّفاعةُ من النُّفُوسِ في ذلك اليوم، وهذا عَامٌّ أُرِيدُ به الخَاصُّ، وذلك لأنَّ الذين لا تُقْبَلُ منهم الشَّفاعةُ هم الذين لا يَرْتضيهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا من ارْتَضَاهم اللهُ فإنَّ اللهَ تعالى يَقْبَلُ منهم الشَّفاعةَ فيمَنْ يَسْتَحِقُّ الشَّفاعةَ، وَالشَّفاعةُ لا تكونُ إلَّا بشَرْطَيْنِ:

الشَّرط الأَوَّلُ: أن يَأْذَنَ اللهُ بها.

والشَّرط الثَّانِي: أن يكون رَاضِيًا عَمَّنْ شَفَعَ، وعَمَّنْ شُفِعَ له، كما قال اللهُ تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

٧- ومن فوائد هاتين الآيتين: أَنَّهُ لا عِدْلَ يُؤْخَذُ عن الإنسانِ في ذلك اليوم، بخِلافِ المَضَايِقِ في الدُّنْيَا، فإنَّ الإنسانَ قد يَدْفَعُ عِدْلًا عَنْهُ، أي: شَخْصًا يَعْدِلُهُ بنَفْسِهِ، ويَنْجُو بهذا المُعادِلِ، لكن في يوم القيامةِ لا يُمكنُ ذلك.

٨- كذلك من فوائد هاتين الآيتين: أنَّ مَن لا تُقْبَلُ منه الشَّفاعةُ، ولا يُؤْخَذُ منهُ عَدْلٌ، لا يُنْصَرُ أيضًا، فلا يَتَنَاصَرُ المُجْرِمُونَ في ذلك اليوم؛ لأنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لله.

٩- ومن فوائد هاتين الآيتين: التَّذْكِيرُ العَامُّ لِكُلِّ أحدٍ بأَهْوَالِ هذا اليوم العظيمِ، الذي لابُدَّ أن يصيرَ إليه كُلُّ حَيٍّ، فعليه أن يَسْتَعِدَّ له، وأن يَتَأَهَّبَ له بالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ المُقَرِّبَةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ الخطاب لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وآلُ فِرْعَونَ: هم أَتْبَاعُهُ الذين يَتَوَلَّوْنَهُ، ويَتَوَجَّهُونَ بتوجيهاته، فآلُ فرعونَ كانوا يَسُومُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

سُوءَ العَذَابِ، يَسْتَعْبِدُونَهم، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهم، ويَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهم، أي: يَسْتَبْقُونَهُنَّ، وهذه سياسةُ الجَوْرِ والظُّلْمِ، فهم يُذَبِّحُونَ الأَبْنَاءَ؛ لئَلَّا يَنْشَؤُوا، فيُقَاوِمُوا آلَ فرعونَ؛ ولأجل أن يَقِلَّ النَّسْلُ في بَنِي إِسْرَائِيلَ، ولأجل أن يَكُونُوا أَذِلَّةً أمام آلِ فرعونَ؛ لأنَّ النِّسَاءَ مهما كُنَّ فإنَّهُنَّ في مَقَامِ الذُّلِّ أمام العَدُوِّ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: اخْتِبَارٌ عظيمٌ لكم: هل تَصْبِرُونَ على ما حَصَلَ لكم من الأذى؟ وهل شَكَرْتُمْ لَمَّا أنجاكم اللهُ من هذا البَلاءِ؟

ثُمَّ يُذَكِّرُهم اللهُ تعالى بنِعْمَةٍ أخرى، وهي: أنَّ اللهَ فَرَقَ بهم البَحْرَ، فأنجاهم، وأَغْرَقَ آلَ فرعونَ، وذلك حينما خَرَجَ فرعونُ بجُنُودِهِ تابعًا لموسى وقَوْمِهِ؛ لِيَقْضِيَ عليهم، ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضَرَبَهُ ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٠- ٦٣]، فدَخَلَ مُوسَى وقَوْمُهُ في هذا الطَّرِيقِ، وعلى أَيْمَانِهم وشَمَائِلِهم كُتَلُ الماءِ كالجِبَالِ، ولَمَّا نَجَوْا دَخَلَ فرعونُ وقَوْمُهُ، فأَمَرَ اللهُ البَحْرَ، فانْطَبَقَ عليهم، فغَرِقُوا عن آخِرِهم، ولهذا قال: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، فكان في هذا نِعْمَتَانِ على بَنِي إِسْرَائِيلَ: إِحْدَاهُمَا: أنَّ اللهَ أنجاهم، والثَّانِيَةُ: أنَّ اللهَ أغْرَقَ عدُوَّهم.

من فوائد هاتين الآيتين:

١- أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَجَّى بَنِي إِسْرَائِيلَ مَرَّتَيْنِ:

المَرَّةُ الأُولَى: مِن آلِ فرعونَ، حين كانوا يَسُومُونَهم سُوءَ العَذَابِ، فيُذَبِّحُونَ الأَبْنَاءَ، ويَسْتَبْقُونَ النِّسَاءَ.

والمَرَّةُ الثَّانِيَةُ: حين فَرَقَ بهمُ البَحْرَ، فأنجَاهم من الغَرَقِ، وأَغْرَقَ آلَ فرعونَ، وهم يُشَاهِدُونَ ذلك.

٢- ومن فوائد هاتين الآيتين: بَيَانُ شِدَّةِ بَطْشِ آلِ فرعونَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، حينَ كانوا يُمارِسُونَ معهم هذا الإذلالَ العظيمَ، وذلك بذَبْحِ الأَبْنَاءِ، واسْتِبْقَاءِ النِّسَاءِ، فإنَّ ذلك أَكْبَرُ إذلالٍ لِلشُّعُوبِ، أن يُذْبَحَ رِجَالُها، وتَبْقَى نِسَاؤُها.

٣- ومن فوائد هاتين الآيتين: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَبْتَلِي عِبَادَهُ أحيانًا بالمَصَائِبِ؛ لِيَعْلَمَ مَن يكون صَابِرًا، ومَن يكون ضَاجِرًا؟ وأحيانًا بالنِّعَمِ؛ لِيَعْلَمَ مَن يكون شَاكِرًا، ومَن يكون بَطِرًا؟ ولله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خَلْقِهِ شُؤُونٌ، وَالْمُؤْمِنُ لا يَقْضِي اللهُ له قَضَاءً إلَّا كان خَيْرًا له، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[1].

٤- ومن فوائد هاتين الآيتين: إِثْبَاتُ الحِكْمَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ فيما يُقَدِّرُهُ على عِبَادِهِ، وهذا من مُقْتَضَى اسْمِهِ: (الحكيمِ)؛ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيمٌ فيما يُقَدِّرُهُ، وفيما يَشْرَعُهُ.

وبه نعرف أَنَّهُ لا يُمكنُ أن يَشْرَعَ شَيْئًا عَبَثًا، أو أن يُقَدِّرَ شَيْئًا عَبَثًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩]، ولكن أحيانًا تَخْفَى الحِكْمَةُ علينا؛ لِقُصُورِ أفهامِنَا، أو لِتَقْصِيرِنا في طَلَبِ الحِكْمَةِ، ولكنَّ هذا لا يَمْنَعُنا من تَمامِ الإيمانِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٤٦).

بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذُو حِكْمَـةٍ، وأنَّـهُ لا يَفْعَـلُ شَيْئًا ولا يَشْرَعُ شَيئًا إلَّا لحِكْمَـةٍ عظيمَةٍ.

٥- ومن فوائد هاتين الآيتين: أنَّ بَلاءَ اللهِ -أي: ابْتِلاءَهُ- يَتَنَوَّعُ، فمنه ابْتِلاءٌ يسيرٌ، ومنه ابْتِلاءٌ عظيمٌ، وذلك حَسَبَ ما تَقْتضيهِ الحِكْمَـةُ؛ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يَبْتَلِي مَن هو قليلُ الصَّبْرِ وقليلُ الشُّكْرِ ببَلاءٍ يسيرٍ يُنَاسِبُ حَاله، ويَبْتَلِي مَن هو قويٌّ على الصَّبْرِ وعلى الشُّكْرِ ببَلاءٍ أعْظَمَ؛ لِيكون ذلك مُناسِبًا لحَالِهِ، ولهذا جاء في الحديثِ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ**»[1]، والوَاقِعُ شَاهِدٌ بذلك؛ فإنَّ الابْتِلاءَ الذي يُجْرِيهِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على الأنبِيَاءِ أعْظَمُ من الابْتِلاءِ الذي يُجْرِيهِ على مَن دُونَهم.

٦- ومن فوائد هاتين الآيتين: بَيَانُ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كَيْفيَّةِ إنْجاءِ بَنِي إسْرَائِيلَ، وإغْرَاقِ آلِ فرعونَ؛ وذلك أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعَلَ هذا البَحْرَ الذي هو من الماءِ السَّائِلِ واقِفًا كالطَّوْدِ العظيمِ، في ضَرْبَةٍ واحِدَةٍ من مُوسَى، أوحَى اللهُ إليه أن يَضْرِبَ البَحْرَ بعَصَاهُ، فضَرَبَهُ، فانْفَلَقَ، فكان كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيمِ، أي: كالجَبَلِ العظيمِ.

وقد ذَكَرَ بعضُ النَّاسِ أنَّ اللهَ جَعَلَ في هذه الكُتَلِ المائِيَّة، جعَلَ فيها فُرَجًا يَنْظُرُ النَّاسُ بعضُهم إلى بعضٍ؛ لِيَطْمَئِنَّ بعضُهم على البعضِ الآخَرِ[2].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٣) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٦٥٩).

٧- ومن فوائد هاتين الآيتين: أَنَّهُ من كَمالِ طُمَأْنِينَةِ العَبْدِ أن يَرَى عَدُوَّهُ أَمَامَهُ وقد هَلَكَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، فإنَّ اللهَ لو أغْرَقَ آلَ فرعونَ، أو أصَابَهم بعَذَابٍ لم يُشَاهِدْهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، لم تكن طُمَأْنِينَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ على هَلاكِ فرعونَ وقَوْمِهِ كما لو كانت وهم يَنْظُرُونَ.

٨- ومن فوائد هاتين الآيتين: الرَّدُّ على الذين بَهَرَتْهم صَنَائِعُ أَعْدَاءِ اللهِ اليَوْمَ وغَرَّتْهم، حتى ظَنُّوا أَنَّهُ لا يُمكنُ الانْتِصَارُ عليهم، بل رُبَّما يَتَهَكَّمُ بعضُهم إذا قِيلَ لهم: إِنَّنا لو رَجَعْنا إلى دِينِ اللهِ حَقَّ الرُّجُوعِ لانْتَصَرْنا على أَعْدَائِنا مَهْما بَلَغَتْ قُوَّتُهم، فإِنَّنا نقول لهم: انظرُوا كيف كان هذا البَحْرُ طريقًا يَبَسًا في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ، وفَتَحَ اللهُ فيه اثْنَيْ عَشَرَ طريقًا بضَرْبَةٍ واحِدَةٍ بعَصَا مُوسَى ﷺ، ثُمَّ بَقِيَتْ كُتَلُ الماءِ كَأَنَّها الجِبالُ، وأَغْرَقَ اللهُ تعالى عَدُوَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وهم يَنْظُرُونَ إليهم؟!

ثُمَّ انظرُوا أيضًا ما فَعَلَ اللهُ تعالى بعَادٍ من الرِّيحِ العَاصِفَةِ المُدَمِّرَةِ، ومَا فعَلَ اللهُ تعالى بثَمُودَ قَوْمِ صَالِحٍ، حيث أَخَذَتْهم الرَّجْفَةُ والصَّيْحَةُ، فأَصْبَحُوا في دَارِهم جَاثِمِينَ، فَنَحْنُ لو صَدَقْنا اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَهَيَّأَ لَنا من أَسْبَابِ النَّصْرِ ما لا يَخْطُرُ على البَالِ.

• • • •

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

في هاتين الآيتين يُذَكِّرُ اللهُ تعالى بَنِي إِسْرَائِيلَ بنِعْمَتِهِ عليهم بهذا العَفْوِ العظيمِ، وذلك أَنَّ اللهَ تعالى واعَدَ مُوسَى ﷺ ثَلاثِينَ لَيْلَةً، فأَتَمَّها بعَشْرٍ، فصارت أَرْبعينَ لَيْلَةً،

فَلَمَّا تَأَخَّرَ مُوسَى ﷺ عن المَوْعِدِ الذي ذَكَرَهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فُتِنُوا بعِبَادَةِ العِجْلِ، وذلك أَنَّهم صَنَعُوا من الحُلِيِّ من الذَّهَبِ تِمْثَالًا على هَيْئَةِ العِجْلِ، وهو وَلَدُ البَقَرِ الصَّغيرُ، وجَعَلُوهُ على شَكْلٍ يكون له خُوَارٌ كَخُوَارِ العِجْلِ، وأَضَلَّهم السَّامِرِيُّ، فقال لهم: إنَّ مُوسَى نسي، وإنَّ رَبَّكم هذا العِجْلُ، وهو إلهكم وإله مُوسَى، فعَبَدُوا العِجْلَ، وصَارُوا يَعْبُدُونَهُ من دُونِ اللهِ، وذَكَّرَهم هارُونُ أَخُو مُوسَى ﷺ بأَنَّ إِلَهَهم هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه:٩٠]، ولكنَّهم أصَرُّوا وأَبَوْا، وقَالُوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩١]، فبَقُوا يَعْبُدُونَ هذا العِجْلَ حتى رَجَعَ إليهم مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ولَمَّا رَجَعَ إليهم مُوسَى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:٥٤]، فجَعَلَ اللهُ تعالى من تَوْبَتِهم أن يَجْتَمِعُوا جميعًا، ويَأْخُذُوا السَّكَاكِينَ والخَنَاجِرَ، ويَقْتُلَ بعضُهم بعضًا، ويَصْبِرُوا على هذه المِحْنَةِ العظيمَةِ، فلَمَّا فعَلُوا ذلك تَابَ اللهُ عليهم.

فهنا يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ مُعْتَدُونَ في حَقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، حيث اتَّخَذْتُم هذا العِجْلَ الذي صَنَعْتُمُوهُ بأَيْدِيكم إِلَهًا تَعْبُدُونَهُ من دُونِ اللهِ.

ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ذَكَّرَهم النِّعْمَةَ عليهم، حيث عَفَا عنهم من بعد ذلك؛ لعلَّهم يَشْكُرُونَ اللهَ على نِعَمِهِ، ويَتُوبُونَ إليه، ويَعُودُونَ إليه.

فوائد هاتين الآيتين:

١- أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واعَدُ مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَتَمَّها حتى صارت أَرْبعينَ لَيْلَةً، ووَعْدُ اللهِ له ثَلاثِينَ لَيْلَةً مَأْخُوذٌ من آيَةٍ أخرى، لكنَّه عَزَّوَجَلَّ مَدَّدَ المُدَّةَ لِحِكْمَةٍ أَرادَها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٢- ومن فوائدِهِمَا: إِثْبَاتُ كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؛ فإنَّ هذا الوَعْدَ لابُدَّ أن يكون بوَحْيٍ أو بكَلامٍ من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

والحقيقَةُ أنَّ هذا قد لا يُؤْخَذُ من هذه الآية على وَجْهٍ يَسْلَمُ من الاعْتِرَاضِ، ولكن يُؤْخَذُ من القِصَّةِ في مَوْضِعٍ آخرَ؛ حيث قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣]، وَمَذْهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ في كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: أَنَّهُ حَقٌّ على حقيقَتِهِ، وأَنَّهُ تعالى يَتكَلَّمُ متى شَاءَ كيف شَاءَ بما شَاءَ، يَتكَلَّمُ بحَرْفٍ وصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَن كَلَّمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا تَجِدُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه القِصَّةِ لَمَّا كَلَّمَ مُوسَى قال له مُوسَى: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾.

وفي هذه القِصَّةِ: دليلٌ على أنَّ كَلامَ اللهِ يتعلَّق بمشيئَتِهِ، وليس كما أَطْلَقَهُ بعضُهم: قديمًا أَزَلِيًّا، بل إنَّ الصَّوَابَ في ذلك: أنَّ كَلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ باعْتِبَارِ أَصْلِهِ وجِنْسِهِ أَزَلِيٌّ أبديٌّ، لم يَزَلْ ولا يَزَالُ مُتكَلِّمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأَمَّا باعْتِبَارِ آحادِهِ فإنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بمشيئَتِهِ، متى شَاءَ تَكَلَّمَ بما يَشَاءُ، هذا هو الذي مَشَى عليه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ،

أَسْأَلُ اللهَ تعالى أن يَجْعَلَنا جميعًا من أهلِ السُّنَّةِ الُمتمَسِّكِينَ بها ظَاهِرًا وباطِنًا الُمجْتَمِعِينَ عليها؛ إنَّهُ جَوَادٌ كريمٌ.

٣- ومن فوائدِهِمَا: أنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ حين اتَّخَذُوا العِجْلَ من بعد مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانوا عَالِمِينَ بأنَّهم على غير هُدًى؛ لأنَّهم كانوا ظَالِمِينَ؛ فإنَّهم كانوا يَعْبُدُونَ اللهَ من قبلُ، وذَكَّرَهم هارُونُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنَّ رَبَّهم الرَّحْمَنُ عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّهم أصَرُّوا واسْتَمَرُّوا على ما هم عليه.

٤- ومن فوائدِهِمَا: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عَفَا عنهم بعد هذه الفِعْلَةِ القبيحَةِ، والظُّلْمِ العظيمِ؛ لعلَّهم يَشْكُرُونَ اللهَ.

٥- ومن فوائدِهِمَا: أنَّ الإنسانَ إذا مَنَّ اللهُ عليه بالعَفْوِ، ووَفَّقَهُ لِلتَّوْبَةِ، فإنَّهُ يَجِبُ أن يَشْكُرَ اللهَ على هذا التَّوْفيقِ، فكَمْ من إنْسَانٍ حُرِمَ التَّوْبَةَ، وأَصَرَّ على ما هو عليه من الذَّنْبِ حتى هَلَكَ!

٦- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثْبَاتُ الحِكْمَةِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أفْعَالِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فإنَّ (لعلَّ) هنا لِلتَّعْلِيلِ، ولا رَيْبَ أنَّ جميعَ أفْعَالِ اللهِ مَقْرُونَةٌ بحِكْمَتِهِ، وكذلك تَشْرِيعاتُهُ مَقْرُونَةٌ بحِكْمَتِهِ؛ لأنَّهُ جَلَّ وَعَلَا لا يَفْعَلُ شَيْئًا سَفَهًا، ولكنَّ الحِكْمَةَ إمَّا أن تكونَ مَعْلُومَةً لَنَا، وإمَّا أن تكونَ مَجْهُولَةً؛ لِقُصُورِنا عن إدْرَاكِها، أو تَقْصِيرِنا في طَلَبِها[1].

•● ● •

(١) لا يوجد في التسجيل الصوتي تعليق على الآية رقم (٥٣).

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

في هذه الآية يَذْكرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن نبيِّ اللهِ مُوسى ﷺ أَنَّهُ وَعَظَ قَوْمَهُ هذه المَوْعظَةَ العظيمةَ بهذا التَّلطُّفِ العظيمِ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾، وأيُّ ظُلمٍ أعظمُ من أن يتَّخذَ الإنسانُ معَ بارئِهِ وخالقِهِ إلهًا يعبدُهُ؟! فإنَّ هذا أظلمُ الظُّلمِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، فأعظمُ الظُّلمِ: أن يجحدَ الإنسانُ حقَّ ربِّهِ، حتَّى يجعلَ حقَّهُ لغيرِه، فيعبدَ غير اللهِ مِثْلَما يَعبُدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

يقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على لسانِ مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي: ارجعُوا إليه من معصيتِهِ إلى طاعتِهِ، ومن الإشْراكِ به إلى تَوْحيدِهِ، ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لِيقتُلْ بعضُكم بعضًا، وإنَّما عبَّرَ بقَتْلِ النَّفسِ؛ لأنَّ المؤمنَ أخُو المؤمنِ، فكأنَّهُ هو نفسُهُ، ولهذا قال اللهُ تعالى في قصَّةِ الإفكِ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور:١٢]، فأخُوك المؤمنُ بمنزلةِ نفسِكَ.

ثُمَّ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ على لسانِ مُوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: تَوْبتُكم إلى اللهِ بقَتْلِ أنفسكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾، وكلُّ إنسانٍ يُحبُّ أن يكونَ له الخَيْرُ عندَ بارئِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّهُ خالقُهُ المدبِّرُ له كما يشاءُ، فلمَّا قتلُوا أنفسهم تابَ اللهُ عليهم؛ إنَّهُ هو التَّوَّابُ الرَّحيمُ.

أحكامُ وفوائدُ هذه الآيةِ الكريمةِ:

١- أنَّ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَّرَ قَوْمَهُ بهذه الفِعْلَةِ القبيحةِ، وبما مَنَّ اللهُ عليهم به من التَّوْبةِ إليه، والتَّوْبةِ عليهم.

٢- ومن فوائدها: أنَّهُ ينبغي للدَّاعيةِ أن يتلطَّفَ معَ مَن يدعُوهُ، وأن يَذْكُرَ الألفاظَ التي تكـونُ سببًا في إقبال المدعُوِّ على الدَّاعي، وتقبُّلِـهِ ما يُوَجِّهُهُ إليه من النَّصيحةِ؛ لأنَّهُ قال لقَوْمِهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

٣- ومن فوائدها أيضًا: أنَّهُ ينبغي لِمَن ذَكَرَ الدَّاءَ أن يذكرَ الدَّواءَ؛ فإنَّ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا ذَكَرَ أنَّهم ظَلَمُوا أنفسَهم عَرَضَ عليهم الدَّواءَ بالتَّوْبةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهكذا ينبغي للدَّاعيةِ إذا ذَكَرَ الدَّاءَ والأمراضَ الدِّينيَّة التي في المجتمعِ أن يَذْكُرَ لهم الدَّواءَ وطريقَ الخلاصِ منها؛ حتَّى يجمعَ بين الأمرَيْنِ.

٤- ومن فوائدِ هذه الآية: بيانُ سَفَهِ بني إِسْرَائِيلَ الذين عبدُوا عِجْلًا صنعُوهُ بأَيْديهم من الذَّهبِ، وعرفُوا أنَّهُ تمثالٌ، وأنَّهُ لا يستحقُّ من الرُّبُوبيَّةِ شَيْئًا، ومع ذلك عَبَدُوهُ، وهذا دليلٌ على سَفَهِهم.

٥- ومن فوائدِ هذه الآية: وُجُوبُ التَّوْبةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾، حيث إنَّهُ هو البارئُ الذي خَلَقَ، فله الحقُّ علينا أن نَفِرَّ من معصيتِهِ إلى طاعتِهِ، والتَّوْبةُ لابُدَّ فيها من شُرُوطٍ خمسةٍ:

الشَّرطُ الأوَّلُ: أن يُخْلِصَ العبدُ التَّوْبةَ للهِ عَزَّوَجَلَّ، بأن يكونَ الحاملُ له علَيْها خَوْفَ اللهِ، ورجاءَ ثوابه، والخلاصَ من الذَّنبِ الذي وَقَعَ فيه.

الشَّرطُ الثَّاني: النَّدمُ، بحيث يتحسَّرُ على ما حَصَلَ منهُ من ذَنْبٍ، فلا يكونُ

الأمرُ عندَهُ على حدٍّ سواء، بل يتأسَّفُ ويتندَّمُ على ما حَصَلَ منهُ من الذَّنبِ.

الشَّرطُ الثَّالثُ: أن يُقْلِعَ عن الذَّنبِ في الحالِ، فإن كان مُتلبِّسًا بمُحَرَّمٍ تَرَكَهُ، وإن كان تاركًا لواجبٍ أتى به إن كان يُمكنُ تَدَاركُهُ، وإن لم يُمكن تَدَاركُهُ أتى ببَدَلِهِ إن كان له بدلٌ، وإلَّا كفَتْهُ التَّوْبةُ.

الشَّرطُ الرَّابعُ: أن يعزمَ على ألَّا يعُودَ إلى الذَّنبِ في المستقبلِ، فأمَّا إن قال: أنا تائبٌ إلى اللهِ، وفي نيَّتِهِ أنَّهُ متى سَنَحَت له الفرصةُ عادَ إلى الذَّنبِ؛ فإنَّهُ ليس بتائبٍ حقيقةً.

الشَّرطُ الخامسُ: أن تكونَ التَّوْبةُ في الوقتِ الذي تُقبَل فيه التَّوْبةُ، وذلك بأن تكونَ قبل طُلُوعِ الشَّمسِ من مغربها، وقبلَ حُضُورِ الأجلِ؛ لأنَّهُ إذا طلعت الشَّمسُ من مَغْربها فلا تَوْبةَ، وإذا حَضَرَ الأجلُ فلا تَوْبةَ، قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[1]، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨].

٦- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: بيانُ مِنَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على هذه الأُمَّةِ؛ حيث جَعَلَ تَوْبةَ بني إِسْرَائِيلَ بهذا الثِّقَلِ وهذه الآصَارِ، وأنَّهُ لا تتحقَّقُ تَوْبتُهم إلَّا إذا قتَلُوا أنفسهم، أمَّا هذه الأُمَّةُ -وللهِ الحمد- فإنَّ التَّوْبةَ تحصلُ بدُونِ ذلك، تحصلُ بما ذكرنا من الشُّرُوطِ، وإن لم يُحْدِث الإنسانُ ضررًا على نفسِهِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟، رقم (٢٤٧٩)، وأحمد (٤/ ٩٩) من حديث معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٧- ومن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ: أنَّ الإقلاعَ عن الذَّنبِ والتَّوْبةَ إلى اللهِ منه خَيْرٌ من الاستمرارِ عليه، بل قد يكونُ الإنسانُ بعد التَّوْبةِ خَيْرًا منه قبلَها، أي: أنَّ الإنسانَ إذا أذْنَب، ثُمَّ تابَ إلى اللهِ، فإنَّهُ قد تكونُ حالُهُ بعد التَّوْبةِ من هذا الذَّنبِ خَيْرًا من حالِهِ قبلَ أن يُذنبَ، ألم ترَ إلى آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين أَكَلَ من الشَّجرةِ، قال اللهُ تعالى في حقِّهِ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، فحصلَ له الاجتباءُ والهدايةُ بعد أن تابَ من تلك المعصيةِ.

٨- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: بيانُ مِنَّةِ اللهِ على عِبادِهِ؛ حيث يَقْبلُ منهم التَّوْبةَ إذا صدَقُوا اللهَ تعالى في التَّوْبةِ؛ ولهذا لَـمَّا صدَقَ بنُو إِسْرَائِيلَ في التَّوْبةِ، وقَتَلُوا أنفسهم، تابَ اللهُ عليهم، أي: قَبِلَ تَوْبتَهم، وعفا عنهم.

٩- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: إثباتُ هذَيْنِ الاسمَيْنِ الكريمَيْنِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وهما: (التَّوَّابُ) و(الرَّحيمُ)، وأنَّ من مُقتضاهما أن يتُوبَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على مَن تابَ ويرحمُهُ، فالتَّوَّابُ: كثيرُ التَّوْبةِ على عبادِهِ، فما أكثَرَ ما تابَ اللهُ على عبادِهِ، وما أكثرَ الذين يتُوبُونَ إلى اللهِ، فيتُوبُ اللهُ عليهم!

أمَّا الرَّحيمُ فهو ذُو الرَّحمةِ المقتضيةِ للإحسانِ إلى الخَلْقِ إحسانًا عامًّا، كما في الرَّحمةِ العامَّةِ، وإحسانًا خاصًّا، كما في الرَّحمةِ الخاصَّةِ.

واعلم أنَّ الرَّحمةَ تنقسمُ إلى قسمَيْنِ: رحمةٍ عامَّةٍ، ورحمةٍ خاصَّةٍ، فالعامَّةُ: هيَ الشَّاملةُ لكلِّ الخَلْقِ، مُؤمنِهم وكافرِهم، بَرِّهم وفاجرِهم، والرَّحمةُ الخاصَّةُ: هي الرَّحمةُ بالمؤمنينَ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، وهذه رحمةٌ خاصَّةٌ تتَّصلُ بها سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

في هذه الآياتِ يُذَكِّرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بني إِسْرَائِيلَ بما جرى منهم، وبما كان من إحسانِ اللهِ تعالى إليهم.

فأمَّا الذي جرى منهم فإنَّهم قالُوا لُموسى -وهو يُكلِّمُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بما شاءَ اللهُ من الوحيِ- قالُـوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: لن نُؤمنَ لك أنَّك تُكلِّمُ اللهَ حتَّى نرى اللهَ جهرةً، أي: عِيانًا، وهذا غايةٌ في العِنادِ والاستكبارِ والتَّكذيبِ، فلمَّا قالُوا هذه المقالةَ العظيمةَ صَعِقُوا، أَخَذَهم المَوْتُ، فماتُوا جميعًا.

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَنَّ عليهم، فبعَثَهم، أي: أَحْيَاهم من بعد مَوْتهم؛ لأنَّ مُوسى دعا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ففرَّجَ اللهُ عنهم، ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥]، فبعَثَهم اللهُ من بعدِ المَوْتِ؛ لعلَّهم يشكرُونَ هذه النِّعمةَ إذا ذَكَرُوها.

والشُّكرُ: هو القيامُ بطاعةِ المُنْعِمِ، وليس الشُّكرُ مُجرَّدَ قَوْلِ القائلِ: أَشْكُرُ اللهَ؛ لأنَّ القَوْلَ باللِّسانِ إن لم يُصدِّقهُ العملُ والاعتقادُ صارَ قَوْلًا لا فائدةَ منهُ.

قال أهلُ العلمِ: والشُّكرُ يكونُ بالقلبِ، وباللِّسانِ، وبالجوارحِ، فأمَّا شُكْرُ القلبِ فأن يَعْتَرفَ الإنسانُ بقلبه أنَّ هذه النِّعمةَ من فضلِ اللهِ وَحْدَهُ، وليست بحَوْلِ المرءِ وقُوَّتِهِ.

وأمَّا شُكْرُ اللهِ باللِّسانِ فالتَّحدُّثُ بهذه النِّعمةِ؛ إظهارًا لفضلِ اللهِ، لا افتخارًا على عبادِ اللهِ، ويشملُ أيضًا جميعَ ما يتكلَّمُ به العبدُ ممَّا يُقَرِّبُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا الشُّكرُ بالجوارحِ فأن يقُومَ الإنسانُ بالعملِ الصَّالحِ بجوارحِهِ: اليدَيْنِ، والرِّجلَيْنِ، والعَيْنَيْنِ، وغير ذلك من أعضائِهِ وجوارحِهِ، وفي هذا يَقُولُ الشَّاعرُ:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا[(١)]

ثمَّ يُذَكِّرُهم اللهُ تعالى نعمةً ثانيةً بعد أن أحْيَاهم من تلك الصَّعقةِ، وهي: أنَّهُ ظلَّلَ عليهم الغمامَ من حرِّ الشَّمسِ، فصارُوا في ظلٍّ باردٍ، والغمامُ كما قال أهلُ العلمِ: هو السَّحابُ الأبيضُ الحاجبُ من حرِّ الشَّمسِ، وأنزل عليهم المَنَّ والسَّلْوَى، فالمنُّ: طعامٌ يجدُونَهُ مُنتشرًا على رُؤُوسِ الشَّجرِ كأنَّهُ العَسَلُ، فيأكلُونَهُ، والسَّلوى: هو الطَّائرُ المعرُوفُ بالسُّمانى، وهو من ألذِّ الطُّيُورِ لحمًا.

وسُمِّيَ المنُّ: منًّا؛ لأنَّهُ يحصلُ بدُونِ تعبٍ ولا مشقَّةٍ، ومنه: الكَمْأةُ؛ وهي الفَقْعُ؛ لقول النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ**»[(٢)]، وهي

---

(١) انظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤) غير منسوب.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، رقم (٤٤٧٨)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة، رقم (٢٠٤٩) من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإن لم تَكُن من المنِّ الذي نَزَلَ على بني إِسْرَائِيلَ، فهي من المَنِّ بالمعنى العامِّ؛ لأنَّها تُوجَدُ في الأرضِ بدُونِ غَرْسٍ، ولا بَذْرٍ، ولا تَعَبٍ في سقيٍ وغيرِه.

ثمَّ امتنَّ اللهُ عليهم مِنَّةً ثالثةً بأن يسَّرَ لهم أَكْلَ هذه الطَّيِّباتِ، فقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وهذه منَّةٌ ثالثةٌ؛ لأنَّ الإنسانَ رُبَّما يتيسَّرُ له الطَّعامُ والشَّرابُ، ولكن لا يتمكَّنُ من أكْلِهِ وشُرْبه لعلَّةٍ فيه، فلا يحصلُ به كمالُ المنَّةِ، وربَّما يُحْرَمُ من الطَّعامِ والشَّرابِ لقِلَّتها، المهمُّ: أنَّ إيجادَ الطَّعامِ أو الشَّرابِ نعمةٌ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ قُدرةَ الإنسانِ على تناولِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وتلذُّذَهُ بذلكَ، وانتفاعَهُ به، من نعمةِ اللهِ تعالى أيضًا؛ ولهذا قال: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: من طيِّباتِ ما أعطَيْناكم.

ثمَّ قال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: ما ظلمُونا بمعاصيهم؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن يَعْبأَ بأحدٍ، ولن يتضرَّرَ بمعصيةِ العاصينَ، ولن ينتفعَ بطاعةِ الطَّائعينَ؛ كما جاءَ في الحديثِ القدسيِّ: «**يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**»[1]، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ولكن كانُوا يظلمُونَ أنفسهم، فالإنسانُ المُفَرِّطُ في حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ليس ظالِمًا للهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا تنقصُهُ ولا تضرُّهُ معصيةُ العاصينَ، ولا تنفعُهُ طاعةُ الطَّائعينَ، ولكنَّهُ قد ظَلَمَ نفسَهُ وهَضَمَها ونَقَصَها حقَّها؛ فإنَّ النَّفسَ أمانةٌ عندَ الإنسانِ، يجبُ عليه أن يَرْعَاها حقَّ رِعَايتها، وألَّا يُوقِعَها في المَهالِك.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر -رضي الله تعالى عنه-.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١- عُتُوُّ بني إِسْرَائِيلَ، وشدَّةُ عِنَادهم وتكْذِيبِهم؛ حيث قالُوا لنبيِّهم وهم يَسْمَعُونَ كلامَ اللهِ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، وهذا غايةُ ما يكونُ في الطُّغيانِ والعِنَاد.

٢- ومن فوائدها: أنَّ الإنسانَ إذا فعَلَ الجُرْمَ العظيمَ والمُنْكَرَ الكبيرَ فقد يُعاجَلُ بالعقُوبةِ؛ ولهذا عَاجَلَ اللهُ بني إِسْرَائِيلَ الذين قالُوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، فعَاقَبَهم بالصَّعقِ، فصَعِقُوا في حالِ قَوْلهم هذا، ولهذا جاءَ بالفاءِ الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ في قَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾.

٣- ومن فوائدها: بيانُ قُدرةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على إحياءِ المَوْتى؛ حيث أحيا هؤلاءِ من مَوْتهم؛ بدليلِ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

٤- ومن فوائد هذه الآيات: أنَّ الصَّاعقةَ أَخذَتْهم وهم ينظرُونَ، أي: ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ يقعُ ميِّتًا، حتَّى ماتُوا عن آخِرِهم، أي: ماتَ جميعُ مَن تكلَّمُوا بهذا القَوْلِ، أو رَضُوا به في ذلك المكانِ.

٥- ومن فوائدها: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُنْعِمُ على العبدِ برفعِ الضَّررِ عنه؛ من أجلِ أن يَشْكُرَ نعمةَ اللهِ؛ فإنَّ أسبابَ شُكرِ نعمةِ اللهِ إمَّا خَيْرٌ يَجْلِبُهُ اللهُ لكَ، وإمَّا شرٌّ يدفعُهُ اللهُ عنكَ، والذي حَصَلَ لهؤلاءِ: دفعُ شرٍّ، وحصُولُ خَيْرٍ:

- دفعُ شرٍّ برفعِ المَوْتِ عنهم.
- وحصُولُ خَيْرٍ بإحيائهم من بعد مَوْتهم.

٦- ومن فوائدها: إثباتُ حكمةِ اللهِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقد سَبَقَ مرارًا ما يدلُّ على إثباتِ الحكمةِ في أفْعَالِ اللهِ تعالى كما هيَ ثابتةٌ فيما شرَعَهُ، ولهذا يختمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كثيرًا من آياتِ الأحكام بالعلم والحكمةِ، كما في آيةِ قَسْمِ الصَّدقاتِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠]، وكما في آيةِ المواريثِ: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١١].

٧- وفي هذه الآية من الفوائدِ: بيانُ نعمةِ اللهِ تعالى على بني إِسْرَائِيلَ بتَظْلِيلِهم بالغمامِ من حرِّ الشَّمسِ، والغمامُ: هو السَّحابُ الأبيضُ، وهو من أبْردِ السَّحابِ ظِلًّا.

٨- ومن فوائدها أيضًا: بيانُ قُدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ كُلَّ شيءٍ يكونُ فبمشيئتِهِ، فالسَّحابُ المسخَّرُ بين السَّماءِ والأرضِ لا يجري إلَّا بأمرِ اللهِ وتَدْبيرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يخفى على كثيرٍ من النَّاسِ ما جرى للرَّجُلِ الذي سَمِعَ قائلًا من السَّحابِ يقُولُ: اسقِ حديقةَ فُلانٍ! فنزلَ المطرُ على أرضٍ، وسالَ الوادي إلى هذه الحديقةِ، فتابعَهُ هذا الرَّجلُ الذي سَمِعَ الصَّوْتَ من السَّحابِ حتَّى وَصَلَ إلى صاحبِ الحديقةِ، وسَأَلَهُ: ماذا يصنعُ فيها؟ فقال له: إنِّي أُقَسِّمُ رَيْعَها ثلاثةَ أقسامٍ: فثُلُثٌ أُعيدُهُ فيها -يعني: يُصلحها به- وثُلُثٌ لي ولعيالي، وثُلُثٌ أتصدَّقُ به، ثُمَّ سأله صاحبُ الحديقةِ عن سببِ سُؤالِهِ إيَّاه، فأخبرَهُ أنَّهُ سَمِعَ صَوْتًا في السَّحابِ يقُولُ: اسْقِ حديقةَ فُلانٍ![1]

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب فضل الإنفاق على المساكين، رقم (٢٩٨٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ففي هذا دليلٌ على أنَّ السَّحابَ المسخَّرَ بين السَّماءِ والأرضِ يسيرُ بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأَمْرِهِ.

٩- ومن فوائدَ الآيةِ الكريمةِ: ما مَنَّ اللهُ به على بني إِسْرَائِيلَ من إنزالِ المنِّ والسَّلوى، هذا الطَّعامِ الطَّيِّبِ اللَّذيذِ الذي يأخذُونَهُ بدُونِ كُلْفَةٍ ومشقَّةٍ.

١٠- ومن فوائدها: أنَّ اللهَ تعالى أنعمَ عليهم بتَيْسيرِ الحصُولِ عليه، والتَّمتُّعِ به؛ حيث قال: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وهذا الأمرُ للامتنانِ والإباحةِ.

١١- ومن فوائدها: أنَّ اللهَ إنَّما أذِنَ لعِبادِهِ أن يأكلُوا من الطَّيِّباتِ دُونَ الخبائثِ، والخبائثُ: كُلُّ ما حَرَّمَهُ اللهُ على العبادِ، فهو خبيثٌ لا ينتفعُونَ به، ولكن رُبَّما يُحرِّمُ اللهُ على عبادِهِ بعضَ الطَّيِّباتِ عُقُوبةً لهم، كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٦٠-١٦١]، وقد يُحْرَمُ الإنسانُ من الطَّيِّباتِ لا تَحْرِيمًا شرعيًّا، ولكن بما يُصابُ به من الأمراضِ التي تجعلُهُ لابُدَّ أن يَحْتَمِيَ من بعضِ المأكُولاتِ والمشرُوباتِ، وهذا نَوْعٌ من التَّحريمِ، لكنَّهُ تحريمٌ كونيٌّ لا شرعيٌّ، فقد يُبْتَلى الإنسانُ العاصي بأمراضٍ تمنعَهُ من التَّمتُّعِ بالطَّيِّباتِ التي أحلَّها اللهُ له.

١٢- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: أنَّ ما نتمتَّعُ به من مأكُولٍ ومشرُوبٍ فإنَّما هو رزقٌ من اللهِ وعطاءٌ منه ومِنَّةٌ، ليس بحَوْلِنا وقُوَّتنا، وقد أشارَ اللهُ تعالى إلى ذلك في سُورةِ الواقعةِ، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

[الواقعة:٦٣-٦٧]، ومن المعلُومِ أنَّنا لَسْنا الذين نزرعُهُ ونُنَمِّيهِ، ولكن الذي يَزْرَعُهُ ويُنَمِّيهِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أمَّا نحنُ فمِنَّا السَّببُ، واللهُ هو المُسَبِّبُ جَلَّوَعَلَا.

ثُمَّ قال تعالى في سُورةِ الواقعةِ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٦٨-٧٣]، فإذا عَلِمَ العبدُ أنَّ ما يتمتَّعُ به من النِّعمة هو من رزقِ اللهِ أوجبَ له ذلك الشُّكرَ للهِ عَزَّوَجَلَّ على هذه النِّعَمِ، وأَوْجَبَ له أن يتبرَّأَ من حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ بإيجادِ هذه الأرزاقِ، وأَوْجَبَ له أن يعرفَ قدرَ نعمةِ اللهِ عليه بهذه الأرزاقِ التي قد يكونُ كثيرٌ من النَّاسِ محْرُومًا منها.

١٣- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لن يَنْقُصَهُ معصيةُ العاصينَ، ولن يَضُرَّهُ ذلك؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، فالإنسانُ مهما كان عليه من معصيةٍ فإنَّهُ لن يَنْقُصَ اللهَ شَيْئًا، ولن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

١٤- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: أنَّ العاصيَ ظالمٌ لنفسِهِ، مُعْتدٍ علَيْها، غير قائمٍ بما يجبُ لها؛ لأنَّ نَفْسَك أمانةٌ عندكَ، فكما أنَّهُ يجبُ علَيْك أن تَتَوقَّى ما يضرُّ بدنك حِسًّا، فإنَّهُ يجبُ علَيْك أن تتوقَّى ما يضرُّ دِينَكَ، ومن المعلُومِ أنَّهُ لا يجُوزُ للإنسانِ أن يُلقيَ بنفسِهِ إلى التَّهلُكةِ في الأُمُورِ الحسِّيَّةِ، كالأشياءِ التي تضرُّهُ في بدنِهِ؛ كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، وقَالَ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، فكذلك أيضًا لا يجُوزُ له أن يُلقيَ بنفسِهِ إلى التَّهلُكةِ فيما يضرُّهُ

في دينِهِ، بل إنَّ ما يضرُّهُ في دينِهِ أولى بالمُراعاةِ ممَّا يضرُّهُ في بدنِهِ؛ لأنَّ ضَرَرَ الدِّينِ ضررٌ في الدُّنيا والآخرةِ، أمَّا ضررُ البدنِ فهو ضررٌ في الدُّنيا فقط.

١٥- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: بيانُ قُصُورِ الآدميِّ، وأنَّهُ عَدُوُّ نفسِهِ، يَظْلِمُ نفسَهُ، وهو لا يشعرُ أنَّهُ ظالمٌ لنفسِهِ؛ لقول اللهِ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٦- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: أنَّهُ ينبغي للإنسانِ -بل يجبُ عليه- أن يتبصَّرَ، ويتَّعظ، وينظرَ مدى الخسارةِ العظيمةِ التي تَلْحقُهُ بفِعْلِ المعاصي أو تَرْكِ الواجباتِ حتَّى يَحْمِيَ نفسَهُ من هذا الظُّلمِ، وهذا الضَّررِ، أَسْأَلُ اللهَ تعالى أن يجعلنا جميعًا من المُعْتَبِرين بالمواعظِ المُتَّقينَ الذين لا خَوْفٌ عليهم، ولا هم يَحْزَنون.

• ● ● •

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ يُذَكِّرُ اللهُ بني إِسْرَائِيلَ بهذه النِّعمةِ التي أنعمَ اللهُ بها عليهم، ولكنَّهم كفَرُوها، فيقُولُ لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وهذا القَوْلُ يحتملُ أن يكونَ قَوْلًا كونيًّا أو قَوْلًا شرعيًّا، ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وهي القريةُ التي فتحُوها، قيلَ لهم: ادْخُلُوها، ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ حلالًا لكم، ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ سُجَّدًا للهِ

تعالى شاكرينَ له هذه النِّعمةَ العَظِيمَةَ التي مَنَحَكم إيَّاها، ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي: قُولُوا: احْطُط عنَّا ذُنُوبَنا، واغْفِرْ لنا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي: نغفرْ لكم آثامَكم وذنُوبَكم التي ارتكبتمُوها، ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إحسانًا على التَّوْبةِ إذا أَحْسَنُوا في مُعاملةِ اللهِ.

ولكن كانت النَّتيجةُ أنْ بَدَّلَ الذين ظَلمُوا قَوْلًا غير الذي قيلَ لهم، وقال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، ولم يَقُلْ: «بدَّلتُم»؛ إشارةً إلى أنَّهم كانُوا ظالمينَ فيما بدَّلوه.

بدَّلُوا قَوْلًا غير الذي قيلَ لهم، فقيلَ لهم: ادْخُلُوا البابَ سُجَّدًا، ولكنَّهم لم يدخلُوا سُجَّدًا، بل دَخَلُوا على أسْتَاههم، أي: على أَلْيَاتهم وعَجَائزهم، وقيلَ لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي: احْطُط عنَّا ذُنُوبنا، ولكن لم يقُولُوا ذلك، بل قالُوا: حِنْطَة، أي: سألُوا طعامًا يَمْلؤُونَ به بُطُونهم، فلمَ يسألُوهُ مغفرةً لذنُوبهم.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: عليهم، ولكنَّهُ كرَّرَ الظُّلْمَ تشنيعًا عليهم، ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذابًا من السَّماءِ، ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسببِ فِسْقِهم وخُرُوجهم عن طاعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ففي هاتَيْنِ الآيتَيْنِ يُذكِّرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بني إِسْرَائِيلَ بما أَنْعَمَ عليهم من إباحةِ دُخُولِ هذه القريةِ فاتِحينَ آكلينَ ممَّا رَزَقَهم اللهُ أَكْلًا رَغَدًا لا شُبهةَ فيه.

ويُذَكِّرُهم أيضًا بأنَّهُ أَمَرَهم بما فيه مَصْلحتُهم وحُسْنُ عاقبتهم، وهو أن يقُولُوا: «حِطَّة» أي: احطط عنَّا ذُنُوبنا واغفر لنا؛ حتَّى يُغْفَرَ لهم.

ثُمَّ يُذكِّرهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّهم بدَّلُوا قَوْلًا غير الذي قيلَ لهم، فلم يَدْخُلُوا سُجَّدًا،

ولم يقُولُوا: حِطَّة؛ ظُلمًا وعُدْوَانًا وإنكارًا لفضلِ اللهِ تعالى عليهم ونعمتِهِ، فكانت عاقبتُهم أن أنزلَ اللهُ عليهم رجزًا من السَّماءِ؛ بسببِ فِسْقِهم وخُرُوجهم عن طاعةِ اللهِ.

ما يُسْتَفاد من هذه الآيَة الكريمَة:

١- مِنَّةُ اللهِ على بني إِسْرَائِيلَ بما أباحَ لهم من دُخُولِ هذه القريةِ، وما أباحَ لهم من أكْلِ ما رَزَقَهم منها رَغَدًا ليس فيه حَرجٌ ولا تَبِعَةٌ.

٢- ومن فوائدها أيضًا: أنَّ اللهَ أَمَرَهم بأن يدخلُوا البابَ سُجَّدًا، ويتفرَّعُ عن هذا: مشرُوعيَّةُ سُجُودِ الشُّكرِ عندَ تجدُّدِ النِّعمِ، كما هو المَشْرُوعُ في شريعتنا: أنَّ الإنسانَ إذا تجدَّدت له نعمةٌ فإنَّهُ يُسَنُّ له أن يسجدَ للهِ تعالى شُكرًا.

وسجُودُ الشُّكرِ سُجُودٌ مُجَرَّدٌ ليس صلاةً، بل يُكَبِّرُ الإنسانُ، ويسجدُ، ويقُولُ: «سُبحانَ ربِّيَ الأعلى، سُبحانك اللهُمَّ ربَّنا وبحمدكَ، اللهُمَّ اغفر لي»، ثُمَّ يُثْنِي على اللهِ تعالى بما أَنْعَمَ به من هذه النِّعمةِ، ويَشْكُرُهُ علَيْها، ثُمَّ يرفعُ بدُونِ تكبيرٍ ولا تسليمٍ.

٣- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: أنَّهُ ينبغي للإنسانِ إذا نَصَرَهُ اللهُ ويسَّرَ له أسبابَ النَّصرِ ألَّا يَغْتَرَّ بنفسِهِ، وألَّا يُعْجَبَ بعملِهِ، بل يسأَلُ اللهُ مغفرةَ الذُّنُوبِ؛ حتَّى لا يَشْمَخَ ويتعالى ويترفَّعَ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾.

٤- ومن فوائدِ هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ مَن استغفرَهُ وطلبَ منه مغفرةَ الذُّنُوبِ أن يَغفِرَ له؛ لقَوْلِهِ: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، وهذا مَشْرُوطٌ بما إذا كانت التَّوْبةُ نَصُوحًا، وقد سَبَقَ بيانُ التَّوْبةِ النَّصُوحِ، وهي التي جمعت خمسةَ شُرُوطٍ[1].

---

(١) انظر: (ص:١٦٥).

٥- ومن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ: أنَّ اللهَ تعالى يزيدُ المُحْسِنينَ من فضْلِهِ إحْسَانًا وفَضْلًا، وهذا كقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]، وكقَوْلِهِ تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠]، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَكْرَمُ من عبدِهِ وأَجْزلُ عطاءً: الحسنةُ بعشرِ أمثالها، إلى سبع مئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

٦- ومن فوائدِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: أنَّ بني إِسْرَائِيلَ من أبْعدِ النَّاسِ عن شُكرِ نعمةِ اللهِ، ولهذا بدَّلُوا قَوْلًا غير الذي قيلَ لهم، فبدَّلُوا قَوْلَ اللهِ لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ بدَّلُوهُ بأن دَخلُوا يَزْحَفُونَ على أَسْتَاهِهم وعَجَائِزِهم، وبدَّلُوا قَوْلَ اللهِ تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ بقَوْلهم: «حِنْطة»، يعني: أنَّهم لم يهتمُّوا بذُنُوبهم، وإنَّما كان همُّهم أمرًا ماديًّا، وهو أن يُشْبِعُوا بُطُونَهم.

٧- ومن فوائدِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: أنَّ مَن خالفَ أمرَ اللهِ فإنَّهُ حريٌّ بأن يُعَذَّبَ ويُعاقَبَ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

٨- ومن فوائدِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: إثباتُ الحكمةِ والعِلَّةِ لأفعالِ اللهِ، وأنَّ أفعالَ اللهِ تعالى مربُوطةٌ بحِكَمِها وأَسْبَابِها؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ فإنَّ قَوْله: ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كالتَّعليلِ لإنزالِ الرِّجزِ، أي: أنَّهم إنَّما أُنْزِلَ عليهم الرِّجزُ لظُلْمِهم، وعلَّةٌ أُخرى، وهي فِسْقُهم؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

٩- ومن فوائدِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: إثباتُ الأسبابِ المُقْتضياتِ لمسبَّباتها، وهذا لا شكَّ من تمامِ حِكْمَةِ اللهِ أنْ رَبَطَ الأشياءَ بأسبابها، وهو دليلٌ على أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ

لا يَخْلُقُ خلْقًا عبثًا، ولا يَشْرَعُ تشريعًا باطـلًا، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

في هذه الآية الكريمةِ يُذكِّرُ اللهُ تعالى بني إِسْرَائِيلَ بهذه النِّعمةِ العظيمةِ التي يُجْرِيها على يدِ نبيِّهم مُوسى ﷺ، فبَيْنما كان مُوسى وقَوْمُهُ مُحتاجينَ إلى الماءِ استسقى مُوسى لقَوْمِهِ، فسَأَلَ اللهَ تعالى أن يَسْقِيَهم، فأَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَضْرِبَ بعَصَاهُ الحجرَ، فضَرَبَ الحجرَ، فانفجرت منه اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا، حَجَرٌ واحدٌ نَبَعَت منه اثنتا عَشْرةَ عَيْنًا على عددِ أَسْبَاطِ بني إِسْرَائِيلَ؛ فإنَّهم كانُوا اثنَيْ عَشَرَ سِبْطًا، هذه العُيُون تَوَزَّعت، فعَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبهم، هؤلاءِ مَشْرَبُهم هذه، وهؤلاءِ مَشْرَبُهم هذه، وهؤلاءِ مَشْرَبُهم هذه؛ لئلَّا يَحْصُلَ التَّزاحمُ بَيْنهم، والتَّقاتُلُ على الماءِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فأباحَ اللهُ لهم -امتنانًا منه، وفَضْلًا- أن يأكلُوا ويشربُوا من رزقِ اللهِ، وأن يُقيِّدُوا هذه النِّعَمَ بشُكْرِها، فلا يَعْثَوا في الأرضِ مُفسدينَ.

وإفسادُ الأرضِ ليس الإفسادَ الحسِّيَّ الذي يكونُ بتدميرِ الدِّيارِ، وتخريبِ الآبارِ والحُرُوثِ، ولكنَّهُ بالمعاصي، كما قال كثيرٌ من السَّلفِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ

﴿فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، قال: لا تُفْسِدُوها بالمعاصي. ولا شكَّ أنَّ المعاصيَ سببٌ في الدَّمارِ والفسادِ الحسِّيِّ؛ لقول اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]؛ ولقَوْلِهِ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

فوائدُ وأحكامُ هذه الآيةِ الكريمةِ:

١- افتقارُ الخَلْقِ إلى اللهِ، ولو كانُوا أعْلَى أصنافِ الخَلْقِ، وهم الرُّسُلُ، ولهذا استسقى مُوسى لقَوْمِهِ، واستسقى أشرفُ الأنبياءِ مُحَمَّدٌ ﷺ لقَوْمِهِ حين دَخَلَ رجلٌ يَوْمَ الجُمُعةِ، والنَّبيُّ ﷺ يخطبُ، فقال: يا رسُولَ اللهِ! هَلَكت الأموالُ، وانْقَطعت السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ يُغِثْنا! فرفعَ رسُولُ اللهِ ﷺ يدَيْهِ، ورفعَ النَّاسُ أَيْدِيهم، وقال: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا» ثلاثَ مرَّاتٍ، قال أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو راوي الحديثِ: واللهِ ما نرى في السَّماءِ من سحابةٍ ولا قَزَعَة[1]، وما بيننا وبين سَلْعٍ من بَيْتٍ ولا دارٍ -وسَلْعٌ: جبلٌ صغيرٌ في المدينةِ، تخرجُ من نحوِهِ السَّحابُ- قال: فطلعت من ورائِهِ سحابةٌ مثلُ التُّرسِ -والتُّرسُ: شيءٌ يُشبهُ الطَّستُ يتَّقي به المقاتلُ السِّهامَ حين القتالِ؛ حتَّى لا تُصيبَهُ- فلمَّا توسَّطت السَّماءَ انتشرت، وتَوَسَّعت، ورَعَدَت، وبَرَقَت، ثُمَّ أَمْطَرت، فما نَزَلَ النَّبيُّ ﷺ عن المنبرِ إلَّا والمطرُ يَتَحَادر من لحيتِهِ، اللهُ أكبرُ! فبقيَ المطرُ أُسبُوعًا كاملًا، وسالت الأوديةُ، حتَّى سالَ وادي قَنَاة -وهو وادٍ مشهُورٌ في المدينةِ حتَّى الآنِ- سال شهرًا كاملًا.

---

(١) القزعة: هي القطعة من السحاب.

وفي الجُمُعةِ الثَّانيةِ دخلَ رجلٌ أو الرَّجلُ الأوَّلُ، والنَّبيُّ ﷺ يخطبُ، فقال: يا رسُولَ اللهِ! غَرِقَ المالُ، وتهدَّمَ البناءُ، فادعُ اللهَ يُمْسِكْها عنَّا! فرفعَ النَّبيُّ ﷺ يدَيْهِ، وقال: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا**»، ولم يَقُلْ: اللهُمَّ أمْسِكْها عنَّا كما طَلَبَ الرَّجلُ؛ لأنَّ إمساكَ المطرِ ليس من مَصْلَحةِ الإنسانِ، ولكن من مصلحتِهِ: أن ينزلَ المطرُ على وجهٍ لا ضَرَرَ فيه، فقال: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا**»، وجعلَ يُشيرُ إلى النَّوَاحي بيدِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيتمايزُ السَّحابُ حيث أشارَ النَّبيُّ ﷺ، وخرجَ النَّاسُ يمشُونَ في الشَّمسِ[1].

ففي هذه القصَّةِ، وفي قصَّةِ مُوسى -صلَّى اللهُ عليه وعلى نبيِّنا وسلَّمَ- دليلٌ على أنَّ الخَلْقَ مُفْتَقِرُونَ إلى اللهِ مهما بلغت منزلتُهم عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ مُوسى قال اللهُ عنه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩]، ومُحَمَّدٌ ﷺ أعظمُ النَّاسِ وجاهةً عندَ ربِّهِ، ومع ذلك كُلٌّ منهما مُفْتَقِرٌ إلى اللهِ، يسألُهُ ويَلْجأُ إليه، ويتضرَّعُ إليه، فإذا كان هذا مقامَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فما بالُك بمقامِ مَن دُونهم؟!

ويتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ: أنَّهُ يجبُ على الإنسانِ إذا أصابَهُ الضُّرُّ ألَّا يلجأَ إلَّا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا يَلْجأُ إلى فُلانٍ وفلانٍ من الأحياءِ أو الأمواتِ، فيَدْعُوهم ويَسْتَغِيثُهُم، ويَسْأَلُهم كشفَ الضُّرِّ؛ فإنَّ دعوةَ غيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ شِرْكٌ أَكْبَرُ مُخرجٌ عن المِلَّةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٢]، أي: ليس هُناك إلهٌ معَ اللهِ يستطيعُ هذا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٢- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: بيانُ ما حَصَلَ من عصا مُوسى من الآياتِ؛ حيث ضَرَبَ بها الحجرَ، فانفجرَ عُيُونًا، وهذه العصا حَصَلَ فيها ثلاثُ آياتٍ عظيمةٍ:

إحدى الآياتِ: أَنَّهُ إذا أَلْقَاها صارت حيَّةً تسعى.

والآيةُ الثَّانيةُ: أَنَّهُ ضَرَبَ بها هذا الحجرَ، فانفجرَ عُيُونًا.

والآيةُ الثَّالثةُ: أَنَّهُ ضَرَبَ بها البحرَ، فانفلقَ، فكان كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيمِ.

٣- ومن فوائدِ هذه الآية: بيانُ عِظَمِ قُدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حيث تَفَجَّرَ من هذا الحجرِ الذي ضربَهُ مُوسى بالعصا اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا، والنَّاسُ ينظرُونَ، فهذا دليلٌ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ، وأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ إذا أرادَ شَيْئًا فإنَّما يقُولُ له: «كُن» فيكونُ.

قال أهلُ العلمِ: وما من آيةٍ لنبيٍّ إلَّا كان لنبيِّنا ﷺ مِثْلُها أو أعظمُ منها، إمَّا على يدِ النَّبيِّ ﷺ مُباشرةً، أو على يدِ أتباعِهِ الذين صَدَقُوا في اتِّباعِهِ، قالُوا: وهذا الماءُ الذي تفجَّرَ من الحَجَرِ لمُوسى ﷺ حَصَلَ لنبيِّنا ﷺ ما هو أعظمُ منه؛ فإنَّ النَّاسَ في غزوةِ الحُدَيْبيةِ أصابهم عطشٌ وقلَّةُ ماءٍ، فجاؤُوا إلى رسُولِ اللهِ ﷺ، وكان بين يدَيْهِ رَكْوَةٌ -إناءٌ صغيرٌ من جلدٍ- فقالُوا: يا رسُولَ اللهِ، عَطِشْنا! وشَكَوْا إليه قلَّةَ الماءِ، فوضعَ النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدَهُ في هذه الرَّكْوَة، وجعلت هذه الرَّكْوَة تفُورُ كأمثالِ العُيُونِ، فارتوى النَّاسُ كُلُّهم بإبِلِهم ورَجِلِهم، وكانُوا ألفًا وأربعَ مئةٍ أو قريبًا من ذلك[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٧٦) من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فخُرُوجُ هذا الماءِ ونبُوعُـهُ وفَورانُـهُ من هذه الرَّكْـوَة أعظمُ من خُرُوجِهِ من الحجرِ؛ لأنَّ الحجرَ جرت العادةُ أن تتفجَّرَ منه العُيُونُ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة:٧٤]، أمَّا الرَّكْوَة فلم تَجْرِ العادةُ أن تتفجَّرَ العُيُونُ منها، ولكنَّ اللهَ تعالى على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

٤- ومن فوائدِ هذه الآية: أنَّهُ ينبغي قَسْمُ الماءِ بين النَّاسِ عندَ الكَثْرةِ، وتَوْزيعُهُ عليهم؛ حتَّى لا يحصلَ الازدحامُ والاقتتالُ، أو العداوةُ والبغضاءُ بَيْنهم؛ لأنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولةٌ على محبَّةِ الاستئثارِ بالشَّيْءِ، فإذا توزَّعَ الشَّيْءُ، وصارَ كُلُّ طائفةٍ لهم جِهَةٌ مُعيَّنَةٌ مخصُوصةٌ، كان ذلك أقربَ إلى السَّلامةِ ممَّا يترتَّبُ من الآثارِ السَّيِّئةِ على اجْتِماعهم على مَشْرَبٍ واحدٍ.

٥- ومن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ: بيانُ ما امْتَنَّ اللهُ به على بني إِسْرائِيلَ من هذا الماءِ والطَّعامِ الذي أذِنَ لهم في أكْلِهِ وشُرْبِهِ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾.

٦- ومن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ: جوازُ إضافةِ الماءِ النَّابعِ إلى المُخْتَصِّ به؛ لقَوْلِهِ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، وفي هذه الإضافةِ فائدةٌ، وهي أنَّ صاحبَهُ يكونُ أحقَّ النَّاسِ به، ولا يُزَاحِمُهُ أحدٌ عليه، أمَّا جوازُ بَيْعِهِ وعَدَمُهُ فهذا له شأنٌ آخرُ.

٧- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: أنَّهُ يجبُ على المَرْءِ إذا أنْعمَ اللهُ عليه نعمةً أن يجعلَ النِّعمةَ سببًا للقيامِ بطاعتِهِ، لا سببًا للأَشَرِ والبَطَرِ؛ ولهذا أعقبَ قَوْله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أعْقَبَهُ بقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ لأنَّ الطَّبيعةَ

البشريَّةَ إذا لم يُؤَيِّدها اللهُ تعالى بالوحيِ فإنَّ من طَبِيعَتِها أن يَحْمِلها سَعَةُ الرِّزقِ على الأَشَرِ والبَطَرِ، ولهذا نهى بني إِسْرَائِيلَ عن العُتُوِّ في الأرضِ فسادًا، حيث يَسَّرَ لهم الأكلَ والشُّربَ من رزقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ويتفرَّعُ على هذا: أن يتذكَّرَ الإنسانُ ويُفكِّرَ فيما مَنَّ اللهُ عليه من النِّعمِ؛ حتَّى لا يجعلها سببًا للأَشَرِ والبَطَرِ، ونسيانِ أوَامرِ اللهِ، والكفرِ بشريعةِ اللهِ.

•●○●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

في هذه الآية يُذَكِّرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بني إِسْرَائِيلَ بما جرى لهم معَ نبيِّهم مُوسى ﷺ حين قالُوا له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، وهذا الطَّعامُ الواحدُ هو المَنُّ والسَّلْوَى الذي أنزله اللهُ علَيْهم بدُونِ كُلفةٍ وبدُونِ مشقَّةٍ، وهو من أطْيَب أنواعِ الطَّعامِ، لكنَّهم -والعياذُ باللهِ- لم يصبرُوا على هذه النِّعمةِ، وطلبُوا من مُوسى ﷺ أن يدعُوَ لهم ربَّهُ؛ ليُخْرِجَ لهم ممَّا تُنْبِتُ الأرضُ، لا ممَّا ينزلُ من المَنِّ والسَّلْوَى: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، وكُلُّ هذه الأنواعِ من الأطعمةِ هيَ أدْوَنُ بكثيرٍ ممَّا أنزلَ اللهُ علَيْهم من المنِّ والسَّلْوَى، ولهذا قال لهم نبيُّهم مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ

ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، وهذا الاستفهامُ للإنكارِ علَيْهم، يعني: كيف يليقُ بكم أن تستبدلُوا الذي هو أَدْنَى بالذي هو خَيْرٌ؟! أي: أن تأخذُوا الأدنى بالأعلى، هذا لا يليقُ بكم، وإذا شِئتُم هذا الأدنى فلا حاجةَ إلى دُعاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يُخرجَهُ لنا، ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ أي: أيَّ مِصْرٍ تهبطُونَهُ تجدُونَ هذا الشَّيْءَ؛ لأنَّ هذه الأنواع مُنتشرةٌ، لَيْست أنواعًا من أطيبِ الأنواعِ التي لا تُوجَدُ إلَّا في محلٍّ دُونَ محلٍّ، ولا يَقْدِرُ علَيْها إلَّا واحدٌ دون آخرَ، بل هيَ أنواعٌ مَوْجُودةٌ مبذُولةٌ؛ ولهذا قال: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾، وليس المراد: مصرَ المعيَّنَةَ، بل المراد: أيُّ مصرٍ كان تهبطُونَهُ فإنَّكم ستجدُونَ ذلك، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

ومن أجلِ عدمِ الصَّبرِ على طعامٍ واحدٍ، ومن أجلِ المعاصي العظيمةِ التي ارتكبُوها، ضُرِبَت علَيْهم الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ، فالذِّلَّةُ في القُلُوبِ، والمَسْكنةُ في الجوارحِ، فكانُوا أذلَّ النَّاسِ، وأَجْبَنَهُم، وأَخْوَفَهُم؛ ولهذا تجدُ اليهُودَ أذلَّ النَّاسِ وأجبنَهُم؛ لأنَّهم ضُرِبَت علَيْهم الذِّلَّةُ والمَسْكَنةُ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رَجَعُوا بغضَبٍ من اللهِ علَيْهم؛ حيث كَفَرُوا نعمتَهُ، وعصَوْا رَسُوله، ولم يَصْبِرُوا على نِعَمِهِ، قال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وعلَّلَ ذلك بقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يَكْفُرُونَ بآياتِ اللهِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، ففي الآياتِ الكونيَّةِ: لم يَصْبرُوا على طعامٍ واحدٍ، ولم يَقْتنعُوا بهذه الآيةِ العظيمةِ، ويَشْكرُوا اللهَ علَيْها، أن أَنْزَلَ علَيْهم المَنَّ والسَّلْوَى، وفي الآيات

الشَّرعيَّةِ: قِيلَ لهم: «قُولُوا: حِطَّة»، فبدَّلُوا، وقَالُوا: «حِنْطة»، وأُمِرُوا فلم يأتمرُوا، ونُهُوا فلم يَنْتهُوا، فكفـرُوا بآياتِ اللهِ، وبسببِ هذا الكُفـرِ وقَتْلِهم النَّبيِّينَ بغير حقٍّ ضُرِبَت علَيْهم الذِّلَّةُ والمَسْكَنةُ.

وكان هذا القتلُ للنَّبيِّينَ والكفرُ بآياتِ اللهِ عِصْيانًا عظيمًا، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾، فكانُوا عُصاةً مُعتدينَ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

فوائدُ هذه الآيةِ الكريمةِ:

١- في هذه الآية من الفوائدِ: بيانُ سفَهِ بني إِسْرَائِيلَ؛ حيث لم يَصْبرُوا على هذا الطَّعامِ الطَّيِّبِ الذي أنزله اللهُ من السَّماءِ؛ تكريمًا لهم، وإتمامًا للنِّعمةِ، ولكنَّهم كَفَرُوا به، وقَالُوا: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾.

٢- ومن فوائدها: جوازُ التَّوسُّلِ بدُعاءِ مَن تُرْجَى إجابتُهُ؛ فإنَّ هؤلاءِ قالُوا: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾، وقد قَرَّرت شَريعتُنا هذا النَّوْعَ من التَّوسُّلِ؛ فإنَّ النَّاسَ كانُوا يأتُونَ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ يسألُونَهُ أن يَدْعُوَ اللهَ لهم، كما في قصَّةِ الرَّجلِ الذي دَخَلَ يَوْمَ الجُمُعةِ، والنَّبيُّ ﷺ يخطبُ، فقال: يا رسُولَ اللهِ! هلكت الأموالُ، وانقطعت السُّبلُ، فادعُ اللهِ يُغيثنا[1]، وكما قال عُكَّاشةُ بن محصن حين تحدَّثَ النَّبيُّ ﷺ: أنَّهُ يدخلُ الجنَّةَ من أُمَّتِهِ سبعُونَ ألفًا، بلا حِسَابٍ ولا عذابٍ، فقال عُكَّاشةُ ابن محصن: ادعُ اللهَ أن يجعلني منهم، قال: «أَنْتَ مِنْهُمْ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب البرود والحبرة، رقم (٥٨١١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين...، رقم (٢١٦/ ٣٦٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالتَّوسُّلُ إلى اللهِ بدعوةِ مَن تُرجى إجابتُهُ جائزٌ، ولكن هل هو أمرٌ مطلُوبٌ، أو لا؟

نقُولُ: إن كان لأمرٍ عامٍّ فهو أمرٌ مطلُوبٌ، يعني: أنَّهُ يُسَنُّ للإنسانِ أن يتوسَّلَ بدعاء مَن تُرْجَى إجابتُهُ في أمرٍ عامٍّ للمسلمينَ، كما طَلَبَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يَسْتَسْقِيَ للمسلمينَ[1]، وكما في طَلَبِ الرَّجلِ الذي قال: يا رسُولَ اللهِ! ادعُ اللهُ أن يُغِيثنا.

وأمَّا إذا كان لأمرٍ خاصٍّ فإن كان طالبُ الدُّعاءِ يُريدُ بذلك أن ينفعَ المطلُوبَ إذا دعا لأخيهِ بظهرِ الغَيْبِ فإنَّهُ يكونُ مُحْسِنًا إليه، ويُرْجَى أن تُجابَ دعوتُهُ، ويُعْطَى مِثْلَها؛ لأنَّ الرَّجُلَ إذا دعا لأخيهِ بظهرِ الغَيْبِ قال المَلَكُ: آمينَ، ولك بمثلها.

أمَّا إذا قَصَدَ المتوسِّلُ بدعاء مَن تُرْجَى إجابتُهُ مصلحةَ نفسِهِ الخاصَّةَ فهذا لا ينبغي، بل قد صرَّحَ بعضُ أهلِ العلمِ بأنَّهُ من المسألةِ المذمُومةِ، وأنتَ -أيُّها الأخُ المسلمُ- إذا أردتَّ الدُّعاءَ فادْعُ اللهِ بنفسِكَ، ولا تَعْتَمِدْ على غَيْرِكَ؛ لأنَّ دُعاءَكَ اللهَ عبادةٌ، وربَّما يُحْدِثُ لقلبك من الإنابةِ إلى اللهِ، والرُّجُوعِ إليه، والافتقارِ إليه ما هو أفضلُ بكثيرٍ من إجابةِ دعوتك التي تُريدُ.

٣- ومن فوائدها: إثباتُ أنَّ بني إِسْرَائِيلَ يُؤمنُونَ بأنَّهُ لن يقدر على إنباتِ

= وأخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم في الموضع السابق، رقم (٢٢٠/ ٣٧٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٢١٨/ ٣٧١) من حديث عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب سؤال النَّاس الإمام الاستسقاء، رقم (١٠١٠).

الزَّرعِ وإخراجِهِ من الأرضِ إلَّا اللهُ؛ لأنَّهم قالُوا لُموسى كما ذَكَرَ اللهُ تعالى: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا﴾ الآية.

٤- ومن فوَائِدِها: التَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى باسمِ (الرَّبِّ) عندَ الدُّعاءِ؛ لقَوْلهم: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ولهذا كان قَوْلُ الدَّاعي: يا ربِّ! يا ربِّ! من أسبابِ إجابَةِ الدُّعاءِ؛ كما أشارَ إليه رسُولُ اللهِ ﷺ حين ذَكَرَ الرَّجلَ يُطيلُ السَّفرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يمدُّ يدَيْهِ إلى السَّماءِ: يا ربِّ! يا ربِّ![1]، وكذلك إذا تأمَّلت الدُّعاءَ المذكُورَ في القرآنِ وجدتَّ كثيرًا منه مُصَدَّرًا باسمِ الرَّبِّ: «يا ربَّنا».

٥- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: انحطاطُ هِمَمِ بني إِسْرَائِيلَ؛ حيث نَزَلُوا من الأَعْلَى إلى الأَدْنَى، فطَلَبُوا من مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يدعُوَ اللهَ أن يُخْرِجَ لهم ممَّا تُنْبِتُ الأرضُ من هذه الأنواعِ التي تُعْتَبَرُ نازلةً بالنِّسبةِ إلى المنِّ والسَّلْوَى، ولهذا قال لهم نبيُّهم ﷺ كما ذَكَرَ اللهُ تعالى: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌ﴾، وهذا يدلُّ على سَفَهِهم، وعدمِ صَبْرِهم على ما مَنَّ اللهُ به علَيْهم.

٦- ومن فوائدها: جوازُ تَفْضِيلِ الأَطْعِمَةِ بعضِها على بعضٍ، وأنَّهُ يَجُوزُ للإنسانِ أن يَقُولَ: هذا أدْنَى من هذا، أو هذا أعْلَى من هذا، أو هذا أرْدَأُ من هذا، أو هذا أطيبُ من هذا.

٧- ومن فوائدها: أنَّهُ لا يُلامُ الإنسانُ إذا اخْتَارَ الأطيبَ من الطَّعامِ، ولا يُعَدُّ ذلك من بابِ الإسرافِ، فقد أقرَّت شَريعَتُنا هذا؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ جِيءَ إليه بتمرٍ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

طيِّبٍ، فسألَ: «أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا؟» قالُوا: لا، واللهِ يا رسُولَ اللهِ، إنَّا لنأخذَ الصَّاعَ من هذا بالصَّاعَيْنِ، والصَّاعَيْنِ بالثَّلاثةِ، فقال رسُولُ اللهِ ﷺ: «فَلَا تَفْعَلْ، بِعِ الجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ، ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيبًا»(١)، فأرشدهم ﷺ إلى أن يبيعُوا التَّمرَ الرَّديءِ بدراهمَ، ثُمَّ يَشْتَرُوا بالدَّراهمِ تمرًا جيِّدًا، ولم يَنْهَهم عن اختيارِ التَّمرِ الطَّيِّبِ يُقدِّمُونَهُ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ، فإذا اختارَ الإنسانُ من الطَّعامِ أطْيَبَ الأنواعِ، وكانت حَالُهُ تتحمَّلُ هذا، ولم يُعَدَّ ذلك سَرَفًا بالنِّسبةِ إليه، فإنَّهُ لا بأسَ به، ولا يُلامُ الإنسانُ عليه، بل هذا من بابِ التَّمتُّعِ بنِعَمِ اللهِ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحبُّ من عِبادِهِ أن يتمتَّعُوا بنِعَمِهِ، ويَنْهاهم أن يُحَرِّمُوا شَيْئًا من الطَّيِّباتِ على أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة:٨٧]، وذلك لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كريمٌ، والكريمُ يُحِبُّ أن يَتمتَّعَ مَن ينالُهُ كَرَمُهُ بكَرَمِهِ.

٨- ومن فوائدِ هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ ما كان مَوْجُودًا مَبْذُولًا لا يحتاجُ الإنسانُ أن يَدْعُوَ اللهَ تعالى بحُصُولِهِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ في مثلِ هذا سَفَهٌ؛ فإنَّهُ مَوْجُودٌ بين يدَيْكَ، ولكن ادْعُ اللهَ تعالى ببقائِهِ واستمرارِهِ، وألَّا يَرْفَعَهُ عنكَ؛ لأنَّ هذه الدَّعوةَ في محلِّها، أمَّا أن تقُولَ: اللَّهُمَّ ارزقني كذا وكذا! وهو بين يدَيْكَ، فهذا لا وَجْهَ له، ولهذا قال مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلًا بمثل، رقم (١٥٩٣/ ٩٥) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٩- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمة: أنَّ اللهَ ضَرَبَ على بني إِسْرَائِيلَ الذِّلَّةَ والمَسْكَنةَ، فهم دائمًا في ذُلٍّ، ودائمًا في مَسْكنةٍ، حتَّى وإن اغتنَوْا فإنَّ قُلُوبَهم فقيرةٌ؛ ولهذا تجدُ اليهُودَ أشدَّ النَّاسِ طَلَبًا للمالِ، وفَناءً في تحصيلِهِ، يَحْرِصُونَ على تحصيلِ المالِ بأيِّ سبب ولو بالطَّريقِ المُحرَّمِ، قال اللهُ تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء:١٦٠-١٦١]، فهم أَخَّاذُونَ للرِّبا، أَكَّالُون للسُّحتِ، ظَالِمُونَ للعِبَادِ، فهذا دَأْبُ اليهُودِ بالنِّسبةِ لأَخْذِ المالِ، هم في مَسْكنةٍ دائمةٍ، وفي فَقْرٍ دائمٍ، لكنَّهُ فَقْرٌ قلبيٌّ، وإن كان عندهم من الأموالِ عَدَدٌ كثيرٌ.

١٠- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمةِ: حُلُولُ الغضبِ على بني إِسْرَائِيلَ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وهذا كقَوْلِهِ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠].

١١- ومن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ: أنَّ اللهَ تعالى لا يَظْلِمُ أحدًا، لكن الذي يَظْلِمُ هو الإنسانُ نفسُهُ؛ ولهذا لَمَّا ذَكَرَ اللهُ عُقُوبتهم بضَرْبِ الذِّلَّةِ والمَسْكنةِ وحُلُولِ الغضبِ علَيْهم بَيَّنَ أنَّ هذا بسَببِ كُفْرِهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾، فكُفْرُهم بآياتِ اللهِ معصيةٌ عظيمةٌ أكبرُ المعاصي، وكانت سببًا لضَرْبِ الذِّلَّةِ والمَسْكنةِ علَيْهم.

١٢- ومن فوائدِ هذه الآية: إثباتُ تَعْليلِ أفعالِ اللهِ، أي: أنَّ أفعالَ اللهِ مُعلَّلَةٌ،

أي: مَقْرُونـةٌ بالحكمـةِ، فـما من فعـلٍ يفعلُهُ اللهُ ولا حُكْمٍ يَشْرَعُهُ اللهُ إلَّا مقرُونٌ بحِكْمَتِهِ.

ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّهُ كُلَّما مرَّ بنا شيءٌ مَقْرُونٌ بالمشيئةِ فيجبُ أن نَعْلَمَ أنَّها لَيست مشيئةً مُجرَّدةً، وإنَّما هيَ مشيئةٌ اقْتَضَتْها الحكمةُ، ويدلُّ على هذا: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، فأشارَ اللهُ تعالى في هذه الآية إلى أنَّ مشيئَتَهُ مقرُونـةٌ بحكمتِهِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

١٣- ومن فوائدِ هذه الآية: أنَّ بني إِسْرَائِيلَ -معَ عُدْوَانهم في حقِّ اللهِ- مُعْتَدُونَ على عبادِ اللهِ، فهم يقتلُونَ النَّبيِّينَ بغير الحقِّ، ويقتلُونَ الذين يأمرُونَ بالقسطِ من النَّاسِ بغير الحقِّ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تشنيعٌ علَيْهم، وأنَّ قَتْلَهم للأنبياءِ في غير محلِّهِ؛ لأنَّهُ قَتْلٌ بغير حقٍّ، فالصِّفةُ هُنا لَيْست صِفَةً مُقيِّدةً، وإنَّما هيَ صِفَةٌ كاشِفَةٌ مُوَضِّحةٌ أنَّ قَتْلَ النَّبيِّينَ بغير حقٍّ، فيكونُ في هذا فائدةٌ، وهي زيادةُ التَّشنيعِ على بني إِسْرَائِيلَ بقَتْلِهم النَّبيِّينَ.

١٤- ومن فوائدِ هذه الآية: بيانُ عِصْيَانِ بني إِسْرَائِيلَ واعْتِدَائهم، وأنَّهم أصحابُ معصيةٍ واعتداءٍ على اللهِ، وعلى عبادِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

• ● ◦ ● •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

في هذه الآيةِ يقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُبيِّنًا كَمالَ عَدْلِهِ، وأَنَّهُ لا يُضيعُ عَمَلَ عاملٍ عَمِلَ صالحًا وآمَنَ، يقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهمُ أتباعِ رسُولِ اللهِ ﷺ، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾، فالذين هادُوا: هم أتباعِ مُوسى ﷺ، ووُصِفُوا بهذه الصِّفةِ؛ لأنَّهم قالُوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أي: رَجَعْنا إليك.

والنَّصارى: أتباعُ عيسى بنِ مَرْيَمَ، وسُمُّوا نصارى إمَّا نسبةً إلى بَلْدَةٍ تُسمَّى: النَّاصِرَةَ، وإمَّا من النُّصْرَةِ؛ لأنَّ عيسى لَـمَّا قال كما جاءَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٥٢].

وأمَّا الصَّابئُونَ فهم قَوْمٌ لهم دينٌ يتديَّنُونَ به، وقيلَ: إنَّ الصَّابئَ في الأصلِ مَن لا دِينَ له.

ولكنَّ الذين هادُوا والنَّصارى والصَّابئينَ قُيِّدَ استحقاقُهم الأجرَ بالإيمانِ باللهِ واليوم الآخرِ والعملِ الصَّالحِ، أمَّا المؤمنُونَ فقد استَحَقُّوا هذا الوصفَ، فالقَيْدُ إن كان وارِدًا في حقِّهم فهو على سبيلِ التَّوْكيدِ، وذلك أنَّ الذين بَقُوا على اليهُوديَّةِ والنَّصرانيَّةِ والصَّابئةَ بعد بِعْثَةِ الرَّسُولِ ﷺ لَيْسُوا على حقٍّ، ولا يَصْدُقُ علَيْهم أنَّهم مُؤمنُونَ باللهِ واليوم الآخرِ؛ لأنَّهم لو آمنُوا باللهِ واليوم الآخرِ حقًّا لاتَّبعُوا مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]،

والذي كانُوا يعرفُونَهُ كما يعرفُونَ أَبْنَاءَهم، والذي كانُوا يَسْتَفْتِحُونَ به على الذين كَفَرُوا، فلمَّا جاءهم ما عَرَفُوا كَفَرُوا به، فهم -أعني: اليهُودَ والنَّصارى والصَّابئِينَ- بعد بعْثَةِ مُحمَّدٍ ﷺ لا يَصْدُقُ عليْهم أنَّهم يُؤمنُونَ باللهِ واليوم الآخِرِ، ويعملُونَ صالحًا، إلَّا إذا اتَّبعُوا مُحمَّدًا ﷺ.

يقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ الإيمانُ باللهِ يتضمَّنُ: الإيمانَ بوجُودِهِ، والإيمانَ بربُوبيَّتِهِ، والإيمانَ بأُلُوهيَّتِهِ، والإيمانَ بأسمائِهِ وصِفَاتِهِ، فمَن أنكَرَ اللهَ فليس بمؤمنٍ، ومَن لم يُوَحِّدهُ برُبُوبيَّتِهِ فليس بمؤمنٍ، ومَن لم يُوَحِّدهُ بأُلُوهيَّتِهِ فليس بمُؤْمنٍ، ومَن لم يُوَحِّدهُ بأسمائِهِ وصِفَاتِهِ، فيُثْبِتَها على ما جاءت في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسُولِهِ ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ، فليس بمُؤْمنٍ.

إذَن: الإيمانُ باللهِ يتضمَّنُ أربعةَ أشياءَ: الإيمانَ بوُجُودِهِ، وبتَوْحيدِهِ في الرُّبُوبيَّةِ، وبتَوْحيدِهِ في الأُلُوهيَّةِ، وبتَوْحيدِهِ في الأسماءِ والصِّفاتِ.

وأمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فالعملُ الصَّالحُ: هو الذي اجتمعَ فيه شرطانِ:

الشَّرطُ الأوَّلُ: أن يكونَ خالصًا للهِ، لا يَشُوبُهُ إشْرَاكٌ.

والشَّرطُ الثَّاني: أن يكونَ مُتَّبَعًا فيه رسُولُ اللهِ ﷺ، فلا يَشُوبُهُ ابتداعٌ؛ ولهذا لا يكونُ العملُ عَمَلًا صالحًا إلَّا إذا كان للهِ خَالِصًا، ولشَرْعِهِ مُوَافِقًا، فإذا اجتمعَ الإيمانُ باللهِ جَلَّوَعَلَا واليوم الآخِرِ والعملُ الصَّالحُ ثَبَتَ الأجرُ.

والإيمانُ باليوم الآخِرِ يتضمَّنُ: الإيمانَ بكلِّ ما أخبرَ به النَّبيُّ ﷺ ممَّا يكونُ بعد المَوْتِ، فيشملُ الإيمانَ بما يكونُ في القَبْرِ من سُؤَالِ المَلَكَيْنِ الميِّتَ عن ربِّهِ ودينِهِ ونبيِّه،

ومن عذابِ القبرِ ونعيمِهِ، وكذلك ما يكونُ يَوْمَ القيامةِ من الجزاءِ ثَوابًا وعِقابًا، وتفاصيلُ ذلك مذكُورةٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ.

وأمَّا الأجرُ فهو الثَّوابُ على هذا العملِ المبنيِّ على الإيمانِ باللهِ واليوم الآخِرِ، وهو الحسنةُ بعشرِ أمثالها، إلى سبع مئةِ ضعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

ومَن قامَ بهذَيْنِ الوصفَيْنِ -الإيمانِ، والعملِ الصَّالحِ- فإنَّهُ يَأْمَنُ من كُلِّ خَوْفٍ من مُستقبلٍ، وحُزْنٍ على ما مضى.

فوائدُ هذه الآيةِ الكريمةِ:

١- بيانُ عَدْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ مَن قامَ بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ فإنَّ له الأجرَ عندَ ربِّهِ، سواءٌ أكان من المؤمنينَ الذين بُعِثَ فيهم رسُولُ اللهِ ﷺ، أم من اليهُودِ والنَّصارى والصَّابئينَ، فاليهُودُ -مثلًا- حينَ كانت شريعتُهم قائمةً إذا اتَّصفُوا بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ كان لهم أجرُهم كامِلًا مُوفَّرًا، وكذلك النَّصارى، وكذلك الصَّابئُونَ.

أمَّا إذا كان دينُهم منسُوخًا فإنَّ الواجبَ علَيْهم أن يَتحَوَّلُوا عنه إلى الدِّينِ النَّاسخِ، والملَّةِ الجديدةِ؛ ولهذا يُعتَبرُ اليهُودُ كُفَّارًا بالنِّسبةِ للنَّصارى، أي: كافِرينَ بعيسى ابنِ مريمَ، ويُعْتَبرُ النَّصارى كُفَّارًا بالنِّسبةِ لمُحَمَّدٍ ﷺ، أي: كافرينَ بمُحَمَّدٍ ﷺ، والكافرُ بمُحَمَّدٍ ﷺ كافرٌ حتَّى بنبيِّه؛ لأنَّ الأنبياءَ قد بشَّرُوا به، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الكريمَ ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٧]، فمَن كفَرَ بمحمَّدٍ ﷺ بعد بعْثتِهِ فإنَّهُ حقيقةً لم يُؤمن حتَّى برَسُولِهِ، وعلى هذا فاليهُودُ والنَّصارى والصَّابئُونَ

المَوْجُودُونَ اليَوْمَ لو قالُوا: إنَّهم مُؤمنُونَ باللهِ واليوم الآخِرِ ويعملُونَ عملًا صالحًا فإنَّنا نقُولُ لهم: هذا لا يَنْفَعُكم؛ لأنَّ الإيمانَ باللهِ واليوم الآخرِ يستلزمُ الإيمانَ بمُحَمَّدٍ ﷺ، والعملَ الصَّالحَ لا يكونُ عملًا صالحًا إلَّا بمُوَافقةِ شريعةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، نسألُ اللهَ تعالى أن يجعلنا من المُخْلِصينَ له، المُتَّبعينَ لرَسُولِهِ.

٢- ومن فوائدِ هذه الآية: أنَّ العملَ لا يَثْبُتُ فيه الأجرُ إلَّا إذا كان عملًا صالحًا، والعملُ الصَّالحُ -كما أسلفنا- ما اجتمعَ فيه شرطانِ: الإخلاصُ للهِ، والمتابعةُ لرسُولِ اللهِ ﷺ، فمَن عَمِلَ عملًا يتضمَّنُ شَيْئًا من الشِّرْكِ فإنَّ عَمَلَه ليس بصالحٍ، وليس بمقبُولٍ عندَ اللهِ؛ لقول اللهِ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وفي الحديثِ الصَّحيحِ عن رسُولِ اللهِ ﷺ، أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قال: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١)، فمن تَعَبَّدَ للهِ عبادةً يُرائي فيها النَّاسَ فإنَّها لا تُقْبَلُ منهُ؛ لأنَّها لَيْست عَمَلًا صالحًا.

ولكن هُنا مسألة يَشْكُو منها كثيرٌ من النَّاسِ، يقُولُ: إنَّني إذا هَمَمتُ بعملٍ صالحٍ أتَانِي الشَّيْطانُ، وقال: إنَّك مُراءٍ! فيُقْعِدني عن العملِ، فما الحلُّ لهذه المشكلةِ؟

جوابنا عن هذا أن نقُولَ: الحلُّ لهذه المشكلةِ: أن تتعوَّذَ باللهِ من الشَّيْطانِ الرَّجيمِ، وأن تَنْتَهيَ عن ذلك، وأن تَسْتَمرَّ في عملك الصَّالحِ مُعْرِضًا عمَّا يُلقيهِ الشَّيْطانُ في قَلْبِك من أنَّك مُريدٌ للرِّياءِ، وفكِّرْ: لو أنَّك سُئِلْت: هل أنتَ مُراءٍ بهذه العبادةِ؟ لقلتَ: لا، إذَنْ: لا يَصُدَّنَّك الشَّيْطانُ عنها بهذه الوَسْوَسةِ، فاستمرَّ في العملِ،

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٣٣).

ولا يَهُمَّنَّك ما يُلقيهِ الشَّيْطانُ في نفسك من وساوسَ.

ويشكُو بعضُ النَّاسِ أيضًا أَنَّهُ يَدْخُلُ في العِبَادةِ ليس في قلبه رِيَاءٌ، ثُمَّ يَحْدُثُ له الرِّياءُ في أثناءِ العبادةِ، فما الحلُّ؟

جوابنا عن هذا: أن يَسْعَى في طَرْدِهِ، والتَّخلُّصِ منهُ، وأن يُقْبِلَ على عِبَادةِ اللهِ، ويُعْرِضَ عمَّا أَلْقَى الشَّيْطانُ في قلبه من الرِّياءِ، وهو إذا دافعَ هذا الرِّياءَ فإنَّهُ لا يضرُّهُ، ولا يُؤثِّرُ على عِبادتِهِ.

٣- ومن فوائدِ هذه الآية أيضًا: أنَّ العملَ الذي لا يكون مُوَافقًا لشريعةِ الرَّسُولِ ﷺ لا يُقْبَلُ حتَّى وإن كان بنيَّةٍ خالصةٍ ليس فيها شِرْكٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**[١].

وبناءً على ذلك: فإنَّ جميعَ العباداتِ البدعيَّةِ التي يتعبَّدُ بها أهلُها مَهْمَا كَثُرت، ومَهْما أثَّرت من لِينِ القلبِ، ودَمْعِ العَيْنِ، فإنَّها لا تنفعُهم عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّها على غير صِرَاطِ اللهِ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فأيُّ إنسانٍ يَتعبَّدُ للهِ عِبادةً قَوْليَّةً كانت أم فعليَّةً فعليه الدَّليلُ على أنَّ هذه العِبَادةَ ثابتةٌ عن رسُولِ اللهِ ﷺ، وإلَّا فإنَّ عَمَله سيكونُ هَبَاءً، ويكونُ وبَالًا عليه؛ لأنَّهُ ابْتَدعَ في دينِ اللهِ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: **«فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»**[٢].

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم،

والبدعُ -مَهْمَا حَسُنَت في قُلُوبِ مُبتدعيها- فإنَّها سيِّئةٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال كلمةً عامَّةً شاملةً: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»، ولم يَسْتَثْنِ النَّبيُّ ﷺ شَيْئًا، والبدعُ -وإن حَسُنَت في قُلُوبِ مُبتدعيها- فإنَّها شرٌّ، تُفرِّقُ النَّاسَ في دِينِ اللهِ، وتَجْعلُ كُلَّ طائفةٍ من النَّاسِ تُضَلِّلُ الأُخرى، ويكونُ كُلُّ حزبٍ بما لدَيْهم فرِحُونَ، كما هو الواقعُ الآنَ، لَمَّا انتشرت البِدَعُ في الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ -ومنذُ زمنٍ بعيدٍ- صارت الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ مُتفرِّقةً، يُضَلِّلُ بعضُها بعضًا، ورُبَّما يَصِلُ الأمرُ إلى أن يُكَفِّرَ بعضُهم بعضًا، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وإنَّني -بهذه المناسبةِ- أُوَجِّهُ النَّصيحةَ إلى إخواني المسلمينَ أن يَحْرِصُوا على أن تكونَ أعمالُهم كُلُّها مبنيَّةً على شريعةِ اللهِ، وعلى ما جاءَ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فإنَّ هَدْيَهُ خَيْرُ الهدي، وما خَرَجَ عن هَدْيِهِ فهو ضلالٌ وفتنةٌ وبدعةٌ، وأن يَحْرِصُوا أيضًا على الإخلاصِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا يَفْعَلُوا العبادةَ من أجلِ مُراءاةِ الخَلْقِ أو سَماعِ الخَلْقِ؛ لأنَّ الخَلْقَ لا يَنْفَعُونهم، فلا يَنْفَعهم إلَّا الخالقُ عَزَّوَجَلَّ.

٤- ومن فوائدِ هذه الآية: الدَّليلُ على عِظَمِ الأجرِ على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أضَافَهُ إلى نفسِهِ، فقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وما كان من عندِ اللهِ فهو من عندِ الكريمِ العظيمِ، وعطاءُ الكريمِ العظيمِ يكونُ عطاءً عظيمًا.

= باب ما جاء في الأخذ بالسنة، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب في اتباع سنة الخلفاء الراشدين، رقم (٤٢)، وأحمد (٤/ ١٢٦) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- ومن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ: بيانُ نِعْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على عِبادِهِ بهذا الثَّوابِ؛ حيث جَعَله بمنزلةِ الأجرِ اللَّازمِ الذي لابُدَّ من إيفائِهِ، وهذا من نعمةِ اللهِ، وهو الذي تكفَّلَ بذلكَ، وكتبَ على نَفْسِهِ أنَّ مَن عَمِلَ صالحًا فجزاؤُهُ عندَ اللهِ تعالى الأجرُ الذي يستحقُّهُ.

٦- ومن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ: أَنَّهُ بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ يُطْرَدُ الخَوْفُ، ويُطْرَدُ الحزنُ في الدُّنيا وفي الآخرةِ؛ ولهذا كان أشرحَ النَّاسِ صدرًا، وأَنْعَمَهم بالًا، وأشدَّهم طُمأنينةً في القلبِ هم المؤمنُونَ العَامِلُونَ عملًا صالحًا؛ ولهذا قال بعضُ السَّلفِ: لو يعلمُ المُلُوكُ وأبناءُ المُلُوكِ ما نحنُ فيه لجالدونا عليه بالسُّيُوفِ. نَسْأَلُ اللهَ تعالى أن يَشْرَح صُدُورنا لِذِكْرِه، وأن يُطَمْئِنَ قُلُوبنا بذِكْره، وأن يَجْعَلنا هُداةً مُهْتَدين، وصَالِحِين مُصْلِحين، إنَّه جَوادٌ كريمٌ.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

الخطابُ هُنا لبني إِسْرَائِيلَ، يُذَكِّرُهم اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما أَخَذَ عليْهم من الميثاقِ، حين رَفَعَ فَوْقَهم الطُّورَ، وهو الجبلُ المَعْرُوفُ، وذلك بعد فُسُوقهم وعِصْيَانهم، وأَمَرَهم اللهُ أن يَأْخُذُوا ما آتاهم من الشَّرعِ بقُوَّةٍ لا ضَعْفَ فيها ولا هَوَادةَ، وأن يَذْكُرُوا ما في هذا الذي آتاهم من المَوَاعظِ والأَحْكَامِ؛ ليَصِلُوا بذلك إلى تقوى اللهِ

عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّهم تَوَلَّوْا بعد ذلك، ولولا أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَدَاركهم بفضلِهِ ورحمتِهِ لكانُوا من الخاسرينَ أَبَدَ الآبِدِينَ.

فوائدُ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ:

١ - تذكيرُ الإنسانِ بما أنعَمَ اللهُ به عليه من النِّعَمِ؛ ليَذْكُرَ هذه النِّعمةَ، فيشكرَ اللهَ علَيْها، ولاسِيَّما مع طُولِ العهدِ، وتَنَاسي هذه النِّعمِ.

٢ - أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخَذَ العهدَ والميثاقَ على بني آدمَ أن يُوَحِّدُوهُ ويُؤْمِنُوا به، وذلك بما ركَّبَ فيهم من العُقُولِ، وأنزلَ علَيْهم من الكُتُبِ، وأرسلَ إليهم من الرُّسُلِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ﴾.

٣- بيانُ قُدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعَظَمتِهِ، حيث رَفَعَ هذا الجبلَ العظيمَ فَوْقَهم؛ تَخْويفًا وإنْذارًا، وهذه الأُمَّةُ -أعني: الأُمَّةَ المحمَّدِيَّةَ- لم يكن فيها مثلُ هذا الإنذارِ، ولكن كان فيها إنذارٌ من نَوْعٍ آخرَ، مثلُ: كُسُوفِ الشَّمسِ، وخسُوفِ القمرِ؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا كَسَفت الشَّمسُ في عَهْدِهِ بَيَّنَ أنَّ الشَّمسَ والقمرَ آيتانِ من آياتِ اللهِ، يُخَوِّفُ اللهُ بهما عِبَادَهُ، وأنَّهما لا يَنْكَسِفَانِ لمَوْتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ، فبيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ يُخَوِّفُ بهما العِبَادَ؛ من أَجْلِ أن يَرْجِعُوا إلى ربِّهم[1]، ولهذا شُرِعَ للنَّاسِ حينَ يرَوْنَ الكسُوفَ أو الخسُوفَ أن يفزعُوا إلى ذكرِ اللهِ، واسْتِغْفَارِهِ، والصَّلاةِ، والصَّدقةِ، والعِتْقِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، رقم (١٠٥٩)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف، رقم (٩١٢) عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب قول النبي ﷺ: «**يُخَوِّفُ اللهُ عِبَادَه بالكُسُوف**»، رقم (١٠٤٨) عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١/ ٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٤- ومن فوائدِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: وُجُوبُ أَخْذِ الإنسانِ بشريعةِ اللهِ على وجهِ القُوَّةِ التي ليس فيها ضعفٌ ولا تَوانٍ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا قابلَ أوامِرَ اللهِ بالضَّعفِ والتَّواني استَوْلى عليه الشَّيْطانُ، واستحوذَ عليه حتَّى يُوصِله إلى تَرْكِها، والتَّواني في أوامرِ اللهِ ينقسمُ إلى قسمَيْنِ:

الأوَّلُ: التَّواني في فِعْلِ المأمُوراتِ، بأن يتكاسلَ في فِعْلِ الواجباتِ، ويتراخى في فعلِ المندُوباتِ، فيَضْعُف إيمانُهُ بذلك وينقص.

والثَّاني: الضَّعفُ في تَرْكِ النَّواهي، بحيث يَضْعُفُ الإنسانُ أمامَ الشَّهوةِ الدَّافعةِ إلى فعلِ المعصيةِ، وأعني بالشَّهوةِ: شهوةَ الإرادةِ، لا شهوةَ الجِنْسِ، وشهوةُ الجنسِ تكونُ -بلا شكٍّ- أحيانًا من الشَّيْءِ المُحَرَّمِ إذا كانت على غير الأزواجِ وما مَلَكَت اليمينُ.

المهمُّ: أنَّ الضَّعفَ كما يكونُ في فعلِ الأوامرِ يكونُ كذلك في تركِ النَّواهي، بحيث يَضْعُفُ الإنسانُ أمامَ شَهَواتِ نفسِهِ، فيَعْجَز عن كَبْحِها عمَّا حَرَّمَ اللهُ عليه.

٥- ومن فوائدِ الآيتَيْنِ الكريمتَيْنِ: وُجُوبُ ذِكْرِ ما في الكُتُبِ المُنَزَّلةِ من الوحيِ، وذِكْرُهُ على نَوْعَيْنِ:

النَّوْعُ الأوَّلُ: أن يُذْكَرَ باللِّسانِ، وهذا يكونُ بتِلاوةِ ما يُتْلَى، وتَعْلِيمِ ما يُعَلَّمُ.

والثَّاني: أن يُذْكَرَ بالعملِ، وذلك بالتَّطبيقِ؛ فإنَّ تطبيقَ أَوَامرِ اللهِ لا شكَّ أنَّهُ ذِكْرٌ لَها.

٦- ومن فوائدِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: أنَّ أَخْذَ الشَّرائعِ بالقُوَّةِ وذِكْرَ ما فيها على حسب النَّوْعَيْنِ السَّابقَيْنِ يكونُ سببًا للتَّقوى؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والتَّقوى: مأخُوذةٌ من الوِقَايَةِ، وهي أن يتَّقيَ الإنسانُ عذابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بفعلِ أوَامرِهِ، واجتنابِ نواهيهِ، وقد فُسِّرت التَّقوى بتفاسيرَ مُتعدِّدةٍ، لكنَّها لا تخرجُ عمَّا ذكرنا، وهي فعلُ أوَامرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ واجتنابُ نواهيهِ؛ لأنَّ الوقايةَ من عذابِ اللهِ لا تكونُ إلَّا بذلكَ.

٧- ومن فوائدِ الآيتَيْنِ الكريمتَيْنِ: إثباتُ الأسبابِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ فإنَّ (لعلَّ) هُنا للتَّعليلِ، والعلَّةُ السَّببُ، والنَّاسُ في الأسبابِ انقسمُوا إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قسم أفْرَطُوا فيها، وقسم فرَّطُوا فيها، وقسم وسط.

فأمَّا الذين أفْرَطُوا فيها -أي: بَالَغُوا وغَلَوْا- فإنَّهم أثْبَتُوا الأسبابَ، وجعلُوها هيَ الفاعلةَ المؤثِّرةَ التي لا يُمكنُ أن يتخلَّفَ المسبَّبُ فيها عن السَّببِ.

وأمَّا الذين فرَّطُوا في الأسبابِ فهم الذين قالُوا: إنَّ الأسبابَ ليس لها تأثيرٌ في مُسبَّباتها، وإنَّ الذي يَحْصُلُ بهذه الأسبابِ لم يَكُنْ بها، ولكنَّهُ عندها.

مثالُ ذلك: لَوِ انكسرت زُجاجةٌ بحَجَرٍ رُمِيَتْ به، فعندَ القسمِ الأوَّلِ الذين أفْرَطُوا في إثباتِ الأسبابِ يكونُ انكسارُ الزُّجاجةِ بها أمرًا طَبَعيًّا لابُدَّ منه، وعندَ الآخرينَ لم يكن الانكسارُ بسببِ اصطدامِ الحجرِ بالزُّجاجةِ، وإنَّما كان عندَ اصطدامِ الحَجَرِ بالزُّجاجةِ لا به.

ولا شَكَّ أنَّ هذَيْنِ القَوْلَيْن بَعِيدَان عن الصَّوابِ، وأنَّ الصَّوابَ هو القَوْلُ الثَّالثُ الوسطُ: الذين أثبتُوا الأسبابَ، وتأثيرَها في مُسبَّباتها، ولكنَّهم جَعَلُوا ذلك ممَّا خَلَقَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيها من القُوَى، فهي لم تَنْفَرد بالتَّأثيرِ، ولكن خَلَقَ اللهُ فيها هذا التَّأثيرَ، ويدلُّ لذلكَ: السَّمعُ، والعقلُ.

فأمَّا السَّمعُ فإنَّ الآياتِ والأحاديثَ في إثباتِ الأسبابِ وتأثيرِها لا تكادُ تُحصى كَثْرةً.

وأمَّا العَقْلُ فإنَّ الحسَّ شَاهِدٌ بذلكَ، فكلُّ إنسانٍ يَعْرِفُ أنَّ انكسارَ الزُّجاجةِ -بِرَمْيِها بالحَجَرِ- إنَّما كان بالحجرِ، لا عند اصْطِدَامِهِ بها، ولهذا لو وضعت الحجرَ علَيْها وضْعًا لم يكن له تأثيرٌ فيها.

ويدلُّ على أنَّ الأسبابَ لا تَفعَلُ بنَفْسِها، ولكنَّها تُؤَثِّرُ بما أودعَ اللهُ فيها من القُوَى: أنَّ النَّارَ المُحْرِقةَ الحارَّةَ حينَ أمَرَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن تكونَ بَرْدًا وسلامًا على إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانت بَرْدًا وسَلامًا عليه؛ فإنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُضْرِمَت له نارٌ كبيرةٌ عظيمةٌ، وأُلقيَ فيها، حتَّى إنَّ بعضَ العلماءِ قال: إنَّ قَوْمَهُ لَـمَّا أرادُوا أن يُلْقُوهُ في النَّارِ لم يتمكَّنُوا من القُرْبِ منها، فوَضَعُوهُ في مَنْجَنيقٍ، ورَمَوْهُ بواسطتِهِ إلى النَّارِ، فقال اللهُ تعالى: ﴿يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فكانت بَرْدًا وسَلامًا عليه، ولم تُؤثِّر فيه شَيْئًا، وهذا يدلُّ على أنَّ تأثيرَ الأسبابِ ليس تأثيرًا ذَاتِيًّا حَتْميًّا لابُدَّ منه، بل بما خَلَقَهُ اللهُ فيها من القُوى المؤثِّرةِ، لا الفاعلةِ.

٨- ومن فوائدِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ أيضًا: أنَّ بني إِسْرَائِيلَ بعد هذا الإنذارِ الشَّديدِ لم ينتفعُوا بما أُنْذِرُوا به، بل تَوَلَّوْا من بعدِهِ، وهذا يدلُّ على قَسْوَةِ قُلُوبِهم، وأنَّهم من أشدِّ النَّاسِ طُغْيَانًا وضَلالًا.

٩- ومن فوائدِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: إثباتُ فضلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على بني إِسْرَائِيلَ، وما أكثرَ نِعَمَهُ على بني إِسْرَائِيلَ! ولكنَّهم قَوْمٌ لا يَشْكُرُونَ، بل كانُوا يَصِفُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بما يُنزَّهُ عنه؛ كقَوْلِهم: «يدُ اللهِ مغلُولةٌ»، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ

مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤].

ووَصَفُوا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالفَقْرِ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران:١٨١-١٨٢].

١٠- ومن فوائدِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتداركُ عبدَهُ بالفَضْلِ حتَّى لا يَصِلَ إلى نِهايَة الخُسْرَان، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

١١- ومن فوائدِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: تذكيرُ آخرِ الأُمَّةِ بما صَنَعَ أوَّلُها؛ لأنَّهُ إن كان خَيْرًا كان من الفَضْلِ أن يتَّبِعُوا مَن سَبَقَهم فيه، وإن كان شَرًّا كان من الحِكْمَةِ والعقلِ أن يَبْتَعِدُوا عنهُ.

واستنبطَ بعضُ العلماءِ من هذا: أنَّ صنيعَ أوَّلِ الأُمَّة يصحُّ أن يُنْسَبَ إلى آخِرِها؛ لأنَّ اللهَ خاطبَ بني إِسْرَائِيلَ في عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ بما صَنَعَهُ آباؤُهم وأَجْدَادُهُم، وهذه الفائدةُ محلُّ نقاشٍ ومحلُّ تأمُّلٍ.

١٢- ومن فوائدِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: أنَّهُ ينبغي للإنسانِ ألَّا يُضيفَ ما مَنَّ اللهُ به عليه من فضْلٍ إلى مُجَرَّدِ فِعْلِهِ هو، فينسى بذلك نعمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وفَضْلَه، ويقع في الإعجابِ بالنَّفسِ الذي هو محطُّ كُلِّ شرٍّ.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يُؤَكِّدُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هاتَيْنِ الآيتَيْن في خطابِ بني إِسْرَائِيل في عهدِ النَّبي ﷺ أنَّهم قد عَلِمُوا حالَ الذين اعْتَدَوْا منهم في السَّبْتِ، وهو اليومُ الذي كانوا يُعَظِّمونهُ، وكان اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد حَرَّمَ عليهم الصَّيدَ في هذا اليومِ، وابْتَلاهم حيث كانت تأتيهم الحِيتَانُ في هذا اليوم شُرَّعًا، طَافِيَةً على ظَهْرِ الماء، كثيرَةً يَسْهُل أَخْذُها، وفي غَيْرِ هذا اليوم لا تأتيهم الحِيتَانُ، فطالَ عليهم الأَمَدُ، وقالوا: لا يُمكنُ أن نَدَعَ هذه الحيتانَ تأتي وترجعُ دون أن نصيدَها، فعَمِلُوا لذلك حيلةً، فوَضَعُوا شِبَاكًا في يوم الجُمُعة، فإذا جاءت الحِيتَانُ يوم السَّبت وقعت في هذه الشِّبَاك، وإذا كان يوم الأحد أَتَوْا إلى الشِّبَاكِ، فأَخَذُوا ما فيها من الحِيتانِ، فعَاقَبَهم اللهُ تعالى بهذه العقوبةِ العظيمةِ أَنْ جَعَلَهم قِرَدةً خَاسِئِينَ -والقِرَدة: جَمْعُ قِرْدٍ، والخاسئ: هو الذَّليل- بعد أن كانوا بشرًا سويًّا ذا عِنَادٍ ورِفْعَة، فجعل الله هذه العقوبةَ نَكَالًا لِما بين يديها -أي: للأُمَّة المُعاصِرَة لهم-، ولما خَلْفَها -أي: الآتية بعدهم-، وجَعَلَها كذلك موعظةً للمُتَّقين، أي: سببًا لاتِّعَاظهم، وقد سبق الكلامُ عن التَّقْوى.

ففي هاتَيْن الآيتَيْن يُذَكِّرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بني إِسْرَائِيل الذين كانوا في عَهْد النَّبي ﷺ بما حَدَثَ لِمَن سَبَقَهم من بني إِسْرَائِيلَ بما ذُكِرَ عن السَّبْت.

فوائِد هاتَيْن الآيتَيْن:

١- تذكير الأُمَّة بما فَعَلَ سَلَفُها؛ ليتَّخِذُوا منه عِبْرَةً.

٢- ومن فوَائِدهما: أنَّ التَّحَيُّل على محَارِم الله لا يَقْلِبُها إلى حَلالٍ، بل إنَّ التَّحيُّلَ على المَحارم لا يزيدُها إلَّا قُبْحًا؛ لأنَّ التحيُّل على المحارم فيه محْذُور فِعْلِ المُحَرَّم، ومحْذُورُ الخِدَاع للهِ عَزَّوَجَلَّ، فيكون المُتَحَيِّلُ جامعًا بين فِعْلِ المَعْصِيَة التي نُهي عنها، وخِيانةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وخِداعِه، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

فأعظمُ فائِدَة تُسْتَنبط من هاتَيْن الآيتَيْن: هي أنَّ التَّحيُّل على محَارم الله عَزَّوَجَلَّ لا يَقْلِبُها حلالًا، بل إنَّ التَّحيُّل على المحارم لا يزيدها إلَّا قُبْحًا؛ لأنَّ المُتحيِّل يقع في محْذورَيْن:

المحذور الأوَّل: أن يَقعَ بفعل هذا المُحَرَّم في المَحْظُور.

الثَّاني: المُخَادعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا نجد أنَّ المُنافِقين أعظمُ ذُنُوبًا وأَكْبَرُ جُرْمًا من الكافرين الصُّرَحاء؛ كما قَال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، وقَال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

وبَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ المُنافِقين هم العُدُوُّ الحقيقيُّ الأكبرُ للمؤمنين؛ كما ذَكَره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة (المنافقون) في قَوْلِه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤].

ومن هنا نَعْلَم أنَّ الذين يتحيَّلون على الرِّبا بالطُّرُق المُلْتويَّة أشدُّ إثمًا من الذين يأتون الرِّبَا على وجهٍ صَرِيحٍ؛ لِمَا في فِعْلِهم من الوُقوع في محْذور الرِّبَا من وجهٍ، ومن مُخادعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من وَجْهٍ آخرَ.

وهناك معنًى ثالثٌ في المُخادَعة، وهو أنَّ المُخادِعَ يظنُّ أنَّهُ على صَوَابٍ، وأنَّهُ لم يَنْتَهِكِ المُحَرَّم، فلا يزال مُستمرًّا عليه، ولا يُحَدِّث نَفْسَه بالتَّوبة منه، بخِلَاف الذي يأتي المُحَرَّم على وجهٍ صريح؛ فإنَّهُ يرى نَفْسَه مُذْنِبًا مُقصِّرًا في حقِّ الله، فيخجل من ربِّه عَزَّوَجَلَّ، ورُبَّما يأتي اليومُ الذي يَتُوب فيه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيكون الآتي للمُحَرَّم صريحًا أقْرَبَ إلى التوبة من المُخَادِع الماكر، ولهذا لُعِنَ الرَّجُلُ الذي يتزوَّج امرأةً؛ لتَحْلِيلِها لزوجها الأوَّل؛ كما جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَعَنَ المُحلِّلَ والمُحَلَّلَ له[1].

والتَّحْلِيل: هو أنَّ الرَّجُل يتزوَّج امرأةً طلَّقها زوجُها ثَلاثًا؛ من أجل أن يُجامِعَها، فيُحِلَّها لزوجها الأوَّل، وهذا لا شَكَّ أنَّهُ مُحَرَّمٌ، وأنَّه لا يَنْفَع، ولهذا قال أهلُ العلمِ: إنَّ الرَّجُل إذا تزوَّج امرأةً على سبيل التَّحليل فإنَّها لا تَحلُّ للزَّوج الأوَّل ولو أنَّ الثَّانيَ جَامَعَها، وذلك لأنَّ نِكَاح التَّحليل نِكَاحٌ لا يُرادُ به حقيقتُهُ، فإنَّهُ إنَّما يُريد أن يتزوَّج هذه المرأةَ من أجل أن يُجامِعَها، ثُمَّ تعودَ إلى زوجها الأوَّل، قال أهلُ العلم: ومع ذلك فإنَّها لا تَحلُّ للزَّوج الأوَّل؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال فيكِتَابه: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: الطَّلْقَةَ الثَّالِثةَ ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٠]، ونكاحُ التَّحليل ليس بنِكَاحٍ شرعيٍّ؛ لأنَّهُ نكاحٌ غَيْرُ مَقْصُود؛ فإنَّ من المَعْلُوم أنَّ المقصود بالنِّكاح هو بَقَاءُ المرأة عند زَوْجِها؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ من فوَائِد النِّكاح أن يَسْكُنَ الرَّجل إلى زوجته، وتَسْكُنَ إلَيْه، فإذا كان النِّكاح ليس

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في المحل والمحلل له، رقم (١١٢٠)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب إحلال المطلقة ثلاثًا، رقم (٣٤٤٥)، وأحمد (١/ ٤٤٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نِكَاحَ رغبةٍ، بل إنَّما تزوَّجها ليُطَلِّقها إذا أحَلَّها للزَّوج الأوَّل، فإنَّ ذلك ليس بنكاحٍ شرعيٍّ، وحينئذٍ لا تحلُّ للزَّوج الأوَّل.

وإنَّما نبَّهْتُ على ذلك -وإن كان ولله الحمد قليلًا عندنا- لأنَّهُ قد يخفى على بعض الجُهَّالِ، فيُريدون فِعْلَ المَعْرُوف بالزَّوج الأول، ولكنَّهم يُسيؤُون إلى أنفُسهم، ولا يُفيدون الزَّوج الأوَّل شيئًا؛ لأنَّ الزَّوجة لا تَحِلُّ للزَّوج الأوَّل إذا كان نِكَاحُ الثَّاني نكاحَ تحليلٍ، لا رغبةٍ.

٣- ومن فوَائِد هاتَيْن الآيتَيْن الكَرِيمَتَين: أنَّ العُقُوبة تكون مُجانِسَةً للعمل؛ كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، فهؤلاء القوم لَمَّا تَحيَّلُوا على فعل المُحَرَّم بما ظَاهِرُهُ الإباحةُ؛ حيث نَصَبُوا الشِّبَاك في يوم الجُمُعة، وأَخَذُوا الحِيتَان الواقعةَ فيه في يوم الأحد، وظاهرُ هذا الفعلِ أنَّهم لم يَصْطَادُوا في يوم السَّبْت، وأنَّهم فعَلُوا فِعْلًا حلالًا، قَلَبَهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى أقْرَب الحيوانات شَبَهًا بالإنسان، وهي القِرَدة.

٤- ومن فوَائِد هاتَيْن الآيتَيْن الكريمتَيْن: أنَّ قَوْلَ الله عَزَّوَجَلَّ يَنْقَسِم إلى قِسْمَين: قولٌ كَونيٌّ، كما فِي هذه الآية: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾؛ فإنَّ هذا القول كونيٌّ، وليس بشرعيٍّ؛ لأنَّهُ ليس باسْتِطَاعَتهم أن يَقْلِبُوا أنفُسَهم إلى قِرَدةٍ، ولكنَّه القول الكونيُّ الذي قال اللهُ عنه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وأمَّا القولُ الشَّرعيُّ فهو ما جاءت به الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسلام، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]؛ فإنَّ قَوْلَه: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قولٌ شَرعيٌّ يُؤْمَرُ به العبدُ، ويُمكنُه امتثالُهُ.

والفرق بين القَوْلَين الكونيِّ والشَّرعيِّ: أنَّ القول الكونيَّ لابُدَّ من نُفُوذه ووُقُوع مَقُولِه بكلِّ حالٍ، أمَّا القولُ الشَّرعيُّ فإنَّهُ قد يَمْتَثِل المقولُ له، وقد لا يَمْتَثِلُ.

٥- ومن فوَائِد هاتَيْن الآيتَيْن: إثباتُ القول لله؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قائلٌ ويقولُ، كما أنَّهُ مُتكلِّم ويتكلَّم، والكلامُ وَصْفُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القائمُ به، وهو وَصْفٌ ذاتيٌّ فِعْليٌّ، فالكَلام باعتبار أصْلِه وصفٌ ذاتيٌّ، لم يَزَل اللهُ ولا يَزَالُ مُتَّصِفًا به، وباعتبار آحَادِهِ وصفٌ فِعْليٌّ، يتكلَّم بما شاء متى شاء، وهذا هو ما ذَهَبَ إلَيْه السَّلَفُ وأهلُ السُّنَّة والجماعة من أنَّ الكلامَ وصفٌ للهِ تعالى قَائِمٌ بذاته، مُتعلِّق بمَشِيئَتِه.

٦- ومن فوَائِدهما: بيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث انقلب هَؤُلاءِ البشرُ من الإنسانيَّة إلى الحيوانيَّة البهيميَّة؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فكانُوا قِردةً.

ويبقى سؤالٌ يَطْرَح نفسَهُ، وهو: هل هذه القِرَدةُ الموجودةُ الآنَ من نَسْلِ بني إِسْرَائِيلَ، أو هي جِنْسٌ من المَخْلُوقات مُنْفردٌ؟

وجوابنا عن هذا أن نقول: هذه القِرَدة الموجودةُ الآن جنسٌ مُنْفَردٌ من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ، مُستقلٌّ بنَفْسِه، أمَّا الذين قُلِبُوا قِرَدةً من بني إِسْرَائِيلَ فإنَّهُ ليس لهم نَسْلٌ، بل ماتوا وهَلَكُوا وبَادُوا، كما قرَّر ذلك أهلُ العلم، وذلك أنَّ بني آدمَ من آدمَ، وآدمُ خَلَقَه اللهُ تعالى من تُراب، ثُمَّ قال له: «كُنْ» فيكون، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

٧- ومن فوَائِد هاتَيْن الآيتَيْن: تَكْذِيبُ مَن زَعَمَ أنَّ البَشَر أصْلُهم قِردة، ثُمَّ تطوَّرُوا حتَّى صارُوا بَشَرًا؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الإنسانَ قِرْدًا حينَما أَراد أن يُعاقِبَه؛ لمُخالَفته أمْرَه، وقد جاءت الآياتُ والأحاديثُ الصَّحيحةُ الصَّريحةُ على أنَّ

آدَمَ خُلِقَ من تُرابٍ، وأجمع على ذلك المُسْلِمُون، ولم يختلف فيه اثنانِ منهم، فمَن اعْتَقَد أنَّ أصْلَ بني آدَمَ قِرَدةٌ فإنَّهُ مُكَذِّبٌ بالكِتَاب والسُّنَّة وإجماعِ المُسْلِمين، فإن قالها عن جَهْلٍ؛ لكونِه عاش في بيئَة لا تَعْلَم سِوَى ذلك، فإنَّه يُعَلَّمُ، فإن أصَرَّ على ما كان عليه صار كافرًا، وإن لم يَقُلْها عن جَهْلٍ، بأن كان مُقيمًا في بلاد المُسْلِمين الذين يقرؤون كِتَابَ الله وسُنَّةَ رَسُوله ﷺ، فإنَّهُ يَكُون كافرًا بمُجَرَّد قَوْلِهِ: إنَّ بني آدم أصْلُهم قِرَدة؛ لأنَّ هذا تكذيبٌ صريحٌ لِمَا عُلِمَ بالضَّرُورَة من دين الإِسْلَام.

٨- ومن فوَائِد هاتَيْن الآيتَيْن الكريمتين: أنَّ مَن رَامَ المرتبةَ بغير استحقاقٍ لها فإنَّهُ يُعاقَب بنقيض قَصْدِه؛ لأنَّ هَؤُلاءِ الذين اعْتَدَوْا واسْتَكْبَرُوا وتَعالَوا عُوقِبُوا بنقيض قَصْدِهم، عُوقِبُوا بأن حُوِّلُوا إلى قِرَدةٍ خَاسِئَةٍ ذليلةٍ، وهكذا كان مَن أراد عُلُوًّا في الأَرْض أو فسادًا فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُصْلِح عَمَلَه، بل يَحُطُّه ويُنَزِّله، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١]، ومَن تَوَاضَع للهِ رَفَعَه، ومَن تعالى على الله وَضَعَه، ولهذا كان الإنسان كُلَّما تَوَاضَعَ للحقِّ وللخَلْق ازداد رِفْعةً عند الله وعند الخَلْق أيضًا.

٩- ومن فوَائِد هاتَيْن الآيتَيْن الكريمتين: إثباتُ العُقُوبة، وأنَّ العُقُوبة لابُدَّ أن يَكُون لها تأثيرٌ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾، ووجهُ ذلك: أنَّ كُلَّ مَن اطَّلَعَ على حال هؤلاء فلابُدَّ أن يَنْكُل -أي: يمتنع- عمَّا كان عليه من الإثم والعُدْوَان، سواء كان ذلك بتَرْكِ الواجب، أو انْتِهاكِ المُحَرَّم.

واعلم أنَّ الجَعْلَ الذي أضافه الله لنَفْسِهِ ينقسمُ إلى قِسْمَين: قسمٍ كَوْنِيٍّ، وقسمٍ شرعيٍّ، فمن الكونيِّ: قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾

[النبأ:١٠-١١]، ومن الشَّرعيِّ: قولُهُ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:١٠٣]، أي: ما شَرَعَ هذه الأشياء.

١٠- ومن فوَائِد هاتَيْن الآيتَيْن الكريمتين: أنَّ الموعظة إنَّما يَنْتَفِع بها المُتَّقُون؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فمَن ليس بمُتَّقٍ فإنَّهُ لا ينتفعُ بالموعظةِ، وكُلَّما كان الإنسان أتْقَى للهِ كان أَوْعَى للمَوْعِظَة، وأكثرَ انتفاعًا بها، وشاهِدُ هذا ظاهرٌ في المَحْسُوس، فإنَّك تجد الرَّجلَ المُتمادِيَ في المعاصي المُنْهَمِكَ فيها لا ينتفعُ بالمَوْعِظَة والإِرْشَاد، وتجد الرَّجلَ المستقيمَ المُتَّقيَ إذا وُعِظَ انتفع، فإن كان في اتِّجاهٍ إلى مُحَرَّم عَدَلَ عنه، وإن كان مُتهاوِنًا في مَأْمُور اتَّجه إلى فِعْلِه، واستبقَ إلَيْه.

١١- ومن فوَائِد هاتَيْن الآيتَيْن الكريمتين: أنَّ للتقوى فوَائِدَ، منها: المَوْعِظةُ، أي: الاتِّعاظُ بما يَحْصُل من آيات الله الكونيَّة أو آيات الله الشَّرعيَّة.

وللتَّقوى فَوَائدُ كثيرةٌ، ذَكَرَها الله تعالى في كِتَابه العظيم، منها:

- أنَّها سببٌ لتَيْسِير الأُمُور؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

- ومنها: أنَّها سببٌ لتَفْرِيج الكُرُبات؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

- ومنها: أنَّها سببٌ للهِدَاية والنُّور؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:٢٩].

فإذا كانت التَّقْوَى بهذه المثابة كان لِزَامًا على العاقل أن يَلْتَزِم التَّقْوَى؛ حتَّى تحصل له هذه الفَوَائِدُ العظيمةُ التي رُتِّبَت عليها[1].

•••••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

في هذه الآياتِ الكريمةِ يُذَكِّرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بني إِسْرَائِيلَ بهذه القِصَّة الغَرِيبَة العَجِيبَة التي وقعت من أَسْلَافهم من بني إِسْرَائِيل، وذلك أنَّهم قَتَلُوا نَفْسًا،

---

(١) لفضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة صغيرة في فوائد التقوى، وهي من إصدارات مؤسسة الشيخ محمد ابن صالح العثيمين الخيرية، برقم (٨٧).

فاخْتَصَمُوا فيها، وتَدارَؤُوا فيها، وكلُّ قبيلَةٍ تَدَّعي أنَّ القَبِيلَة الأُخرى هي التي قَتَلَت هذه النَّفْسَ، واشْتبَهَ عليهم الأمرُ، فارتفعُوا إلى موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقال لهم مُوسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾، ولكن لطُغْيانهم، وعُتُوِّهم، واسْتِبْعادِهم ما عند الله عَزَّوَجَلَّ، سَخِرُوا بموسى، وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي: أتَسْتَهْزِئُ بنا؟! فما شأنُ ذَبْحِ البقرة بهذه المُشْكِلَة؟! فقال لهم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ الذين يَجْهَلون حقَّ البشر، أو الذين يَعْتَدُون على البَشَر، وذلك لأنَّ الجهل قد يُرادُ به عدمُ العلم، وقد يُرادُ به العُدْوَان، وهو الجَهالَة، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [النساء:١٧]، ومن ذلك أيضًا: قولُ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالجَهْلَ، وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَا حَاجَةَ للهِ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»[1] يعني: في الصَّوم، فالجَهالَة قد تكون بمعنى: السَّفاهة، وسُوءِ التَّصرُّف، والعُدْوانِ على الغَيْرِ، وقد تكون بمعنى: عدم العِلْمِ، فقول مُوسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ يحتمل المعنيين جميعًا.

فلمَّا رَأَوا موسى جادًّا فيما قال لم يَمْتَثِلُوا أيضًا امتثالًا فَوْرِيًّا يدلُّ على الانْقِيَاد التَّامِّ، ولكنَّهم عانَدُوا بالاسْتِفْصَال، فقالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما سِنُّها؟ وما عُمُرُها؟ وهل هي كبيرةٌ، أو صغيرةٌ؟ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ يعني:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾، رقم (٦٠٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا اللفظ لابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، رقم (١٦٨٩).

أنَّها لا كبيرةٌ، ولا صغيرةٌ، ولكنَّها عَوانٌ بين ذلك، ثُمَّ أمَرَهم أن يَفعلُوا ما أُمِرُوا به، ولكنَّهم لم يَفْعَلُوا، ولم يَمْتَثِلُوا أمْرَ نبيِّهم، بل إنَّ ظَاهِرَ الآيَة الكريمَة: أنَّ الأَمْرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ صادرٌ من الله؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أي: أنَّهم لم يمتثلُوا، ولم يفعلُوا ما أُمِرُوا بـه، بل ذَهبُوا يَسْتَفْصِلُـون اسْتِفْصَـالًا آخر عن اللَّـوْن، فقـال مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾، فبَيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّها بقَرةٌ صَفْرَاء لَوْنُها فَاقِعٌ، أي: واضح الصَّفار، تَسُرُّ النَّاظرين بحُسْنِها وجَمَالِها.

ولم يَقْتَصِرُوا على ذلك، بل طَلَبُوا تفصيلًا آخر، فقَالُوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ يعني: أنَّهم تَشَابَه عليهم البَقَرُ الصُّفْرُ؛ لأنَّهم كانوا يُشاهِدُون بقَراتٍ صَفْرَاءَ، فقالوا: فماذا يُراد منَّا أن نَذْبَح من هذه البقَراتِ؟ قال موسى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي: أنَّها بقَرَة لا تُسْتَعْمَل في الحَرْث لا سُقْيًا، ولا إثارَة، فلا تُثِير الأَرْض لحَرْثِها، ولا تَسْقِي الحَرْثَ -أي: الزَّرْعَ القائمَ- ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لا عَيْبَ.

وإنَّما قال: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ بعد قَوْلِه: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾؛ لئلا يَظُنُّوا أنَّها بقَـرةٌ هزيلَةٌ عَجْفَاءُ ليس بها حِرَاكٌ، فقال: إنَّها ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليس فيها عيبٌ، وحينئذٍ قالوا: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: في هذه الحال جئتَ بالحقِّ.

وتأمَّل ماذا تدلُّ عليه هذه الكلمةُ من الاسْتِخْفَاف بموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبيان أَنَّهم لن يَقْبلُوا من أمْرِه إلَّا ما ظنُّوا أَنَّهُ الحقُّ؛ حيث قالوا: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ على الوصف الذي بيَّنَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على لِسَان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومع ذلك ذَبحُوها وهم لم يُقَارِبُوا فِعْلَ الذَّبْح؛ أي: من أجل تأخُّرهم وتَوَانِيهم وتَكَاسُلِهم عن تنفيذ ما أَمَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: ذَبحُوها بعد أن كادُوا- أي: قَارَبُوا- أَلَّا يفعلوا؛ لأَنَّهم قومٌ عندهم من الطُّغْيَان والعُتُوِّ على شرع الله ما لا نَعْلَمُه صَدَرَ عن أُمَّةٍ سِوَاهم، اللهمَّ إلَّا ما ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ عن قوم نوحٍ، حين قال نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧].

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تعالى بعد ذِكْر أوصَاف هذه البقَرَة ونِهَايَتها وغَايَتها ذَكَرَ اللهُ سبب هذه القِصَّة، فقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: قَتَلْتُم نفسًا مُحْتَرمةً مُحَرَّمةً، فاخْتَلفتُم فيها، فبيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما حَصَلَ بواسطة هذه البَقَرَة التي ذُبِحَت، وذلك بأن يَضْرِبُوا هذا القتيلَ ببَعْضِها، قال اللهُ تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فضَرَبُوه بعُضْوٍ منها -ولا ضَرُورَةَ لتَعْيِينِه- ثُمَّ نَطَق القتيلُ، وقال: إنَّ الذي قَتَلَني فلانٌ، فبيَّنَ اللهُ تعالى ما كانوا يَكْتُمُونه.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فِي هذه الآيَة الكريمَة يُبيِّنُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ بني إِسْرَائِيل بعد أن أَنْعَم اللهُ عليهم ببيان قَاتِلِ القتيل الذي ادَّارؤُوا فيه، وكادت تَحْصُل فتنةٌ عظيمةٌ لولا أنَّ الله مَنَّ عليهم بما ذُكِرَ، أنَّهم بعد هذا -أي: بعد ما حَصَلَ من هذه النِّعْمَة الكبيرة- قَسَت قُلُوبُهم، أي: صَلُبَتْ، وعَظُم استكبارُهم، فكانت قُلُوبهم كالحِجَارة أو أشدَّ قَسْوةً، وإنَّما ضَرَبَ اللهُ المَثَلَ بالحِجَارة دون الحديد؛ لأنَّ الحَدِيدَ قد يلينُ مع النَّار، لكن الحِجَارة لا تلينُ، فهي كالحِجَارة أو أشدُّ قسوةً، بل إنَّ الحِجَارَة خيرٌ من قُلُوبِهم؛ لأنَّ الحِجَارَة يَخْرُج منها ما فيه منافعُ للنَّاس، ويَهْبِطُ منها ما يَهْبِط من خَشْيَة الله، فمن الحِجَارة ما تتفَجَّر منه الأنهارُ، ومن الحِجَارة ما يَشَّقَّقُ -أي: يتشقَّق- فيخرجُ منه الماءُ، ومن الحِجَارة ما يَهْبِط من خَشْيَة الله، ثُمَّ خَتَمَ اللهُ الآيَة الكريمَة ببيان كَمَالِ مُراقَبَتِه وعِلْمِه، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فوَائِد الآياتِ الكريمَةِ:

١- من فوَائِدها: أنَّ الرُّجُوع إلى الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام في الأُمُور المُهِمَّة التي طَرِيقُها الشَّرعُ كان أمرًا فِطْرِيًّا، سار النَّاسُ عليه منذ زَمَنٍ بعيدٍ.

ويتفَرَّعُ عن هذه الفائدة: أنَّ الواجبَ على الأُمَّة إذا أَشْكَل عليهم شيء من أُمور دينهم أن يَرْجِعُوا إلى أهل العِلْمِ بشريعة الله؛ وذلك لأنَّ شَريعَة الله تعالى -لاسِيَّما الشَّريعَةُ الإسْلاميَّةُ التي جاء بها مُحَمَّد ﷺ- فيها شِفَاءٌ لكلِّ داءٍ، وفيها حلٌّ لكلِّ مُشْكِلٍ، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، أي: إلى كِتَاب الله، وإلى الرَّسُول ﷺ في حَيَاته، وإلى سُنَّته بعد مَماته، ولم يأمر اللهُ تعالى بالرُّجُوع إلى الله ورَسُوله إلَّا لأنَّنا سنَجِدُ الحلَّ الشَّافيَ الكَافيَ في

الرُّجُوع إلى كِتَاب الله وسُنَّة رَسُوله ﷺ، وما ضَرَّ الأُمَّةَ وأَوْجَد عندها المشاكلَ التي لا مُنْتَهى لها إلَّا غَفْلَتُهم عن كِتَاب الله وسُنَّة رَسُوله ﷺ.

٢- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمَة: بيانُ عُتُوِّ بني إِسْرَائِيلَ، وتأخُّرِهم في تنفيذ أوَامِر الله، وأنَّهم قومٌ مُعانِدُون مُتَشدِّدون، شدَّدُوا فشَدَّد اللهُ عليهم؛ لأنَّهم ذَكَرُوا استفصالاتٍ كثيرةً في هذه البقرة التي أُمِرُوا بذَبْحِها، ولو أنَّهم ذَبَحُوا أيَّ بقرةٍ حينما أُمِرُوا أن يَذْبَحُوا بقرةً لحَصَلَ لهم المَقْصُودُ، لكنَّهم شَدَّدُوا، فشَدَّد اللهُ عليهم.

٣- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمَة: أنَّ الأَمْرَ إذا جاء مُطْلَقًا فإنَّهُ لا يَنْبَغِي أن يُسْتَفْصَل فيه؛ لأنَّ الاستفصالَ قد يُؤَدِّي إلى إضَافة شُرُوطٍ ثقيلةٍ، فإذا جاء أمْرُ الله عَزَّوَجَلَّ في زمن الوحي مُطْلَقًا فإنَّ الاستفصالَ عن قُيُودٍ من شأنِ القوم الذين لا يُريدون امتثالَ الأَمْر على وَجْهِ الفوريَّة.

أمَّا بعد انقطاع الوحي فإنَّهُ لا حَرَجَ على الإنسان إذا وَرَدَ الأمر مُطْلَقًا أن يَبْحَث عن شيءٍ مُقَيِّدٍ له، وذلك لأنَّ الشَّريعَة قد تمَّت، ولا يُمكنُ زيادةُ إضافاتٍ إلَيْها، فهنا يُفَرَّقُ بين أن يَجِدَ الإنسانُ أمْرًا مُطْلَقًا في القُرْآن والسُّنَّة، فيَبْحَث عن تَقْييد له فيما بعد انْقِطَاع الوحي، وبين ما كان في زمن الوحي، فما كان في زمن الوحي فإنَّهُ لا يَنْبَغِي الاستفصالُ عن قُيُود فيه؛ لئلَّا تَرِدَ قُيُود تُضَيِّق الأمرَ، وأمَّا بعد زمن الوحي فلا بأسَ بالبحث عن قُيُود؛ لأنَّ النُّصوص أحيانًا تأتي مُطْلَقَةً في موضعٍ، وتُقَيَّدُ في موضعٍ آخرَ.

٤- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمَة: بيانُ ما عليه بنو إِسْرَائِيلَ من سُوء الظَّنِّ

فإنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعْظَمُ أنبياء بني إِسْرَائِيلَ، ومع ذلك قال له بنو إِسْرَائِيل حين أمَرَهم أن يذبحُوا بقرةً: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

٥- ومن فوَائِد هذه الآيَاتِ الكريماتِ: تحريمُ الاسْتِهْزَاء بالغير والسُّخْرِية منهم؛ لقول موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فالاسْتِهْزَاءُ بالغير والسُّخْرِية منه جَهالَةٌ وعُدْوَانٌ على المُسْتَهْزَئ به المَسْخُورِ منه، لا يَقَعُ إلَّا من سفيهٍ أو جاهلٍ بالشَّريعَة.

٦- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام لا يَلْجَؤون إلَّا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا كان الأنبياءُ عليهم الصَّلاة والسَّلام لا مَلْجَأ لهم إلَّا الله، فما بالك بمَن دُونَهم؟!

ويتفَرَّع عن هذا: قَطْعُ الشِّرك الذي يَقَعُ فيه كثيرٌ من النَّاس، حينما يَلْجَؤون إلى الموتى من الأنبياء أو ممَّن يَزْعُمونهم أولياءَ، يَلْتَجِؤُون إليهم، ويَسْتَعيذُون بهم، ويستغيثون بهم؛ فإنَّ الاسْتِعَاذة بغير الله عَزَّوَجَلَّ في أمرٍ لا يَقْدِرُ عليه المُسْتَعَاذُ به من الشِّرْك، وكذلك الاسْتِغَاثةُ بغير الله في أمرٍ لا يَقْدِر عليه المُسْتَغاثُ به هو من الشِّرك أيضًا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المَلْجَأ الذي يَلْجَأ إلَيْه كُلُّ مخلوقٍ، ولا عَاصِمَ من أمر الله إلَّا مَن رَحِمَ.

٧- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ المُجْمَل إذا عُلِمَ المرادُ منه فلا بأسَ أن يَكُون الجوابُ عليه مُفَصَّلًا، وإن كان هو مُجْمَلًا؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ...﴾ الآية، فإنَّ قولهم في قَوْلِه تعالى: ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ مُجْمَل مُبْهَم؛ لأنَّ الأسماءَ المَوْصُولَةَ من الأسماءِ المُبْهَمةِ المُجْمَلةِ، فلا يُعْلَم ماذا يُريدون

بقولهم: ﴿مَا هِيَ﴾، لكن إذا كان المُخاطَب يَعْلَم المراد بهذا المُجْمَل المُبْهَم فلا بأسَ أن يَكُون الجوابُ على حَسَب ما فَهِمَه المُخاطَبُ، ولهذا قال لهم مُوسى كما في قَوْلِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾ إلى آخر الآيات.

٨- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: إثباتُ القول لله عَزَّوَجَلَّ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾.

٩- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مُجيبٌ لِمَن دَعاه؛ لأنَّ مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دعا ربَّه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يُبيِّنَ ما هي؟ فأَخْبَرهُ الله أنَّها ﴿بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

١٠- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمَة: أنَّ أحْسَن شيء يُتَقَرَّبُ به إلى الله ما كان فَوْقَ الصِّغَر ودُونَ الكِبَر الكثير؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، ولهذا جاء في الحديث الصَّحيح: «**لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً، إِلَّا أَنْ يَعْسُرَ عَلَيْكُمْ، فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ**»[1]، فنهَى النَّبيُّ ﷺ عن التَّقرُّب إلى الله بذَبْح الصَّغيرة، ومن المَعْلُومِ أنَّهُ كُلَّما كَبُرت البهيمةُ قلَّ شَأْنُ لَحْمِها وتَردَّى، فلهذا يَكُون ما بين الصَّغيرة والكبيرة هو الأَفْضَلَ فيما يُتقرَّبُ به إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

١١- ومن فوَائِد قَوْلِه تعالى: ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾: أنَّهُ يَجِبُ على المأمور أن يَمْتَثِل ما أُمِرَ به على الوجه الذي أُمِرَ به؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿مَا تُؤْمَرُونَ﴾، و﴿مَا﴾ هذه مَوْصُولة تَشْمَل عَيْنَ المأمور ووَصْفَ المأمور، وما أُمِرَ به شرعًا فإنَّ الامتثال

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب بيان سن الأضحية، رقم (١٩٦٣) من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لا يَحْصُل فيه إلَّا إذا فَعَلَه الإنسانُ على وجهٍ ليس فيه زيادةٌ ولا نقصٌ؛ لأنَّ الزِّيادة غُلُوٌّ، والنَّقص تَفْرِيط.

١٢- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ بني إِسْرَائِيل عندهم من التَّهاون والتَّفريط في تنفيذ أوامر الله ما يتبيَّنُ من هذه القِصَّة وغيرها، فهم حين طُلِبَ منهم أن يَفْعَلُوا ما يُؤْمَرون لم يفعلوا، بل ازدادُوا تعنُّتًا وتشدُّدًا، فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ الآية.

ويُسْتَفاد من هذه الآية: شدَّةُ تعنُّت بني إِسْرَائِيل وتشدُّدهم، وإلا فما شأنُ اللَّون بالنِّسبة للغَرَض المقصود من ذَبْحِ هذه البقرة؟! ولكنَّهم لتشدُّدهم وتمنُّعهم في تنفيذ أمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ صارُوا يسألون عن اللَّون، ولعلَّ هذا السُّؤال من حكمة الله تعالى أن يُشَدِّد عليهم، فإنَّهم لَمَّا شدَّدُوا شدَّدَ اللهُ عليهم.

١٣- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ ما كان جميلًا من الحيوان الذي يُتَقَرَّبُ به إلى الله فهو أَكْمَلُ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾، فإن قال الإنسانُ: ما عَلاقة هذا بما يُتَقَرَّبُ به إلى الله؟

فالجَوابُ عن ذلك أن نقول: إنَّه لَمَّا كانت هذه البَقَرَة ممَّا أَمَرَ اللهُ به كانت قُرْبَةً إلى الله؛ لأنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَمَرَ قَوْمَه أن يَذْبَحُوا هذه البقرةَ، فامْتِثَالُهم لأمر موسى قُرْبَة إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإن كان الغرضُ من هذا هو الإرشادَ، فإنَّ فيه شائبةَ القُرْبَة، وقد يُقال: إنَّه قُرْبَةٌ مَحْضَةٌ؛ لأنَّهُ يحصل به درءُ مفسدةٍ وفتنةٍ كادت تقع بين بني إِسْرَائِيل لولا أنَّ الله تعالى أبان القتيلَ بهذه الوسيلة.

١٤- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّهُ يجوز أن يحمل المُخَاطَب الشَّيء

المُبْهَم المُجْمَل على ما يظنُّه من المراد، حيث قالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ الآيات؛ فإنَّ ﴿مَا هِيَ﴾ هي الصِّيغَة التي وردت في أوَّل القصة فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، ومع ذلك كان الجوابُ هناك بقَـوْلِه: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ﴾ الآية، والجوابُ هنا بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾، مع أنَّ جُمْلَة الاستفهام واحدة في صِيغَتِها، لكن المُخَاطَب يفهمُ من كُلِّ صيغةٍ ما يقتضيه المقامُ.

١٥- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ بني إِسْرَائِيل لَمَّا قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ وفَّقَهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للهُدَى في النِّهاية، ولولا أنَّهم قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ لم يُوَفَّقوا، بمَعنَى: لو أنَّهم عَزَمُوا على أن يكونُوا مُهْتَدين بدون أن يقولوا: «إِنْ شَاءَ اللهُ» فإنَّهم حريٌّ ألَّا يُوَفَّقوا؛ لأنَّ قَرْنَ الخبر بالمشيئة على فِعْلٍ مستقبلٍ أمرٌ مطلوبٌ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يُسَهِّل هذا الأمرَ، ولهذا لَمَّا قال سُلَيمَانُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: لأطُوفَنَّ اللَّيْلَة على تسعين امرأةً[1] كلُّهنَّ تأتي بفارسٍ يُجاهِدُ في سبيل الله. فقال له صَاحِبُهُ: قل: إن شاء اللهُ! فلم يقل: إن شاء اللهُ. وذلك لِعَزْمِه على هذا الأمرِ، فطاف عليهنَّ جميعًا، فلم تَحمِل منهنَّ إلَّا امرأةٌ واحدةٌ، جاءت بشقِّ رَجُلٍ، فقال النَّبي ﷺ: «**لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ، وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**»[2]، وليس هذا من باب الخَبَرِ عن أمْرٍ واقعٍ؛ فإنَّ الخبر عن أمرٍ واقعٍ لا يَحْتَاج إلى قول: «إن شاء اللهُ»، إلَّا على سبيل التَّبرُّك أو التَّعْلِيل، ولهذا كان القول الرَّاجح في قول الإنسان: «أنا مؤمن إنْ شَاءَ اللهُ» إذا كان غَرَضُه الإخبارَ عن الأمر الواقـع فإنَّـهُ

---

(١) أي: بالجماع.

(٢) تقدم تخريجه (ص:٣٧).

لا يحتاجُ إلى قَوْلِه: «إن شاء اللهُ»؛ لأنَّ هذا خبر عن شيءٍ حَصَل إلَّا أن يُريد بذلك أنَّ إيمانه حَصَلَ بمشيئة الله، أو أن يُريدَ التَّبرُّك بإضافة إيمانِه إلى مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، وبَرَاءَتِه من حَوْلِ نَفْسِه وقُوَّتِها إلى مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ هذا لا بأسَ به.

ومِن ثَمَّ كان الاستثناءُ في الإيمان يختلفُ، فإن كان الحاملُ عليه الشَّكَّ في وجود الإيمان فهذا حَرَامٌ لا يجوز، بل كُفْرٌ؛ لأَنَّهُ يُنافي الإيمانَ الجَازِمَ، والإنسان يجبُ عليهِ أن يُؤْمِن إيمانًا جازمًا لا شَكَّ فيه، وإن كان الغرضُ من ذلك التَّبرُّك أو بيانَ أنَّ ما حصَل واقعٌ بمشيئة الله فإنَّ هذا لا بأسَ به.

وبهذا التَّفصيل يَنْجَلِي الإشكالُ الذي حَصَل عند كثير من أهل العِلْمِ: هل يجوز للإنْسَان أن يستثني في إيمانه، فيقول: «أنا مؤمن إنْ شَاءَ اللهُ»، أو لا يجوز؟ نسألُ اللهَ تعالى أن يُحقِّق لنا جميعًا إيمانَنا، وأن يَجْعَله إيمانًا لا كُفْرَ معه، ويقينًا لا شَكَّ معه، وأن يَهَبَ لنا منه رحمةً؛ إنَّهُ هو الوَهَّابُ.

١٦- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أَنَّهُ إذا ذُكِرَت أوصافٌ في شَخْص يُخْشَى منها أن يَتَوَهَّم المُخاطَب شيئًا خِلاف الواقع فإنَّهُ لابُدَّ من ذكر قَيْدٍ يَرْفَعُ هذا التَّوَهُّم، وذلك في قَوْلِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾؛ فإنَّ في قَوْلِهِ: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ قد يقولُ قائلٌ: إنَّ فيها عيبًا؛ لأنَّها لا تَقْدِرُ على أن تُثيرَ الأَرْض أو تَسْقِيَ الحَرْثَ، فبيَّن الله تعالى أنَّها ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾، وهذا يُسَمَّى في علم البَلاغة بالاحتراز أو بالاحتراسِ، وقد جاء ذلك في القُرْآن في مواضعَ، منها: قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ

﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾، فقد قال اللهُ بعد هذا: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩]، فلمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى أَنَّهُ فَهَّمَ الحكمَ الصَّحيحَ سُلَيمانَ، وكان ذلك يُخْشى منه أن تَهْبِطَ منزلةُ داود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيَّنَ اللهُ تعالى أَنَّهُ قد آتى داودَ وسُلَيمانَ حُكْمًا وعِلْمًا، وأنَّ اللهَ سخَّر لداود الجِبالَ تُسَبِّح معه والطَّير إلى آخر الآيات.

ومن ذلك أيضًا: قَوْلُه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]؛ فإنَّ قَوْلَه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟﴾ قد يُؤَدِّي إلى انْحِطَاطٍ كبيرٍ في رُتْبَة الآخرين الذين أنفقُوا من بَعْدُ وقاتلوا، فرَفَعَ اللهُ ذلك فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

ومن ذلك أيضًا: قَوْلُه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء:٩٥]، فلمَّا ذكر اللهُ تفضيلَ المُجاهدين على القَاعِدِين قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ لئلَّا يَتَوهَّم واهمٌ نزولَ رُتْبَة الآخرين نُزُولًا فاحشًا.

١٧- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: بيانُ ما عليه بنو إِسْرَائِيل من التَّعاظُم والتَّرفُّع والاستعلاء؛ لقَوْلِهِم: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، فكأنَّهم هم الذين يَحْكُمون على ما جاء به موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من كونه حقًّا أو باطلًا؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، ومن المَعْلُومِ أنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد جاء بالحقِّ في ذلك الآن وقَبْلَه.

١٨- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أَنَّهُ يجوز حَرْثُ الأَرْض بالبَقَـر، وسَقْيُ الحَرْث بها؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾.

١٩- ومن فوَائِدها: الإشارةُ إلى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَلَّا نَسْتَعْمِل في حَرْث الأَرْض وسَقْي الزَّرع إلَّا ما كان ذَلُولًا طَيِّعًا، وذلك لأنَّ الشَّمُوس أو الصَّعْب قد يُفْسِد أكثرَ ممَّا يُصْلِح.

ويُمكن أن نُفَرِّع عن هذه الفائدة فائدةً أُخْرَى، وهي: أَلَّا نستعمل من الأشياء إلَّا ما دَلَّت التَّجارِبُ على أَنَّهُ صَالِح فيها؛ حتَّى لا نَقَعَ في الخطإ والزَّلَل.

٢٠- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ بني إِسْرَائِيل حين امْتَثَلُوا ما أَمَرَهم موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذَبْحِ البقرة مع التَّشدُّد والتَّعنُّت والاستِفْصَال لم يذبحوها عن انقيادٍ تامٍّ وتنفيذٍ فوريٍّ، وإنَّما ذَبَحُوها ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي: ما قَارَبُوا الفِعْلَ؛ لكونِهم مُتَّصفين بالعُلُوِّ والاستكبار.

٢١- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أَنَّهُ يجوز ذِكْرُ المُسَبَّب قبل ذكر السَّبب؛ فإنَّ الذَّبح كان سَبَبُه الاختلاف الذي وقع بين بني إِسْرَائِيل بشأن القَتِيل، ومع ذلك ذُكِرَ قبل أن يُذْكَر السَّبَب؛ لأَنَّهُ هو محَلُّ العِبْرَة، وهو الذي يَكْشِفُ حال بني إِسْرَائِيل على وجه الحقيقة، وأنَّهم قومٌ لا يمتثلون لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ إلَّا بعد أن تَقْبَلَه نُفُوسهم، وكأنَّهم يُريدون أن يتَّبع الحقُّ أهواءهم، ويدلُّ لهذا قولُهم: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٢- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: بيانُ قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حيث كان ضَرْبُ هذا القتيل سببًا لحَيَاته؛ فإنَّ إحياء الموتى لا يَكُون إلَّا بقُدْرَة الله عَزَّ وَجَلَّ،

ولهذا لَمَّا نَاظَر إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَنْ حَاجَّهُ في الله قال له إبراهيمُ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، قال هذا المُحَاجُّ: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وهو كاذب فيما ادَّعاهُ؛ فإنَّهُ لا يَقْدِرُ على الإحياء والإماتة إلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٢٣- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليم بكُلِّ شيء، وأنَّ ما كَتَمَه الإنسان فإنَّ الله تعالى سيُخْرِجُه، ولاسِيَّما إذا كان في خُرُوجه للعِبَاد مصلحةٌ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٢٤- ومن فوَائِدها: أنَّ القاتل لابُدَّ أن يُخْرِجَه الله تعالى ويُبَيِّنَه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء:٣٣]؛ فإنَّ الآيَة الكريمَة تدلُّ على أنَّ وليَّ المقتول له سُلْطَانٌ شرعيٌّ وسُلْطَانٌ قَدريٌّ؛ فإنَّ الله تعالى يُبيِّن هذا القَاتِلَ حتَّى يُقْتَل، ولهذا قال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾.

٢٥- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ هذه القِصَّة قِصَّةٌ من خمس قِصَصٍ في سورة البقرة، كلُّها فيها إحياءُ الموتى، وسنُبَيِّن ذلك إنْ شَاءَ اللهُ فيما بعدُ[1].

٢٦- ومن فوَائِد الآيات المذكورة في هذه القِصَّة: جوازُ الأَمْرِ بالمُبْهَم إذا كان يُمكنُ امتثالُهُ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾؛ فإنَّ البعض يتناولُ أيَّ جزء من أجزائها؛ كاليد، أو الرِّجل، أو القَلْب، أو الكَبِد؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

وبناءً على ذلك: لو أنَّك قلت لشخص: افعل بَعْضَ هذه الأشياء، وذكرتَ له أشياء مَحْصُورةً، فإنَّ هذا الأمر صحيحٌ، ويَبْرَأُ الإنسانُ الذي أمَرْتَه بفعل بَعْضِه، أي: بفعل ما شاء منه، أمَّا إذا كان هذا الإبهامُ لا يُمكنُ تَحْقِيقُه فإنَّ الواجب

---

(١) جاء تعدادها في الفائدة رقم (٢٧).

الاستفصالُ، ولهذا لمَّا قال اللهُ تعالى للقلم: اكْتُبْ. قال: ربِّ! وماذا أَكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فكَتَبَ القلمُ ما هو كَائِنٌ إلى يوم القِيامَة[1]، وذلك قبل أن يَخْلُق الله السمواتِ والأَرْضَ بخمسين ألف سَنَةٍ.

٢٧- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: بيان قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على إحياء الموتى، وقد ذكرنا فيما سَبَقَ أنَّ الله ذكر خَمْسَ قِصَصٍ في سورة البقرة فيها إحياءُ الموتى، فمن ذلك: ما سَبَقَ في قَوْلِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

ومنها أيضًا: هذه القصة: قِصَّة القتيل الذي اخْتَلَف بنو إِسْرَائِيل في قَاتِلِه.

ومنها: قِصَّة القوم ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٣].

ومنها: قِصَّة الرَّجل الذي ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة:٢٥٩].

والخامسة: قِصَّة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠].

---

(١) أخرجه بمعناه أبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في الرضى بالقضاء، رقم (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧) من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادرٌ على إحْيَاء الموتى كُلِّهم بكَلِمَةٍ واحدةٍ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤].

٢٨- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرى عِبَادَه من آياته ما يكونُ به العقلُ والرُّشْدُ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وآياتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تنقسمُ إلى قِسْمَين: آياتٍ كونِيَّةٍ، وآياتٍ شَرْعِيَّةٍ، فالآيات الكونيَّة: ما يَحْصُل بخَلْقِه وتَقْدِيره، مثل: السَّموات، والأَرْض، والشَّمس، والقمر، والنُّجُوم، والجِبَال، والشَّجر، والدَّواب.

والآيات الشَّرعيَّة: ما جاءت به الرُّسُل من الأوامر، والنَّواهي، وغيرها من أقْسَام الوحي.

٢٩- ومن فوَائِد الآيات الكريمات: أنَّ تدُبَّر الآيات سببٌ للعقل؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والعَقْلُ عَقْلَان: عَقْلُ إدْرَاكٍ، وعَقْلُ تصرُّفٍ، فعقلُ الإدراك: هو الذي يترتَّب عليه التَّكليفُ، ويكونُ في المؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، وأمَّا عقل التَّصرُّف فهو ما يَحْصُل به الرُّشْد، وهو حُسْن التَّصرُّف في أفعال الإنسان وأَقْوَالِه، وهذا خاصٌّ بمَن آتاه اللهُ الحِكْمَة؛ كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

وعلى هذا فلو سألنا سائلٌ: هل الكُفَّار عُقَلاء؟

فالجَوابُ أن نقـول: هم عُقَلاء من حيثُ عقـلُ الإدْرَاك الذي يترتَّب عليه التَّكْليفُ، وليسُوا عُقَلاء من حيث عقلُ التَّصرُّف الذي يَحْصُل به الرُّشْد، ولهذا

ينفي الله عن الكُفَّار كثيرًا سِمَةَ العَقْلِ، كما فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال:٥٥]، وقَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣]، فالكُفَّار ليس لهم عقلُ تصرُّفٍ يُوصِلُهم إلى الرُّشْد، وإن كان عندهم عقلُ إِدْرَاك يترتَّب عليه التَّكليفُ والمُؤَاخذةُ.

٣٠- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: إثباتُ الأسباب فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقد تقدَّم الكلامُ فيما سَبَقَ عن ذكر اخْتِلاف النَّاس في الأسباب، وبَيَّنَّا أنَّ القول الوسط هو إثباتُ تَأْثِير الأَسْبَاب، لكن لا بذَاتِها، ولكن بما أودَع اللهُ فيها من القُوَّة التي تُؤَثِّر في المُسَبَّبات[1].

٣١- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ بني إِسْرَائِيل بعد هذا كُلِّه قَسَتْ قُلُوبُهم، ولم يَزْدَادُوا بهذه الآياتِ والنِّعَمِ لِينًا للحقِّ وقَبُولًا له، ولكنَّهم قَسَتْ قُلُوبُهم من بعد ذلك.

٣٢- ومن فوَائِد هذه الآياتِ الكَرِيمَات: التَّحذيرُ ممَّا جرى لبني إِسْرَائِيل من قَسْوَة القُلُوب بعد رُؤْيَة الآيات التي يُرِينا اللهُ إيَّاها، فمثلًا: إذا رأينا من آيات الله من الفَسَاد ما تلينُ به القُلُوبُ، ويَحْصُل به الرُّجُوع إلى الله، فإنَّ الواجب علينا أن نَقُوم بذلك، أي: بالرُّجوع إلى الله، وأن تلينَ قُلُوبُنا لذِكْرِ الله، أمَّا إذا كان الأمرُ بالعكس، لا يَزْدَاد الإنسان من رُؤْيَة الآياتِ إلَّا قَسْوَة قَلْبٍ وتمرُّدًا في الفعل، فإنَّ هذا وُقُوعٌ فيما كانت عليه بنو إِسْرَائِيل، نسألُ الله السَّلامة.

---

(١) انظر: (ص:١٠٧).

٣٣- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: التَّحذيرُ من قَسْوَة القلب بعد ظُهُور الآيات؛ لأنَّ هذا أعْظَم شَرًّا وأَكْبَرُ إثمًا ممَّا إذا لم يرَ الإنسانُ من آيات الله ما تَقُوم به الحُجَّة، ومع الأسف أنَّ بعض النَّاس بعد ظُهُور الآيات لا يَزْدَاد إلَّا كِبْرًا وعِنَادًا، فتجدُ من آيات الله ما يَظْهَر ظُهُورًا بَيِّنًا، سواء أكانت هذه الآياتُ من الأُمُور الفَلَكيَّة، أم الأَرْضِيَّة، أم الوَاقِعَة بين النَّاس، فإنَّ كثيرًا من النَّاس لا يَهْتَمُّ بها، ولا يَذْكُرها إلَّا على سبيل أنَّها واقِعَة فقط، فعند كُسُوف الشَّمس أو خُسُوف القمر لا نَجِدُ كثيرًا من النَّاس يتأَثَّرُ أو يُقْبِلُ على المساجد؛ ليَفْعَل ما أَمَرَ به الرَّسُولُ ﷺ من الصَّلاة، وعند حُصُول الزَّلازل والفَيَضَانات والعواصف الشَّديدة لا نجدُ كثيرًا من النَّاس يهتمُّ بها، ويَقْلَق منها، ويَخْشَى أن يُصَاب بمثلها، بل لا يَذْكُرونها إلَّا على أنَّها حوادثُ وقَعَت، وكأنَّها -كما يقولون- كوارثُ طبيعيَّة، لا يُلْتَفت إلَيْها.

ونجد كثيرًا من النَّاس تقع بينهم الحُرُوب والفِتَن، ويَعْتَدي بعضُهم على بعض بالقَتْل، والنَّهْب، وانتهاك الحُرُمات، ومع هذا لا يَعُدُّونها شيئًا يُذْكَر، بل يَذْكُرونها على أنَّها حوادثُ تاريخيَّة، وليست من الآيات التَّحذيريَّة التي يُحَذِّر اللهُ بها العِبَاد، فتجدهم بعد أن تَزُول هذه الكَوَارِثُ وهذه الحوادثُ العظيمةُ يرجعون إلى غيِّهم، بل رُبَّما يَرْجُعون إلى أكْبَرَ من غيِّهم، نسأل الله السلامة.

والواجب على المؤمن: أن يتَّخذ من هذه الآيات عِبْرَةً، وأن يرجع إلى الله رُجُوعًا حقيقيًّا؛ حتَّى لا تَرْجِع هذه الحوادثُ والكوارثُ على وجهٍ أكبرَ ممَّا كانت عليه من قبلُ.

٣٤- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ قُلُوب بني إِسْرَائِيل التي قَسَتْ كانت كالحِجَارَةِ، بل أشَدَّ.

٣٥- ومن فوَائِدها: أنَّ من الحجارة ما هو خيرٌ من هذه القُلُوب، فمنها ما يتفجَّر منه الأنهارُ، ومنها ما يشَّقَّق، فيخرج منه الماءُ، ومنها ما يَهْبِط من خَشْيَة الله، وقُلُوب هؤُلاءِ القوم التي قَسَت لا يأتي منها خَيْرٌ، ولا تلينُ لحقٍّ.

٣٦- ومن فوَائِد هذه الآيات الكَرِيمات: عُمُوم رقابة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه على كُلِّ شيء رقيبٌ، ولا يَفُوته شيء، ولا يَخْفَى عليه شيء؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٣٧- ومن فوَائِد هذه الآيات: تحذيرُ المَرْءِ من العمل الذي لا يَرْضَاه اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهُ مهما عَمِلَ فاللهُ تعالى عَالِم به، مُطَّلع عليه، رقيبٌ عليه.

٣٨- ومن فوَائِد هذه الآياتِ الكريماتِ: إثباتُ الصِّفاتِ المَنْفِيَّة- عن الله عَزَّوَجَلَّ، يعني: الإيمان بأنَّ الله مَوْصُوفٌ بالإثبات وبالنَّفي، أمَّا وَصْفُ الله بالإثبات فكثيرٌ جدًّا في القُرْآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة، وأمَّا وَصْفُ الله تعالى بالنَّفي فهو أقلُّ من وَصْفِه بالإثبات.

ولم يَذْكُر اللهُ تعالى أوصَاف النَّفي إلَّا لأسبابٍ تَقْتضيها، مثل: تَوَهُّم النَّقْص في صِفَاتِه، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨]؛ لأنَّ الشَّيْطَان قد يُلْقِي في قلب المرء -إذا عَلِمَ أنَّ الله خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وما بينهما في ستَّة أيَّام- أنَّ الله تعالى لحِقَه تَعَب في ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾.

ومنها: أنَّ الصِّفات المنفيَّة تُذْكَر لدفع ما افْتَرَاه الكَاذِبُون في حقِّ الله؛ كما في قَوْلِه تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون:٩١].

ومنها: أنَّ الصِّفَات المنفيَّة قد تُذْكَر للتَّهديد؛ كما في هذه الآية: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ فإنَّ المراد بهذه الجملة: تَهْدِيدُ المُخَاطَب ببَيَان أنَّ الله تعالى لن يَغْفُل عمَّا عَمِلَ من خيرٍ أو شرٍّ، قليلٍ أو كثيرٍ.

وقد ذكر أهلُ العِلْمِ: أنَّ ما جاء من صِفَات النَّفي في حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ليس بنَفْيٍ مَحْضٍ، بل هو نفيٌ مُتضمِّن للإثبات، وهذا الإثباتُ هو كَمالُ ضِدِّ المَنْفِيِّ، فمثلًا: يُقال في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] المقصود بهذا النَّفي: إثباتُ كَمال قُوَّتِه عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه لِكَمال قُوَّتِه لم يَمَسَّه تعبٌ ولا إعْيَاء، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، يُرادُ بنفي الظُّلم هنا عن الله: إثباتُ كَمال عَدْلِه، وأنَّه لكَمال عَدْلِه لا يقعُ في صِفَاتِه ظلمٌ إطلاقًا.

وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، يُرادُ بذلك: إثباتُ كَمال غِنَاه عن كُلِّ أحد، وإثباتُ وحْدَانِيَّته، وأنَّها وَحْدَانيَّة مُطْلَقة، ليس معه فيها إلهٌ، وعلى هذا فقِسْ.

فكلُّ ما جاء من صِفَاتٍ منفيَّةٍ عن الله فليس المراد بها: مُجَرَّد النَّفي، وإنَّما المراد بها: إثباتُ كَمال الضِّدِّ مع نَفْي هذه الصِّفَة المُعَيَّنة التي جاء النَّفي عنها.

ثُمَّ اعلم أنَّ أهل السُّنَّة والجماعة -وأعني بذلك: سَلَفَ الأُمَّة، ومَنْ تَبِعَهم في هَدْيِهم- ليسُوا كأَهْل البِدَع الذين لا يَصِفُون الله تعالى إلَّا بصِفَات النَّفْي، فتجدهم يُكْثِرُون من صِفَات النَّفي في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا صِفَات الإثبات فإنَّهم لا يَهْتَمُّون بها، ولو ذَكَرُوها لذَكَرُوها على وجهٍ مُؤوَّلٍ تأويلًا بعيدًا عن الصَّواب، وحقيقتُهُ أنَّهُ تَحريفٌ، وليس بتأويلٍ.

٣٩- ومن فوَائِد هذه الآيات الكريمات: أنَّ هذا القُرْآن الكريم جاء تَفْصِيلًا لكلِّ شيءٍ يحتاج النَّاسُ إلى تَفْصِيلِه؛ من أجل أن يَكُون مَوْعِظَةً تامَّةً في جميع الأحوال؛ فإنَّ في ذكر أَخْبَار مَن سَبَق عِبْرَةً لِمَن اعتبر؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

• • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

في هذه الآيات يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُخَاطِبًا رَسُولَهُ ﷺ وأصحابَهُ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: أهلُ الكِتَاب، يعني: أَتَرْجُون أَنْ يُؤْمِنُوا لكم، والحالُ أنَّ فريقًا منهم يَسْمَعُون كَلَام الله -وهم العُلَماء منهم- يسمعون كَلَام الله في التَّوراة، أو يَسْمَعُون كَلَام الله الَّذي أَوْحَاهُ إلى موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين اختار من قَوْمِه سبعين رَجُلًا لميقات ربِّه ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي: يَصْرِفُونه عن المراد به إلى مَعَانٍ يُريدونها هم، فيجعلون معنى كَلَام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَابِعًا لأَهْوَائهم، يفعلون ذلك بعد أَنْ عَقَلُوا المعنى وعَرَفُوه، فهم يَفْعَلون هذا عن عَمْدٍ، وهم يَعْلَمُون أَنَّهم يَفْعَلُون ذلك عن عَمْدٍ، لكنَّهم يُريدون أَنْ يتَّبِعُوا أَهْوَاءَهم.

ومن شأن هَؤُلَاءِ المُحَرِّفين: أنَّهم إذا ﴿لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قال بَعْضُهم لبعضٍ: أتُحَدِّثون المُؤْمنين بما فتَحَ الله عليكم بما أَعْلَمَكم به وأَخْبَرَكم به من صِفَات مُحَمَّد ﷺ ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾؛ لأنَّكم إذا ذَكَرْتُم أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ جاء وَصْفُهُ في التَّوراة، وأنَّهُ يُبْعَث، ويكون رَسُولًا إلى كافَّة النَّاس، فإنَّهم سوف يُحاجُّونكم به عند الله عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ يُوَبِّخ هَؤُلَاءِ أَقْوامَهم، فيقولون: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تكُونُون عُقَلاء، فتَمْتَنِعُوا عن تحديث مُحَمَّدٍ وأصحابِهِ بشيء يُحاجُّونكم به عند الله؟! قال اللهُ تعالى رادًّا عليهم: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، فهم وإن أَسَرُّوا وكتمُوا صِفَةَ مُحَمَّد ﷺ أو أَعْلَنُوها، فإنَّ الله تعالى عَالِم بصنيعهم، وسيُجازيهم على ما فَعَلُوا من كِتْمان الحقِّ، وتحريفِ الكِتَاب، هذا هو معنى هذه الآيات الثَّلاث.

أمَّا ما يُستفاد منها من أحْكَامٍ فإنَّها تدلُّ على فَوَائِدَ كثيرةٍ، منها:

١- تَأْيِيس النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ من إيمان هَؤُلَاءِ المُعَانِدين المُحَرِّفين.

٢- ومن فَوَائِد هذه الآيات الكَرِيمات: أنَّ المُعَانِد الَّذي يَعْصِي الله عَزَّوَجَلَّ عن عِناد تَبْعُد هِدَايتُهُ؛ لأنَّهُ لا خَيْرَ فيه، ويدلُّ لهذا: قولُهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فالإنسانُ إذا رَدَّ الحقَّ أوَّل مرَّة مع عِلْمِه به وفَهْمِه له، فإنَّهُ يَبْعُد أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يهديه؛ لأنَّ قَلْبَه -والعياذ بالله- قد زاغ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

٣- ومن فَوَائِد هذه الآيات الكَرِيمات: إثباتُ كَلَام الله تعالى، وأنَّ الله تعالى يتكلَّم، وأنَّ كلَامه يُسْمَع؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ كَلَام الله بصوت مَسْمُوع يَسْمَعُه مَنْ وُجِّهَ الخطابُ إِلَيْه، وهذا أمر مُتَّفَقٌ عليه بين أهل السُّنَّة والجماعة، ويدلُّ عليه القُرآنُ والسُّنَّة، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، والمُنَاداةُ والمُنَاجاةُ لا تكونان إلَّا بصوتٍ، لكن المناداة تكون بصوتٍ عالٍ لِمَن بَعُدَ، والمناجاة تكون بصوتٍ خفيٍّ لِمَن كان قريبًا.

٤- ومن فَوَائِد هذه الآيات الكَرِيمات: ذمُّ تَحْرِيف الكَلِم عن مَوَاضِعِه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾، قال أَهْل العِلْمِ: تحريفُ الكَلِمِ ينقسم إلى قِسْمَين:

أحدهما: تَحْرِيف اللَّفظ، والثَّاني: تَحْرِيف المعنى.

▪ فتحريف اللفظ: يَكُون بتَغْيير الشَّكْل، أو تَغْيير بِنْيَة الكلمة، وما أشبه ذلك، مثل: لو قرأ قارئ قَوْلَ الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، فقرأ: «وكلَّم اللهَ موسى تكليمًا» لكان مُحَرِّفًا للكَلِم، ولو قرأ: «الحمدُ للهِ ربَّ العالمين»، لكان مُحَرِّفًا للكَلِم أيضًا، لكن الفرق بين هذا والذي قَبْلَه: أنَّ تحريف قوله: «وكلَّم اللهَ موسى تكليمًا» يتغيَّر به المعنى، فيكون المُكلِّمُ موسى، وليس اللهَ، أمَّا «الحمدُ للهِ ربَّ العالمين» فإنَّهُ لا يتغيَّر به المعنى، ولكنَّه لا يجوز ارْتِكَابُهُ؛ لأَنَّهُ تحريف للكَلِم.

▪ وأمَّا تحريفُ المعنى فإنَّهُ هو الَّذي وَقَعَ فيه كثير من النَّاس، بحيث يَصْرِفُ معنى اللَّفظ عن ظَاهِره بدون دَلِيلٍ، مثلُ: تحريف بَعْضِهم قَوْلَ الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، فقال: معناه: الرَّحمن على العَرْشِ اسْتَولى، ولكنَّه أبقى اللَّفظ كما هو، فهذا تَحْرِيف مَعْنَوِيٌّ، وهو -بلَا شَكٍّ- مُحَرَّمٌ؛ لأَنَّهُ قَوْل على الله

بلَا علمٍ، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنَّما خاطَبَنا بالقُرْآنِ العربيِّ؛ لنفهمه على مُقْتَضى اللُّغة العربيَّة إذا لم يُنْقَل المعنى إلى معنًى شرعيٍّ، فإذا صَرَفْنَا المعنى إلى ما لا تقتضيه اللُّغةُ العربيَّةُ كان ذلك تحريفًا للكَلِمِ عن مَوَاضِعِه.

٥- ومن فَوَائِد هذه الآيات الكَرِيمات: شدَّة لَوْم هَؤُلَاءِ الَّذِينَ حرَّفُوا ما سَمِعُوا من كَلَام الله؛ حيث إنَّهم حرَّفوه بعد عَقْلِهِ وفَهْمِه.

٦- ومن فَوَائِدها: أنَّ تَحْرِيفَ الشَّيء بعد عَقْلِه وفَهْمِه أشدُّ من تَحْرِيفه إذا لم يَكُنْ قد عَقَلَه الإِنْسَان؛ لأَنَّهُ إذا لم يَكُنْ قد عَقَلَه فقد يَكُون مَعْذُورًا بهذا التَّحريف؛ لأَنَّهُ لم يَعْقِلْه تمام العقل، فإذا كان قد عَقَلَه كان تحريفُهُ أشدَّ وأعظمَ.

٧- ومن فَوَائِد هذه الآيات: أنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَرَّفُوا الكَلِمَ عن مَوَاضِعِه بعد ما عَقَلُوه إنَّما حَرَّفوه وهم يَعْلَمُون أنَّهم مُحرِّفون له، فيكون تَحْرِيفُهم إِصْرَارًا على عِنَادٍ، وليس إصرارًا عن جَهْلٍ أو تهاوُنٍ، بل هو إصرارٌ على خَطَإٍ مُتعمَّد، نسأل الله العافيةَ.

٨- ومن فَوَائِد هذه الآيات: أنَّ من هَؤُلَاءِ -وأعني بهم: بني إسرائيل الَّذِينَ في عهد الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مَن سَلَكَ مَسْلَكَ النِّفَاق، فصارُوا إذا لَقُوا الَّذِينَ آمنُوا قالوا: آمنَّا، ولكنَّهم إذا خَلَوْا إلى قومهم صار بَعْضُهم يُنْكِر على بعضٍ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أي: آمنَّا بمُحَمَّدٍ ﷺ، لكنَّهم على خِلَاف ذلك في الباطن.

٩- ومن فَوَائِد هذه الآيات الكَرِيمات: أنَّ نُبُوَّة الرَّسُول ﷺ كانت مَعْلُومةً عند بني إسرائيل، وأنَّهم يَعْرِفُونها تمامًا، ويَعُدُّونها من الفَتْح الَّذي فَتَحه الله عليهم؛

لقَوْلِهِ: ﴿قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهذا أمر مَعْلُوم بيَّنَهُ اللهُ تعالى في كِتَابه فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقد بشَّر به عيسى قَوْمَه، فقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف:٦]، فصلوات الله وسَلَامُهُ عليه، وعلى آله وأَصْحَابِهِ، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

١٠- ومن فَوَائِد الآيات الكَرِيمات: بيانُ أنَّ ما عَلِمَه أهلُ الكِتَاب من صِفَة النبي ﷺ هو فَتْحٌ من الله، فَتَحَ اللهُ به عليهم، وقد بَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّهم كَانُوا يستفتحون على الَّذِينَ كَفَرُوا قبل بَعْث الرَّسُول ﷺ، أي: أنَّهم يَسْتَنْصِرون بمُحَمَّد ﷺ على الكافرين؛ لأنَّهم يَعْلَمُون فيما عَلِمُوه من التَّوراة أنَّهُ ﷺ مَنْصُور، وستكُونُ له العاقبةُ، ولكنَّهم -والعياذ بالله- لَمَّا بان الحقُّ واتَّضح، وبُعِثَ النبي ﷺ، صدَّهم الحَسَدُ عن الإيمان به، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

١١- ومن فَوَائِد هذه الآيات: أنَّ أهـل الكِتَاب يُؤْمِنون بالبَعْثِ؛ لقَـوْلِهِ: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾، وقد اتَّفقت الرِّسَالَات السَّماوِيةُ كلُّها على إِثْبَات البَعْث، وأنَّ النَّاس سوف يُبْعَثون ويُجَازَون على أَعْمَالهم، إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ.

١٢- ومن فَوَائِد الآيات الكَرِيمات: أنَّ الخُصُومةَ ستقع بين يَدَي الله عَزَّوَجَلَّ من المُؤْمِنين والكافرين، يُخاصِمُ بَعْضُهم بعضًا، فيَفْصِل الله بينهم، ويقضي بينهم

بحُكْمِه، ويدلُّ لهذا أيضًا: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١]، وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨]، وغيرُ ذلك من الآيات الكَرِيمات الدَّالَّة على أنَّ أَوْلَياء الله وأولياء الشَّيطان يَخْتَصِمون عند الله عَزَّوَجَلَّ، فيقضي بينهم بحُكْمِه وعَدْلِه، جَلَّوَعَلَا.

١٣- ومن فَوَائِد هذه الآيات الكَرِيمات: أنَّ ما ذهب إِلَيْه هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يقولون عند المُؤْمِنين: آمنَّا، وإذا خَلَا بعضُهم إلى بَعْضٍ أَنْكَر بَعْضُهم على بَعْضٍ، أنَّه مُخالِف للعَقْل؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فإنَّ مُقْتَضى العَقْل أنَّ الإِنْسَان إذا آمَنَ عن اقْتِنَاع آمَنَ به ظاهرًا وباطنًا في حُضُور الخَصْم وحُضُور الوليِّ، أمَّا هَؤُلَاءِ فكانُوا مُذَبْذَبين، يُؤْمِنون عند المُؤْمِنين، لكنَّهم إذا رَجَعَ بعضُهم إلى بَعْض وخلَا بَعْضُهم إلى بَعْضٍ أَنْكَرُوا ما حَدَثَ.

١٤- ومن فَوَائِد هذه الآيات الكَرِيمات: إثباتُ عُمُوم عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه يَعْلَم ما يُسِرُّون وما يُعْلِنون، أي: ما يُسِرُّونه من مُخَالَفَة الحقِّ وكِتْمانه، وما يُعْلِنُونه عند المُؤْمِنين بقولهم: إنَّهم آمَنُوا، وإنَّ صِفَة النبي ﷺ موجودة عندهم في التَّوراة.

١٥- ومن فَوَائِد هذه الآيات الكَرِيمات: تهديدُ المرء وتَحْذِيرُه عن مُخَالَفَة أمرِ الله عَزَّوَجَلَّ، والوُقُوعِ فيما يُغْضِبه، سواء أكان سِرًّا أم عَلَنًا؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، فإنَّ المراد بذلك: تهديدُ هَؤُلَاءِ وأَمْثَالِهم ممَّن يظنُّون أنَّ الله لا يَعْلَم إلَّا ما كان عَلَنًا.

•●○●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

يُبيِّن اللهُ فِي هذه الآيَة الكَرِيمَة أنَّ من بني إسرائيل قومًا أُمِّيِّين لا يَعْلَمُون الكِتَاب إلَّا أمانيَّ، أي: إلَّا قِراءةً، فهم يَقْرَؤون التَّوراة، ولكنَّهم لا يَفْهمون معناها، ولهذا وَصَفَهم اللهُ تعالى بالأُمِّيَّة، والأُمِّيُّ: هو الَّذي لا يعرف أَنْ يَقْرَأ أو يَكْتُب؛ نسبةً إلى الأُمِّ؛ لأنَّ الإِنْسَان إذا خرج من بطن أُمِّه فإنَّهُ لا يَعْلَم شيئًا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، فمن بني إسرائيل قَوْمٌ أُمِّيُّون لا يعلمون الكِتَاب إلَّا أمانيَّ: إلَّا قراءةً، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم إلَّا يظنُّون ظنًّا.

فوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيان أنَّ من بني إسرائيل مَن لا يَفْهَم المعنى، ولكنَّه يَقْتَصِر على اللَّفظ.

٢- ومن فَوَائِدها: ذمُّ مَن لا يَفْهَم معنى كِتَاب الله؛ لقَـوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾.

٣- ومن فَوَائِدها: الحثُّ على تعلُّم معاني كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ، فقد كان الصَّحَابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ يَقْرَؤون القُرْآن لا يتجاوزون عشر آيات حتَّى يتعلَّموها وما فيها من العِلْم والعمل، فتعلَّمُوا القُرْآنَ والعلمَ والعملَ جميعًا[1].

(١) تقدم تخريجه (ص:١٨).

٤- ومن فَوَائِدها: الحثُّ على فَهْم كِتَاب الله، وأَنَّه يَنْبَغِي للإِنْسَان أَنْ يتعلَّم معانيَ الكِتَاب كما يتعلَّم لَفْظَه، وإنَّ من المُؤْسِف أنَّ واقع أكثر المُسْلِمين اليومَ على غَيْر هذا المنهج، أي: أنَّهم يَقْرؤون القُرْآن للتعبُّد بلَفْظِه فقط، دون أَنْ يَفْهَمُوا معناه، أو أَنْ يُطَبِّقُوا أحْكَامه، وهذا -بلَا شَكٍّ- قُصُورٌ عظيمٌ، ولذلك ظَهَر أَثَرُ هذا على المُسْلِمين، حيث تخلَّفُوا كثيرًا عمَّا كان عليه السَّلف الصَّالح من تطبيق القُرْآن لَفْظًا ومعنًى وعَمَلًا، ففَاتَهم بذلك خيرٌ كثيرٌ.

٥- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ مَن لا يَعْلَم الكِتَاب إلَّا لفظًا يقع في الوَهْمِ، والظَّنِّ، والتَّخبُّط بما لا يعرفُ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، وعلى هذا فيَنْبَغِي للمُسْلِم أَنْ يَكُون حريصًا على فَهْم كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ، يتلقَّى تَفْسِيرَه من كُتُب التفسير المُعْتَمدة المَوْثُوق بها، أو من أَفْوَاه العُلَماء المُخْلِصين الَّذِينَ يُوثَقُ بعِلْمِهم.

وليُعْلَم أنَّ هذا القُرْآن الكريم نَزَلَ لأَمْرين مُهِمَّين:

الأَمْرُ الأَوَّل: تدبُّر آيات القُرْآن الكَرِيم، وهو التَّفكُّر في مَعْنَاها حتَّى يَصِلَ الإنسانُ بعد هذا التَّفكُّر إلى المَعْنَى الَّذي أَرَادَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ بهذه الآياتِ الكَرِيمَة.

والثَّاني: الاتِّعاظُ بما في هذا القُرْآن الكَرِيم، ودَلِيلُ هذا: قَوْلُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وبناءً على هذا أَحُثُّ إِخْوَاني القَارِئين لكِتَاب الله أن يَحْرِصُوا غَايَةَ الحِرْصِ على التَّفكُّر في مَعْنَاه، وذلك بسُؤَال أَهْلِ العِلْمِ المَوْثُوق بعِلْمِهم وأَمَانَتِهم عن مَعَاني آيات كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ، أو مُرَاجعَة كُتُب التَّفْسِير المُعْتَمدة المَوْثُوق بمُؤَلِّفيها في عِلْمِهم وأَمَانَتِهم؛ حتَّى يُحَقِّقُوا بذلك اتِّبَاع مَنْهَجِ الصَّحَابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فإنَّهم كان لا يَتَجاوَزُون

عَشْرَ آياتٍ من القُرْآن حتَّى يَتعَلَّموها وما فيها من العِلْمِ والعَمَل، قالـوا: فتَعَلَّمْنا القُرْآن والعِلْمَ والعَمَلَ جميعًا[1].

••~••

ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

فِفي هذه الآيَة الكَرِيمَة تَوَعَّدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكْتُبُون الكِتَاب بأيديهم -وفي قَوْلِهِ: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيدٌ لهذه الكِتَابة أنَّها من عند أَنْفسهم- ثُمَّ يقولون للنَّاس: هذا مِن عندِ اللهِ، يَفْعَلُون ذلك؛ لغَرَضٍ من الدُّنْيَا: ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

ثُمَّ بَيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ هذا الوعيد حاصلٌ على أَمْرَين:

الأمرُ الأَوَّلُ: ما كَتَبُوه.

والأمرُ الثَّاني: ما كَسَبُوه من هذه الكِتَابة؛ فإنَّ هَؤُلَاءِ يَكْتُبون الكِتَاب ليس من عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّه من عند أَنْفُسهم؛ من أجل أَنْ يَنالُوا جَاهًا، أو مالًا، أو رِئَاسَةً، أو غَيْر ذلك من متاع الدُّنْيَا، وهو قليل بالنِّسْبَة لمتاع الآخرة، فيَأْثَمُون على الأمرين: على الكِتَابة الَّتي يَضِلُّ بها النَّاسُ، وعلى ما كَسَبُوه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص:١٨).

فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- تحريم أَنْ يَقُول الإِنْسَانُ القَوْلَ من عند نَفْسِه، أو أَنْ يَكْتُبَه من عند نَفْسِه، ثُمَّ يقول للناس: إنَّ هذا من عند الله؛ من أجل أَنْ يَشْتَرِي به ثمنًا قليلًا، ووجه التَّحريم: الوعيدُ الَّذي رُتِّب على هذا الفِعْـل؛ لأنَّ التَّحريم يُسْتَفاد إمَّا من لَفْـظِ التَّحْرِيم، مثل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣]، وإمَّا من النَّهْي، وإمَّا من تَرْتِيب العِقَابِ عليه، وإمَّا من الوَعِيدِ عليه، وللعلمِ بالتَّحريمِ طُـرُقٌ مَعْرُوفةٌ في أُصُول الفِقْه.

٢- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ من أُسْلُوب القُرْآن الكَرِيم تأكيدَ الشَّيء بما هو معلومٌ؛ لقَوْلِهِ: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ومن المَعْلُومِ أنَّ الكِتَابة تكون باليد، لكـن هذا من باب تأكيد هـذه الكِتَابـة، وأنَّها لَيْسَت من عند الله، بل هي بأيديهم.

٣- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: بيانُ أَنَّ هَؤُلَاءِ هم الَّذِينَ كَتَبُـوا هذا الكِتَاب بأيديهم، وقالوا: إنَّه من عند الله؛ من أجل أَنْ يَشْتَرُوا به ثمنًا قليلًا، وهو كُلُّ ما يَكُون من متعة الدُّنْيَا.

٤- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ ما يحصل من الدُّنْيَا -مهما بَلَغَ- فإنَّهُ قليل بالنِّسبة إلى الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: «**إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[1].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- ومن فَوَائِدها: أنَّ العمل إذا تَرَتَّب عليه سيِّئاتٌ فإنَّ الإنسان يُعاقَبُ على كُلِّ سيِّئة تَرَتَّبت على هذا العمل السَّيِّئ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، وإذا كان العملُ السَّيِّئ إذا ترتَّب عليه سيِّئاتٌ فإنَّهُ يأثم به، فالعملُ الصَّالح إذا تَرَتَّب عليه حسناتٌ فإنَّ الإِنْسَان يُثابُ عليه؛ لأنَّ رحمة الله تعالى سَبقَت غَضبَه، ولهذا جاء في الحديث الصَّحيح عن النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ»(١).

• • ● • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى مُبيِّنًا ما ادَّعاه هَؤُلَاءِ المُكَذِّبون المُفْتَرون:

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

هذه المَقَالَةُ من مَقَالَة اليهودِ، ادَّعَوْا أنَّ النَّار لا تَمَسُّهم إلَّا أيَّامًا مَعْدُودةً، ثُمَّ يَخْلُفُهم المسلمون فيها، وقد كَذَبُوا فيما ادَّعوه في الأوَّل وفي الثَّاني، فالنَّار لن تَمَسَّهم أيَّامًا معدودةً فحَسْبُ، بل هم خَالِدُون مُخَلَّدون فيها إذا ماتُوا ولم يَدْخُلُوا في دين مُحَمَّد ﷺ؛ لقول النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(٢)، فهم -أعني: اليهودَ- من أصحاب النَّار مُخَلَّدين فيها إذا لم يدخلُوا في

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص:١٧٧).

دين مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وثانيًا: هم كَاذِبُون في قَوْلِهم: إنَّكم تَخْلُفُوننا فيها؛ فإنَّ الْمُسْلِمين مَوْعِدُهم الجَنَّة، وهم أصحاب الجَنَّة، فكلُّ مَن مات مؤمنًا بمُحَمَّد ﷺ، مُتَّبِعًا لشريعتِهِ، فإنَّهُ من أهل الجَنَّة.

وبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ هذه الدَّعْوى كَـذِب بطـريق السَّبْر والتَّقْسِيم، فقـال: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾، فـإن كان الأمـرُ كذلك فـإنَّ الله لـن يُخْلِف عَهْـدَه، ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وإذا كان كذلك فإنَّ هذه دعوى مُجَرَّدةٌ عن العِلْمِ، فلَا تكون مَقْبُولَةً.

فوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيانُ كَذِب اليهودِ، وأنَّهم أهلُ كَذِب، كما أنَّهم أهلُ غَدْرٍ وخِيَانة، لا يُوفونَ بعهدٍ، ولا يَقُومون بواجبِ الأمانة، بل صِفَاتُهم الكَذِبُ، والحسدُ، والخِيَانةُ، والمكرُ.

٢- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: حُسْنُ اسْتِدْلَال القُرْآن في مُقابلة خُصُومه؛ حيث قال: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهذه الطَّرِيق من طُرُق الحُجَج ممَّا يُفْحِم الخصمَ.

ومن نظائرها: قولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٧٧-٨٠].

٣- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لن يُخْلِف عَهْدَه؛ لأنَّهُ جَلَّ وَعَلَا

أَصْدَق القائلين، وأتمُّ المُعَاهِدين، وأقدرُ على تَنْفيذ وَعْدِه وعَهْدِه، فهي كقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩].

٤- ومن فَوَائِد هذه الآية: أنَّ اليهود لا يُبَالُون إذا قالُوا على الله ما لا يَعْلَمُون؛ لنَيْلِ مآربهم وأَطْمَاعِهِم.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾

هذه الآية ردٌّ لدَعْوَى اليهودِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، بَيَّنَ اللهُ فيها كَذِبَ هذه الدَّعْوَى، وأنَّها باطلةٌ بقَوْلِهِ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: مَن كَسَبَ سيِّئةً كُبْرَى تكون سببًا لإِحاطة خَطِيئاتِه به حتَّى لا يبقى له حسناتٌ، وذلك مثل سيِّئة الشِّرْك والكُفْر، فهؤلَاء هم أصحاب النَّار المُخَلَّدون فيها، وليسُوا المُسْلِمين كما زعم هَؤُلَاءِ اليهودُ، وحينئذٍ يَكُون أحقَّ النَّاس بالخُلُود في النَّار هم هَؤُلَاءِ اليهودُ.

فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- إبطالُ ما ادَّعاه هَؤُلَاءِ اليهودُ الَّذِينَ ادَّعَوْا أنَّهم أولياءُ الله، وأنَّه لن تمسَّهم النَّار إلَّا أيَّامًا معدودةً، ثُمَّ يَخْلُفُهم المسلمون فيها.

٢- ومن فَوَائِدها: أنَّ أحْكَام الله عَزَّوَجَلَّ الجزائيَّة مُعلَّقة بأوصاف لا بأَعْيَان، ولهذا قال: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ من أيِّ أحد من الأُمَم فله هذا الحكمُ، سواء أكان من العرب، أم من بني إسرائيلَ، أم من غَيْرهم.

٣- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّهُ لا يستحقُّ الخلودَ في النَّار إلَّا مَن أحاطت به خطيئتُهُ، أمَّا مَن لم تُحط به خطيئتُهُ، بأن كان عنده عملٌ صالحٌ وآخرُ سيِّئٌ، فإنَّهُ لا يَكُون من أصحاب النَّار المُخَلَّدين فيها، ولكنَّه تحت مشيئة الله، إنْ شَاءَ اللهُ غَفَر له، وإن شاء عَاقَبَه بذنبه.

وقد يَحُولُ بينه وبين العُقُوبة شفاعةٌ ممَّن يشفعون عند الله، أو غَيْرُ ذلك من الأسباب الَّتي تَرْفَع عنه العُقُوبةَ، وهذا هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة: أنَّ العُصَاة من المُسْلِمين تحت مشيئة الله، إن شاء الله عَاقَبَهم على معاصيهم، وإن شاء غَفَرَ لهم، كما يدلُّ على هذا قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وقولُهُ: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دون الشِّرك.

وهذه الآيَةُ يذهب بَعْضُ النَّاس إلى التعلُّل بها، فتجدُهُ يعملُ ما شاء من الذُّنُوب، ويقول: إنْ شَاءَ اللهُ غَفَرَ لي، والذي لا يُغْفَر هو الشِّرْكُ، فنقول له: وهل تعلمُ أنَّ الله شاء أَنْ يَغْفِر لك؟ رُبَّما لا تَدْخُلُ أنت تحت مَن شاء اللهُ أَنْ يغفر لهم؛ لأنَّ الله لم يقل: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وأَطْلَق، بل قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، فأنت لا تعلمُ أنَّك داخل فِي هذه المشيئة، ولا يَجُوز أن تُمَنِّي نفسك المُحَالَ، بل إنَّ الحَزْمَ والعَزْم أن تتجنَّب معاصيَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ خوفًا من أَنْ ينالك عِقَابُهُ.

٤- ومن فَوَائِد هذه الآية: أنَّ أصحاب النَّار هم أَهْلُها الَّذِينَ يَبْقَوْن فيها؛

لأنَّ مَنْ عُذِّب في النَّار بقَدْرِ ذُنُوبه، ثُمَّ خرج منها، لا يُعَدُّ من أصحابها في الواقع؛ إذ إنَّ المصاحبة هي المُلَازَمَة.

وعلى هذا يَكُون في الآيَة دَلِيلٌ على أنَّ أصحاب النَّار مُخَلَّدون فيها تخليدًا أَبدِيًّا، كما جاء ذلك في آيات أُخْرَى، فقد ذكر اللهُ تأبيد الخُلُود في ثَلَاث آيات من كِتَابه، فقال جَلَّوَعَلَا في سُورة النِّساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وقال الله تعالى في سورة الجنِّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]، فهذه آيات ثَلَاث فيها التَّصريحُ بأنَّ أصحاب النَّار خَالِدُون فيها أبدًا، وبعد هذا التَّصريح لا يُمْكِنُ أن نُعارِضَه بمُجَرَّد أَقْيِسَة عقليَّة، ونصوصٍ عامَّةٍ؛ لأنَّ اللَّفظ الصَّريح لا يَرْفَعُه إلَّا لفظٌ صريحٌ.

ثُمَّ إنَّ الظَّاهر أَنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ يقع لفظٌ صريحٌ يُخالف هذا؛ لأنَّ هذا خبر، وخبرُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يُناقِضُ بَعْضُهُ بعضًا، والأَحْكَام الشَّرعيَّة يُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَها النَّسخُ، أمَّا الأَحْكَام الخبريَّة فإنَّه لا يُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَها النَّسخُ؛ لأَنَّنا لو جَوَّزنا نسخ أحد الخبرين بالآخر لَزِمَ منه تكذيبُ أحد الخَبَرَيْن بالآخر، وهذا مُحال في كَلَام الله، وكَلَام رَسُولِهِ ﷺ.

•●◌●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

هذه هي طَرِيقَةُ القُرْآن: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا ذَكَرَ أصحابَ النَّار وعُقُوبتَهم، ذكر أصحابَ الجَنَّة ومَثُوبَتَهم؛ لأنَّ القُرْآن مَثَاني، تُثَنَّى فيه الأحْكَامُ والمعاني، ولأجل أَنْ يَكُون الإِنْسَانُ دائرًا في عِبَادَتِه بين الخوف والرَّجاء، يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمَنُوا بالغَيْب الَّذي يجبُ الإِيمانُ به، وقد بَيَّنَ النبيُّ ﷺ أركانَ الإِيمانِ، حين سأله جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الإِيمان، قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1].

وأمَّا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهو القِيَام بالأعمال الصَّالحة، والعَمَل الصَّالح: هو ما جَمَعَ بين وصفين:

الوصف الأَوَّل: الإخلَاصُ للهِ تعالى، بألَّا يُريد بعَمَلِه إلَّا وجهَ الله والدَّار الآخِرَة، لا يُريد شيئًا من الدُّنْيَا.

والثَّاني: المتابعةُ لرسول الله ﷺ، بحيث يَكُونُ مُتأسِّيًا به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فإن فُقِدَ الإخلَاصُ صار في عَمَل الإنسان إِشْرَاك، واللهُ لا يَقْبَل الشِّرْك، كما جاء في الحديث الصَّحيح الَّذي رواه النبيُّ ﷺ عن ربِّه: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: أَنَا أَغْنَى**

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا اللفظ للنسائي: كتاب الإيمان، باب نعت الإسلام، رقم (٤٩٩٣)، وأحمد (١/ ٥١).

الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1]، وإذا لم يَكُنْ مُتَّبَعًا فيه الرَّسُولُ ﷺ كان عَمَلًا بِدْعِيًّا، والعملُ البِدْعِيُّ مردودٌ؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[2]، وفي روايةٍ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[3]، فالعمل الصَّالح هو ما جَمَعَ هَذَيْن الوَصْفَين: الإِخلَاصَ لله، والمتابعةَ لرسول الله ﷺ.

ثُمَّ بيَّن عَزَّوَجَلَّ جزاءَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّصفُوا بهَذَيْن الوَصْفَين: الإيمان، والعمل الصَّالح، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، الجَنَّة: هي الدَّار الَّتي أعدَّها اللهُ للمُتَّقِين، وفيها ما لا عَيْنٌ رأت، ولَا أُذُنٌ سمعت، ولَا خَطَرَ على قلب بَشَرٍ، نسألُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَجْعَلنا وإيَّاكم من أصحابها، وأن يَتَوَلَّانا بعِنَايَتِه، ويَحْفَظَنا بحِفْظِه؛ إنَّه جَواد كَرِيمٌ.

فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيانُ جَزَاء المُؤْمِنِين الَّذِينَ عَمِلُوا صالحًا، وهو أَنَّهم مُخَلَّدون في الجَنَّة.

٢- ومن فَوَائِدها: أَنَّهُ لا يتمُّ دُخُول الجَنَّة إلَّا بهَذَيْن الأَمْرَيْن: الإيمان، والعمل، فالإِيمانُ وَحْدَه لا يكفي، والعملُ وَحْدَه لا يكفي، بلْ لَا بُدَّ من إيمانٍ وعَمَلٍ، ولهذا يَنْبَغِي أن نُرَكِّز في خِطَابنا في الوَعْظ والدَّعوة إلى الله على الأمرين جميعًا: على

(١) تقدم تخريجه (ص:٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨/ ١٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨/ ١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الإِيمان الَّذي هو أساسُ العقيدة، وعلى العمل الصَّالح الَّذي به تتمُّ هذه العقيدةُ.

٣- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ العمل لا ينفعُ إلَّا إذا كان صالحًا، وهو ما جَمَعَ بين الإِخلَاص والمتابعة لرسول الله ﷺ، كما أَسْلَفنا في تفسيرنا لهذه الآية.

٤- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: بُطْلَانُ العمل الَّذي فيه الشِّرْكُ؛ لأنَّ الله اشترط لتأثير العَمَلِ واستحقاقِ الجزاءِ عليه أَنْ يَكُون عملًا صالحًا.

٥- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ أهل الجَنَّة مُخَلَّدون فيها، وتخليدُهم أَبدِيٌّ، كما دَلَّت على ذلك آياتٌ كثيرةٌ، وأجمع عليه سَلَفُ الأُمَّة.

• • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قولُهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ﴾ الضَّميرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَخَذْنَا﴾ راجعٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وجاء بهذه الصِّيغة؛ تعظيمًا لله؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعبِّر عن نَفْسِهِ أحيانًا بصيغة الجَمْع، وأحيانًا بصيغة الإفراد، والتَّعبيرُ بصيغةِ الإفرادِ ظاهِرٌ معلومٌ؛ لأنَّ الله تعالى واحدٌ، والتَّعبيرُ بصِيغَةِ الجمعِ؛ للدَّلالة على العَظَمة، وذلك لأنَّ ضميرَ الجمع تارةً يُرادُ به الجمعُ الَّذي هو العددُ، وتارةً يُرادُ به التَّعظيمُ، كما في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

والميثاق: هو العهد، وسُمِّي ميثاقًا؛ لأَنَّهُ تَوْثِقَة بين المُتعاهِدَيْن، وبنو إسرائيل: هم بنو يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، وهم أبناءُ عمٍّ للعرب؛ لأنَّ العرب من ذُرِّيَّة إسماعيل، وبنو إسرائيل من ذُرِّيَّة إسحاق، وإسماعيلُ وإسحاقُ أَخَوان، أبوهما إبراهيمُ الخليلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

هذا الميثاق هو:

أولًا: ألَّا يعبدُوا إلَّا الله، لا يعبدون مَلَكًا، ولَا رَسُولًا، ولَا حَجَرًا، ولَا شَجَرًا، ولَا غَيْر ذلك ممَّا سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ.

الثَّاني: أَنْ يُحْسِنُوا إلى الوالدين بالبِرِّ إِلَيْهما وعدم العُقُوق.

الثَّالِث: أَنْ يُحْسِنُوا إلى ذوي القُرْبَى بالصِّلَة وعدم القطيعة.

الرَّابع: أَنْ يُحْسِنُوا إلى اليتامى، وهم الَّذِينَ مات آباؤهم قبل أَنْ يَبْلُغُوا، ويشمل الذُّكُور والإِناث من اليتامى.

الخامس: الإِحسانُ إلى المساكينِ، وهم الفُقَرَاء المُعْدِمون، وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّ الفقر أَسْكَنهم وأَذَلَّهم؛ فإنَّ الفَقْرَ يُوجِب سُكُون الإِنْسَان وذُلَّه، نسأل الله أَنْ يُغْنِيَنا بفَضْلِه عن خَلْقِه.

أمَّا السَّادس: فأَنْ يَقُولُوا للنَّاس حُسْنًا، وهذا يشمل المخاطبةَ فيما بينهم وبين النَّاس، ويشمل ما يَدْعُون النَّاس إِلَيْه ممَّا يَكُون شريعةً، بحيث لا يقولون للنَّاس إلَّا ما هو حَسَنٌ، ولَا يَكُون المَدْعُوُّ إِلَيْه حَسَنًا إلَّا إذا كان مُوافِقًا لشريعة الله.

السَّابع: إِقَامة الصَّلَاة، أي: أَدَاؤُها على الوجه الَّذي أَمَرَ الله به.

الثَّامن: إيتاء الزَّكاة، أي: إعطاءُ ما يجبُ إعطاؤه من المال إلى أَهْلِه.

ولكن هل هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُخِذَ عليهم الميثاقُ قامُوا بذلك؟

الجوابُ: يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾، والخطابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ لبني إسرائيلَ الموجودين في عهد الرَّسُول ﷺ، إلَّا قليلًا منهم، فإنَّهم قامُوا بهذا العهد، وآمنُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ، مثلُ: عبد الله بن سلَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من اليهود، والنَّجاشيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ من النَّصارى، فهذان وأمثالُهما ممَّن لم يَتَوَلَّوا، بل قامُوا بالعهد والميثاق على ما عَاهَدُوا عليه، ووَاثَقُوا عليه.

ثُمَّ قال: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: أنَّهم تَوَلَّوا وهم مُعْرِضون، ليس فيهم شيءٌ من الإِقبال على ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ.

فَوَائِد وأحْكَامُ هذه الآية:

١- بيانُ عُتُوِّ بني إسرائيل، وأنَّهم مع العُهُود والمواثيق لا يَفُونَ.

٢- ومن فَوَائِد هذه الآية: التَّحذير ممَّا وقع فيه هَؤُلَاءِ من مُخالفة الميثاقِ، وعدم الوَفَاءِ به؛ لأنَّ الله تعالى إذا ذَكَرَ أخبار مَن سَبَقَ فإنَّهُ لا يَذْكُرها على سبيل التَّلهِّي بها والنَّظَر المُجَرَّد، ولكنَّه يَذْكُرها عَزَّوَجَلَّ؛ من أجل أن نَعْتَبِر بها، وأن نأخذ منها عِبْرَةً؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

٣- ومن فَوَائِد هذه الآية: أنَّ الدَّعوةَ للإِخلَاص في جميع الأُمَم؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، وهذه الدَّعْوَة جاء بها كُلُّ الرُّسُل عليهم الصَّلَاة والسَّلَام؛ كما قَال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

٤- ومن فَوَائِد هذه الآية: وُجُوب الإِحسان إلى الوَالِدَيْن، والإِحسانُ يَكُون بالقول، ويكون بالفعل، فالإحسان بالقول معناه: أَنْ يُلينَ الإِنْسَانُ لهما قَوْلَه، وأن يَكُون قولًا كريمًا طيِّبًا سَمْحًا، والإِحسانُ بالفعل: يَكُون ببَذْل المال، وبخِدْمَة البدن، وغيرِ ذلك ممَّا يَكُون إحسانًا، والآيةُ مُطْلَقة: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾.

ولْيُعْلَم أنَّ أحقَّ الوَالِدَين بالصُّحْبَة هي الأمُّ، كما قال النبي ﷺ حين سُئِلَ: مَنْ أحقُّ النَّاس بِحُسْنِ صَحابَتِي[1]؟ قال: «**أُمُّكَ**»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «**أُمُّكَ**»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «**أُمُّكَ**»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «**ثُمَّ أَبُوكَ**»[2]، ولكن هذا لا يعني أَلَّا نُعْطِي الأب حقَّه، بل له حقٌّ، وللأُمِّ حقٌّ، لكن لَـمَّا كانت الأمُّ أُنثى، والغالب عليها الضَّعف، وأنَّها تحتاج إلى لِينٍ أكثر، صارت أحقَّ النَّاس بصُحْبَة الوَلَد.

والإِحسانُ للوَالِدَيْن بالفعل: يَكُونُ بِبَذْل ما يحتاج إِلَيْه الوَالِدَان من المال من نَفَقةٍ، وكِسْوَةٍ، وغير ذلك بقَدْر المُسْتَطاع، ويكونُ أيضًا بالبدن، وهو القِيَام بخدمة الوَالِدَيْن حينما يحتاجان لذلك، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ

---

(١) الصَّحَابة هنا بمعنى الصحبة.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة؟، رقم (٥٩٧١)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين، رقم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

٥- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: وُجُوب الإِحسان إلى ذوي القُرْبَى، أي: إلى أصحاب القَرَابَة، سواء أكانُوا من قِبَل الأُمِّ أم من قِبَل الأب، والإِحسانُ إِلَيْهم يَكُون كالإحسان إلى الوَالِدَيْن، أي: بالقول وبالفعل، ولكن الإِحسان إلى الوالدين أَوْكَد وأَعْظَم؛ لأنَّهم أقربُ القُرْبَى إليك.

٦- ومن فَوَائِد الآيَة الكَرِيمَة: وُجُوب الإِحسان إلى اليَتَامى، وهم الَّذِينَ مات آباؤهم قبل أَنْ يَبْلُغوا، وذلك لأنَّ هذا اليتيم قد انْكَسَر قَلْبُه بفَقْد أبيه وراعيه، فكان من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمَته أَنْ أَوْصَى بالإِحسان إِلَيْه.

٧- ومن فَوَائِد الآيَة الكَرِيمَة: وُجُوب الإِحسان إلى المساكين عند الضَّرُورة إلى ذلك، ومشروعيَّته على سبيل الاستحباب إذا لم يَكُنْ هناك ضرورةٌ، وذلك لأنَّ المساكين قد أَسْكَنهم الفَقْرُ وأَذَلَّهم، فهم بحاجةٍ إلى مَنْ يَجْبُرُهم بالإِحسان إِلَيْهم، ولهذا وصَّى اللهُ بذلك، وجَعَلَه من العُهُود والمواثيق على بني آدم.

٨- ومن فَوَائِد الآيَة الكَرِيمَة: وُجُوبُ القول الحَسَن في مُخاطبة النَّاس، وفي دَعْوَتِهم؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾، والظَّاهر -والله أعلم- أنَّ القول الحَسَن إن كان المراد به: ما هو ضِدُّ القول السَّيِّئ فإنَّ القول الحَسَن هنا يَكُون واجبًا، أي: أَنَّهُ يجب على الإِنْسَان أَنْ يُخاطب النَّاسَ بما لا يُسِيءُ إِلَيْهم، بل بما يَكُون فيه مَنْفَعتُهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، ومن القول الحَسَن: الأمرُ بالمَعْرُوف، والنَّهي عن المُنْكَر، والدَّعوة إلى الله؛ فإنَّ هذا كُلَّه من القول الحَسَن، وضدُّه: القول السَّيِّئ الَّذي يَكُون به الإِساءة والعُدْوَان على النَّاس؛ فإِنَّهُ مُحَرَّمٌ.

٩- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: وُجُوبُ إقامة الصَّلَاة، أي: الإِتيانِ بها على الوَجْهِ المَشْرُوع، إلزامًا في الواجبات، ونَدْبًا في المُسْتَحَبَّات.

والصَّلَاةُ مَعْرُوفةٌ، وهي موجودة في جميع المِلَل؛ كما يُفيدُهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٣]، وكما تُفيدُهُ هذه الآيَةُ الكَرِيمَةُ من أنَّ بني إسرائيل قد أُخِذَ عليهم الميثاقُ بأن يُقِيمُوا الصَّلَاة.

١٠- ومن فَوَائِد الآيَة الكَرِيمَة: وُجُوبُ إيتاء الزَّكاة، وهي القَدْرُ المفروض في المال الزَّكَويِّ، يُؤْتَى إلى أهل الزَّكاة، لا إلى غَيْرِهم.

١١- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: بيانُ عُتُوِّ بني إسرائيل، وأنَّهم مع هذا العهد والميثاق على هذه الخِصَال الحميدة لم يَنْقَادُوا لهذا العَهْدِ، ولم يَفُوا به، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾.

١٢- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: بيانُ عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك باستثناء هَؤُلَاءِ القليل ممَّن تَوَلَّى؛ إذ لم يَحْكُم بالتَّوَلِّي على جميع بني إسرائيل، وإنَّما حَكَمَ به على مَن قام به واستحقَّهُ، وهذا من كَمال عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ.

١٣- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ بني إسرائيل مع تَوَلِّيهم ونَكْثِهم لهذا الميثاق كَانُوا مُعْرِضين عن الحقِّ، غَيْرَ مُتَّجهين إِلَيْه، فجَمَعُوا بين الانحراف القَلْبِيِّ والانحراف البَدَنِيِّ.

• ● ◦ ● •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

بَيَّنَ اللهُ تعالى في هَاتَيْن الآيتَيْن أَنَّهُ تعالى أَخَذَ ميثاقًا آخر على بني إسرائيل، وهو عدم عُدْوان بَعْضِهم على بعضٍ، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾.

قولُهُ: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ يعني: لا تُريقونها بالقَتْلِ، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾، وإِنَّما أضاف الدِّماءَ إِلَيْهم، والإِخراجَ إلى الأَنْفُس؛ لأنَّ الأُمَّة الواحدة كأنَّها نفسٌ واحدةٌ، فإخراجُ بعضهم يكُون كإخراج أَنْفُسِهم هم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾ أي: مَن كان منكم ﴿مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: أنَّكم مُقِرُّون بهذا الميثاق، شَاهِدُون به، ولكن هل استمَرُّوا عليه؟

الجواب: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾، فلم تَفُوا بالميثاقِ، بل قَتَلْتُم أَنْفُسَكم، وأَخْرجتُم فريقًا منكم من ديارهم، وأَخْرَجْتُموهم على وجهٍ من العُلُوِّ والاستكبار عليهم، ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

ومع ذلك إذا أَتَوْكم أُسارى فادَيْتُمُوهم، يعني: لو أُسِرُوا فإنَّكم تحرصون على أن تُفادوهم، مع أنَّ إِخْرَاجَهم في الأصل حرامٌ عليكم، ففي هذا الفعل تُؤْمِنُون ببعض الكِتَاب، مثل: إنقاذ مَن أُسِرَ منكم بالمُفَادَاة، وتَكْفُرُون ببعضٍ، مثل: قَتْلِ بعضكم بعضًا، وإخراجِ بعضكم بعضًا من ديارهم، ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي: مُجازَاتُهُ ومُكَافَأَتُهُ على عمله ﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾.

وقَوْلُهُ: ﴿مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ احترازٌ من العُمُوم؛ لأنَّهُم لَيْسُوا كلُّهم يفعلون هذا، ولكن مَن يفعل هذا فهذا جَزَاؤُهُ: الخزيُ في الحياة الدُّنْيَا، وبيانُ عَيْبه وعوَارِه، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾، وإنَّما يُرَدُّون إلى أشدِّ العذاب؛ لنكْثِهم العهدَ والميثاقَ الَّذي بينهم وبين الله عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ الآيَة ببيان كَمال عِلْمِه ومُراقَبَتِه فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فوَائِد وأحْكَام هاتَيْن الآيتَيْن:

١- العُدُول عن الكَلَام بصيغة الغَيْبَة إلى الكَلَام بصيغة الخِطَاب؛ لأنَّهُ أشدُّ وأَوْقَعُ في النَّفْس، ففي الآيَة الَّتي سبقت هاتَيْن الآيتَيْن يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وفي هذه الآيَة يقولُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾، فعَدَلَ عن الكَلَام بالغَيْبة إلى الكَلَام بالخطاب؛ لأنَّهُ أبلغُ وأشدُّ.

٢- ومن فَوَائِد الآيَة الكَرِيمَة: تحريمُ الدِّمَاء في الأُمم السَّابقة كما هي مُحَرَّمة في هذه الشَّريعَة، وقد أَعْلَن النبي ﷺ هذا التَّحريم في أكبر مُجْتَمع اجتمع به مع أُمَّته، وذلك في حجَّة الوداع، حيث سَأَلَهم: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» و«أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» و«أَيُّ

بَلَدٍ هَذَا؟» ثُمَّ قال: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»[1].

والدِّماء من أَعْظَم العُدْوَان حُرْمَةً وجزاءً، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]، وأخبر النبيُّ ﷺ بذلك، فقال: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الدِّمَاءُ»[2].

٣- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: تحريمُ إخراج الإِنْسَان من بَلَدِه إلَّا بمُقْتَضى الشَّرع؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾.

٤- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: استعمالُ ما يُوجِب العَطْفَ والحَنَان والرَّحمة في الخطاب؛ لقَوْلِهِ: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾؛ حيث جَعَلَ دِمَاء الغير كدِمَاء الإِنْسَان نَفْسِه، وجعل إِخْرَاج الغير كإِخْرَاج الإِنْسَان نفسه.

٥- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: بيانُ عُتُوِّ بني إسرائيل؛ حيث إنَّهم أَقَرُّوا بهذا الميثاق، وشَهِدُوا به، ولكنَّهم لم يقومُوا بتَطْبِيقِه والعَمَلِ به.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، رقم (٦٧)، ومسلم: كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء، رقم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، رقم (١٧٣٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٣)، ومسلم: كتاب القسامة، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، رقم (١٦٧٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: التَّحذيرُ من العمل بما عَمِلَ به هَؤُلَاءِ من أَخْذِ الميثاق بين العَبْد وربِّه، ثُمَّ بعد ذلك يَنْكُثُه، ولَا يَفِي به.

٧- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: بيانُ أنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لم يُطَبِّقُوا الميثاقَ، وصارُوا يقتلون أَنْفُسَهم، ويُخْرِجُون فريقًا منهم من ديارهم، يُعْتَبرون مؤمنين ببعض الكِتَاب، وكافرين ببعضٍ، والإِيمانُ ببعض الكِتَاب والكفرُ ببعضه كُفْرٌ به جميعًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾، وأشدُّ العَذَاب لا يَكُون إلَّا للكافرين، ولقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١]، فبيَّنَ اللهُ أنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤْمِنون ببعضٍ، ويكفرون ببعضٍ، كَافِرُون حقًّا، وهذه مسألة خَطِيرَة عظيمة؛ لأنَّ بَعْض النَّاس يُؤْمِن ببعض الشَّريعَة ويَكْفُر ببعضها، ثُمَّ يقول: إنَّه مُؤْمِن باعتبار أَصْلِ عَقِيدَتِه، وهذا لا يَنْفَعُهُ؛ إذ لَابُدَّ في الإِيمان من أَنْ يَكُون إيمانًا شاملًا لكلِّ ما جاءت به الشَّريعَةُ.

٨- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: تناقُضُ بني إسرائيل؛ حيث إنَّهم يُخْرِجُون فريقًا منهم من ديارهم مُتعالين عليهم بالإِثم والعُدْوَان، ثُمَّ إذا أَتَوْهم أُسَارى فادَوْهُم، وهذا تناقضٌ: كَيْفَ يُخْرِجُونهم من ديارهم، ثُمَّ يُفادونهم إذا أَتَوْهم أُسَارى؟!

٩- ومن فَوَائِد الآيَة الكَرِيمَة الثَّانية: أنَّ عَمَلَ بني إسرائيل من الإِيمان ببعض الكِتَاب والكفر ببعضه كان سببًا لهذه العُقُوبة العَظِيمَة: أنَّهم يُخْزَوْن في هذه الدُّنْيَا، وفي يوم القِيَامة يُرَدُّون إلى أشدِّ العذاب.

١٠- ومن فَوَائِد الآيَة الكَرِيمَة الثَّانية: بيانُ عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ في الاحتراز من العُمُوم إذا لم يَكُن الحكم عامًّا؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾، ولم يقل: «فما جزاؤكم؟» مع أنَّ الخِطَابَ في الأوَّل كان للجميع؛ حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾، وقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، ثُمَّ قال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾، وهذا من باب الاحتراز الدَّالِّ على كَمال عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ حتَّى في التَّحدُّث عن الغير.

١١- ومن فَوَائِد الآيَة الكَرِيمَة الثَّانية: أَنَّهُ يجبُ على الإنسان مُراعَاةُ العَدْل فيما يُخاطِب به غَيْرَهُ، فلَا يتكلَّم عن أُمَّةٍ في مَدْحٍ أو قَدْحٍ على سبيل العُمُوم إذا لم تكن كذلك، ولَا يتكلَّم أيضًا عن أفعال الشَّخص المُعَيَّن من قَدْحٍ أو مَدْحٍ على سبيل العُمُوم إذا لم يَكُنْ كذلك؛ لأنَّ هذا هو الحقُّ والعَدْلُ.

١٢- ومن فَوَائِد الآيَة الكَرِيمَة الثَّانية: إثباتُ يوم القِيَامَة، والجزاءِ فيه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٣- ومن فَوَائِدها: أنَّ العذابَ مَراتِبُ، بَعْضُه أشدُّ من بعضٍ؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٤- ومن فَوَائِدها: إثباتُ الصِّفَات المنفيَّة في صِفَات الله عَزَّوَجَلَّ، بمعنى: أنَّ الله مَوْصُوف بالإثبات ومَوْصُوف بالنَّفي، وذَلِكَ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، لكن لِيُعْلَمْ أنَّ الصِّفات المَنْفِيَّةَ عن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُراد بها مُجَرَّد النَّفي، وإنَّما يُرادُ بها بيانُ كَمال ضِدِّها، فإذا قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كان دالًّا على كَمال عِلْمِه، وكَمال مُراقَبتِه لعِباده عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه ليس بغافلٍ عنهم.

١٥- ومن فَوَائِدها: بيانُ كَمال الله عَزَّوَجَلَّ في عُمُوم عِلْمِه ومُراقبته؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ (ما) من صِيَغ العُمُوم، والعُمُوم في اسم المَوْصُول أو غَيْره يدلُّ على السَّعة والشُّمُول.

•●○●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

الإِشارةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَـٰٓئِكَ﴾ إلى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَكَثُوا العهدَ من بني إسرائيل، فبيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَكَثُوا العهدَ إنَّما نَكَثُوه لأغراض الدُّنْيَا وأَعْرَاضِها؛ ولهذا قال: ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: أَخَذُوا الدُّنْيَا بدلًا عن الآخرة، وهؤلاء حُكْمُهم في الآخرة: أنَّهُ لا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ، ولَا هم يُنْصَرون؛ لأنَّهم ماتُوا وهم نَاكِثُون لعهد الله عَزَّوَجَلَّ.

فَوائِد وأحْكام الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيانُ أنَّ مَن خَالَفَ أَمْرَ الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّما يُخالِفُه لغرض من الدُّنْيَا.

٢- ومن فَوَائِدها: بيانُ سَفَه هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَكَثُوا عَهْدَ الله؛ حيث اختارُوا الدُّنْيَا على الآخرة، مع أنَّ الآخرة خيرٌ وأَبْقَى؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

٣- ومن فَوَائِدها: التَّحذيرُ من اختيار الدُّنْيَا على الآخرة، ومن ذلك: أَنْ يتعامل الإِنْسَان مع النَّاس بمُعَامَلَاتٍ مُحَرَّمةٍ، كالرِّبا، والغِشِّ، والكَذِب، وغير ذلك؛

من أجل أَنْ ينال عَرَضًا من الدُّنْيَا؛ فإنَّ هذا من السَّفَه والخطإ؛ لأنَّ الدُّنْيَا زائلةٌ فانيةٌ، والآخرة هي الباقيةُ، وقد حَذَّر النبي ﷺ من هذه الفتنة في قَوْلِه ﷺ: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ، كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»(١).

٤- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: إثباتُ العذابِ والجزاءِ، وأنَّ مَن اشترى الحياة الدُّنْيَا بالآخِرَة لا يُخَفَّف عنه العذابُ؛ لأنَّهُ اختار الدُّنْيَا على الآخِرَة، فيبقى مُخَلَّدًا في النَّار لا يُخَفَّفُ عنه العذابُ.

ولْيُعْلَم أنَّ أصحاب النَّار فيها -والعياذُ بالله- يقولون لمالكٍ: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، ويقولون لخَزَنة جهنَّم: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]، فأمَّا جوابُ مَالكٍ لهم فيقولُ لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وأمَّا جوابُ خَزَنَةِ النَّار فيقولون لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:٥٠].

٥- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ أَصْحَاب النَّار الَّذِينَ هم أَهْلُها لا تنفعُ فيهم الشَّفاعةُ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، والشَّفاعةُ نوعٌ من النَّصر، ولكنَّ هَؤُلَاءِ المستحقِّين الخلودَ في النَّار لا تنفعُ فيهم الشَّفاعةُ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

•••

(١) أخرجه بمعناه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية: إنَّهُ أعطى مُوسى الكِتَابَ -وهو التَّوْرَاة- ويُؤَكِّد ذلك الإِعطاءَ بالقَسَم المُقَدَّر، واللَّام، و(قد).

وهذا الكِتَاب الَّذي أُوتي مُوسى لم يَكُنْ آخر كِتَابٍ نَزَلَ على بني إسرائيل، بل إنَّ الله تعالى قَفَّى من بعده بالرُّسُل، فأرسل إلى بني إسرائيلَ الرُّسُل تِبَاعًا، وخَتَمَ رُسُلَ بني إسرائيل بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الآياتِ البيِّنات، وهي ما حَصَلَ من حَمْل أُمِّه به من غَيْر أبٍ، ومن نُطْقِه في المَهْد، ومِمَّا جاء به من إخراج الموتى من قُبُورهم، وإحياءِ الموتى قبل الدَّفن، وإبراء الأَكْمَه والأَبْرَص بإذن الله، فكُلُّ هذه الآيات الَّتي جاء بها آياتٌ بيِّناتٌ، لكن فيها آيات سَبقت وُجُوده -أي: وُجُود عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وآيات بعد وُجُوده ورِسَالَتِه.

ومع هذا فإنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع أَنَّهُ أُوتي البيِّناتِ قد أَيَّدَهُ اللهُ تعالى برُوح القُدُس، وهو جبريلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَيَّد اللهُ به عيسى، أي: قوَّاهُ به ونَصَرَهُ.

ثُمَّ قال مخاطبًا بني إسرائيل، ومُوَبِّخًا لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ يعني: أفتَبْلُغُون إلى هذه الحال: إذا جاءكم رَسُولٌ بما لا تَهْوَى أَنْفُسُكم استكبرتُم، وإذا جاءكم رَسُولٌ بِمَا تهوى أَنْفُسُكم قَبِلْتُم، ولكن هذا الأخير قد لا تدلُّ عليه الآيَةُ الكَرِيمَةُ؛ لأنَّ جميع الرُّسُل الَّذِينَ جاؤُوا بالحقِّ إلى بني إسرائيل

جاؤُوا بما لا تَهْوَى أَنْفُسُهم، أي: أَنْفُس بني إسرائيل.

ثُمَّ انقسم بنو إسرائيل بالنسبة إلى هَؤُلَاءِ الرُّسُل إلى فريقَيْن، ففريقًا كَذَّبُوا، وفريقًا قَتَلُوا، وآخرُ مَن كذَّبوه هو مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فإنَّهم كذَّبُوه بعد أن جاءهم بالبيِّنات، حتَّى كَانُوا يَعْرِفُونه كما يَعْرِفُون أبناءَهم، ولكنَّهم استكبروا، ولم يَقْبَلُوا ما جاء به، بل عَاهَدُوه ونَقَضُوا العهد معه، وقَاتَلُوا أصحابَهُ، وما زَالُوا إلى يومنا هذا أَعْدَاءً لأتباع مُحَمَّد ﷺ، ثُمَّ قالَ تعالَى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، فبَيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ حالَ بني إسرائيل مع الرُّسُل أنَّهم على هَذَيْن القِسْمَيْن: إمَّا أَنْ يُكَذِّبُوا، وإمَّا أَنْ يقتلوا، فتكْذِيبُهم تكذيبٌ بالحقِّ، وقَتْلُهم قَتْلٌ بغير حقٍّ، كما قال اللهُ تعالى في آية أُخْرَى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:٢١].

فوائِد وأحْكام الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيانُ ما منَّ الله به على موسى ﷺ من إِتْيَان الكِتَاب، وموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أفضلُ أنبياء بني إسرائيلَ، والتَّوراة هي أعظمُ الكُتُب المُنَزَّلة على بني إسرائيل، ولهذا يَقْرِنُ اللهُ تعالى بينها وبين القُرْآن أحيانًا؛ لأنَّ القُرْآن أَفْضَلُ الكُتُب المُنَزَّلة على الأنبياء، والتَّوراة أفضل الكُتُب المُنَزَّلة على بني إسرائيل.

٢- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: إثبات نُبُوَّة موسى ﷺ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٣- ومن فَوَائِدها: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يُهمِل الخَلْقَ بِلَا رُسُل؛ فإنَّهُ قفَّى من بَعْد موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالرُّسُل تِبَاعًا؛ من أجل هِدَاية النَّاس، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، فكلُّ أُمَّةٍ خَلَا فيها نذيرٌ؛ لتقوم الحُجَّة على

العِبَاد؛ فإنَّ العباد إذا لم يَأْتِهم رُسُلٌ قد يَكُون لهم حُجَّة على ربِّهم عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَنَعَ هذا الاحتجاج بإرسال الرُّسُل؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥].

٤- ومن الفَوَائِد المُسْتَنْبَطة المَأْخُوذَة من هذه الآيِة: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قفَّى من بَعْدِ موسى بالرُّسُل؛ من أجل أن تَبْقَى آثارُ الرِّسَالة في العِبَاد.

٥- ومن فَوَائِدها: إثباتُ نُبُوَّة عيسى ﷺ؛ حيث قال: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٦- ومن فَوَائِدها: أنَّ الله أَعْطَى عيسى ابن مَرْيَم بيِّناتٍ من الأمر تُبَيِّن رِسَالَتَهُ، وأنَّه عبدُ الله ورَسُولُهُ، والبيِّناتُ هذه شاملةٌ لجميع الرُّسُل، فما من رَسُولٍ إلَّا آتاه اللهُ ما على مِثْلِه يُؤْمِن البشرُ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد:٢٥].

٧- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: بيانُ حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث إنَّه جَلَّوَعَلَا إذا أرسل الرُّسُل جَعَلَ معهم بيِّناتٍ تشهد لهم بالصِّدْق، وهذا من كَمال حِكْمَتِه، وكَمال رحمته أيضًا؛ لأنَّهُ لو جاء رَسُولٌ إلى الخَلْق دون أن تكون معه آيةٌ تدلُّ على صِدْقِه لم يَقْبَل النَّاسُ منه، ولكن الله تعالى -بحِكْمَتِه ورحمته- جَعَلَ مع كُلِّ رَسُولٍ آيةً تدلُّ على صِدْقِه، وأنَّهُ رَسُول اللهِ حقًّا.

٨- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: مِنَّةُ الله على عَبْدِه ورَسُولِهِ عيسى ابن مريم؛ حيث أَيَّدَهُ برُوح القُدُس جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٩- ومن فَوَائِدها: بُطْلَان دَعْوَى النَّصارى بأُلُوهِيَّة عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأَنَّهُ أُيِّد برُوح القُدُس، ولو كان إلهًا لم يَحْتج إلى تأييد أحدٍ، ولكنَّه عبدُ الله ورسولُهُ؛ كما قال النبي ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ»(١).

وقد تَبَرَّأ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من دَعْوَى مَن ادَّعى أَنَّهُ إِلَهٌ مَعْبُود مُسْتَحِقٌّ للعِبَادة في قَوْلِه ﷺ حين يَسْأَله اللهُ يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].

١٠- ومن فَوَائِد هذه الآية: إثباتُ المَلَكِ الكَرِيمِ جبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذي وَصَفَه الله بأَنَّهُ رُوحُ القُدُس في هذه الآيَة وفي غَيْرِها، قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

١١- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: بيانُ أَنَّ بني إسرائيل لا يَقْبَلُون ما جاءت به الرُّسُل، بل كُلَّما جاءهم رَسُولٌ بما لا تَهْوَى أَنْفُسُهم -أي: بما لا يعتقدون أَنَّهُ حقٌّ- استكبروا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ﴾، رقم (٣٤٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم (٢٨)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٢- ومن فَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة: أنَّ بني إسرائيل انْقَسَمُوا في جانب الرُّسُل إلى قِسْمَين: فريق كذَّبُوا الرُّسُلَ، وفريق قَتَلُوهم؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

• • ◦ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾

﴿وَقَالُوا﴾ الضَّميرُ يعودُ على بني إِسْرَائيل؛ لأنَّ هذه الآياتِ كلَّها في التَّحدُّث عنهم، ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: مُغَلَّفة لا يَصِلُ إِلَيْها ما جاء به محُمَّدٌ ﷺ من الحقِّ، فبيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بُطْلان دَعْوَاهم هذه في قَوْلِهِ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: أنَّ الله طَرَدَهم وأَبْعَدهم عن رحمته بكُفْرِهم، فرَانَ على قُلُوبهم ما كَانُوا يَكْسِبُون، وإذا ران على القلب عَمَلُ العَبْدِ فإنَّهُ يُطْبَع على قلبه، فلا يَصِلُ إِلَيْه الخيرُ، فيظنُّ أنَّ قَلْبَه لم يُخْلَق مُنْفَتِحًا لهذا الخير، ويَدَّعي أنَّ قَلْبَه أَغْلَفُ.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أنَّ إيمانَهم قليلٌ، بسبب لَعْنَة الله لهم بكُفْرِهم.

فَوائِدُ وأحْكَامُ الآيَة الكَرِيمَة:

١- أنَّ بني إِسْرَائيل يدَّعون ما ليس بحقٍّ، حينما يَدْعُوهم النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أو غَيْرُهُ من أنبيائهم، فيقولون: إنَّ قُلُوبَهم غُلْفٌ، يعني: مُغْلَّقة لا يَصِلُ إِلَيْها ما دَعَوْتُم إِلَيْه، ووَجْهُ إبطالِ هذا: قولُهُ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بل ليس الأمرُ كما يدَّعون، وإنَّما الأمرُ أنَّهم كَفَرُوا، فلَعَنَهم اللهُ، فلا يصل إِلَى قُلُوبهم الخيرُ.

٢- ومن فَوَائِد الآيَة الكَرِيمَة: بيانُ عُقُوبة الله لهؤلاء باللَّعنة، وهي الطَّردُ والإِبعاد عن رحمة الله.

٣- ومن فَوَائِدها: إثباتُ الأسباب؛ لقَوْلِه: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ فإنَّ الباء هنا للسَّببيَّة.

٤- ومن فَوَائِدها: أنَّ الكفر -والعياذ بالله- يُوجِب انطماسَ القلب، والطَّبْعَ عليه، بحيث لا يصل إِلَيْه الخيرُ؛ لقَوْلِهِ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

٥- ومن فَوَائِدها: أنَّ بني إِسْرَائيل يَقِلُّ فيهم الإِيمانُ، والقِلَّة هنا إمَّا أن يَكُون المراد بها: العَدَم؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وإمَّا أن يُراد بها: أَنَّهُ قد تَرِدُ على قُلُوبهم أحيانًا وَارِدَاتٌ يَكُون فيها شيءٌ من الإِيمان، ولكنَّه شيءٌ قليلٌ لا ينتهض إلى إزالة الكفر عن هذه القُلُوب.

•●●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ المراد به: القُرْآن، فهو من عند الله؛ لأنَّ اللهَ تعالى تَكَلَّم به، وتلقَّاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ نَزَلَ به على قَلْبِ النبي ﷺ، ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: أنَّ هذا القُرْآنَ مُصَدِّقٌ ما معهم من الكُتُب، وتصديقُ القُرْآن لِمَا معهم منَ الكُتُب على وَجْهَين:

الوجه الأَوَّل: أَنَّهُ حَكَمَ بصِدْقِ هذه الكُتُب السَّابقة، وأَوْجَب على النَّاس أن يُؤْمِنُوا بها، وهذا يعني أَنَّهُ قال: إنَّها صَادِقَةٌ.

والوجهُ الثَّاني من التَّصديقِ: أنَّ الكُتُب السَّابقةَ أَخبَرَت به، فجاء مُصدِّقًا لِمَا أَخْبَرَت به مُطابِقًا له، وكِلا الوَجْهَيْن حقٌّ.

لَمَّا جاءهم هذا الكِتَابُ من عند الله مُصَدِّقًا لِمَا معهم ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: أنَّ هَؤُلاءِ اليهود كَانُوا من قَبْلُ يستفتحون على الَّذِينَ كَفَرُوا، أي: يَسْتَنْصِرُون عليهم بالرَّسُول الَّذي وُعِدُوا به، وكانُوا يقولون: إنَّهُ سيُبْعَث نبيٌّ، وسنكون من أَتْبَاعه، وسنَنْتَصِرُ عليكم! يقولون ذلك للكافرين.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ أي: جاءهم ما عرفُوا أَنَّهُ الحقُّ، وأَنَّهُ الرَّسُول الَّذي كَانُوا ينتظرونه ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ ولم يَقْبَلُوا ما جاء به ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يعني: أنَّ هَؤُلاءِ لَمَّا كفرُوا بالرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الَّذي عَرَفُوه كما يعرفون أَبْنَاءَهم استحقُّوا اللَّعنة من الله عَزَّوَجَلَّ، وهي الطَّردُ والإبعادُ عن رحمة الله.

وهنا قَال: ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقل: «فلعنة الله عليهم»، والإظهارُ في موضع الإضمار لَهُ فَوَائِدُ، منها:

- الحُكْمُ على مَرْجِع الضَّمير بهذا الوَصْفِ الظَّاهر الَّذي حلَّ محَلَّ الضَّمير، فلو قال: «فلعنة الله عليهم» لم يتبيَّن أنَّهم كُفَّار بهذا الكُفْر، ولكنَّه قال: ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ ليُحقِّق بذلك اتِّصافهم بالكفر.

- ومنها: إرادةُ التَّعْمِيم، فمثلًا لو قال: «فلَعْنَةُ الله عليهم» لم تَشْمَل غَيْرهم، ولكن إذا قال: «على الكافرين» شَمَلَتهم وشَمَلَت غَيْرهم من الكُفَّار.

فَوائِدُ هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- أنَّ بني إِسْرَائيلَ قدِ امْتَدَّ طُغْيَانُهم وعُتُوُّهم وتَكْذِيبُهم للأنبياء حتَّى آخِرِ الأنبياء وخَاتَمِهم مُحَمَّد ﷺ.

٢- ومن فَوَائِدها: أنَّ القُرْآن الَّذي جاء به مُحَمَّد ﷺ من عند الله، ليس مُتَقَوَّلًا عليه.

٣- ومن فَوَائِدها: إثباتُ كَلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ القُرْآن كَلامٌ بلا شَكٍّ، فإذا كان من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى دلَّ هذا على أَنَّهُ كَلامُهُ، وهذا هو ما يذهب إِلَيْه أهل السُّنَّة والجماعة من أنَّ القُرْآن كَلامُ الله حُرُوفه ومعانيه، وأنَّه مُنَزَّل غَيْرُ مَخْلُوق، منه بَدَأَ، وإِلَيْه يعودُ.

٤- ومن فَوَائِدها: الثَّناءُ على كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ القُرْآن؛ لكَوْنِه مُصَدِّقًا لِمَا سَبقَه من الكُتُب؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

٥- ومن فَوَائِدها: أنَّ الحُجَّة على بني إِسْرَائيل كانت معهم، وبين أيديهم، فكُتُبُهم كلُّها نَاطِقَةٌ مُتحدِّثةٌ عن هذا القُرْآن الكَرِيم، مُصَدِّقة له، مُخْبِرة به، ومع ذلك كَفَرُوا به عُتُوًّا وطُغْيَانًا.

٦- ومن فَوَائِدها: بيانُ الحَسَد العَظِيم في بني إِسْرَائيل؛ حيث كَانُوا من قَبْلُ يستفتحون على الَّذِينَ كَفَرُوا؛ ظنًّا منهم أنَّ النَّبيَّ الَّذي تحدَّثت عنه كُتُبُهم سيكون من بني إِسْرَائيل، فلَمَّا تبيَّن أنَّهُ من بني إسماعيل كَفَرُوا به، قَال اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

٧- ومن فَوَائِدها: أنَّ بني إِسْرَائيل كَفرُوا عن عِنَادٍ وبيَانٍ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾.

٨- ومن فَوَائِدها: أنَّ الكُفْرَ عن معرفةٍ أشدُّ من الكفر عن جَهْلٍ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾، ولم يقل: «فلما جاءهم الرَّسُول»، أو «جاءهم صاحبُ هذا الكِتَاب»، أو ما أشبه ذلك، بل قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾؛ بيانًا لشَنَاعَة ما حصل منهم.

٩- ومن فَوَائِدها: أنَّ بني إِسْرَائيل لَمَّا كَفرُوا استحقُّوا اللَّعنة الَّتي أَوْجَبها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على كُلِّ كافرٍ، أي: أنَّ لعنةَ الله حاقَّـةٌ على كُلِّ كافرٍ، ولهذا قَال: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

• • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠﴾

يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُبيِّنًا قُبْحَ ما ذهبُوا إِلَيْه؛ لكَوْنِهم اختارُوا لأنفُسِهم الكُفْرَ بما أنزل اللهُ؛ حَسَدًا وبَغْيًا منهم أن يُنَزِّل اللهُ من فَضْلِه على مَن يشاء من عِبَاده؛ فإنَّهم حَسَدُوا العربَ حين كان النبي ﷺ منهم، واختارُوا لأنفسهم الكُفْرَ على الإِيمان.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أي: أنَّهم أَتَوا بغضبٍ على غضبٍ، وهذا لا يعني أنَّهم باؤُوا بغَضَبَيْن فقط، بل بأكثر، فهم استحقُّوا غضب الله عَزَّوَجَلَّ

بعِبَادة العِجْلِ في زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبتكْذِيب عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبتكْذِيب مُحَمَّد ﷺ، فهم باؤُوا بغضبٍ على غضبٍ، أي: رَجَعُوا به -والعياذُ بالله- والغضبُ الَّذي رَجَعُوا به هو غَضَبٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ قال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وهذه عامَّةٌ، وأوَّلُ مَن يدخلُ فيها هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بمُحَمَّد ﷺ؛ لأنَّهم اختارُوا لأنفسهم الكفرَ.

وإنَّما قال: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ لأنَّهم كَفَرُوا استكبارًا وتَعَاظُمًا وعُلُوًّا، فكان جَزَاؤُهم هذا العذابَ الَّذي يُهينهم ويُلْحِقهم الذُّلَّ والهَوَان.

فَوائِدُ وأحْكَامُ الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيانُ قُبْحِ ما اخْتَارَهُ هَؤُلاءِ المُكَذِّبون لرسول الله ﷺ من بني إِسْرَائيلَ؛ لقَوْلِهِ: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾.

٢- ومن فَوَائِدها: إثباتُ أنَّ ما جاء به مُحَمَّد ﷺ من عند الله؛ لقَوْلِهِ: ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

٣- ومن فَوَائِدها: أنَّ الَّذي حَمَلَهم على ذلك هو البغيُ والعُدْوَان، وهذا من طبيعة بني إِسْرَائيل: أنَّهم بُغَاة عُتَاة مُتَمَرِّدون على الحَقِّ.

٤- ومن فَوَائِدها: بيانُ أنَّ العِلْمَ الَّذي يَهَبُه اللهُ تعالى للشَّخص في شريعة الله من فَضْلِه، بل هو أَعْظَمُ فَضْلٍ يَمُنُّ اللهُ به على العبد بعد هِدَايته لدِينِه أن يَرْزُقَه الله تعالى العلمَ، والعلمُ أفضلُ من المال؛ لِمَا فيه من النَّفع الكثير الواسع، وقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ، بل وأحاديثُ كثيرةٌ تدلُّ على بيان فَضْلِ العلم، وأنَّهُ من أعظم نعمةٍ مَنَّ اللهُ بها على العبد.

٥- ومن فَوَائِدها: إثباتُ المشيئة لله؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، ومشيئةُ الله تعالى عامَّة في كُلِّ شيء، فيما يَفْعَلُهُ هو بنفسه، وفيما يَفْعَلُهُ العبادُ.

٦- ومن فَوَائِدها: أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ اختارُوا لأنفسهم الكُفْرَ بمُحَمَّد ﷺ قد باؤُوا بغضبٍ على غضبٍ، أي: تَرَاكَم عليهم الغضبُ من الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا يدلُّ على أنَّ الغَضَبَ إذا تكرَّر كان أعظمَ قُبْحًا ممَّا إذا كان غَيْر مُتكَرِّر.

٧- ومن فَوَائِدها: إثباتُ العذابِ للكَافِرين، وأَنَّهُ عذابٌ مُهينٌ يُلْحِقهم بالذُّلِّ والهَوَان؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لبني إِسْرَائِيل المَوْجُودين في عهد الرَّسُول ﷺ ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهو هذا القُرْآن الَّذي أنزله الله على مُحَمَّد ﷺ لم يَقْبَلُوا هذا القول، بل يَرُدُّونه بقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من الكُتُب الَّتي نَزَلَت عليهم، كالتَّوراة على اليَهُود، والإِنجيلِ على النَّصارى، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: بما سِوَاه ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: أنَّ الَّذي كَفَرُوا به هو الحقُّ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾، والحقُّ هو الشَّيء الثَّابت، وضدُّه: الباطلُ الزَّائل.

وقولُهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: أنَّ القُرْآن الكَرِيم صَدَّق ما معهم من الكُتُب، وكان تَصْدِيقُهُ لها على وجهين:

الوجه الأَوَّل: أَنَّهُ بيَّن أَنَّها كُتُب مُشْتَمِلة على الصِّدق.

والوجه الثَّاني: أَنَّهُ صَدَّقها؛ حيث كانت تتحدَّث عنه، وتُبيِّنُه، وأَنَّه سيكونُ، فكان.

يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ أي: قل لهم يا مُحَمَّدُ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا كُنْتُم تَدَّعُون أَنَّكم تُؤْمِنُون بما أُنْزِل عليكم فَلِمَ تَقْتُلون أنبياء الله الَّذِينَ جاؤُوا بالوَحْيِ من الله؟ وهل هذا إلَّا كذبٌ منكم وعُدْوَان واستكبارٌ على الحقِّ؟! ولو كُنْتُم مُؤْمِنين حقًّا ما قَتَلْتُم الأنبياء الَّذِينَ جاؤُوا منكم، وأَتَوْا بالكُتُب مُنَزَّلةً عليكم.

فَوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيانُ تعصُّب اليَهُود والنَّصارى لِمَا هم عليه من الطَّريق، ولو كانت طريقًا خاطِئَةً؛ لأنَّ رِسَالَتَي اليهود والنَّصارى نُسِخَتا بمجيء مُحَمَّد ﷺ، وصارتا غَيْر مَقْبُولَتَيْن عند الله؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

٢- ومن فَوَائِدها: التَّحذيرُ من التَّعصُّب لِمَا مع الإِنْسَان إذا كان باطلًا؛ لأنَّ الله ذَكَرَ هذا عن بني إِسْرَائيل؛ تَحْذِيرًا من طريقتهم.

٣- ومن فَوَائِدها: أنَّ بني إِسْرَائيل إذا عُرِضَ عليهم الحقُّ ردُّوه، وتعصَّبُوا للباطل الَّذي هم عليه، وكَفَرُوا بما سِوَاه؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها: أنَّ بني إِسْرَائيل يردُّون الحقَّ المُصَدِّق لِمَا معهم، وكان الَّذي يَجِبُ عليهم عقلًا وشرعًا أن يَقْبَلُوا الحقَّ، ولاسِيَّما أنَّهُ مُصَدِّق لِمَا معهم، ومُبَيِّن أنَّها على حقٍّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

٥- ومن فَوَائِدها: إقامةُ الحُجَّة على كَذِبِ هؤلاء الَّذِينَ يَدَّعون أنَّهم يُؤْمِنون بما أُنزل إِلَيْهم؛ لأنَّهم كَانُوا يَقْتُلُون الأنبياءَ، ولو كَانُوا صَادِقِين في الإِيمان بما أُنْزِل إِلَيْهم ما قَتَلُوا الأنبياء.

٦- ومن فَوَائِدها: أنَّهُ يَنْبَغِي عند المُحَاجَّة أن يَذْكُر المُحَاجُّ ما يُفْحِم به الخصم، ويُبَيِّن كَذِبَه، وبُطْلانَ دَعْوَاه؛ لقَوْلِهِ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٧- ومن فَوَائِدها: بيانُ أنَّ بني إِسْرَائيل لا يَقْبَلُون الحقَّ من كُلِّ مَن جاء به، ولكن إذا جاءهم ما تَهْوَى أنفُسُهم سَكَتُوا، وإذا جاءهم ما لا تهوى أَنْفُسُهم قَتَلُوا أو يُكَذِّبون ويُصَرِّحون بالتَّكذيب إذا لم يَبْلُغُوا إِلَى حدِّ القتل، كما سبق في آيةٍ قبل هذه.

• • ✿ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

في هذه الآيَة يُخاطِبُ اللهُ بني إِسْرَائيل مُوَبِّخًا لهم على ما حَصَلَ منهم؛ حيث إنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جاءهم بالآياتِ البيِّناتِ الدَّالَّةِ على رِسَالَتِه، وصِدْقِ دَعْوَته،

ومع ذلك اتَّخذُوا العِجْـلَ من بعده إلهًا، وهم ظَالِمُون، أي: ظَالِمُون لأنفسهم بهذا الاتِّخاذ.

وسببُ ذلك: أنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واعَدَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثلاثين ليلةً، ثُمَّ أتمَّها بعشرٍ، فبقي غائبًا عن قَوْمِه أربعين ليلةً، وكان قد خَلَّف عليهم هارونَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلمَّا تأخَّر عن الثَّلاثين فُتِنُوا بما صَنَعَه السَّامريُّ من العِجْلِ المُكَوَّن من الذَّهب الَّذي استعاروه، وقال لهم: إنَّ هذا هو إِلَهُكم وإِلهُ موسى! فعَبَدُوا العِجْلَ، وهم يعلمون أنَّهُ من صُنْعِهم، وأنَّهم هم الَّذِينَ صَنَعَوه وأَحْدَثُوه.

وقد نَصَحَهم هارون عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكنَّهم ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩١]، وهذا -لا شَكَّ- دَلِيلٌ على سَفَهِهم، وعُتُوِّهم، وطُغْيَانهم: أن يتَّخذُوا إلهًا على صُورة العِجْل هم الَّذِينَ صَنَعُوه بأنفسهم، وهو من جُمْلَة القبائح الَّتي هم عليها.

فوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- في هذه الآيَة بيانُ واحدٍ من أُمُور كثيرة تدلُّ على عُتُوِّ بني إِسْرَائيل، وأنَّهم إنَّما يتَّبعون أهواءهم.

٢- وفيها أيضًا من الفَوَائِد: المناداةُ على سَفَه هَؤُلاءِ الَّذِينَ اتَّخذُوا العِجْلَ إلهًا، فعَبَدُوه، مع أنَّهُ لا يَرْجِعُ إِلَيْهم قولًا، ولا يملكُ لهم ضرًّا ولا نفعًا.

٣- ومن فَوَائِد هذه الآية: أنَّهم اتَّخذُوا العجل على حال ظُلْمٍ؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ هذا العِجْلَ هم الَّذِينَ صَنَعُوه، وأنَّهُ ليس إلهًا، ولكنَّهم -والعياذ بالله- تعنَّتُوا هذا التَّعنُّت، ونَصَحَهم هارونُ، ولكنَّهم لم يقبلُوا هذا النُّصح.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾

هذه الآيَة خِطَابٌ لبني إِسْرَائيل في عهد الرَّسُول ﷺ، ولكنَّهم لَمَّا كَانُوا أُمَّةً واحدةً مع مَن سَبَقَهم صحَّ أن يُوَجَّه الخِطَاب إِلَيْهم بالشَّنَاعة عليهم بِفِعْلِ غَيْرِهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: العَهْدَ الثَّقيل المُوَثَّق، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وهو الجبل المَعْرُوف، رَفَعَه اللهُ عليهم؛ تخويفًا وإنذارًا حتَّى صار كالظُّلَّة فوق رؤوسهم، وأَمَرَهم أن يأخذُوا ما آتاهم بقُوَّةٍ، أي: أن يأخذُوا الكِتَاب الَّذي أنزله اللهُ إِلَيْهم -وهو التَّوراة- بقُوَّةٍ في تَصْدِيق أَخْبَاره، والعَمَلِ بأحْكَامه، وأَمَرَهم أن يَسْمَعُوا، ولكنَّهم عَتَوْا وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وكان الواجب عليهم -وهم عِبَاد الله الَّذِينَ خُلِقُوا لعبادته- أن يقولوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا.

وكان هذا العِصْيَان والتَّمرُّد نتيجةً -والله أعلم- لِمَا أُشْرِب في قُلُوبهم من حُبِّ العِجْلِ؛ فإنَّ هذا العِجْلَ الَّذي صَنَعُوه وعَبَدُوه تمكَّن في قُلُوبهم حتَّى شَرِبَت حُبَّهُ؛ بسبب كُفْرِهم بالله عَزَّوَجَلَّ، فهم لَمَّا عَدَلُوا عن الحقِّ عُوقِبُوا بالإِغراء بالكُفْر؛ لأنَّ القُلُوب إمَّا على حقٍّ، وإمَّا على باطلٍ، فإذا انتفى الحقُّ ثَبَتَ الباطلُ.

قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ أي: بئس الأمرُ الَّذي يأمُرُكم به إيمانُكم من عِبَادة العجل والطُّغْيَان والعُتُوِّ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ومن المَعْلُومِ أنَّ مَن عَبَدَ مع الله غَيْرَهُ فليس بمؤمن ولو ادَّعى أنَّهُ مُؤْمِنٌ، ولكن هذه

الصِّيغة -الَّتي جاءت في آخر الآيـة- من باب التَّحدِّي لهم، إذا كَانُـوا مؤمنين فلماذا يَعْبُدُون العِجْلَ؟! هل الإيمان يأمُرُ بعبادة غَيْر الله؟! لا.

فَوائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- قُبْحُ أعمال بني إِسْرَائيل المُتكَرِّر.

٢- ومن فَوَائِدها: قُدْرَةُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث نَتَقَ الجَبَلَ فوقهم كأنَّه ظُلَّةٌ، مع أنَّ الجبل من الرَّواسي؛ فإنَّ الجبال جَعَلَها الله تعالى رواسي ثابتةً في الأَرْض، ولكنَّه إذا أراد شيئًا فإنَّما يقول له: «كُنْ» فيكون.

٣- ومن فَوَائِدها: بيانُ بُلُوغ الغاية في عُتُوِّ بني إِسْرَائيل؛ حيث إنَّهم قيل لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ﴾، ولكنَّهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

٤- ومن فَوَائِدها: أنَّ السَّمع يُطْلَق على الاستجابة والقَبُول؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي: اقْبَلُوا واسْتَجِيبُوا، لكنَّهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

٥- ومن فَوَائِدها: وُجُوبُ الأخذ بقُوَّة فيما نَزَلَ على الإِنْسَان من وحي الله، وألَّا يُقابِلَ هذا الوحي بالكَسَل والضَّعْفِ، ويشهدُ لهذا قولُ النبي ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٦- ومن فَوَائِدها: أنَّ الإِنْسَان قد يُبْتَلَى بحُبِّ الباطل إذا أَعْرَض عن الحقِّ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

٧- ومن فَوَائِدها: إثباتُ الأسباب؛ لقَوْلِهِ: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ فإنَّ الباء هنا للسَّببيَّة.

٨- ومن فَوَائِدها: التَّحذيرُ من ردِّ الحقِّ، وأنَّ الإِنْسَان قد يُبْتَلَى -إذا ردَّ الحقَّ- بمحبَّة الباطل حتَّى يبقى عليه.

وقد حذَّر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هذا بما ذَكَرَهُ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فإنَّ الإِنْسَان إذا ردَّ الحقَّ، ولم يستجب له من أوَّل الأَمْرِ، قد يُبْتَلَى بأن يُقلِّبُ اللهُ تعالى قَلْبَه وبَصَرَه حتَّى يَكُون في أمرٍ مَرِيجٍ.

٩- ومن فَوَائِدها: تقبيحُ ما ذَهَبَ إِلَيْه هَؤُلاءِ من محبَّة العِجْل، وعِصْيَانهم، وكُفْرِهم؛ لقَوْلِهِ: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٠- ومن فَوَائِدها: أنَّهُ يَنْبَغِي عند المُحَاجَّة أن يَسْلُك المُحَاجُّ ما فيه التَّحدِّي لخَصْمِه؛ حتَّى يتبيَّن قُدْرَتُه على المُدَافعة؛ لأنَّ مقام المُتَحَدِّي أَعْلَى وأَقْوَى من مقام المُتَحدَّى، وقد جاء في القُرْآن الكَرِيم كثيرٌ من هذا النَّوع -أعني: تحدِّيَ الخَصْمِ- حتَّى يتبيَّن عَجْزُه، وأَنَّهُ ليس على حقٍّ، من ذلك: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣]، ومثل قَوْله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٣-٣٤]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة الَّتي فيها تحدِّي الخصم حتَّى يتبيَّن عَجْزُهُ وانْقِطَاعه.

ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

الخطابُ في قَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ للرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَرَه الله تعالى أن يقول لهؤلاء المَوْجُودين في عَهْدِه من بني إِسْرَائيلَ: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾، وذلك أنَّهم كَانُوا يدَّعُون أنَّهم هم أَهْلُ الجَنَّة، وأنَّهم لن تمَسَّهم النَّارُ إلَّا أيَّامًا مَعْدُودةً، ثُمَّ يَخْلُفُهم المسلمون فيها، ويدَّعون أنَّهم أبناءُ الله تعالى وأَحِبَّاؤه، وأنَّهم خُلاصة الله تعالى من البشر، إِلَى غَيْر ذلك من الدَّعاوى الباطلة الَّتي يَشْهَد ببُطْلانها حالُهم الَّتي هم عليها، فيَقُولُ اللهُ تعالى لنبيِّه: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، ومن المَعْلُوم أنَّهم لن يَتَمَنَّوا الموتَ؛ لأنَّهم يعلمون أنَّهم على باطلٍ، ولهذا قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما قدَّمت أيديهم من الكُفْر والظُّلْم والطُّغْيان، ومَن كانت هذه حَالَه فإِنَّهُ لا يُمْكِنُ أن يتمنَّى الموت؛ لأَنَّهُ لو تمنَّى الموت في هذه الحال لكان معناه: أنَّهُ يتمنَّى استعجال العُقُوبة على نَفْسِه.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ هذه جُمْلَةٌ استئنافيَّةٌ تُبيِّن أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم أنَّ هَؤُلاءِ ظَلَمَة، وأنَّهم لا يُمْكِنُ أن يتمنَّوا الموت؛ لِمَا هم عليه من الظُّلْم.

ثُمَّ قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ أي: لتجدنَّ هَؤُلاءِ الموجودين من بني إِسْرَائيل أَحْرَص النَّاس على حَيَاةٍ، وإن كانت قليلةً، يتمنَّون أن يَبْقَوا في هذه الحياة الدُّنْيَا ولو قليلًا؛ ليتمتَّعُوا بما فيها من اللَّذَّات الَّتي لا تَنْفَعُهم يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ يعني: ولتجدنَّهم أَحْرَص النَّاس على حياةٍ حتَّى من الَّذِينَ أشركوا، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يعني: يُحِبُّ ويتمنَّى أن يُعَمَّر ألف سَنَةٍ، ولكنَّه لو عُمِّر لم يَنْفَعه ذلك، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، وسيُجازيهم اللهُ على أَعْمَالهم بما يستحقُّون.

فَوَائِد وأحْكَام هذه الآيات الكَرِيمات:

١- تحدِّي هَؤُلاءِ الَّذِينَ ادَّعَوا أنَّهم أبناءُ الله وأَحِبَّاؤُه، وأنَّ الدَّار الآخرة لهم، وأنَّهم لن تمسَّهم النَّارُ إلَّا أيَّامًا مَعْدُودةً، تحدِّيهم بأمرٍ هم قَادِرُون عليه لو شاؤوا، وهو تمنِّي الموت إذا كَانُوا صادقين بأنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لهم.

٢- ومن فَوَائِدها: أنَّ هَؤُلاءِ المَوْجُودين مِن بني إِسْرَائيل في عهد النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يُمْكِنُ أن يتمَنَّوا الموت؛ لأنَّهم يعلمون أنَّهم على باطلٍ، ومَن كان يعلم أنَّهُ على باطلٍ فلا يُمْكِنُ أن يتمنَّى الموت؛ لأنَّهُ لو تمنَّاه لكان يستعجلُ العذابَ لنَفْسِه.

٣- ومن فَوَائِدها: بيانُ عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها: أنَّ التَّأبيدَ إنَّما يَكُون بحَسَب الحال والقَرِينَة، فلا يَكُون تأبيدًا مُطْلَقًا أبدًا، وذلك لأنَّ أهلَ النَّار في النَّار يَتَمَنَّون الموتَ؛ كما قال اللهُ تعالى:

﴿وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وهؤلاء المُكَذِّبون لرسول الله ﷺ من بني إِسْرَائيلَ هم من أَهْلِ النَّار، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١).

٥- ومن فَوَائِدها: بيانُ أنَّ بني إِسْرَائيل أَحْرَصُ النَّاس على حياةٍ، وإن كانت حياةً زهيدةً قليلةً؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾.

٦- ومن فَوَائِدها: أنَّ المُشْرِكين من أحرصِ النَّاس على حياةٍ، ولكن هَؤُلاءِ اليهود من بني إِسْرَائيل أشدُّ حِرْصًا على الحَيَاة من المُشْرِكين.

٧- ومن فَوَائِدها: أنَّ طُولَ العُمُر لا يُغْنِي شيئًا إذا لم يَكُن الإِنْسَان على حقٍّ وعلى خيرٍ؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾، ولهذا جاء في الحديث: أنَّ رَجُلًا قال: يا رَسُول الله! أيُّ النَّاسِ خيرٌ؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»، قال: فأيُّ النَّاس شرٌّ؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**»(٢).

٨- ومن فَوَائِدها: أنَّ عُمُرَ الإِنْسَان حقيقةً ما أَمْضَاه في طاعةِ الله، وليس عُمُر الإِنْسَان ما طال؛ فإنَّ الإِنْسَان قد يَكُون قَصِيرَ العُمُر، ولكن يجعلُ اللهُ في عُمُره بركةً، ينتفعُ بنَفْسِه، وينفعُ غَيْرَه، كما يُوجَد من بَعْض العُلَماء الَّذِينَ عُمِّرُوا قليلًا، ولكنَّهم خلَّفُوا خيرًا كثيرًا للأُمَّة.

---

(١) تقدم تخريجه (ص:١٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، رقم (٢٣٢٩) (٢٣٣٠)، وأحمد (٤/ ١٨٨) (٥/ ٤٧) عن عبد الله بن بسر وأبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

٩- ومن فَوَائِدها: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَن دعا لشخصٍ بطُول العُمُر أن يَقْرِن ذلك بطاعة الله، فيقول: أطال اللهُ عُمُرَك على طاعتِهِ؛ لأنَّ طُولَ العُمُر بدون طاعةٍ لا يُفيد الإِنْسَانَ شيئًا، بل إذا كان في معصيةٍ فإِنَّهُ لا يَزِيدُهُ إلَّا شرًّا.

١٠- ومن فَوَائِدها: إثباتُ عُمُوم عِلم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، وهذا قد دلَّت عليه النُّصُوصُ الكثيرةُ في الكِتَاب والسُّنَّة، حيث دلَّت على عُمُوم علم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بكُلِّ شيء، سواء من أَفْعَاله أو من أَفْعَال عِبَاده، ذَكَرَ الله ذلك جُمْلَةً، وذَكَرَه تفصيلًا، فذِكْرُه جُمْلَةً مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٨٢]، والتَّفصيلُ مثلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٨]. ومثل قَوْلِه تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩] ومفاتِحُ الغَيْب هي الخمسُ المذكورةُ في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان:٣٤]، وآياتُ العِلْمِ كثيرةٌ في كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك أحاديثُ النبيِّ ﷺ في عِلْمِ الله.

والفائدةُ من عِلْمِنا بذلك: هي أن يَكُون الإِنْسَانُ مُرَاقِبًا لرَبِّه، يخشى ربَّه في السِّرِّ والعَلانية، لا يَكْتُم شرًّا، ولا يقول شرًّا، ولا يَفْعَل شرًّا، ولقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]،

فبَيَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ يَعْلَم ما تُوَسْوِسُ به نَفْسُ الإِنْسَان؛ تحذيرًا من أن يُضْمِر الإِنْسَانُ في قَلْبِهِ ما لا يَرْضَاه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فنسألُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَرْزُقنا البصيرةَ في دِينِهِ، وأن يَرْزُقنا خشيتَهُ، وأن يجعلنا من الَّذين يَخْشَوْنه، ولا يَخْشَون أحدًا سِوَاه؛ إنَّه جَوَاد كَرِيمٌ.

•••

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

في هاتين الآيتين الكَرِيمتين يأمُرُ اللهُ نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقولَ لكُلِّ مَن كان عَدُوًّا لجِبْرِيل: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ حيث إنَّ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نزَّلَ هذا القُرْآنَ على قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإِذْن اللهِ، وأوَّلُ مَن صَرَّح بأَنَّهُ عدوٌّ لجبريل هم اليهودُ، وذلك لأنَّ جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنزِل بهذا الوحي من عند اللهِ، فيَفْضَحُهم، ويُبيِّن جَبَرُوتَهم وطُغْيانهم، فكان عَدُوًّا لهم، فأَمَرَ اللهُ نبيَّه بهذه الآيَة أن يقول: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ولَا يضرُّ جبريلَ أن يَكُون هؤلاء عَدُوًّا له.

وإنَّما خصَّ الله التَّنزيل على القَلْب؛ لأنَّ القَلْب هو محلُّ الوعي، وهذا كقَوْلِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

وأمَّا قَوْلُه تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فقد سَبَقَ الكلَامُ على معناه.

وأمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمعنى: أنَّ هذا القُرْآنَ هُدًى وبُشْرَى للمُؤْمِنين، هُدًى يَهْدِيهم، ويُبَيِّن لهم الحق، ويَدُلُّهم عليه، ويُبَشِّرهم بما أَعَدَّ اللهُ لهم من الثَّواب والنَّعيم المقيم على إيمانهم.

ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذه الجُمْلَة الشَّرْطِيَّة فيها بيانُ أنَّ مَن كان عَدُوًّا لله فإنَّهُ يَكْفُر، وكذلك مَن كان عَدُوًّا لملَائكته ورُسُلِه وجِبْرِيلَ ومِيكَال.

وجِبْرِيلُ وميكالُ من الملَائكة، ولكنَّهما خُصَّا بالذِّكر؛ لأنَّ جبريلَ يَتَنَزَّل بما فيه حياةُ القُلُوب، وميكائيلَ مَأْمُور بالقَطْر والنَّبَات، وفيه حياةُ الأَرْض.

وفي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهارٌ في مَوْضِع الإضمار؛ إذ كان مُقْتَضى السِّياق أن يقول: «فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ له»، ولكنَّه أَظْهَر في موضع الإِضْمَار؛ لبيان حُكْم مَن كان عَدُوًّا لله ومَلَائكتِهِ ورُسُلِه وجبريلَ وميكالَ أَنَّهُ كافرٌ، ولأجل أن يَكُون هذا عامًّا في كُلِّ كافرٍ، سواء أكان كُفْرُه بسبب عَدَاوَتِه لله ومَلَائكتِهِ ورُسُلِهِ وجبريلَ وميكالَ، أم بسببٍ آخر.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ يُؤَكِّد اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ الله أَنْزَل إلى رَسُوله ﷺ آياتٍ بيِّناتٍ، وهي هذا القُرْآنُ العَظِيمُ الَّذي بيَّن اللهُ فيه كُلَّ ما تَحْتَاجه الأُمَّةُ في مَعَاشها ومَعَادها، وما يَكْفُرُ بهذه الآيات إلَّا الفَاسِقُون الخَارِجُون عن طاعة الله.

فَوَائِد هذه الآيات الكَرِيمات:

١- من فَوَائِدها: إثباتُ أنَّ جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نزل بالقُرْآنِ الكَرِيم على قَلْبِ النبي ﷺ.

٢- ومن فَوَائِدها: بيانُ فَضِيلَة جبريل؛ حيث كان مُوَكَّلًا بتنزيل الوحي على رَسُول اللهِ ﷺ.

٣- ومن فَوَائِدها: أنَّ القلبَ هو محلُّ الوَعْي والحِفْظ.

٤- ومن فَوَائِدها أيضًا: أنَّ نُزُول جبريلَ بالوحي على رَسُول اللهِ ﷺ كان بإذن الله الشَّرْعيِّ والقَدَريِّ، وقد قسَّم أَهْلُ العِلْمِ إِذْنَ الله تعالى إلى قِسْمَين: إذنٍ كونيٍّ، وإذنٍ شرعيٍّ، فما تَعَلَّق بالمَخْلُوقات فهو من الإِذن الكَوْنِيِّ، وما تَعَلَّق بالوحي فهو من الإِذن الشَّرْعيِّ.

ومثالُ الإِذن الشَّرعيِّ: قولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، وقولُهُ: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩].

ومثالُ الإِذن الكَوْنِيِّ: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، أي: بإذن الله الكَوْنِيِّ.

٥- ومن فَوَائِدها: بيانُ أنَّ جبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وإن كان من المَلَائكة- له أَعْدَاءٌ من البَشَر من بني آدم، ومن أوَّلهم: اليهودُ، كما ذكر ذلك المُفَسِّرون.

٦- ومن فَوَائِدها: أنَّ هذا القُرْآن لا يَهْتَدي به وينتفعُ به إلَّا المؤمنُ، ولَا يَكُون

بُشْرَى إِلَّا للمؤمن، أمَّا غَيْر المؤمن فإنَّهُ لا ينتفعُ بهذا القُرْآن، ولَا يَكُـون القُرْآن بُشْرى له.

ومن الفَوَائِد في قَوْلِه تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾:

١- أنَّ كُلَّ مَن كان عَدُوًّا لله، أو لملَائكتِهِ، أو لرُسُله، أو لجبريلَ وميكالَ، فإنَّهُ كافرٌ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢- ومن فَوَائِدها: أنَّ كلَّ كافرٍ هو عَدُوٌّ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ويشهد لهذا قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١].

٣- ومن فَوَائِدها: أنَّ كلَّ مَن كان عَدُوًّا لله فإنَّهُ يجب أن يَكُون عَدُوًّا للمُؤْمِنين؛ لأنَّ مَن أَحَبَّ أحدًا كان وَلِيًّا لِمَن وَالَاهُ، وعَدُوًّا لِمَن عاداهُ.

•••

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

هذه الآيَةُ فيها تأكيدٌ من ثَلَاثة وُجُوه: اللَّام، و(قد)، والقَسَم المُقَدَّر، يُؤَكِّد اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيها أنَّهُ أنزل إلى الرَّسُول ﷺ آياتٍ بيِّناتٍ.

من فَوَائِدِ هذه الآية:

١- من فَوَائِدها: تأكيدُ أنَّ القُرْآن نَزَلَ من عند الله، والآياتُ في هذا كثيرةٌ جدًّا.

٢- ومن فَوَائِدها: أنَّ القُرْآن آياتٌ بيِّناتٌ، ليس فيها غُمُوضٌ ولَا إشكالٌ.

٣- ومن فَوَائِدها: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ في القُرْآن آياتٍ مُشْتَبهاتٍ لا يَعْلَم معناها النَّاسُ، فإنَّ جميعَ آيات القُرْآن الكَرِيم مَعْلُومةُ المعنى، وليس فيها شيءٌ مجهولُ المعنى لجميع الأُمَّة، ولو كان فيها شيء مَجْهُول المعنى لجَميع الأُمَّة لم يَكُنِ القُرْآن بيانًا، بل كان بَعْضُهُ بيانًا، وبَعْضُهُ غَيْرَ بيانٍ.

٤- ومن فَوَائِدها: أَنَّـهُ لَا يَكْفُـرُ بهذه الآياتِ الَّتي أنزلها اللهُ على مُحَمَّد ﷺ إلَّا الفاسقُ الخارجُ عن طاعةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

٥- ومن فَوَائِدها: أنَّ كُلَّ مَن كان أَطْوَع للهِ عَزَّوَجَلَّ وأَقْوَم بطاعته كان ظُهُور الآيات الكَرِيمات في القُرْآن أَبْيَن عنده وأَوْضَح؛ لأنَّ الحُكْمَ إذا رُتِّبَ على وَصْفٍ فإنَّهُ يَثْبُت بثُبُوته، وينتفي بانتفائه.

٦- ومن فَوَائِدها: أَنَّهُ يجبُ علينا أن نَعْتَني بهذا القُرْآن الكَرِيم، وأن نَسْتَبينَ ما فيه من الآياتِ؛ حتَّى ننتفعَ به، وحتَّى يَكُون لنا مَنْهَجًا نسيرُ عليه في اعْتِقَاداتنا، وفي عِبَاداتنا، وفي مُعَامَلَاتنا؛ فإنَّ هذا القُرْآن شفاءٌ لِمَا في الصُّدور، وهُدًى ورحمةٌ للمؤمنين، نسألُ الله تعالى أن يَرْزُقنا الشِّفَاء به، وأن يُغْنِيَنا به عمَّا سِوَاه؛ إنَّهُ جوادٌ كريمٌ.

•••

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في هذه الآيَة مُوَبِّخًا هؤلاء القومَ بنبْذِ فريقٍ منهم لِمَا عَاهَدُوا عليه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، ثُمَّ يُبيِّن أنَّ هذا النَّبْذَ للعهد؛ لكَوْن أكثرهم لا يُؤْمِنون: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أحْكَام وفوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- توبيخُ مَن عَاهَد عهدًا، فنبَذَه.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَنَّهُ إذا وقع الخطأُ من بَعْض قومٍ فإنَّهُ لا يُنْسَب الخطأُ إلى الجميع، بل العَدْلُ أن يُشار إلى أنَّ هذا الَّذي حَصَلَ إنَّما كان من فريقٍ منهم؛ لئلَّا يلحقَ العارُ جميعَ القوم، مع بَرَاءَة بعضهم منه.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ نَقْضَ العهد عَلَامةٌ على نَقْصِ الإيمان، ولهذا جاء في الحديث عن النَّبي -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم- أنَّ من خِصَال النِّفَاق الغَدْرَ بالعَهْد[1].

•●෴●•

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب خصال المنافق، رقم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾

وهذه الآيَة كسَابِقَتِها، فيها التَّوبيخُ لهؤلاء القوم الَّذِينَ عَرَفُوا الحقَّ، ولكنَّ فريقًا منهم نَبَذَه، وكأنَّهم لا يَعْلَمون به، فيقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو مُحَمَّد ﷺ ﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ وذلك من وجهين:

الأوَّل: أنَّ القُرآن شَهِدَ بصِدْق ما جاء به مُوسى وعيسى عليهما الصَّلَاة والسَّلَام.

والثَّاني: أنَّهُ صَدَّق ما أَخْبَرا به عن هذا الرَّسُول الَّذي بُشِّر به بَنُو إسرائيلَ، كما قال عيسى ابنُ مريم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف:٦].

ويُبَيِّنُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في هذه الآيَة -أعني: آية البقرة- أنَّهُ لمَّا جاءهم هذا الرَّسُولُ المُصَدِّق لِمَا معهم نَبَذَ فريقٌ من الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَاب كِتَابَ الله وراءَ ظُهُورهم، ولم يَقُل: «نبذ فريق منهم»، بل قال: ﴿فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ زِيَادةً في التَّشنيع عليهم؛ حيث أُوتُوا الكِتَابَ، وعَرَفُوا الحقَّ، ولكنَّهم نبَذُوه، والَّذي نبَذَه فريقٌ منهم، ومنهم مَن آمَنَ به وصَدَّقه، كالنَّجاشيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكعَبْدِ الله بن سَلَام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فالنَّجاشيُّ كان من النَّصارى، فلَمَّا بَلَغَتْه رِسَالةُ النبي ﷺ آمَنَ به، وعبدُ الله بن سَلَام كان من اليَهُود، فلَمَّا قَدِمَ النبي ﷺ المدينة أتى إِلَيْه، وآمَنَ به، ولم يكن كُلُّ اليهودِ أو النَّصارى كَفَرُوا بمُحَمَّد ﷺ، ونبَذُوا كِتَاب الله وَرَاء ظُهُورهم.

ثُمَّ يُبيِّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ هؤلاء الَّذِينَ نبَذُوا كِتَاب الله وَرَاء ظُهُـورهم كأنَّهم لا يَعْلَمون الحقَّ جُهَّالٌ به، وهم عَالِمُون به.

أحْكَام وفَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- صِدْقُ رِسَالة النبيِّ ﷺ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُرْسَلٌ إلى بني إسرائيلَ، كما أنَّهُ مُرْسَل إلى الأُمِّيِّين، وهم العَرَبُ، بل وإلى النَّاس أَجْمَعين، قال اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وثَبَتَ عن النَّبي ﷺ أنَّهُ قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١).

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ رَسُول الله ﷺ كان مُصَدِّقًا لِمَا جاءت به الرُّسُل السَّابقة، أي: مُقِرًّا بأنَّها صِدْق، وشَاهِدًا بصِدْقِها، حيث أَخْبَرت به، فجاء طِبْقًا لِمَا أخبرت به.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: قِيَام الحُجَّة على بني إسرائيل؛ حيث كان مُحَمَّدٌ ﷺ مُصَدِّقًا لِمَا معهم، فهم يَعْرِفُونه كما يَعْرِفُون أبناءهم، ومع ذلك نَبَذَ فريقٌ من الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَاب كِتَاب الله وَرَاء ظُهُورهم.

---

(١) تقدم تخريجه (ص:١٧٧).

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الَّذِينَ نَبَذُوا كِتَاب الله وراء ظُهُورِهم من بني إسرائيل نَبَذُوه عن عِلْمٍ؛ لأنَّهم أُوتُوا الكِتَاب، وعَرَفُوا الحقَّ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّهم يَعْرِفُون مُحَمَّدًا ﷺ كما يَعْرِفُون أبناءهم، وهذا أشدُّ لَوْمًا وتَوْبِيخًا وجريمةً ممَّن لَا يَعْلَم، ولم يُؤْتَ من الكِتَاب شيئًا.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ نَبْذَ هؤلاء الفريق من الَّذِينَ أوتُوا الكِتَاب نَبْذٌ لَا يُرْجَى معه إقبالٌ؛ لقَوْلِهِ: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، والَّذي يَنْبُذ كِتَاب الله وراء ظَهْرِه في الدُّنْيَا يُؤْتَى كِتَابه يوم القِيَامة من وراء ظَهْرِه؛ جزاءً وِفَاقًا.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن نَبَذَ عن عِلْمٍ أشدُّ قُبْحًا ولَوْمًا ممَّن نَبَذَ عن جَهْلٍ، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: التَّحذيرُ من ردِّ الحقِّ بعد العِلْم به؛ لأنَّ الله سَاقَ هذه الآيَةَ على وجه اللَّوْم والتَّوْبيخ لهؤلاء الَّذِينَ نَبَذُوا الحقَّ بعد أن عَرَفُوه.

٩- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن نَبَذَ الحقَّ بعد العِلْمِ به ففيه شَبَهٌ من بني إسرائيلَ من اليهود والنَّصَارى الَّذِينَ ردُّوا الحقَّ بعد أن عَلِمُوا به، أسألُ الله تعالى أن يجعلنا جميعًا ممَّن رأى الحقَّ حقًّا واتَّبَعَهُ، ورأى البَاطِل بَاطلًا واجْتَنَبَهُ؛ إنَّه جَوَادٌ كريمٌ.

• • ◦ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَاتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

في هذه الآيَة يُبيِّن اللهُ تعالى أنَّ قومًا من بني إسرائيلَ اتَّبعُوا ما تَتلُو الشَّياطينُ على مُلْكِ سُلَيمَانَ، وكانت الشَّياطينُ تَتْلُو ما تَتْلُوه من أنواع السِّحر، بل ومن أنواع الكُفْر أيضًا، فتُمْلِيه على النَّاس بما تُلْقِيه في قُلُوبهم من ذلك.

وقَوْلُهُ: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾؛ لأنَّ سُلَيمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد آتاه الله مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لأحدٍ من بَعْدِه، وسخَّرَ له الرِّيحَ، وسخَّر له الشَّياطينَ كُلَّ بنَّاءٍ وغوَّاص.

وسُلَيمانُ هو ابنُ داود عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وهو من أفضلِ أَنْبِياء بني إسرائيلَ، وهو من بَعْدِ مُوسى بأزمنةٍ طويلةٍ.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ يعني: أنَّ سُلَيمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يُعَلِّم الشَّياطينَ ما تَتْلُوه من السِّحر، فيكونَ بذلك كافرًا، بل هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نبيٌّ رَسُولٌ مَعْصُومٌ من الكُفْر وأسبابِ الكُفْر، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾، ومن كُفْرِهم: أنَّهم يُعَلِّمون النَّاسَ السِّحْرَ، والسِّحرُ بالشَّعْوذة، ودُعاءُ الشَّياطينِ،

والاستعانةُ بهم على إيذاء الخَلْق نوعٌ من الكُفْر، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

قال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ يعني: أنَّهم يتَّبِعُون أيضًا ما أُنْزِلَ على المَلَكَيْن ببابلَ ممَّا علَّماه النَّاسَ، وبَابِلُ اسمُ مَكَان، والمَلَكَان أحدهما: هَارُوتُ، والثَّاني: مَارُوتُ، وهما مَلَكَان من الملَائكة، أنزلهما اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى الأَرْض؛ من أجل اخْتِبَار النَّاسِ، يُعَلِّمان النَّاسَ السِّحْرَ بأمر اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّهما كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فيتعلَّمُ النَّاسُ منهما على بَصِيرَةٍ وعلى عِلْم، يتعلَّمُون منهما ما يُفَرِّقون به بين المَرْءِ وزَوْجِهِ من السِّحْر، وهو ما يُسَمَّى بالعَطْف والصَّرْف، وهو نَوْعٌ خبيثٌ من أنواع السِّحر، ومن أشدِّ أنواع السِّحْر ضررًا؛ حيث يُفرَّق به بين المرء وزَوْجِه، ومن المَعْلُومِ أنَّ الصِّلَة بين المرء وزَوْجِه من أقوى الصِّلات؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، فهذان المَلَكَان يُعَلِّمانِ النَّاسَ، ويَقُولَان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، ولكن بَعْض النَّاسِ يُصَمِّم على أن يتعلَّمَ، وهذا من اخْتِبَار الله عَزَّوَجَلَّ لعبادِه، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنَّ ما يَحْصُلُ من الضَّرَر بالسِّحْر صادرٌ عن إِذْن الله وإِرَادَتِه عَزَّوَجَلَّ، ولو شاء اللهُ تعالى لم يُؤَثِّر السِّحر شيئًا، ولهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وقَوْلُهُ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ يعني: يتعلَّمون من السِّحر ما هو ضَرَر لهم في دِينِهم ودُنْيَاهم، ولَا يَنْفَعُهم، وإنْ قُدِّر أنَّهم انْتَفَعُوا به في الدُّنْيَا فإنَّ ضَرَرَه أكبرُ من نَفْعِه.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ يعني: عَلِمَ هؤلاء الَّذِينَ أَصَرُّوا على تعلُّم السِّحْر أنَّ مَن اشْتَرَاه -أي: تعلَّمَهُ- ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ يعني: ليس له في الآخِرَة نصيبٌ، وذلك لأنَّهُ أَتَى الكفر، والكافر ليس له نَصِيبٌ في الآخِرَة، إنَّما يُمَتَّعُ في الدُّنْيَا كما تُمَتَّعُ الأنعامُ، والنَّار مَثْوًى له.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، في هذا قَدْحٌ لهذا العِلْمِ الَّذي تعلَّمُوه، وأنَّهُ جَدِير بالذَّمِّ والتَّقْبِيح، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لبئس ما بَاعُوا به أَنْفُسَهم، وهو هذا السِّحْرُ الَّذي تعلَّمُوه.

ثُمَّ قال: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو كَانُوا من ذَوِي العِلْمِ لعَرَفُوا قُبْحَه، وابْتَعَدُوا عنه، ولم يُحاوِلُوا تعلُّمَهُ، هذا معنى الآيَة إِجْمَالًا، أمَّا ما يُسْتَفاد منها من الأَحْكَام والفَوَائِد فكثير.

أحْكَامُ وفَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سخَّر الشَّيَاطِينَ لسُلَيمان، وامْتَحَن النَّاسَ بهم؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾.

٢- ومن فَوَائِدها: أنَّ سُلَيمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يَكْفُر بكُفْرِ هؤلاء الشَّيَاطين الَّذِينَ تعلَّمُوا السِّحْرَ، وصارُوا يَتْلُونه ويُلْقُونه على النَّاسِ، وذلك لأنَّ الأنبياء مَعْصُومون من الكُفْر والشِّرْك.

٣- ومن فَوَائِدها: أنَّ العَمَل بالسِّحْر كُفْرٌ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها: أنَّ تَعْلِيمَ النَّاسِ السَّحْرَ من الكُفْر؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، والسِّحْرُ نوعان:

النَّوع الأوَّل: سِحْرُ الشَّيَاطِين الَّذي يَكُون بالاسْتِعَانة بهم، والتعوُّذِ بهم، والالتجاء إِلَيْهم، وهذا كُفْرٌ لَا شَكَّ فيه.

والثَّاني: سِحْرٌ بالأدوية والأَوْرَاق والأَشْجَار وما أَشْبَه ذلك ممَّا لَا عَلَاقة للشَّيَاطين به، فهذا لَا يَصِلُ إلى حدِّ الكفر، لكنَّه مُحرَّمٌ تحريمًا شديدًا؛ لِمَا يَحْصُل فيه من الأَذِيَّة والضَّرَر على الغير.

وإذا ثبت السِّحرُ على شخص فإن كان من النَّوع الأوَّل فإنَّهُ يُقتَل كُفْرًا ورِدَّةً، وإن كان من النَّوع الثَّاني فإنَّهُ يُقتَلُ حدًّا؛ لاتِّقاء شَرِّه وأَذِيَّتِه على المُسْلِمين.

٥- ومن فَوَائِدها: أنَّ الحقَّ ما أَذِنَ اللهُ فيه وأَمَرَ به، ولو كان في نَفْسِه بَاطِلًا، فهذان المَلَكَان نَزَلَا إلى الأَرْض؛ ليُعَلِّما النَّاسَ السِّحْرَ، وتَعْلِيمُ السِّحْر كما سبق كُفْرٌ، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَبَاح لهذين المَلَكَيْن أن يُعَلِّما النَّاس؛ من أجل هذا الامْتِحَان الَّذي حَصَل بتَعْلِيمِهما، والشَّيء قد يَكُون كُفْرًا، وقد يَكُون طَاعَةً، ولو كان واحدًا من نَوْعِه، وأَضْرِب لهذين مَثَلَيْن:

المَثَلُ الأوَّل: السُّجُود لغير الله كُفْرٌ وشِرْكٌ، وإذا سَجَدَ الإِنْسَان لغير الله بأمر الله كان عبادةً، ألَمْ تَرَ قَوْلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة:٣٤]، فهنا نَجِدُ السُّجُود لغير الله كان طاعةً وعِبَادةً؛ لأنَّ الله أَمَرَ به،

ويكون شِرْكًا في الحال الَّتي لم يَأْمُر اللهُ به فيها.

والمَثَل الثَّاني: قَتْلُ النَّفس، فإِنَّهُ من كَبَائر الذُّنُوب، ولَاسِيَّما إذا كان المقتولُ من أَقَارب القاتل، ومع ذلك كان طاعةً يُمْدَحُ عليه، وذلك كما في قصَّة إبراهيمَ مع ابنه إسماعيلَ؛ فإِنَّ إبراهيمَ رأى في المنام أَنَّهُ يَذْبَح ابنَهُ إسماعيلَ، فقَصَّ الرُّؤْيَا على ابنه، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢]، فأَسْلَما أَمْرَهما لله، واسْتَسْلَما لقضاء الله وشَرْعِه، فلما تلَّ ابنَهُ للجَبِين ليَذْبَحه جاء الفرجُ من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٦]، فامْتَحَن اللهُ إبراهيمَ بأَمْرِه بقَتْلِ ابنِهِ حتَّى أَسْلَم للهِ وانْقَاد، فصار ذَبْحُ ابنه طاعةً لله، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تَدارَكه بلُطْفِه وإِحْسَانه، فكَتَبَ له أجرَ المُمْتَثِل، وقال له: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

فالمَلَكَان اللَّذَان نَزَلَا يُعَلِّمان النَّاسَ السِّحْر نَزَلَا بأَمْرِ الله، وبإذن الله، فكان تَعْلِيمُهما للسِّحْر طاعةً للهِ عَزَّوَجَلَّ، لكنَّه باعتبار المُعَلَّم كُفْرٌ، ولهذا قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡ﴾.

٦- ومن فَوَائِدها: أنَّ اللهَ تعالى قد يُيَسِّر للإِنْسَان أسبابَ المَعْصِية؛ ليَبْلُوَه: هل يعصي اللهَ، أو لا يعصيه؟ فاللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قد يسَّر للنَّاس تعلُّم السِّحر بما أُنْزِل على المَلَكَيْن، وبما بَذَلَاه من أَنْفُسِهما لتَعْلِيم النَّاس.

٧- ومن فَوَائِدها: أَنَّهُ يجبُ أن يُبيِّن الأمرُ لطَالِبه على وجهٍ صريحٍ لَا لبسَ فيه؛ فإِنَّ هذا من تمام النُّصْح والبَيَان؛ لأنَّ المَلَكَيْن لَا يُعَلِّمان من أحدٍ حتَّى يَقُولَا:

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فيُبيِّنان حالَهُما أنَّهما نَزَلا فتنةً، ويُبيِّنان حال المُتعلِّم منهما بأن تَعَلُّمَه كُفْرٌ.

٨- ومن فَوَائِدها: أنَّ من أعظم أنواع السِّحر التَّفريقَ بين الرَّجُل وزَوْجَتِه؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾، وهذا ما يُسَمَّى بالعَطْف والصَّرْف؛ فإنَّ من أنواع السِّحْر ما إذا سُحِرَ به الإِنْسَانُ انْعطَفَ على غَيْره انْعِطَافًا بَالِغًا شديدًا لَا يَمْلِك أن يتصرَّف بنَفْسِه معه، حتَّى يَكُون وراء هذا الشَّخص الَّذي عُطِفَ عليه كما تَكُون الشَّاة وراء الرَّاعي الَّذي يَدْعُوها.

ومن السِّحر ما يَكُـون بالعكس، يُوضَع للشَّخْص ليُفَرَّق بينه وبين حَبِيبِه، مثل: أن يُفَـرَّق بينه وبين زَوْجَتِه، فيُصْبِح يرى زَوْجَتَه وكأنَّها من أَعْدَى أعدائـه، أو بالعكس، وهذا من أشدِّ أنواع السِّحْر إيذاءً وضررًا.

٩- ومن فَوَائِدها: أنَّ ما يقعُ من تَأْثِير السِّحْر إنَّما يقعُ بأَمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ وإرادتِهِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٠- ومن فَوَائِدها: أنَّهُ متى لجَأَ الإِنْسَانُ إلى ربِّه، واسْتَعَاذ به، واسْتَغَاثه من الأَمْرِ الَّذي نَزَلَ به، فإنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قادرٌ على أن يَصْرِفَه عنه، ولو كان قد نَزَلَ به الشَّرُّ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١١- ومن فَوَائِدها: الإِشَارَةُ إلى أنَّهُ يَنْبَغِي للمَسْحُور أن يَلْجأَ إلى الله تَعالَى، وأن يَسْأَلَه رَفْعَ ما نَزَلَ به بصِدْقٍ وإِخْلَاصٍ وضرورةٍ، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢]، وقد يَكُون لجُوء الإِنْسَان إلى اللهِ في الحال الَّتي

يُصَاب فيها بالسِّحْر، وشِدَّةُ تضرُّعه إِلَيْه، من أَقْوَى الأَدْوِيَة تأثيرًا إن لم يَكُنْ أَقْوَى الأدوية تأثيرًا، ولهذا لمَّا سُحِرَ النبيُّ ﷺ بسِحْرٍ عظيمٍ أنزل اللهُ عليه سُورَتِي المُعَوِّذَتَيْن: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فرَقَاهُ بهما المَلَكُ، فشفاه الله تعالى من ذلك[1].

١٢- ومن فَوَائِدها: أنَّ السِّحْرَ ضَرَرٌ على السَّاحر، كما هو ضَرَر على غَيْرِه، وإن ظنَّ السَّاحر أَنَّهُ ينتفعُ بذلك، وأنَّه يَكْسِب من ورائه، فإنَّ هذا الكَسْبَ الَّذي حَصَل له كَسْبٌ خبيثٌ لا يَزِيدُهُ من الله إلَّا بُعْدًا، ولا يَزِيدُهُ إلَّا خَسَارًا، ولهذا قال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

١٣- ومن فَوَائِدها: أنَّ السَّاحر كافرٌ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ أي: ما لَهُ من نَصِيبٍ، ولا أَحَدَ لا نَصِيبَ له في الآخرة مُطْلَقًا إلا الكافر، فإنَّ الكافرَ لا نَصِيبَ له في الآخِرَة.

١٤- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: تقبيحُ ما حَصَلَ من هؤلاء من تَعَلُّم السِّحْر؛ حيث قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٥- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أنَّ هؤلاء بَاعُوا أَنْفُسَهم وخَسِرُوها؛ من أجل تَعَلُّم هذا السِّحر القَبِيح الَّذي وَصَفَه اللهُ بقوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ هؤلاء الَّذِينَ اخْتَارُوا تَعَلُّم السِّحْرِ وأَهْلَكُوا أَنْفُسَهم به كَانُوا من أَجْهَل النَّاس، سواء عَلِمُوا ذلك أو لم يَعْلَمُوه، مع أنَّ قَوْلَه:

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٢٤٧)، وانظر: تفسير ابن كثير (١٤/ ٥٢٧).

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ يدلُّ على أنَّهم يَعْلَمُون أنَّ السَّاحر ليس له نَصِيبٌ في الآخِرَة، فيكـونون قد خَالَفُوا وعَصَوْا على بصيرةٍ، والعِيَاذ بالله.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

في هذه الآيَة يَعْرِضُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على هؤلاء الَّذِينَ كَفَرُوا بتَعَلُّم السِّحر، يَعْرِضُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عليهم الإِيمانَ والتَّقْوَى، ويُبيِّن أنَّ المثوبةَ الَّتي عند الله لهم بإِيمَانِهم وتَقْوَاهم خيرٌ ممَّا يُحصِّلُونَهُ في الدُّنْيَا من جرَّاء السِّحر لو كَانُوا من ذوي العلم.

فوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١ - سَعَةُ فَضْلِ الله عَزَّوَجَلَّ، وإِحْسَانِه، وكَرَمِه، فهؤلَاء الَّذِينَ عَتَوْا وبَغَوْا على الخَلْق بما يتعلَّمُونه من السِّحر، ويضرُّون به النَّاسَ، يَعْرِضُ الله عليهم أن يُؤْمِنُوا ويتَّقُوا؛ حتَّى تكُون لهم المثوبةُ، وهذا أُنْمُوذَج من نَماذِج سَعَة رَحْمَة الله، وفَضْلِه، وإِحْسَانِه.

ومن نَماذَجه: أنَّ الله تعالى قال في سُورَة البُرُوج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]، فهؤلَاء الَّذِينَ قتَلُوا أَوْلِيَاءَه، وأَحْرَقُوهم في النَّار، يَعْرِضُ الله عليهم التَّوْبَة، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، فلو تَابُوا لنَجَوْا من

عذاب النَّار، هؤلاء الَّذِينَ تعلَّمُوا السِّحر وأَضَرُّوا النَّاسَ به لو أنَّهم آمَنُوا واتَّقَوْا لَمَحَا اللهُ عنهم الآثار السَّيِّئة بهذا السِّحْر، وأثابهم على ذلك، وكان خيرًا لهم.

٢- ومن فَوَائِدها: أنَّ ما عند الله من الثَّوَاب خيرٌ ممَّا يَحْصُل في الدُّنْيَا من المَكَاسِب، وهذا ظَاهِرٌ بالأَثَر والنَّظَر، أمَّا الأَثَر فقد بيَّن اللهُ تعالى في غَيْر آيةٍ أنَّ الآخِرَة خيرٌ من الدُّنْيَا، فقال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ الآية [القصص:٦٠]، يعني: لِمَن اتَّقى، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، وقال النبيُّ ﷺ: «**وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا**»[1]، وهنا قال تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ هؤلاء الَّذِينَ تَعَلَّمُوا السِّحْرَ -مع عِلْمِهم بأنَّ مَن اشْتَرَاه لَا خَلَاقَ له في الآخرة- من ذَوِي الجَهَالة، وكأنَّهم لَا يَعْلَمُون، ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الحثُّ على العِلْم والعَمَل به، وأنَّ مَن لم يَعْمَل بعِلْمِه فهو كالجاهل، بل أشدُّ قُبْحًا من الجَاهِل؛ لأنَّ الجاهل قد يُعْذَر، وقد يَسْتَقِيم إذا عَلِمَ الحقَّ، بخِلَاف مَن خَالَف الحقَّ مع عِلْمِه به، فإنَّهُ ليس بمعذورٍ، ورَجَاءُ رُجُوعه إلى الحقِّ بعيدٌ.

•●○●•

(١) تقدم تخريجه (ص:٢٧٥).

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المُؤْمنين بصِفَة الإيمان؛ لينْهَاهم عن هذه الكَلِمَة الَّتي كانت اليهودُ تَقُولها لرسول الله ﷺ: ﴿رَٰعِنَا﴾، يُريدُونها من الرُّعُونة، لا من الرِّعَاية، فيقولون: «راعنا» يعني: أنَّك ذليلٌ، وليس المرادُ: من الرِّعَاية، فنهى اللهُ عِبادَه المُؤْمِنين أن يَقُولُوا هذه الكلمةَ، ولكنَّهُ أَرْشَدهم إلى كلمةٍ خيرٍ منها، وهي بمَعْنَاها، قال: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ﴾ يعني: اسْمَعُوا ما نَهَيْتُكم عنه، ولا تُخَالِفُوه؛ فإنَّ مُخَالَفَته من الكُفْر، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مُؤْلِم؛ لأَنَّهُ شديدٌ -والعياذُ بالله- كما بيَّنَ اللهُ تعالى شِدَّة عَذَاب النَّار في آياتٍ كثيرةٍ من القُرْآن، وبيَّنَها النبيُّ ﷺ في أحاديثَ كَثِيرةٍ من السُّنَّة.

في هذه الآيَة الكَرِيمَة يُخَاطِب الله المُؤْمِنين بوصف الإِيمَان، ويُنَادِيهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

فَوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١ - أنَّ من خِصَال المؤمن أن يَمْتَثِل؛ لأَنَّهُ مُؤْمِن، والمُؤْمِن يَهْدِيه إيمانُهُ إلى امْتِثَال أمر الله عَزَّوَجَلَّ.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَنَّهُ يَنْبَغِي أن يُنَادَى الإِنْسَان بأَحَبِّ الأوصافِ إِلَيْه، ولا شَكَّ أنَّ أحبَّ أَوْصَاف المؤمن إِلَيْه أن يُنَادَى بإِيمانِهِ.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مُخَالَفَة ما ذُكِرَ نقصٌ في الإِيمان، وأنَّ مُوافَقَته

من مُقْتَضى الإيمان، ولهذا وُجِّه الخطابُ إلى المُخَاطَب بوَصْفِ الإيمان.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: تحريمُ الخِطَاب بالكَلِمات المُحْتَمِلَة للحقِّ والباطل بالنِّسبة لرسول الله ﷺ، ولهذا قال: ﴿لَا تَقُولُواْ رَاعِنَا﴾.

٥- ومن فَوَائِدها: النَّهْيُ عن مُشَابَهَة غَيْر المُؤْمِنين؛ لأنَّ هذا الخطابَ «رَاعِنَا» ممَّا يُدَنْدِنُ به اليهودُ إذا خَاطَبُوا النبيَّ ﷺ.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّهُ إذا ذُكِرَ بابٌ ممنوعٌ مَسْدُودٌ أمامَ النَّاس فإنَّ الحِكْمَة تقتضي أن يُذْكَر لهم ما يَسْتَغْنُون به عنه من الأشياء المُبَاحَة، ولهذا قال: ﴿وَقُولُواْ انظُرْنَا﴾، فهو لم يَنْهَهم ويَجْعَلْهم عَائِمِين لا يَدْرُون ما يَقُولُون، بل أَرْشَدهم إلى القَوْلَة المُبَاحَة النَّافِعَة، وهي قَوْلُهُ: ﴿انظُرْنَا﴾، فإذا نَهَيْتَ النَّاس عن شيء يحتاجون إِلَيْه فافْتَحْ لهم بابًا يُغْنِي عنه؛ حتَّى يَسْهُل تَرْكُهم لِمَا نُهُوا عنه، وفِعْلُهم هذا الَّذي أُرشِدُوا إِلَيْه.

ونظير ذلك: ما ثبت في الصَّحيح: أنَّ رَسُول الله ﷺ أُتِي إِلَيْه بتمرٍ جيِّدٍ، فقال: «مَا هَذَا؟» قالوا: كُنَّا نأخذ الصَّاع بالصَّاعَيْن، والصَّاعَيْن بالثَّلَاثة، أي: نأخذ الصَّاع من هذا الطَّيِّب بالصَّاعَيْن من الرَّدِيء، أو الصَّاعَيْن بالثلاثة، فأخبرهم النبي ﷺ أنَّ هذا عَيْنُ الرِّبا، وأرشدهم إلى أن يَبِيعُوا التَّمْر الرَّدِيء بالدراهم، ثُمَّ يَشْتَرُوا بالدَّراهم تمْرًا جيِّدًا[1]، ومَنَعَهم من أَخْذِ الصَّاع بالصَّاعين أو الصَّاعين بالثَّلَاثة؛ لأَنَّهُ رِبا؛ فإنَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا باع الوكيل شيئًا فاسدًا فبيعه مردود، رقم (٢٣١٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلًا بمثل، رقم (١٥٩٤) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما تقدم تخريجه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ص:٢٢٤).

بَيْعَ التَّمْر بالتَّمْر يجبُ فيه التَّساوي في الكَيْل، والتَّقَابُض في مجلس العَقْد، ولمَّا أَخَذُوا الصَّاع بالصَّاعين لم يَلْتَزِمُوا بالتَّفاضُل، فأَرْشَدهم النبيُّ ﷺ حين بَيَّنَ لهم أنَّ هذا ممْنُوع، أَرْشَدهم إلى البيع المباح، بأن يَبِيعُوا التَّمْر الرَّديء بالدَّرَاهم، ويَشْتَرُوا بالدَّراهم تمرًا جيِّدًا، وهذا نَظِيرُ هذه الآيَة الكَرِيمَة: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ وهذا ممْنوعٌ، ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ وهذا بَدَلٌ عنه.

٧- ومن فَوَائِدها: وُجُوب السَّمْع والطَّاعة لأوامر الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾.

٨- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: ثُبُوت الجَزَاء على العَمَل؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٩- ومن فَوَائِدها: أنَّ مُخَالَفَة أمر الله ورَسُولِهِ من الكُفْر؛ لأَنَّهُ أَعْقَب النَّهْيَ عن قول: «رَاعِنَا»، والإرشَادَ إلى قول: «انْظُرْنا»، والأَمْرَ بالسَّماع، بقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فدلَّ هذا على أنَّ المُخَالَفَة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ نوعٌ من أَنْوَاع الكُفْر.

• • ⁂ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿مَّا يَوَدُّ﴾ يعني: ما يُحِبُّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم الَّذِينَ لم يُؤْمِنُوا بمُحَمَّد ﷺ ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: ولا الَّذِينَ كَفَرُوا من المشركين،

لا يَوَدُّون أن يُنَزَّل إلى رَسُول اللهِ ﷺ وأُمَّتِه من خيرٍ؛ لأنَّهم حَسَدَة، والحاسدُ لا يُحِبُّ أن يُنَزِّل اللهُ الخيرَ على غَيْره، ولهذا قال: ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ثُمَّ قال: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يَخُصُّ مَن شاء من عِبَاده برحمةٍ خاصَّةٍ غَيْر الرَّحْمة العامَّة لجميع الخَلْق؛ لأنَّ رحمة الله عَزَّوَجَلَّ نَوْعَان: رحمة عامَّة تَشْمَل جميع الخَلْق حتَّى الكُفَّار، فإنَّ الله يُنَزِّل عليهم الغَيْث، ويُخْرِج لهم الزَّرْع، ويُكْثِر لهم المالَ والوَلَدَ، وهذه رحمة، وكذلك يَفْعَل بالمُؤْمنين، والرَّحْمَة العَامَّة رحمة مُتْعَة فقط، يَسْتَوي فيها جميع الخَلْق حتَّى البهائم.

أمَّا الرَّحمة الخاصَّة فهي الَّتي قال اللهُ عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: فليس لأحدٍ أن يَحْجُر على الله أن يُنَزِّل فَضْلَه على مَنْ يشاء من عِبَاده، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: صاحبُ الفَضْل العظيم، العَظِيمِ كمِّيَّـةً، والعظيمِ كيفيَّـةً، والعظيمِ شُمُولًا في المكان، وشُمُولًا في الزَّمان.

فبيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ في هذه الآيَة حِقْدَ الكُفَّار من المُشْرِكين واليهودِ والنَّصَارى الَّذي بَلَغَ بهم إلى هذا الحدِّ.

فوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١ - بيانُ أنَّ اليهود والنَّصَارى والمشركين لا يَوُدُّون الخيرَ للمُسْلِمين، وهذا ليس خاصًّا بزمن الرَّسُول ﷺ، بل هو عامٌّ إلى يوم القِيَامَة؛ لأنَّ الكُفَّار من اليهود والنَّصَارى والمُشْرِكين أَعْدَاء لنا، وأَعْدَاء لربِّنا، وأَعْدَاء لكِتَابنا، وأَعْدَاء لرَسُولِنا،

ومَن كان كذلك فإنَّهُ لا يُمْكِنُ أبدًا أن يُحِبَّ نُزُول الخير إلينا.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الحذرُ من مَكْرِ الكُفَّار من اليهود والنَّصارى والمُشْركين، فلا نَغْتَرَّ بما يَبْذُلونه لنا من حَلَاوة اللِّسَان، وإظهارِ انْشِرَاح الصَّدْر بنا؛ لأنَّهم إنَّما يَفْعَلُون ذلك من أجل خيرٍ عائدٍ عليهم أكثر ممَّا يتحمَّلُونه من كَرَاهَتِهم للخَيْر النَّازل إلينا، أو لأنَّهم يتربَّصُون بنا الدَّوَائِر حتَّى يَقْضُوا على ما لنا من الخَيْر.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن كَرِهَ الخيرَ للمُؤْمِنين عُمُومًا أو لبَعْضٍ منهم على سبيل الخُصُوص فإنَّ فيه شَبَهًا من اليهود والنَّصارى والمُشْرِكين.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: تحريمُ كَرَاهَة نُزُول الخيرِ للمُؤْمِنين، وكراهةُ نُزُول الخير للغير هو الحَسَد، ولهذا قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ التَّفْسير الصَّحِيحَ للحَسَد ليس أن يتمَنَّى الإنْسَانُ زَوَال نِعْمَة الله على غَيْره، ولكن التَّفْسِير الصَّحيح هو أن يَكْرَه الإِنْسَانُ ما أَنْزَل اللهُ على غَيْره من الخَيْر، سواء تمنَّى زَوَالَه أو لم يتَمَنَّ[1]، وهذا التَّفْسِير لشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الأقربُ.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: بيانُ ما مَنَحَ اللهُ هذه الأُمَّة من الرُّبُوبِيَّة الخاصَّة، ولهذا قال: ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ورُبُوبِيَّةُ الله لعِبادِه المُؤْمِنين رُبُوبِيَّةٌ خاصَّةٌ.

والرُّبُوبِيَّة نوعان: عامَّة وخاصَّة.

فالعامَّـةُ: هي الشَّامِلَـة لجميع الخَلْـق، ومنها: قَـوْلُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:١].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١١١).

والخاصَّة: هي الرُّبُوبِيَّة المُضَافَة للمُؤْمِنين أو للرُّسُل، مثل قَوْلِه عن عِبَاد الرَّحْمَنِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤]، فإن هذه الرُّبُوبِيَّة خاصَّةٌ.

وقد اجتمع النَّوْعَان في قَوْلِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فقَوْلُهُ: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الرُّبُوبِيَّة العامَّةُ، وقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هذه الرُّبُوبِيَّة الخاصَّةُ.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ فَضْلَ الله عَزَّوَجَلَّ قد يَخْتَصُّ بأُناسٍ دون آخرين؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ المَشِيئَة لله؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ولا شَكَّ أنَّ ما كان من أَفْعَال الله فإنَّهُ صادرٌ عن مَشِيئَةٍ منه عَزَّوَجَلَّ، وكذلك ما صَدَرَ من أَفْعَال العِبَاد فإنَّـهُ صَادِرٌ عن مَشِيئَةٍ منه، وإذنٍ منه بذلك، كما سَبَقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، فكلُّ شيء يقعُ في السَّموات والأَرْض من أَفْعَال الله أو أَفْعَال الخَلْق فإنَّهُ واقعٌ بمَشِيئَة الله، قَال اللهُ تعَالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

ولكـن هل في هذه الآيـة وما في معناها من النُّصُوص حُجَّةٌ للعَاصِي على مَعْصِيَتِه، بحيث يقولُ: إنَّ معصيتي للهِ لَيْسَت بمَشِيئتي، ولكنَّها بمشيئة الله؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ويقـول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام:١٠٧]، ويقـول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٣]؟

وجوابُنَا عن هذا أن نقول: ليس للعَاصِي حُجَّةٌ على مَعْصِيته؛ لأنَّ الله تعالى أَمَدَّه بالعقل، وأَعَدَّهُ لمَعْرِفَة الهُدَى والحقِّ، وأَرْسَل إِلَيْه الرُّسُلَ، وقد قَطَعَ الله الحُجَّة على الخَلْق بإرسال الرُّسُل، فقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥]، فالعاصي ليس له حُجَّةٌ على الله في مَعْصِيته؛ لِمَا ذَكَرْنا، ولهذا نَجِدُ العاصيَ يَخْتَار من الأُمُور ما شَاء، ويُقْدِم عليه، يختار أن يُسَافِر إلى مكَّة، يختار أن يُسَافِرَ إلى المدينةِ، يختار أن يُسَافِر إلى البلد الفُلَانيِّ أو الفُلَانيِّ بإِرَادتِه وقُدْرَته، ولا يحتجُّ بالقَدَر على ذلك، فإذا كان هكذا فلِمَ يَحْتَجُّ بالقَدَر على معصية الله، ولا يَحْتَجُّ بالقَدَر على السَّفَر والذَّهاب والمجيء والأكل والشُّرْب واللِّبَاس وغير هذا؟!

ثُمَّ إنَّ القَدَر سِرٌّ مَكْتُوم لا يُعْلَمُ عنه إلَّا بعد وُقُوعِه، فكَيْفَ يحتجُّ العاصي بالقَدَر على مَعْصِيَتِه قبل أن تَقَعَ المعصيةُ؟! لماذا لم يُقَدِّر هذا العاصي أنَّ الله كَتَبَ له أن يَكُون من المُتَّقِين، فيتَّقِيَ الله عَزَّوَجَلَّ؟! ولهذا أَبْطَلَ اللهُ هذه الحُجَّةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٨-١٤٩]، فهنا قال اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾، ومن المَعْلُوم أَنَّهم لن يَذُوقُوا بَأْسَ الله إلَّا حين يَرْتَكِبون مَعْصِيتَه، وتَبْطُلُ حُجَّتُهم بما احْتَجُّوا به من مَشِيئَة الله عَزَّوَجَلَّ.

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ أنَّ الله تعالى مَوْصُوف بالفَضْل العظيم؛ حيث قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

٩- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّـهُ لا يَلِيـقُ بالإِنْسَان أن يَطْلُب الفَضْـلَ من غَيْر الله، بل يجب أن يَطْلُب الفَضْلَ من الله وَحْدَه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، والإِنْسَانُ إذا طَلَبَ الفَضْلَ من الله فقد طَلَبَ الفَضْلَ من أَهْلِه، وهو عَزَّوَجَلَّ أَكْرَمُ الأَكْرَمين، وأَجْودُ الأَجْوَدين، فإذا دَعَاهُ الإِنْسَان وسَأَلَـه من فَضْلِـه بنيَّةٍ صالحةٍ، وعزمٍ صـادقٍ، وافتقـارٍ إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، سَهَّل اللهُ أَمْـرَه، وآتاه من فَضْلِهِ.

•●ೞ●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾

قَوْلُهُ تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ النَّسْخ: بمعنى الرَّفْع والإِزالة، أي: ما نَرْفَع آيةً أو حُكْمَها إلَّا أَتَيْنَا بخيرٍ منها أو مِثْلِها، وذلك أنَّ النَّسْخَ يَكُون إلى ما هو خيرٌ من المَنْسُوخ، أو إلى ما هو مِثْلُهُ، أو إلى ما هو دُونَهُ، فأمَّا النَّسْخُ إلى ما هو خَيْرٌ من المَنْسُوخ فلا رَيْبَ في أنَّهُ خيرٌ، وكذَلِكَ النَّسْخ إلى مثل المَنْسُوخ لا ريب أنَّهُ خيرٌ؛ لأَنَّهُ يَكُـون مماثلًا للمَنْسُوخ من حيث العملُ، ولكنَّه ليس مماثلًا له من حيث النَّتيجةُ والثَّوابُ والأجرُ، كما سنُبَيِّنه إن شاء اللهُ تعالى.

وأمَّا النَّسْخُ إلى ما هو دُونَهُ فإنَّ ذلك لن يكون، ولن يَلِيقَ بحِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ النَّسْخَ إلى ما هو دون المَنْسُوخ يَكُون تَدَلِّيًا من الأَعْلَى إلى الأَسْفَل، وهذا لا يَلِيقُ بجَلَال الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي: نَنْسَخْ لَفْظَها أو حُكْمَها ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: نُنْسِها رَسُولَ الله ﷺ حتَّى لا يَذْكُرَها، ما يَحْصُل هذا إلَّا أَتَى اللهُ بخيرٍ منها أو مِثْلِها، أي: بخير منها عَمَلًا وثَوابًا، أو مِثْلِها عَمَلًا وخيرٍ منها ثَوابًا.

ثُمَّ قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومن قُدْرَته عَزَّوَجَلَّ: أن يَمْحُوَ ما يشاء ويُثْبِتَ، ويَنْسَخَ ما يشاء ويُحْكِمَ، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وإذا كان له مُلْكُ السَّموات والأَرْضِ فهو عَزَّوَجَلَّ له التَّدبيرُ المُطْلَق في هذا المُلْكِ، ولا أَحَدَ يُنازِعُه في مُلْكِه، لا تَقْدِيرًا ولا تَدْبِيرًا، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، فهو الَّذي يَتَوَلَّى أُمُورَكم، وهو الَّذي يَنْصُرُكم إذا اسْتَنْصَرْتُموه وقُمْتُم بأسباب النَّصْرِ، هذا هو معنى الآيَتَيْن الكَرِيمتَيْن.

فَوائِدُ وأحْكَام هاتَيْن الآيتَيْن الكَرِيمتين:

١- ثُبُوتُ النَّسخ في آيات الله عَزَّوَجَلَّ، وهو رَفْعُ الحُكْم، أو اللَّفظِ، أو اللَّفظِ والحُكْمِ جميعًا، فالنَّسخ يَكُون على ثَلاثة أقسامٍ: نسخُ اللَّفظ وبَقاءُ الحُكم، ونَسْخُ الحُكْم وبَقاءُ اللَّفْظ، ونَسْخُهما جميعًا.

فأمَّا نَسْخُ اللَّفظ وبقاء الحُكْم فمَثَّلَ له العُلَماء بآية الرَّجْم، أي: بآية رَجْم الزَّاني إذا زَنَى وهو مُحْصَن، فإنَّهُ يُرْجَم بالحِجَارة حتَّى يموتَ، سواء أكان رَجُلًا أم امرأةً، واستدلُّوا على ذلك بما ثَبَتَ في الصَّحِيحَيْن من حديث عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

أَنَّهُ قال وهو جالس على مِنبَر رَسُول اللهِ ﷺ: إنَّ اللهَ قد بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بالحقِّ، وأنزل عليه الكِتَابَ، فكان مِمَّا أنزل عليه آيةُ الرَّجْمِ، قَرَأْنَاها، ووَعَيْنَاها -أي: فَهِمْنَاها- وعَقَلْنَاها، فرَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ ورَجَمْنا بعده، فأخشى إن طال بالنَّاس زمانٌ أن يقول قائلٌ: ما نَجِدُ الرَّجْمَ في كِتَاب الله، فيَضِلُّوا بترك فريضةٍ أنزلها اللهُ، وإنَّ الرَّجْمَ حقٌّ على مَن زنى إذا أَحْصَن من الرِّجال والنِّساء، إذا قامت البَيِّنَةُ أو كان الحَبَلُ أو الاعتراف[1]. فهنا لا نَجِدُ في القُرْآن الكَرِيم الَّذي بين أيدينا آيةً تَدُلُّ على الرَّجْم في حقِّ الزَّاني المُحْصَن، فهي مَنْسُوخةٌ لفظًا، باقيةٌ حُكْمًا.

وأمَّا نَسْخُ الحُكْم وبقاءُ اللَّفْظ فمنه: قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٥-٦٦]، فالآية الأُولى نُسِخَت بالثَّانِيَة، وبَقِيَت الأُولى مَتْلُوَّةً في كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا نَسْخُهما معًا -أعني: اللَّفْظَ والحُكْمَ- فمثَّلُوا له بحديث عَائِشَة الثَّابت في (صحيح مُسْلِم) أنَّها قالت: كانَ فيما أُنْزِلَ من القُرْآن عشرُ رضعاتٍ مَعْلُوماتٍ يُحَرِّمنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْس معلوماتٍ، فتُوُفِّيَ رَسُول اللهِ ﷺ وهُنَّ فيما يُقرأ من القُرْآن[2]. ونحن لا نَجِدُ هذه الآيَة -أعني: أنَّ عَشْرَ رَضَعَاتٍ مَعْلُومات يُحَرِّمن-

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب رجم الحبلى في الزنى إذا أحصنت، رقم (٦٨٣٠)، ومسلم: كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنى، رقم (١٦٩١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات، رقم (١٤٥٢).

ولا نَجِدُ خَمْسَ رَضَعَاتٍ مَعْلُوماتٍ يُحَرِّمن أيضًا، فيكون النَّسخ باعتبار عشر رَضَعَات نَسْخًا للحُكْم واللَّفْظ، وباعتبار الخَمْس نسخًا للَّفظ دون الحُكْم.

ولا يُشْكِلُ على هذا قَوْلُها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فتُوُفِّي رَسُولُ الله ﷺ وهُنَّ فيما يُقرأُ من القُرْآن»؛ لأنَّ الَّذِينَ يَتْلُونها من القُرْآن لم يَعْلَمُوا بالنَّسخ، فصارُوا يَتْلُونها، فهذه أَقْسَام ثَلَاثةٌ للنَّسْخ.

فَإن قال قَائِل: ما الحكمةُ من نَسْخِ اللَّفْظ، وبقاء الحُكْم؟

قلنا: الحِكْمَةُ في هذا -والله أعلم- في آية الرَّجْم هي بَيَانُ فَضْلِ هذه الأُمَّة؛ حيث عَمِلُوا بالرَّجْم بشيءٍ لا يَجِدُونه في القُرْآن، على العَكْسِ من أَهْلِ الكِتَاب اليهودِ الَّذِينَ كَتَمُوا آية الرَّجْم، ولم يَعْمَلُوا بها، مع أَنَّها مَوْجُودة نَصًّا في التَّوْرَاة.

وأَمَّا نَسْخُ الحُكْم وبقاءُ اللَّفظ فالحكمة من بَقَاء اللَّفْظِ: أن يتعبَّدَ النَّاسُ بتِلَاوَتِه، وأن يَذْكُرُوا نعمة الله عليهم بهذا النَّسخ الَّذي كان فيه التَّخفيفُ.

وأَمَّا نَسْخُهما معًا فالحكمة فيما نُسِخَ لفظًا وحُكْمًا: هو أنَّ هذا الَّذي نُسِخَ لفظًا وحُكْمًا لم يَبْقَ له أثرٌ بالنِّسْبَة للعَمَل به، ولا بالنِّسْبَة لتِلَاوَتِه، فصار من الحِكْمَة أن يَنْسَخَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لفظًا وحُكْمًا.

٢- ومن فَوَائِد هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: أنَّ الله تعالى قد يُنْسِي الرَّسُولَ ﷺ الآيَة من كِتَاب الله، إذا شاء اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَلَّا يَبْقَى حُكْمُها في عِبادِه، قال اللهُ تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى:٦-٧].

٣- ومن فَوَائِد هذه الآية: أنَّ النَّسخ إذا وَقَعَ فإنَّهُ يَكُون إلى خيرٍ من المَنْسُوخ

أو مِثْلِه، والخيرُ قد يَكُون بالنَّسخ من الأَخَفِّ إلى الأَشَدِّ، أو من الأَشَدِّ إلى الأَخَفِّ، أو من مُماثِلٍ لِمُماثِلٍ، وكلُّ ذلك مُطَابِق للحِكْمَة.

فالنَّسخُ من الأَسْهَل إلى الأَصْعَب: نَسْخُ الصِّيامِ؛ حيث كان الصِّيامُ أوَّلَ ما فُرِضَ مُخَيَّرًا فيه بين الصَّوم والإِطعامِ، ثُمَّ بعد ذلك تعيَّن الصِّيامُ، فإنَّ التَّخيير بين شَيْئين أَيْسَرُ من تَعيُّن أَحَدِهما، ولكنَّ الله بحِكْمَتِه جَعَلَ فَرْضَ الصَّوْم مُتطَوِّرًا هكذا؛ ليَسْهُل على النُّفُوس قَبُولُهُ.

والخيريَّةُ في النَّسخ من الأَخَفِّ إلى الأَشَدِّ: هي استكمالُ الأَجْر في هذا الأشدِّ من وجهٍ، وبيانُ حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ في تَشْرِيعه لعِبَادِه، حيث كان يُدرِّجهم من الأَسْهَل إلى اسْتِكْمال الشَّرع بالأَشَدِّ.

وأمَّا العكسُ -وهو النَّسخُ من الأَشَدِّ إلى الأَخَفِّ- ففيه الخيرُ، وهو التَّيْسِيرُ على العِبَاد لأَنَّهُ يَحْصُل به الامْتِثَال الكَامِل، مع تَمام الأَجْرِ وتَيْسِير العَمَل، ومن ذلك: ما ذكرناه في آيتي المُصَابَرَة؛ حيث فَرَضَ اللهُ في الآيَة الأُولى المَنْسُوخَةِ أن يُصَابِر الإِنْسَانُ عَشَرَةً، ثُمَّ خَفَّفَ ذلك، وأَوْجَب أن يُصَابِر الإِنْسَانُ اثْنَيْن، ولا شَكَّ أنَّ هذا تخفيفٌ من الله تعالى على العِبَاد، وتيسيرٌ عليهم.

وأمَّا إذا كان النَّسخُ لِمُماثِلٍ ففيه خيرٌ أيضًا، وهو بيانُ امْتِثَال المكلَّفِ، ومن ذلك: نَسْخُ القِبْلَةِ من بيت المَقْدِس إلى الكَعْبَة، فإنَّ هذا النَّسخَ باعتبار عَمَل المُكَلَّف لا يَخْتَلفُ؛ لأنَّ المُكَلَّف ليس عنده فرقٌ بين أن يَسْتَقْبِل بيت المَقْدِس أو أن يَسْتَقْبِل الكعبة، من حيث تكلُّفُ العَمَل والمَشَقَّة فيه، ولكن فيه خيرٌ باعتبار بَيَان امْتِثَال المُكَلَّف، وأنه تابعٌ لأمر الله، إذا أَمَرَه بشيء فَعَلَه، وإذا نَهَاه عن شيء تَرَكَه،

ويُشير إلى هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣].

وعلى هذا يَكُون المرادُ بقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أي: مِثْلِها في العَمَل، وليس المعنى: أو مِثْلِها في الخيريَّة؛ لأَنَّهُ لـو كان هذا هو المعنى لكان النَّسخُ عَبَثًا لا فَائِدَةَ فيه.

٤- ومن الفَوَائِد: إثباتُ القُدْرَة للهِ عَزَّوَجَلَّ في قَوْلِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأنَّ القُدْرَة مُتَقَرِّرة عند الإنسان بِفِطْرَته.

٥- ومن الفَوَائِد: عُمُوم قُـدْرَة الله في كُلِّ شيء؛ لقَـوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهـو قـادرٌ عَزَّوَجَلَّ على المَوْجُود أن يُعْدِمـه، وعلى المَعْـدُوم أن يُوجِدَه.

٦- ومن فَوَائِد الآيَة الثَّانية: تقريرُ مُلْكِ الله عَزَّوَجَلَّ للسَّموات والأَرْضِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٧- ومن الفَوَائِد: اختصاصُ مُلْكِ السَّموات والأَرْض باللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا يَمْلِكُها أحدٌ سِوَاه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣]، فمُلْكُ السَّموات والأَرْض للهِ وَحْدَه، لا يُشَارِكُهُ أحدٌ في ذلك.

فَإن قَـال قَائِـل: أليس اللهُ تعالى قَـد أَثْبَت للإِنْسَان مُلْـكًا، فقـال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ [النور:٣٣]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٥-٦]؟!

فَالجَوابُ: بلى، أَثْبَت اللهُ للإِنْسَان المُلْكَ، ولكنَّ مُلْكَ الإِنْسَان لِمَا يَمْلِكُه مُلْكٌ مُقَيَّد:

- مقيَّدٌ من جهة العُمُوم، حيث لا يَمْلِك الإِنْسَان كُلَّ شيء، لا يَمْلِك إِلَّا ما كان في حَوْزَتِه.
- مُقَيَّد من حيث التَّصرُّفُ والتَّدبير، فالإنسانُ لا يَمْلِك أن يفعل في مُلْكِه ما شاء؛ لأَنَّهُ مُقَيَّد بالشَّرع، فلا يتصرَّف في مُلْكِه إِلَّا بما تَقْتَضِيه الشَّريعَةُ.
- مُقَيَّدٌ من جهة الزَّمَن، فمُلْكُ الإِنْسَان لِمَا يَمْلِكُهُ ليس دائمًا، قد يَتْلَف هذا المَمْلُوكُ، وقـد يَبِيعُهُ الإِنْسَانُ، بخِلَاف مُلْكِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّـهُ مُلْكٌ شاملٌ دائـمٌ، فلا مُنافاة بين ما أَثْبَت اللهُ للعبد من المُلْك، وبين ما أَثْبَته لنَفْسِه من المُلْك.

٨- ومن فَوَائِد الآيتين: بيانُ أَنَّهُ لا وَلِيَّ لأحدٍ إِلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ولا نصيرَ لأحدٍ إِلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ولْيُعْلَم أنَّ وِلَايَة الله عامَّة وخاصَّة، فالعامَّةُ: هي تَوَلِّي أُمُور الخَلْق، وهذه عامَّةٌ لكلِّ أَحَد حتَّى للكُفَّار، والخاصَّة: هي الوِلَاية الَّتي تَتَضَمَّن العِنَاية والتَّوْفِيقَ والسَّدَاد، وهذه خَاصَّةٌ بالمُؤْمنين.

فمن المَعْنَى الأَوَّل: قَوْلُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦١-٦٢].

ومن المعنى الثَّاني: قَوْلُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

•●○●•

ثُمَّ قَالَ تعالَى:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾

الخِطَابُ في قَوْلِهِ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ لهذه الأُمَّة، لأَصْحَاب النبيِّ ﷺ، والمرادُ بـ: ﴿رَسُولَكُمْ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ، يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: أَتُرِيدُون أن تَسْأَلُوا النبيَّ ﷺ آياتٍ تَقْتَرِحُونها، كما سُئِلَ مُوسى من قبلُ، فقيل له: أَرِنَا الله جهرةً؟! وهذا الاستفهامُ للإنكار عليهم، يعني: لا تَسْأَلُوا الآياتِ وتَقْتَرِحُوها، كما فَعَلَ ذلك مَن قَبْلَكم؛ فإنَّ هذا نوعٌ من الكُفْر؛ لأنَّ الإنْسَان إذا كان لا يُؤْمِن إلَّا حيث أُتِيَ بالآياتِ الَّتي يَقْتَرِحُها صار إيمانُهُ تبعًا لِهَوَاهُ، لا تبعًا لهُدَاه، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: يأخذِ الكُفْرَ بدلًا عنه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَخْطَأَ سواءَ السَّبيل، وسواءُ السَّبيل: وَسَطُهُ المُسْتَقِيمُ.

فَوائِدُ وأحْكام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- تَوْبيخُ الأُمَّة لو سَأَلَتْ كما سَأَل أصحابُ مُوسى.

٢- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: بيانُ حال قَوْمِ مُوسى من التَّعنُّتِ، والتَّشدُّدِ، واقتراحِ الآيات.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ أنَّ مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَسُولٌ.

٤- ومن فَوَائِدها وأحكَامها: بيانُ أنَّ مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد أُوذِيَ من قبلُ، وأنَّ إِيذاءَ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام من دَيْدَن المُكَذِّبين الَّذِينَ شَرِقُوا برِسَالَتِهم.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن أَخَذَ الكُفْرَ بَدِيلًا عن الإِيمان فإنَّهُ ضالٌّ مُخْطِئ مهما ازْدَهَرَت له الدُّنْيَا، ومهما زَانَت في وَجْهِه، فإنَّهُ ضالٌّ سَوَاءَ السَّبيل.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن تَبَدَّل الإِيمانَ بالكُفْر فقد هُدِيَ.

ويتفَرَّعُ على هذه القاعدة: أنَّهُ إذا مَنَّ اللهُ عليه بالهدايةِ بعد الضَّلَال فلْيَحْمَد اللهَ على ذلك؛ فإنَّهُ قد أَصَاب سَوَاء السَّبيل.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ جميع الكُفَّار قد أَخْطَؤُوا سَوَاء السَّبيل، ووَقَعُوا في السَّبيل المُعْوَجِّ الَّذي يَتيهُون به عن طَرِيقِ الحقِّ.

•• ◦ ••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾

﴿ وَدَّ ﴾ يعني: أَحَبَّ، والوُدُّ: خَالِصُ المحبَّة، ففي هذه الآية يُخْبِر اللهُ أنَّ كثيرًا من أهل الكِتَاب يَوَدُّون أن يَرُدُّوا أصحابَ رَسُول اللهِ ﷺ كُفَّارًا من بَعْدِ الإِيمان،

وأنَّـهُ لا يَحْمِلُهم على ذلك إلَّا حسـدُ المُسْلِمين على ما أَنْعَم اللهُ به عليهم من اتِّبَاع مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان هَؤُلاءِ اليهودُ -فيما سَبَقَ- يستفتحون على الَّذِينَ كَفَرُوا، ويقولون: سيُبْعَث نبيٌّ، وسوف نُنْصَر به عليكم! فلمَّا جاءهم ما عَرَفُوا كَفَرُوا به، والعياذ بالله؛ حَسَدًا من عند أَنْفُسِهم، وهذا الحَسَدُ من عند أَنْفُسِهم كان بعد أن تَبَيَّنَ لهم الحقُّ، وأنَّ الحقَّ مع ما جاء به النبيُّ ﷺ، وما كان عليه أصحابُهُ.

وفي هذه الحال أَمَرَ اللهُ المُؤْمِنين أن يَعْفُوا ويَصْفَحُوا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: يَعْفُوا، فلا يُؤَاخِذُوهم بالذَّنْب، ويَصْفَحُوا، فيُعْرِضُوا عمَّا حَصَلَ إِعْرَاضًا كُلِّيًّا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، وهو الأَمْرُ بِقِتَالِهم، وهذا حكم مُغَيًّى بغَايَةٍ، والحكم المُغَيَّى بغايةٍ يَزُول بزَوَال الغَايَة وانْتِهَائِها، فلمَّا جاء الله بأَمْرِه، وأَمَرَ بقتالهم حتَّى يُعْطُوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صَاغِرُون، صار هذا الحكمُ -وهو العَفْوُ والصَّفْح- مُنْتِهيًا بانتهاء مُدَّته وأَمَدِهِ الَّذي جَعَلَه اللهُ تعالى له.

وبيَّن اللهُ تعالى في خِتَام الآيَة أنَّ الله على كُـلِّ شيء قـديرٌ، فلا يُعْجِـزه شيء، ولا يَمْنَعُه شيء.

أحْكَام وفَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيانُ ما عليه أهلُ الكِتَاب من الحَسَد العَظِيم لهذه الأُمَّة.

٢- ومن فَوَائِدها: أنَّ مَن كان فيه حَسَدٌ للنَّاس على ما آتاهم اللهُ من فَضْلِه فإنَّ فيه شَبَهًا باليهودِ.

٣- ومن فَوَائِدها: الحذرُ من كَيْدِ الأَعْدَاء ومُخَادَعَتِهم؛ لأنَّهم إذا كانوا يَوَدُّون

أن يَرُدُّونا كُفَّارًا فإنَّهم لن يَأْلُوا جُهْدًا في سبيل الوُصُول إلى هذه الغاية مُنْذُ عَهْدِ النبي ﷺ إلى يَوْمِنا هذا، ولهذا نَجِدُ النَّصارى يُرْسِلُون الفِرَقَ والطَّوائف المُنَصِّرة إلى البِلَاد الإسلاميَّة، ولاسِيَّما البلادُ الفَقِيرةُ الَّتي يُسَيْطِرُون عليها من هذه الزَّاوية؛ ليُخْرِجُوا النَّاسَ من الدِّين الحقِّ إلى الدِّين المَنْسُوخ الَّذي لا يَقْبَلُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

٤- ومن فَوَائِدها: أنَّ هذا الحَسَدَ من أهل الكِتَاب نابعٌ من عند أَنْفُسِهم، لم يُؤْذَن لهم فيه، ولم يكن عن رَوِيَّة وتَعَقُّل.

٥- ومن فَوَائِدها: الحذرُ من مَحَبَّة الكُفْرِ للمُسْلِمين، وكذلك يجبُ الحَذَرُ من محبَّة المعاصي أن تَنْتَشِرَ بين المُسْلِمين.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَوَدُّون هذا لهذه الأُمَّة يَوَدُّونه عن عَمْدٍ وعِنَادٍ من بَعْدِ ما تبيَّنَ لهم الحقُّ.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: التَّدرُّج في مُعَامَلَة الكُفَّار؛ حيث أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية أن نَعْفُوَ ونَصْفَحَ حتَّى يأتيَ الله بأَمْرِه.

٨- ومن فَوَائِدها وأحكَامها: أنَّ الأحْكَام الَّتي يَحْكُم اللهُ بها تَنْقِسم إلى قِسْمَين: أحْكَامٍ مُؤَمَّدةٍ -أي: إلى أَمَدٍ- وأحْكَامٍ مُؤَبَّدةٍ -أي: إلى الأبد- فمن الأحْكَام المُؤَمَّدة: هذه الآيةُ: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، ومن أمثلة ذلك أيضًا: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥]، فهنا قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، وقد جعَلَ اللهُ لهنَّ سَبِيلًا، فقد أَعْلَن ذلك رَسُولُ الله ﷺ؛ حيث قال: «**الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِئَةٍ وَنَفْيُ**

سَنَةٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِئَةٍ وَالرَّجْمُ»[١].

٩- ومن فَوَائِدِها وأَحْكَامها: أنَّ الإِنْسَان يُعْذَر بجَهْلِه إذا خَالَفَ الأمرَ أو النَّهْيَ؛ لقَوْلِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾، وهذا الأصلُ قد دلَّ عليه الكِتَابُ والسُّنَّةُ، ففي القُرْآن يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥]، ويقولُ تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، ويقولُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥]، ويَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩].

وأَمَّا السُّنَّةُ فمن أَدِلَّتها: أنَّ النبي ﷺ لم يَأْمُر المُسِيءَ في صَلَاتـه أن يَقْضِيَ ما فَعَلَه جَاهِلًا، وكان المُسِيءُ في صَلَاته لا يطمئنُّ في ركوعٍ، ولا سُجُودٍ، ولا قِيَام، ولا قُعُودٍ حتَّى بيَّن له النبيُّ ﷺ، ولم يَأْمُره بإعادة ما سَبَقَ من الصَّلوات[٢]، مع أنَّهُ كان لا يطمئنُّ، فالقول الصَّحيح الرَّاجح: أنَّ مَن لم تَبْلُغْه الدَّعوة فإنَّهُ ليس عليه حرجٌ فيما إذا مات وهو مُسْلِم، لكن يَفْعَل ما يَخْرُج به من الإِسْلام جَهْلًا، أو يَتْرُك ما يَجِبُ الإيمانُ به جَهْلًا.

١٠- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: إثباتُ عُمُوم قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، ولا يُسْتَثْنَى من هذه القَضِيَّة الكُلِّيَّة العَامَّة شيءٌ، كُلُّ شيء

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الزنى، رقم (١٦٩٠) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص:٥٤).

فالله قادرٌ عليه، قادر على إيجاد المَعْدُوم، وعلى إِعْدَام المَوْجُود، وعلى تَغْيِير الشَّيء من حالٍ إلى أُخْرَى.

وهنا نَذْكُرُ ما يَقُولُه بَعْضُ النَّاس عند الحديث عن قُدْرَة الله، حيث يقولُ: «إنَّه على ما يشاء قديرٌ»، فإنَّ هذا يَقْتَضِي تَقْيِيد القُدْرَة بما يشاءُ اللهُ، واللهُ تعالى قادرٌ على ما يشاءُ وما لا يشاءُ، وتقييدُ القُدْرَة بما يشاءُ تضييقٌ لمعناها العَامِّ الَّذي أَرَادهُ اللهُ تعالى بها، فالواجبُ: أن تُجْرَى على عُمُومها بدون استثناءٍ، ويُقال: إنَّ الله على كُلِّ شيء قديرٌ.

• • ✿ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

في هذه الآيَة الكَرِيمَة يَأْمُرُ اللهُ تعالى عِبَادَهُ أن يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، بأن يَأْتُوا بها مُسْتَقِيمَةً بشُرُوطها، وأَرْكَانها، ووَاجِبَاتها، ويُتِمُّوا ذلك بمُكَمِّلَاتِهَا، والصَّلاةُ تَشْمَل الفَرْضَ والنَّفْلَ، وهي مَعْرُوفةٌ.

وأن يُؤْتُوا الزَّكَاةَ، أي: يُعْطُوها أَهْلَها المُسْتَحِقِّين لها، والزَّكَاةُ هي الفَرْضُ فقط؛ لأنَّ ما سِوَى الزَّكَاة يُسَمَّى: صدقةً، أو نَفْلًا، أو ما أشبه ذلك.

والزَّكَاةُ: هي المالُ الَّذي أَوْجَبه اللهُ تعالى على عِبَادِه في أَشْيَاء مُعَيَّنَةٍ من الأَمْوَال، ويُخْرِج منها الإِنْسَانُ قَدْرًا مُعَيَّنًا حسبَ ما عليه من المَؤُونَة، ففي الحُبُوب والثِّمَار

يَكُون فيما سُقِيَ بلا مَؤُونَة العُشْرُ كاملًا، وفيما سُقِيَ بمَؤُونة نِصْفُ العُشْر، حسب ما يَنْظُر وليُّ الأمرِ في ذلك.

ثُمَّ بيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ كُلَّ ما نُقَدِّمه من الخير فإنَّما نُقَدِّمه لأَنْفُسِنا، ونَجِدُ ثوابَ ذلك عند الله تعالى مُدَّخرًا، ولـن يَضِيعَ، ولهذا قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وفي آيـةٍ أُخْرَى يقـول تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠].

ثمَّ بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّهُ عَلِيمٌ بكُلِّ ما نَعْمَلُ، بصيرٌ به، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أَعْمالنا؛ حَثًّا منه لنا على العَمَل الصَّالِح، واجْتِنَاب العَمَل المُحَرَّم.

فَوَائِدُ وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- وُجُوبُ إِقَامَة الصَّلاة؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وإِقَامةُ الصَّلاة الواجبةُ فيما هو واجبٌ، كالشُّرُوط والأَرْكَان والوَاجِبَات، أَمَّا ما كان مُسْتَحَبًّا فإنَّ الأَمْرَ بإِقَامَته على سبيل الاسْتِحْبَاب.

٢- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: وُجُوب إيتاءِ الزَّكَاة؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أَعْطُوها مُسْتَحِقَّها، وقد بيَّنَت السُّنَّةُ كَيْفَ تكون إقامةُ الصَّلاةِ، وكَيْفَ يَكُونُ إيتاءُ الزَّكَاة على وجهٍ مُبَيَّنٍ مُفَصَّلٍ، فما تُوُفِّي رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَّا وقد أَبَانَ للأُمَّة كُلَّ ما تَحْتَاج إليه في أُمُور دِينِها ودُنْيَاها، قال أبو ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لقد تُوُفِّي رَسُول اللهِ ﷺ وما طائرٌ يُقَلِّب جناحيه في السَّماء إلَّا ذَكَرَ لنا منه علمًا[1].

(١) تقدم تخريجه (ص:٤١).

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الحثُّ على تَقْدِيم الخَيْر؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها أيضًا: أنَّ ما نُقَدِّمه من الخيرِ فلن يَضِيعَ، بل سنَجِدُه عند الله عَزَّوَجَلَّ مُدَّخرًا، أَحْوَجَ ما نَكُونُ إليه، ولكن يَجِبُ أن نَنْتَبِهَ هنا إلى أنَّ ما نَجِدُه يوم القِيَامَة من الخيرِ قد يَكُونُ لغَيْرِنا، كما قال النبيُّ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: المُفْلِسُ فينا مَنْ لا دِرهَمَ له ولا متاعَ، فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عليهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عليهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصيرٌ بكُلِّ ما نَعْمَل من خيرٍ وشرٍّ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٦- ومن فَوَائِدها: تحذيرُ العِبَاد من المُخَالَفَة؛ لأنَّ الله تعالى إنَّما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ تحذيرًا من أن نُخَالِفَ أَوَامِرَه، وأن نَقَعَ في نَوَاهِيه، فإنَّنا إن فَعَلْنَا ذلك فلن يَخْفَى عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيءٌ من أَحْوَالِنَا.

•••

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود والنَّصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ يَقُولُهُ اليهودُ ﴿أَوْ نَصَارَىٰ﴾ يَقُولُهُ النَّصارى، يعني: وأنتم أيُّها المسلمونَ لن تَدْخُلُوا الجَنَّة!

لكنَّ الله ردَّ عليهم زَعْمَهم هذا، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي: هذه أمانيُّ وأَوْهَامٌ باطِلَة لا تَسْتَنِد إلى شيء من الوَحْيِ المُنَزَّل على الرُّسُل عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: قل لهؤلاء القَائِلِين هذه المَقُولَةَ مُتَحَدِّيًا لهم: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: أَعْطُونا حُجَّتَكم الَّتي تُثْبِتُون بها ما زَعَمْتُم من أَنَّهُ لن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلَّا مَن كان هُودًا أو نَصارى ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تَقُولُون، ومن المَعْلُومِ أنَّهم لن يَجِدُوا حُجَّةً لِمَا قَالُوه، ولهذا قال بعدها: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، ﴿بَلَىٰ﴾ فيها إِبْطَالٌ لِمَا سَبَقَ من دَعْوَاهم أَنَّهُ لن يَدْخُل الجَنَّةَ إلَّا مَن كان هُودًا أو نَصارى.

ثُمَّ يُبيِّنُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَن الَّذي يَدْخُل الجَنَّة، حيث يقولُ: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

وقَوْلُهُ: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: جَعَلَه مُسْتَسْلِمًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، مُقْبِلًا عليه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أَعْمَاله، والإِحسانُ هو اتِّباع شَرِيعَة النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فشَرَطَ

اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَمْرَين:

الأَمْرُ الأَوَّل: الإِخلاص، بأن يَكُونَ أَسْلَم وَجْهَه لله.

والثَّاني: المتابعةُ لرَسُول الله ﷺ، بأن يَكُون قد أَحْسَنَ.

فهذا له أَجْرُهُ عند ربِّه، أي: ثَوَابُهُ، وسمَّى اللهُ الثَّوابَ أجرًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى الْتزَمَ به لِمَن عَمِلَ صالحًا، فصار بمَنْزِلَة الأَجْرِ الَّذي يَسْتَوْفِيه الْمُسْتَأْجَر على العَمَل، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يُسْتَقْبَل من أَمْرِهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مَضَى من أَمْرِهم، فنَسْأَلُ اللهَ تعالى أن يَجْعَلنا وإيَّاكم ممَّن أَسْلَم وَجْهَه لله وهو مُحْسِن، وأن يَهْدِينا صِرَاطَه المستقيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَم اللهُ عليهم من النَّبِيِّين والصِّدِّيقين والشُّهَدَاء والصَّالحين؛ إنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

فَوائِدُ وأحْكَام هاتَيْن الآيتَيْن:

في الآيَة الأُولى من الفَوائِد والأحْكَام:

١- بيانُ دَعْوَى أهل الكِتَاب من اليهود والنَّصَارى أَنَّهُ لا يَدْخُل الجَنَّة إلَّا مَن كان مِثْلَهم يهوديًّا أو نصرانيًّا.

٢- ومن فَوَائِدها وأحكَامها: أنَّ أَهْلَ الكِتَاب يُؤْمِنون بالبَعْث والجَزَاء؛ لأنَّ الجَنَّة إنَّما يَدْخُلها أَهْلُها بعد البَعْثِ يوم القِيَامة.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أن يُقَدِّمَ الْمُناظِرُ الحُكْمَ على قول مُنَاظِرِه، ثُمَّ يَطْلُبَ منه الحُجَّةَ على إِثْبَاته، ولهذا قال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ونظيرُ ذلك: أن يقول قائلٌ: هذا واجبٌ لابُدَّ من فِعْلِه، فأقول: هذا قَوْلُك، فهاتِ دَلِيلَك إن كنت صادقًا! فيُثْبِتُ المُنَاظِر أوَّلًا أنَّ هذا قولُ المُناظِر، وأنَّه ليس له أصلٌ، ثُمَّ يتحَدَّاهُ بطَلَب الدَّلِيل.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: قُوَّة المُحَاجَّة في كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ الَّتي تَدْحَض حُجَّة الخَصْمِ وتُفْحِمُه، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، ومن المَعْلُومِ أنَّهُ لا بُرْهَانَ لهم في ذلك؛ فإنَّ دُخُول الجَنَّة ليس مُعَلَّقًا باليهوديَّة أو النَّصرانيَّة، بل هو مُعَلَّقٌ بما ذَكَرَه الله تعالى فيما بَعْدُ.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الإِنصافُ في مُعَامَلَة الخصمِ، وإلا فإنَّهُ يَكْفِي أن يَقُولَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: هذا باطلٌ، ولكنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكَمٌ عَدْلٌ، فطَلَبَ من هَؤُلاءِ المُدَّعين أن يَأْتُوا بالحُجَّة والبُرْهَان.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّهُ لا تُقْبَل الدَّعْوَى إلَّا ببيِّنة، فمَن ادَّعى حُكْمًا من أحْكَام الله الأُخْرَوِيَّة أو أحْكَامه الدُّنْيَوِيَّة فإنَّ عليه أن يُبَرْهِن على ما قال، فإن أَثْبَت ما قال بالبُرْهَان والدَّلِيل وإلا وَجَبَ ردُّه عليه.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ اليهـود والنَّصَـارى لا حُجَّة لهم إطـلاقًا فيما ادَّعَوْه من أنَّهُ لن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلَّا مَن كان هُودًا أو نَصارى، وما أكثر دَعَاوى اليهود والنَّصَارى بأنَّهم أهلُ الجَنَّة، وبأنَّهم يُخْرَجُون من النَّار إن عُذِّبُوا بها، وبأنَّهم أَبْنَاءُ الله وأَحِبَّاؤُهُ، وكلُّ هذه الدَّعَاوى يُبْطِلُها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ويُبَيِّن كَذِبَها.

أمَّا الآيَة الثَّانية ففيها من الفَوَائِد والأحْكَام:

١- أنَّ الثَّواب لا يَحْصُلُ إلَّا بأَمْرَيْن:

الأمرُ الأوَّل: إسلامُ الوجه لله، وذلك بأن يُخْلِصَ الإِنْسَان قَصْدَه، فلا يَقْصِدُ بعِبَادَة الله تعالى مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا نبيًّا مُرْسَلًا، ولا مُحَابَاةً لأحدٍ، ولا توصُّلًا لسُلْطَانٍ أو جاهٍ أو مالٍ، وإِنَّمَا يَقْصِد بذلك ربَّه عَزَّوَجَلَّ، وهذا مَفْهُومٌ من قَوْلِه: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾.

الأمر الثَّاني: أنَّ العِبَادَة لا تُقْبَل ولا تَنْفَعُ إِلَّا بالإِحسانِ، وهو مُتَابَعَة النبيِّ ﷺ، بحيث تَكُون العِبَادَة على وفق ما جاء عن رَسُول الله ﷺ.

ودَلِيلُ هَذَيْن الأَصْلَين العَظِيمَيْن: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]، وثَبَتَ عن النَّبي ﷺ أَنَّهُ قال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيهِ**»[1]، وثَبَتَ عنه ﷺ أيضًا أَنَّهُ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[2]، وثَبَتَ عنه ﷺ أيضًا أَنَّهُ قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عليهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[3]، فلابُدَّ لقَبُول العمل من شَرْطَيْن:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ**»، رقم (١٩٠٧/ ١٥٥) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص:٣٣).

(٣) تقدم تخريجه (ص:٦٧).

أَحَدُهما: الإِخلاصُ لله.

والثَّاني: المُتَابَعَة لرَسُول الله ﷺ.

ولْيُعْلَم أنَّ المُتَابَعَة لا تتحقَّقُ إلَّا إذا وَافَقَ العَمَلُ الشَّريعَةَ في أُمور ستَّةٍ:

الأوَّل: في الجِنْس.

والثَّاني: في الصِّفَة والكَيْفِيَّة.

والثَّالِث: في القَدْر.

والرَّابع: في السَّبَب.

والخامس: في الزَّمانِ.

والسَّادِس: في المكانِ.

فمَن تَعَبَّد لله بعِبَادةٍ على سَبَبٍ لم يَجْعَلْه الشَّارِعُ سببًا لها فإنَّها لا تُقْبَل منه، ومَن تَعَبَّد لله بجنسٍ غَيْر ما شَرَعَ فإنَّهُ لا يُقْبَل منه، مثل: أن يُضَحِّي الإِنْسَان بفَرَسٍ، فإنَّ ذلك لا يُقْبَلُ منه أُضْحِيَةً، ولو كان الفَرَسُ أَغْلَى؛ لأَنَّهُ من غَيْرِ جنسٍ ما أُذِنَ فيه.

ولو أَنَّهُ خَالَفَ الشَّرْعَ في القَدْر، بأن صَلَّى الظُّهْرَ خمسًا أو ثلاثًا، فإنَّها لا تُقْبَل منه؛ لأَنَّهُ خَالَفَ الشَّرْعَ في القَدْر.

ولو خَالَفَ الشَّرْع في الزَّمن، بأن ضَحَّى الإِنْسَانُ في غَيْر أَيَّام الذَّبْح، فإنَّها لا تُقْبَل منه، أو حَجَّ في رَمَضَان، فإنَّ ذلك لا يُقْبَل منه؛ لأَنَّهُ في غَيْر الزَّمَن المُحَدَّد شَرْعًا.

ولو خَالَفَ الشَّرْعَ في المَكَان لم تُقْبَل منه العِبَادةُ، مثل: أن يَعْتكِف في غَيْر المسجد، فإنَّ هذا الاعتكاف لا يُقْبَل منه؛ لأَنَّهُ في غَيْر المكان الَّذي عيَّنَه الشَّرْعُ للاعْتِكَاف.

وكذلك لو خَالَفَت العِبَادةُ الشَّرْعَ في الهيئة والكيفيَّة، بأن صلَّى صلاةً مُنكَّسةً، يبدأُ بالسُّجُود قبل الرُّكُوع، أو يتوضَّأ وُضُوءًا مُنكَّسًا، يبدأُ بالرِّجْلَين قبل بَقِيَّة الأعضاء، فإنَّ ذلك لا يَصِحُّ.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن عَمِلَ عَمَلًا مَبْنِيًّا على الإِخلاص والمُتَابعة فإنَّ أَجْرَه يَثْبُت له عند الله؛ لقول الله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن وُفِّقَ للعَمَل على هذا الوجه فإنَّ ذلك من رُبُوبِيَّة الله له الرُّبُوبِيَّة الخاصَّة؛ لقَوْلِهِ: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن قام بالعِبَادَة على هذا الوَجْهِ: الإِخلاص، والمُتَابعَة، فإنَّهُ لا خَوْفَ عليه في مُسْتَقْبَله، ولا حُزْنَ عليه في ماضيه؛ لأَنَّهُ سوف يَصِلُ إلى النَّعيم والسَّعادة، قال اللهُ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن لم يتَّصف بهذه الصِّفَة -أي: مَن لم يُسْلِم وَجْهَهُ للهِ وهو مُحْسِنٌ- فإنَّ عَمَلَه هَبَاءٌ، ليس فيه أجرٌ، فلو عَمِلَ الإِنْسَان عِبَادةً أَشْرَكَ فيها مع الله فهي مَرْدُودةٌ عليه، ولو عَمِلَ عِبَادةً لَيْسَت مُتَمَشِّيةً مع السُّنَّة الَّتي جاء بها الرَّسُول ﷺ فإنَّ عِبَادَتَه مَرْدُودةٌ عليه.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن لم يتعبَّد للهِ بهَذَيْن الشَّرْطَين: الإخلاص والمتابعة، فإنَّهُ يَحِلُّ به الخوفُ في المُسْتَقبل، والحزنُ في الماضي، ولهذا يَتَمَنَّى الكُفَّار يوم القِيَامة أن يُرَدُّوا إلى الدُّنْيَا؛ ليَعْمَلُوا عملًا صالحًا، فيقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨].

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الثَّوَاب والأجرَ الَّذي يَحْصُل لِمَن أَسْلَم وَجْهه للهِ وهو مُحْسِن ثوابٌ عَظِيمٌ؛ لأنَّ الله أَضَافَه لنَفْسِه، فقال: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾، والثَّوَاب من العَظِيم يَكُون عَظِيمًا، ولا شَكَّ، فنسألُ اللهَ تعالى أن يُثِيبَنا وإيَّاكم ثوابًا حَسَنًا، وأن يَجْعَلَ عَمَلَنا خَالِصًا لله، مُوافِقًا لشَرِيعَتِه؛ إنَّهُ جَوَادٌ كريمٌ.

• • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

اليَهُودُ هم أَتْبَاع مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والنَّصَارى أَتْبَاع عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلٌّ منهما يُضَلِّل الآخَرَ، كما في هذه الآيَة الكَرِيمَة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ يُضَلِّل بَعْضُهم بعضًا ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ويَعْلَمُون مَن هو على الحقِّ، ولا شَكَّ أنَّ النَّصَارى كَانُوا على الحقِّ حين كانت مِلَّتُهم قائمةً قبل بِعْثَة الرَّسُول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وأنَّ اليهودَ كَانُوا على

بَاطِلٍ؛ حيث كَفَرُوا بعيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، مع أَنَّـهُ مُرْسَل إليهم؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وبعد أن بُعِثَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كَانُوا كُلُّهم على دينٍ مَنْسُوخٍ، وليسُوا على شيءٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، وكانُوا أولياءَ بَعْضُهم لبعضٍ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١]، وصارت النَّصَارى كاليهودِ في كَوْنِهم عَلِمُوا الحقَّ، ولم يَتَّبِعُوه.

قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: قال أهلُ الجَهْلِ والضَّلَال مِثْلَ قَوْلِهم، أي: في أنَّهم على الحقِّ، ومَنْ سِوَاهم على الباطلِ، وليس على شيءٍ، ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، إذا بُعِثَ النَّاسُ فإنَّ الله يَفْصِلُ بين الخَلْق مَن هو على الحقِّ، ومَن هو على الباطلِ.

أحْكَام وفَوَائِد هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيانُ عَدَاوَة اليَهُود والنَّصَارى بَعْضِهم لبعضٍ، وأنَّ كُلَّ طائفةٍ منهم تُضَلِّل الطَّائِفَة الأُخْرَى، ولكن هذه العَدَاوَة بعد بِعْثَة مُحَمَّدٍ ﷺ صارت وِلَايَةً، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٣]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١].

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ هذه المَقَالَةَ الَّتي قَالَتْها اليهودُ، وقَالَتْها النَّصَارى يَقُولها أيضًا كلُّ مَن كان جاهلًا، أي: كُلُّ مَن كان ذا جَهَالَةٍ، وليس

عنده علمٌ، فإنَّهُ يقولُ مثلَ هذا القول الباطلِ الَّذي يُريد أن يُدْحِضَ به الحقَّ.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ الجَزَاء يـومَ القِيَامَـة؛ لقـول الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا في الكِتَاب وفي الرُّسُل سوف يَقْضِي اللهُ تعالى بينهم يوم القِيَامَة، ويُبيِّن مَن هو على الحقِّ، ومَن هو على الباطلِ، وقد ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سُورة النِّسَاء أنَّهُ يَحْكُم بين النَّاسِ، وأنَّه لن يَجْعَلَ للكافرين على المُؤْمنين سبيلًا.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ يوم القِيَامَة، وهو اليومُ الآخِرُ، فالإِيمانُ به أحدُ أَرْكَان الإيمانِ السِّتَّة؛ لقول النبي ﷺ لجبْرِيل حين سَأَلَه أن يُخْبِرَه عن الإِيمان، فقال النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «**الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1].

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ يعني: لا أَحَدَ أَظْلَمُ، فالجملةُ اسْتِفْهَام بمعنـى النَّفـي،

(١) تقدم تخريجه (ص:٢٨١).

فلا أَحَدَ أَظْلَمُ من شخصٍ أو طائفةٍ تَمْنَعُ مَسَاجد الله أن يُذْكَرَ فيها اسمُهُ، أي: تَمْنَع النَّاس من دُخُول مَسَاجِد الله ليَذْكُرُوا فيها اسمَ الله عَزَّوَجَلَّ بالصَّلاةِ وغَيْرِها، ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ أي: أنَّ مَنْعَ المساجد أن تُدْخَل ويُذْكَرَ فيها اسمُ الله خَرَابٌ لها؛ فإنَّ عِمَارة المَسَاجِد إنَّما تَكُون بما يُقَام فيها من ذِكْرِ الله.

وبيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ مَنَعُوها، وكان لهم السُّلْطَة، سوف تَدُور عليهم الدَّوائرُ حتَّى لا يَدْخُلُوها إلَّا خَائِفِين، أي: لا يَدْخُلون هذه المَسَاجِدَ إلَّا وهم في خَوْفٍ وقَلَقٍ واضْطِرَابٍ من المُؤْمنين الَّذِينَ آلَتْ هذه المَسَاجِدُ إليهم.

وقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ يَحْتَمِل أن يَكُون مَعنَى هذا النَّفْيِ: ما كان لهم شَرْعًا أن يَدْخُلُوها إلَّا خائفينَ، أو يَحْتَمِلُ: ما كان لهم قَدَرًا أن يَدْخُلُوها إلَّا خَائِفِين، والمعنيان كِلَاهما صحيح.

وقَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: عارٌ وذُلٌّ ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فينالُون -بعد العِزِّ والسُّلْطَة والغَلَبَة- ذُلًّا في الدُّنْيا، وعَذَابًا عَظِيمًا في الآخِرَة.

فَوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- تحريمُ مَنْعِ مَسَاجِد الله من أن يُذْكَر فيها اسمُهُ.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الإشارةُ إلى أنَّ المَسَاجِدَ إنَّما بُنِيَت لذِكْرِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، وقد جاءت السُّنَّة مُصَرِّحةً بذلك، ففي الصَّحِيح من حديث أَنَسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحنُ في المَسْجِد مع رَسُول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ جاء أعرابيٌّ، فقام يَبُولُ في المسجد، فقال أصحابُ رَسُول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْ! مَهْ!

قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ**[1]، **دَعُوهُ**»، فتَرَكُوه حتَّى بال، فلمَّا قضى بَوْلَه أَمَرَ النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم أن يُصَبَّ عليه ذَنُوبٌ من ماءٍ، أي: دَلْوٌ من ماءٍ؛ لتَطْهِير الأرضِ.

ثُمَّ إنَّ رَسُول اللهِ ﷺ دَعَاه، فقال له: «**إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**» أو كما قال رَسُول اللهِ ﷺ[2].

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الإِشارةُ إلى أنَّ ما يتَعَلَّق بأُمُور الدُّنْيَا من بيعٍ وشراءٍ وإجارةٍ ونحوها لا يَحِلُّ إيقاعُهُ في المسجدِ، ولهذا قال النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «**إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي المَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا أَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ؛ فَإِنَّ المَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا**»[3].

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: ذِكْرُ الله عَزَّوَجَلَّ يكُون بذِكْرِ اسْمِهِ، وذلك يَقْتَضِي أن يَكُون باللِّسَان، وذِكْرُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَكُون باللِّسَان، ويكونُ بالقَلْب، ويكونُ بالجَوَارح.

أمَّا ذِكْرُ الله بالقَلْب فأن يَكُون الإِنْسَان مُتفكِّرًا مُتَأمِّلًا في آيات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الدَّالَّة على عَظِيم سُلْطَانه، وما تَقْتَضِيه رَحْمَتُه وحِكْمَتُه.

---

(١) أي: لا تقطعوه، والإِزرام: القطع.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول، رقم (٢٨٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب البيوع، باب النهي عن البيع في المسجد، رقم (١٣٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا الذِّكر باللِّسَان فهو يَتَنَاول كُلَّ قَوْلٍ يُقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ من قِراءة القُرْآن، والتَّسْبِيح، والتَّكْبير، والتَّحْمِيد، والتَّهْلِيل، والأَمْر بالمَعْرُوف، والنَّهْيِ عن المُنْكَر، وتَعْلِيم العِلْمِ، وغيرِ ذلك من كُلِّ قَوْلٍ يُقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا الذِّكْرُ بالجوارح فيشمل كُلَّ فعلٍ يتقرَّبُ به الإِنْسَانُ إلى ربِّه، كالوُضُوء، والغُسْل، والصَّلاةِ، والصَّوْم، والصَّدَقَة، وغيرِ ذلك من أَفْعَال الجَوَارِح.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ عِمَارَة المَسَاجِد إنَّما هي بذِكْرِ الله عَزَّوَجَلَّ وما يُفْعَل فيها من الطَّاعَة؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

والسَّعْيُ في خَرَابِها كما يَشْمَل مَنْعَ ذِكْرِ الله تعالى فيها يَشْمَلُ أيضًا الخَراب الحِسِّيَّ، وذلك بهَدْمِها حتَّى لا يُقَام الذِّكْرُ في هذه البُقْعَة؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: البُشْرَى للمُؤْمنين أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ سُلِّطُوا على المُؤْمنين بمَنْعِهم من مَسَاجِد الله أن يَذْكُرُوا فيها اسمَ الله سوف تَكُون العَاقِبَة عليهم، أي: على هَؤُلاءِ المُتَسلِّطين المَانِعين؛ لقَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾.

وهذه العَاقِبَة تُؤيِّدها آياتٌ أُخْرَى، مثل قَوْلِه تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، وقولِهِ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ هَؤُلاءِ المُتَسلِّطين على عِبَاد الله بمَنْعِهم من مَسَاجِد الله أن يَذْكُرُوا فيها اسْمَ الله ستَنَالُهم عُقُوبَتَان: عقوبةٌ في الدُّنْيَا، وهي الخِزْيُ،

أي: الذُّلُّ والعار، وعقوبةٌ في الآخِرَة، وهي العَذَاب العَظِيم.

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: التَّحْذيرُ من هذا العمل -أعني: مَنْعَ مَسَاجِد الله أن يُذْكَر فيها اسْمُهُ- بأنَّ الإِنْسَان سوف يُعَاقَب مرَّتَيْن: مرَّةً في الدُّنْيَا، ومرَّةً في الآخِرَة، كما ذكر اللهُ تعالى في هؤلاء.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: لَهُ كُلُّ شيءٍ؛ لأنَّ كُلَّ شيء فهو إمَّا مَشْرِق وإمَّا مَغْرِب، فمَغْرِبُ قومٍ يكُون مَشْرِق قومٍ آخرين، وهكذا، فلِلَّهِ المشرقُ والمغربُ، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ أي: تتَّجِهُوا ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي: فهُنَاك وَجْهُ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ أي: مُحِيطٌ بكُلِّ شيء، ووَاسِع الصِّفَات، وواسَعُ الهِبَات، ووَاسِعُ الفَضْلِ ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بكُلِّ شيء، فاللهُ تعالى يُبيِّن في هذه الآيَة أنَّهُ تعالى مُحِيطٌ بكُلِّ شيءٍ، وأنَّ الإِنْسَان مهما تَوَلَّى فإنَّ الله تعالى مُحِيط به، عَالِمٌ به.

فوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- عُمُوم مُلْكِ الله عَزَّوَجَلَّ في قَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.

٢- بيانُ أنَّ هذا العُمُوم لا يتأَتَّى لأحدٍ سِوَى الله؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، فإنَّ تَقْدِيم الخَبَر يُفِيد الحَصْر، كما قرَّرَ ذلك عُلَماءُ البلاغَةِ.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الإِنْسَان مَهْمَا تَوَلَّى واتَّجه إلى شيءٍ فثَمَّ وَجْهُ الله،

واختلف المُفَسِّرون في المُرَاد بوَجْهِ الله هنا: هل هو وَجْهُ الله الَّذي هو صِفَـةٌ من صِفَاته، أو المراد: الجِهَة، فإنَّ الوَجْهَ يأتي بمعنى: الجِهَة، فيُقال: وِجْهَةٌ، ووَجْهٌ، وجِهَةٌ، كما يُقال: سافر فُلَان إلى هذا الوَجْهِ، أي: إلى هذه الجِهَة؟ على قَوْلَين، والآيَةُ تَحْتَمِلُهما جميعًا.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الإِنْسَان إذا صلَّى إلى جِهَةٍ مُجْتَهـدًا مُعْتَقِـدًا أنَّ هذه الجِهَة هي القِبْلَة فإنَّ صَلَاته تصـحُّ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ وَجْهِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والواجبُ إِجْرَاء الآيَة على ظَاهِرِها، وأن يَعْتَقِد المرءُ أنَّ للهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَجْهًا حقيقيًّا يَلِيقُ بجَلَاله وعَظَمته، ولا يُماثِل أَوْجُه المخلوقين، وهكذا بَقِيَّة صِفَاته كاليَدَيْن والعَيْنَيْن، فإنَّ الوَاجِب على المُؤْمِن إثباتُ ذلك على حقيقتِهِ، لكن بدُون أن يُكَيِّفه، أي: بدون أن يَتَصَوَّر له كيفيَّةً مُعَيَّنةً؛ لأَنَّهُ مهما بَلَغَ الإِنْسَان في التَّخيُّل فإنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعظمُ ممَّا يتخيَّله، ومن غَيْر تمثيلٍ، فلا يجوز أن يَعْتَقِد الإِنْسَان أو يَتَصَوَّر أنَّ وَجْهَ الله تعالى كأَوْجُه المخلوقين؛ لأنَّ الله ليس كمِثْلِه شيءٌ، وهو السَّميع البصير.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ سَعَة الله عَزَّوَجَلَّ، أي: سَعَة عِلْمِه وإِحَاطَته بكُلِّ شيء، وذلك أنَّ كُلَّ الأشياء بالنِّسْبَة إليه تعالى صَغيرةٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ العِلْمِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وعِلْمُه تعالى مُحيطٌ بكلِّ شيءٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥]، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦].

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوبُ الحَذَر من مُخَالَفة الله عَزَّوَجَلَّ بتَرْكِ أَوَامِره أو فِعْلِ نَوَاهِيه؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالِمٌ بذلك، وعِلْمُه بذلك يَقْتَضِي الحَذَرَ من مُخَالَفَتِه، نسألُ اللهَ تعالى أن يَرْزُقَنا الإخلاصَ لَهُ، والمُتابعةَ لرَسُولِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

• • • •

ثُمَّ قَالَ تعالَى:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ الضَّميرُ يعودُ إلى كُلِّ مَن تَفَوَّه بهذه المَقَالَة الكَاذِبَة المُنْكَرَة من اليَهُودِ والنَّصارى وغَيْرِهم، فاليَهُودُ قالوا: عُزَيرٌ ابنُ الله، والنَّصارى قالوا: المسيحُ ابنُ الله، والمُشْرِكُون قالوا: الملائكةُ بَنَاتُ الله، وكلُّ هَؤُلاءِ قالُوا فِرْيَةً عَظِيمَةً، وإثْمًا مُبينًا، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهًا له أن يَكُون له ولدٌ؛ لأنَّ الله غنيٌّ عن كُلِّ شيءٍ، وهو مَالِكٌ لكلِّ شيءٍ، والولد إنَّما يتَّخِذُهُ مَن كان مُحتاجًا مُفْتَقِرًا، أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فإنَّهُ ليس بحاجةٍ إلى أحدٍ؛ لأنَّ له المُلْكَ المُطلقَ، بل له ما في السَّمَوات والأَرْض، ولأنَّ كُلَّ أحدٍ خاضعٌ لله، ذليلٌ له، مُنْقَادٌ لأَمْرِهِ الكونيِّ، والمؤمنُ مُنْقَادٌ لأَمْرِهِ الشَّرعيِّ أيضًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

وقَوْلُهُ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَالِقُهما ابْتِدَاءً على غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الَّذي خَلَقَ السَّموات والأَرْض، وهو قادرٌ على كُلِّ شيء، فكَيْفَ تجعلون له وَلَدًا وقد خَلَقَ كُلَّ شيء، وبَدَع السَّموات والأَرْض، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: قَضَاهُ قَدَرًا وكَوْنًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، كَلِمَة واحدة لا تُثَنَّى مرَّةً أُخرى يقولها جَلَّوَعَلَا للشَّيْءِ مهما كان، فيكونُ في الحال، فليس بغَرِيبٍ أن يَخْلُقَ الله تعالى عيسى ابن مَرْيَم بلا أبٍ، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

فَوائِد وأحْكَام هاتين الآيتين الكَرِيمتين:

ففي الآيَة الأولى من الفَوائِد والأحْكَام:

١- بيانُ هذه الفِرْيَة العَظِيمَة الَّتي افْتَرَاها الظَّالِمُون على ربِّهم جَلَّوَعَلَا، وهي أنَّ الله اتَّخَذَ ولدًا، وقد بيَّنا أنَّ اليَهُودَ قالوا: عُزَيرٌ ابنُ الله، وأنَّ النَّصارى قالوا: المسيحُ ابنُ الله، وأنَّ المُشْرِكين قالوا: الملائكةُ بَنَاتُ الله.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: بيانُ تَنْزِيهِ الله عَزَّوَجَلَّ عن كُلِّ عيبٍ ونقصٍ؛ لقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، ومن ذلك: تَنْزِيهُهُ عن اتِّخاذ الوَلَدِ.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: بيانُ كَمَال غِنَى الله عَزَّوَجَلَّ عن اتِّخاذ الوَلَد؛ حيث إنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَالِكُ السَّمَوَات والأَرْضِ وما فيهما.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ جَمِيعَ الخَلْقِ قانتٌ لله، ومنهم عُزَيرٌ، والمسيحُ، والملائكةُ، كُلٌّ قانتٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ ذليلٌ له، فلا يُمْكِنُ أن يَكُون له ولدٌ، سُبْحَانه وبحمده.

وفي الآيَة الثَّانية من الفَوَائِد والأحْكَام:

١- بيانُ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَنْبَغِي أن يتَّخِذَ ولدًا؛ لأنَّهُ خَالِقُ السَّموات والأَرْض، فهو مُسْتَغْنٍ عن الولد.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إقامةُ الدَّلِيل على بُطْلَان الشُّبْهَة الَّتي احْتَجَّ بها النَّصارى على كَوْنِ المسيحِ ابنَ الله، حيث قالوا: إنَّهُ خُلِقَ بلا أبٍ، فأبوه هو اللهُ، فبيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّهُ خَالِقُ السَّمَوَات والأَرْض، وهي أَعْظَمُ من خَلْقِ البَشَر، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وخَالِقُ السَّمَوَات والأَرْض لا يَمْتَنِعُ عليه أن يخلق البَشَرَ.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: بيانُ كَمال قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الأمر مهما كانت عَظَمَتُه فإنَّ الله تعالى قادرٌ عليه بكلمةٍ واحدةٍ، وهي (كُنْ)، فيكون كما أراد اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا لَمَّا خَلَقَ الله القَلَمَ قال له: «اكْتُبْ»، قال: رَبِّ! وماذا أَكْتُبُ؟ قال: «اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»، فكَتَبَ ما هو كائنٌ إلى يوم القِيَامَة[1].

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ القَوْلِ لله، وأنَّ الله يقولُ، وأنَّ قَوْلَه بحُرُوف؛ لقَوْلِهِ: ﴿كُن﴾، فإنَّ هذه الكَلِمَة حروفٌ.

(١) أخرجه بمعناه أبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في الرضى بالقضاء، رقم (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفيه ردٌّ على مَن يقول: إنَّ كَلَامَ الله عَزَّوَجَلَّ وقَوْلَه هو المعنى القائمُ بنَفْسِه، وليس حروفًا أو أصواتًا تُسْمَعُ، وإنَّما كَلَامُهُ هو المعنى القائمُ بالنَّفْسِ، وما يُسْمَعُ من ذلك فإنَّهُ عبارةٌ عن كلامِ الله، وليس هو كلامَ الله، ولا شَكَّ أنَّ هذا القولَ خَطَأٌ عظيمٌ فَاحِشٌ؛ فإنَّ القول الَّذي يَكُون في النَّفْسِ لا يُطلَقُ عليه اسمُ القول، بلْ لا بُدَّ أن يُقيَّد، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة:٨].

أمَّا القولُ عند الإِطلاقِ فإنَّهُ القولُ الَّذي يُسْمَع ويُكَوَّنُ من حُرُوف يَسْمَعُها مَنْ وُجِّه إليه الخطابُ، وقد قال اللهُ تعالى في موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤]، وقال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢]، وهذا -أَعْني: كَوْنَ كلامِ الله عَزَّوَجَلَّ من حُرُوفٍ وأَصْوَات مسموعةٍ- هو قول السَّلَفِ، وأَئِمَّة الخَلَف، ولا عِبْرَة بمَن خَالَفَ طَرِيقَهم.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ كُلَّ شيء يَسْمَعُ كلامَ الله عَزَّوَجَلَّ إذا وُجِّهَ إليه الكلامُ؛ لأنَّهُ يُوَجِّه الأمرَ (كُنْ) إلى الشَّيءِ المُرَاد، فيكون على ما أراد اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: الَّذين ليس عِنْدَهم شيءٌ من العِلْمِ، بل هم في جَهْل وجَهَالة: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ يقولون ذلك لرُسُلِهم، يَطْلُبون آيةً يَقْتَرِحونها على الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك أن يُكَلِّمَهم اللهُ تعالى، ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ أي:

عَلامةٌ على صِدْق ما جاءت به الرُّسُل، فبيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ هذا القولَ قد قاله مَنْ قَبْلَهم.

ولقد اقْتَرَحت قُرَيش على رَسُولِ اللهِ ﷺ آياتٍ مُتعدِّدةً: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣]، فهم يَطْلُبون آياتٍ يَقْتَرِحُونها، مع أنَّ الرُّسُل عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ جاؤُوا بآياتٍ بيِّناتٍ، وما من رَسُولٍ أَرْسَله اللهُ إلَّا أعطاهُ من الآياتِ ما يُؤْمِن على مِثْلِه البشرُ.

قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: مثلَ هذا القولِ الَّذي قَالُوه قاله مَنْ سَبَقَهم، واقْتَرَحُوا آياتٍ على رُسُلهم، ومن ذلك: قولُ بني إسرائيل لمُوسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥].

قال اللهُ تعالى: ﴿تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وإذا تشابهت قُلُوبُهم تَشَابَهت أقوالُهم وأعمالُهم؛ لأنَّ الأعمالَ تَصْدُر عن القَلْب؛ لقول النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: **«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»**[1]، فمتى صَلَحَ القَلْبُ صَلَحَت الجوارحُ، ومتى فَسَدَ القلبُ فَسَدَت الجوارحُ، نسألُ الله أن يُصْلِح قُلُوب الجميع.

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٧٩).

قال اللهُ تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: قد أَظْهَرْنا إِظْهَارًا يَبِينُ به الأمرُ، و﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾ أي: العَلَاماتِ الدَّالَّة على صِدْق الرُّسُل عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، لكن لا ينتفعُ بها إلَّا المُوقِنُ: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أمَّا مَن ليس بمُوقِنٍ، بل هو في شكٍّ وريبٍ فإنَّهُ لا تَنْفَعُه الآياتُ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى فيمَن إذا تُلِيَت عليه آياتُ الله قال: أَسَاطِيرُ الأوَّلين، قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

فوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيانُ عِظَمِ عِناد الكُفَّار المُحَادِّين للهِ ورُسُلِه؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾، ووَجْهُ ذلك: أنَّ الله تعالى آتى الرُّسُل آياتٍ يُؤْمِن على مِثْلِها البشرُ.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: بيانُ كَذِب هَؤُلاءِ المُعَانِدين؛ لأنَّ طَلَبَهم هذا يتضمَّنُ ادِّعاءَهم بأنَّهم لم تَأْتِهم آياتٌ، وهذا كَذِبٌ مَحْضٌ، فالآياتُ جاءَتْهم، وبُيِّنَتْ لهم، لكنَّهم -والعِيَاذ بالله- قد حقَّت عليهم كَلِمةُ الله، ومَنْ حَقَّت عليه كَلِمةُ الله فإنَّهُ لا يُؤْمِن، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ القُلُوب إذا تَشَابَهت تَشَابَهت الأقوالُ والأعمالُ؛ لقَوْلِهِ حين حَكَى عمَّن سَبَقَ أنَّهم قَالُوا كما قال المُكَذِّبون لرَسُول الله ﷺ: ﴿تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الإشارةُ إلى أنَّ القُلُوب هي المُوَجِّهة للبَدَن؛ لقَوْلِهِ: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، وقد ثَبَتَ عن النَّبي ﷺ أنَّهُ قال: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»(١).

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: تَشَابُـه أعمالِ الكَفَـرة، أي: مُشَابهة لَاحِقِيهم لِسَابِقيهم.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَّنَ وأَوْضَح الآياتِ الَّتي تَـدُلُّ على صِـدْقِ ما جَاءت بـه رُسُلُـه؛ لقَـوْلِهِ تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ هـذه الآيـاتِ البيِّنَاتِ بنَفْسِـها لا تَتبَيَّنُ إلَّا لمُوقِنٍ.

ويتَفَرَّعُ على هذه الفَائِدة: أنَّ مَن كان عنده شَـكٌّ فـإنَّ الآياتِ لا تَتبَيَّن لـه، ولا تَظْهَر له، بل لا تَزِيدُهُ الآياتُ إلَّا عمًى وضَلَالًا؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الإشارةُ إلى أنَّ النَّاس يَنْقَسِمُون في آياتِ الله تعالى إلى قِسْمَين: قِسْمٍ مُوقِنٍ، فهذا ينتفعُ بالآياتِ الَّتي آتاها اللهُ الرُّسُلَ، وقِسْمٍ

(١) تقدم تخريجه (ص:٧٩).

غَيْرِ مُوقِن، بل هو في شَكٍّ، وأَقْبَحُ منه: مَن كان في عِنَادٍ وإِنْكَارٍ، فإنَّ هذا لا ينتفعُ بالآياتِ؛ لأنَّ الله تعالى خصَّ الانتفاعَ بالآياتِ لقومٍ يُوقِنون.

ومن ذلك: ما يَقُوم بقُلُوب بَعْض النَّاس من الشَّكِّ في نَفْعِ بَعْض الآيات الَّتي رُتِّب عليها فَوَائِدُ، مثل قَوْل النَّبي ﷺ في آية الكُرْسِيِّ: «**مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عليهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ**»(١)، فإنَّ بَعْض النَّاس يَقْرَأ هذه الآيَةَ، ولكنَّه في شَكٍّ من هذا الخبرِ، أو يقولُ: أَقْرَؤُها وأُجَرِّب! ومِثْلُ هذا لا ينتفعُ بها أبدًا، فلا ينتفعُ بها إلَّا مَن أَيْقَن بأنَّهُ إذا قَرَأَها لا يزالُ عليه من اللهِ حافظٌ، ولا يَقْرَبُه شيطانٌ حتَّى يُصْبِح.

وهكذا بقيَّةُ الآياتِ الَّتي أَخْبَر النبيُّ ﷺ بشيءٍ من فَوَائِدها، فإنَّ الواجبَ على المرءِ أن يَتْلُوَها وهو مُوقِنٌ بصِحَّة ما أَخْبَر به النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؛ حتَّى يَتِمَّ إيمانُهُ، وحتَّى ينتفعَ بها، نسألُ اللهَ تعالى أن يَجْعَلَنا جميعًا من المُوقِنين بآياتِهِ، المُخْلِصين لوَجْهِه، المُوَافِقِين لمَرْضَاتِه، إنَّهُ على ذلك قديرٌ.

•●∞●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

المُرْسِل: هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والخِطَابُ: للرَّسُول ﷺ، فهو الرَّسُول.

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٩/ ٣٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعلَّقه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكَّل رجلًا، فترك الوكيل شيئًا، فأجازه المُوكِّل، فهو جائز، رقم (٢٣١١).

وقَوْلُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يحتملُ أن يَكُون بَيَانًا للمُرْسَل به، فإنَّ ما جاء به الرَّسُولُ ﷺ حقٌّ، وما سِوَاه باطلٌ، ويحتملُ أن يَكُون بيانًا للرِّسَالة، أي: أنَّ رِسَالتك حقٌّ، ليس فيها شيءٌ من البَاطِل، والمعنيان صَحِيحَان، فرِسَالة النَّبي ﷺ حقٌّ، وما أُرسِلَ به من العِلْمِ والإِيمان والعَمَل الصَّالِح هو حقٌّ.

وقَوْلُهُ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صِفَتان من صِفَات الرَّسُول صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم أَنَّهُ بَشِيرٌ، وأَنَّهُ نذيرٌ، فهو بشيرٌ للمُؤْمِنين، وهو نذيرٌ للكَافِرين، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:١-٥]، فهو ﷺ بشيرٌ للمُؤْمِنين بالثَّواب العَاجِل والآجِل، ونذيرٌ للكافرين بالعِقَاب العَاجِل والآجل.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: لا يَسْأَلُك اللهُ تعالى عن أصحاب الجحيم بعد إذ أَنْذَرتَهم؛ فإنَّ سيِّئاتِهم على أَنْفُسِهم، أمَّا أنت فقد بلَّغتَ الرِّسَالة، وأدَّيتَ الأمانةَ، ونصحتَ الأُمَّةَ.

فَوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- إثباتُ رِسَالة النبيِّ ﷺ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

٢- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أنَّ رِسَالَة النبي ﷺ حقٌّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوب اتِّبَاع النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؛ لكَوْنِه رَسُولَ الله، ولكَوْنِ ما جاء به حقًّا، وضِدُّ الحقِّ الباطلُ، فمَن خَالَف النبيَّ ﷺ فهو على باطلٍ.

ثُمَّ إنَّ هذا الباطلَ قد يَكُون شَامِلًا لجميع أَعْمَاله، كالكَافِر بما جاء به الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقد يَكُون الباطلُ في بَعْض أَعْمَاله، كمَن فَعَلَ معصيةً لا تُخْرِجه من الإِسْلامِ، فإنَّ هذه المعصيةَ تَكُون باطلًا، وما معه من الحقِّ يَكُون حقًّا.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ليس له حقٌّ من الرُّبُوبيَّة والتَّصرُّف في الخَلْق، إنَّما هو بشيرٌ ونذيرٌ.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الحثُّ على فِعْلِ ما يَكُون بشارَةً للعَبْد، وتلك هي الأَعْمَال الصَّالِحَة، فإنَّ مَن عَمِلَ عملًا صالحًا فلَهُ البُشْرَى في الحياة الدُّنْيَا وفي الآخِرَة، له البُشْرَى في الحياة الدُّنْيَا؛ لأنَّ تَوْفِيق الله له لهذا العَمَل دَلِيلٌ على أنَّ الله يسَّره لليُسْرَى، فيَبْشُر بذلك، ويَفْرَح، ويُسَرُّ، ولهذا جاء في الحديث الصَّحِيح: «**مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ، فَذَلِكَ المُؤْمِنُ**»[1]، فإذا رأيتَ اللهَ تعالى قد وَفَّقك للعمل الصَّالح فأَبْشِر بالخيرِ، قال النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ**»، قالوا: يا رَسُول الله! فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أفلا نتَّكِلُ؟ قال: «**لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثُمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، وأحمد (١/ ١٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ إلى آخر الآية [الليل:٥-١٠](1).

وعلى هذا فيَنْبَغِي للإِنْسَان إذا رأى أنَّ الله يَسَّرهُ للعَمَل الصَّالح، وهَدَاهُ له، وسهَّلهُ عليه، أن يَحْمَد الله على هذه النِّعْمَة، وأن يُسَرَّ بذلك، قال اللهُ تعالى في الحديث القُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»(2)، وإذا وَجَدَ من نَفْسِه أنَّ العَمَل الصَّالح ثقيلٌ عليه، وأنَّ نَفْسَه تَنْقَاد بسُرْعَة إلى العَمَل السَّيِّئ فليَرْجِع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولْيَتُبْ إليه، ولْيَحْذَر مِمَّا هو عليه.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ رَسُول اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لا يُسْأَلُ عن ضَلَالِ الضَّالِّين، ومَن كان من أصحاب الجَحِيم؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الإِنْسَانَ إذا أدَّى ما عليه من إِبْلَاغ الشَّرْع والدَّعْوَة إليه فإِنَّهُ لا يَنَالُه من ضَلَال الضَّالِّين شيءٌ، إنَّمَا يَضِلُّون على أَنْفُسِهم، قال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٩)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي، رقم (٢٦٤٧/ ٦-٧) من حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧/ ٥٥) من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢١-٢٦].

٨- ومن فَوائِدها وأحْكَامها: أنَّ أصحابَ الجَحِيم الَّذِينَ هم أَهْلُ الجَحِيم لا يَسْتَفِيدُون بِرِسَالة النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شيئًا؛ لأنَّهم قد حَقَّت عليهم كلمةُ العَذَاب، والعِيَاذ بالله، فنسألُ اللهَ أن يَقِينا وإيَّاكم من أَسْبَاب سَخَطِه وعِقَابِه، وأن يتوَلَّانا في الدُّنْيَا والآخِرَة؛ إنَّهُ جَوادٌ كَرِيمٌ.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

يَقُولُ اللهُ تعالى مُخْبِرًا عن حَال اليهود والنَّصارى، وشِدَّة مُعَادَاتِهم لِمَا جاء به الرَّسُولُ ﷺ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وقد بيَّنَّا فيما سَبَقَ أنَّ اليهودَ هم أَتْبَاعُ مُوسى، وأنَّ النَّصارى هم أَتْبَاع عِيسَى.

فاليهودُ أَتْبَاع مُوسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وشَرِيعَتُهم الَّتي كَانُوا عليها نُسِخَت بشَرِيعَة عيسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ووَجَبَ عليهم أن يُؤْمِنُوا بعِيسَى ويتَّبِعُوه، ولكنَّهم -والعِيَاذُ بالله- أَبَوْا ذلك، وكَفَرُوا بعيسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وادَّعَوا أنَّهم قتَلُوه وصَلَبُوه، وقد أَنْكَر اللهُ ذلك عليهم فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧].

أمَّا النَّصَارى فهم أَتْبَاع عِيسَى ابن مَرْيَم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وهو آخِرُ أَنْبِياء بني إسرائيلَ، وليس بينه وبين مُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولٌ، وهم كَانُوا على دِينِ حقٍّ حتَّى بُعِث

النَّبيُّ ﷺ، فلمَّا بُعِثَ النبيُّ ﷺ وَجَب عليهم أن يتَّبِعُوه، فلما كَفرُوا به صَارُوا كَافِرين حتَّى بِعِيسَى ابن مَرْيَم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنَّ عِيسَى ابن مَرْيَم قد بشَّرهم بمُحَمَّد ﷺ، كما ذَكَرَ اللهُ تعالى ذلك فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦]، فـ: (أَحْمَدُ) الَّذي بَشَّرَ به عِيسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو مُحَمَّدٌ ﷺ، والدَّلِيلُ على هذا: قَوْلُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، ولكنَّهم كَفرُوا بمُحَمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فكانُوا كَافِرين بعِيسَى وبشارَتِه، ولهذا لا يَقْبَلُ اللهُ دِينَهُم، ولا يَنْفَعُهم هذا الدِّينُ الَّذي هم عليه يومَ القِيَامة، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي: دِينَهم الَّذي هم عليه، فاليهودُ يَقُولون: لا نَرْضَى عنك حتَّى تكون يهوديًّا، والنَّصارى يقولون: لا نَرْضَى عنك حتَّى تكُون نَصْرَانيًّا، قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: مُنْكِرًا عليهم ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، وليس ما أنتم عليه أيُّها اليهودُ، ولا ما أنتم عليه أيُّها النَّصَارى، بل هُدَى الله هو الهُدَى، وهُدَى الله بعد بعثة الرَّسُول مُحَمَّد ﷺ هو ما كان عليه مُحَمَّدٌ ﷺ.

وفي قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ ضميرُ فَصْلٍ، وضميرُ الفَصْلِ يُفِيدُ إِثْبَات الحُكْم في المذكور، ونَفْيَه عمَّا سِوَاه؛ لأنَّهُ -أعني: ضَميرَ الفَصْل- من أَدَوات الحَصْر.

ثُمَّ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني: مَن اتَّبَعَ أَهْوَاء هَؤُلاءِ اليهودِ أو النَّصَارى، وهو ما يُرِيدُونه من أن يَكُون النَّاس نَصَارى أو يَهُودًا، فمَن اتَّبَعَ هذا بعد ما جَاءه من العِلْمِ بِرِسَالة مُحَمَّد ﷺ، فإنَّهُ مُعَرِّضٌ نَفْسَه لهذه العُقُوبة: ما لَهُ من الله من وَلِيٍّ يَتَوَلَّاه، فيُحِيطه بما يَنْفَعُه، ولا نصيرٍ يَنْصُرُه، فيَمْنَعَهُ مِمَّا يضرُّهُ.

فوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- التَّحْذِيرُ الشَّدِيد من اليهودِ والنَّصارى؛ لأنَّهم لن يَرْضَوا عن الإنسانِ حتَّى يتَّبِعَ مِلَّتَهم.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: بيانُ أنَّ اليهودَ والنَّصارى يَرْضَوْن بمَن يتَّبِعُ مِلَّتَهم، بل يَفْرَحُون بذلك، ويُسَرُّون به، ويَسْتَبْشِرُون به.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الهُدَى لا يختصُّ بأُمَّةٍ أو طائفةٍ مُعَيَّنَةٍ، فليس الهُدَى لليهودِ فقط، ولا للنَّصارى فقط، بل الهُدَى هُدَى الله، فمَن اتَّبَع هُدَى الله على أيِّ رَسُولٍ حَصَلَ على يَدَيْه هذا الهُدَى فقد اهْتَدَى بهُدَى الله، ومعلومٌ أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خاتَمُ الأنبياءِ، وأنَّهُ جاء بكِتَابٍ مُصَدِّقٍ لِمَا بين يَدَيْهِ من الكِتَاب، ومُهَيْمِنٍ عليه، وأنَّ شَرِيعَتَه نَسَخَت جميعَ الشَّرَائِع، وعلى هذا نَقُول لليهود والنَّصَارى: المِلَّةُ الصَّحِيحة ما كان عليه المسلمون؛ لأنَّها هي هُدَى الله الَّذي بَعَثَ به مُحَمَّدًا ﷺ.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: التَّحذيرُ من اتِّبَاع أَهْوَاء اليهود والنَّصارى، أي: اتِّبَاع ما يَهْوَوْنَه من الباطلِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٥- ومن فَوَائِدِها وأحْكَامِها: أنَّ العُقُوبات إنَّما تَقَعُ على العَبْد بعد أن يأْتِيَه العِلْمُ، وأمَّا الجاهلُ فلا عُقُوبَةَ عليه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، وهذا الأصلُ يَشْهَدُ له آياتٌ مُتَعدِّدةٌ، منها: قَوْلُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فقال الله تعالى: «قَدْ فَعَلْتُ»[1].

ومنها أيضًا: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥].

ومنها: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

ومنها: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ، وهو أنَّهُ لا عُقُوبَةَ إلَّا بعد العِلْمِ.

٦- ومن فَوَائِدِها وأحْكَامِها: أنَّهُ لا أَحَدَ يمنعُ ما أَرَادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ من خيرٍ أو من شرٍّ، ففي الحديث الصَّحِيح عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في الأذكار الَّتي تُقَال بعد الصَّلاة: «اللهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[2]، أي: لا ينفعُ صَاحِبَ الحَظِّ والغِنَى حَظُّه وغِنَاه من الله عَزَّوَجَلَّ، بل اللهُ تعالى مُحِيطٌ بكُلِّ شيءٍ، وقادرٌ على كُلِّ شيءٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، رقم (١٢٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصَّلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد: باب استحباب الذكر بعد الصَّلاة، رقم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- ومن فَوَائِدها وأحكَامها: أَنَّهُ إذا كان هذا التَّحذيرُ مُوَجَّهًا إلى رَسُول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، فكَيْفَ بمَن دُونَه؟! فإنَّ هذا التَّحْذِيرَ يَشْمَلُهُ وأَوْلَى، ولقد قال اللهُ تعالى لرَسُوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤- ٧٥].

•●○●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أَعْطَيْنَاهم الكِتَابَ، والمرادُ بالكِتَاب هنا: الجِنْسُ، فيشملُ الكِتَاب الَّذي أَنْزَله اللهُ على مُحَمَّد ﷺ، وهو القُرْآنُ، والكِتَابَ الَّذي أَنْزَله على مُوسى، وهو التَّوْرَاة، والكِتَابَ الَّذي أَنْزَله على عِيسى، وهو الإِنْجِيلُ، ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتَّبِعُونه، والتِّلَاوة يُرادُ بها ثَلَاثة أُمُور: التِّلَاوة اللَّفْظِيَّة، والتِّلَاوة المَعْنوِيَّة، والتِّلَاوة الحُكْمِيَّة العَمَلِيَّة.

- أمَّا التِّلَاوة اللَّفْظِيَّة: فأَنْ يُقيمَ الإنسانُ حُرُوفَ الكِتَاب الَّذي أُنْزِل.
- وأمَّا التِّلَاوة المَعْنوِيَّة: فأن يُقِيم مَعْنَى الكِتَاب الَّذي أُنْزِل، وذلك بأن يُفَسِّرَه بما أَرَادَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لا بِهَوى نَفْسِه، فلا يُحَرِّف الكَلِمَ عن مَوَاضِعِه.
- وأمَّا التِّلَاوة الحُكْمِيَّة العَمَلِيَّة: فأن يُؤْمِن بأَخْبَاره، ويَقُومَ بأَوَامِره، ويتَجَنَّبَ نَوَاهِيَه.

فقَوْلُه: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: التِّلَاوة الحقَّ، فهو من باب إِضَافَة الصِّفَة إلى مَوْصُوفها، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني: هَؤُلاءِ هم الَّذِينَ يُؤْمِنون به حقًّا، وأمَّا مَن لم يَتْلُهُ حقَّ تِلَاوَتِه، إمَّا في اللَّفظ، أو في المَعْنَى، أو في الحُكْمِ والعَمَل، فإنَّهُ لم يُؤْمِن به، وقد نَقَصَ من إِيمَانِهِ به بقَدْرِ ما نَقَصَ من تِلَاوَتِه.

وبيَّن عَزَّوَجَلَّ في هذه الآيَة أنَّ مَن كَفَرَ بالكِتَاب الَّذي آتاهُ اللهُ إيَّاه فإنَّهُ خاسرٌ، خَسِرَ الدُّنْيَا والآخرة خُسْرَانًا كاملًا إن كان لم يُؤْمِن به إطْلَاقًا، وخُسْرَانًا نَاقِصًا إن كان آمَنَ به على وَجْهٍ يَنْقُصُ الإِيمانَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى حَكَمٌ عَدْلٌ، فمَن كان معه الإِيمانُ كلُّه فلَهُ الرِّبْحُ كُلُّه، ومَن كان معه الكُفْرُ وليس معه الإِيمانُ فله الخُسْرَان كُلُّه، ومَن كان معه إيمانٌ وكفرٌ فله الرِّبْحُ فيما آمَنَ، والخُسْرَان فيما كَفَرَ.

فَوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- الثَّنَاء على مَن آتاهُ الله الكِتَابَ، فتَلَاه حقَّ تِلَاوَتِه.

٢- أنَّ حقيقةَ الإِيمانِ بالكِتَاب: أن يَتْلُوَه الإِنْسَانُ حقَّ تِلَاوَتِه.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن لم يُقِمْ حُرُوف الكِتَاب فإنَّهُ لم يُؤْمِن به حقَّ الإِيمانِ؛ لأَنَّهُ لم يَتْلُهُ حقَ تِلَاوته.

ويتفَرَّعُ من هذه الفائدة: وُجوبُ تِلَاوة القُرْآن على الوَجْه الَّذي أُنْزِل من حيث التَّرتيبُ، ومن حيث الحُرُوف، فلا يُبْدَلُ حرفٌ بحَرْف، ولا تُقَدَّمُ آيةٌ على آيةٍ، ومن حيث الإِعرابُ، فلا يُفْتَح ما كان مَضْمُومًا أو مَكْسُورًا، ولا العكس.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: تحريمُ تَفْسِير القُرْآن بالرَّأي والهَوَى؛ لأنَّ مَن فَعَلَ ذلك فإنَّهُ لم يَتْلُ القُرْآنَ حقَّ تِلَاوته باعتبار المعنى.

ويتفَرَّع على هذا: بيانُ خَطَر ما ذَهَب إليه المُحَرِّفُون لآيات الصِّفَات، مثل قَوْلِهم: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] أي: اسْتَولى، ومثل قَوْلِهم: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائده:٦٤] أي: نِعْمَتاه مَبْسُوطتان، وما أشبه ذلك؛ فإنَّ هذا -بلا شَكٍّ- تحريفٌ للكَلِم عن مَوَاضِعه، وقد يَكُون هذا أشدَّ من التَّحريف في آيات الأَحْكَام العَمَلِيَّة، وذلك لأنَّ بابَ الصِّفَات من باب الخَبَر المَحْض الَّذي ليس للعُقُول مدخلٌ في تَفَاصِيله، فيجبُ تَلَقِّيه من كِتَاب الله، وصَحِيح سُنَّة رَسُول اللهِ ﷺ، فمَن حَرَّفَ نُصُوص الكِتَاب والسُّنَّة في آيات الصِّفَات وأَحَادِيثها فهو أشدُّ خطرًا ممَّن حرَّفها فيما يتعلَّقُ بالأَحْكَام البَدَنِيَّة.

وعلى هذا فالواجبُ إجراءُ نُصُوص الصِّفَات في الآيات والأحاديث على ظَاهِرِها اللَّائق بالله بلا تمثيلٍ ولا تحريفٍ، فنقول: إنَّ معنى قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] أي: عَلَا على العَرْش عُلُوًّا يَلِيق بجَلَاله وعَظَمَته من غَيْر تمثيلٍ، ونقولُ في قَوْلِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] هما يَدَان حَقِيقِيَّتان، بهما يأخذُ، وبهما يَقْبِضُ، ولكنَّهما لا تُماثِلَان أيديَ المَخْلُوقين، وهكذا بقيَّة الصِّفَات الواردة في كِتَاب الله وسُنَّة رَسُوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، يجب علينا أن نُؤْمِن بها على ظَاهِرها، لكن من غَيْر تمثيلٍ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ومن غَيْر تَكْييفٍ أيضًا؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وقَوْله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، فلا يجوز لأحدٍ أن يُمَثِّل صِفَاتِ الله بصفات خَلْقِه، ولا يُكَيِّفَ صِفَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ ذلك قولٌ على الله بلا عِلْمٍ.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ التِّلَاوَة تنقسمُ إلى قِسْمَين: تِلَاوةٍ تامَّةٍ، وهي حقُّ التِّلَاوة، وتِلَاوةٍ ناقصةٍ، وهي أن يَتْلُوَه بَعْض التِّلَاوة.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن لم يَقُم بالعملِ الصَّالح الَّذي دلَّ عليه الكِتَابُ فإنَّهُ لم يَتْلُهُ حقَّ تِلَاوَتِه، فيكون ناقصَ الإِيمان، وهذا هو طريق أهل السُّنَّة والجَمَاعة: أنَّ الإِيمانَ يَزِيدُ ويَنْقُصُ، يزيدُ بالطَّاعَة، ويَنْقُصُ بالمَعْصِية أو غَيْرِها من أسباب نَقْصِه.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الثَّناء على التَّالين لكِتَاب الله حقَّ تِلَاوَتِه؛ لقول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الكَافِرَ بالكِتَاب الَّذي أَنْزَله اللهُ على رُسُلِه خاسرٌ في الدُّنْيَا والآخِرَة، حتَّى وإن رَبِحَ في الدُّنْيَا أموالًا، وقُصُورًا، ومَرَاكِبَ، وأُنْعِم عليه بالأهلِ والبَنِينَ فإنَّهُ خاسرٌ؛ لإِطلاق الخُسْرَان فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، ولم يَقُل: في الدُّنْيَا، ولم يَقُل: في الآخِرَة، فيكون ذلك عَامًّا، قَال اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٥-١٦].

• • ◦ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى فِي سُورةِ البقَرَة:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾

هذه الآيَة الكَرِيمَةُ سَبَق شِبهُها في أوَّل السُّورة، يُنادِي اللهُ تعالى بني إسرائيلَ -وإسرائيلُ هو يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ- يُنادِيهم مُذَكِّرًا إيَّاهم نِعْمَتَه الَّتي أَنْعَمها عليهم، ويَأْمُرهم بتَذَكُّرِها، فيقول: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقد أَنْعَم اللهُ على بني إسرائيلَ بنِعَمٍ عظيمةٍ، منها: الإِيمانُ؛ حيث آمَنُوا بموسى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

ومنها: أنَّ اللهَ أَهْلَك عَدُوَّهم فرعونَ وقَوْمَه، وأَوْرَثَهم أَرْضَهم ودِيَارَهم وأَمْوَالَهم.

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى ظَلَّلَ عليهم الغَمام، وأَنْزَل عليهم المنَّ والسَّلْوَى، ونِعَمُ الله عليهم كثيرةٌ.

ومنها: أنَّ الله فضَّلَهم على العَالَمِين، أي: جَعَلَهم أفضلَ من العَالَمِين، وذلك في زَمَانِهم، فإنَّ بني إسرائيلَ الَّذِينَ آمَنُوا برُسُلِهم أفضلُ العَالَمِين في وَقْتِهم، أمَّا بعد بعثة الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنَّ أَفْضَل الأُمَم أُمَّةُ رَسُول اللهِ ﷺ الَّذِينَ آمَنُوا به، كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم (٨٧٦)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأُمَّة ليوم الجمعة، رقم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَقُولُ اللهُ تعالى في هذه الآيَة مُخَاطِبًا بني إسرائيلَ، ومُذَكِّرًا لهم بهذه النِّعَم: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فَوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- أَنَّهُ يجبُ على المَرْءِ أن يتَذَكَّر نِعْمَةَ الله عليه؛ ليَقُومَ بشُكْرِها، وبشُكْرِ النِّعَم تَزْدَادُ، وبكُفْرِها ترتفعُ، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَنَّهُ يجبُ على بني إسرائيلَ أن يُؤْمِنُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ؛ لأَنَّهُ مُرْسَل إليهم، فعليهم أن يتَّبِعُوه؛ شُكْرًا للهِ تعالى على ما أَنْعَم به عليهم من هذه النِّعَم الَّتي تَمَيَّزُوا بها عن العَالَمِين في وَقْتِهِم.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ النَّاس يَتَفَاضَلُون عند الله في الأَعْمَال، ويتَفَاضَلُون في الإيمان، قَال اللهُ تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٣٢]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وسُئِلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ العَمَل أحبُّ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ فقال: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»، قال: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: «**بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**»، قال: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[1]، فالأعمالُ تَتَفَاضَل، والعَامِلُون يتَفَاضَلُون بحسب ما عندهم من العِلْمِ، والإِيمانِ، والعملِ الصَّالح.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، رقم (٨٥) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَنَّهُ يجبُ على مَن فَضَّلَه اللهُ على غَيْره بعِلْمٍ أو مالٍ أو عملٍ من الشُّكْر ما لا يجبُ على مَن هو دُونَه، وذلك أَنَّ النَّاسَ قِسْمَان: قِسْمٌ أَنْعَم اللهُ عليهم، فابْتَلَاهم بالنِّعَم؛ ليَشْكُرُوا أم يَكْفُروا، وقِسْمٌ آخر ابْتُلُوا بالمَصَائِب؛ ليَعْلَم اللهُ تعالى: هل يَصْبِرون، أو لا يَصْبِرُون؟ ولكلٍّ فيما ابْتُلِيَ به وظيفةٌ، فمَن ابْتُلِيَ بالخَيْر فعليه وَظِيفَةُ الشُّكْر، ومَن ابْتُلِيَ بضِدِّه فعليه وظيفةُ الصَّبْر، وكُلَّما عَظُمَت النِّعَم كان الشُّكْرُ عليها أَوْجَبَ.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ واحْذَرُوا ﴿يَوۡمٗا﴾ هو يومُ القِيامَة ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ لا تُغْنِي عنها شيئًا، حتَّى الوَالِد لا يُغْنِي عن وَلَدِه شيئًا، والوَلَد لا يُغْنِي عن وَالِدِه شيئًا، كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سُورة لُقْمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان:٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس:٣٤- ٣٧].

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ أي: لا يُقْبَل منها ما تَدْفَعُه عَدْلًا، أي: فِدْيَةً عنها، ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ والشَّفَاعَة: هي التَّوسُّط للغير لجَلْب منفعةٍ أو دَفْعِ مَضَرَّة، ففي يوم القِيَامة لا تنفعُ الشَّفَاعَة أحدًا إلَّا مَن أَذِنَ له الرَّحمنُ، ورَضِيَ له قولًا،

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا هم يُمْنَعُون من عذابِ الله.

فوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- وُجُوب الحَذَر من عَذَاب يوم القِيَامة؛ لأَنَّهُ هو المُرَادُ بقَوْلِه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَنَّهُ في يوم القِيَامَة لا ينفعُ أحدٌ غَيْرَهُ شيئًا، بخِلَاف الدُّنْيَا، فإِنَّهُ قد يَنْفَعُه بشفاعةٍ أو غَيْرِها.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوب الحَذَر من هذا اليومِ العَظِيم الَّذي لا تَنْفَع فيه قَرَابةٌ، ولا يَنْفَع فيه الفِدَاء، ولا تَنْفَع فيه الشَّفَاعة، وإِنَّمَا الإِنْسَانُ وعَمَله.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: نفيُ نَفْعِ الشَّفَاعة لِمَن ليس من أَهْلِها؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾، أمَّا مَن كان من أهل الشَّفَاعة فإنَّ الشَّفَاعة تَنْفَعُه.

وليُعْلَم أنَّ الشَّفَاعة قِسْمَان: قسمٌ عامٌّ، وقسمٌ خاصٌّ، **فالخاصُّ**: هو الَّذي لا يَقُوم به إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ، وهي الشَّفَاعة العُظْمَى الَّتي يَتَرَاجَعُ فيها الأنبياءُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلَامُ، حتَّى تَصِلَ إلى مُحَمَّد ﷺ، فإنَّ النَّاسَ يومَ القِيَامة يَلْحَقُهم من الغمِّ والكَرْب ما لا يُطِيقُون، فيأتون إلى آدمَ يَطْلُبون منه الشَّفَاعَة، فيعتذرُ، ثُمَّ إلى نوحٍ، ثُمَّ إلى إبراهيمَ، ثُمَّ إلى مُوسى، ثُمَّ إلى عيسى، حتَّى تنتهيَ إلى رَسُول اللهِ ﷺ مُحَمَّدٍ، فيقومُ ويَشْفَع بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه خاصَّة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقسمٌ **عامٌّ**: تكون للرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولغَيْرِه من المُؤْمِنين من الملائكة والبَشَر، ومنها: الشَّفَاعة للمَيِّت بالصَّلاة عليه، قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: **«مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ**

شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»[١]، وهذه عامَّةٌ، تكـونُ للأَنْبِيَاء والصَّالحين من البَشَر، وتكون كذلك للمَلَائِكَة.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: قَطْعُ آمال المُشْرِكين الَّذِينَ يَعْبُدون الأصنامَ، ويتَّخِذُونها شُفَعَاء عند الله، فإنَّها لا تَنْفَعُهم يوم القِيَامة، خِلَافًا لِمَا يتوهَّمُونه من أنَّها تَنْفَعُهم، حيث يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، فلا تَنْفَع الشَّفَاعة إلَّا مَن أَذِنَ له الرَّحْمَن، ورَضِيَ له قَوْلًا، نسأَلُ اللهَ تعالى أن يُلْحِقَنا وإيَّاكم بشَفَاعةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأن يَجْمَعنا وإيَّاه في جَنَّات النَّعِيم؛ إنَّهُ جَوَادٌ كريمٌ.

• ● ◌ ● •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ أي: اخْتَبَرَهُ، وإبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو ابن آزَرَ، وهو خليلُ الرَّحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يُخْبِر الله تعالى أَنَّهُ ابْتَلَاه بكلماتٍ، ﴿وَإِذِ﴾ هنا مُتَعَلِّقة بمَحْذُوف، والتَّقْدِير: واذْكُرْ إذ ابْتَلَى إبراهيم، أي: اذْكُرْ للنَّاس هذه القصَّة العَجِيبة الدَّالَّة على فَضْلِ إبراهيمَ، ابْتَلَاه الله تعالى بكلماتٍ، وهذه الكلماتُ كلماتٌ شَرْعِيَّة ابْتَلَاه الله تعالى بها، وهي الأوامرُ والنَّوَاهي، ولم يُبَيِّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَيْنَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

هذه الكلماتِ ولا نَوْعَها، لكنَّنا نعلمُ أنَّها كلماتٌ تَكْلِيفيَّة قامَ بها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على الوجه الَّذي ابْتَلاه اللهُ تعالى بها حَسَب ما يُرْضِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

ومن ذلك: أنَّ الله تعالى أَمَرَه أن يَذْبَح ابْنَه إسماعيلَ بعد أن بَلَغَ معه السَّعْيَ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: انْقَادَا لأمرِ الله ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: تَلَّهُ على وَجْهِه ليَذْبَحه مِن قَفَاهُ، جاءَ الفَرَجُ من الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات:٩٩-١٠٦].

فابْتَلَى اللهُ تعالى إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بكلماتٍ: أوامرَ ونَوَاهٍ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وهذا هو محلُّ الثَّناء، أَنَّهُ لَمَّا ابْتُلِيَ بذلك أَتَمَّهنَّ على الوجه الَّذي يَرْضَى به اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فأثابه اللهُ تعالى ذلك الثَّواب العَظِيم: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: قُدْوَةً يَقْتَدي بك النَّاسُ، ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يعني: واجْعَل من ذُرِّيَّتي إِمَامًا، أو اجْعَل من ذُرِّيَّتي أَئِمَّةً ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فتعَهَّد اللهُ له بذلك، إلَّا أَنَّهُ اسْتَثْنَى، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، ومن أَكْبَر الأَئِمَّة -بل هو أَكْبَرُ الأَئِمَّة من ذُرِّيَّته- مُحَمَّدٌ ﷺ، فهو إِمَام المُتَّقِين، صلوات الله وسلامُهُ عليه، بل هو إِمَام الأنبياءِ ﷺ، وإن كان آخِرَهم، كما ثَبَتَ ذلك في قِصَّة الإِسْرَاء والمِعْرَاج، حيث صلَّى بهم -صَلَوَات الله، وسَلَامه عليه- إِمَامًا[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، رقم (١٧٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مَن كان ذا ظُلْمٍ لنَفْسِه بالإِشْرَاك بالله؛ فإنَّهُ لا يُمْكِنُ أن يَكُونَ إِمَامًا.

فَوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- أنَّ الله أَمَرَ نَبيَّه ﷺ أن يَذْكُر للنَّاس ما حَصَل من الابْتِلَاء لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ والفائدةُ من ذلك: الاقْتدَاء به، أي: بإبراهيم، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: فضيلةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأَنَّهُ إِمَام؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: شَفَقَةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على ذُرِّيَّته؛ حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾، وهذا يُشْبِه من بَعْض الوُجُوه ما سَأَل مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ربَّه جَلَّ وَعَلَا أن يُشْرِك أَخاه هارونَ في الرِّسَالة.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْطَى إبراهيمَ ما سَأَل، بأن يَجْعَل من ذُرِّيَّته أَئِمَّةً، لكنَّه اسْتَثْنَى من ذلك الظَّالِمَ، فإنَّهُ لا يَكُون إمامًا.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ كُلَّ مَن كان أَقْوَمَ للهِ تعالى بما أَمَرَ به كان أَحْرَى بالإمامةِ من غَيْره؛ لقَوْله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وذلك لأنَّ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنَّما كان إمامًا؛ لأَنَّهُ أتمَّ ما ابْتَلَاه اللهُ به، ولذلك قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً**

فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا، -أَوْ قَالَ:- سِنًّا»[1].

٦- ومن فوائدها وأحْكَامها: كَراهيةُ الله تعالى للظُّلْمَ، ولذلك لم يَجْعَل لظالِمٍ إِمَامةً.

•• ⁂ ••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مُتعَلِّقٌ بمَحْذُوف تَقْدِيرُهُ: واذْكُرْ إذ جَعلْنَا، ومعنى ﴿جَعَلْنَا﴾ صَيَّرنا، والمرادُ بالبيت: بيتُ اللهِ الحَرَامُ الكَعْبَةُ، ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مَرْجِعًا يَرْجِعُون إليه ويَثُوبُون إليه، ﴿وَأَمْنًا﴾ يَأْمَنُون به؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

ثُمَّ أَمَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن نتَّخِذَ من مَقَام إبراهيمَ مُصَلًّى، ومقامُ إبراهيمَ مَعْرُوفٌ شرقيَّ الكَعْبَة المُعظَّمة، وسُمِّي: مَقَامًا؛ لأَنَّهُ قَامَ عليه حين بِنَاء الكَعْبَة، لَمَّا ارتفع البناءُ وَضَعَ هذا الحَجَرَ، فصار يَرْتَفِعُ عليه؛ من أجل إِتْمَام البِنَاء، وما زال هذا المقامُ مَحْفُوظًا إلى يَوْمِنا هذا.

وقَوْلُهُ: ﴿مُصَلًّى﴾ أي: مكانًا للصَّلَاة، وقد فَسَّر النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ذلك بفِعْلِه حينما انتهى من طَوَاف القُدُوم، فتَقَدَّم إلى مقامِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقرأ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة، رقم (٦٧٣) من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، فصلَّى خَلْفَ المقامِ رَكْعَتَيْنِ[١].

وبيَّنَ اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيَة أَنَّهُ عَهِدَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ، أي: عَهِدَ عَهْدًا أَلْقَاهُ إلى إبراهيمَ وابْنِهِ إسماعيلَ عليهما الصَّلاة والسَّلام.

وإسماعيلُ هو أَكْبَرُ أَوْلَاد إبراهيمَ، وهو من سُرِّيَّته هَاجَر، وقد أَبْقَى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إسماعيلَ وأُمَّه في هذا المكان حتَّى شَبَّ، وكَبِر، وأَتَاه الأولادُ الَّذِينَ هم العَرَب المُسْتَعْرِبة، فكان إسماعيلُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع أَبِيهِ في هذا المكان، فأَمَرَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يُطَهِّر بَيْتَه للطَّائِفين، والعَاكِفين، والرُّكَّع السُّجُود، فقال: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، وسيأتي ذِكْرُ بِنَاءِ إبراهيمَ وإسماعيلَ للكَعْبَة المُعَظَّمة.

وقَوْلُهُ: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي: الطَّائفينَ بهذا البَيْت ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾ أي: في المَسْجِد ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: المُصَلِّين، وإنَّما بدأ بالطَّائِفين؛ لأنَّهم أخصُّ بهذا المَكَان؛ فإنَّ الطَّواف لا يصحُّ إلَّا في الكَعْبَة، ولا يُشْرَع إلَّا بالكَعْبَة، ثُمَّ ثَنَّى بالعَاكِفين؛ لأنَّهم أخصُّ من المُصَلِّين، فإنَّ الاعْتِكَاف لا يَكُونُ إلَّا في المساجد، فلا يَكُون في كُلِّ أرضٍ، ثُمَّ ثَلَّث بالرُّكَّع السُّجُود -أي: المُصَلِّين- لأنَّ ذلك أَعَمُّ؛ فإنَّ الصَّلاة تصحُّ في كُلِّ مكانٍ من الأَرْض إلَّا ما اسْتُثْنِي من ذلك، قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨) من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد، رقم (٥٢١) من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

وذَكَر الرُّكُوع والسُّجُود؛ لأنَّهما رُكْنان من أَرْكَان الصَّلاة، قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم للرَّجُل الَّذي صلَّى، ولكنَّه لم يَطْمَئِنَّ في صَلَاته: «**ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا**»[1].

فوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- أنَّ الله تعالى جعَلَ البَيْتَ مَثَابةً للنَّاس وأَمْنًا، أي: مَرْجِعًا لهم وأَمْنًا، ومن ذلك: أنَّهم يتردَّدُون إليه في كُلِّ مَوْسِم حجٍّ، وفي غَيْر مَوْسِم الحجِّ، فأَفْئِدَة النَّاس تَهْوِي إلى هذا المكان للحَجِّ، والعُمْرَة، وغَيْرِهما من الطَّاعَات.

٢- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أنَّ مَكَّة بلدٌ آمِنٌ، وقد ثبت في الصَّحِيحَيْن وغيرهما عن رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قال: «**إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً**»[2]، ولم يحلَّ القِتَالُ في مكَّة لأحدٍ إلَّا لرَسُول الله ﷺ حين الفَتْح فقط، فهي لم تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلَه، ولن تَحِلَّ لأحدٍ بعده، ولهذا يَحْرُمُ القِتَال في مكَّة المُكَرَّمة إلَّا على سبيل الدِّفَاع عن النَّفْس؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة:١٩١].

٣- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: الأمرُ باتِّخَاذ مُصَلًّى من مَقَام إِبْرَاهيم، وقد بيَّنَّا أنَّ النبيَّ ﷺ بيَّن ذلك بكَوْنِه صلَّى خَلْفَ المقام رَكْعَتَيْن، وقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٥٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة، رقم (١٣٥٤/ ٤٤٦) من حديث أبي شريح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

واختلف العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في وُجُوب هَاتَيْن الرَّكْعَتين، فمنهم مَن قال: إنَّهما وَاجِبَتان؛ لأنَّ الله تعالى أَمَر بهما، وبيَّنهما النبيُّ ﷺ بفِعْله، والأصلُ في الأمرِ الوُجُوب، ومنهم مَنْ قال: إنَّهما سُنَّةٌ؛ لأنَّهما من تَوَابع الطَّوَاف.

والمشروعُ في هاتَيْن الرَّكْعَتين: أن يُخَفِّفَهما، وألَّا يَمْكُث بعدهما عند المَقَام، وأن يَقْرَأ فيهما في الرَّكْعَة الأُولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الرَّكْعَة الثَّانية بعد الفاتحة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وبهذا نَعْرِف أنَّ ما يفعله بَعْضُ النَّاس من التَّطوُّع خَلْفَ المقام من غَيْر طوافٍ، أو التَّطوُّع بأكثرَ من رَكْعَتَين، أو إِطَالة الرَّكْعَتَين، أو الجُلُوس بعدهما في هذا المكان لقراءة القُرْآن، أو للذِّكْر، أو للدُّعاء، أنَّه غَيْرُ مَشْرُوع؛ لأنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أَحْرَصُ النَّاس على الخير بلا شَكٍّ، ومع ذلك فقد صلَّى خَلْفَ المقام رَكْعَتَين خَفيفَتَيْن، ثُمَّ انْصَرَف، ولأنَّ هذا المكانَ يَخْتَصُّ بالطَّائفين الَّذِينَ يُصَلُّون رَكْعَتين، فكَوْنُ الإِنْسَان يَبْقَى فيه بدون سببٍ شرعيٍّ فيه شيءٌ من الجِنَايَة على غَيْره.

ولكن لو سَأَلَنا سائلٌ: إذا كان المطاف مُزْدَحمًا، وكان الطَّائِفُون يَطُوفون من وراء مَقَام إبراهيمَ، فهل للإِنْسَان الحقُّ أن يُصَلِّي رَكْعَتَيْن بين الطَّائفين، فيُعِيق سَيْرَهم ويُؤْذِيهم، أو ليس له الحقُّ في ذلك؟

الجواب: أنَّهُ ليس له الحقُّ في ذلك؛ لأنَّ حقَّ الطَّائفين أَوْلَى بالمُرَاعَاة من حقِّ المُصَلِّي؛ إذ إنَّ المُصَلِّي يُمْكِنه أن يُصَلِّي بعيدًا عن مكان الطَّوَاف، فيُصَلِّي رَكْعَتَيْن، ويَجْعَلُ المَقَام بَيْنَه وبين البَيْت، ولو كان في آخِرِ صَحْنِ المَطَاف، بل ولو كان تحت السَّقْف، لكن الطَّائف ليس له إلَّا هذا المكانُ.

وبهذا نَعْرِف خطأَ مَن يفعلون هذا الفعلَ، تَجِدُهم يُصَلُّون خَلْفَ المقام مع ازْدِحَام المطاف، واحْتِيَاجِ النَّاس إلى الطَّوَاف، فمثلُ هَؤُلاءِ لا حقَّ لهم في هذا المكان ما دام الطَّائِفُون مُحْتَاجِين إليه.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: تَعْلِيَة شَأْن إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث أَمَرَنا اللهُ تعالى أن نتَّخِذَ من مَقَامِه مُصَلًّى، وهذا من جُمْلَة ما يترتَّبُ على الإمامَةِ الَّتي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الله عَهِدَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -أي: وَصَّى إليهما، وأَمَرَهما- أن يُطَهِّرا بَيْتَه للطَّائفين، والعَاكِفين، والرُّكَّع السُّجُود.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: فضيلةُ إبراهيمَ وإسماعيلَ؛ حيث وُكِّلَ إليهما هذا الأمرُ العظيمُ.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: فَضِيلَةُ الطَّوَاف؛ لقَوْلِهِ: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾، ولا شَكَّ أنَّ الطَّوَاف من الأَعْمال الجَلِيلَة الفَاضِلَة، ولهذا كان رُكْنًا في الحَجِّ والعُمْرَة، فلَا يَتِمُّ حَجُّ الإِنْسَان ولا عُمْرَتُه إلَّا أن يَطُوف بالبَيْت.

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوب تَطْهِيرِ البَيْت للطَّائِفين، والعَاكِفين، والرُّكَّع السُّجُود، وتَطْهيرُ البَيْت يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَين: تطهيرٍ مَعْنَوِيٍّ، وتطهيرٍ حِسِّيٍّ.

أمَّا التَّطْهِيرُ المَعْنَوِيُّ فأن يُطَهَّر من الشِّرْك والمَعَاصِي، وذلك لأنَّ الشِّرْكَ نَجاسةٌ؛ كما قَال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]، فلا يَجُوز أن يُمَكَّن أحدٌ في هذا البيت من الإشراكِ بالله عَزَّوَجَلَّ، مثلُ: أن يَدْعُو نبيًّا، أو وَلِيًّا، أو مَلَكًا،

أو غَيْرهم من دُون الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ الله لا يَغْفِر أن يُشْرَك به، ويغفرُ ما دُون ذلك لِمَن يَشَاء، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾، فنَهَى أن يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ فَضْلًا عن أن يَكُونُوا في البيتِ الحَرَام.

والطَّهَارة الحِسِّيَّة: أن يُطَهَّر من الأَقْذَارِ: من البَوْل، والغَائِط، والدَّم، وما أشبه ذلك من الأشياءِ النَّجِسَة، فالواجبُ أن يُطَهَّر منها.

وهذا الحكم -أعني: التَّطْهِيرَ من النَّجَاسة الحِسِّيَّة- ثابتٌ للمَسْجِد الحَرَام ولغَيْرِه من المَسَاجِد، ولهذا لمَّا بال الأعرابيُّ في مَسْجِد النَّبي ﷺ في المَدِينَة أَمَرَ النبيُّ ﷺ بذَنُوبٍ من ماءٍ، فأُهرِيقَ عليه(١).

٩- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: الإِشارةُ إلى أنَّ المَشْرُوع للطَّائِف أن يَكُون مُتَطَهِّرًا؛ لأَنَّهُ إذا أُمِرَ بتَطْهِير البَيْتِ من أَجْلِه فتَطْهِيرُهُ بنَفْسِه وتَطْهِيرُ ما لَبِسَه من الثِّيَاب من باب أَوْلَى، فالمَشْرُوع للطَّائِف أن يَكُون طَاهِرًا من الأَنْجَاس، كما أنَّ المَشْرُوع له أن يَكُون طَاهِرًا من الأَحْدَاث، فلا يَطُوفُ وهو مُحْدِثٌ حَدَثًا أَصْغَر أو أَكْبَر.

ولهذا اختَلَفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ على قَوْلَيْن في هذه المَسْأَلَة: لو طاف وعليه حَدَثٌ أَصْغَرُ فهل يصحُّ طَوَافُه، أو لا؟ اختار شيخُ الإِسْلَام ابنُ تَيْمية رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ طَوَافَه صحيحٌ(٢)، وقال أكثرُ أَهْل العِلْمِ: إنَّ طَوَافَه غيْرُ صحيحٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم (٢٢١)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول، رقم (٢٨٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه البخاري في الموضع السابق، رقم (٢٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/ ٢٧٣).

١٠- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: فَضِيلَة الاعْتِكَاف؛ حيث أُمِرَ أن يُطَهَّر البيتُ من أجل العَاكِفين.

١١- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: مَشْرُوعيَّة الاعْتِكَاف في المَسْجِد الحَرَام؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾، وهذا أَمْرٌ لا إِشْكَالَ فيه، وقد قال عُمَر: يا رَسُولَ الله! إنِّي نَذَرْتُ في الجاهليَّةِ أن أَعْتكِفَ ليلةً في المسجدِ الحرامِ، قال: «**فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ**»[1].

١٢- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: فَضِيلةُ الرُّكُوع والسُّجُود، حيث عبَّر بهما عن الصَّلاةِ كَاملةً، قال أهلُ العِلْمِ: وإذا عبَّر اللهُ عن العِبَادة ببَعْضِها دلَّ على وُجُوب هذا البَعْضِ فيها، وقد بيَّنَّا أنَّ الرُّكُوعَ والسُّجُودَ مِن أَرْكَان الصَّلاةِ.

وحَدُّ الرُّكُوع: أن يَحْنِيَ القائمُ ظَهْرَه، بحيث يَكُونُ إلى الرُّكُوع التَّامِّ أقربَ منه إلى القِيَام التَّامِّ، وقيل: حدُّهُ: أن يَنْحَنِيَ بحيث يُمْكِنُه مسُّ رُكْبَتَيْه إذا كان مُعْتَدِل اليَدَيْن، لا طَويلَهُما ولا قَصِيرَهما.

وأمَّا السُّجُود فقد بيَّنَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أنَّهُ لابُدَّ من السُّجُود على أَعْضَاءٍ سَبْعةٍ، فقال: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: الْجَبْهَةِ -وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ- وَالْيَدَيْنِ، وَالرِّجْلَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب إذا نذر في الجاهلية أن يعتكف ثُمَّ أسلم، رقم (٢٠٤٣)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب نذر الكافر، رقم (١٦٥٦) من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب السجود على الأنف، رقم (٨١٢)، ومسلم: كتاب الصَّلاة، باب أعضاء السجود، رقم (٤٩٠) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

١٣- ومن فَوائِدها وأحْكَامها: أنَّ تَطْهيرَ المَسَاجِد من فُرُوض الكِفَايَة؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾، فوَجَّه الأَمْرَ إليهما، وإن كان هذا الحُكْمُ قد يَكُون مَأْخُذُه من هذه الآيَة الكَرِيمَة ضَعِيفًا، لكن يُؤْخَذ وُجُوب تَطْهِير المَسَاجِد من الأَذَى والقَذَر من أَمْرِ النبيِّ ﷺ الصَّحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أن يُرِيقُوا على بَوْلِ الأعرابيِّ الَّذي بَالَ في المَسْجِد ذَنُوبًا من ماءٍ[1]، أي: دَلْوًا من ماءٍ، فإنَّ هذا يدلُّ على الوُجُوب، وعلى أَنَّهُ وُجُوبٌ كِفَائِيٌّ.

وعلى هذا فإذا رَأَيْتَ في المَسْجِد قَذَرًا فأَزِلْه إن أَمْكَنَك، فإن لم يُمْكِنْك وَجَبَ عليك أن تُبَلِّغ مَنْ عليه تَطْهيرُهُ.

• • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بمَحْذُوفٍ كسابِقَيْه، والتَّقْدِيرُ: واذْكُر إذ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، ففي هذه الآيَة الكَرِيمَة يَأْمُرُ اللهُ نبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أن يُذَكِّرَ النَّاس ويُبَلِّغَهم ما قَالَهُ إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الدُّعَاء للبَيْتِ الحَرَام وأَهْلِه؛ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي: آمِنًا من كُلِّ خَوْفٍ، ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: أَعْطِهِم من الثَّمَرَات، أي: ثَمَرَات الأَشْجَار من النَّخِيل والأَعْنَاب وغَيْرِها.

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٤٠٢).

وإنَّما سَأَلَ إبراهيمُ ذلك؛ لأنَّ مَكَّةَ بَلَدٌ غَيْرُ ذي زَرْعٍ، فسَأَلَ إبراهيمُ ربَّهُ أن يَرْزُقَهم من الثَّمَرات، فأَجابَ اللهُ دُعاءَه كما بيَّنَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقَوْلِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وقال في آيةٍ أُخْرَى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧].

ولكنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَيَّدَ ذلك بقَوْلِه: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، وهذا من تَمام أَدَبِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أنَّهُ سَأَلَ اللهَ أن يَرْزُق أَهْلَ هذا البَيْتِ من الثَّمَرات مَن آمَنَ منهم بالله واليومِ الآخِرِ، وذلك تَأَدُّبًا من قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، حيث قال في الأَوَّل حين قال اللهُ له: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، فأَطْلَقَ إبراهيمُ بسُؤَال الإمامَةِ، ولكنَّ الله قَيَّدها بأنَّها خَاصَّة بمَن ليس بظَالِمٍ، فهنا قال إبراهيمُ: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بَيَّن أن رِزْقَه لأهل هذا البَيْت يَشْمَلُ، قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يعني: وأُعْطِي مَن كَفَـرَ من الخَيْرات الَّتي تُجْبَى إلى هذا البَلَد، أعني: مَكَّـةَ، ولكـن مَن كَفَرَ ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أُمَتِّعُه في هذه الدُّنْيا بما أُعْطِيه من الثَّمَرات والخَيْرات، لكنَّه مَتاعٌ قَلِيلٌ؛ إذ إنَّ الدُّنْيا كُلَّها فانيةٌ تَمْضِي لَحْظَةً فلَحْظَةً، ولا يَدْرِي الإنْسَانُ إلَّا وقد بَلَغَ الأجلُ، وحلَّ به الموتُ، فهي مَهْما طَالَت بالإِنْسَان قليلةٌ.

ثُمَّ إنَّ الدُّنْيَا إذا طَالَت بالإِنْسَان، ومُدَّ له في الأَجَلِ، فإنَّهُ يَرْجِعُ إلى أَرْذَل العُمُر، وقد قال الشَّاعِرُ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ[(١)]

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ يعني: أَدْفَعُه مُضْطَرًّا إلى عَذَاب النَّارِ يَوْمَ القِيَامَة، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور:١٣]، فهُمْ -والعِيَاذُ بالله- يُدْفَعون دَفْعًا، وكأنَّهم إذا شَاهَدُوا النَّار يَتَلَكَّؤُون، ولا يَنْطِلُقون، فيُدَعُّون إلى نارِ جهنَّمَ دعًّا، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا قَدْحٌ وثَنَاء بالشَّرِّ على مصيرِ أهلِ النَّار، نسأَلُ اللهَ العافيةَ.

فَوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- نُصْحُ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للبَلَدِ مَكَّةَ؛ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وقد اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَتَه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥].

٢- ومن فَوَائِدِها وأَحْكَامها: أنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سَأَلَ اللهَ تعالى أن يَرْزُقَ أَهْلَه من الثَّمَرَات مَن آمَنَ منهم باللهِ واليومِ الآخِرِ، فسَأَلَ شَيْئَيْن: الأَمْنَ، ورَغَدَ العَيْش، فأجابَ اللهُ دَعْوَتَه أيضًا، فكانت مكَّةُ -وإن لم تكن بلدًا زِرَاعيًّا- تُجْبَى إليها ثَمَرَات كُلِّ شيءٍ من كُلِّ قُطْرٍ، فأَهْلُها آمِنُون، وبالعَيْشِ رَاغِدُون، فكان يَجِبُ عليهم من طَاعَة اللهِ أكثرُ ممَّا يجبُ على غَيْرِهم؛ شُكْرًا للهِ تعالى على هذه النِّعْمَة.

---

(١) لم أجده منسوبًا لقائل مُعَيَّن، وهو من شواهد أوضح المسالك (١/ ٢٤٢)، وشرح الأشموني (١/ ٣٦٦)، وهمع الهوامع (١/ ٣٧٢).

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: حُسْنُ أَدَب إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقَوْلِه: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الإيمانَ باللهِ واليومِ الآخِرِ من أَسْبَاب الرِّزْق والأَمْن، وكُلَّما كان الإِنْسَانُ أَقْوى إيمانًا بالله واليَوْمِ الآخِرِ كان أَكْثَرَ أَمْنًا، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ اللهَ تعالى قد يُعْطِي السَّائِلَ أكثرَ ممَّا سَأَلَ؛ لِحِكْمَةٍ تَقْتَضِي ذلك، فإبراهيمُ سَأَلَ أن يَرْزُق اللهُ أَهْلَه من الثَّمَرات مَن آمَنَ منهم بالله واليومِ الآخِرِ، ولكنَّ الله قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.

وهنا قد يَرِدُ إشكالٌ: هل قَوْلُهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يَقْتَضِي إِقْرَارَ الكافرِ على كُفْرِه في مَكَّةَ، أو لا؟ والجواب: لا يَقْتَضِي ذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨].

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ الرِّزْق للكَافِر، فالكَافِرُ رِزْقُه من الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّه مَسْؤُول عن هذا الرِّزْق يومَ القِيَامة مُحَاسَبٌ عليه، قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٩٣]؛ فالكَافِرُ -وإن نَعِمَ برِزْقِ الله- مُحَاسَبٌ على هذا الرِّزْق يومَ القِيَامَة.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الدُّنْيَا -وإن طَالَت- فمَتَاعُها قَلِيلٌ؛ لقول الله تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾، وفي الحَدِيث عن النَّبي ﷺ أَنَّهُ قال: «وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عليهَا»[1].

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ أَهْلَ النَّار يُضْطَرُّون إلى دُخُولها اضطرارًا، ويُدْفَعُون إليها دفْعًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾.

٩- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إِثْبَاتُ النَّار، وأنَّها جزاءٌ للكَافِـرين؛ لقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾.

١٠- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الثَّنَاءُ بالشَّرِّ على النَّار ومَن كانت مَصِيرًا له؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، نَسْأَلُ الله تعالى أن يُجِيرَنا وإيَّاكم من النَّار، وأن يُدْخِلَنا الجَنَّة دارَ القَرَار؛ إنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

• • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

إبراهيمُ هو خَلِيلُ الرَّحْمَن عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أبو الأَنْبِيَاء بعد نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]، أمَّا ابْنُهُ إسماعيلُ فهو أَبُو العَرَب، ومِن سُلَالَتِه خاتمُ الأنبياءِ مُحَمَّد ﷺ.

و﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾ أَسَاسُ البُنْيَان ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ البَيْتُ هنا هو الكَعْبَةُ، رَفَعَا القواعِدَ

(١) تقدم تخريجه (ص:٢٧٥).

وهما يقُولَان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ لأنَّ العَمَلَ إذا لم يُقْبَل صار تَعَبًا وضَيَاعًا.

فوائِد وأحْكام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- فَضْلُ إبراهيمَ وإسماعيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ حيث رَفَعَا قَوَاعِدَ هذا البَيْتِ الَّذي أَضَافَه اللهُ تعالى إلى نَفْسِه في قَوْلِهِ: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: تَوَاضُعُ الأنبياءِ لشَرِيعَة الله عَزَّوَجَلَّ، وتَعْظِيمُهم لحُرُماته؛ حيث بَنَى إبراهيمُ وابنُهُ إسماعيلُ هذا البَيْتَ؛ تَوَاضُعًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، وتَعْظِيمًا لحُرُماته.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ كُلَّ أحد مَهْمَا عَظُمَت دَرَجتُهُ وعَلَت مَنْزِلَتُهُ مُفْتَقِرٌ إلى ربِّه، وإلى قَبُولِه جَلَّ وَعَلَا؛ لقول إِبْرَاهيمَ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: طَرْدُ العُجْبِ من النَّفْس، فلا يَقُول الإِنْسَان: أنا عَمِلْتُ، أنا فَعَلْتُ، أنا قُلْتُ، بل يَعْمَل العملَ، وهو مُفْتَقِرٌ إلى ربِّه عَزَّوَجَلَّ في قَبُولِه.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الشَّأْنَ كُلَّ الشَّأْن في قَبُول العَمَل، لا في نَفْسِ العَمَل، وإذا كان كذلك فإنَّهُ يَنْبَنِي على هذا أَنَّهُ يَنْبَغِي للإِنْسَان أن يَحْرِص على ما يَكُونُ به القَبُول، وهو الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، والمُتَابَعَةُ لشَرِيعَتِه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوبُ الإيمانِ بهَذَيْن الاسْمَيْن الكَرِيمين من

أسماء الله، وهما: (السَّمِيع) و(العَلِيمُ)، السَّمِيع لكلِّ مَسْمُوع مهما خَفيَ، والعليمُ بكُلِّ معلومٍ مهما تَباعَد.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ صِفَتَي السَّمْعِ والعِلْمِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ السَّمِيعَ والعَلِيمَ اسمان مُشْتَقَّان من السَّمْع والعِلْمِ، فلابُدَّ أن يَتَضَمَّنَا هذه الصِّفَةَ، ولا نقول كما قال أَهْلُ البِدَع: إنَّه سَمِيعٌ بلا سَمْعٍ، وعَلِيمٌ بلا عِلْمٍ.

وسَمْعُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يَنْقَسِم إلى قِسْمَين: سَمْعٌ بمعنى الإِجابَةِ، وسَمْعٌ بمعنى إِدْرَاك الصَّوْتِ وإنْ خَفِيَ، فمن الأوَّل: قَوْلُهُ تعالى عن إبراهيمَ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، أي: لَمُجِيبُ الدُّعَاء، وقَوْلُ المُصَلِّي: «سمع اللهُ لِمَن حَمِدَه» أي: اسْتَجَاب لِمَن حَمِدَه، ومن الثَّانِي -أي: إِدْرَاك الصَّوْت- قَوْلُهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، أمَّا في هذه الآيَة في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فتَحْتَمِلُ المعنيين جميعًا، أي: تَحْتَمِل سَمْعَ الصَّوْت، وسَمْعَ الإِجابَةِ.

هذا وقد قسَّم العُلَماءُ سَمْعَ الصَّوْت بحسب ما يَقْتَضِيه السِّيَاق إلى عامٍّ وخاصٍّ، فالعامُّ: هو الَّذي يَتَضَمَّنه هذا الاسْمُ الكَرِيمُ في القُرْآن أو في غَيْرِهِ، ومُقْتَضَاه: إدراكُ كُلِّ صوتٍ مهما خَفِيَ، ولهذا لَمَّا نَزَلَت هذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ الآية [المجادلة:١]، قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الحمدُ لله الَّذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ، لقد جاءت المُجَادِلَة إلى النبي ﷺ وأنا في ناحِيَة البيت تَشْكُو زوجها، وما أَسْمَعُ ما تَقُولُ»(١).

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٩٠)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨)، وأحمد (٦/ ٤٦).

وأمَّا السَّمْعُ الخاصُّ فمُقْتَضاه: النَّصْرُ والتَّأْييد، مثلُ قَوْلِه تعالى لموسى وهارُونَ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

أمَّا العَلِيم فهو -كما أسلفنا- مُتَضَمِّنٌ لصِفَة العِلْم، وعِلْمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ لم يُسْبَق بجَهْلٍ، ولا يَلْحَقُه نِسْيَانٌ، قال موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لفِرْعَون حين سأله: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢]، واللهُ عَزَّوَجَلَّ وَاسِعُ العِلم، عليمٌ بكُلِّ شيءٍ جُمْلَةً وتفصيلًا، أَزَلًا وأَبَدًا، فلم يَسْبِق عِلْمَه جهلٌ، ولا يَلْحَقُه نسيانٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد جاء ذِكْرُ العِلْم جُمْلَةً وتفصيلًا، فمن التَّفْصِيل: قولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

ولكن ما الَّذي نَسْتَفيدُه من هَذَيْن الاسْمَيْن الكَرِيمين: السَّمِيع، والعَلِيم؟

الجوابُ: نَسْتَفيدُ من النَّاحِيَة المَسْلَكيَّة فائدةً، وهي أن نَحْذَرَ من أن نَتَكَلَّم بما لا يُرْضِي اللهَ؛ لأَنَّنا إن تَكَلَّمْنا سَمِعَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ونَحْذَرَ من أن نُضْمِرَ في نُفُوسِنا أو نَعْمَل بجَوَارِحنا ما لا يُرْضِي اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنَّا؛ لأَنَّهُ سوف يَعْلَمُه، ثُمَّ يُنَبِّئُنا بما عَمِلْنا يومَ القِيامَة.

• • ● • •

ثُمَّ يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في ذِكْرِ ما قَالَهُ إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ وهُمَا يَرْفَعَان القَوَاعِدَ من البَيْتِ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أي: مُنْقَادَيْن لأَمْرِك على وَجْهِ الإِخلاصِ لك؛ لأنَّ الإِسْلامَ للهِ يتضمَّنُ الإِخلاصَ له، والانْقِيادَ لأَمْرِه جَلَّ وَعَلَا، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ يعني: واجْعَلْ من ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لك، وهي أُمَّة مُحَمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؛ لأنَّها هي الأُمَّة الَّتي يَصْدُق عليها أنَّها من ذُرِّيَّة إبراهيمَ وإسماعيلَ، أمَّا بنو إسرائيلَ فهم من ذُرِّيَّة إبراهيمَ، ولكنَّهم ليسُوا من ذُرِّيَّة إسماعيلَ، بل هم بَنُو عمِّهم.

وقولُهُ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: مَوَاضِعَ نُسُكِنَا، أَلْهِمْنا إيَّاها حتَّى نَراها ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، ومعنى التَّوْبَة من الله على عِبادِه: أن يُوَفِّقَهم للتَّوْبَة أوَّلًا، ثُمَّ لِقَبُولِها ثانيًا، والتَّوبَةُ في الأَصْلِ: الرُّجُوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ التَّوَّاب: كَثِيرُ التَّوْبَة على عِبَاده مهما عَظُمت ذُنُوبُهم؛ لقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فقد نَزَلَت هذه الآيَةُ في التَّائِبين.

والتَّوْبَةُ من الذُّنُوب -مهما عَظُمَت الذُّنُوب- تَهْدِم ما قَبْلَها؛ لقَوْلِ النَّبي ﷺ: «**التَّوْبَةُ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا**»، أو قال: «**تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا**»[1].

والتَّوْبَةُ تكُون من أَعْظَم الذُّنُوب في حقِّ الله، وفي حقِّ العِبَاد، وتُقْبَل، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ

(١) لم أجد هذا الحديث بهذا اللفظ، قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السلسلة الضعيفة (٣/ ١٤١): «لا أعرف له أصلًا».

حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ [الفرقان:٦٨-٧١]، والرَّحِيمُ: ذو الرَّحْمَة الَّتي بها حُصُول النِّعَم، وانْدِفَاعُ النِّقَم.

فوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- أنَّ كُلَّ أحدٍ مُحْتَاجٌ إلى ربِّه عَزَّوَجَلَّ، بل مُضْطَرٌّ إليه في أن يُوَفِّقَه للاسْتِسْلَام له ظَاهِرًا وبَاطِنًا؛ لقول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وابْنِهِ إسماعيلَ: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الدَّاعِيَ إذا اسْتَمَع إليه مَن يُؤَمِّن على دُعَائِه فإنَّ الدُّعَاء يَكُون لهما جَمِيعًا؛ لأنَّ الظَّاهرَ أنَّ الَّذي يَدْعُو إبراهيمُ، وإسماعيلَ يُؤَمِّن، والمُسْتَمِعُ المُؤَمِّن معَ الدَّاعي كالدَّاعي تمامًا، ودَلِيلُ ذلك: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس:٨٨-٨٩]، فقال تعالى: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾، مع أنَّ الدَّاعِيَ مُوسى، قال العلماءُ رحمهم الله: لأنَّ مُوسى يَدْعُو، وهَارُون يُؤَمِّن.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: فَضْلُ إبراهيمَ وإسماعيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ على هذه الأُمَّةِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَنَّهُ يَنْبَغِي للإنسان أن يَسْأَلَ اللهَ لَهُ عَقِبًا صَالِحًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾، وهذا كقَوْلِ إبراهيمَ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم:٤٠].

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ كُلَّ إنسانٍ -مَهْمَا عَظُمت دَرَجَتُهُ، وعَلَت مَرْتَبَتُه- مُفْتَقِرٌ إلى عِلْمِ الله له؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَهَمِّيَّة مَعْرِفَة مَوْضِع العِبَادَة إذا كانت العِبَادَة مُقيَّدةً بمكانٍ مُعَيَّن، وكذلك أَهَمِّيَّة مَعْرِفة وقت العِبَادَة إذا كانت مُقَيَّدةً بوقتٍ مُعَيَّن.

وينبني على هذا: أنَّهُ يَنْبَغِي أن نَعْتَنِي بمَعْرِفَة أوقات الصَّلَوَات الخَمْسِ حتَّى نُؤَدِّيَها في الوَقْتِ الَّذي حدَّدَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لعِبَادِه؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء:١٠٣].

ومن ثَمَّ أُحَذِّرُ إخواننا المُؤَذِّنين من أن يُؤَذِّنُوا قبل دُخُول وَقْتِ الصَّلاةِ، أولًا: لأنَّ الأَذَانَ إِعْلَامٌ بدُخُول وَقْتِ الصَّلاةِ، والأَذَانُ قبل دُخُول وَقْتِها لا يصحُّ أن يَكُون إعلامًا بدُخُول الوَقْت.

وثانيًا: أنَّهم إذا أَذَّنُوا فرُبَّما يتعَجَّل أحدٌ في البُيُوت من النِّسَاء أو من الرِّجَال الَّذِينَ لا تَلْزَمُهم صلاةُ الجَمَاعَة لعُذْرٍ شرعيٍّ، فيُصَلُّون فَوْرَ انْتِهَاء المُؤَذِّن من أَذَانِه، وتكونُ صَلَاتُهم قبل دُخُول الوَقْتِ، ومن المَعْلُومِ أنَّ الإِنْسَان لو كَبَّر تكبيرةَ الإِحرامِ قبل دُخُول الوَقْتِ، ثمَّ أَتَمَّ الصَّلاةَ بعد دُخُوله، فإنَّ صَلَاتَه لا تصحُّ، يعني: لو تَقَدَّمت الصَّلاةُ بتَكْبِيرَة الإِحرام فقط قبل دُخُول الوَقْتِ فإنَّها لا تصحُّ.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ كُلَّ إنسانٍ -مهما عَلَت مَنْزِلَتُهُ، وارْتَفَعَتْ دَرَجَتُه- مُفْتَقِرٌ إلى تَوْبَةِ الله عَزَّوَجَلَّ عليه؛ لقَوْلِ إبراهيمَ: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآ﴾، وقد مَنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بتَوْبَتِه عليه، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ

وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة:١١٧].

والتَّوْبَةُ: هي الرُّجُوعُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ من مَعْصِيَتِه إلى طَاعَتِه، ولابُدَّ فيها من شُرُوطٍ خَمْسَةٍ:

الأَوَّلُ: الإخلاصُ للهِ، بألَّا يَحْمِلَه على التَّوْبَة إلَّا رِضَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وابْتِغاءُ ثَوَابِه، فلا يَحْمِلُه عليها خَوْفٌ من سُلْطَانٍ أو من أُنَاسٍ.

والثَّاني: النَّدَمُ على ما فَعَلَ من المَعْصِيَة.

والثَّالِثُ: الإقلاعُ عن المَعْصِيَة في الحالِ.

والرَّابعُ: العَزْمُ على ألَّا يَعُودَ في المُسْتَقْبَل.

والخامسُ: أن تكون التَّوبَةُ قبل إغْلَاقِ زَمَن التَّوْبَة، وعلى هذا فلا تصحُّ التَّوْبَةُ إذا حَضَرَ الأجلُ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، ولا تصحُّ التَّوْبَة إذا طَلَعَت الشَّمْسُ من مَغْرِبها؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨].

٨- ومن فَوائِدها وأحْكَامها: التَّوسُّل إلى الله تعالى بأَسْمائِه عند الدُّعَاء؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وهنا قال: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ويَنْبَغِي أن يَكُون التَّوسُّل بالاسمِ المُناسِبِ لِمَا دَعَوْتَ به، فإذا دَعَوْت بالتَّوبَة فتَوَسَّل إلى الله باسمه: (التَّوَّاب)، وإذا دَعَوْت بالمَغْفِرَة فتوَسَّلْ إلى الله باسْمِهِ:

(الغَفُور)، وإذا دَعَوْتَ بطَلَب الرِّزْق فتَوَسَّل باسمه: (الرَّزَّاق)، وما أَشْبَه ذلك.

٩- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ هَذَيْن الاسْمَيْن الكَرِيمين من أسماء الله، وهما: (التَّوَّاب) و(الرَّحِيم).

أمَّا التَّوَّاب فهو الَّذي يَقْبَل التَّوْبَة من عِبَادِه، ويَعْفُو عن السَّيِّئات، وهو الَّذي يُوَفِّق مَن يشاءُ إلى التَّوْبَة، فيَتُوب، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

وأمَّا الرَّحِيمُ فهو ذو الرَّحْمَة العَظِيمَة الوَاسِعَة، قال اللهُ تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقال عن المَلَائِكَة وهم يَدْعُون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

وقد قسَّم العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ رَحْمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ إلى قِسْمَين: رَحْمَةٍ مَخْلُوقَةٍ، ورَحْمَةٍ هي صِفَتُهُ، ومثَّلُوا للرَّحْمَة المَخْلُوقة بقَوْلِه تعالى في الحَدِيث القُدْسِيِّ للجَنَّة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»[(١)]، وأَطْلَقَ عليها اسم رَحْمَتِه؛ لأنَّها محلُّ رَحْمَتِه، ولأنَّها مَقَرُّ عِبَاد الرَّحْمَن، وسَكَنُ الرُّحَمَاء من عِبَادِ الله.

والقِسْمُ الثَّاني: رحمةٌ هي صِفَتُه جَلَّوَعَلَا، وهي غَيْر مَخْلُوقةٍ، فإنَّ جميعَ صِفَات الله غَيْرُ مَخْلُوقة؛ فإنَّ الله تعالى بصِفَاتِه هو الأوَّل الَّذي ليس قَبْلَه شيء، والآخِرُ الَّذي ليس بعده شيءٌ، وهذه تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَين: رحمةٍ عامَّةٍ تَشْمَل جَمِيعَ الخَلْق من مُؤْمِنٍ وكافرٍ، وبَرٍّ وفَاجِرٍ، وعَاقِلٍ وبَهِيمٍ، ورَحْمَةٍ خاصَّةٍ بعِبَادِ الله المُؤْمِنين؛ لقَوْلِ الله

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، ومُقْتضى الرَّحْمة العامَّة: إيجادُ ما به تَقُومُ مَصَالِحُ المَرْحُومين، وتَنْدَفِعُ مضارُّهم.

وأمَّا مُقْتَضى الرَّحْمَة الخاصَّة فهو تَوْفِيقُ هؤلاء، وتَسْدِيدُ أُمُورهم، وإِصْلَاح أَحْوَالهم على وجهٍ أَخَصَّ ممَّا تَقْتَضِيه الرَّحْمَةُ العَامَّةُ.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: في الذُّرِّيَّة، وأَعَاد الضَّمِيرَ إليها بالجمع؛ لأنَّ معناها الجمعُ.

والبَعْثُ والإِرسالُ بمَعْنًى واحدٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو مُحَمَّدٌ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؛ لأَنَّهُ من ذُرِّيَّة إبراهيمَ وإسماعيلَ، وليس في ذُرِّيَّة إسماعيلَ نبيٌّ سوى مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقَوْلُه: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ يَقْرَؤُها عليهم حتَّى يَفْهَمُوها عِلْمًا وفَهْمًا وعَمَلًا، ولهذا قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، الكِتاب الَّذي هو القُرْآنُ، والحِكْمَةَ الَّتي

هي السُّنَّةُ وما تَتَضَمَّنُه أحْكَامُ القُرْآن والسُّنَّة من الحِكَم والأَسْرَار، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يُنَمِّي أَخْلَاقَهم وأَعْمَالَهم، ولهذا كان النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُتَمِّمًا لمكارمِ الأَخْلَاق.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الجُمْلَة هنا جُمْلَة تَوَسُّلِيَّة تَوَسَّلَ بها إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقَبُول ما دعا به وتَحْقِيقِه، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يعني: ذا العِزَّة الكَامِلَة، وهي عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامْتِنَاع، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَهُ هذه الأنواعُ من العِزَّة، فهو ذو قَدْرٍ عظيمٍ، وقَهْرٍ بالغٍ، وامْتِنَاعٍ عن كُلِّ سُوءٍ وعَيْبٍ.

وأمَّا الحَكِيمُ فهو ذو الحِكْمَة والحُكْم، أي: أنَّ الحَكِيمَ من الإِحْكَام، وهو الإِتْقَانُ، ومن الحُكْم.

فَوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- حاجةُ البَشَر إلى الرُّسُل، ولهذا دعا إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يَبْعَث في هذه الذُّرِّيَّة رَسُولًا منهم يَتْلُو عليهم آياتِه، ويُعَلِّمُهم الكِتَابَ والحِكْمَة، ويُزَكِّيهم، وهذا أمرٌ مَعْلُومٌ بالضَّرُورة؛ فإنَّ العُقُول مهما كَبُرت لا يُمْكِنُ أن تَسْتَقِلَّ بمَعْرِفَة الله تعالى بأَسْمَائه وصِفَاتِه على وجهِ التَّفْصِيل، ولا يُمْكِنُ أن تَتَعَبَّد للهِ تعالى إلَّا بما شَرَعه لعِبَادِه، فهم في أشدِّ الضَّرُورَة إلى الرُّسُل.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ هذا الرَّسُول ﷺ يَتْلُو عليهم آياتِ الله، وقد حَصَلَ ما دَعَا به إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنَّ رَسُول الله ﷺ كان يُعَلِّم أصحابَه القُرْآنَ الكَرِيمَ، ولا يَتَجَاوَزُون عَشْرَ آياتٍ حتَّى يَتَعَلَّموها وما فيها من العِلْمِ والعَمَل[1]، ثُمَّ أَلْقَوا هذا القُرْآنَ الكَرِيمَ إلى مَن بعدهم بكُلِّ ثِقَةٍ وأَمَانةٍ، وهكذا

(١) تقدم تخريجه (ص:١٨).

تَدَاوَلَه المُسْلِمُون إلى يَوْمِنا هذا، ولله الحمدُ، ولم يَجْرُؤ أحدٌ على العُدْوَان على هذا القُرْآن الكَرِيم، وإذا اعْتَدَى وُجِدَ -ولله الحمدُ- مَن يَصُدُّه ويَرُدُّه على عَقِبِه.

٣- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أنَّ ما جاء به الرَّسُول ﷺ آياتٌ، أي: علاماتٌ دَالَّةٌ دلالةً قَطْعِيَّةً على أَنَّهُ نَزَلَ من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى أَنَّهُ شَرْعُ الله.

٤- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: فَضِيلةُ العِلْمِ، وأنَّ رَسُول اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم علَّم أُمَّتَه الكِتَابَ والحِكْمَة، ولهذا لم يَدَعِ النبيُّ ﷺ شيئًا يَحْتَاجُه النَّاسُ في مَعَاشِهم ومَعَادِهم إلَّا علَّمهم إيَّاه، قال أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد تُوُفِّي رَسُول اللهِ ﷺ وما طائرٌ يُقلِّبُ جَنَاحَيْه في السَّماء إلَّا ذَكَرَ لنا منه علمًا[1].

٥- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أنَّ هذه الشَّريعَة جاءت بالحِكْمَة المُطَابِقَة للمَصَالِح، ولهذا كانت مَبْنِيَّةً على جَلْبِ المصالحِ، ودَرْءِ المَفَاسِد.

٦- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: إثباتُ القِيَاس في الشَّريعَة الإِسْلَامِيَّة، إذا كان قِيَاسًا صَحِيحًا، ووَجْهُ ذلك: أنَّ إلحاقَ النَّظِير بنَظِيرِه في الحُكْم من الحِكْمَة، فيكون داخلًا فيما عَلَّمَه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أُمَّتَه، ودلائلُ هذا كثيرةٌ، فكُلُّ مَثَلٍ ضَرَبَه اللهُ في القُرْآن فإنَّهُ دَلِيلٌ على ثُبُوت القِيَاس، وكذلك كُلُّ مَثَلٍ ضَرَبَه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فإنَّهُ دَلِيلٌ على ثُبُوت القِيَاسِ.

وقد كان النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يَذْكُر المَحْسُوس؛ ليُقَاسَ عليه المعقولُ، فعن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ ﷺ، فقال: يا رَسُولَ الله، وُلد لي غلامٌ أسودُ! كأنَّه يُعرِّض بزَوْجَتِه، فقال: «**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**» قال: نعم، قال: «**مَا أَلْوَانُهَا؟**»

(١) تقدم تخريجه (ص:٤١).

قال: حُمْرٌ، قال: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟» والأَوْرَقُ: ما لَوْنُهُ بين السَّوَاد والبَيَاض، قال: نعم، قال: «فَأَنَّى ذَلِكَ؟» قال: لعلَّه نَزَعَهُ عِرْقٌ، قال: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ»[1]، فاقْتَنَعَ الرَّجُل اقْتِنَاعًا كاملًا؛ لأنَّ إِلْحَاق النَّظِير بنَظِيرِه من الحِكْمَة.

لكن أكثر ما يَحْصُل في القِيَاس أَنَّهُ لا يَكُون صحيحًا، حيث يَقِيسُ القائسُ شيئًا على ما لا يُمَاثِلُه، وحينئذٍ يَحْصُلُ الخطأُ، وتَكْثُر مُجَانَبة الصَّوَاب.

٧- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أَنَّ نَبِيَّنا ﷺ بُعِثَ؛ ليُتَمِّم لأُمَّتِه المَكَارِم، ويُنَمِّيَ فيها الفَضَائِل؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، ورُبَّمَا تَشْمَل التَّزْكِيَةُ: التَّعْدِيلَ الَّذي هو ضد الفِسْقِ، وذلك أنَّ مَن تَمَسَّك بهذه الشَّريعَة فإِنَّهُ يَكُون عَدْلًا مَقْبُولًا.

٨- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: إثباتُ التَّوَسُّل إلى الله تعالى بأسمائه، ودُعَائِه بها؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٩- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: إثباتُ هَذَيْن الاسْمَين الكَرِيمين من أسماء الله، وهما: (العَزِيزُ) و(الحَكِيمُ).

١٠- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: إثباتُ العِزَّة والحِكْمَة والحُكْم لله، فأَمَّا العِزَّة فقد سَبَقَ الإِشارةُ إلى أنَّها ثَلاثةُ أنواعٍ:

- عِزَّة قَدْرٍ، وهي أنَّ الله تعالى ذو قَدْرٍ عظيمٍ لا يُمَاثِلُه شيء في قَدْرِه.
- وعِزَّة قَهْرٍ وغَلَبةٍ، وهي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قاهرٌ لكلِّ شيء، غَالبٌ على كُلِّ شيء.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)، ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

▪ وعِزَّة امْتِنَاعٍ، وهي أنَّ الله تعالى يمتنعُ عن كُـلِّ نَقْـصٍ وعيبٍ، قَـال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِـزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

١١ - ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إِثْبَاتُ الحِكْمَة لله، والحِكْمَةُ: هي وَضْعُ الشَّيء في مَوْضِعه اللَّائق به، ثُمَّ هي نَوْعَان:

▪ حِكْمَةٌ في جَعْلِ الشَّيء على صِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ.

▪ وحِكْمَةٌ في الغَايَةِ من هذا الشَّيء.

وتكونُ في الشَّرْع، وتكون في القَدَر، ولنضرب لهذا مَثَلًا بالقَمَر، فقد وَضَعَه الله تعالى في السَّماء، وجَعَلَه مُقَدَّرًا بمَنَازِل، وهذا التَّقديرُ يَخْتَلِف به الحَجْمُ المُضِيءُ من القَمَر، فكَوْنُهُ على هذه الصِّفَة المُعَيَّنة -يَزْدَاد حَجْمُ المُضِيء فيه رُوَيدًا رُوَيدًا حتَّى ينتهيَ، ثُمَّ يَعُود في النَّقْص- هذه حِكْمَة بلا شَكٍّ؛ لأنَّ الإِنْسَان بمُجَرَّد أن يَنْظُر إليه، فيَجِد ضَوْءَه ناقصًا، يعرف أَنَّهُ في الرُّبُع الأوَّل من الشَّهْر مثلًا، وإذا وَجَدَه مُمْتَلِئًا عَرَفَ أَنَّهُ في نصف الشَّهْرِ، وهكذا، ثُمَّ إنَّ الغَايَةَ منه هو أن نَعْرِف عددَ السِّنين والحِسَابَ، فكان هذا حِكْمَةً في كَوْنِ القَمَر على صِفَة مُعَيَّنة، وفي الغَايَة من تَقْدِيره منازِلَ؛ لنَعْلَمَ بذلك عدد السِّنِينَ والحِسَابَ.

كذلك أيضًا في الصَّلاة -وهي شَرْعِيَّة- نجد أنَّ كَوْنَها على هذه الصِّفَة المُعَيَّنة في غَايَة الحِكْمَة: قِيَام للهِ عَزَّوَجَلَّ، وتقرُّبٌ إليه بتِلَاوَة كِتَابه، ومُنَاجَاتِه به، ثُمَّ رُكُوعٌ يُفيد قُوَّة التَّعظِيم للهِ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ قِيَام بعده حتَّى يَخِرَّ الإِنْسَانُ ساجدًا لله عَزَّوَجَلَّ من أَعْلَى انتصابٍ له إلى أَسْفَلِ انْخِفَاضٍ له؛ حيث يَضَعُ أَعْلَى ما في بَدَنِه، وأشرفَ ما في بَدَنِه -وهو الوجهُ- على الأَرْض الَّتي هي مَوْطِئ الأقدامِ، وأسفلُ ما يَكُـونُ مِن

الجِسْمِ؛ تَوَاضُعًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، وتَعْظِيمًا له، ولهذا كان العبدُ إذا سَجَدَ أَقْرَبَ ما يَكُون من ربِّه، ثُمَّ قُعُود بعد ذلك، وهكذا، فكَوْنُ الصَّلاة على هذه الصِّفَة في غَايَة الحِكْمَة.

ثُمَّ إنَّ الثَّمَرَاتِ المَرْجُوَّةَ من هذه الصَّلاة أيضًا حِكْمَة عَظِيمَة، هي حِكْمَة الغَايَة، وحِكْمَة الغَايَة من الصَّلاة هي سَعَادةُ الدُّنْيَا والآخِرَة، قال اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في نَفْعِ الصَّلاة في الأُمُور الكَوْنِيَّة القَدَرِيَّة: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥]، وفي نَفْعِ الصَّلاة في الأُمُور الشَّرْعِيَّة قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، فأنت ترى أنَّ حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ كَائِنَة في الأُمُور في صِفَتِها الَّتي هي عليها، ثُمَّ في الغَايَةِ منها.

١٢- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: إثباتُ الحُكْمِ لله، وأنَّ الحُكْمَ للهِ وَحْدَه، أمَّا كَوْنًا فإنَّهُ لا مُشَارِكَ له في حُكْمِه، ولا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يُشَارِكَ الله في حُكْمِه، فلا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَمْنَع الموتَ إذا حَضَرَ، ولا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَخْلُقَ شيئًا مهما ضَعُفَ، يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

فحُكْمُ الله الكونيُّ لا يُمْكِنُ لأحدٍ مُخَالِفَتُهُ، ولا مُضَادَّتُه، ولا مُعَارَضتُه، ولهذا نجد أنَّ الفَيَضَاناتِ العَظِيمَةَ، والعَوَاصِفَ المُدَمِّرَة، والصَّواعِقَ المُحرِقَة تَنْزِلُ على أَعْظَم دولةٍ وأَقْوَاها صِنَاعةً واقتصادًا وسِلَاحًا، وتُدَمِّر ما شاء اللهُ أن تُدَمِّره، ولا يَمْلِكُون ردَّها.

أَمَّا الحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فإِنَّهُ قد يُغيَّر وقد يُبَدَّل، لكنَّ تَغْيِيرَهُ وتَبْدِيلَهُ اعتداءٌ على حُكْمِ الله عَزَّوَجَلَّ، يَلْقَى جَزاءَهُ مَن بدَّل أو غيَّرَ، ولكن مع ذلك لو بُدِّل أو غُيِّرَ فإِنَّهُ باقٍ، ولاسِيَّما شَرِيعةُ الإِسْلام الَّتي بُعِثَ بها مُحَمَّد ﷺ؛ لأنَّها مَكْتُوب لها البَقَاءُ إلى يوم القِيَامَة، ولهذا يُحَاوِل المُبْطِلُون المُعْتَدون المُلْحِدُون أن يَنالُوا من هذه الشَّرِيعَة، ولكن يُقَيِّض الله لها مَن يَكْبَح جِمَاحَهم، ويَرُدُّ عُدْوَانهم.

إِذَن: الحَكِيمُ من الحُكْمِ، ومن الحِكْمَة، والحِكْمَةُ حِكْمَة الشَّيء على الوَصْفِ الَّذي هو عليه، وحِكْمَةُ الشَّيء في الغَايَة والثَّمَرَة المَرْجُوَّة منه، والحُكْمُ كَوْنِيٌّ وشَرْعِيٌّ، وعلى هذا فيكون الحُكْمُ الكَوْنِيُّ له حِكْمَتَان: حِكْمَة وَصْفٍ، وحِكْمَة غَايَةٍ، والحُكْمُ الشَّرْعِيُّ له حِكْمَتان: حِكْمَة وَصْفٍ، وحِكْمَة غَايَةٍ.

١٣- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّة العَظِيمة، وهي أنَّ الإِنْسَان إذا عَلِمَ أنَّ الله هو العَزِيزُ فإِنَّهُ لن يَسْتَمِدَّ العِزَّةَ إلَّا من عنده عَزَّوَجَلَّ، والعِزَّة المُسْتَمَدَّة من عند الله تكُون بأَمْرَين: بالاسْتِقَامَة على دينه، وبدُعَائِهِ وسُؤَالِه العِزَّةَ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران:٢٦- ٢٧].

١٤- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّة في أنَّ الإِنْسَان يَرْضَى بما قَدَّرَه اللهُ عليه، وبما شَرَعه له؛ لأَنَّهُ يَعْلَم أَنَّهُ مَبْنِيٌّ على الحِكْمَة، فإذا عَلِمْتَ أنَّ

ما قَدَّرَه الله عليك صَادِرٌ عن حِكْمَة فإنَّك سوف تَقْتَنِعُ؛ لأَنَّك تَعْلَم أنَّ الله أَعْلَمُ بمَصَالِحك، وكذلك إذا عَلِمْتَ أنَّ شَرِيعَةَ الله مَبْنِيَّة على الحِكْمَة فإنَّك تَنْقَاد لها، وتَرْضَى بهذه الشَّريعَة، وتَعْلَمُ أنَّها حقٌّ، وأنَّ مُخالَفتها هو السَّفَهُ والباطلُ.

١٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الفَائِدَة المَسْلَكِيَّة في أنَّك إذا عَلِمْتَ أنَّ الحُكْمَ للهِ تعالى كَوْنًا وشرعًا فإنَّك لن تَتَجَاسَرَ على مُخَالَفة أحكَامه الشَّرْعِيَّة، كما أنَّك لن تتمكَّنَ من مُخَالَفة أحْكَامِهِ القَدَرِيَّة، وحينئذٍ تكون مُسْلِمًا للهِ ظاهرًا وباطنًا، كَوْنًا وشَرْعًا.

• • ◦ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

لَمَّا ذَكَرَ الله جَلَّ وَعَلَا ما قَامَ به إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الأَفْعَال الجَلِيلَة، والأَقْوَال الحَمِيدَة، والدَّعَوَات المُسْتَجَابة، والإِخلاص التامِّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ يعني: لا أَحَدَ يرغبُ عن مِلَّة إبراهيمَ -وهي دِينُهُ الَّذي هو عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ يعني: إلَّا من رَضِيَ لها السَّفَهَ، والسَّفَهُ ضدُّ الرُّشْد، وهو -أعني: السَّفَه- التَّصرُّف على وَجْهِ الخَطَأ.

وبَيَّن اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَضْلَه على إبراهيمَ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، فيكون مَن اتَّبَعَ مِلَّته مُصْطَفًى في هذه الدُّنْيَا، ويكون في الآخِرَة من الصَّالحين، كما كان إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- الثَّنَاءُ على مِلَّةِ إبراهيمَ، وهي دِينُـهُ المَبْنِيُّ على الإِخلاص لله، والمُتَابَعَـة لشَرْعِهِ، ولقد أَمَرَ اللهُ نبيَّه ﷺ أن يتَّبعَ ملَّة إبراهيمَ حنيفًا، قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

٢- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أنَّ اتِّبَاعَ مِلَّةِ إبراهيمَ هو العَقْلُ والرُّشْد والصَّلَاحُ.

٣- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أنَّ مَن رَغِبَ عن مِلَّة إبراهيمَ فهو السَّفِيه الَّذي أَوْقَع نَفْسَه في السَّفَهِ، وإذا كان النَّاس يَعُدُّون مَن تَصَرَّف في مَالِهِ خَبْطَ عَشْوَاء سَفِيهًا فإنَّ مَن رَغِبَ عن مِلَّة إبراهيمَ أَسْفَهُ منه.

٤- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: الثَّنَاءُ على إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بكَوْنِ الله تعالى اصْطَفَاه في الدُّنْيَا، ووَعَدَه وأَكَّد أنَّهُ في الآخِرَة من الصَّالِحِين.

٥- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أنَّ طَرِيقَ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومِلَّتَه صَفْوَةُ أَعْمَال الخَلْقِ؛ لأنَّها شَرِيعَةُ الله، ولأنَّها صَادِرَةٌ عمَّن اصْطَفَاه اللهُ، فتكون هي الصَّفْوَةَ من أَعْمَال الخَلْقِ الَّتي لا يَرْغَبُ عنها إلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَه.

٦- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: إثباتُ الآخِرَة، وهي اليومُ الآخِرُ الَّذي يَقُوم فيه النَّاسُ من قُبُورهم للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِيَنَالُوا جَزَاءَ أَعْمالهم، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

٧- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أنَّ الصَّلَاح وَصْفٌ حَمِيدٌ حتَّى للرُّسُـل، فهم -أي: الرُّسُلُ- قِمَّةُ الصَّالحين، وإن كان الصَّلَاحُ قد يَكُون قَسِيمًا للنُّبُوَّة والرِّسَالَة إذا قُـرِنَ معهما في الذِّكْـر، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، لكن إذا ذُكِرَ الصَّلَاح وَحْدَه فهو عامٌّ للجَمِيعِ.

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: جَوَازُ وَصْفِ النَّبي ﷺ بالصَّالِح؛ لقَـوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وفي حَدِيث المِعْرَاج: أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا مرَّ بالنَّبيِّ في السَّمَوَات يقول: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالْأَخِ الصَّالِحِ!» وقال إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالِابْنِ الصَّالِحِ!»[(١)].

•• ⁂ ••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

قولُهُ: ﴿إِذْ﴾ هذه مُتَعَلِّقَة بشيءٍ محذوفٍ، والتَّقْديرُ: اذكر مُنَوِّهًا ومُثْنِيًا على إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي: أَسْلِم للهِ عَزَّ وَجَلَّ إِسْلَامًا شَرْعِيًّا، كما أَنَّهُ مُسْلِم له إسلامًا كَوْنيًّا قَدَريًّا، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فكان الجوابُ جوابَ مُبَادَرةٍ وفَوْرِيَّةٍ، لم يتأخَّر، ولم يَتَوَانَ.

وقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: «أسلمتُ لربِّي»؛ لأنَّ قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أعمُّ وأَشْمَلُ، وهو كالتَّعْلِيل للحُكْم -أي: الإِسْلام- يعني: أَسْلَمتُ لله؛ لأَنَّهُ ربُّ العالمين الَّذي يتصرَّفُ في عِبَادِه كما يَشَاءُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء؟، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٣) من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- فضيلةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث أَضَاف الله رُبُوبيَّته إليه فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ﴾.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: التَّنْويهُ بذِكْرِ إبراهيمَ، وبَيَانِ فَضْلِه، وهذه من عَادَة الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُضيع أَجْرَ مَن أَحْسَنَ عملًا، فإنَّ الله يَرْفَع ذِكْرَ مَن أَحْسَن عملًا بعد مماته، ويُقَيِّض مَن يَبْعَث حَيَاتَه وإن كان مَيِّتًا، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، نسألُ اللهَ تعالى أن يَجْعَل لنا جميعًا نُورًا نَهْتَدي به إليه، وأن يَهَبَ لنا منه رحمةً؛ إنَّهُ هو الوَهَّابُ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أي: بهذه الكَلِمَة العَظِيمة -وهي الإِسْلامُ للهِ عَزَّوَجَلَّ- ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ وَصَّى بها بَنِيه ﴿وَيَعۡقُوبُ﴾ أي: وَصَّى بها بَنِيه أيضًا، ويعقوبُ هو ابنُ إِسْحَاقَ بن إبراهيمَ، فيكون إبراهيمُ جَدًّا له، ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ اخْتَارَهُ لكم دِينًا تَدِينُونَ به للهِ عَزَّوَجَلَّ، تَقُومُون بحقِّه وحقِّ عِبَادِه، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: اسْتَمِرُّوا على إِسْلَامكم إلى الموتِ.

فَوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- أَهَمِّيَّة الإِسْلام للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حيث إنَّ الأنبياءَ الكِرَام عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وَصَّوا به أَبْنَاءَهم.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ البَنِينَ الذُّكُور هم أَهْلُ القِيَام بهذه المُهِمَّة العَظِيمَة: الإسلامِ لله، والدَّعْوةِ إليه، ونَشْرِه بين الأُمَّة.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: تَفْضِيلُ الذُّكُور على الإِنَاثِ.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: بيانُ أنَّ يَعْقُوب -وهو ابنُ ابْنِ إبراهيمَ- وصَّى بها بَنِيهِ أيضًا، ومن أَبْنَائِهِ: يُوسُفُ الَّذي أَنْزَل اللهُ تعالى في قِصَّته سُورةً كَامِلَةً.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الله تعالى اصْطَفَى هذا الدِّينَ لعِبَادِه المُؤْمِنينَ، واخْتَارَهُ لهم.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوبُ شُكْرِ الله تعالى على نِعْمَتِه بالدِّين الإِسْلاميِّ، حيث اخْتَارَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لعِبَادِه، ثُمَّ شُكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَنْ وَفَّقَ العبدَ للقِيَام بهذا الدِّين الَّذي اصْطَفَاهُ اللهُ تعالى له.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوبُ اسْتِمْرَار الإِسْلام للهِ عَزَّوَجَلَّ إلى المَوْتِ، وهذا يتفَرَّعُ عنه فَائِدةٌ أُخْرَى، وهي حِرْصُ الإِنْسَان على الثَّبَات على دِينِهِ إلى أن يَلْقَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ وهو مُسْلِمٌ له.

• • ◦ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

﴿أَمْ﴾ هنا في مَعْنى (بل) وهَمْزَةِ الاسْتِفْهَامِ، والتَّقديرُ: بل أَكُنْتُم شُهَدَاء ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، والمَقْصُود بهذا: تَقْرِيرُ هذه الوَصِيَّة الَّتي وصَّى بها إبراهيمُ بَنِيه ويَعْقُوبُ، ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ يعني: أي مَعْبُودٍ تَعْبُدونه من بَعْدِي؟ ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، وهو اللهُ ربُّ العالَمِين.

وذِكْرُ إسماعيلَ هنا من باب التَّغْلِيب والتَّبَعِيَّة؛ لأنَّ إسماعيلَ ليس من آباءِ يَعْقُوبَ، ولكنَّهُ عمُّهُ، وقد قال النبيُّ ﷺ لعُمَرَ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ؟**»(١).

وقَوْلُهُ: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هذا تَأْكِيدُ التَّوْحِيد، يعني: لا نَعْبُدُ معه غَيْرَهُ، بل نَعْبُدُه هو ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي: لهذا المَعْبُود -وهو ربُّ العالَمِين عَزَّ وَجَلَّ- ﴿مُسْلِمُونَ﴾ أي: مُسْتَسْلِمُون له ظَاهِرًا وبَاطِنًا.

فوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيانُ حِرْصِ يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على أن يَكُون بَنُوهُ على تَوْحِيد اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، رقم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والاسْتِسْلَامِ له ظاهـرًا وباطنًا، ووجهُ ذلك: أَنَّهُ سَأَلَ بَنِيهِ عن هذا الأَمْـرِ العَظِيم وهو في سِيَاق المَوْتِ.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ قَوْلَ المُحْتَضَر مُعْتَبَرٌ مَعْمُولٌ به، وهذا يَخْتَلِف باخْتِلَاف أَحْوَال النَّاس، فمن النَّاس مَن إذا احْتُضِرَ، ونَزَلَ المَلَكُ لقَبْضِ رُوحِه، غاب عن شُعُوره، ولم يَدْرِ ما يَقُولُ، وهذا لا عِبْرَة بقَوْلِه، ومن النَّاس مَن يَبْقَى معه فِكْرُه وإِحْسَاسُهُ وإن كان في سِيَاق المَوْتِ، وهذا هو الَّذي يُعْتَبر قَوْلُهُ.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: حِرْصُ الأب على أَبْنَائِه، وأَنَّهُ يَنْبَغِي أن يُوَرِّث بعده ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً تَعْبُد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا تَعْبُدُ غَيْرَهُ.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الآباءَ والأَجْدَادَ يَكُـونون أُسْوةً لأبنائهم وأبناء أَبْنَائهم، فإمَّا أُسْوَة حَسَنَة وإمَّا أُسْوَة سيِّئة، فهـؤلاء البَنُون -أعنـي: بَنِـي يَعْقُوب- قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾، والكُفَّار الَّذِينَ عَانَدُوا المُرْسَلِين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢].

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَنَّهُ يَنْبَغِـي للرَّجُل إذا كان مُبْتَلًى بمَعْصِيَة من المعاصي أن يَحْرِص على أَلَّا يُشَاهِدَه أَهْلُه عليها، وأضربُ لذلك مَثَلًا بشُرْبِ الدُّخَان، فإنَّ بَعْض النَّاس يَكُون مُبْتَلًى بهذه المعصيةِ، ثُمَّ يَشْرَبُها أمامَ أبنائه، فيَأْلَفُون هذا، ورُبَّمَا يَشْرَبُونه كما يَشْرَبُه أبوهم، فيكون بذلك دالًّا على سيِّئةٍ، عليه وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يوم القِيَامَة.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إطلاقُ اسم الأَبِ على الجَدِّ؛ لقَـوْلِهِ: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، وهو دَلِيلٌ على القول الرَّاجِح

من أَقْوَال أَهْل العِلْمِ في أنَّ الجدَّ في الميراث بمَنْزِلَة الأب، فيَحْجِبُ الإِخْوَةَ، سواء كَانُوا أَشِقَّاء، أم لأبٍ، أم لأُمٍّ.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إطلاقُ لَفْظِ الأب على العَمِّ تغليبًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ التَّوْحِيدَ لا يتمُّ إلَّا باعتقادِ وَحْدَانِيَّة الله عَزَّوَجَلَّ، بحيث لا يعتقدُ الإِنْسَانُ له شَرِيكًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.

٩- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: فَضِيلةُ بني يَعْقُوبَ، حيث قالوا: إنَّهم يَعْبُدُون الله عَزَّوَجَلَّ، ويُسْلِمُون له، في قَوْلِه تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، نَسْأَلُ الله تعالى أن يُحقِّق لنا جميعًا الإِسْلامَ له؛ حتَّى نَلْقَاه على أَحْسَن حالٍ يَرْضَى بها عنَّا.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾ المُشَارُ إليه: مَنْ سَبَقَ من الأُمَم، حيث إنَّ بَعْض النَّاس يظنُّ أنَّ انْتِسَابَه إلى أحدٍ من الأَنْبِياء أو غَيْرِهم من الأَوْلِيَاء يَنْفَعُه عند الله، فيقول: أبي فُلَانٌ! فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: عمَّا كان يَعْمَل هؤلاء، بل كُلٌّ يُسْأَل عمَّا عَمِلَ.

فَوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- قَطْعُ تعلُّق الإِنْسَان بالنَّسَب، وأنَّ نَسَبَه لا يَنْفَعُه عند الله، وإنَّما الَّذي يَنْفَعُه

هو العَمَلُ الصَّالح الَّذي يَكُون قَرِينَه في قَبْرِه وفي حَشْرِه، وقد ثَبَتَ عن النَّبي ﷺ أَنَّهُ قال: «يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ»(١).

٢- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أَنَّ كَسْبَ الآباء لا يَنْتَفِعُ به الأبناءُ، وأَنَّ كَسْبَ الأبناء لا يَنْتَفِع بـه الآباء، إِلَّا إذا كان ذلك سَبَبًا، فإنَّـهُ يُؤْجَر المُتَسَبِّب للخَيْرِ على ما تَسَبَّب به؛ لأَنَّ الدَّالَّ على الخير كفَاعِلِه، وهو في الحقيقة من كَسْبِه، فمَن اقْتَدَى بك في العَمَل الصَّالح وانْتَفَعَ بما عَمِلْت فإنَّ أَجْرَه يَنالُك منه؛ لأنَّ الدَّالَّ على الخَيْرِ كفَاعِلِه.

٣- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أَنَّ الأَبْنَاءَ والأَحْفَادَ لا يُسْأَلون عمَّا يَعْمَلُه الآباءُ، بل خَطِيئَة الآباءِ عليهم، وخَطِيئَةُ الأبناءِ عليهم؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]، وقَوْلِه: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

•●○●•

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

قالت اليهودُ للنَّبي ﷺ وأَصْحَابِهِ: كُونُوا هُودًا تَهْتَدُوا، وقالت النَّصارى: كُونُوا نَصارى تَهْتَدوا، وكَذَبُوا في ذلك؛ فإنَّ الهِدَايَة باتِّبَاع شَرِيعَة الله عَزَّوَجَلَّ، وبعد

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم (٦٥١٤)، ومسلم: كتاب الزهد، رقم (٢٩٦٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِعْثَةِ مُحَمَّد ﷺ لا اهْتِدَاءَ ولا هِدَايَةَ إِلَّا بالدِّين الَّذي جاء به رَسُولُ الله ﷺ، وهو مِلَّةُ إبراهيمَ، ولهذا قال: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي: بل نَتَّبع مِلَّةَ إبراهيمَ، أي: دِينَهُ الَّذي هو عليه، ﴿حَنِيفًا﴾ أي: بِدُون مَيْلٍ إلى الشِّرْك والكُفْر، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، بل كان من المُخْلِصين لله عَزَّوَجَلَّ.

فَوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- أنَّ أَهْلَ البَاطِلِ لا يَأْلُون جُهْدًا في الدَّعْوَة إلى بَاطِلِهم، وتَضْلِيلِهم النَّاسَ؛ لقَوْلِهِم: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ أَهْلَ الباطل قد يَدَّعون ما يَعْلَمُون أَنَّهُ بَاطلٌ؛ لقَوْلِهِم: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾، فإنَّ اليَهُودَ والنَّصارى آتاهم الله الكِتَابَ، وهم يَعْرِفُون النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كما يَعْرِفُون أبناءَهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، لكنَّهم -والعِيَاذ بالله- كَتَمُوا الحقَّ، وقالوا: الحقُّ معنا، ومَن اتَّبعَنا فهو الَّذي قد اهْتَدَى.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: عِنايَةُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بهذه الأُمَّة؛ حيث ردَّ على هَؤُلاءِ المُضَلِّلين -اليَهُودِ والنَّصارى- بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَنَّهُ يجبُ على مَن بَيَّنَ البَاطِلَ أن يُبيِّن الحقَّ؛ ليَسِير النَّاسُ عليه؛ لأنَّ النَّاس لابُدَّ لهم من دِينٍ يَدِينُون به، ومن عَمَلٍ يَسْلُكُونه ويَنْهَجُونه، فإمَّا خيرٌ، وإمَّا شرٌّ، ولهذا قال: ﴿قُلْ بَلْ﴾ أي: بل لا نَكُون هُودًا ولا نَصَارى، بل نَتَّبع مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفًا.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: بيانُ مَنْقَبةٍ عظِيمةٍ من مَنَاقِب إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث كان على غَايَةٍ من الإخلاصِ للهِ حَنِيفًا، ولم يَكُن من المُشْرِكين.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مَعْصُومون من الشِّرك، كَيْفَ لا، وهم قد جاؤُوا لإبطال الشِّرْك، والقَضاءِ على أَهْلِهِ؟! ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩]، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١].

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

الخِطَابُ في قَوْلِهِ: ﴿قُولُوٓاْ﴾ لكلِّ مَن كان من بني آدمَ بعد نُزُول هذه الآيَةِ، فالخطابُ -إذن- مُوجَّهٌ لكلِّ أُمَّة الدَّعْوَة.

وقَوْلُه: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: أَقْرَرْنا بوُجُوده، وأَذْعَنَّا لأَمْرِه، وقَبِلْنا خبَرَه، والإيمانُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتضمَّن عِدَّة أُمُور، يتضَمَّنُ: الإيمانَ بوُجُودِه، والإيمانَ برُبُوبيَّته، والإيمانَ بأُلُوهِيَّته، والإيمانَ بأَسْمائِه وصِفَاتِه، فمَن انْتَقَصَ شيئًا من هذه الأُمُور الأَرْبعة فإنَّ إيمانَه ناقصٌ، وقد يكُون إيمانُهُ مَعْدُومًا.

وقَوْلُه: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ وهو القُرْآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾، وهؤلاء كُلُّهم أُنْزِل إليهم ما يَهْتَدُون به ويَهْدُون به، وما من رَسُولٍ إلَّا أَنْزَل الله عليه كِتَابًا، قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد:٢٥].

وقَوْلُهُ: ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ قيل: إنَّ المرادَ بهم: أَبْناءُ يَعْقُوب، وقيل: المرادُ بالأَسْبَاط: القَبائلُ الَّتي تَفرَّق إليها بنو إسرائيلَ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف:١٦٠]، أي: ما أُنْزِل إلى الأَسْبَاط بوَاسِطَة أَنْبِيَائهم عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فإنَّ الله تعالى بَعَثَ في بني إسرائيلَ أَنبِياءَ كَثِيرين، وهذا القولُ أصحُّ من الَّذي قَبْلَه.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ أي: ما أُوتي مُوسى من الآياتِ، وما نَزَل عليه من الوَحْي، وهو التَّوْرَاة، وكذلك ما أُوتي عِيسى من الآياتِ وما أُنْزِل عليه من الوَحْيِ، وهو الإِنجيلُ، ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ على سَبِيل العُمُوم من الآيات الَّتي يُؤْمِن على مِثْلِها البشرُ، فإنَّ النبي ﷺ قال: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ** -يَعْنِي: بَعَثَه الله- **إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عليهِ الْبَشَرُ**»[1] وذلك أَنَّهُ لابُدَّ أن يَكُون للأنبياءِ آياتٌ تُبَيِّن للنَّاس صِدْقَ ما بُعِثُوا به؛ لأنَّ النَّاس لن يُصَدِّقُوا إذا جاءهم شخصٌ، وقال: أنا رَسُول اللهِ إليكم! إلَّا بآياتٍ تدلُّ على صِدْقِه، ولهذا جَعَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لكلِّ نبيٍّ آيةً.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القُرْآن، باب كيف نزل الوحي؟، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا مُحَمَّد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقَوْلُه: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لا نُفَـرِّق بين أحدٍ من هَؤُلاءِ الرُّسُل عليهم الصَّلاةُ والسَّلَامُ، والمراد: أنَّنا لا نُفَرِّق بينهم في أَصْلِ الإِيمان، فإنَّنا نُؤْمِن بأنَّهم كلَّهم صَادِقون فيما جاؤُوا به من الوَحْيِ، وأنَّهم رُسُلُ الله عَزَّوَجَلَّ إلى خَلْقِه، ولكنَّنا نُفَرِّق بينهم من حيثُ الأحْكَامُ والشِّرْعَة، أي: الشَّرَائع، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، فشَرَائِعُ مَن قَبْلَنا لا تَلْزَمُنا، وإنَّما تَلْزَمُنا شَريعَتُنا الَّتي جاء بها نبيُّنا مُحَمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، أمَّا شَرَائعُ مَن قَبْلَنا فإن وَافَقَتها شَرِيعَتُنا عَمِلْنَا بها؛ بناءً على أنَّ شَرِيعَتَنا جاءت بها، وإلا فإنَّها تكون مَنْسُوخَةً بشَرِيعَتِنا.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: ونحنُ للهِ مُسْلِمُون، أي: مُنْقَادُون لأَمْرِه، مُتَّبِعُون لشَرْعِه.

وهذه الآيَةُ فيها أُصُولٌ عَظيمةٌ، ولهذا كان النبي ﷺ يَقْرَأُ بها أحيانًا في سُنَّة الفجر في الرَّكْعَة الأُولى، وفي الرَّكْعَة الثَّانِيَة يَقْرَأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤][1]، وأحيانًا يَقْرَأُ في الرَّكْعَة الأُولى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، وفي الرَّكْعَة الثَّانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١][2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم (٧٢٧/ ١٠٠) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم (٧٢٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فَوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- وُجُوبُ الإِيمان بما ذُكِرَ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الإِيمانُ على وَجْهِ التَّفْصيل بما أُنْزِل إلينا، وهو القُرْآن، فنُؤْمِنُ بأنَّ القُرْآن كَلَام الله عَزَّوَجَلَّ، أَنْزَله على مُحَمَّد ﷺ بوَاسِطَة جبريل الأمين، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

ونُؤْمِنُ كذلك بما تَضَمَّنَه هذا القُرْآنُ الكَرِيمُ من الأَخْبَار، وأنَّها أَخْبَار حقٌّ، ونُؤْمِنُ كذلك بما تَضَمَّنَه هذا القُرْآنُ من الأحْكَامِ، وهي الأَوَامِرُ والنَّوَاهِي، وأنَّها أحْكَامٌ مَبْنِيَّة على العَدْلِ، والرَّحْمَة، وتَحْقِيق المصالح، ولهذا لا رَحْمَةَ بالخَلْق أَعْظَمُ من رَحْمَتهم بهذا الدِّين الإِسْلاميِّ.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوب الإِيمان بما أَنْزَل اللهُ تعالى على الرُّسُل المَذْكُورين، كالصُّحُف الَّتي أُنْزِلت على إبراهيمَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى:١٨-١٩]، وكذلك ما أُنْزِل إلى إِسْماعيل وإِسْحَاق... إلى آخره.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ هَؤُلاءِ الرُّسُل المذكورين كلَّهم قد أُنْزِل إليهم: إِسْماعيل، وإِسْحَاق، ويَعْقُوب، والأَسْبَاط، يعني: أَنْبِيَاءَ الأسباطِ على القول الرَّاجح.

٥- ومن فوائدها وأحْكَامها: وُجُوب الإِيمان بما أُوتي مُوسى وعِيسى عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ من الآياتِ البيِّنات الشَّرْعِيَّة والكَوْنِيَّة.

فمن آياتها الشَّرْعِيَّة: التَّوْرَاةُ الَّتي جاء بها مُوسى، والإِنجيلُ الَّذي جَاء بـه عِيسى، ومن آياتها الكـونيَّة: أنَّ مع موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عصا، إذا وَضَعَها في الأَرْض انْقَلَبْت حيَّةً، وإذا حَمَلَها عادت عصا، وأنَّه يُدْخِل يَدَه في جَيْبِه، فتَخْرُج بَيْضَاء من غَيْر سُوء، أي: من غَيْر بَرَصٍ، لكنَّه بياضُ نُور.

أمَّا آياتُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنَّـهُ لا يَمْسَح ذا عَاهَـةٍ إلَّا برأ، فهو يُبْرِئُ الأَكْمَه والأَبْرَص، وأَبْلَغ من هذا: أَنَّهُ يُحْيي الموتى بإذن الله، يَأْمُر الميِّتَ فيَحْيَى، وأَبْلَغُ من هذا: أَنَّهُ يُخْرِج الموتى من قُبُورِهم، يقول للمَيِّت في قَبْرِه: اخْرُج! فيَخْرُجُ، ولكنَّه بإذن الله؛ لأنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَمْلِكُ أن يُحْيِيَ أحدًا من الخَلْقِ، ولا أن يُمِيت أحدًا من الخَلْق، فالذي يُحْيِي ويُميت هو الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّ الله تعالى يَجْعَل قَوْلَ عِيسى سَبَبًا، فإذا قال عِيسى للمَيِّت: قُمْ حَيًّا! وما أَشْبَه ذلك، قام حيًّا، وإذا وَقَفَ على القَبْر، وقال: اخْرُج حيًّا! خَرَج حيًّا.

وكان أيضًا يَخْلُق من الطِّين كهَيْئَة الطَّير، أي: صُورَة الطَّير، فيَنْفُخ فيها، فتكون طَيرًا يَطِيرُ بإذن الله، يَنْفَلِت من يَدِه طائرًا، وهذا النَّفْخُ الَّذي يَنْفَخُه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو نَفْخٌ للرُّوح في هذا التِّمْثَال الَّذي كهَيْئَة الطَّير، فتبارك الله ربُّ العالمين.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوب الإِيمانِ بما أُوتي الأنبياءُ عُمُومًا من الآياتِ، وأنَّها حقٌّ، وأنَّها لَيْسَت سِحْرًا، بل تكون بقُدْرَة الله تعالى وإِذْنِه.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَنَّـهُ يجبُ علينا الإِيمانُ بما أُنْـزِلَ على إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ، ويعقوبَ، والأسباطِ، وما أُوتِيَ مُوسَى وعِيسَى، وما أُوتِيَ النَّبِيُّون من ربِّهم، نُؤْمِن بذلك إيمانًا لا نُفَرِّق فيه بين واحدٍ وآخَرَ، وهذا من حيث

الخبرُ، فيجبُ علينا أن نُصَدِّق أَخْبَارَهم، ونُؤْمِنَ بها، أمَّا من جِهَة الأَحْكَام فلكلٍّ جعلَ اللهُ شِرْعَةً ومِنْهَاجًا، وكلُّ أُمَّة تَعْمَلُ بما جاء في شَرِيعَتِها من الأَحْكَام.

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: فَضِيلةُ هذه الأُمَّة، حيث كانت الآخِرَة؛ لتُصدِّق جميعَ الأنبياءِ السَّابقين، فيكون لها فَضِيلَةُ الإِيمان بكلِّ الأنبياءِ السَّابِقين.

٩- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إعلانُ الإِخلاصِ للهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

•●○●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٣٧)﴾

قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ يعني: المُكَذِّبين لرَسُول الله ﷺ من اليَهُود، والنَّصارى، والمُشْرِكين ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي: بالقُرْآنِ الكَرِيم، والباءُ قيل: إنَّها زائِدَةٌ، والمعنى: فإن آمَنُوا مثلَ ما آمَنْتُم به، وقيل: إنَّ المِثْلَ بمعنى الصِّفَة، أي: فإن آمَنُوا بصِفَة ما آمَنْتُم به، أي: على صِفَة ما آمَنْتُم به، ونحن قد آمَنَّا باللهِ، ومَلَائكتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخِر، وآمنَّا بالقَدَر خَيْرِه وشَرِّهِ، والْتَزَمْنَا بأَحْكَام شَرِيعة مُحَمَّد ﷺ، فإذا آمَنُوا مثلَ هذا الإِيمان الَّذي آمَنَتْ به هذه الأُمَّةُ ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾، وهذا مُقابل قَوْلِه: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة:١٣٥]، فيكونُ الاهْتِداءُ حقيقةً لِمَن كان مُسْلِمًا مُؤْمِنًا بمُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَوْلُه: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ يعني: أَعْرَضُوا عن الإِيمان بمثل ما آمَنْتُم به ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي: في تَبَاعُدٍ عن الدِّين، ومُنَازَعةٍ فيه، وهذا لا يضرُّكم، ولكن يضرُّهم، ولهذا قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: فسَيَكُون اللهُ كافيًا لك بالنِّسْبَة لهم، وسيَنْصُرك عليهم، وقد حَصَلَ هذا -ولله الحمدُ- فإنَّ اليهودَ والنَّصارى أَذَلَّهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لَمَّا كان المُسْلِمُون أَعِزَّة بدِينِ الله، قَائِمِين بأَمْرِ الله، صار اليَهُود والنَّصَارى أَذِلَّاءَ بين أَيْدِيهم، يُؤَدُّون الجِزْيَة أو يُسْلِمُون.

وقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ سبق الكلامُ عليه عند قَوْلِ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عن إبراهيمَ وإسماعيلَ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]، فلا حَاجَةَ إلى إعادة الكلام عليه[1].

فَوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بيانُ أَنَّهُ لا هِدَايَةَ بغَيْرِ الإيمانِ بما آمَنَتْ به هذه الأُمَّةُ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾، وإذا فات الشَّرْطُ فات المَشْرُوط.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَنَّ اليَهُود والنَّصَارى ضَالُّون تَائِهُون بَعِيدُون عن الحقِّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾، فمَفْهُومه: إذا لم يُؤْمِنُوا كذلك فلا هِدَايَةَ لهم.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: ضَلَالُ مَن ظَنَّ أَنَّ دِينَ اليهود والنَّصَارى اليومَ دِينٌ قائمٌ مُشْتَمِل على الهِدَايَة، مقبولٌ عند اللهِ، ومَن زَعَمَ ذلك فإنَّهُ كافرٌ خارجٌ عن المِلَّة -والعِيَاذُ بالله- مُكَذِّبٌ لقَوْلِ الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن

(١) انظر: (ص:٤١٠).

يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]، ولقَوْلِ النَّبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[1]، ومعلومٌ أنَّ مَن شَهِدَ أو اعْتَقَدَ أنَّ دِينَ اليَهُود والنَّصارى دينٌ حقٌّ اليومَ فإنَّهُ سيَجْعَل اليهودَ والنَّصارى من أصحاب الجَنَّة، فيَكُون بهذا مُكَذِّبًا لقَوْلِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**».

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ الأُمَمَ السَّابِقَة قَبْلَنا تَبَعٌ لنا، يَلْزَمُهم أن يُؤْمِنُوا بشَرِيعَتِنا، ويتَّبِعُوا شَرِيعَتَنا، وهذا من نِعْمَة الله تعالى علينا، فنحنُ الآخِرُون زَمَنًا، السَّابِقُون فَضْلًا، السَّابِقُون يومَ القِيَامَة حَشْرًا، ونَشْرًا، وإِعْطَاءً للكُتُب، وعُبُورًا على الصِّرَاط، ودُخُولًا للجَنَّة، ولله الحمدُ.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: تَهْدِيدُ المُتَوَلِّين عن شَرِيعَة النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وأنَّهم في شِقَاقٍ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖ﴾ أي: في شِقٍّ بعيدٍ عن الدِّينِ الحَقِّ المَقْبُول عند اللهِ.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: البُشْرَى السَّارَّة فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وأنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سيَكْفِي نبيَّه كُلَّ عَدُوٍّ للمُسْلِمين من اليَهُود والنَّصارى وغَيْرِهم؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: تَنْشِيط المُسْلِم على التَّمَسُّك بدِينِهِ، وأنَّهُ على حقٍّ، وأنَّهُ مَنْصُورٌ ولابُدَّ، وأنَّ اللهَ تعالى كَافِيهِ أَعْدَاءَه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ

(١) تقدم تخريجه (ص:١٧٧).

وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقَوْلِه تعالى في آيةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨].

٨- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: بَيَانُ عَظَمة الله عَزَّوَجَلَّ، وعِزَّتِه، وقُدْرَتِه؛ حيث قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وهو شَامِلٌ لكُلِّ عَدُوٍّ لرسول الله ﷺ.

٩- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ هَذَيْن الاسْمَيْن الكَرِيمين من أَسْمَاء الله، وهما (السَّميع) و(العليم)، وإثباتُ ما دَلَّ عليه هَذَان الاسْمَان الكَرِيمان من الصِّفَة، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَوْصُوفٌ بالسَّمْع، ومَوْصُوفٌ بالعِلْمِ، فسَمْعُه وَاسِعٌ للأَصْوَات كلِّها، وعِلْمُه مُحِيطٌ بكُلِّ شيءٍ.

•• ••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قَوْلُه: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ مَنْصُوبٌ بفِعْلٍ محْذُوف، تقديرُهُ: الْزَمُوا صِبْغَة الله، أي: دِينَ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: لا أَحَد أَحْسَنُ من الله صِبْغَةً ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي: للهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَه ﴿عَٰبِدُونَ﴾ أي: مُتَذَلِّلُون بالطَّاعة بامْتِثَال أَمْرِه، واجْتِنَاب نَهْيِه.

فَوَائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- فَضِيلةُ ما نحن عليه من دِين الله، حيث أَضَافَه اللهُ إلى نَفْسِه، فقال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ أَحْسَن شريعةٍ يَسْتَمْسِك بها الخَلْقُ شَريعَةُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوب إِقْرَار العَبْدِ بأَنَّهُ عبدٌ لله، ومُقْتَضى هذه العُبُودِيَّة: أن يَكُون مُمْتثِلًا لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مُجْتَنبًا لنَهْيِه؛ لأنَّ العُبُودِيَّة مَأْخُوذة من التَّعبُّد، وهو التَّذلُّل محبَّةً وتعظيمًا.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوب إِخْلَاصِ العِبَادَة لله؛ لقَـوْلِهِ تعـالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾؛ لِأَنَّ تَقْدِيم الجارِّ والمَجْرُورِ يُفِيد الحَصْرَ.

••~••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

قَـوْلُه: ﴿قُلْ﴾ أي: يا مُحَمَّدُ! ويصحُّ أن يَكُـون خِطَابًا لكُـلِّ مَن يتَوجَّه إليه الخطابُ، والاسْتِفْهَام فِي قَـوْلِهِ: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ للإِنْكَـار، والمُحَاجَّـةُ هـي المُخَاصَمَةُ؛ لإِقْنَاع الخَصْمِ؛ لأنَّ كُلَّ واحد من الخَصْمَين يُدْلِي بحُجَّته؛ ليُلْزِمَ بها الآخرَ.

وقَوْلُهُ: ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في دِينِه وشَرْعِه، فتقولون: نحن الَّذِينَ على الحقِّ، مع أنَّ الحقَّ مع مَن اتَّبـع ما جاء بـه رَسُولُ اللهِ ﷺ، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ باتِّفَاقِنا واتِّفَاقِكم أنَّهُ ربُّ الجَمِيع، وإذا كان هذا إِقْرَارَكم فإنَّ الوَاجِبَ عليكم أن تَأْخُذُوا

بشَرْعِه الآخِرِ فالآخِرِ؛ لأَنَّهُ ربٌّ، فهو أَعْلَمُ بمَصَالِح عِبادِه، فهو الَّذي يَمْلِكُ ما شاء من أُمُورِهم، فيأْمُرُهم ويَنْهَاهم على حسب ما تَقْتَضِيه حِكْمَتُه ورَحْمَتُه.

وقَوْلُه: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ يعني: أنَّ الرَّبَّ واحدٌ للجَميع، وأمَّا العَمَلُ فكُلُّ ذي عَمَلٍ فعَمَلُه له وَحْدَه، ولهذا قَال: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، وهذا كقَوْلِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦]، فكَيْفَ تُحاجُّونَنا في الله عَزَّوَجَلَّ، ونحن نَتَّفِق جميعًا على أَنَّهُ ربُّنا، ولكن أنتم تُخالِفُون هذا الرَّبَّ؟! فلنا أَعْمالُنا، ولكم أَعْمالُكم.

ثُمَّ خَتَمَ الآيَة بذِكْرِ الإخلاص للهِ عَزَّوَجَلَّ، وإِخْلَاصُ الشَّيء تَنْقِيتُه ممَّا يَشُوبُه، فالمعنى: نحنُ له مُخْلِصُون في العِبَادَة، لا نَعْبُد غَيْرَه، ولا نَتَّخِذُ ربًّا سِوَاه.

فَوَائِد وأَحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- الإِنكارُ على مَن يُحاجُّ في الله بغير عِلْمٍ، بل بِما يَعْلَم أَنَّ الأَمْرَ بخِلَافِه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾.

٢- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: أَنَّهُ يَنْبَغِي عند الُمحَاجَّة ذِكْرُ ما يَتَّفِق عليه الطَّرَفَان؛ ليَكُون مُلْزِمًا للآخَر فيما يَقْتَضِيه هذا الاتِّفَاق؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾، وقد سَبَقَ في تَفْسِيرِها ما يتبيَّن به وجهُ ذلك.

٣- ومن فَوَائِدها وأَحْكَامها: التَّبرُّؤ من أَعْمال الُمشْرِكين، والاعْتِزاز بأَعْمال أهل الحَقِّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أَنَّهُ يَنْبَغِي للمُؤْمِن أن يَكُون له قُوَّةُ شَخْصِيَّةٍ، يَعْتَزُّ بها في دِينِه، وفي شَرْعِه، وفي مِنْهَاجِه؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الحَذَرُ من التَّشَبُّه بغير المُسْلِمين؛ لأَنَّهُ إذا كانت أَعْمالُهم لهم -وهذه قَضِيَّةٌ مُسَلَّمةٌ- فلا يجوزُ أن نَتَشَبَّه بهم فيما يَخْتَصُّ بهم من أَعْمالهم، ولهذا جاء في الحَدِيثِ عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1].

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: فَضْلُ هذه الأُمَّة بإِخْلَاصِها لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ أي: لَهُ، لا لغَيْرِه.

•••

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾

﴿أَمۡ﴾ هنا بمَعْنَى: (بل) وهَمْزَةِ الاسْتِفْهَام، أي: بل أَتَقُولُون؟ والاسْتِفْهَام هنا للإِنْكَار، يعني: أنَّ اللهَ تعالى يُنْكِر عليهم هذا القَوْلَ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، وهل هذا يُعْقَل أن يَكُون إبراهيمُ، وإسماعيلُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ، والأسباطُ المُتَقَدِّمُون هُودًا أو نَصَارى،

(١) تقدم تخريجه (ص:٤٧).

واليَهُودِيَّة والنَّصْرَانِيَّة لم تَحْدُثَا إلَّا مِن بَعْدِهم؟! هذا ليس بمَعْقُولٍ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران:٦٥].

يقول عَزَّوَجَلَّ عن هَؤُلاءِ اليَهُود والنَّصَارى مُنْكِرًا عليهم: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾، ومن المَعْلُومِ أنَّ الجَوابَ: بل اللهُ عَزَّوَجَلَّ هو الأَعْلَمُ، وإذا كان اللهُ تعالى أَعْلَمَ، وقد بيَّن أنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبَنِيه، ويَعْقُوبَ وبَنِيهِ كُلُّهم كَانُوا على الحقِّ، كلُّهم كَانُوا على الإِخْلَاص، فكَيْفَ تَأْتُون أنتم، وتَقُولُون: إنَّ إبراهيمَ كان يَهُوديًّا، أو إنَّ إبراهيمَ كان نَصْرَانيًّا؟!

ثمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ (مَن) اسْتِفْهَام، والاسْتِفْهَام هنا بمَعْنَى النَّفْي، أي: لا أَحَدَ أَظْلَمُ ممَّن كَتَم شَهَادةً عنده من الله؛ لأنَّ الوَاجِبَ على المُسْتَشْهَد أن يَشْهَد، ولا يَكْتُم، وتَقْدِيرُ الجوابِ لهذا الاسْتِفْهَام أن نقول: لا أَحَدَ أَظْلَمُ من هذا.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَمَا﴾ هذه نافية، ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ خَبَرُ المُبْتَدَإ، ودَخَلَت عليه الباءُ؛ لزِيَادَة التَّأْكِيد، فلم يكن اللهُ تعالى غَافِلًا عمَّا يَعْمَلُ هؤلاء؛ لكَمال عِلْمِه ومُرَاقَبَتِه جَلَّ وَعَلَا.

فوائِد وأحْكَام هذه الآيَة الكَرِيمَة:

١- بَيَانُ بُطْلَان هذه الدَّعْوى البَاطِلَة الكَاذِبَة من اليَهُود والنَّصَارى الَّذِينَ قالوا: إنَّ إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ، ويعقوبَ، والأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أو نَصَارى.

٢- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: الإِنكارُ عليهم، والمُنَاداةُ عليهم بالجَهْلِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

٣- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: اتِّخَاذُ هذه القَاعِدَة العَظِيمَة لرَدِّ دَعْوَى أهل التَّعْطِيل الَّذِينَ أَنْكَـرُوا ما وَصَفَ اللهُ به نَفْسَه، وقالوا: لا يُمْكِـنُ أن يتَّصِفَ الله بهذا؛ لأنَّ هذا حَادِثٌ، أو لأنَّ هذا يَقْتَضِي التَّجْسِيم، أو ما أَشْبَه ذلك، فنقول لهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، فإن قالوا: نحن أَعْلَمُ، فقد نَادَوْا على أَنْفُسِهم بالضَّلَال، وإن قالوا: بل اللهُ أَعْلَمُ قلنا: إِذَنْ فأَثْبِتُوا ما أَثْبَتَه الله لنَفْسِه من الأَسْماء والصِّفَات على حَقِيقَتِه، وانْفُوا ما نَفَى اللهُ عن نَفْسِه من الأَسْماء والصِّفَات.

٤- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: وُجُوب نَشْرِ الإِنْسَان ما عَلَّمه اللهُ عَزَّوَجَلَّ من العِلْمِ، لاسِيَّما في أَعْظَم الأُمُور، وهو تَوْحيدُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٥- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: أنَّ مَن كَتَمَ ما علَّمَهُ الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّهُ من أَظْلَمِ النَّاس، وأَظْلَمُ كَتْمٍ للشَّهادة: أن يَكْتُم الإِنْسَان ما أَشْهَده ربُّه عليه.

٦- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إثباتُ كَمال عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ ومُرَاقَبَتِه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٧- ومن فَوَائِدها وأحْكَامها: إِثْبَاتُ صِفَات النَّفْي في حقِّ اللهِ، ولكن يَجِبُ أن نَعْلَمَ أنَّ النَّفْيَ المَحْضَ في صِفَات الله لا يُوجَد؛ لأنَّ النَّفْيَ المَحْض عَدَمٌ مَحْضٌ، والعَدَمُ ليس بشيء، ولا تُوجَد صِفَة مَنْفِيَّة عن الله إلَّا لتَضَمُّنِها كَمالًا، ولهذا نقول: كُلُّ صفةٍ نَفَاها الله عن نَفْسِه فإنَّها مُتَضَمِّنة لشيئين:

أَوَّلها: نَفْيُ تلك الصِّفَة المذكورة.

وثانيها: إثباتُ كَمال ضِدِّها.

فمثلًا: قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، فنَفَى الظُّلْمَ عن نَفْسِه؛ لكَمال عَدْلِه عَزَّوَجَلَّ، لا لعَجْزِه عن الظُّلْم، وعلى هذا فَقِسْ.

•●❦●•

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

هَذِه هي الآيَةُ الحَادِيَةُ والأَرْبَعُون بعد المِئَة، وقد سَبَقَ نظيرُها في الآيَة الرَّابِعَة والثَّلَاثين بعد المِئَة، وتكلَّمنا على ما فيها من أحْكَامٍ، حَسَبَ ما فَتَحَ الله به علينا، ونَكْتَفي بما سَبَقَ[1].

•●❦●•

ثُمَّ قَالَ تبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

السِّينُ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَيَقُولُ﴾ للتَّنْفِيس، وتُفِيد أَمْرَين:

الأَمْرُ الأَوَّل: تَحْقيقُ مَدْخُولها.

---

(١) انظر: (ص:٤٣١).

الأَمْرُ الثَّاني: قُرْبُ وُقُوعِ مَدْخُولها.

و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمعُ سَفِيهٍ، وهو مَنْ جانَبَ الرُّشْدَ في تَصَرُّفَاته القَوْلِيَّة والفِعْلِيَّة، وفي عَقِيدَته أيضًا؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠].

وقَوْلُهُ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ يعني: أيُّ شيءٍ وَلَّاهم -أي: صَرَفَهُم- عَنْ قِبْلَتِهم الَّتي كَانُوا عليها، والقِبْلَةُ الَّتي كَانُوا عليها هي بيتُ المَقْدِس، فإنَّ النَّبي ﷺ لمَّا قَدِمَ المدينةَ صار يتَّجِهُ في صَلَاتِه إلى بَيْتِ المَقْدِس نحو سِتَّة عَشَر شَهْرًا أو سبعة عَشَرَ شهرًا، ثُمَّ أَمَرَه الله تَعَالَى أن يُوَلِّيَ وَجْهَه شَطْرَ المَسْجِد الحَرَام -أي: الكَعْبَة- كما سيأتي في الآيات إن شاء الله(1)، فردَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا الاعْتِرَاض من هَؤُلاءِ السُّفَهَاء بقَوْلِه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: هو مَالِكُ المَشْرِق والمَغْرِب، وله أن يَتَصَرَّفَ في مُلْكِه بما يَشَاء، حَسَبَ ما تَقْتَضِيه حِكْمَتُه البالغةُ، ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وممَّن هَدَاهم إلى الصِّراط المُسْتَقيم: هذه الأُمَّة، حيث هَدَاهم إلى القِبْلَة الأَصِيلَة الأَصْليَّة، وهي الكَعْبَةُ، ولهذا قال شيخ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الكَعْبَة كانت قِبْلَةَ الأنبياءِ، وإنَّ حَرْفَ القِبْلَةِ إلى بَيْتِ المَقْدِس كان من تَصَرُّفِ أَتْبَاع أُولئك الأَنْبِيَاء(2).

وعلى هذا فالصِّراطُ المُسْتَقيمُ الَّذي لا اعْوِجَاج فيه هنا: هو الاتِّجاه إلى الكَعْبَة المُشَرَّفة في الصَّلاة.

---

(1) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، رقم (٤٠)، ومسلم: كتاب المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، رقم (٥٢٥) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧٩).

فِي هَذِهِ الآيَةِ مِنَ الأحكَامِ والفَوَائِد ما يلي:

١- عِلْمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما سيكونُ؛ لقَوْلِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، ومنَ المعلوم أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ شيء عليمٌ، وأنَّ عِلْمَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالأشياء مُحيطٌ بها جُمْلةً وتفصيلًا، وعلمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أزليٌّ لم يُسْبَق بجهلٍ، أَبديٌّ لا يَلْحَقه نسيانٌ.

٢- أنَّه لا يَعْتَرِض على شَرْعِ الله إلَّا مَنْ كان سَفِيهًا، وذلك لأنَّ السَّفيهَ لا يَعْرِف الحِكْمَةَ، أو يَعْرِفُها ويَسْلُكُ خِلَافَها، ومَن لا يَعْرِف الشَّيء لا يَرْتَضِيه، لذلك سوف يَعْتَرِضُون على ما سيَأْمُرُ الله عَزَّوَجَلَّ به من الاتِّجاه إلى الكَعْبَة.

٣- أنَّ النَّبي ﷺ كان يتَّجِهُ -قبل أن يُؤْمَر بالاتِّجاهِ إلى الكَعْبَة- إلى بَيْتِ المَقْدِس، فَقِيل: لأَنَّهُ كان يُحِبُّ أنْ يُوَافِقَ أهل الكِتَاب فيما لم يُؤْمَرْ بِخِلَافِه، وهذا كان أَوَّلَ ما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ، كان يُحبُّ أن يُوَافِقَ أَهْلَ الكِتَاب فيما لم يُؤْمَر بخِلَافِه، ثُم صار يأمُرُ بِمُخَالَفَة أهلِ الكِتَاب[1].

٤- عُمُومُ مُلكِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكُلِّ شيءٍ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، فهو المَالِكُ لكُلِّ شيءٍ، وهو المُتَصرِّفُ فيما يشاءُ بما يشاءُ عَزَّوَجَلَّ على ما تَقْتَضِيه حِكْمَتُه البالغةُ.

٥- أنَّ الهِدَايَة بيدِ الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الَّذي يَهْدِي مَنْ يشاءُ إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ، فلا تُطْلَب الهِدَايةُ إلَّا من الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا يَنْفِي الإِعْجَابَ بالنَّفْسِ، والافْتِخَارَ بالعَمَل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٥٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب صفة شعره ﷺ، رقم (٢٣٣٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكن لو قَال قَائِل: هل هدايةُ الله سُبْحَانه مَنْ يشاءُ بِمُجَرَّد المَشِيئَة، أو أنَّها مَقْرُونةٌ بالحِكْمَة؟

فَالجَوابُ عن ذلك أن نقول: بل هي مَقْرُونةٌ بالحِكْمَة، وما من شيءٍ يَحْكُم الله به إلَّا وهو مَقْرُونٌ بالحِكْمَة، سواءٌ كان ذلك الحُكْمُ الَّذي حَكَمَ الله به شَرْعِيًّا أم كَوْنِيًّا، ودَلِيلُ ذلك: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٢٩-٣٠]، فبَيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ مَشِيئَتَه تابعةٌ لِعِلْمِه وحِكْمَتِه.

وهِدَايةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نوعان:

هِدَايَة دَلَالةٍ، وهذه عامَّةٌ لكُلِّ أحدٍ، للكُفَّار والمُؤْمِنين، والفُجَّار والأَبْرَار.

وهِدَايَة تَوْفِيقٍ، وهذه خاصَّةٌ بمَن وَفَّقَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاتِّبَاعِ الحقِّ، قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فهذه هي دَلَالَة التَّوْفِيق، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]، وهذه هي الهِدَايةُ العَامَّة أو هِدَاية الدَّلَالَةِ والإِرْشَاد.

مثال الأُولى العَامَّة لكلِّ أحد: قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، يعني: الإنسانَ، وقَوْلُه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، أي: دَلَلْنَاهم على الصِّرَاط المُسْتَقِيم، ولكنَّهم استحبُّوا العَمَى على الهُدَى.

٦- أنَّ طَرِيقَ الله تَعَالَى مُسْتَقيمٌ، ليس فيه اعْوِجَاجٌ ولا انْحِرَافٌ، وكَوْنُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصِفُ طَرِيقَه بالصِّرَاط المُسْتَقِيم يدلُّ على أنَّ هذا الطَّرِيق وَاسِعٌ، ليس مَحْجُورًا على أحدٍ، بل كلُّ مَنْ شَاءَ مِنَ النَّاس دَخلَه، ويدلُّ أيضًا على أنَّ هذا الطَّرِيقَ ليس فيه اعْوِجَاجٌ ولا انْحِرَاف، بل هو مُوصِلٌ إلى دَارِ كَرَامَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بدون انْحِرَافٍ، ولا تَرَدُّد.

•●෴●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلَ ما ذُكِرَ من هِدَايةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ يشاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: صَيَّرْنَاكم أُمَّةً وَسطًا، أي: عَدْلًا خِيارًا.

والأُمَّةُ: هي الطَّائِفَة من النَّاس، وتَرِدُ في القُرْآن على مَعَانٍ مُتعدِّدة:

منها: الطَّائِفَة من النَّاس، كما في هذه الآية.

ومنها: الإِمَامُ، كما في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل:١٢٠].

ومنها: الدِّينُ، كما في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]، أي: على دِينٍ ومِلَّةٍ.

ومنها: الزَّمنُ، كما في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

فهذه أَرْبَعةُ مَعَانٍ.

وقَوْلُهُ: ﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لتَصِيرُوا شُهَدَاء على النَّاس: على الأَنْبِيَاء والرُّسُل، وعلى الأُمَمِ، فنحنُ آخِرُ الأُمَم، نَشْهَد على مَنْ سَبقَنَا ولِمَنْ سَبقَنَا، فنَشْهَدُ لِمَنْ سَبقنا مِنَ الرُّسل عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّهم بلَّغُوا رِسَالاتِ ربِّهم، ونَشْهَدُ على مَنْ سَبقَنَا من أُمَمِهم أنَّ الرِّسالَةَ بَلَغَتْهُم، وأنَّ منهم مُكَذِّبين، ومنهم مُصَدِّقين.

وكذلك نكون شُهَدَاء على النَّاسِ يوم القِيَامة، كما جاء بذلك الحديثُ عن رَسُول اللهِ ﷺ[1].

وقَوْلُهُ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الرَّسُولُ هو مُحَمَّد ﷺ؛ لأنَّ (أل) هُنا للعَهْدِ الذِّهْنِي، ولا مَعْهُود في الذِّهنِ حين نُزُول هذا القُرْآن مِنَ الرُّسُل إلَّا مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَوْلُهُ: ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أيْ: يَشْهَد عليكم بأَنَّهُ بلَّغ رِسَالَة ربِّه، ولهذا لَمَّا خَطَبَ النَّاسَ يوم عَرَفة، وقال: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**» قالوا: نشهدُ أنَّك قد بلَّغتَ وأدَّيْتَ ونَصَحْتَ، قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**» ثلاث مرَّات[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، رقم (٣٣٣٩) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجَّة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي اسْتِقْبَالُ بَيْتِ المَقْدِس قبل أنْ يُؤْمَر بالاتِّجاه إلى الكَعْبَة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، وذلك أَنَّه لَمَّا صُرِفَت القِبْلَة من بَيْتِ المَقْدِس إلى الكَعْبَة صار عند بَعْض النَّاس شكٌّ وارْتِيَاب، ورُبَّما ارْتَدَّ عن الإِسْلَامِ بسبب هذا التَّوْجِيه من الله عَزَّوَجَلَّ، يقول هذا الشاكُّ المُتَرَدِّد: كَيْفَ تكونُ قبلتُه بالأمس بيتَ المقدس، وقبلتُه اليومَ الكعبة؟

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ هو عَالِمٌ جَلَّوَعَلَا من قَبْلِ أن يَحْصُلَ هذا الاتِّبَاع والمُخَالَفة، لكن المُرَاد بالعِلْمِ هنا وفيما يُشْبِهه من الآيات الكَرِيمَة: العِلْمُ الَّذي يترتَّب عليه الثَّوَاب والعِقَاب، وذلك أنَّ عِلْمَ الله تَعَالَى السَّابق بما يَكُون من عِبَادِه لا يترتَّب عليه ثوابٌ ولا عِقَابٌ، ولا يَتَرتَّب الثَّوَابُ والعِقَابُ إلَّا بعد التَّكْلِيف، إذا كلَّفهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ ترتَّبَ على هذا التَّكْلِيف الثَّوَابُ لِمَنْ وَافَقَ، والعِقَابُ لِمَنْ خَالَف.

ولا يَظُنَّ الظَّانُّ أنَّ عِلْمَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يَتَجَدَّد، ولا يَكُون إلَّا بعد وُقُوع المَعْلُوم، فإنَّ هذا ليس بصَحِيحٍ، بل إنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عالِمٌ بكُلِّ شيء قبل أن يكونَ.

والرَّسُولُ هنا: هو مُحَمَّدٌ ﷺ، و(أل) فيه يَحْتَمِل أن تَكُون للعَهْد الذِّكْرِيِّ، ويحتملُ أن تَكُونَ للعَهْدِ الذِّهْنِي، وذلك لأَنَّهُ سَبَقَ ذِكْرُ الرَّسُول ﷺ، وإذا أَتَتْ (أل) دَاخِلةً على ما سَبَقَ ذِكْرُه فإنَّهم يَقُولون: إنَّها للعَهْدِ الذِّكْرِي، كما في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾[المزمل:١٥-١٦].

وقَوْلُهُ: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: مِمَّنْ ينكِصُ إلى الوَرَاء، وذلك بارْتِدَادِه عنْ دِينِ الإسلامِ، وعَدَمِ رِضَاه بما وَقَعَ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ يعني: وإن كانت هذه الحالُ، أو هذه القَضِيَّة ﴿لَكَبِيرَةً﴾ شَاقَّةً ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾، فإنَّ الَّذِينَ هَدَاهم اللهُ ووَفَّقَهم للحقِّ يَسْهُل عليهم كُلُّ شيءٍ في مُوافقَة ما أَمَر اللهُ به ورَسُولُه، ولا تكونُ الأَوامرُ كبيرةً وشاقَّةً إلَّا على مَنْ ضَعُفَ إيمانُهُ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ هذا التَّعْبيرُ يدلُّ على امْتِنَاع الشَّيء غَايَةَ الامْتِنَاع، أي: إذا جاءت «ما كان الله ليفعل كذا وكذا» فهو مُمْتَنِعٌ غَايَةَ الامْتِنَاع.

وقَوْلُهُ: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي: ما آمَنْتُمْ به، ومنه: صَلَاتُهم إلى بَيْتِ المَقْدِس سابقًا؛ لأَنَّهُ قد يَقَعُ في قُلُوب بَعْض النَّاس الإشْكَالُ عمَّا سَبَقَ مِنَ الصَّلَوات إلى بيت المَقْدِس: هل تكون بَاطلَةً؛ لأنَّ القِبْلَة صُرِفتْ إلى الكَعْبَة، أو لا؟ فبيَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ الله لا يُضِيعُ ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، الرَّؤُوفُ: مأخوذٌ مِنَ الرَّأفَة، وهي أشدُّ الرَّحْمَةِ، وأَلْطَفُ الرَّحْمَة، والرَّحيم: هو ذو الرَّحْمَة الَّتي يَكُون بها الإحْسَانُ إلى خَلْقِه، والإِنْعَامُ عليهم.

وفي هذه الآيَة من الأحكام والفوَائد ما يلي:

١- بيانُ فَضِيلَةِ هذه الأُمَّة؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

٢- أنَّ هذه الأُمَّة ذَاتُ شَهَادةٍ على مَنْ سَبقَها مِنَ الأُمَم.

٣- تَعْدِيلُ الله عَزَّوَجَلَّ لهذه الأُمَّة؛ حيث جَعَلَهم شُهَدَاء على سَائِر الأُمَم، ولم يجْعَلْهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شُهَدَاءَ إلَّا لِيَقْبَلَ شَهَادَتهم.

٤- أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كان شَهِيدًا على أُمَّته، فهو شَهِيدٌ عليهم ما دام فيهم، أمَّا فيما بعد مَوْته فإنَّهُ تُعْرَضُ عليه أَعْمَال أُمَّتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، كما جاء في بَعْض الأَحَادِيث[1]، فإذا صَحَّت فإنَّـهُ يَكُـون شَهِيدًا عليهم في حال حَيَاتِه، وبعد مَمَاتِه، وإلا فإنَّهُ سيَكُون شهيدًا عليهم يوم القِيَامَة.

٥- أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يَبْتَلِي العِبَاد بِشَرْعِ بَعْض الشَّرَائع ونَسْخِها؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

٦- أنَّ عِلْمَ الله عَزَّوَجَلَّ يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَين:

▪ عِلْمٌ يترتَّبُ عَلَيْه الثَّوَاب والعِقَابُ، وهو ما يَحْصُلُ بعد مُوَافَقَة العَبْدِ لأَمْرِ الله أو مُخَالَفَته، وهو الَّذي يترتَّب عليه الثَّوَاب والعِقَاب.

▪ وعِلْمٌ سابقٌ لا يترتَّبُ عليه الثَّوَاب والعِقَاب، وهو عِلْمُ اللهِ تَعَالَى الثابتُ في الأَزَلِ قبلَ امتحان العَبْدِ، فعِلْمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكونُ قبل وُجُود المَعْلُوم، ويكون بعد وُجُود المَعْلُوم، فالعِلْمُ الأوَّل لا يترتَّبُ عليه الثَّوَاب والعِقَاب، والعِلْمُ الثَّاني هو الَّذي يترتَّبُ عليه الثَّوَاب والعِقَاب، وهو المُراد في هذه الآيَة وأشباهها.

٧- الإِشَارةُ إلى أنَّ اتِّبَاع رَسُول اللهِ ﷺ هو الطَّرِيق الصَّحِيحُ السَّلِيم؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ، رقم (١٣٧٥)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥)، وأحمد (٤/ ٨) من حديث أوس بن أوس الثقفي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، على اختلاف في اسمه.

٨- ثُبُوتُ النَّسْخِ، أي: أَنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يَنْسَخُ من أَحْكَامه ما يَشَاء، والنَّسخُ: هو رَفْعُ الحُكْمِ السَّابِق، فتَارَةً يكونُ النَّسخُ من بَدَلٍ إلى بَدَلٍ أَخفَّ منه، وتارةً يكونُ من بَدَلٍ إلى بَدَلٍ أَثْقَلَ منه، وتارةً يكونُ من بَدَلٍ إلى بَدَلٍ مُسَاوٍ له، وتارةً يكونُ إلى غَيْر بَدَلٍ.

فَمِثَالُ نَسْخِ الحُكْم إلى بَدَلٍ أَشَقَّ منه: نسخُ التَّخْيير بين الصِّيَام والإِطْعَام في رَمَضَان إلى تَعْيين الصِّيَام، فإنَّ صِيَام رَمَضَان أوَّل ما فُرِضَ كان يُخيَّر فيه الإنسانُ بين أن يَصُوم أو يُطْعِم؛ لقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٤]، فهذه الآيةُ صَرِيحَة في التَّخْيير بين الصِّيَام والإِطْعَام، وقد ثَبَتَ ذلك صريحًا في (الصَّحِيحَيْن) من حديث سَلَمَة بن الأَكْوَع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنَّ الصِّيَام أوَّل ما فُرِضَ كان يُخيَّر فيه الإنسانُ بين الإطعامِ والصِّيَام، ثُمَّ نُسِخَ هذا التَّخْيير إلى وُجُوب الصِّيَام عينًا[1].

والحِكْمَة في ذلك: هو أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إذا أَرَادَ أن يَحْكُم حُكْمًا، وكان فيه شيءٌ مِنَ المَشَقَّة على النُّفُوس، بدأ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالأَخفِّ فالأَخفِّ، حتَّى تَرْتَاض النَّفسُ، ويَسْهُلَ عليها قَبُول الأشقِّ أو الأَثْقَل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير: باب: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾، رقم (٤٥٠٧)، ومسلم: كتاب الصيام، باب بيان نسخ قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾، رقم (١١٤٥).

ومثال النَّسْخِ إلى بدلٍ أخفَّ منه: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في آيتي المُصابَرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال:٦٥]، فجعل اللهُ تَعَالَى الصَّبْر مَشْرُوطًا بأن يُقابِل العِشْرُون مِنَّا مِئَتَيْن، وأن يُقَابِل المئةُ مِنَّا ألفًا من الَّذِينَ كَفَرُوا، وهذا لا شَكَّ أنَّ فيه مَشَقَّةً، لكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَطَفَ وخَفَّف في قَوْلِهِ: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٦٦]، فصار الصَّبْر يتحَقَّق في مُقَابَلَة الوَاحِدِ لِمِثْلَيْه.

ومثالُ النَّسْخِ إلى بَدَلٍ مُساوٍ: نَسْخُ اسْتِقْبَال بيت المَقْدِس إلى اسْتِقْبَال الكَعْبَة شرَّفها اللهُ، فإنَّ هذا البَدَل مُسَاوٍ للبَدَل الآخِرِ بالنسبة للمُكَلَّف؛ إذ لا فَـرْقَ عند المُكَلَّـف من حيث التَّعَبُ البَدَنـيُّ والمَشَقَّـة البَدَنِيَّـة بين أن يَسْتَقْبِـل بيت المَقْدِس، أو يَسْتَقْبِل الكَعْبَة المُشَرَّفة.

ومثالُ النَّسْخ إلى غَيْر بَدَلٍ: ما أَوْجَب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على المُسْلِمين مِنَ الصَّدَقَةِ عند مُنَاجَاة النَّبي ﷺ، فإنَّ الله أَوْجَب على المُسْلِمين إذا أَرَادُوا أن يُنَاجُوا رَسُول اللهِ ﷺ أن يَتَصَدَّقوا[1]، ولكنَّ الله تَعَالَى خفَّف ذلك عنهم، ونَسَخَ هذا الوُجُوب.

ولا شَكَّ أنَّ النَّسْخَ قد يَكُون سَبَبًا لِفتْنَة بَعْض النَّاس، وارْتِدَادِهِ أو شَكِّه، ولكنَّ الحقيقة أنَّ النَّسْخَ يدلُّ دَلَالةً واضحةً على أنَّ رَسُول اللهِ ﷺ رَسُولُ الله حقًّا، وأنَّه صَادقٌ فيما بلَّغ عن ربِّه، تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

---

(١) يعني: في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة:١٢].

ثُمَّ إنَّ في النَّسْخِ بيَانًا لِحِكْمَة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في شَرْعِه، وأنَّه جَلَّوَعَلَا يتعَبَّد عِبادَهُ بما شاء، على الوَجْهِ الَّذي يَكُون به صَلَاحُهم.

٩- أنَّ النَّسْخَ يَكُون شاقًّا على كَثِير منَ النُّفُوس، إلَّا على مَنْ هَدَاهم اللهُ، فإنَّهُ يَكُون يسيرًا عليهم؛ لأنَّهم يَعْلَمُون أنَّ هذا النَّسْخَ لم يَصْدُر إلَّا عن حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، ولا يَزِيدُهم النَّسخُ إلَّا طُمَأْنينةً وثِقَةً بِشَريعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

١٠- لُطْفُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعِبَادِه؛ حيث لم يُهْدِر ثَوَاب الأَعْمَال المَنْسُوخَة، ولم يُضيِّعْ أَجْرَها على مَنْ تَعَبَّد للهِ بها؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾.

١١- أنَّ فيها دَلِيلًا لِمَا ذهب إِلَيْه أهلُ السُّنَّة والجَمَاعَة من أنَّ الأَعْمَال دَاخِلَةٌ في مُسَمَّى الإِيمَان؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾، ووَجْهُ دُخُول الأعمال في مُسَمَّى الإِيمَان: أنَّها صَادِرةٌ عن إيمانٍ، فلولا إيمانُ النَّاس بأنَّ هذه شَرِيعَة الله، وأنَّهُ يُثِيبُ عليها، ما تَعَبَّدُوا للهِ تَعَالَى بها، ولهذا أَطْلَق اللهُ الإِيمَانَ هنا على الصَّلاةِ إلى بيت المَقْدِس سابقًا.

١٢- إثباتُ اسْمَيْن من أَسْمَاء الله، وهما: (الرَّؤُوف)، و(الرَّحِيم)، وإثباتُ ما تَضَمَّناه من صِفَةٍ، فإنَّ كُلَّ اسمٍ من أسماءِ الله فإنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لصِفَة من صِفَاتِه، ولهذا نقول: الصِّفَاتُ أَوْسَعُ مِنَ الأَسْمَاء؛ لأنَّ كلَّ اسمٍ من أسماءِ الله مُتضمِّنٌ لِصِفَةٍ من صِفَاتِه، وليس كُلُّ صفةٍ من صِفَات الله يُشْتَقُّ له منها اسمٌ، فبابُ الصِّفَات أَوْسَعُ من باب الأَسْمَاء، وبابُ الأَخْبَار عن الله أَوْسَعُ من باب الصِّفَات أَيْضًا، فهنا أَسْمَاء وصِفَات وأَخْبَار، فالاسمُ يتضمَّنُ الصِّفَة، والصِّفَة لا يُشْتَقُّ منها الاسْمُ، والأَخْبَار

يُخبَرُ بها عن الله بالشَّيء الَّذي لا يُمْكِنُ أن يُوصَفَ به، فتقول مثلًا: إنَّ الله شيءٌ، لكن لا تَصِفُه بذلك، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩].

•●෴●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ جلَّ ذِكْرُه:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾ جُمْلة فِعْلِيَّة مُؤَكَّدة بـ: (قد)، والرُّؤيَةُ هنا: رُؤْيَة بَصَرٍ، وجاء الفعل بصيغة المُضَارِع دون الماضي؛ إشارةً إلى تكرار الفِعْلِ من النَّبيِّ ﷺ، فتكَرَّرَتْ رؤيةُ الله تَعَالَى له.

وقَوْلُهُ: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ هو أنَّ النبي ﷺ كان يُقلِّبُ وَجْهَه في السَّماء تَرَقُّبًا لِنُزُول الوَحْيِ بأَمْرِه بالاتِّجاه إلى الكَعْبَة المُعظَّمة.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي: لنُوجِّهَنَّكَ إلى قِبْلَةٍ تَرْضَاها، أي: تطمئنُّ إِلَيْها وتستقرُّ؛ لأَنَّهُ ﷺ راضٍ بكُلِّ ما شَرَعَه الله له، سواءٌ في اسْتِقْبَال الكَعْبَة، أو بيت المَقْدِس، لكنَّ طُمَأْنِينَتَه لاسْتِقْبَال الكَعْبَة أشدُّ، ولهذا فَرَّع عليها قَوْلَه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: جهةَ المَسْجِد الحَرَام، وهو الكَعْبَة، وسُمِّيَ مَسْجِدًا حَرَامًا؛ لِحُرْمَته وتَعْظِيمه، ولهذا ثَبَتَ له من خَصَائِص التَّحْرِيم ما لم يَثْبُت لغَيْرِه.

وقَوْلُهُ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ يعني: في أيِّ مَكَانٍ كُنْتُم من مَشَارِق الأَرْض ومَغَارِبها ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، والخطابُ هنا للأُمَّة عُمُومًا، والخِطابُ الَّذي قَبْلَه لِرَسُول الله ﷺ، وذلك أنَّ الخِطَابَ الَّذي لرَسُول الله ﷺ خِطَابٌ له وللأُمَّة، كما سنَذْكُره إن شاء الله قريبًا.

وقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الَّذين أُوتُوا الكِتَاب هم اليَهُود والنَّصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: ما حَصَل مِنَ الاتِّجاه إلى الكَعْبَة ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، ولكنَّهم قَوْمٌ مُعَانِدُون مُسْتكبِرون، ولهذا توَعَّدَهم الله بقَوْلِه: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

في هذه الآيَة من الأحكام والفَوائِد ما يلي:

١- إثباتُ رُؤْيَة الله تَعَالَى لِما يَفْعَلُه العِباد؛ لقَوْلِهِ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

٢- إثباتُ عُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ النَّبي ﷺ يُقلِّب وَجْهَه في السَّماء ترقُّبًا لِنُزُول الوَحْيِ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وعُلُوُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السَّماء أمرٌ مَفطُورٌ عليه الخَلْقُ، ودلَّت عليه الشَّرائع والعُقُولُ، وقد اجْتَمَعت الأَدِلَّةُ الخَمْسَةُ: الكِتَابُ، والسُّنَّةُ، والإجماعُ، والعقلُ، والفِطْرَةُ، على إثبات عُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق خَلْقِه.

وقد قسَّم العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ العُلُوَّ إلى قِسْمَين:

الأوَّل: عُلُوُّ ذاتٍ، بِمَعْنَى: أنَّ الله تَعَالَى فوق كُلِّ شيءٍ.

والثَّاني: عُلُوُّ صِفَةٍ، بمعنى: أنَّ صِفَات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي أَعْلَى ما يَكُونُ مِنَ الكَمال.

فأمَّا الأوَّل فأدلَّتـه ما أَشَرْتُ إِلَيْها: الكِتَابُ، والسُّنَّـةُ، والإجماعُ، والعقـلُ، والفِطْرَةُ، وتَفْصِيلُ ذلك في كُتُب العقائد[1].

وأمَّا الثَّاني فَلَهُ أدِلَّةٌ سَمْعِيَّةٌ وعقليَّةٌ، منها: قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، أي: الوَصْفُ الأَعْلَى الأَكْمَل، وهذا دَلِيلٌ سَمْعِيٌّ.

وأمَّا الدَّلِيل العَقْلِيُّ فلأنَّ الرَّبَّ لابُدَّ أنْ يَكُون أَكْمَل مِنَ المَرْبُوب، وأَعْلَى مِنَ المَرْبُوب، وَصْفًا وقَدْرًا، وهذا هو الواقعُ.

٣- وَعْدُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِرَسولِه ﷺ أن يُوَلِّيه قِبْلَةً يَرْضَاها، وقد فَعَل جَلَّ وَعَلَا، فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

٤- أنَّ الخِطَابَ المُوَجَّه للرَّسُول ﷺ خِطَابٌ له ولأُمَّتِه، ولكنَّ في هذا تَفْصِيلًا، وذلك أنَّ الخِطَاب المُوَجَّه إلى الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمَّا أن يَقُوم الدَّلِيل على أنَّه مُوَجَّه له وَحْدَه، أو على أنَّه مُوَجَّه له ولِلأُمَّة، أو لا يَكُون هناك دَلِيلٌ لا على هذا ولا على هذا، فأمَّا الأوَّل فيكونُ خَاصًّا به، مثلُ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:١-٣]، ومن المَعْلُومِ أنَّ هذا خاصٌّ برَسُول الله ﷺ.

وأمَّا الثَّاني -وهو الَّذي دلَّ الدَّلِيلُ على عُمُوم الحُكْمِ له ولأُمَّتِه- فمِثْلُ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، فهُنَا صَدَّر الخِطَابَ بنِدَاءٍ مُوَجَّهٍ إلى الرَّسُول ﷺ في قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، ولكنَّه جَعَلَ الحُكْمَ عامًّا، فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾، ولم يقل: «إذا طَلَّقْتَ»، وهذا يدلُّ على

(١) انظر: شرح عقيدة أهل السنة والجماعة، لفضيلة شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ (ص:١٦٤، وما بعدها).

أَنَّه عامٌّ له ولأُمَّته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ومنه: هذه الآيةُ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

وأمَّا القِسْمُ الثَّالِثُ فكثيرٌ في القُرْآن الكَرِيم، يَكُون الكَلَام بصِيغَة الخِطَاب للوَاحِد، وهذا ظَاهِرُهُ أَنَّه مُوَجَّه إلى الرَّسُول ﷺ، فقيل: إنه مُوَجَّهٌ له ولأُمَّتِه، لكن خُصَّ الخِطَاب به؛ لأَنَّه قَائِدُ الأُمَّةِ وإِمَامُها، وقيل: بل هو مُوَجَّهٌ لَهُ وَحْدَه، وأُمَّتُه في ذلك يَشْمَلُها الخِطَاب من باب التَّأَسِّي والاقْتِدَاء، والخلافُ في هذا لَفْظِيٌّ؛ لأنَّ كِلَا القَوْلَين يَنْصَبُّ في أنَّ الأُمَّة تَفْعَل ما وُجِّه إلى الرَّسُول ﷺ.

٥- وُجُوبُ اسْتِقْبَالِ القبلة في أيِّ مكانٍ من الأَرْض؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

٦- أنَّ الوَاجِبَ الاتِّجاهُ إلى الجِهَة، لا إِصَابَةُ عَيْنِ الكَعْبَة؛ لقَوْلِهِ: ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: جِهَتَه، وهذا ما لم يَتيَسَّر اسْتِقْبَالُ عَيْنِ الكَعْبَة، فإن تَيَسَّر اسْتِقْبَالُ العَيْن كان واجبًا، ومن المَعْلُومِ أنَّ مَن كان في المَسْجِد الحَرَام يتيسَّرُ له أن يَتَّجِهَ إلى عين الكَعْبَة غالبًا؛ لأَنَّهُ يُشَاهِدُها، ومَن كان خَارِجَ المَسْجد الحَرَام، وليس عَالِيًا ينظرُ إلى الكَعْبَة، فإِنَّهُ لا يُمْكِنه أن يُشَاهِد الكَعْبَة، فيَكْفِيه الاتِّجاه إلى الجِهَة.

والجِهَةُ واسعةٌ، وكُلَّما بَعُدت المَسَافَةُ اتَّسَعت الجِهَةُ، ولهذا قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّهُ لا يَضُرُّ الانْحِرَاف اليَسِيرُ عن القِبْلَة، وإِنَّما الَّذي يَضُرُّ أن تكون القِبْلَة عن يَمِينك أو عن شِمَالِك أو خَلْفَ ظَهْرِك، أمَّا الانْحِرَاف اليسيرُ فإِنَّهُ لا يضرُّ، واسْتَدَلُّوا بقول النَّبي ﷺ: «مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ»[1]، قاله لأَهْلِ المَدِينَة ومَنْ كان على سَمْتِهم،

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء أن ما بين المشرق والمغرب قبلة، رقم (٣٤٢)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة، رقم (١٠١١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ بِغَائِطٍ وَلَا بَوْلٍ، وَلَا تَسْتَدْبِرُوهَا، وَلَكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا»[(١)].

ويُسْتَثْنَى من وُجُوب الاتِّجاه إلى القِبْلَة ثَلَاثُ مَسَائل:

المسألة الأُولى: عندَ الخَوْف، إذا كان الإنسانُ هَارِبًا من عَدُوٍّ فإنَّهُ يُصلِّي حيثُ كان وَجْهُهُ.

المسألة الثَّانِيَة: العجز، إذا كان الإنسانُ مَرِيضًا، ولا يَسْتَطِيعُ أن يَتَوَجَّه إلى القِبْلَة بنَفْسِه، ولا بِمَنْ يُوجِّهُه، فإنَّهُ يُصَلِّي حيثُ كان وَجْهُهُ.

المسألة الثَّالِثة: النَّافلةُ في السَّفـر، فإنَّ الإنسان يُصلِّي على رَاحِلَته من سيَّارةٍ أو بعيرٍ أو طَائِرةٍ، حيثُ كان وَجْهُهُ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يَفْعَلُ ذلك[(٢)].

أمَّا الدَّلِيل في المَسْأَلتين الأُولَيَيْن -الخَوْفِ والعَجْزِ- فهو قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

ويُسْتَثنى أيضًا مسألةٌ رَابِعَةٌ، لكنَّها مُقَيَّدة، وهي ما إذا جَهِلَ القِبْلَة في البَرِّ، واجْتَهَدَ، وصلَّى إلى الجِهَة التي أدَّاه اجْتِهَادُهُ إليها، ثم تبيَّن له بعد ذلك أنَّه ليس إلى القِبْلَة، فإنَّ صَلَاتَـه صحيحةٌ؛ لأنَّـه فَعَلَ ما يَسْتَطِيعُ فِعْلَه، وقـد قـال اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فهذه أَرْبَـعُ مسائلَ تُسْتَثْنَـى من وُجُوب الاتِّجاه إلى الكَعْبَة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب لا تستقبل القبلة بغائط أو بول، رقم (١٤٤)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٤) من حديث أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوتـر، باب الوتـر في السفر، رقم (١٠٠٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر، رقم (٧٠٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٧- أنَّ أَهْلَ الكِتَاب يَعْلَمُون الحقَّ الَّذي جاء به النبيُّ ﷺ، ولكنَّهم مُعَانِدُون مُسْتكبِرُون، وقد قال اللهُ تَعَالَى في آياتٍ أُخْرَى: إنَّهم يَعْرِفُون النبيَّ ﷺ كما يَعْرِفُون أَبْنَاءَهم(١)، وذلك بما ذُكِرَ من أَوْصَافِه عندهم الَّتي لا تَنْطَبِقُ على بشرٍ سِوَاه، ومن ذلك: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فإنَّ هذه الأَوْصَاف مُنْطَبِقَة تمامًا على رَسُول اللهِ الهَاشِمِيِّ القُرَشِيِّ ﷺ، وهم يَعْلَمُون ذلك، لكنَّهم كَانُوا مُسْتكبِرين حُسَّادًا، كما قال اللهُ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

٨- ذَمُّ مَنْ عَلِمَ الحَقَّ ولم يتَّبِعْه، وتَعْرِيضُه نَفْسَه للعُقُوبة؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

٩- أنَّ ما جاء به الرَّسُول ﷺ فهو حَقٌّ بِعِلْمِ الأَعْدَاء؛ لقَوْلِه: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

١٠- إِثْبَاتُ أنَّ الله تَعَالَى مَوْصُوف بالإِثْبَات، ومَوْصُوف بالنَّفْيِ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد جَمَعَ فيما وَصَفَ به نَفْسَه بين النَّفْي والإِثْبَات، والإِثْبَات أكثرُ من النَّفْي، ولهذا يَأْتِي الإثباتُ مُفَصَّلًا، ويأتي النَّفْيُ مُجْمَلًا، إلَّا فيما يَحْتَاجُ إلى التَّفْصِيل فيه.

---

(١) قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦، الأنعام:٢٠].

قال أَهْلُ العِلْمِ: وصِفَاتُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الَّتي نَفَاها عن نَفْسِه لا يُقْصَد بها مُجُرَّد النَّفْيِ؛ لأنَّ مُجُرَّد النَّفي ليس وَصْفًا كَاملًا؛ إذ إنَّ مُجُرَّد النَّفْي عَدَمٌ، والعَدَمُ ليس بشَيْءٍ، فلا يَكُون كَمالًا، ولكن كلُّ صِفَة نَفَاها اللهُ عن نَفْسِه فالمراد بها: إثباتُ كَمال ضِدِّها مع النَّفي، فمثلًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ يدلُّ على انْتِفَاء غَفْلَة الله عمَّا يَعْمَلُون مع ثُبُوت كَمال العِلْمِ والمُراقَبَة.

وفي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] إِثْبَاتُ كَمال العَدْلِ لله عَزَّوَجَلَّ.

وفي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، إثبات كَمال العِلْمِ والقُدْرَة، ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر:٤٤]، وهَلُمَّ جرًّا، فلا يُمْكِنُ أنْ تَجِدَ نفيًا مَحْضًا في صِفَات الله، وتعليله: أنَّ النَّفي المَحْض عَدَمٌ مَحْضٌ، والعَدَمُ المحْضُ ليس فيه كَمال، بل كلُّ ما نَفَاه الله عن نَفْسِه فالمُراد به: نَفْيُ ما نَفَاه مع إِثْبَاتِ ما تَضَمنَّه من كَمال الصِّفَة الَّتي هي ضدُّ ذلك النَّفْيِ، فلم يَنْفِ عن نَفْسِه الظُّلمَ إلَّا لِكَمالِ عَدْلِه، ولا العَجْزَ إلَّا لِكَمالِ عِلْمِه وقُدْرَته، ولا الغَفْلَةَ عن أَعْمال العِبَاد إلَّا لِكَمالِ عِلْمِه ومُراقبَتِهِ، وهَلُمَّ جرًّا.

• ● ● •

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الخِطَاب للرَّسول ﷺ ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أي: بِكُلِّ دَلِيلٍ على ما أَتيتَ به ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾، وذلك لأنَّهم لا يُرِيدُون الحقَّ، وإنَّما يُرِيدُون العُلوَّ والاسْتِكْبار، فلهذا لو أُتُوا بكُلِّ آيةٍ ما تَبِعُوها، ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ وذلك لأنَّ شَرْعَ النبيِّ ﷺ نَسَخَ جميع الشَّرَائع، فهم بَرِيؤُون منك، وأنت بَرِيءٌ منهم، وهذا كقَوْلِه تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:١-٣] إلى آخر السُّورة.

وقَوْلُهُ: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ يعني: أنَّ أَهْلَ الكِتَاب أَيْضًا مُخْتَلِفُون، فلا يتَّبعُ بعضُهم بعضًا في القِبْلَة والاتِّجاه، فالنَّصَارى لهم اتِّجاهٌ، واليَهُودُ لهم اتِّجاهٌ، ومع ذلك فهم فيما بينهم أَوْلِيَاء ضدَّ المُؤْمنين.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: إن قُدِّرَ أنَّك دَاهَنْتَهم واتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهم من بعدِ ما جاءك مِنَ العِلْمِ لَكُنْتَ مِنَ الظَّالِمِين، وهذا التَّعْلِيق لا يَلْزَم منه وُجودُ المُعلَّق، فاللهُ تعالى يقولُ: إن فَعَلْتَ كذا كُنْتَ كذا، ولا يَعْنِي ذلك أنَّ هذا سيَقَعُ؛ فإنَّ (إن) الشَّرْطِيَّة تَدْخُلُ على شيء مُتَعَذِّر، بل مُسْتَحِيل، كقوله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، فلا يَعْنِي ذلك: أنَّهُ يُمْكِنُ أن يَكُون للهِ ولد، فـ: (إن) هنا دَاخِلةٌ على شيءٍ مُسْتَحيل.

وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥] لا يقول قائلٌ: إنَّ الرَّسُول يُمْكِنُ أن يُشْرِكَ، بل هذا على فَرْضِ وُقُوعِ ذلك، والفَرْضُ يُمْكِنُ أنْ يَرِدَ على شيءٍ مُسْتَحِيل.

فِي هَذِهِ الآيَةِ مِنَ الأحكامِ والفَوَائِدِ ما يلي:

١- بيانُ تَمَرُّدِ الَّذِينَ أُوتُـوا الكِتَاب واستِكْبَارهم، وأنَّهم لـو أُتُوا بكُـلِّ آيـةٍ ما قَبِلُوها؛ لِعِنَادِهم واسْتِكْبَارِهم.

٢- أنَّ المُؤْمِنَ بريءٌ من كلِّ دينٍ يُخالِفُ الإسلامَ، حتَّى من دِينِ مَنْ يَزْعُمُون أنَّهم على دِينٍ، كالَّذين أُوتُوا الكِتَاب.

٣- وُجُوبُ مُخالَفة هَدْيِ المُشْرِكين فيما يَخْتَصُّ بهم؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى لرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، ولهذا حَذَّر النبي ﷺ من مُشَابَهة الكُفَّار، فقال: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[١]، وقال: «**خَالِفُوا المَجُوسَ، وَفِّرُوا اللِّحَى، وَحُفُّوا الشَّوَارِبَ**»[٢]، وقال: «**خَالِفُوا المُشْرِكِينَ، وَفِّرُوا اللِّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ**»[٣]، فلا يَحِلُّ للمُؤْمِنِ أن يتَشَبَّه بالكُفَّار فيما يَخْتَصُّ بهم من لِبَاسٍ أو هَيْئَةٍ في الجِسْم، كالشُّعور مثلًا، يُصَفِّفُها على ما يُصَفِّفُها الكُفَّار، وغَيْرِ ذلك؛ لهذا الحديث الَّذي ذَكَرْتُ، ولأنَّ التَّشَبُّه بهم في الظَّاهِرِ يُؤَدِّي إلى التَّشَبُّه بهم في البَاطِنِ، وقد قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٤٧).

(٢) أخرجه بمعنى هذا اللفظ مسلمٌ: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب تقليم الأظفار، رقم (٥٨٩٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٩/ ٥٤) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

عن الحديث: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» قال: إنَّ أقلَّ أَحْوَال هذا الحَدِيث التَّحْرِيمُ، وإن كان ظَاهِرُهُ يَقْتَضِي كُفْرَ المُتَشَبِّه بهم[1]، ومن المَعْلُومِ أنَّ التَّشبُّه بالكُفَّار يُؤَدِّي إلى فَرَحِهم وسُرُورِهم، ومن المَعْلُومِ أَيْضًا أنَّ المُتَشبِّهَ في حالٍ ومَرْتَبةٍ دون المُتَشَبَّهِ به، فتَشَبُّهُنا بالكُفَّار والمُشْرِكين يُؤَدِّي إلى اعْتِلَائِهم وترَفُّعِهم علينا، واعْتِقَادِهم أنَّنا لهم تَبَعٌ، ولا شَكَّ أنَّ هذا إِهَانَةٌ وإِغَاظَةٌ للمُؤْمِن، والمُؤْمِن يَنْبَغِي أن يَعْتَقِد بقَلْبِه أنَّهُ هو الأَعْلَى؛ لأنَّه يَدِينُ اللهَ تَعَالَى بدينٍ عالٍ على كلِّ الأَدْيَان؛ كما قال تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣، والفتح:٢٨، والصف:٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

٤- بيانُ عُوَار أَهْلِ الكِتَاب، وأنَّ بَعْضَهم لا يَدِينُ بما يَدِينُ به الآخَرُ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، وهذا هو الوَاقِعُ، فلنَنْظُر الآن إلى اليَهُودِ: ماذا قالُوا عن عيسى؟ قالوا: إنَّه ابنُ زَانِيَة، والعِيَاذ بالله، وقالُوا عن أُمِّه: إنَّها زَانِيةٌ بَغِيٌّ. وماذا قال النَّصَارى عنه؟ قالوا: إنَّهُ ابنُ اللهِ، وقالوا: إنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ: الله، والمسيح، وأمُّهُ، فنَجِدُ الطَّرَفَيْن مُتَنَاقِضَين بينهما أكثرَ ممَّا بين المَشْرِق والمَغْرِب، وقال المُسْلِمُون في عيسى ابن مَرْيَم وأمِّه: إنَّ عيسى ابن مَرْيَم عَبْدُ الله ورَسُولُه، وكَلِمتُه أَلْقَاها إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ منه، وإنَّ أُمَّه مَرْيَمَ صِدِّيقَةٌ، أَبْعَدُ ما تكونُ عمَّا رَمَاها به اليهودُ.

٥- التَّحْذِيرُ من مُتَابَعَـة أَهْوَاءِ أهـلِ الكِتَاب؛ لأنَّ الله تَعَالَى حذَّر نبيَّه منه، وما حُذِّر منه الرَّسُولُ ﷺ فنحنُ مُحَذَّرُون منه.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٤١).

٦- الإِشَارةُ إلى أنَّ ما قَالَهُ أهلُ الكِتَاب مِنَ الحقِّ فلا حَرَجَ علينا في اتِّبَاعِه؛ لأنَّ الله تَعَالَى قال: ﴿وَلَبِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾، فأمَّا ما جاؤُوا به مِنَ الحقِّ فإنَّنا نَقْبَلُه؛ لأنَّ الحقَّ يُقْبَلُ من كُلِّ مَنْ جاء به، ولهذا لَمَّا جاء الحَبْرُ إلى رَسُول الله ﷺ وقال: يا مُحَمَّدُ! إنَّا نجدُ أنَّ الله تَعَالَى يجعلُ السَّمواتِ على إِصْبَعٍ، والأَرَضِينَ على إِصْبَعٍ، وذكر تَمامَ الحديث، ضَحِكَ النبيُّ ﷺ تَصْدِيقًا لقَوْلِهِ، وقرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧][(١)].

٧- أنَّهُ يُشْتَرَط للإِثْمِ بالعَمَلِ: العلمُ بالتَّحْرِيم، فلا يَأْثَم العَامِلِ بالإِثْمِ وهو لا يعلم أنَّ عَمَلَه مُحَرَّم؛ لقوله تَعَالَى: ﴿وَلَبِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، فلا يُؤَثَّم الإنسانُ بفِعْلِ شيءٍ هو جَاهِلٌ به، ويدلُّ لهذا الأَصْلِ العَظِيم: أنَّ الله تَعَالَى قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فقال الله تَعَالَى: «قَدْ فَعَلْتُ»[(٢)]، وقال الله تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]، وقال تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، رقم (٤٨١١)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، رقم (٢٧٨٦) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص:٣٨٥).

إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، تدلُّ على أَنَّهُ لا تَأْثِيمَ مع الجَهْلِ، وهذا من رَحْمَة الله بالعِبَاد، أَلَّا يُؤَثِّمَهم بما يَجْهَلُونه؛ لأنَّ الإنسانَ بشرٌ ضَعِيفٌ، وإذا لم يأثم به لم يترتَّب عليه فديةٌ ولا كفَّارةٌ، إلَّا ما كان من قَتْلِ الخَطَإِ، فإنَّ فيه الكفَّارةَ؛ لِعِظَمِ حقِّ النَّفْسِ المَعْصُومة.

•●◦●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم اليَهُودُ والنَّصارى، فاليَهُودُ أُوتُوا التَّوْرَاة، والنَّصارى أُوتُوا الإنْجِيلَ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي: يَعْرِفُون النبيَّ ﷺ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ أي: كَمَعْرِفَةِ أبنائهم، وذلك لِمَا عَلِمُوا من صفته في التَّوْرَاة والإِنْجِيل، وهذه جاءَت بعد قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ تَأْكِيدًا لذلك القَوْلِ.

وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ ولم يقل: أَوْلَادهم؛ لأنَّ مَعْرِفَة الأَبِ لابْنِهِ أشدُّ من مَعْرِفَتِه لابْنَتِه؛ لكَوْنِهِ يَعْتَنِي بالابْنِ، ويَعْتَزُّ به غالبًا، ولأنَّ النَّبي ﷺ ذَكَـرٌ، فكان التَّشْبيه بمَعْرِفة الأبناءِ أَنْسَبَ من التَّشْبِيه بمَعْرِفة الأولادِ على سَبِيل العُمُوم.

وقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ أي: طَائِفَةً من هَؤُلاءِ الَّذِينَ أوتُوا الكِتَاب، وهم عُلَماءُ بني إسرائيلَ ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يَعْلَمُونه، ولكنَّهم يَكْتُمونه

ويُخْفُونه عن النَّاس، إمَّا حَسَدًا لأُمَّة مُحَمَّد ﷺ، وإمَّا للخَوْفِ على رِئَاسَتِهم وسَلْبِهم أَمْوَال النَّاس، وإمَّا لِغَيرِ ذلك.

ثُمَّ قال تَعالَى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا تَثْبِيتٌ للرَّسُول ﷺ: أنَّ الحقَّ من ربِّك، وقد أَتَاكَ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، ونَهَاه اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن ذلك، وهو لا يُمْكِنُ أن يَمْتَرِي؛ لأنَّ الضُّغُوط العَظِيمَة والكَلِمَات القَوِيَّة مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَاب ومِنَ المُشْرِكين على رَسُول اللهِ ﷺ قد تُطِيحُ بالشَّخْصِ، إلَّا أن يُثبِّته اللهُ تَعالَى، كما قال تَعالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

في هاتَين الآيتَين مِنَ الفَوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- أنَّ أَهْلَ الكِتَاب اليَهُودَ والنَّصارى يَعْرِفُون النبيَّ ﷺ تَمام المَعْرِفة، وذلك بما ذُكِرَ من أَوْصَافه في التَّوْرَاة والإِنْجِيل.

٢- تَمامُ عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ولم يقل: «وإنَّهم ليَكْتُمُون الحقَّ»؛ لأنَّ منهم مَن أَقَرَّ بالحقِّ وآمَنَ، كعَبْدِ الله ابن سَلَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من اليَهُود، والنَّجاشِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ من النَّصَارى، ولو جاء التعميمُ: «وإنَّهم ليَكْتُمُون الحقَّ» لم يَكُنْ في هذا بَيَانٌ لفَضْلِ أُولئك الَّذِينَ آمَنُوا بالرَّسُول ﷺ.

ثم إنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إشارةً إلى أنَّ النبي ﷺ على الحقِّ؛ لأنَّ فريقًا من أَهْلِ الكِتَاب آمَنُوا به وصَدَّقُوه، فيكونُ في ذكر الفريق دونَ التَّعميم فائِدَتان:

الفائدة الأُولى: العَدْلُ، وألَّا يُهْضَم الَّذِينَ آمَنُوا حقَّهم.

الفائدة الثَّانية: إثباتُ صِدْقِ الرَّسُول ﷺ عند أَهْلِ الكِتَاب؛ حيث إنَّ فَرِيقًا منهم آمَنُوا به وصَدَّقُوه.

٣- ذمُّ مَن كَتَمَ الحقَّ وهو يَعْلَمه، ويَشْهَد لهذا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

ولهذا كان واجبًا على أَهْل العِلْم أن يُبَيِّنُوا العِلْمَ كُلَّما احْتَاجَت الأُمَّة إِلَيْه، إمَّا بالسُّؤال المُبَاشِر عن العِلْمِ، وإمَّا بلِسَان الحال، بحيث يَقَعُ النَّاسُ في أمرٍ يَحْتَاجُون إلى بَيَانِه؛ لأنَّ النبي ﷺ تَوَعَّد مَن سُئِلَ عن عِلْمٍ، فكَتَمَه[1].

والسُّؤال عن العِلْمِ -كما أشرتُ إِلَيْه- يَكُون بلِسَان الحال، ويكون بلِسَانِ المَقَال، أمَّا بلِسَان الحَالِ فأن يَقَعَ النَّاسُ في أمرٍ يَحْتَاجُون إلى التَّنْبِيه عليه، وأمَّا بلِسَان المَقَال: فأن يَأْتِيَك شخصٌ يَسْأَلك عن مَسْأَلةٍ شَرْعِيَّةٍ، وأنت تَعْلَمُها، فيجبُ أن تُبَيِّنها له، إلَّا إذا عَلِمْت أنَّ هذا الرَّجل لا يُريد الوُصُول إلى الحقِّ، وإنَّما يُريد أن يُوقِعَ بين العُلَماء بِمَا يَحْصُل بينهم من اخْتِلافٍ في الرَّأي، أو يُرِيد الإِعْنَاتَ والمَشَقَّة على المَسْؤُول، فحينئذ يَكُون المَسْؤُول مُخَيَّرًا بين إِجَابَتِه، وتَرْكِ إِجَابَتِه.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم (٣٦٥٨)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم (٢٦٤٩)، وابن ماجه في المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم (٢٦١)، وأحمد (٢/ ٢٦٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٤- أنَّ الحقَّ من عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهُ صادرٌ من الله تعالى، وما صَدَرَ من الحقِّ فهو حقٌّ.

٥- فَضِيلةُ الرَّسُول ﷺ، حيث أَضَاف اللهُ تعالى الرُّبُوبيَّة إِلَيْه فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، وهذه رُبُوبيَّة خاصَّة تَقْتَضي عناية أَخَصَّ.

والرُّبُوبيَّة تنقسمُ إلى قِسْمَين: رُبُوبيَّة عامَّة لجميع الخَلْق، ورُبُوبيَّة خاصَّة لِمَن اجْتَباهم الله عَزَّوَجَلَّ، ومن الأمثلةِ الجَامِعَة للعامَّة والخاصَّة: قوله تعالى عن سَحَرة آل فِرْعَون: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٢١]، وهذه عامَّة، ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢]، وهذه خاصَّة.

٦- تثبيتُ النَّبي ﷺ وتَقْوِيتُه في قَوْلِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، وهو ﷺ لم يَمْتَرِ، ولم يَشُكَّ، ولكن هذا من باب تَقْوِيتِه وتَثْبِيتِه؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ بشرٌ، ويحتاجُ إلى التَّثْبيت والتَّوْكِيد، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

وقد بَيَّن الله تعالى أنَّ ثَباتَ النبي ﷺ كان بفَضْلِه ورَحْمَتِه، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

٧- وُرُودُ النَّهي عمَّا لا يُمْكِنُ وُقُوعُه؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، والامْتِرَاءُ من الرَّسُول ﷺ ليس بواقِعٍ، ولا يُتَوقَّع أيضًا؛ لأنَّهُ ﷺ أَقْوى النَّاس إيمانًا بالله تعالى.

• • ••• • •

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أي: لكُلٍّ من المُسْلِمين وأهلِ الكِتَاب وِجْهَةٌ ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، وإن شئتَ فقُلْ: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ أي: لكُلِّ أحدٍ من النَّاس ﴿وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، فمن النَّاس مَن يُوَلِّي وَجْهَه شَطْرَ الشَّرِّ والفَسَاد والكُفْر والعِنَاد، ومن النَّاس مَن يُوَلِّي وَجْهَه شَطْرَ الإِيمان والإصلاحِ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: تَسَابَقُوا إلى الخَيْرَات، والخيراتُ: هي ما جاء به الرَّسُول ﷺ من الحقِّ.

وقَوْلُهُ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ يعني: في أيِّ مكانٍ تكُونون فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سوف يأتي بكم جميعًا، وذلك إذا حُشِرَ النَّاس، فإنَّ الله تعالى يَحْشُر النَّاسَ جميعًا من أيِّ مكانٍ كَانُوا في الأَرْضِ، يُحْشَرون كلُّهم جميعًا كنَفْسٍ واحدةٍ، يَقُومُون لله عَزَّوَجَلَّ من قُبُورهم كنفْسٍ وَاحِدَة، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، وقال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يأتي بالخَلْق جميعًا أينما كَانُوا في الأَرْض، ويَحْشُرهم في مكانٍ واحدٍ، يُسْمِعُهم الدَّاعي، ويَنْفُذُهم البَصَرُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهو قادرٌ على إيجاد المَعْدُوم، وإِعْدَام المَوْجُود بدون عَجْزٍ ولا ضَعْفٍ.

وفِي هَذهِ الآيَةِ الكَرِيمَة من الأحكام والفَوائِد ما يلي:

١- أنَّ كُلَّ واحدٍ من النَّاس له وِجْهَة يَتوَلَّاها، ويتوَجَّه إِلَيْها، وهم نَزَعات مُتَبايِنَة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢].

٢- الأمرُ بالتَّسَابق إلى الخَيْرِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، ثُمَّ إنَّ الخَيْرات منها ما يجبُ، ومنها ما يُسْتَحبُّ، على حَسَب ما جاءت به الشَّريعَةُ.

٣- إثباتُ الحَشْرِ يوم القِيامة، وأنَّ جميع النَّاس سوف يُحْشَرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾.

٤- إثباتُ اسمٍ من أسماءِ الله، وهو (القَدِير)، وما دلَّ عليه من الوَصْفِ، وهو القُدْرَة، فلِلَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ القُدْرَةُ التَّامَّة في كُلِّ شيء، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

• • ◦ • •

قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

هذه الآيَة كالتَّوكِيدِ لِما سبق؛ لأنَّ المقامَ مَقامٌ عَظِيم، والأمرُ مُهِمٌّ جدًّا، ولا يَشْعُر الإنسانُ بعِظَم هذا المقامِ وأَهَمِّيَّتِه، إلَّا لو كان مَوْجُودًا في ذلك الوقت، أي: حين تَحْوِيل القِبْلَة؛ لأنَّهُ أَمْرٌ جَلَل عَظِيم، فلهذا أَكَّدَه الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية، وفي الآية الَّتي بعدها.

قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: من أيِّ مكانٍ خَرَجْتَ، وإلى أيِّ جِهَة اتَّجهت، فلابُدَّ أن تُوَلِّي وَجْهَك شطر المَسْجِد الحَرَام، أي: جِهَتَه.

وقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: إنَّ ما ذُكِرَ من تَوَلِّيك شَطْرَ المَسْجِد الحَرَام لَلْحَقُّ من الله، وهذه جُمْلَة مُؤَكَّدة بـ: (إِنَّ) وباللَّام، وتأكيدُ الجُمْلَة يدلُّ على أَهَمِّيَّتها، وأنَّ الأمرَ فيها يَحْتَاج إلى تَوْكِيد وتَثْبِيت في قُلُوب النَّاس.

وقَوْلُهُ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يُقال فيها كما قِيلَ في الآيَة السَّابقة، أي: أَنَّهُ لِكَمَال مُرَاقَبَتِه وعِلْمِه لا يَغْفُل عمَّا يَعْمَلُه العِبَاد.

في هذه الآيَة الكَرِيمَة من الفوَائِد والأحْكَام، ما يلي:

١- تأكيدُ الأُمُور المُهِمَّة؛ حتَّى تَرْسَخ في النُّفُوس، وتطمئنَّ إِلَيْها القُلُوب، ولا يُعَدُّ هذا من التَّكْرَار الزَّائد، بل هو من التَّكْرَار البَلِيغ؛ لأنَّ الشَّيء كُلَّما كان مُهِمًّا فإنَّ البَلَاغة في العِنَاية به والاهْتِمَام به.

٢- أنَّ الإنسانَ في أيِّ جِهَةٍ خَرَجَ من بَرٍّ أو بَحْرٍ أو جَوٍّ فإنَّهُ يتعيَّنُ عليه أن يُوَلِّي وَجْهَه شَطْرَ المَسْجِد الحَرَام في الصَّلاة، ولكن سبق أَنَّهُ استُثْنِيَ من ذلك مَسَائل، منها: الخَوْف، والمرَض، والنَّافِلَة في السَّفر، واشْتِبَاه القِبْلَة بعد الاجْتِهَاد.

٣- أنَّ الإنسانَ لو تَبَيَّن له في أثناء الصَّلاة أَنَّهُ إلى غَيْر القِبْلَة فإنَّهُ يجبُ أن يَنْحَرف إلى القِبْلَة، فلو أنَّ الإنسان في البَرِّ، واجْتَهَد في القِبْلَة، واتَّجه إلى جهةٍ ما، ثُمَّ جاءه رَجُلٌ أَعْلَمُ منه بالجِهَات، وقال له: إنَّ القِبْلَة عن يَمِينك أو عن يَسَارك، وَجَبَ عليه أن يتَّجِهَ إلى ما أَرْشَده إِلَيْه هذا الرَّجل، ولا يَلْزَمه أن يَسْتَأنف الصَّلاة؛

لأنَّ ما حَصَلَ منه في أوَّل الصَّلاة صادرٌ عن اجْتِهاد، ولكن لو استمرَّ على الجِهَة الَّتي هو عليها بدون عِلْمٍ فإنَّهُ يجب عليه إعادَة صَلَاتِه؛ لأنَّ اتِّجاهه إلى غَيْر القِبْلَة فيما بَقِيَ من صَلَاته باطلٌ، والصَّلاة لا تَتَجزَّأ، فيَنْسَحِب البُطْلَان إلى أوَّلها.

ولهذا لمَّا جاء رجلٌ إلى أَهْلِ قُبَاء، وهم يُصَلُّون صلاةَ الفَجْر، مُتَّجِهين إلى بيت المَقْدِس، والكَعْبَةُ خَلْفَ ظُهُورهم، قال لهم: إنَّ النَّبي ﷺ أُنْزِل عليه اللَّيلةَ قُرْآنٌ، وقد أُمِرَ أن يَسْتَقْبِل الكَعْبَة، فاتَّجَهُوا إلى الكَعْبَة واسْتَقْبَلُوها[1]، وصار بيتُ المَقْدِس خَلْفَ ظُهُورهم، بعد أن كان قِبَلَ وُجُوههم؛ لأنَّ هذا هو الوَاجِبُ.

٤- أنَّ ما جاءت به شَرِيعةُ مُحَمَّد ﷺ هو الحقُّ، وعلى هذا فيكونُ ما سِوَاها باطلًا.

ويتَفَرَّعُ على هذه الفَائِدَة: بُطْلَان البِدَع بجَمِيع أَنْوَاعها؛ لأنَّ البِدَعَ مُخَالِفَة لِمَا جاء به النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّ البِدْعَةَ المَذْمُومةَ هي: التَّعبُّدُ للهِ تعالى بما لم يَشْرَعْه اللهُ، من عَقِيدةٍ أو قولٍ أو عملٍ، فكلُّ بِدْعَةٍ فهي بَاطِلَةٌ؛ لأنَّها مُخَالِفة لِمَا جاء به الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٥- كَمال عِلْمِ الله تعالى ومُرَاقَبَتِه المَفْهُوم من قَوْلِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُوَفِّقَنا للعَمَل الَّذي يُرْضِيه، وألَّا يَعْلَم منَّا إلَّا ما يَرْضَى به عنَّا؛ إنَّهُ جوادٌ كَرِيم.

•●○●•

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة، رقم (٤٠٣)، ومسلم: كتاب المساجد، باب تحويل القبلة، رقم (٥٢٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

وهذه الآيَةُ كما هو مَعْلوم هي الآيَةُ الثَّالِثَةُ الَّتي كُرِّر فيها وُجُوب الاتِّجاه إلى الكَعْبَة المُعَظَّمة، وذلك للتَّأْكِيد، وكلُّ جُمْلَة منها أُعْقِبَت بمعنًى عَظِيمٍ:

أمَّا الأُولى -وهي قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾- فأَعْقَبها اللهُ تعالى ببيَان أنَّ ذلك هو الحقُّ، وأنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَاب يَعْلَمُون ذلك.

وأمَّا الثَّانية ففيها تَقْرِير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لذلك الحَقِّ، وأنَّهُ حقٌّ من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا الثَّالِثَة ففيها بيانُ الحِكْمَة من تَحْوِيل القِبْلَة، وتَثْبِيتُ المُؤْمِنين على ما يُورَد عليهم من الشُّبُهَات حول هذا المَوْضُوع.

يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أي: من أيِّ جِهَةٍ خَرَجْتَ، ومن أيِّ مَكَان خَرَجْتَ ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: جِهَةَ المَسْجِد الحَرَام، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ في أيِّ مكانٍ من برٍّ، أو بحرٍ، أو جوٍّ ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

ثُمَّ بَيَّنَ الحِكْمَة من ذلك بقَوْلِهِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: لئلَّا يَحْتَجَّ النَّاسُ عليكم، يعني: أَوْجَبنا عليكم ذلك؛ لئلَّا يَحْتَجَّ النَّاس عليكم، فمَن الَّذي يحتجُّ؟

الجواب: يحتجُّ من النَّاس طَائِفَتان:

الطَّائِفَة الأُولى: أهلُ الكِتَاب.

الطَّائِفَة الثَّانية: المُشرِكُون.

▪ أمَّا المُشْرِكُون فإنَّ النبي ﷺ لو بَقِيَ على الاتِّجاه لبَيْتِ المَقْدِس لقالوا: هذا الرَّجُل تَرَكَ قِبْلَة آبائِهِ إلى بَيْتِ المَقْدِس.

▪ وأمَّا اليهودُ فإنَّهم يقولون: هذا الرَّجُل تَرَكَ قِبْلَتنا، وأَخَذَ بقِبْلَة قَوْمِه.

فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّهُ أَوْجَب علينا أن نَتَّجِه إلى الكَعْبَة؛ لئلَّا يحتجَّ هَؤُلاءِ وهؤلاء، فبطَلَت حُجَّة المُشْرِكين باتِّجاه النبيِّ ﷺ إلى الكَعْبَة، ورَجَعَ إلى ما كانت عليه القبلةُ من زَمَنِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبطَلَت حُجَّة اليَهُود الَّذِينَ قالوا: يَتْرُكنا ويَرْجِع إلى دِينِ آبائِهِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما يفْعَل ذلك امتثالًا لأَمْرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتَحْقِيقًا لِما عَرَفُوه هم فيما عِنْدَهم من الكِتَاب، ولهذا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾، وهم اليَهُودُ والمُشْرِكُون على الوجه الَّذي ذكرنا آنفًا.

ثُمَّ نَهَى اللهُ عِبَادَه عن خَشْيَة النَّاس ولو كَانُوا ظَالِمِين، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ يعني: دَعُوا خَوْفَ هَؤُلاءِ الظَّالِمِين، واخْشَوْني، فإنَّ خَشْيَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَنْدَفِع بها كُلُّ شَرٍّ، وكلُّ ظُلْمٍ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هذه الجُمْلَة مَعْطُوفة على قَوْلِه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، أي: وأَمَرْتُكم بأن تُوَلُّوا وُجُوهكم شَطْرَ المَسْجِد الحَرَام؛ لأُتِمَّ نَعْمَتي عليكم بالاتِّجاه إلى الكَعْبَة المُعظَّمة، الَّتي هي أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاس.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (لَعَلَّ) هذه للتَّعْلِيل، أي: لعلَّكم تكُونُون من ذَوِي الهِدَاية، الَّذِينَ وُفِّقُوا لِهِدَاية العِلْمِ، وهِدَايَةِ الرُّشْد.

فِي هَذِهِ الآيات الكَرِيمَة من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- تأكيدُ الاتِّجاه إلى الكَعْبَة المُعَظَّمة، وقد سبق الكلامُ عن ذلك، وبيانُ أنَّ الاتِّجاه إلى الكَعْبَة المُعَظَّمة واجبٌ، ومن شُرُوط صِحَّة الصَّلاة، إلَّا ما استُثْنِيَ من المَسَائِل الأَرْبَعِ السَّابِقَة[1].

٢- أنَّ أحْكَام الله تعالى الشَّرْعِيَّة مُعَلَّلة، أي: لها عِلَّةٌ وحِكْمَةٌ، ولَيْسَت لِمُجَرَّد المَشِيئَة الَّتي ليس لها حِكْمَة ولا عِلَّة؛ لقَوْلِهِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

وفيها ردٌّ على مَن يقول من أهل البِدَع: إنَّ أَفْعَال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأحْكَامَه لا تُعَلَّل بعِلَّة؛ لأنَّهُ ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فنقول: إنَّ القُرْآن والسُّنَّة مَمْلُوءان من ذِكْرِ تَعْلِيل الأحْكَام بالعِلَل والمَصَالِح، وأمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ فهو لا يُسْأَل عمَّا يفعل؛ لكَمَال أَفْعَاله، ولكَوْنِها لا تَصْدُر إلَّا عن حِكْمَة بَالِغَة.

ثم إنَّ هناك أفعالًا للهِ تعالى وأحْكَامًا لا تُعْلَم عِلَلُها وحِكْمَتُها، فلا مَطْعَنَ فيها، ولا مُعَارَضَةَ للهِ تعالى فيها؛ لأنَّ عُقُول الخَلْقِ قاصرةٌ عن إِدْرَاك كُلِّ حكمةٍ للهِ تعالى.

٣- أَنَّهُ يَنْبَغِي للإنسان أن يَتَجَنَّب كُلَّ سبيل يَكُون فيه حُجَّةٌ عليه، حتَّى ولو كانت الحُجَّة من أهل الظُّلْمِ، ما لم يُخَالِف بذلك شَرِيعَةَ الله تعالى، فدَرْءُ الإنسان عن نَفْسِه ما يُقَبِّح به ويُسَبُّ به أمرٌ مَطْلُوب.

---

(١) انظر: (ص:٤٦٤).

٤- أنَّ الظَّالِمين أهلُ عِناد وشِقَاق، وأنَّهم يُعانِدون ويُشاقُّون حتَّى فيما تبيَّن فيه الحقُّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾.

٥- تحريمُ خَشْيَة النَّاس في إِضَاعَة حُقُوق الله؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾.

ويترتَّبُ على هذه الفَائِدَة: أنَّهُ لا تَجُوز المُداهَنَة في دِينِ الله عَزَّوَجَلَّ، بل يجب أن يَكُون الإنسانُ قَوِيًّا، حازمًا، مُعْتَزًّا بدِينِهِ الَّذي مَنَّ اللهُ به عليه.

٦- بيانُ نِعْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه الأُمَّة بإِتْمَام النِّعْمَة، حيث قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾، وما أَكْثَرَ نِعَمَ الله تعالى على هذه الأُمَّة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة! كما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

٧- أنَّ امْتِثَال أَمْرِ الله ورَسُوله، واجْتِنَابَ نَهْيِ الله ورَسُولِه سببٌ للهِدَاية، وكُلَّما ازْدَادَ الإنسانُ تَقْوًى لله ازْدَادَ هِدَايةً؛ كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، ولهذا قال هنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٨- أنَّ الآيَة الكَريمَة تُشِير إلى أنَّ هناك أُناسًا ضِدَّ الدِّين الإسْلَامِيِّ، يَحْتَجُّون على المُسْلِمين في كُلِّ ما جاء من شَرْعِهم، ولكن على المُسْلِمين أن يَصْمُدوا، وأن يَثْبُتُوا على ما هم عليه، كما أَمَرَهم اللهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

وأهلُ العُدْوَان يَحْتَجُّون أحيانًا على القُرْآن الكَرِيم، وأحيانًا على رَسُول اللهِ ﷺ، وأحيانًا على ما تَضَمَّنَتْه رسالةُ النبيِّ ﷺ من الشَّرائِع أو الشَّعَائر.

نسأَلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا ممَّن يَعْتَزُّ بدِينِهِ، وأن يَكْفِيَنا شرَّ أَعْدَائنا، وأن يَجْعَل شُرُورَهم في نُحُورهم، إنَّه على كُلِّ شيء قديرٌ.

• • ೞ • •

قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿كَمَآ﴾ الكافُ هنا للتَّعْلِيل، كقَوْلِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]، أي: لهِدَايَتِه إيَّاكم، و(ما) مَصْدَرِيَّة، وتقديرُ الكَلَام: كإِرْسَالنا فيكم رَسُولًا، أي: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنَّ علينا بما سَبَقَ من التَّشْرِيع بالاتِّجاه إلى الكَعْبَة؛ ليُتِمَّ نِعْمَته علينا، وليُذَكِّرَنا بمَن أَرْسَلنا إلينا من الرُّسُل، وهو مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَوْلُهُ: ﴿فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي: منكم أيُّها العربُ؛ لأَنَّهُ ﷺ من العَرَب، فهو هَاشِميٌّ قُرَشِيٌّ، وهو من بني إسماعيلَ، وليس من بني إسماعيلَ نبيٌّ سِوَى مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَوْلُهُ: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ أي: يَقْرَؤُها، والمرادُ بها: القُرْآن الكَرِيم، ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يُزَكِّي عِبَادَاتِكم، ويُزَكِّي أَخْلَاقكم، ويُزَكِّي نُفُوسَكم، فالدِّين كلُّه تزكيةٌ على يد الرَّسُول ﷺ، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وهو القُرْآن لَفْظه ومَعْنَاه، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي السُّنَّة الَّتي جاء بها رَسُولُ اللهِ ﷺ، وكذلك ما تَضَمَّنَه القُرْآنُ من الحِكَم والأَسْرَار في الأَحْكَام الَّتي جَاءَ بها.

وقَوْلُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما لم تكُونُوا تَعْلَمون من قبلُ؛ فإنَّ العَرَبَ كَانُوا قبل الرِّسَالة أُمَّةً أُمِّيَّةً، لا يَعْرِفُ واحدٌ منهم أن يَكْتُب اسْمَه، ولكنَّ الله تعالى مَنَّ عليهم بهذا الرَّسُول الكَرِيم، فحَصَلَ لهم علمٌ وزَكَاءٌ وحِكْمَةٌ.

في هذه الآيَة من الحِكَمِ والفَوَائِد ما يلي:

١- مِنَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علينا، حيث أَرْسَل فينا هذا الرَّسُول النَّبيَّ الأُمِّيَّ، الَّذي يَتْلُو علينا آياتِ الله، ويُزَكِّينا، ويُعَلِّمنا الكِتَاب والحِكْمَة.

٢- أنَّ رَسُول اللهِ ﷺ حقٌّ مِن عندِ اللهِ، قام بما يجِبُ عليه من تِلَاوة آياتِ الله عَلَينا، وتَزكيتِنا، وقد علَّمنا ﷺ كُلَّ ما نَحْتَاج إِلَيْه في أُمُور دِينِنا ودُنْيانا، حتَّى قال أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد تُوُفِّي رَسُول اللهِ ﷺ وما طائرٌ يُقلِّب جَناحَيْه في السَّماء إلَّا ذَكَر لنا منه علمًا[1].

٣- ثُبُوت الزَّكاء لِمَن اهْتَدَى بما يَتْلُوه النبيُّ ﷺ من آياتِ الله علينا؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾، ومَن عَرَفَ حال العَرَب قبل الإِسْلَام عَرَفَ كَيْفَ زكَّاهم الإسلامُ، وهَذَّب أَخْلَاقَهم، وأَزَال عنهم العَصَبِيَّة والجَاهِلِيَّة؟

٤- الحثُّ على تعلُّم الكِتَاب والحِكْمَة، أي: تعلُّم الكِتَاب والسُّنَّة؛ لأنَّ الله جَعَلَه ممَّا مَنَّ اللهُ به علينا، حيث قال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٥- فَضْلُ النَّبي ﷺ على أُمَّته بما يَتْلُوه عليهم من آياتِ الله، ويُزَكِّيهم، ويُعَلِّمُهم الكِتَاب والحِكْمَة، ويُعَلِّمُهم ما لا يَعْلَمُون.

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٤١).

٦- الإِشَارةُ إلى أنَّ مَن تَلَا على عِبَاد الله آياتِ الله، وزَكَّاهم بما يُقَدِّم لهم من المَوَاعِظ، وعَلَّمَهم كِتَابَ الله وسُنَّة رَسُوله ﷺ، كان وَارِثًا لرَسُول الله ﷺ، ولهذا كان العُلَماء الرَّبَّانِيُّون وَرَثَةَ الأنبياءِ؛ لأنَّهم يَرِثُونهم في أُمَمِهم، يُعَلِّمون الأُمَم ما خَلَّفَه الرُّسُل من العِلْمِ والهُدَى، ويَدْعُونهم إلى الخَيْرِ، ويُعِينُونهم على البِرِّ والتَّقْوَى.

٧- أنَّ القُرْآن والسُّنَّة مُشْتَمِلان على الحِكْمَة، والحِكْمَة: هي وَضْعُ الأشياءِ في مَوَاضِعِها، بحيث تكونُ الأحْكَامُ مُطَابِقَةً لِمَا تكون فيه المَصَالحُ، ودَرْءُ المَفَاسِد.

٨- فَضِيلَةُ العِلْمِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾، حتَّى انْتَقَلَت أُمَّةُ العربِ من أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ جَاهِلَةٍ، إلى أُمَّةٍ عَالِمَةٍ مُتقدِّمةٍ.

٩- أنَّهُ يَنْبَغِي للإنسانِ أن يُذكِّر النَّاسَ بنِعْمَة الله عليهم في إِرْسَال مُحَمَّد ﷺ، الَّذي يَتْلُو علينا آياتِ الله، ويُزَكِّينا، ويُعَلِّمنا الكِتَاب والحِكْمَة، ويُعَلِّمُنا ما لم نكن نَعْلَمُ.

•●○●•

قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

أَمَرَ اللهُ تعالى بذِكْرِه، وبَيَّنَ ثَوَابَه وجَزَاءَه، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ﴾ وهذا أَمْرٌ بالذِّكر، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ وهذا الثَّوَاب والجَزَاء.

﴿وَاشْكُرُواْ لِي﴾ أي: اشكُروا لي ما أَعْطَيتُكم من النِّعَم، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ فتَجْحَدُوا نِعَمَ الله عليكم.

في هذه الآيَة من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- الأمرُ بذِكْرِ الله، وذِكْرُ الله تعالى يَنْقَسم إلى قِسْمَين: ذكرٌ واجبٌ، وذكر تطوُّع ليس بوَاجِبٍ.

فالصَّلاة -مثلًا- من الأَذْكَار الوَاجِبَة، وهي مُتَضَمِّنة لذِكْرِ الله؛ لأنَّ فيها قِرَاءة القُرْآن، وفيها الرُّكُوع والسُّجُود، والقِيَام والقُعُود، والتَّسْبيح والتَّعْظِيم للهِ عَزَّوَجَلَّ، ودُعَاء الله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ هذا من ذِكْرِ الله.

والنَّوْعُ الثَّاني: ذِكْر تَطَوُّع، كالتَّسْبِيح، والتَّهْلِيل، والتَّكْبِير، والصَّلَوات النَّافِلَة.

وينقسمُ الذِّكْرُ من وجهٍ آخرَ إلى قِسْمَين:

- ذِكْرٌ بالجَوَارح كالأَقْوَال والأَفْعَال، وهذا يَقَعُ من المُؤْمِن والمُنَافِقِ.
- وذِكْرٌ بالقَلْبِ، وهذا لا يَقَعُ إلَّا من المُؤْمِنِ.

٢- أنَّ جَزَاءَ الذَّاكرين للهِ أن يَذْكُرهم اللهُ، وقد ثَبَتَ في الحديث الصَّحيح: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»[1]، وهم: المَلَائِكَة.

وعلى هذا فيَنْبَغِي للإنسان الإِكْثَارُ من ذِكْرِ الله عَزَّوَجَلَّ، والمؤمنُ يُمْكِنُه أن يَكُون ذاكرًا للهِ تعالى دائمًا، وذلك بأن يُشَاهِد نِعْمَة الله عليه، فإنَّ نِعَمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على العَبْدِ لا تُحْصَى، وكُلُّ نِعْمَة أَنْعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها عليك فإنَّها تُذَكِّرك بالله عَزَّوَجَلَّ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبإِحْسَانه وبفَضْلِه وإِنْعَامه، ولهذا أَثْنَى الله تعالى على الذَّاكِرين على كُلِّ حالٍ، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

٣- وُجُوب شُكْرِ الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك بالقِيَام بطَاعَتِه، وصَرْفِ نِعَمِه إلى ما أَمَرَنا اللهُ بصَرْفِها إِلَيْه، فلا نَسْتَعينُ بنِعَمِه على مَعْصِيته.

٤- تحريمُ كُفْرِ النِّعْمَة؛ لقَوْلِه: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

فنسأَلُ الله تعالى أن يُعِيننا على ذِكْرِه، وشُكْرِه، وحُسْنِ عِبَادَته؛ إِنَّهُ على كُلِّ شيء قديرٌ، وبالإجابةِ جَدِيرٌ.

• • ❊ • •

قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا نِداء من الله عَزَّوَجَلَّ، وَجَّهه إلى المُؤْمِنين بوَصْفِ الإيمان -وهو الوَصْفُ العَظِيم الَّذي يعتزُّ به كُلُّ مؤمنٍ- وهو لا شَكَّ وصفُ تكريمٍ وحثٍّ وإغراءٍ، ولهذا قال عبدُ الله بن مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا سَمِعْتَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأَرْعِها سَمْعَك، فإمَّا خيرٌ تُؤْمَر به، وإمَّا شرٌّ تُنْهَى عنه[1].

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص:٧٥).

وإذا صدَّر اللهُ الخطابَ بهذا النِّدَاء فإنَّهُ يُسْتَفاد منه ثَلَاثُ فَوائد:

الأُولى: أَهَمِّيَّة ما سيُوَجَّه إلى المُؤْمِنين.

الثَّانية: أنَّ امْتِثَال ما سيُوَجَّه إِلَيْهم من مُقْتَضَيات الإِيمَان.

الثَّالِثةُ: أنَّ مُخَالَفَته نقصٌ في الإِيمَان.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: اطْلُبُوا العَوْنَ بالصَّبر والصَّلاة، فأمَّا الصَّبْرُ على الأُمور ومُصَابَرَتُها فإن كانت من المَأْمُور بها فأن تَصْبِر على أَدَائِه كما أُمِرْتَ به، وإن كانت من المَنْهِيِّ عنها فأن تَصْبِر على اجْتِنَابك لها؛ وذلك لأنَّ النُّفُوس ضعيفةٌ، قد يشقُّ عليها فعلُ الأَوَامر، فتتضَجَّر وتَنْسَحب، ولا تُكمل الوَاجِبَ، وقد يشقُّ عليها اجتنابُ النَّوَاهي، فتَعْجَز عن الصَّبرِ، وتَنْتَهِك المُحَرَّمات، فلهذا أَمَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالصَّبْرِ: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾، وما أُعْطِيَ الإنسانُ عطاءً أَحْسَن وأَوْسَعَ من الصَّبْر، فإنَّ الإنسانَ إذا صَبَرَ وعَوَّدَ نَفْسَه على الصَّبْر سَهُلَت عليه الأُمُورُ.

وأمَّا الصَّلاة إذا لجَأَ الإنسانُ إليها عند الشَّدَائِد فإنَّهُ يُوشِك أن تُخَفَّف عنه هذه الشَّدَائِدُ؛ لأنَّ الإنسانَ يَقِفُ بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ يُنَاجِيه بكَلَامه، ويتقرَّب إِلَيْه بالثَّنَاء عليه، ويَدْعُوه، قال النبي ﷺ: «**وَأَمَّا السُّجُودُ فَأَكْثِرُوا فِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»[1]، فالصَّلاةُ تُعِين الإنسانَ على شَدَائِدِه، ويُذْكَر عن النَّبي ﷺ أَنَّهُ كان إذا حَزَبَه أَمْرٌ فَزِعَ إلى الصَّلاة[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩) من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولفظه: «**فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ**».

(٢) تقدم تخريجه (ص:١٨٧).

ثُمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وهذا تَرْغِيبٌ في الصَّبْر؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنَّ الله معه سَهُل عليه مُعَالجةُ نَفْسِه بالصَّبْرِ.

فِي هَذِهِ الآيَة من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- فَضِيلَةُ الإِيمان، وأَنَّهُ وَصْفٌ يَنْبَغِي للإنسان أن يَعْتَزَّ به؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- أن يَسْتَعِين الإنسانُ على أُمُوره بالصَّبْر على الفِعْلِ إن كانت من الأَوَامِر، وعلى التَّرْكِ إن كانت من النَّوَاهي.

٣- جوازُ الاسْتِعَانة بغير الله فيما يَكُون سببًا للعَوْنِ؛ لأَنَّهُ قال: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، وهذه اسْتِعَانةٌ مُقَيَّدةٌ غَيْرُ مُتَعَبَّد بها، أَمَّا الاسْتِعَانة المُطْلَقة المُتعَبَّد بها فلا تكونُ إلَّا للهِ وَحْدَه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٤].

٤- فَضِيلةُ الصَّبْر، وأَنَّه عَوْن للإنسان على مُهِمَّات أُمُوره، وهذا شيء مُجَرَّب؛ فإنَّ الإنسان قد يَسْتَثْقِل أن يَقُوم في آخِرِ اللَّيل؛ ليَتَوَضَّأ بالماء البارد، ويُصَلِّي في البَرْدِ، وفِرَاشُهُ أَدْفَأ له، ولكن نقول: اصْبِر على هذا، واحْتَسِب الأجرَ، وكذلك رُبَّما يشقُّ عليه أن يَتَرَدَّد إلى المساجد، فنقول: اصْبِر واحْتَسِب، ورُبَّما يشقُّ عليه أن يَصُوم، فنقول: اصْبِرْ على الجُوع، اصْبِرْ على العَطَش؛ فإنَّ هذا كُلَّه خيرٌ لك، وكذَلِك إذا نَزَلَت به مُصِيبَةٌ فصَبَرَ وانتظر انْكِشَافَها هانت عليه.

٥- أنَّ الإنسان إذا حَزَبَه أَمْرٌ واشتدَّ عليه فليَفْزَع إلى الصَّلاة؛ لقَوْلِهِ: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٦- أنَّ الصَّلاة عَوْن للعَبْدِ على مُهِمَّات أُمُوره.

٧- فَضِيلةُ الصَّلاة وفَوَائِدها، ومَن تَأَمَّل الواقعَ وجد أنَّ للصلاة تأثيرًا بالغًا في تَنْشِيط الإنسان، وتَقْوِيته، وتَسْهِيل الأُمُور أمامه.

٨- إثباتُ أنَّ الله مع الصَّـابرين، والمعيَّـة هنا لا تَقْتَضِي الاخْتِلَاط، يعنـي: لا تَقْتَضِي أن يَكُون معهم في أَمَاكِنِهم؛ فإنَّ الله تعالى مُنَزَّه عن ذلك، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوق كُلِّ شيء، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، لكن هذه المعيَّة تَقْتَضِي النَّصْرَ والتَّأْيِيد والتَّثْبِيت، وهذه مَعِيَّةٌ خاصَّةٌ، وأمَّا المعيَّةُ العامَّةُ لكُلِّ أحدٍ فتقتضي الإِحَاطَةَ بالخَلْقِ علمًا وقُدْرَةً وسُلْطَانًا وغير ذلك من معاني رُبُوبِيَّته تعالَى، كقولِه تعالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

٨- التَّرْغِيبُ في الصَّبر؛ لأنَّ قـول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يُراد بـه تَرْغِيبُ هؤلاء بالصَّبْرِ.

وللصَّبر فَوَائِدُ كثيرةٌ:

منها: الأَجْرُ الكثيرُ، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

ومنها: تَرْويضُ النَّفْس على الانْضِبَاط والحِكْمَة وعَدَمِ المَلَل، وذلك أنَّ الإنسان لابُدَّ أن يَفْعَل، فإذا صَبرَ على الفعل الَّذي هو مُتَلَبِّس به، مع عِلْمِه بفَائِدة الاسْتِمْرار فيه، فقد رَوَّضَ نَفْسَه على مُلَاقاة الأُمُور ومُعَاناتها.

ومنها: أنَّ الصَّبْرَ سببٌ لِحُسْنِ العَاقِبَة؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

ومنها: أنَّ الله مع الصَّابِرين، وهذه أعظمُ فَائِدَة: أن يَكُون اللهُ معك؛ فإنَّهُ مَن كان الله معه فإنَّهُ منصورٌ.

ومنها: أنَّ الإنسانَ تَهُونُ عليه المصائبُ فيما إذا أُصِيبَ بمُصيبةٍ، ثُمَّ صَبَرَ واحْتَسَب، ولهذا قال النبيُّ ﷺ للرَّجُل الَّذي أَرْسَلته إحدى بَنَاتِه؛ ليَحْضُر إلى غُلَامٍ عندها أو جَارِيةٍ في سِيَاق المَوْتِ، قال النبيُّ ﷺ لهذا الرَّجُل: «مُرْهَا فَلْتَصْبِرْ، وَلْتَحْتَسِبْ؛ فَإِنَّ للهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَبْقَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى»(١).

•••

قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾

في هذه الآيَة يَنْهَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبادَه المُؤْمِنين أن يَقُولُوا للَّذي يُقْتَل في سبيل الله: أَمْوَات، أي: أن يَقُولُوا في شَأْنِ هؤلاء: إنَّهم أَمْواتٌ، ومعلومٌ أنَّ مَن قُتِلَ في سبيل الله فإنَّه سيموتُ حِسًّا، ولهذا يُدْفَن في الأَرْضِ كما يُدْفَن غَيْره من الأمواتِ؛ لأنَّ رُوحَه فَارَقَت جَسَدَه، لكن هَؤُلاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا في سبيل الله -في الواقع-

(١) أخرجه بمعناه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يُعَذَّبُ المَيِّتُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»، رقم (١٢٨٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أحياءٌ حَياةً بَرْزَخيَّةً، لَيْسَت كحياة الدُّنْيَا المادِّيَّة الحسِّيَّة ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ لأنَّ حَيَاتهم من عَالَم الغَيْبِ، وعالَم الغَيْب لا يُمْكِنُ أن نَشْعُر به في عَالَم الشَّهادة، لكن يجب علينا أن نُؤْمِن بكُلِّ ما أَخبَرَ اللهُ به من أُمُور عالَم الغَيْبِ؛ لأَنَّهُ صَادِرٌ عن أَعْلَم العَالِمين، وأَصْدَق القائلين، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

في هذه الآيَة من الفوَائِد والأحْكَام، ما يلي:

١- نَهْيُ المُسْلِم أن يقول لِمَن قُتِلَ في سبيل الله: إنَّه ميِّت! هذا إذا قلنا: إنَّ القَوْلَ هنا قَـوْلُ اللِّسَان، أمَّا إذا قلنا: إنَّ القولَ قَوْلُ القلب -يعني: اعْتِقَاد القلب- فإنَّهُ لا حَرَجَ أن يقول: مات فُلَان! لكن يَنْبَغي أَلَّا نَهْضِمَه حقَّه، بل نقول: مات مُجَاهِدًا في سبيل الله؛ حتى يتبيَّن أَنَّهُ رَجُل مُجَاهِد، ولا نَهْضِمَه حقَّه.

٢- فَضِيلةُ مَن يُقْتَل في سبيل الله؛ لقَـوْلِهِ تعـالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾، أي: بـل هم أحياءٌ.

٣- جَوَاز إِطْلَاق الوَصْفِ باعْتِبَارين، فإنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سبيل الله أمواتٌ باعْتِبَار الحَيَاة الحِسِّيَّة؛ لأنَّ أَرْوَاحهم فَارَقَت أَجْسَادهم، لكنَّهم أحياءٌ باعْتِبَار الحَيَاة البَرْزَخِيَّة، فهم أَمْوَاتٌ من وَجْهٍ، وأَحْيَاءٌ من وجهٍ آخر، وذلك لاخْتِلَاف الأَحْوَال، ولكن لا نَصِفُهم بالوَصْفِ الأَدْنَى، وهو الموتُ.

٤- أنَّ عِلْمَ الآخِرَة غَيْر مَشْعُور به؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ لأَنَّهُ أمرٌ غيبيٌّ لا يُمْكِنُ إدراكُهُ حسًّا.

٥- أنَّ عَذَاب القَبْر أو نَعِيمَ القَبْرِ أمرٌ لا يُطَّلَع عليه، هذا هو الأصلُ، لكن قد يُطْلِع الله عليه مَن شاء من عِبَادِه، كما أَطْلَع الله نبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ على الرَّجُلَين اللَّذَين

كانا يُعذَّبان في قبْرَيْهما، حيث قال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»[(١)].

٦- قُصُور عِلْم الإنسان؛ حيث يَكُون الَّذي قُتِلَ في سبيل الله عنده حيًّا وهو لا يَشْعُر به، وهذا يدلُّ على نَقْصِ عِلْمِ الإنسان، وهو كذلك؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

• • • • •

قَالَ تعَالَى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

في هذه الآيَة يُؤكِّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ سيبْلُو عِبادَه ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾، خَمْسَةُ أُمُورٍ كلُّها فيها الابْتِلَاء والامتحانُ، ويُؤَكِّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك بثَلَاثة مُؤَكِّدات: اللَّام، ونون التَّوْكِيد، والقَسَم المُقَدَّر؛ لأنَّ تَقْدِير الكلام: والله لنَبْلُونَّكم ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ وهو الذُّعْر، سواء أكان هذا الخَوْفُ من عَدُوٍّ حقيقيٍّ مَاثِلٍ أمامَ الإنسانِ، أم من عَدُوٍّ غَيْر مَعْلُوم، كالخَوْفِ الَّذي يُلْقِيه الشَّيْطَانُ في قَلْبِ الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥] أي: يُخَوِّفُكم أَوْلِياءَه، ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ وهو نَقْصُ الطَّعَام، سواء أكان ذلك

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول، رقم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بفَقْدِ النُّقُود الَّتي يَشْتَرِي بها الإنسانُ طَعَامَه، أم بفَقْدِ الطَّعام نَفْسِه، بحيث لا تُنْبِت الأَرْضُ، أو لا يُجْلَب إلى البَلَد.

وقَوْلُهُ: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾

■ نقص من الأموال: بما يَحْصُل من الجَوَائح والفَيَضَانَات وغَيْرِها ممَّا يُرْسِلُه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عِبَادِه عند مَعْصِيتِهم إيَّاه.

■ نقصُ الأَنْفُس: بالموت، كالأَوْبِئَة ونحوها.

■ نقصُ الثَّمَرات: أيْ: أنَّ ما يَخْرُج من الأَرْض من الأَشْجَار والزُّرُوع وغَيْرِها تُصَاب بنَقْصٍ: إمَّا في فَسَاد ثَمَرَتِها، أو هَلَاكِها، أو ضَعْفِها، أو ما أشبه ذلك.

وكلُّ هذه مَصَائِبُ يُقَدِّرها الله عَزَّوَجَلَّ؛ ليَبْلُو عِبَادَه: أَيَصْبِرُون، أم لا يَصْبِرُون؟ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: أَخْبِرهم بما يَسُرُّهم، وهم الذين يَصْبِرُون على هذا البَلَاء: الخَوْف، والجُوع، ونَقْصِ الأموالِ والأَنْفُس والثَّمَرات.

والخطابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إمَّا للرَّسُول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، أو لكُلِّ مَن يصحُّ توجُّه الخطاب إِلَيْه إلى يوم القِيَامَة.

ثُمَّ بَيَّنَ صفةً من صِفَات الصَّابِرين يتميَّزُون بها عن غَيْرهم، وبيَّن ثَوَابَهم، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾.

وقَوْلُهُ: ﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ أي: وَقَعَت فيهم مُصِيبَةٌ -أي: ما يَسُوؤُهم ويُحْزِنُهم- قَابَلُوا ذلك بتَفْوِيض الأمرِ إلى الله، فقالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: بألسِنَتهم، مُعْتَرِفين بها في قُلُوبِهم.

وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: له مُلْكًا وخَلْقًا وعَبِيدًا، فلـه أن يَفْعَـل بنا ما شـاء، ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: سنَرْجِعُ إليه مهما طَالَ الزَّمَن، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

وقَوْلُهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: الصَّابِرُون الَّذين إذا أَصَابَتْهم مُصِيبةٌ قالوا: إنَّا لله، وإنَّا إليه رَاجِعُون ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾، الصَّلَوات من الرَّبِّ على العَبْد قيل: إنَّها الرَّحْمَة، والصَّوابُ: أنَّ الصَّلَوات غَيْرُ الرَّحْمَة؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾، والعَطْفُ يَقْتَضِي المُغَايَرة، فما هي الصَّلاة على العَبْدِ؟

الجواب: الصَّلاةُ على العَبْدِ أَحْسَنُ ما قيل فيها ما قاله أبو العَالِيَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: صَلَاة الله على العَبْدِ ثَنَاؤُهُ عليه في المَلَإِ الأَعْلَى[1]. يعني: أنَّ الله تعالى يُثْنِي على المُصَلَّى عليه في المَلَإِ الأَعْلَى عند المَلَائِكَة.

وعلى هذا فمَعْنَى الآية: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: لهم ثَنَاءٌ من الله تعالى عند المَلَإِ الأَعْلَى.

وقَوْلُهُ: ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أي: رَحْمَة يَحْصُل بها مَطْلُوبهم، ويَنْجُون بها من مَرْهُوبهم.

وقَوْلُهُ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: الذين إذا أَصَابَتْهم مُصِيبةٌ سَلَّمُوا الأمر لله، وقالوا: «إنَّا لله، وإنَّا إليه رَاجِعُون» ﴿هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي: الذين اهْتَـدَوا بهِدَايَـة الله تعالى لهم.

---

(١) انظر: تفسير مجاهد، (ص:٥٥٢).

و﴿هُمُ﴾ هذه يُسَمِّيها عُلَماءُ النَّحوِ: ضَمِير الحَصْر، يعني: أنَّها تَحْصُر الحُكْمَ فيما بعدها، ويتَّضِحُ هذا بالمثال، فإذا قلت: «فُلَانٌ القَائِمُ»، أو قلت: «فُلَانٌ هو القَائِمُ»، صار قَوْلُكَ: «فُلانٌ هو القائمُ» آكَدُ في الحَصْرِ والاخْتِصَاص من قولك: «فُلَانٌ القَائِم»، ولهذا فهي -في الحقيقة- مع إفَادَتِها الحَصْرَ تُفِيد التَّوْكِيد.

في الآيات السَّابقة من الفَوائِد والأحكَام ما يلي:

١- جوازُ التَّوْكِيد بالقَسَم في الأُمُور المُهِمَّة؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾، ولكن يَنْبَغِي أن يُعْلَم أنَّهُ لا يَنْبَغِي للإنسان أن يُكْثِر من الأَيْمان، إلَّا إذا دَعَتَ الحاجةُ إلى ذلك، وإلا فإنَّهُ يُلْقِي الخبرَ على ما هو عليه بدون تَوْكِيدٍ، لكن عند الحاجةِ لذلك يُؤَكِّدُه بالقَسَم.

٢- أنَّ الخَوْفَ والجُوع ونَقْصَ الأَمْوَال ونَقْصَ الأَنْفُس ونَقْصَ الثَّمَرَات كلها من المَصَائِب والبَلَايا.

٣- بيانُ حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ في تَدْبِيره لخَلْقِه، حيث يُقَدِّر لهم الضَّرَّاء والسَّرَّاء؛ ليَبْلُوهم أيُّهم أَحْسَنُ عملًا، كقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

٤- أنَّهُ يَنْبَغِي للإنسان أن يَشْعُر بقَدْرِ نِعْمَة الله عليه بالأَمْنِ والعَيْشِ الرَّغِيد ونُمُوِّ الأَمْوَال والأَنْفُس والثَّمَرَات.

٥- أنَّ نَقْصَ هذه الأشياء مُصِيبَة، فتكون زيادةُ هذه الأُمُور نِعْمَةً ومِنْحَةً، ولا شَكَّ أنَّهُ كُلَّما كَثُرت الأَمْوَال، وصُرِفَت في طَاعَة الله، وكلما كَثُر النَّاسُ، واسْتَعْمَلوا حَيَاتَهم في طَاعَة الله، فإنَّ ذلك خيرٌ.

٦- أَنَّهُ يَنْبَغِي للإنسان أن يُبَشِّر أَهْلَ العَمَلِ الصَّالح بما يَكُونُ من ثَوَاب هذا العَمَل؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

والمُبْتَلى بمُصِيبَة من المَصَائِب المَذْكُورة لا يَخْلُو من أَرْبَع حالات:

الحالُ الأُولى: التَّسخُّط والتَّضجُّر.

الحالُ الثَّانية: الصَبْرُ.

الحالُ الثَّالِثة: الرِّضا.

الحالُ الرَّابعة: الشُّكر.

هكذا قسَّم بَعْض العلماء مَن يُصَابُون بالمصائب إلى هذه الأَقْسَام الأَرْبَعة.

فأمَّا الحالُ الأُولى -وهي التَّسخُّط- فهي حَرَام، لا يَحِلُّ للإنسان أن يتسخَّطَ على قَضَاء الله وقَدَرِه، لا بقَلْبِه، ولا بلِسَانِه، ولا بفِعْلِه، ولا يعني ذلك أن نقول: إنَّه لا يَحْزَن! بل قد يَحْزَنُ الإنسانُ، ولا يَسْتَوِي عنده المصيبةُ وعَدَمُها، بل تكونُ المُصِيبةُ أشدَّ وَقْعًا عليه، ويَحْزَن لها، لكن يَصْبِر، وإلى هذا يُشير قَوْلُ النبيِّ ﷺ في ابْنِهِ إبراهيمَ حين ماتَ، قال: «**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»، رقم (١٣٠٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصبيان، رقم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الحالُ الثَّانِيَة: الصَّبْرُ، وهو أن يتجرَّعَ أَلَم المُصِيبَة ويتألَّم، ولا يَسْتَوي عنده وُجُود المُصِيبَة وعَدَمُها، بل هو مُتكَدِّر منها، لكنَّه لا يقول ما يُغْضِب اللهَ، ولا يَفْعَل ما يُغْضِب الله، وهذا واجبٌ، فإنَّهُ يَجِبُ على الإنسان أن يَصْبِر، ولا يجوزُ أن يتسخَّط، لا بقَوْلِه، ولا بقَلْبِه، ولا بِفِعْلِه.

الحالُ الثَّالِثة: أن يَرْضَى بقَضَاء الله، أي: يَرْضَى بهذه المُصِيبَة الَّتي أَصَابَتْه، والفرقُ بين الرِّضَا والصَّبْر: أَنَّهُ في حَال الصَّبْر يتألَّم الإنسانُ من المُصِيبَة أَلَـمًا قَلْبِيًّا، لكن لا يُظْهِر التَّسخُّط، لا بقَوْلِه، ولا بقَلْبِه، ولا بِفِعْلِه، لكنَّه يتألَّم، إلَّا أَنَّهُ صَابَر عن فِعْلِ ما لا يُرْضِي الله.

أمَّا في حال الرِّضَا فإنَّهُ لا يتألَّم، بمعنى: أنَّه يرى أنَّ وُجُود هذه المُصِيبَة عنده كعَدَمِها؛ لأنَّها من الله، لا يَكُون في قَلْبِه أَلَمٌ وحَسَرَةٌ، ومَعْلُوم أنَّ هذه الحَالَ أَعْلَى من الحال الأُولى، وإن كانت الحالُ الأُولى -وهي الصَّبْرُ- أشَدَّ من جِهَة مُعَانَاة مُنَازَعَة النَّفْس.

أمَّا الحالُ الرَّابِعَة فهي الشُّكْر على هذه المُصِيبَة، ولكن قد نقول: كَيْفَ يَشْكُر الإنسانُ على مُصِيبَة أَلَمَّت به، وأَثَّرَت عليه؟

فنقول: نعم، يَشْكُر اللهَ؛ لأنَّ هذه المَصَائِبَ عُقُوبَاتٌ مُعَجَّلَةٌ على ذُنُوب فَعَلَها، فيشكرُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أن عَجَّل عُقُوبَة هذه الذُّنُوب في الدُّنْيَا قبل أن تَكُون في الآخِرَة، وأيضًا هو يَشْكُر اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ما يَحْصُل له من ثَوَاب هذه المُصِيبَة، فيكون شُكْرُ الله منه على هذه المُصِيبَة من وَجْهَين:

الوَجْهُ الأَوَّل: أنَّ عُقُوبَتَه عُجِّلَت، والعُقُوبَةُ في الدُّنْيَا أهونُ من عُقُوبة الآخِرَة.

والوجهُ الثَّاني: أنَّ الله تعالى يُثِيبُه على هذه المُصِيبَة أكثرَ ممَّا يتوقَّع.

فهذه أَحْوَال مَن أُصِيبَ بمُصِيبَة.

٧- أنَّ من تَمامِ الصَّبْر: تَفْوِيضَ الأمرِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند المَصَائِب؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، ولهذا يَنْبَغِي لِمَن أُصيب بمُصيبةٍ أن يَسْتَرْجِع، فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، وأن يقول ما جاءت به السُّنَّة: «اللهم آجِرْني في مُصيبتي، وأَخْلِفْ لي خيرًا منها»، فإنَّ مَن قال ذلك آجَرَهُ الله في مُصيبته، وأَخْلَف له خيرًا منها، قالت أمُّ سَلَمَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنَّه حين مات زوجُها أبو سَلَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو من أَحَبِّ النَّاس إِلَيْها- قالت ما ذَكَرَه النبيُّ ﷺ، قالت: «إنَّا لله، وإنَّا إليه رَاجِعُون، اللهمَّ آجِرْني في مُصِيبتي، وأَخْلِف لي خيرًا منها»، فكانت تقول في نَفْسِها: مَن خيرٌ من أبي سَلَمَة؟! فإذا برَسُول الله ﷺ يتزوَّجها بعد أبي سَلَمَة، فأَعْطَاها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خيرًا ممَّا أَخَذَ منها[1].

٨- أنَّ العِبَاد لله عَزَّ وَجَلَّ خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا، فهو يفعلُ فيهم ما يشاءُ.

٩- الإِيمانُ باليوم الآخِرِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

أمَّا قَوْلُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ فمن فَوَائِدها:

١٠- أنَّ الله تعالى يُعْطِي الصَّابرين هذا الثَّوَابَ الجَزِيلَ.

١١- عُلُوُّ مَنْزِلَة هَؤُلاءِ الصَّابِرين، حيث قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾، و(أُولاء) اسم إِشَارةٌ للبَعِيدِ، وذلك لعُلُوِّ مَرْتَبتهم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يُقال عند المصيبة، رقم (٩١٨).

١٢- بيانُ الثَّوَاب العَظِيم والجَزِيل للصَّابِرين؛ حيث نَالُوا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الثَّنَاء عليهم في المَلَإِ الأَعْلَى؛ لقَوْلِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

١٣- بيانُ ضَعْفِ القَوْلِ بأنَّ الصَّلاة من الله هي الرَّحْمَةُ، وذلك لأنَّ الله تعالى عَطَفَ الرَّحْمَة على الصَّلَوات، والعطفُ يَقْتَضِي المُغَايَرة، فدلَّ ذلك على أنَّ الصَّلَواتِ غَيْرُ الرَّحمةِ، وكما أسلفنا أنَّ أبا العَالِيَة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إنَّ صَلَاة الله على عَبْدِه: ثَنَاؤُهُ عليه في الملإِ الأَعْلَى[1].

١٤- أنَّ هَؤُلاءِ الصَّابرين يُوَفَّقون للهِدَايَة؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

نسأَلُ اللهَ أن يَجْعَلنا من الصَّابِرين على البَلَاء، الشَّاكِرين على الرَّخَاء، المُهْتَدين بهِدَاية الله، إنَّهُ جوادٌ كَرِيم.

• ● ◌ ● •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

الصَّفا والمَرْوَة: جبَلَان مَعْرُوفان شَرْقِيَّ الكَعْبَة المُشَرَّفة، ويُسَمَّى الأَوَّلُ: جَبَل أَبِي قُبَيْس، والثَّاني: جَبَل قُعَيْقِعَان، وكان عليهما صَنَمَان لقُرَيْش، فتَحَرَّج الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من أن يَطُوفُوا بهما، فأَنْزَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الآية: ﴿إِنَّ الصَّفَا

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٤٩٥).

﴿وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[1].

والشَّعائِرُ: جمع شَعِيرَة، وهي الخَصْلَة المُعَظَّمة في كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

وقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ (أو) هُنا للتَّنْوِيع، يعني: أنَّ مَن حجَّ أو اعتمر فلْيَسْعَ بينهما، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: بينهما، والجُنَاح هنا بمعنى: الإِثْمِ.

ويُسْتَفاد من قَوْلِه تعالى: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الإنسان مَأْمُور بالطَّوَاف بهما، فإنَّ شَعَائِرَ الله مُعَظَّمة، ومن تَعْظِيمها: أن يَطُوفَ المسلمُ بين الصَّفا والمَرْوَة.

ثمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: مَن فَعَلَ طاعةً -فإنَّ الطَّاعة خيرٌ- ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يَشْكُر هذا الفَاعِل، فيُعْطِيه جَزَاءَه: الحَسَنَةَ بعَشْرِ أمثالها، إلى سَبْعِ مئة ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

في هذه الآيَة الكَرِيمَة من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- أنَّ الصَّفا والمَرْوَة من شَعَائِر الله، ويتَفَرَّعُ على ذلك: أنَّ الطَّواف بهما قُرْبَة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

٢- أنَّ السَّعي بين الصَّفا والمَرْوَة من شَعَائِر الحَجِّ والعُمْرَة؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾.

٣- أنَّ نَفْيَ الجُنَاح لا يَمْنَع أن يَكُون الشَّيء مَأْمُورًا به؛ لأَنَّهُ قد يُنْفَى الشَّيء؛ خوفًا من تَوَهُّمه، مع بَقَاء أَصْلِ المَشْرُوعِيَّة.

---

(١) انظر: صحيح مسلم: كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن، رقم (١٢٧٧).

٤- أَنَّهُ لابُدَّ أن يَسْتَوْعِب الإنسانُ ما بين الصَّفا والمَرْوَة؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، ولا يُمْكِنُ تحقُّق الطَّواف بهما إلَّا إذا اسْتَوعَب ما بينهما، ولهذا قال العُلَماء: لابُدَّ أن يَسْتَوْعِب السَّاعي بين الصَّفا والمَرْوَة ما بين الصَّفا والمَرْوَة.

وفي الوَقْتِ الحَاضِر علامةُ الاسْتِيعَاب هي مُنْتَهى -شبْك الممرِّ- الَّذي جُعِلَ للعَرَبَات؛ فإنَّهُ بانتهائه يَكُون انْتِهَاء المَسْعَى القَدِيم.

٥- الحثُّ على فِعْلِ الطَّاعَة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٦- إثباتُ هذين الاسْمَيْن من أسماءِ الله، وهما: (الشَّاكر) و(العَلِيم)، وإثباتُ ما تَضَمَّنَاه من صِفَة، وهي: الشُّكْر والعِلْمُ، ولكن لا شُكْرَ إلَّا على فِعْلٍ مَحْمُودٍ، فاللهُ تعالى يَشْكُر مَن فَعَلَ ما يُقَرِّب إِلَيْه ويُرْضِيه.

• • ❁ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

هاتان الآيتانِ فيمَن آتاهُ اللهُ عِلْمًا فكَتَمَه، تَوَعَّده اللهُ تعالى بهذا الوَعِيد الشَّدِيدِ: أنَّ الله يَلْعَنُه، ويَلْعَنُه أيضًا اللَّاعِنُون، وهذا كقَوْلِه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة:١٦١].

إِلَّا أنَّ الله تعالى اسْتَثْنَى مَن تاب وأَصْلَح وبَيَّن، ووَعَدَ مَن قام بذلك أنَّ الله يَتُوبُ عليه، وأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو التَّوَّاب الرَّحِيم.

في هاتين الآيتين الكريمتين من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- تحريمُ كَتْمِ ما أنزلَ اللهُ من البيِّنات والهُدَى، وأنَّهُ من كَبائِر الذُّنُوب؛ لأنَّ الكَاتِمَ مُسْتَحِقٌّ للَعْنَة الله ولَعْنَة اللَّاعِنِين.

٢- عُلُـوُّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَـوْلِهِ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾، وعُلُـوُّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَنقَسِم إلى قِسْمَين:

- عُلُوٌّ ذاتيٌّ، بمعنى: أنَّهُ تعالى بذَاتِهِ فوق كُلِّ شيء.
- وعُلُوٌّ مَعْنَوِيٌّ، بمعنى: أنَّ صِفَاتِه كُلَّها عُلْيَا، ليس فيها نقصٌ بوَجْهٍ من الوُجُوه؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠].

٣- أنَّ ما أَنْزَله اللهُ عَزَّوَجَلَّ بيانٌ للنَّاس وهُدًى، وهذا كقَوْلِه تعالى في وَصْفِ القُرْآن: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

٤- أنَّ ما نَزَلَ من عند الله فإنَّهُ هُدًى يَهْتَدِي به كُلُّ مَن شاء الله تعالى هِدَايَتَه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾.

٥- أنَّ الله تعالى بَيَّنَ للنَّاس في الكُتُب ما يَحْتَاجُون إِلَيْه في أُمُور دِينِهم ودُنْيَاهم، فـما من شيءٍ يَحْتَاجُـه العِبَادُ في عِبَادَة الله إلَّا بيَّنه عَزَّوَجَلَّ، وما من شيء يَحْتَاجُونـه في المُعَامَلَات بينهم إلَّا بيَّنه الله عَزَّوَجَلَّ؛ حتَّى يَكُون النَّاس على بَصِيرَة من أَمْرِهم،

وحتَّى تَقُومَ عليهم الحُجَّة؛ لقَوْلِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

٦- أنَّ أُولئك الكَاتِمِين يَسْتَحِقُّون اللَّعْنَة؛ لقَوْلِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾، ويترتَّب على ثُبُوت اللَّعْنَة لهؤلاء: أَنَّهُ يجبُ على أَهْل العِلْمِ أن يُبَيِّنُوا للنَّاس ما أَنْزَل الله تعالى من العِلْمِ، ولا يَكْتَمُوا شيئًا منه؛ مُدَاهَنَةً أو مُحَابَاةً لبعض النَّاس.

٧- أنَّ مَن تَابَ من ذنبٍ فإنَّ الله تعالى يَتُوبُ عليه، وهذا مُسْتَفِيض مَشْهُور في كِتَاب الله وسُنَّة رَسُوله ﷺ، ولكن التَّوْبَة لابُدَّ لها من شُرُوط:

الشَّرط الأَوَّل: أن تكون بإِخْلَاص، بأَلَّا يَحْمِلَ الإنسانَ على التَّوبة إِلَّا وَجْهُ الله، ورَجَاءُ ثَوَابه، لا يُريد بذلك جَاهًا، ولا رِئَاسةً، ولا مدحًا من النَّاس.

الشَّرط الثَّاني: أن يَنْدَم على ما جَرَى عليه من المَعْصِية، سواء كانت المَعْصِية بتَرْكِ واجبٍ، أم بفِعْلِ مُحَرَّم.

الشَّرط الثَّالِث: أن يُقْلِع عمَّا هو عليه من الذَّنب، فإن كان إهمالًا لوَاجِبٍ قام بالواجب، وإن كان فِعْلًا لُمحَرَّم نَزَعَ عنه، وإذا كان حقًّا لآدميٍّ فإِنَّهُ لابُدَّ أن يَسْتَحِلَّه أو يُؤَدِّيَه حقَّه.

الشَّرط الرَّابع: أن يَعْزِم على أَلَّا يَعُود في المُسْتَقبل، فإن قال: إِنَّه تائبٌ، ولكن من نيَّتِهِ أن يَعُود، فإنَّ هذه التَّوْبَة لَيْسَت بصحيحةٍ.

الشَّرط الخامس: أن تكون التَّوْبَة في الوَقْت الَّذي تُقْبَل فيه، وهي بالنِّسْبَة لكلِّ فَرْدٍ تنتهي بحُضُور أَجَلِه، وبالنِّسْبَة لعُمُوم النَّاس تنتهي بطُلُوع الشَّمس من مَغْرِبها،

ودَلِيلُ ذلك فِي القُرْآن الكَرِيم: قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، وقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، وذلك يعني طُلُوع الشَّمْسِ من مَغْرِبها، فإنَّها إذا طَلَعَت من مَغْرِبها آمَنَ النَّاسُ كلُّهم، ولكنَّه ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

٨- أَنَّهُ لابُدَّ في التَّوْبَة من الإصلاحِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟﴾، فإذا تَرَتَّب على فِعْلِ المَعْصِية فسادُ شيءٍ من الأشياءِ فلابُدَّ أن يقومَ التَّائب بإِصْلَاح هذا ما أَمْكَنه.

٩- أنَّ مَن كانت مَعْصِيتُهُ بذَنْب فلابُدَّ أن يأتي في التَّوْبَة بما يُقابل هذا الذَّنب، فهؤلاء كانت مَعْصِيتُهم بكِتْمان ما أَنْزَل الله، فلهذا لابُدَّ أن يُبَيِّنوا، ولهذا قال: ﴿وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟﴾.

فإن قال: إنَّه تائبٌ عن كِتْمان ما أَنْزَل اللهُ، ولكنَّه لم يُبَيِّن، فنقول: إنَّ هذه التَّوْبَة لا تَنْفَعه؛ لأَنَّهُ لابُدَّ أن يُصْلِح الإنسانُ ما فَسَدَ على يَدَيْه بمَعْصِيته، فالكاتمُ لا يُمْكِنُ أن تُقْبَل تَوْبَتُه وتكونَ صحيحةً إلَّا إذا بَيَّن.

١٠- أنَّ مَن تاب من ذنبٍ فإنَّ الله يَتُوبُ عليه، وَعْدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا عامٌّ في كُلِّ ذنبٍ، فمَن تاب من أيِّ ذنبٍ كان فإنَّ الله يَتُوبُ عليه؛ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

١١- إثباتُ اسمَيْن من أسماء الله، هما: (التَّوَّاب)، و(الرَّحيم)، فالتَّوَّاب: هو الَّذي يُوَفِّق للتَّوْبَة، ويَقْبَل التَّوْبَة، والدَّلِيل على ذلك: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في الذين خُلِّفُوا في غَزْوَة تبوك: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨]، فقَوْلُه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: قَدَّر لهم التَّوْبَة حتَّى قَامُوا بها، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾.

أمَّا المعنى الثَّاني للتَّوْبَة فهو قَبُول التَّوْبَة، ودَلِيلُه: قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى:٣٥].

وأمَّا الرَّحِيم فهو ذو الرَّحْمَة، ورَحْمَةُ الله تعالى نَوْعَان:

- عَامَّة تَشْمَل كُلَّ الخَلْق، حتَّى الكُفَّار، فإنَّها تَشْمَلهم.
- وخَاصَّة بالمُؤْمِنين، لا تَشْمَل الكَافِرين، ودَلِيلها: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

• • ◦ • •

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: كَفرُوا بالله وبما يجبُ الإيمانُ به، والكفرُ نوعان: نوعُ جُحُود، ونوعُ اسْتِكْبَار، فالجُحُود: يتعلَّق بالأَخْبَار، والاستكبارُ: يتعلَّـقُ بالأَوَامر والنَّوَاهي.

فمَن كَذَّب خبرًا من أَخْبَار الله أو أَخْبَار رَسُولِهِ الثَّابِتَة عنه ﷺ فإنَّهُ يَكُون كَافِرًا، وكُفْرُه هذا كُفر جُحُود وتَكْذِيب، ومَن صَدَّق، ولكن اسْتكْبَر، فإنَّهُ يَكُون كافرًا، إذا اسْتكْبَر عن جَمِيع ما أَمَرَ اللهُ به، وكُفْرُه هذا كُفر اسْتِكْبَار، ومنه: كُفْرُ إِبْلِيس؛ حيث قال اللهُ له مع جُمْلَة المَلَائِكَة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يعني: اسْتَمَرُّوا في كُفْرِهم حتَّى المَوْتِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، كُلٌّ يَلْعَنُهم -والعِيَاذ بالله- كُلٌّ يَتبَرَّأ منهم، بل هم أَنْفُسهم في النَّار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨].

وقَوْلُهُ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللَّعْنَة، وهي الطَّرْدُ والإِبْعَادُ عن رَحْمَة الله، هم خَالِدُون فيها لا يُرْحَمُون، والعِيَاذ بالله.

وقَوْلُهُ: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: بقِلَّة أَلَمِهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمْهَلُون بتَأْخِير العَذَاب عنهم، بل العَذَابُ يُعَجَّل لهم والعِيَاذ بالله، ويُؤَاخَذُون على ما فَعَلُوه.

في هذه الآيَة من الحكم والفَوائِد، ما يلي:

١- أنَّ الكَافِرَ لا يَسْتَحِقُّ الوعيدَ إلَّا إذا مَاتَ على الكُفْرِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، هذه هي القَاعِدَة العَامَّة في الشَّرِيعَة: أنَّ الإنسان لا يُعَذَّب عَذَابَ الكَفَرَة إلَّا إذا مات على الكُفْر، ومن ذلك: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

٢- خُلُود أهل النَّار في لَعْنَة الله؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقد وَرَدَت آياتٌ ثَلَاث تدلُّ على أنَّ عَذَابَ النَّار مُؤَبَّد، ففي سُورَة النِّسَاء قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وفي سُورَة الأحزاب قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سُورَة الجِنِّ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]؛ ولهذا لا يُعْرَف عن أهل السُّنَّة وأَئِمَّة السَّلَف إلَّا القولُ بأنَّ جهَنَّم يُخَلَّد فيها أَصْحَابُها أَبَد الآبِدِين، والعِيَاذ بالله.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

والخِطَابُ هنا لجَمِيع البَشَر، يُخْبِر اللهُ تعالى أَنَّهُ إِلَه وَاحِدٌ، ويُؤَكِّد ذلك بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا إله حَقٌّ إلَّا هو، والإِلَه بمعنى: المَعْبُود حُبًّا وتَعْظِيمًا.

ويُبَيِّن عَزَّوَجَلَّ بعد ذلك أَنَّهُ الرَّحْمَن الرَّحِيم، وفي هذا -والله أعلم- إِشَارَةٌ إلى أنَّ أُلُوهِيَّته ورُبُوبِيَّته مَبْنِيَّة على الرَّحْمَة بعِبَاده، ولهذا تَرَى ما أَمَرَ اللهُ به أمرًا ليس بشَاقٍّ على النَّاس، بل إذا وُجِدَت المَشَقَّة وُجِدَ التَّسْهِيل؛ لقول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ»[1]، وقَوْلِه -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم-: «إِنَّمَا بُعِثْتُم مُيَسِّرِينَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدِّين يسر، رقم (٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»[(١)]، وقَوْلِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعِمْرَان بن حُصَين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[(٢)].

في هذه الآيَة من الحِكَم والفَوائِد ما يلي:

١- إثباتُ أُلُوهِيَّة الله، ووَحْدَانِيَّته في هذه الأُلُوهِيَّة؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

٢- أَنَّهُ يَنْبَغِي في الكَلَام الُمهِمِّ أن يُؤَكَّد بما يُؤَيِّده؛ لقَوْلِهِ: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣- إثباتُ اسْمَيْن من أَسْماء الله، هما: (الرَّحْمَن) و(الرَّحِيم)، وإثباتُ ما تَضَمَّنَاه من صِفَة، وإذا ذُكِرَ هذان الاسْمان جميعًا صار الأَوَّلُ للصِّفَة، والثَّاني للفِعْلِ، وإن أُفْرِد أَحَدُهما شَمَلَ الآخرُ، وعلى هذا فيكون (الرَّحْمَن) أي: ذو الرَّحْمَة الواسِعَة، و(الرَّحِيم) أي: الُموصِل رَحْمَته لعِبَادِه.

وفي (الرَّحيم) إثباتُ أَنَّ رَحْمَة الله عَزَّ وَجَلَّ تَتَعَدَّى للمَرْحُوم، ولهذا قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨].

٤- الرَّدُّ على الُمشْركين الَّذي يَعْبُدُون مع الله إِلَهًا آخَرَ، والعَجَبُ أَنَّهم يَعْبُدُون مع الله إِلَهًا آخَرَ، ويَقُولُون في حقِّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، فيُقال: إنَّ العُجَاب كُلَّ العُجَاب ما أنتم عليه من الشِّرْك، كَيْفَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم (٢٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التقصير، باب إذا لم يُطق قاعدًا صلى على جنب، رقم (١١١٧).

تَعْبُدُون مع الله غَيْرَه، وهو خالقُ السَّموات والأَرْض، المُتفَرِّدُ بخَلْقِهما؟!

٥- تأكيدُ الجُمْلَة الخَبَرِيَّة بما يُؤَيِّدها، لاسِيَّما في الأُمُور المُهِمَّة، ولا يُعَدُّ هذا تكرارًا في الكَلَام؛ لقَوْلِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٦- الرَّدُّ على النَّصارى المُثَلِّثين الذين يقولون: إنَّ الله ثالثُ ثَلَاثةٍ؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

••∞••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

هذه جُمَلٌ تدلُّ على آياتٍ عَظِيمة، لكن لا ينتفعُ بهذا إلَّا أهلُ العَقْلِ؛ لقَوْلِه: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالأوَّل قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: في خَلْقِ السَّموات والأَرْض آياتٌ عَظِيمَةٌ لقومٍ يَعقِلُون، كَيْفَ جَعَلَ الأَرْضَ على هذا الوَجْهِ، وأَرْسَاها بالجِبَال؟! وجَعَلَ السَّماء على هذا الوَجْهِ، وزَيَّنَها بالنُّجُوم؟! وكَيْفَ تكون هذه الأَرْضُ على ما فيها من سَعَةٍ عَظِيمَة، تكون مَلْجَأً للخَائِفِين، ومُزْدرعًا للحَارِثِين؟! وكذلك السَّماء بأَفْلَاكها ونُجُومها وشَمْسِها وقَمَرِها، كلُّها إذا تَأَمَّلها الإنسانُ وجد فيها آياتٍ عَظِيمَةً.

وقَوْلُه: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يعني: فيه آياتٌ لقومٍ يَعْقِلُون، واخْتِلَاف اللَّيْل والنَّهَار أي: بالطُّول والقِصَر، وكذلك أيضًا بما يَحْدُث فيهما من حَوَادِث، وحُرُوبٍ، وأَمْنٍ، ورَخَاءٍ، وشِدَّةٍ، وقَحْطٍ، وغَيْثٍ، وغير ذلك.

وقَوْلُه: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ هذا أيضًا من الآيَاتِ لقومٍ يَعْقِلُون، والفُلْكُ: هي السَّفِينَةُ، تَجْرِي في البَحْر في هذه المِيَاه العَمِيقَة الوَاسِعَة الَّتي تَتَلَاطَمُ بالأَمْوَاج، وهذه الفُلْكُ تَجْرِي في البَحْرِ بما يَنْفَع النَّاسَ بحَمْلِ بني آدَمَ من جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، وحَمْلِ الأَرْزَاق من بَلَد إلى بَلَد، وغيرِ ذلك من الآياتِ العَظِيمَة في الفُلْك ﴿ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾.

وقَوْلُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، يعني: في هذا أيضًا آياتٌ لقومٍ يَعْقِلُون، ويُريدُ بالماء الَّذي يَنْزِل من السَّماء يُريد به تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: المَطَرُ، يُحْيي به اللهُ الأَرْضَ بعد مَوْتِها، فتجدُ الأَرْضَ هَامِدةً يَابِسَةً، فإذا بها مُخْضَرَّةٌ تَهْتَزُّ، وفي هذا آياتٌ على كَمال قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى قُدْرَته على إِحْيَاء المَوْتَى، كما يستدلُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ذلك في آياتٍ كثيرةٍ من القُرْآن.

وقَوْلُه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: نَشَرَ في الأَرْضِ من كُلِّ دَابَّة من الدَّوَابِّ الكثيرة الَّتي لا يُمْكِنُ تَعْدَادُ أَجْنَاسها، فضلًا عن أَفْرَادها، وهذه الدَّوابُّ كلُّها رِزْقُها على الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦].

والدَّابَّة هنا: اسم لكُلِّ ما يَدبُّ على الأَرْض من صغيرٍ وكبيرٍ، وإنسانٍ وحيوانٍ.

ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ يعني: تَحْرِيفها من جَنُوب إلى شَمال، ومن شَرْقٍ إلى غَرْبٍ، وهناك تصريفٌ آخرُ: من حَارَّة إلى بَارِدَة، وتصريفٌ ثَالثٌ: من مُثِيرَة للسَّحاب إلى مُلَقِّحَة له، كُلُّ هذا التَّصْرِيف فيه آياتٌ لقوم يَعْقِلُون، فإنَّ هذا التَّصريفَ للرِّيَاح لو اجْتَمَعت الخَلِيقَة كلُّها على أن تأتي بمِثْلِه ما اسْتَطَاعت إلى ذلك سبيلًا، ولو جَمَعْتَ جميع المَكَائِن النَّفَّاثات، وبكُلِّ قُوَاها، ما اسْتَطَعْت أن تأتي بأَدْنَى رِيحٍ من هذه الرِّيَاح.

وقَوْلُهُ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا السَّحَاب الَّذي يَنْسَحِب في الجَوِّ حاملًا المِيَاه العَظِيمَة، بل قد قال اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [النور:٤٣]، هذا السَّحَاب المُسَخَّر المُذَلَّل لأَمْرِ الله تعالى يُوَجِّهه حيثُ شاء.

في هذا كُلِّه يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لقومٍ عندهم عُقُولٌ يَسْتَدِلُّون بهذه الأَشْيَاء وغَيْرِها على قُدْرَة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

في هذه الآيَة الكَرِيمَة من الفَوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- ما أَشَارَ الله إِلَيْه في آخِرِها: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٢- الإِشَارةُ إلى خَلْقِ السَّمَوَات والأَرْض، وأنَّ خَالِقَهما جَلَّوَعَلَا له من القُدْرَة العَظِيمَة ما يَبْهَر العُقُول، ولقد بَيَّنَ اللهُ تعالى أَنَّهُ خَلَقَها في سِتَّة أَيَّام، وما مَسَّه من لُغُوبٍ، جَلَّوَعَلَا[1].

---

(١) قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

٣- العِبْرَةُ باخْتِلَاف اللَّيل والنَّهَار، على الوَجْهِ الَّذي شَرَحْنَاه فيما سبق.

٤- نِعْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا الاخْتِلَاف، وقد أشارَ اللهُ تعالى إلى ذلك في قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

٥- بيانُ نِعْمَة الله تعالى بالفُلْكِ الَّتي تجري في البَحْرِ بما يَنْفَعُ النَّاس، حيث تَنْقُل النَّاسَ من بَرٍّ إلى بَرٍّ، وتَنْقُل الأَطْعِمَة وما يَحْتَاجه النَّاسُ حتَّى يَنْتَفِع الصَّادِر منهم ذلك، والوَارِدُ إِلَيْهم.

٦- تمامُ قُدْرَة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بإِنْزَال الماءِ من السَّماء، وإِحْيَاء الأَرْض به.

٧- بيانُ حِكْمَة الله، حيث جَعَلَ هذا المَطَرَ يَنْزِل من عُلُوٍّ؛ ليَشْمَل ما ارْتَفَعَ من الأَرْض، وما نَزَلَ منها.

٨- بيانُ إِحَاطَة عِلْمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ شيء في هذه الأَرْض: من الدَّواب الصَّغِيرَة والكَبِيرَة، حيث إنَّ الله تعالى نَشَرَ في هذه الأَرْض هذه الدَّوابَّ، حتَّى إنَّ الإنسانَ ليَنْزِل أحيانًا في أَرْضٍ قَفْرٍ ليس حولها أحدٌ، فإذا به يَرَى النَّمْلَ، ويَرَى غَيْرها ممَّا خَلَقَ الله عَزَّوَجَلَّ.

٩- بيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ بتَصْرِيف الرِّيَاح، وهذا التَّصْرِيف له حِكَمٌ عَظِيمَةٌ؛ لأَنَّهُ من فِعْلِ الله تعالى، وكُلُّ فِعْلٍ من أَفْعَال الله فإِنَّهُ مَقْرُون بالحِكْمَة البَالِغَة؛ لأنَّ من أَسْمَاء الله: (الحكيم)، وهو المُحْكِم المُتْقِن لكُلِّ ما صَنَع، ولكُلِّ ما شَرَعَ.

١٠- أنَّ هذا السَّحَابَ مُسَخَّرٌ، أي: مُذَلَّل، يُصَرِّفه الله تعالى حيث يشاء، ولا أَدَلَّ على ذلك من اسْتِسْقَاء النبيِّ ﷺ في خُطْبَة الجُمُعَة، حيث جاءه رجلٌ فقال:

يا رَسُول الله! هَلَكَت الأموالُ، وانْقَطَعت السُّبُلُ، فادْعُ الله يُغِيثنا، فرَفَعَ النَّبيُّ ﷺ يديه، وقال: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا» ثلاث مرَّات، فما نزل من المنبر إلَّا والمطرُ يَتَحادَر من لِحْيَته[١].

وكذلك قِصَّة الرَّجُل صَاحِبِ الحَدِيقَة حين سَمِعَ رجلٌ آخرُ صوتًا من السَّحَاب يقول: اسْقِ حَدِيقَة فُلَان! فنَزَلَ المَطَرُ في حَرَّةٍ، ثُمَّ جرى في شَرْجٍ منها حتَّى أَرْوَى تلك الحَدِيقَةَ، فجاء الَّذي سَمِعَ الصَّوت إلى صَاحِب الحَدِيقَة يسأله: مَن أنت؟ حتَّى ذَكَرَ له الاسمَ الَّذي سَمِعَه من السَّماء، فلما سَأَلَه صاحب الحَدِيقَة: ما شَأْنُك؟ أَخْبَره بأَنَّه سَمِعَ صوتًا من السَّحَاب، يقول: اسْقِ حَدِيقَة فُلَان! ثُمَّ سأله: ماذا كنت تَصْنَع في هذه الحَدِيقَة؟ فأَخْبَره أَنَّهُ يَجْعَلُها أثلاثًا: يَجْعَل ثُلُثًا للقِيَام عليها، وثُلُثًا لنَفَقَتِه وعِيَالِه، وثُلُثًا يتَصَدَّق به[٢].

١١- فَضِيلَة العَقْل، وأنَّ العَقْلَ يَهْتَدي به صاحبُهُ إلى مَعْرِفَة آيات الله عَزَّوَجَلَّ، وقد بَيَّنَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَنَّهُ لا يَعْقِل هذه الأَمْثَالَ وهذه الآياتِ إلَّا العَالِمُون، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

•●○●•

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة، رقم (٩٣٣)، ومسلم: كتاب الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يذكر مسلم تقاطر الماء من لحية النبي ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (ص:٢٠٧).

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾

في هذه الآيَة يَذْكُر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّ من النَّاس يعني: أنَّ بَعْض النَّاس يتَّخِذُ من دون الله أَنْدَادًا، أي: نُظَرَاء وأَمْثَالًا يُسَوُّونهم بالله عَزَّوَجَلَّ في المحبَّة، فيُحِبُّونهم كحُبِّ الله، ويُشير سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بهذا إلى أُولئك العَابِدِين لأصْنَامِهم الذين يُحِبُّونها كما يُحِبُّون اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فيَجْعُلونها شَرِيكةً مع الله في المحبَّة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، وهذا كالاسْتِثْنَاء الَّذي يُخْرِج المُؤْمِنين الذين يُحِبُّون اللهَ عَزَّوَجَلَّ، والمعنَى: والَّذِين آمَنُوا أشدُّ حُبًّا للهِ من هَؤُلاءِ لأَصْنَامِهم، أو من هَؤُلاءِ لله، يعني: أنَّ المُؤْمِنين يُحِبُّون اللهَ، ويتعلَّقُون به أَشَدَّ حُبًّا وتعلُّقًا من هَؤُلاءِ بأَصْنَامِهم؛ لأنَّ مَحَبَّة المُؤْمِنين للهِ عَزَّوَجَلَّ محبَّةٌ تَقْتَضِيها الفِطْـرَة والشَّرِيعَةُ، أمَّا مَحَبَّة هَؤُلاءِ لأَصْنَامهم كحُبِّ الله فهي مَحَبَّة لا تَرْتَضِيها الشَّرِيعَةُ، ولا تَقْتَضِيها الفِطْرَة.

ويجوزُ أن يَكُون المعنى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي: أشدُّ حُبًّا للهِ من هؤلاء، وذلك لأنَّ مَحَبَّة المُؤْمِنين لله مَحَبَّة خَالِصَة لا يَشْرَكُها مَحَبَّة أحدٍ من الخَلْق، ومَحَبَّة هَؤُلاءِ للهِ تعالى مَحَبَّة فيها شِرْكٌ، حيث يُحِبُّون هذه الأَصْنَام كمَحَبَّة الله.

وإذا كانت الآيَةُ تَحْتَمل المعنيين، وأَحَدُهما لا يُنَافي الآخرَ، فإنَّ الوَاجِبَ حَمْلُها على المَعْنَيين جميعًا؛ لأنَّ ذلك أعمُّ وأَشْمَل.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ يعني: ولو يرى هَؤُلاءِ الذين ظَلَمُوا باتِّخَاذهم أَنْدَادًا يُحِبُّونهم كحُبِّ الله ﴿إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي: يُشَاهِدُونه ويُعَايِنُونه يوم القِيَامَة ﴿أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾، وأنَّ أَصْنَامَهم ليس لها قُوَّة ولا حَوْلٌ، بل هي أَضْعَفُ وأَهْوَنُ من أن يَكُون لها قُوَّةٌ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]، وهنا يقول: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾، وأَنَّه لا قُوَّةَ لأَصْنَامِهم، فتُنْقِذَهم من عَذَابِ الله، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ يعني: ويَرَوْن أنَّ الله شَدِيدُ العِقَابِ، يعني: لو رَأَوا ذلك لتبَدَّلَت أَحْوَالهم، ولعَرَفُوا أَنَّهم على خَطَإٍ وضَلَالٍ.

في هذه الآيَة من الحِكَم والفَوائِد ما يلي:

١- تَحْرِيمُ تَشْرِيكِ مَحَبَّة اللهِ تعالى مع غَيْره، بحيث يتَّخِذُ أَصْنَامًا يُحِبُّها كحُبِّ الله، سواء كانت هذه الأَصْنَام من الشَّجَر، أو الحَجَر، أو البَشَر، فمَن أَحَبَّ أحدًا كمَحَبَّة الله عَزَّوَجَلَّ فإِنَّهُ قد شَرَّكَ مع الله تعالى في المَحَبَّة، ويُسَمَّى هذا النَّوع من الشِّرْك: شِرْكَ المحبَّة.

٢- أَنَّهُ يجبُ إِخْلَاص المَحَبَّة للهِ عَزَّوَجَلَّ، والمراد بها: مَحَبَّة التَّذَلُّل والخُضُوع والعِبَادَة، وأَمَّا المَحَبَّة الطَّبَعِيَّة الَّتي تكُون بين الإنسانِ وبين ما يُلَائِمُه من بَشَرٍ أو مَأْكُول أو مَلْبُوس أو مَرْكُوب، فهذه لا تَعَلُّقَ لها بهذا الباب، وكذلك مَحَبَّة الإنسان لأَبْنائه وبَنَاتِه وأَصْحَابه لا تَدْخُل في هذا البَاب؛ لأَنَّها لَيْسَت مَحَبَّةً مع الله، وهي من نوعٍ آخَر.

٣- شدَّةُ مَحَبَّة المُؤْمنين لله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّها محبَّةٌ كَامِلَةٌ، أَكْمَلُ من محبَّة هَؤُلاءِ لأَصْنامهم، ومحبَّةٌ خَالِصَةٌ أَخْلَص من محبَّة هَؤُلاءِ لله عَزَّوَجَلَّ.

٤- الوَعِيدُ الشَّديد لهؤلاء الذين جعَلُوا لله شَرِيكًا في المَحبَّة، يُؤْخَذ من قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

٥- أنَّ هَؤُلاءِ الذين جعَلُوا لله شَرِيكًا في المَحبَّة كَانُوا ظَالِمِين، أي: ظَالِمِين لأَنْفُسهم، حيث انْتَقَصُوها حقَّها، وهكذا كُلُّ عاصٍ لله فإنَّهُ ظَالِمٌ لنفْسِه؛ لأنَّ نَفْسَه أمانةٌ عنده، يجبُ أن يَرْعَاها حَقَّ رِعَايَتِها، وألَّا يُوقِعَها في المَهالِك، فتَهْلِك، ولهذا قال اللهُ تعالى في آياتٍ مُتعـدِّدة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦].

٦- إثباتُ أنَّ القُوَّة لله تعالى جميعًا، فجَمِيعُ القُوَى لله عَزَّوَجَلَّ، حتَّى ما يَخْلُقُه في بَعْض المَخْلُوقات من القوَى فإنَّهُ لله مُلْكُه، لو شَاءَ لسَلَبَ ذا القُوَّة قُوَّتَه، ولهذا يقول المُؤْمِن: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله».

٧- التَّحْذِيرُ من عَذَاب الله؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، وقد بيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في آياتٍ مُتَعَدِّدة: أنَّ شِدَّة عَذَابه إنَّما تكون لِمَن يستحقُّهُ من الكُفَّار والعُتَاة، ولكنَّه مع ذلك غَفُورٌ رَحِيمٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨].

٨- أنَّ المَحبَّة تَتَفَاضل، فيُحِبُّ الإنسانُ شيئًا أَكْثَرَ ممَّا يُحِبُّ الشَّيء الآخَرَ،

وإذا كانت مَحَبَّة الله تعالى من الإيمان، ومن أَفْضَل العِبَادَات، وكانت تَتَفاضَلُ، فهو دَلِيلٌ على أنَّ الإيمان يَتَفَاضَل، وهو مذهب أَهْلِ السُّنَّة والجَماعة، فقد صَرَّحَ أَهلُ السُّنَّة والجَماعة بأنَّ الإيمان يَتَفاضل، وأَنَّهُ يَزيد ويَنْقُص، وأنَّ من أَسْبَاب زِيادَتِه: طَاعَةَ الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أَسْبَاب نُقْصَانه: مَعْصِيَة الله عَزَّوَجَلَّ، بل إنَّ الإيمان يَزِيدُ ويَنْقُصُ حتَّى في العِلْمِ الحَاصِل في القَلْبِ، فإنَّ العِلْمَ الحَاصِلَ في القَلْبِ يَتَفَاوت بحسب الطُّرُق المُوصِلَة إِلَيْه، فالإنسان يَعْلَم بخَبَرِ الاثنين أكثرَ مِمَّا يَعْلَم بخَبَرِ الواحد، وكُلَّما تَعَدَّد المُخْبِرُون ازْدَادَ الإنسانُ يقيناً.

٩- أن يَحْذَر الإنسانُ مِمَّا وَقَعَ لهؤلاء الذين جَعَلُوا للهِ شَرِيكًا في المَحَبَّة، فأَحَبُّوا الأَنْدَاد كما يُحِبُّون اللهَ، نسأَلُ الله تعالى أن يَجْعَلنا جميعًا من أَحْبَابِه وأَوْلِيَائه، وأن يَهَبَ لنا منه رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هو الوَهَّاب.

••••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

هذه الآيةُ آيةُ البَرَاءَة، أي: بَرَاءَة أهل الشِّرْكِ مِمَّن اتَّخَذُوهم أَنْدَادًا يوم القِيَامَة، وكذلك بَرَاءة المَتْبُوعين من أَتْبَاعهم يوم القِيَامَة.

يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ (إذ) هذه مَفْعُول لِفِعْلٍ مَحْذُوف، والتَّقدير: اذكر إذ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعُوا، وهم السَّادة القَادة الذين يَقُودُون

النَّاس، سواء قَادُوهم باسم الشَّرْعِ، وهم مُحرِّفُون للشَّرَائع، كأَئِمَّة اليَهُود والنَّصَارى ونَحْوِهم، أو قَادُوهم باسم الإِمْرَة والسُّلْطَة، كأُمَراء السُّوء.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾: يتبرَّؤُون منهم، وذلك أنَّ الذين اتَّبعُوا يَحْتَجُّون على الذين اتُّبعُوا، ولكنَّ الذين اتُّبِعُوا يتَبَرَّؤون منهم حين يَرَوْن العَذَاب.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني: أنَّ المُتَّبِعين رَأَوا العَذَاب، وأنَّهم على ضَلَالٍ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: يعني: المَوَدَّة[1]. يعني: أنَّ المَحَابَّ الَّتي كانت بينهم وبين هَؤُلاءِ المَتْبُوعين تَقَطَّعت؛ لأنَّ هَؤُلاءِ الأَتْبَاع يَظُنُّون أنَّ هَؤُلاءِ المَتْبُوعين يَنْفَعُونهم يوم القِيَامَة، ولكنَّهم لا يَنْفَعُونهم، بل يَتَبَرَّؤُون منهم، وحينئذ يَكُون عليهم اتِّبَاعُهم حَسْرَةً؛ لأنَّهم يَنْدَمُون حين لا يَنْفَع النَّدَم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ (لو) هنا للتَّمَنِّي، يعني: قالوا: ليت لنا كَرَّةً -أي: رُجُوعًا إلى الدُّنْيَا- فنَتَبَرَّأ منهم، كما تَبَرَّؤُوا منَّا في الآخِرَة، ولكن أَنَّى لهم ذلك؟! بل لا يَزِيدُهم هذا إلَّا حَسْرَةً، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: هم من أَهْلِها الذين لا يَخْرُجون منها.

في هاتين الآيتَيْن من الحِكَم والفوَائِد ما يلي:

١- التَّحْذِير من اتِّبَاع أهل السُّوء؛ لأنَّ هَؤُلاءِ المَتْبُوعين قَادُوا أَتْبَاعهم إلى ما وَصَلُوا إِلَيْه من العَـذَاب، والحَسَرَات، ودُخُـولِ النَّار دُخُـولًا لا يَخْرُجون منها.

٢- أنَّ كُلَّ مَن كان بينه وبين شَخْصٍ عَلَاقَةٌ لغير الله فإنَّهُ سوف يَنْدَم على

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٣/ ٢٧).

هذه العَلَاقَة، ويَتَبَرَّأ كُلٌّ من الآخَرَ، ويَشْهَد لهذا قولُ الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

٣- أنَّ كُلَّ سبب ليس مَبْنِيًّا على أَصْلٍ صحيح فإِنَّهُ سوف يَنْقَطِع، ولا يُوصِل صَاحِبَه إلى مَقْصُوده؛ لقَوْلِهِ تعالى هنا: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾.

٤- تَتَابُع الحَسَرَات على هَؤُلاءِ التَّابِعين الذين ضَلُّوا بضَلَال مَتْبُوعيهم؛ لقَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾، والحَسْرَةُ: شِدَّة النَّدَم.

٥- بيانُ أنَّ هَؤُلاءِ المَتْبُوعين لَيْسُوا يَدْعُون إلى هُدًى وصَلَاح، وإِنَّما يَدْعُون إلى ضَلَال وفَسَاد، ووجهُ ذلك: أنَّ الله أَخْبَر بأنَّ هَؤُلاءِ التَّابعين لَيْسُوا بخَارِجِين من النَّار، فإذا كان التَّابِعُون لا يَخْرُجون من النَّار فالمَتْبُوعون من باب أَوْلَى.

٦- الإِشَارةُ إلى أنَّ النَّار مُؤَبَّدة؛ لأنَّهم إذا كَانُوا لا يَخْرُجون منها -وقد ذَكَرَ الله تعالى في آياتٍ ثَلَاثٍ أنَّ أصحاب النَّار خَالِدُون فيها أبدًا- دلَّ ذلك على أنَّ النَّار لا تَفْنَى، كما هو مَذْهَب أهل السُّنَّة والجَماعَة.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يَعُمُّ المُؤْمِنين والكَافِرين ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ الأَمْرُ هنا للإِبَاحَة، أي: كُلُوا ممَّا أَخْرَج اللهُ من الأَرْض حَالَ كَوْنِه حلالًا لكم طيِّبًا، وليس بخَبِيثٍ.

والإِشَارةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿طَيِّبًا﴾ إلى أَنَّهُ يجبُ على الإنسان أن يَكُون مَكْسَبُه على وجهٍ مُباحٍ حَلَال؛ لأنَّ الكَسْبَ المُحَرَّم خبيثٌ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: لا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَان في خُطُواتـه، كُلَّمَا خطَا خُطْوَةً مَشَيْتُم عليها، فإِنَّهُ لا يَجُرُّكم إِلَّا إلى النَّار، وبئس القَـرَارُ، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، ومن المَعْلُومِ أنَّ عَدُوَّك إذا خطَا واتَّبَعْتَه فسيُوقِعُك في المَهَالِك.

ثُمَّ بَيَّنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ماذا يَدْعُو إِلَيْه الشَّيْطَانُ، فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بالعَمَل السَّيِّئ، وهو ما دون الفَحْشَاء ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ العَمَل الكَبِير الَّذي يُسْتَفْحَش في العُقُـول والشَّرَائـع ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأن تَفْتَرُوا على الله كَـذِبًا، إمَّا في ذَاتِـه، أو في أَسْمَائه، أو في صِفَاتِه، أو في أَحْكَامه، أو في أَفْعَاله، فإِنَّ الشَّيْطَان يَدْعُو إلى أن يَقُول الإنسانُ على رَبِّه ما لا يَعْلَمُ، وهذا من المُحَرَّمات في جميع الشَّرَائِع.

في هاتين الآيتَيْن من الحِكَم والفوَائِد ما يلي:

١- وُجُوبُ العِنَاية بما ذَكَرَ الله تعالى فيها من أَحْكَامٍ، ووَجْهُ ذلك: أنَّ الله تعالى صَدَّرها بالنِّدَاء، والتَّصْدِير بالنِّدَاء يدلُّ على أَهَمِّيَّة ما وُجِّه إلى المُنَادَى.

٢- أنَّ الخِطَاب في الأَكْلِ ممَّا في الأَرْض يعمُّ المُؤْمِنين والكَافِرين؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وكلمةُ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عامَّةٌ، لكن جاء في آياتٍ أُخْرَى تَوْجِيهُ ذلك للمُؤْمنين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]، فهل نُخَصِّص عُمُومَ هذه الآيَـةِ بالآيَـةِ

الأُخْرَى، ونقول: إنَّ الَّذين يُؤْذَن لهم بالأَكْلِ ممَّا في الأَرْض هم المُؤْمِنون خاصَّةً، وأمَّا الكافرون فإنَّهُ لا يَحِلُّ لهم الأكلُ ممَّا في الأَرْض، بل سيُحَاسَبون على ذلك، أو نقول: إنَّ هذه الآيَة عامَّةٌ، وإنَّ ما في الأَرْض يَأْكُل منه الكَافِرُون والمُؤْمِنُون، على أنَّهُ حَلَال لا يُحَاسَب عليه الكافرُ؟ ولكن المعنى الأوَّل أصحُّ، وأنَّ المُراد بالنَّاس هنا: إمَّا عُمُوم النَّاس، وخُصِّص بالمُؤْمِنين، أو أنَّ المُراد بها الخُصُوص، يعني: عُبِّر بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، والمراد بها: يا أيُّها الَّذين آمَنُوا، ويدلُّ لهذا: قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة:٩٣]، ومَفْهُومه: أنَّ غَيْر المُؤْمنين العَامِلين الصَّالِحَاتِ عليهم جُنَاحٌ فيما طَعِمُوا، ويُؤَيِّد ذلك أيضًا: قَوْلُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، وعلى هذا فيكونُ ما في الأَرْضِ حَلَالًا للمُؤْمِنين، ليس فيه تَبِعَةٌ عليهم، وحَلَالًا للكافرين، بمعنى: أنَّنا لا نَمْنَعُهم من تَنَاوُله، ولكن عليهم تَبِعَة، وأنَّهم سيُحَاسَبون عليه يوم القِيَامَة، فيُقَال لهم: لِمَ أَكَلْتُم نِعْمَةَ الله، وكَفَرْتُم به؟!

٣- أنَّ كُلَّ ما في الأَرْض حَلَالٌ لنا، وهذا كقَوْلِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، وعلى هذا فيكون الأَصْلُ فيما في الأَرْض أنَّهُ حِلٌّ لنا، فمَن ادَّعى تَحْرِيمَ شيء ممَّا في الأَرْض قلنا له: ائْتِ بالدَّلِيل، فإن جاء بالدَّلِيل وإلا فالأصلُ الحِلُّ.

ولا فَرْقَ في ذلك بين الحَيَوَان والجَمَاد، فالأَشْجَارُ والثِّمَارُ وغَيْرُها الأَصْلُ فيها الحلُّ حتَّى يَقُوم دَلِيلٌ على المَنْعِ، والحَيَوَانات كلُّها الأَصْلُ فيها الحِلُّ حتَّى يقوم دَلِيلٌ على المَنْعِ.

٤- الإِشَارةُ إلى أَنَّهُ يَجِبُ أن يَكُون كَسْبُ الإنسان لهذا الحَلَال على وَجْهٍ طَيِّبٍ، والطَّيِّب هنا ضدُّ الخَبِيث، والخَبِيث: كُلُّ ما يَحْرُم من تصرُّفٍ، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وَكَسْبُ الحَجَّامِ خَبِيثٌ**»(١)، فيُسْتَفاد من هذا: أَنَّهُ يجب أن يَكُون ما تَأْكُلُه ممَّا في الأَرْض من الحَلَال مُكْتَسبًا على وجهٍ مَشْرُوع.

ويتَفَرَّع على هذه القَاعِدَة: أَنَّهُ لا يَحِلُّ للإنسان ما اكْتَسَبه بوَجْهٍ مُحَرَّم، فمَن اكْتَسَبَ مالًا بالغِشِّ أو الكَذِب أو الرِّبا أو ما أَشْبَه ذلك فإنَّهُ لا يحلُّ له أَكْلُه، بل هو حَرَام عليه، لكن مَن جَاءَه مَوْعِظةٌ من الله وانْتَهَى وتَابَ فقد قال اللهُ تعالى في الرِّبا: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٥].

٥- تحريمُ اتِّبَاع خُطُوات الشَّيْطَان، **فَإن قال قَائِل:** بأيِّ طريق نَعْلَم خُطُوات الشَّيْطَان؟

قلنا: بما ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور:٢١]، فإذا هَمَمْتَ بمَعْصِيةٍ صَغِيرَةٍ فذلك من أَمْرِ الشَّيْطَان، وإن هَمَمْت بمَعْصِيةٍ كبيرةٍ فَاحِشَةٍ فذلك أيضًا من أَمْرِ الشَّيْطَان، فكلُّ مَعْصِية تَهمُّ بها فإنَّها من أَمْرِ الشَّيْطَان، فإن اتَّبَعْت هَوَاك فيها فقد اتَّبَعْت خُطُوات الشَّيْطَان.

٦- التَّحْذِيرُ من الشَّيْطَان؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب، رقم (١٥٦٨) من حديث رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والتَّحْذِير من الشَّيْطَان يتفرَّع عنه: التَّحْذِير من أَوْلِيَاء الشَّيْطَان الذين يَأْمُرون بالفَحْشَاء والمُنْكَر، فإنَّ هَؤُلاءِ هم أَوْلِياؤُهُ، فالواجبُ على المُسْلِم الحذرُ من الشَّيْطَان؛ لأنَّهُ عدوٌّ، والحذرُ من أَوْلِيَاء الشَّيْطَان؛ لأنَّهم أيضًا عدوٌّ، ويدلُّ لهذا: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١]، وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]، وقولُهُ تعالى في المُنَافِقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]، فالواجِبُ الحَذَر من الشَّيْطَان وأَتْبَاعِه؛ لأنَّهم أَعْدَاء لنا.

٧- بيانُ ما يَأْمُر به الشَّيْطَان، وهو أَنَّهُ يَأْمُر بالسُّوء -وهو المَعَاصِي الصِّغَار- والفَحْشَاءِ، وهي المَعَاصِي الكِبَار.

٨- تحريمُ القَوْلِ على الله بلا عِلْمٍ، وهذا يَشْمَل تحريمَ القَوْلِ عليه في ذَاتِه، وتَحْرِيمَ القول عليه في أَسْمائه، وتحريمَ القَوْلِ عليه في صِفَاتِه، وتحريمَ القَوْلِ عليه في أَحْكَامه الكَوْنِيَّة والشَّرْعِيَّة، وذلك من قَوْلِه تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فإنَّ هذا يَشْمَلُ القولَ على الله في ذَاتِهِ، وفي أسمائه وصِفَاتِه، وأَحْكَامه الكَوْنِيَّة والشَّرعيَّة.

أمَّا القَوْلُ على الله في ذَاتِه فأن يقول قائل: إنَّ ذَاتَ الله تعالى مِثْلُ ذَواتنا، يعني: مُكَوَّنةً من أجزاء يَنْفِصل بَعْضُها عن بعضٍ، ويبقى بَعْضُها دون بَعْضٍ، وما أشبه ذلك، وهذا مُحَرَّم، نَفَاه الله تعالى عن نَفْسِه في قَوْلِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ونهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن نَضْرِبَ له الأَمْثَال في قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤].

أمَّا القولُ على الله في أَسْمائه فيشمل أن يُثْبِت الإنسانُ للهِ أسماءً لم يُسَمِّ بها نَفْسَه، كما سمَّاه النَّصارى: (أبًا)، فهم يَعْنُون بالأَبِ: الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهم يَعْتَقِدُون أنَّ المسيح ابنُ الله، فيكون قولًا على الله بلا عِلْمٍ.

ويشمل القَوْلُ على الله في أَسْمائه أيضًا: أن يُنْكِر شيئًا من أَسْمائه، كما فَعَلَ أهل الجاهِلِيَّة، حين قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠]، فأَنْكَرُوا أن يَكُون (الرَّحْمَن) من أَسْمائه، وهذا قولٌ على الله بلا عِلْمٍ، بل بما نَعْلَم أنَّ الأَمْرَ بخِلَافه.

ومن القولِ على الله بلا عِلْم في صِفَاتِه: أن يقول: إنَّ صِفَات الله تعالى كصِفَاتِنا، كما قاله أهلُ التَّمْثِيل، فقالوا: إنَّ كُلَّ ما ذَكَرَ الله من أَوْصَافه فإنَّهُ مُماثِل لصِفَاتنا، فالوَجْهُ واليدُ والعينُ كلُّها مثلُ ما لنا من ذلك، وقد كَذَبُوا فيما ادَّعَوْا، وخَالَفُوا المَسْمُوع والمَعْقُول؛ فإنَّ الله تعالى يقول وهو أَعْلَمُ بنَفْسِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ويَنْهَانا سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن نَضْرِبَ له الأَمْثَال، وأنَّ ذلك لا يُمْكِن؛ لأنَّنا لا نَعْلَم، والله تعالى يَعْلَم أنَّهُ لا مَثِيلَ له.

ويَشْمَل القولُ على الله بلا عِلْمٍ في صِفَاته أيضًا: إنْكَار الصِّفَات، حيث زَعَمَ أهلُ التَّعْطِيل الذين أَنْكَرُوا أن يَكُون للهِ صِفَاتٌ، أو أَثْبَتُوا بَعْض الصِّفَات وأَنْكَرُوا بعضها بحُجَّة أنَّ العَقْلَ يَمْنَع من ثُبُوتها لله، فقالُوا على الله في ذلك ما لا يَعْلَمون؛ لأنَّنا نقولُ لهم: أين العَقْلُ الَّذي يَمْنَعُ أن يَكُون الله مُتَّصِفًا بصِفَات الكَمال؟! كُلُّ عقلٍ يمنعُ أن يَكُون الله مُتَّصفًا بصِفَات الكَمال فهو عقلٌ فَاسِد، وعَقْلٌ مَرِيج، وإلا فإنَّ العَقْلَ الصَّريح السَّالمَ من الشُّبُهات والشَّهَوات -ونعني بالشَّهَوات: الإراداتِ السَّيِّئة- لا يُمْكِنُ أن يُنْكِر ما أَثْبَت اللهُ لنَفْسِه في كِتَابه أو على لسان رَسُوله ﷺ.

ومن القولِ على الله بلا عِلْمٍ في أحْكَامه القَدَرِيَّة: أن يُثْبِتَ لشيءٍ من الأشياءِ سَبَبِيَّةً دون عِلْمٍ من الله، فيقول القائل مثلًا: إذا فَعَلَ الإنسانُ كذا حَدَثَ كذا، وهو لم يَعْلَم ذلك، لا بنَصٍّ ولا بتَجْرِبةٍ، فيكون قد قال على اللهِ ما لا يَعْلَم.

ومن ذلك: ما يفعلُهُ بَعْض المُشَعْوِذين بأن يُعَلِّق التَّمائم الشِّرْكيَّة على المرضى الذين فيهم المَرَضُ في أَجْسَامهم أو في نُفُوسهم، ويدَّعي أنَّ ذلك يُزيل هذا المَرَضَ دون عِلْمٍ من شَرْعٍ، ولا عِلْمٍ من وَاقِعٍ، فيكون قد قال على الله في أحْكَامه القَدَرِيَّة ما لا يَعْلَم.

وأمَّا القولُ على الله بما لا يَعْلَم الإنسانُ في الأحْكَام الشَّرْعِيَّة فما أَكْثَر الذين يَتَصَدَّرون للفَتْوَى وهم من أَجْهَل النَّاس! فيكونون قد قَالُوا على الله بلا عِلْمٍ، والمُفْتِي لعِبَاد الله بما يَزْعُم أَنَّهُ شَرِيعةُ الله هو مُعَبِّر عن الله في الحَقِيقَة؛ لأَنَّهُ يقول: هذا حُكْمُ الله، أو هذا حَرَام حَرَّمَه الله، أو ما أشبه ذلك، فلابُدَّ أن يَكُون على عِلْمٍ من كِتَاب الله، أو سُنَّة رَسُوله ﷺ، أو الإِجْمَاع، أو القِيَاس الصَّحيح.

أمَّا أن يُفْتِي بلا عِلْمٍ فإنَّهُ يَدْخُل في أَوَامِر الشَّيْطَان، ويكون عَبْدًا مُطيعًا للشَّيْطَان، ولقد كان السَّلَف الصَّالح -لوَرَعِهم، وتَوَقِّي المَسْؤُوليَّة- يَتَدَافعُون الفَتْوَى، كُلُّ واحدٍ منهم لا يُريد أن يَكُون هو المُفْتِيَ، وهم يَعْلَمُون أنَّ هذا المُسْتَفْتِيَ سيجدُ مَن يُفْتِيه بكِتَاب الله وسُنَّة رَسُوله ﷺ، وإلا فمن المعلوم أَنَّهُ لا يَجُوز للإنسان -إذا سُئِلَ عن علمٍ يَعْلَمه، والسَّائل مُحْتَاج إلى بَيَانه- أن يَكْتُمه، فقد ذَكَرَ الله تعالى أنَّ مَن كَتَمَ ما أنزل اللهُ فإنَّ عليه الوَعِيدَ الشَّدِيدَ[1].

---

(١) يعني في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

وعلى هذا فإنَّنا نُحَذِّر إخواننا طَلَبَة العلم والعامَّـة أيضًا أن يُفْتُوا بلا عِلْمٍ، بل عليهم أن يَلْتَزِمُوا الوَرَعَ، وأن يَقُولُوا لِمَا لا يَعْلَمون: لا نَعْلَم، فإنَّ هذا -واللهِ- هو العلمُ.

لكن إذا كان الإنسانُ عَالِمًا بحُكْمِ المسألة من عَالِم يَثِقُ بقَوْلِه، وأراد أن يَنْقُل قَـوْلَ هذا العَالِم للمُسْتَفْتِي، فإنَّ هذا لا بأسَ به، مثل: أن يَأْتِيَه شخص، ويقول: ما تَقُول في كذا وكذا؟ والمَسْؤُول عَامِّيٌّ، لكن يقول: سَمِعْتُ الشَّيخ الفُلَاني يقول: إنَّ حُكْمَه كذا وكذا، وهو مُتَيَقِّن أنَّ هذا ما سَمِعَه من العالِم، فإنَّ هذا لا بأسَ به، ويكون هذا رَاوِيًا، لا مُفْتِيًا.

وعلى كُلِّ حال فـإنِّي أُعيد وأُكَـرِّر التَّحذيرَ من الفَتْوَى بغير عِلْمٍ، وأقـول للإنسان: أنت في حِلٍّ -إذا لم يَكُنْ عندك عِلْمٌ- أن تَصْرِفَ المُسْتَفْتِيَ إلى شخصٍ آخر.

وكان الإمامُ أَحْمَد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا سُئِلَ عن شيء، ولا عِلْمَ له به، يقول: اسأل العلماء. وهذا يدلُّ على أَنَّهُ لا يَنْبَغِي للإنسان أن يُعَيِّن شخصًا مُعَيَّنًا عندما يُحيل النَّاسَ إلى اسْتِفْتَاء شخص آخر، بل يقول: «اسأل العُلَمَاء» اللَّهُمَّ إلَّا أن يَخْشَى أَنَّهُ إذا قال: «اسأل العُلَمَاء» أن يَذْهَب هذا السَّائل إلى شخصٍ جَرِيءٍ يَتَجَرَّأ على الفَتْوَى بغير عِلْمٍ، فهنا يُعَيِّن مَن يُحيله عليه، فيقـول: اذْهَب إلى الشَّيْخ الفُلَانيِّ، فعنده العِلْمُ.

= مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٤].

قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء المُتَّبِعين لأَهْوائهم المُقْتَدِين بكُبَرائهم من الآباء أو غَيْرِهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، و(بل) هنا للإِضْرَاب الإِبْطَالِيِّ، أي: بل لا نَتَّبِع ما أَمَرْتُمونا به، بل نَتَّبع ما أَلْفَينا عليه آباءنا.

و﴿أَلْفَيْنَا﴾ بمعنى: وَجَدْنا، كقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥]، أي: وَجَدَاه عند الباب.

قَال الله تعَالى ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: أَيَتَّبِعُون آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يَعْقِلُون شيئًا ولا يَهْتَدون؟! والاستفهامُ هنا للإِنْكَار والتَّوْبِيخ.

وقَوْلُهُ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يَفْهَمُونه ولا يَفْقَهُونه، وليس المعنى: لا يَعْرِفُونه، بل هم يَعْرِفُون الأشياءَ، وهم أَذْكِيَاء، لكن ليس عندهم عُقُولٌ يَهْتَدُون بها إلى ما يَنْفَعُهم، ويَتْرُكون بها ما يَضُرُّهم، ولهذا قَال: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ لأَنَّهم وإن كَانُوا أَذْكِيَاء، وعندهم عِلْمٌ وفَهْمٌ، لكن ليس عندهم عَقْلٌ، وهناك فَرْقٌ بين العَقْلِ والذَّكَاء، فالعَقْلُ يَحْمِلُ صَاحِبَه على حُسْنِ التَّصرُّف، وأَمَّا الذَّكاء فقد يَحْمِل صَاحِبَه على حُسْن التَّصرُّف إن كان مقرونًا بالعَقْل، وقد يَحْمِلُه على الطَّيْشِ وعدم حُسْنِ التَّصرُّف إذا لم يَكُنْ مَصْحُوبًا بعَقْلٍ.

في هذه الآيَةِ الكَرِيمَةِ من الفَوَائِدِ والأحْكَام ما يلي:

١- أنَّ هَؤُلاءِ المُخَالِفِين للرُّسُل مُعَانِدُون؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

٢- أنَّهُ يجبُ اتِّبَاع ما أَنْزَل الله فيما نَصَّ اللهُ عليه، وفيما أَرْشَد إِلَيْه، أمَّا ما نصَّ الله عليه فمثلُ قَوْلِه تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الحج:٧٨] وأمَّا ما أَرْشَد الله إِلَيْه فمِثْلُ قَوْلِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩، مُحَمَّد:٣٣]، وهذا يدلُّنا على أنَّ ما أَمَرَ به الرَّسُول ﷺ فإنَّهُ مُطاعٌ، كالَّذي أَمَرَ الله به.

ومِمَّا يَدْخُل في الإِرْشَاد: قَوْلُه تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣، الأنبياء:٧]، فأَحَالنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى أهل الذِّكْر إذا كُنَّا لا نَعْلَم؛ لأنَّ العامِّيَّ قد لا يَعْلَم حُدُود ما أَنْزَل اللهُ على رَسُوله، ولكن يجب عليه في هذه الحال أن يَسْأَل أهل الذِّكْر، أي: أَهْلَ العِلْمِ.

٣- أنَّ الوَحْيَ نازلٌ من عند الله؛ لقَوْلِهِ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٤- إثباتُ عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الشَّيء إذا نَزَلَ منه كان دَلِيلًا على عُلُوِّه، وهذا -أعني: إثباتَ عُلُوِّ الله- هو قَوْلُ أهل السُّنَّة والجَمَاعَة، حين قالوا: إن الله تعالى عَلِيٌّ بذَاتِه، عَلِيٌّ بصِفَاته.

٥- قُبْحُ التعصُّب المبنيِّ على الجَهْلِ والضَّلَال؛ لأنَّ الله تعالى ذَمَّ هَؤُلاءِ الذين قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

٦- أنَّ للبيئة تَأْثِيرًا، فإذا عاش الإنسانُ في بيئةٍ صَالحةٍ كان ذلك من أَسْبَاب صَلَاحِه، والعكسُ بالعَكْسِ، ويُؤَيِّد هذا قولُ رَسُول اللهِ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ**

عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١).

٧- توبيخُ مَن اتَّبع آباءَهُ على غَيْر هُدًى وعَقْلٍ؛ لقَـوْلِهِ تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

٨- نَعْيُ هَؤُلاءِ الآباء بأنَّهم لا عُقُولَ لهم؛ لقَـوْلِهِ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾، و﴿شَيْـًٔا﴾ نَكِرَة في سِيَاق النَّفْي.

فإن قال قائل: العقلُ ضِدُّ الجُنُون، فإذا انْتَفَى العقلُ صار الجُنُونُ، والمَجْنُون غَيْر مُكَلَّف، فكَيْفَ يَكُون التَّوبيخُ؟

فَالجوابُ: أنَّ العَقْلَ عَقْلَان:

الأوَّل: العقلُ الَّذي هو شَرْطُ التَّكليف، فهذا ضِدُّه الجُنُون.

والثَّاني: العقلُ الَّذي ضِدُّه السَّفَه، وهو عَقْلُ الرُّشْد، أي: أن يَكُون الإنسان رَشِيدًا، ولهذا لو وَجَدْنا شخصًا عاقلًا من حيث التَّكْليفُ -أي: ليس بمَجْنُون- لكن لا يُحْسِن التَّصرُّف، قلنا: هذا سَفِيه! ولنا أن نقول: إنَّه غَيْرُ عاقلٍ، أي: العَقْلَ الَّذي يَحْمِلُه على الرُّشْد، فأمَّا العقلُ الَّذي لا يَحْمِله على الرُّشْد فإنَّهُ يُسَمَّى: ذكاءً، ولا يُسَمَّى: عقلًا، ولهذا يجب أن نُفَرِّق بين العَقْلِ والذَّكَاء.

فنقول: العقلُ عَقْلَان: العَقْلُ الَّذي هو شَرْطُ التَّكْلِيف، وهذا ضِدُّه الجُنُون، والعَقْلُ الَّذي هو شَرْطُ حُسْن التَّصرُّف، وهذا ضِدُّه السَّفَه، وهو المراد هنا في قَوْلِه تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى: كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٩- أَنَّهُ رُبَّمَا يُسْتَدلُّ بها على أنَّ الأَجْدَاد يُسَمَّون: آباءً، وهذا كثيرٌ في اللُّغَة وفي القُرْآن، أنَّ (الآباء) تُطْلَق ويُراد بها الأَجْدَادُ والآباءُ الأَدْنَون.

ويتَفَرَّع على ذلك مَسْأَلة فَرَضِيَّة، وهي أَنَّهُ إذا مات الميتُ، وترك جدًّا من قِبَل أبيه، وإِخْوَانًا، فإنَّ مَالَه لجدِّه من قِبَل أبيه، وليس لإِخْوَانه شيء، وذلك لأنَّ جَدَّه من قِبَل أبيه بمَنْزِلة أبيه، بل هو أبٌ حقيقةً، والأبُ لا يَرِثُ معه الإخوةُ شيئًا، وهذا -أعني: القَوْلَ بأنَّ الجَدَّ من قِبَل الأب يَحْجِبُ الإِخْوَةَ مُطْلَقًا- هو القولُ الرَّاجح الَّذي اخْتَارَه كثيرٌ من أَهْل العِلْم، ومنهم شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وشَيْخُنا عبدُ الرَّحمن بن سَعْديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

•••

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

المَثَل: بمعنى الشَّبَهِ، وبمعنى الصِّفةِ، وكِلَا المعنيين صحيحٌ، يعني: صفة هَؤُلاءِ الَّذِينَ كفـرُوا كصِفَـة الَّذي يَنعِـقُ بما لا يَسْمَعُ، أو شَبَهُ هؤلاء كشَبَهِ الَّذي يَنْعِقُ بما لا يَسْمَعُ.

والَّذي يَنْعِقُ هو مُنادي الحَيَوَاناتِ، والَّذي لا يَسْمَعُ إلَّا دعاءً ونداءً هو الحيوانُ، يعني: كمَثَلِ الرَّاعي يَنعِقُ للإبلِ، ويَنْعِقُ للغنمِ، ويَنْعِقُ للبقرِ، فتُقْبِلُ إِلَيْه من غَيْر

(١) مجموع الفتاوى (٣١/ ٣٤٣)، والمختارات الجليَّة، (ص:١٦٦) ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قسم الفقه- المجلد الثاني.

أن تَدْرِيَ ماذا يصنعُ، حتَّى إنَّهُ رُبَّما يَنْعِقُ بها ليَذْبَحَها، فتأتي وهي لا تَدْرِي.

فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يُخبِرُ أنَّ حالَ هَؤُلاءِ الكُفَّارِ وشَبَهَ هَؤُلاءِ الكُفَّارِ كهذا الَّذي يَنْعِقُ بها لا يَسْمَعُ، أي: يَنْعِقُ بالدَّابَّةِ والبهائمِ، وهِيَ لا تَسْمَعُ إلَّا دعاءً ونداءً، لا تَدْرِي ما هو، ووجهُ الشَّبَهِ: أنَّ هَؤُلاءِ الكُفَّار يَتْبَعون مَن يَتْبَعون من آبائِهم وكُبَرَائهم، وهم لا يَعْلَمونَ أنَّهم يَجُرُّونهم إلى الهلاكِ، ولهذا وَصَفَهم بأنَّهم صُمٌّ عن الحقِّ، فلا يَسْمَعُونه، بُكْمٌ عن الحقِّ، فلا يَنْطِقون به، عُمْيٌ عن الحقِّ، فلا يُبْصِرونه، والعياذ بالله، فهم بناءً على فَقْدِ هذه الحَوَاسِّ منهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يَعْقِلُون العَقْلَ السَّليمَ الَّذي يَحُثُّهم على الرُّشدِ، ويُحذِّرهم من الغَيِّ.

في هذه الآيَة الكَريمَة من الفوَائِد العظيمة والأحْكَام ما يلي:

١- سُوءُ مَثَلِ الكُفَّارِ، حيث شُبِّهُوا بالذي يَنْعِقُ بها لا يَسْمَعُ إلَّا دعاءً ونداءً، وهم أهلٌ لذلك، بل هم أضلُّ من هذه الأنعامِ، كما قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥]، وقال الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

٢- التَّحذيرُ من التَّعصُّبِ والمُتَابعةِ لغيرِ مَن يُعْلَمُ أو يَغْلِبُ على الظَّنِّ أنَّه على هدًى؛ لأنَّ الله تعالى ذمَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَتْبَعونَ الكُفَّارَ، وبيَّن أنَّهم كالَّذي يَنْعِقُ بها لا يَسْمَعُ إلَّا دعاءً ونداءً.

٣- نَفْيُ الكَمال عمَّن لم يَنْتَفِعْ به، فإنَّ الصَّمَمَ والبَكَمَ والعَمَى نقصٌ، وهؤلاء الكُفَّارُ قد يَكُونون من أَقْوَى النَّاس بَصَرًا، وأَشَدِّهم سمعًا، وأَفْصَحِهم لسانًا،

لكن لَمَّا كَانُوا لا يَسْتِفيدون من ذلك صارُوا كالفَاقِدِين لها؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٤- الإِشَارةُ البيِّنةُ إلى الفَرْقِ بين العقلِ والذَّكَاءِ، فإنَّ هَؤُلاءِ الكُفَّارَ الَّذِينَ يَتْبَعون مَن يَتْبَعُونه من آبائهم وكُبَرَائهم هم أذكياء، ولا يَفُوتهم شيءٌ ممَّا يَشْتَهونه ويَهْوَونه، لكنَّهم غيْرُ عُقَلاء في الواقع؛ لأنَّهم لم يُحْسِنُوا التَّصرُّفَ لأَنْفُسهم، حيث أَوْقَعوها في الكُفرِ والضَّلالِ، والعياذ بالله.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

هنا وَجَّهَ الخطابَ للمؤمنينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. وتصديرُ الخطابِ بالنِّداءِ يدلُّ على أَهمِّيَّته؛ لأنَّ النِّداءَ يستلزمُ أن يَسْتَرعيَ المُنادى انْتِباهَهُ، ويَنْتَبِهَ لِمَا وُجِّهَ إِلَيْه.

ثُمَّ إنَّ تَوْجِيهه إلى الَّذِينَ آمنُوا يدلُّ على فضلِ الإِيمانِ، وأنَّ المُتَّصفَ به أهلٌ لأن يُلْقَى إِلَيْه الخطابُ، ويُوَجَّهَ إِلَيْه النِّداءُ.

ثُمَّ إنَّ تَوْجِيهَه إلى الَّذِينَ آمنُوا يدلُّ على أنَّ هذا من مُقْتَضَياتِ الإِيمانِ، كما إذا قال القائلُ لشخصٍ ما: يا أَيُّها الكَرِيمُ! نَزَلَ عليك ضيفٌ، يعني: ومن مُقْتَضى كَرَمِك أن تُكْرِمَ هذا الضَّيفَ، كذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: من مُقْتَضى إِيمانِكم أن تَمْتَثِلُوا ما أَمَرَكم الله به فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

ومِمَّا يَتعَلَّقُ بتَصْدِيره بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ تَرْكَ الامْتِثالِ مِمَّن وُجِّهَ إِلَيْه هذا النِّداءُ إخلالٌ بالإِيمانِ ونقصٌ له.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ والأمرُ هنا: ﴿كُلُواْ﴾ للإِبَاحَة، ومعنى ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: أَعْطَيْناكم، ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ مَعطُوفةٌ على ﴿كُلُواْ﴾، يعني: اجمعُوا بين الأكلِ والشُّكرِ.

قال العلماءُ: والشُّكرُ هو الاعترافُ بالقَلْبِ للمُنْعِمِ، والتَّحدُّثُ بالنِّعمةِ باللِّسانِ، شكرًا لا افتخارًا، والعملُ بطَاعةِ المُنْعِمِ، تصديقًا للأخبارِ، وتنفيذًا للأحْكَامِ.

وعلى هذا فالشُّكرُ أمرٌ عظيمٌ، ليس بالأَمْرِ الهَيِّنِ، ولا يكفي فيه أن يقولَ الإنسانُ: أشكرُ اللهَ، أو: أنا شاكرٌ للهِ، بل لابُدَّ من هذه الأُمُورِ الثَّلاثةِ:

الأولُ: التَّحدُّثُ بها بالقلبِ.

والثَّاني: الاعْتِرَافُ بها باللِّسانِ بأنَّها من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ونَشْرُها بين النَّاسِ، لا افتخارًا ولا علوًّا، ولكن إِظْهَارًا لنِعْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه.

والثَّالِثُ: العملُ بالجَوارحِ فيما يُرْضِي المُنْعِمَ عَزَّوَجَلَّ.

وقَوْلُهُ: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني: أنَّ من مُقْتَضى العِبادةِ الحقِّ أن يَشْكُرَ الإنسانُ ربَّه عَزَّوَجَلَّ.

في هذه الآيَة الكَريمَة من الفوَائِد والأحكَام ما يلي:

١- أهمِّيَّةُ هذا الأَمْرِ الَّذي وُجِّهَ للمُؤْمِنينَ، ووَجْهُ هذا: أنَّه صُدِّرَ بالنِّداءِ، وبوَصْفِ الإِيمانِ.

٢- فضيلةُ الإِيمان، حيث كان أهلُهُ محلًّا لإلقاءِ الخِطَابِ إِلَيْهم.

٣- وُجُوبُ الأكلِ من الطَّيِّباتِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، والأصلُ في الأمرِ: الوجوبُ، ولكن دلَّت السُّنَّةُ على أنَّ الأكلَ يَكُون أحيانًا مُباحًا، وأحيانًا يَكُون مُستحبًّا، وأحيانًا يَكُون واجبًا، فيكونُ واجبًا إذا تَرَتَّبَ عليه بقاءُ الإنسانِ، ولهذا نقولُ: إنَّ الَّذِينَ يُضْرِبُون عن الطَّعامِ والشَّرابِ حتَّى يَهْلِكُوا مُنْتَحِرونَ، أي: بمَنْزِلةِ الَّذِينَ نَحَرُوا أَنْفُسهم؛ لأنَّ الأكلَ والشُّرْبَ يجبُ عند خَوْفِ الهَلَاكِ.

٤- الإِشَارةُ إلى أنَّ ما في الأَرْضِ من عَطَاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، وهذا يَسْتَلزمُ أن نَشْكُرَ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على ما رَزَقَنا، وألَّا نتَّكلَ على أَنْفُسنا، وألَّا نَفْخَرَ بعمَلِنا، وألَّا نكونَ كالَّذي قال اللهُ عنه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، فنسألُ اللهَ تعالى أن يَرْزُقنا جميعًا شُكْرَ نِعْمَتِه، وحُسْنَ عِبادَتِه، وأن يَزِيدَنا من فَضْلِهِ.

٥- أنَّ الشُّكرَ محلُّهُ القلبُ واللِّسانُ والجَوارحُ، كما قال الشَّاعرُ:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا[1]

وبين الشُّكرِ والحَمْدِ عُمُومٌ وخُصُوصٌ، فمن جِهَةِ ما يَكُون به الشُّكرُ فالشُّكرُ أعمُّ، ومن جِهَةِ مَوْرِدِ الشُّكرِ ومَوْقِعِهِ فالحَمْدُ أعمُّ؛ لأنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُحْمَدُ على كَمالِ صِفَاتِهِ وكَمالِ إنعامِهِ، ويُشْكَرُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على إنعامِهِ فقط، ويكونُ الحَمْدُ باللِّسان فقط، ويكونُ الشُّكرُ بالقلبِ واللِّسَانِ والجوارحِ.

---

(١) انظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤) غير منسوب.

٦- أنَّ الشُّكرَ يكُونُ به تحقيقُ العِبادةِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وهذه الجُمْلَةُ الشَّرطيَّةُ الَّتي يَرِدُ مثلُها كثيرًا في القُرْآنِ تُفيدُ معنى التَّحدِّي، أي: إن كنتَ صادقًا في عِبادةِ اللهِ فاشْكُرْهُ، ولا تَكْفُرْ نِعمَهُ.

•••

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ التَّحريمُ بمعنى المَنْعِ، والجُمْلَةُ هنا فيها الحَصْرُ بـ﴿إِنَّمَا﴾، يَقُولُ العلماءُ: الحصرُ هو إثباتُ الحُكْمِ في المَذْكُورِ، ونفيُهُ عمَّا عداهُ، فقولُه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ بمَنْزِلةِ قولِ القائلِ: ما حَرَّمَ عليكم إلَّا الميتةَ.

والمَيْتَةُ عند أَهْلِ العِلْمِ: كُلُّ ما مات بغيرِ ذَكَاةٍ شَرْعِيَّةٍ، فيشملُ ما ماتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، وما مات بغيرِ ذَكَاةٍ شَرْعِيَّةٍ.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ هُوَ ذلك السَّائلُ الأحمرُ الَّذي يَخرجُ من الحَيَوانِ ذي الرُّوحِ، وهو مَعْرُوفٌ، لكنَّه هنا مُطْلَقٌ، وفي سُورةِ الأنعامِ مُقَيَّدٌ، حيث قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام:١٤٥]؛ فالمرادُ بالدَّمِ هنا: الدَّمُ المسفوحُ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ الخنزيرُ: حيوانٌ مَعْرُوفٌ، ولحمُهُ حرامٌ؛ لأَنَّهُ رجسٌ وخَبَثٌ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ذُبِحَ لغيرِ اللهِ، أو ذُكِرَ عليه اسمُ غَيْرِ اللهِ، فما ذُبِحَ للصَّنَمِ مثلًا فهو حرامٌ وإن سمَّى عليه، وما ذُبِحَ للأكلِ وسُمِّيَ عليه اسمُ غَيْرِ اللهِ فهو حرامٌ، وإن كان الإنسانُ لم يَقْصِدْ به التَّعبُّدَ، لكن أَهَلَّ به لغيرِ اللهِ.

وما سُمِّيَ عليه غَيْرُ اسمِ اللهِ، فمثلُ أن يقولَ: باسم المَسِيحِ، باسم الرَّئيسِ، باسم الشَّعبِ، ويَذْبَحَ على هذا الاسمِ، فهذا أيضًا حَرَامٌ؛ لفَقْدِ تَسْمِيَةِ الله عليه، ولأنَّه ذُبِحَ على وَجْهِ الإِشْرَاك بالله عَزَّوَجَلَّ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي: مَن ألجأَتْهُ الضَّرورةُ إلى أَكْلِ هذه الأَنْواعِ الأربعةِ: الميتةِ، والدَّمِ، ولحمِ الخِنْزِيرِ، وما أُهِلَّ به لغيرِ اللهِ فإنَّهُ لا إِثْمَ عليه إذا أَكَلَ. و﴿ٱضۡطُرَّ﴾ أصلها: «اضْتُرَّ» من الضَّررِ، أي: مَن حَصَلَ له ضررٌ بتَرْكِ الأكلِ، وخَافَ على نفسِهِ المرضَ أو الهلاكَ.

وقَوْلُهُ: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ هذا شرطٌ للضَّرُورةِ، فـ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ أي: غَيْرَ باغٍ للحرامِ، وغيرَ طالبٍ له، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ أي: ولا مُعْتَدٍ، بحيث يأكلُ بدون حَاجَةٍ، بل يأكلُ منه ما تَدْعُو الضَّرورةُ إلى أَكْلِهِ فقط ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي: لا عُقُوبةَ، فإن كان باغيًا أو مُعْتَدِيًا فأَكَلَ فعليه الإثمُ.

وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أيْ: ذو مَغْفِرةٍ، فيتجاوزُ عن عِبَادِهِ السَّيِّئاتِ، رحيمٌ بهم، فلا يُحَرِّمُ عليهم ما اضْطُرُّوا إلى أَكْلِهِ، وكان لهم فيه انتفاعٌ، فمن أجلِ مَغْفِرتِهِ ورَحْمَتِهِ رَفَعَ الإثمَ عمَّن كان مُضْطرًّا، هذا معنى الآية.

في هذه الآيَة الكَرِيمَة من الفوَائِد والأحْكام ما يلي:

١- أنَّ التَّحليلَ والتَّحريـمَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا إلى غَيْرِه؛ لقـوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾، ولا يَمْلِكُ أحدٌ أن يُحرِّمَ شيئًا حلالًا، ولا أن يُحِلَّ شيئًا حرامًا، إلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل قد جاء في الحَدِيثِ ما يدلُّ على أنَّ مَن أطاعَ العُلَماءَ والأُمَراءَ في تحليلِ ما حَرَّمَ اللهُ، أو تَحْرِيمِ ما أَحَلَّ اللهُ، فقد اتَّخَذَهم أربابًا من دونِ الله(١)، ولهذا لَمّا قيل يومَ خيبر: إنَّ البُقُولَ من البَصَلِ والثُّومِ والكُرَّاثِ وما أشبهها قد حُرِّمت، قَـال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللهُ**»(٢)، فإذا كان النَّبـيُّ ﷺ يَبْرَأُ من تَحْرِيمِ ما أحلَّ اللهُ فغَيْرُهُ من باب أَوْلَى، فالتَّحريمُ والتَّحليلُ والإيجابُ والكراهةُ كُلُّ ذلك إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَه؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾، والضَّميرُ يَعُودُ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

٢- أنَّ المَيْتَةَ حرامٌ، وظاهرُ الآيَةِ العُمُومُ، لكن قد دلَّ الدَّلِيلُ أنَّ من المَيْتَاتِ ما هو حلالٌ، ومن ذلك: صَيْـدُ البَحْـرِ، فإنَّ ميتتَهُ حلالٌ؛ لقـول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦]، قَـال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: صَيْدُه ما أُخِذَ حيًّا، وطعامُهُ ما أُخِذَ ميتًا(٣). وفي حديث ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبيِّ ﷺ: «**أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، أَمَّا المَيْتَتَانِ فَالجَرَادُ وَالحُوتُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ**

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا...، رقم (٥٦٥) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير (٨/ ٧٢٣-٧٢٧).

فَالطِّحَالُ وَالْكَبِدُ»[1]، وعلى هذا فمَيْتَةُ السَّمكِ حلالٌ، وميتةُ الجَرَادِ حلالٌ.

والحكمةُ في حلِّ ميتةِ الجرادِ مع أَنَّهُ صيدٌ برِّيٌّ: أَنَّه ليس فيه دمٌ، والعِلَّةُ في تحريمِ الميتةِ: احْتِقَانُ الرُّطوباتِ والدَّمِ فيها، ولهذا جاء في الحديثِ عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «**مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، فَكُلُوا إِلَّا السِّنَّ وَالظُّفُرَ**»[2]، فدلَّ ذلك على أنَّ الحِكْمَةَ من إِبَاحةِ المُذَكَّى: كَوْنُهُ قد نَزَفَ دمُهُ، ولم يَحْتَقِنْ، ولم يَبْقَ في العُرُوقِ.

٣- أنَّ الدَّمَ حرامٌ، وقد بيَّنَّا في تفسيرها أنَّ المُرَادَ به: الدَّمُ المسفوحُ الَّذي يخرجُ من الحيوانِ عند ذَبْحِهِ وتَذْكيتِهِ، فأمَّا الدَّمُ الَّذي يبقى بعد التَّذكيةِ في العُرُوقِ فإنَّه حلالٌ وليس بحرامٍ، كدمِ الكَبِدِ ودمِ القَلْبِ والطِّحَالِ وما أشبهَ ذلك، وذلك لأنَّه من مُذَكَّاةٍ، فيكونُ حَلَالًا كلَحْمِ المُذَكَّى.

٤- تحريمُ لحمِ الخِنْزِيرِ، والخنزيرُ: حيوانٌ مَعْرُوفٌ خبيثٌ، من خصائصِهِ: أَنَّهُ يأكُلُ القاذُوراتِ كالعَذِراتِ، وأَنَّهُ لا غَيْرَةَ فيه على أُنْثَاه، وأنَّ في لحمِهِ جَرَاثيمَ مُضرَّةً مُهْلِكةً مُفْسِدةً للطَّبائعِ، ولهذا حرَّمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾.

٥- أَنَّهُ لا يحلُّ من الخنزيرِ أيُّ جُزءٍ من أجزائِهِ كالشَّحم والعَصَب والكَرْش ونَحْوِ ذلك؛ لعُمُومِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾؛ فلا تحلُّ كَبِدُهُ، ولا أمعاؤُهُ، ولا كِلَاهُ، بل كُلُّ ما فيه فهو حرامٌ.

---

(١) أخرجه بنحوه ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، رقم (٣٣١٤)، وأحمد (٢/ ٩٧).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب الشَّركة، باب قسمة الغنم، رقم (٢٤٨٨)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب جواز الذَّبح بكل ما أنهر الدَّم، رقم (١٩٦٨) من حديث رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونتقلُ من هذه الفائدةِ إلى فائدةٍ أُخْرَى تتعلَّقُ بالوضوءِ، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَمَرَ بالوضوءِ من لحمِ الإبلِ، فقال: «**تَوَضَّؤُوا مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ**»[1]، وسُئِلَ ﷺ: أتوضَّأُ من لحومِ الإبلِ؟ قال: «**نَعَمْ**»، قال: أَتَوَضَّأُ من لحوم الغَنَم؟ قال: «**إِنْ شِئْتَ**»[2]، فكونُهُ ﷺ يردُّ الوضوءَ من لحمِ الغنمِ إلى المَشِيئةِ، ويجزمُ بالوضوءِ من لحمِ الإبلِ، دَلِيلٌ على أنَّ الوضوءَ من لحمِ الإبلِ واجبٌ، وأنَّ الوضوءَ من لحمِ الغنمِ ليس بواجبٍ، وهو كذلك.

ولكن ما المرادُ بلُحُومِ الإبلِ؟

الجواب: المرادُ: جميعُ أَجْزَائها، كما قلنا في لحمِ الخنزيرِ، فإذا أكَلَ الإنسانُ شيئًا من لحمِ الإبلِ من الكَبِدِ، أو الأمعاءِ، أو الكَرْشِ، أو القلبِ، أو الفخذِ، أو من أيِّ موضعٍ كان، فإنَّه يلزمُهُ أن يتوضَّأَ، سواء أَكَلَ اللَّحمَ نِيئًا أو مطبوخًا، ولكن لا حَرَجَ عليه إذا أَكَلَ أن يتوضَّأَ وضوءًا فقط، دون أن يَغْسِلَ الفرجَ، بل لا يغسلُ الفرجَ؛ لأنَّ غَسْلَهُ في هذه الحال تعنُّتٌ وبدعةٌ، فإنَّ غَسْلَ الفرجِ لا تَلَازُم بينه وبين الوُضُوءِ؛ لأنَّ غَسْلَ الفرجِ إنَّما يجبُ من بولٍ أو غائطٍ، وإذا لم يَكُنْ بولٌ ولا غائطٌ فليس هناك شيءٌ يُغْسَلُ.

٦- تحريمُ ما ذُبِحَ لغيرِ الله؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (١٨٤)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٨١)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٤٩٤)، وأحمد (٤/ ٢٨٨) من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٣٦٠) من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- تحريمُ ما ذُكِرَ اسمُ غَيْرِ اللهِ عليه، وإن لم يكن القصدُ منه غَيْرَ الله؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، فإذا قالَ الرَّجلُ إذا أراد أن يذبحَ الذَّبيحةَ: باسمِ الوطنِ، باسمِ الرَّئيسِ، باسمِ فُلَانٍ أو فُلَانٍ، فإنَّ الذَّبيحةَ لا تحلُّ، حتَّى وإن كان قد قَصَدَ بها شيئًا مُباحًا، كما لو قَصَدَ بها الأكلَ، فإنَّها لا تحلُّ؛ لأنَّه أُهِلَّ بها لغيرِ الله.

٨- سَعَةُ رَحْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث أباحَ هذه المُحَرَّماتِ عند الضَّرورةِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

فإن قال قائل: هل تُجيزونَ أن يَتَدَاوى الإنسانُ بالمُحَرَّمِ قياسًا على أَكْلِ هذه الأَرْبَعةِ عند الضَّرورة؟

قلنا: لا، لا نُجِيزُ ذلك، وذلك لأنَّ الدَّواءَ قد يحصلُ به الشِّفاءُ، وقد لا يَحْصُلُ، بخلاف أَكْلِ الميتةِ وما عُطِفَ عليها للمُضْطَرِّ، فإنَّه يَحْصُلُ به الشِّبعُ قطعًا.

والوَجْهُ الثَّاني من الفُرُوقِ بين هذه وهذه: أنَّ الشِّفاءَ لا يتعيَّنُ بتَنَاولِ هذا الشَّيء المُحَرَّمِ، بل قد يُشْفَى بدون تَنَاوِلِهِ، أو بتَنَاوُلِ شيءٍ مُباحٍ، وأمَّا المُضْطَرُّ فيتعيَّنُ زوالُ ضَرُورتِهِ بأَكْلِهِ من هذه المُحَرَّماتِ؛ لأنَّه ليس عنده شيء سواها.

٩- إثباتُ القاعدةِ المشهورةِ عندَ أَهْلِ العِلْمِ، وهي: أنَّ الضَّروراتِ تُبيحُ المَحْظُوراتِ، كما أنَّ الواجباتِ تَسْقُطُ بالعجزِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٠- اعتبارُ النِّيَّةِ والمَقَاصدِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، وهذا أمرٌ معلومٌ من الشَّريعَةِ، فتجدُ الرَّجلَ يأكلُ هذه الأَكْلَةَ؛ لَيَستعينَ بها على مُحَرَّمٍ، فتكونُ حرامًا، ويأكلُ هذه الأَكْلَةَ؛ لَيَستعينَ بها على مأمورٍ، فتكونُ مأمورًا بها.

١١- أنَّ هذا التَّخفيفَ على العِبَادِ من مُقتضياتِ كَوْنِهِ تعالى غفورًا رحيمًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٢- إثباتُ هَذَينِ الاسْمَيْنِ للهِ عَزَّوَجَلَّ: (الغفُور) و(الرَّحيم)، والغَفُور: هو السَّاترُ لذُنُوبِ عِبَادِهِ، المُتَجَاوزُ عنها، فالغَفْرُ بمعنى: السَّترِ والتَّجاوزِ، يدلُّ على ذلك اشتقاقُهُ؛ لأنَّه مُشتقٌّ من المِغْفَرِ، والمِغْفَرُ: ما يُوضَعُ على الرَّأسِ عند الحَرْبِ، لاتِّقاءِ السِّهامِ أن تقعَ على الرَّأسِ، ففيه سَترٌ، وفيه وقايةٌ، وليس الغَفْرُ مُجَرَّدَ السَّترِ، فالغفورُ: هو المُتَجَاوزُ عن سيِّئاتِ عِبَادِهِ، السَّاترُ لها.

والرَّحيم: ذو الرَّحمةِ، ورحمةُ اللهِ: عامَّةٌ، وخاصَّةٌ، فالعامَّةُ: هي الَّتي تشملُ المُؤْمِنينَ والكافرينَ، والخاصَّةُ: هي الَّتي تختصُّ بالمُؤْمِنينَ، ومنها: قولُ الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

١٣- الصِّفةُ الكاملةُ الَّتي تَحْصُلُ من اجْتِماعِ هذينِ الاسمينِ: الغفور الرَّحيم؛ لأنَّ بالمغفرةِ زَوَالَ المكروهِ، وبالرَّحمةِ حُصُولَ المطلوبِ، فبمَغْفِرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَحْصُلُ العفوُ، وبرحمتِهِ يحصلُ الفضلُ، ولهذا نَجِدُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقْرِنُ بين هذين الاسمينِ كثيرًا، نسألُ اللهَ تعالى أن يَدْفَعَ عنَّا ما نَكْـرَه، وأن يُحَقِّق لنا ما نَطْلُب فيما فيه رِضَاه، إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

١٤- جَوَازُ أَكْلِ هذه المُحَرَّماتِ للمُضْطَرِّ الَّذي اضْطُرَّ إلى أَكْلِها، بحيث يخافُ التَّلفَ إذا لم يَأْكُلْ.

١٥- بيانُ رَحْمَةِ الله تعالى بعِبَادِهِ، حيثُ أحلَّ لهم هـذه المُحَرَّماتِ عند الاضْطِرَارِ؛ لدَفْعِ ضَرُورتهم.

١٦- أَنَّهُ لا يحلُّ لِمَنْ أُبيحَ له أكلُ هذه المُحَرَّماتِ للضَّرُورةِ، إلَّا ما تَدْعُو الضَّرورةُ إِلَيْه، بحيثُ لا يتجاوزُ أكثرَ ممَّا يحتاجُ إِلَيْه، وعلى هذا فلا يأكلُ إلَّا ما يَسُدُّ رَمَقَه فقط، ولا يملأُ بطنَهُ بذلك.

ولكن إذا خافَ أن تبقى ضَرُورتُهُ فلَهُ أن يتزوَّدَ من هذه المُحَرَّماتِ، حتَّى يُضطَرَّ إلى أَكْلِها مرَّةً ثانيَّةً.

١٧- الرَّدُّ على المُشْرِكينَ فيما حَرَّموه من بَهِيمةِ الأنعامِ، وهو ما رَدَّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عليهم فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة:١٠٣].

•●○●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾

هذه الجُمْلَةُ مُؤَكَّدةٌ بـ﴿إِنَّ﴾، فـ﴿إِنَّ﴾ أداةُ توكيدٍ، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمُها، وجُمْلَة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ خَبَرُها.

وقَوْلُهُ: ﴿يَكۡتُمُونَ﴾ أي: يُخْفُون ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (الكِتَاب) هنا مُفْرَدٌ، والمرادُ به: الجنسُ، أي: الكُتُب، فيَشْمَلُ ما أَنْزَلَ اللهُ من القُرْآنِ، والتَّوراةِ، والإنجيلِ، وغَيْرِها من الكُتُبِ المُنَزَّلةِ على الرُّسُلِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: يَأْخُذُون به ثَمَنًا قليلًا؛ لأنَّهم يُخْفُونَهُ لينالُوا الجَاهَ، أو ليَنَالُوا المالَ، أو يَنالُوا الحَظْوَةَ عند الزُّعماءِ.

وقَوْلُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ هذا مُتعيِّنٌ فيما إذا كَتَمُوهُ من أجلِ المالِ، فإنَّهم لا يَأْكُلونَ في بُطُونِهم إلَّا النَّارَ؛ لتَحْرِيمِ هذا المالِ عليهم؛ لأنَّ هذا المالَ حَرَامٌ عليهم من وَجْهَينِ:

الوجهُ الأوَّل: أنَّهم أَخَذُوهُ بغير حقٍّ.

والوجه الثَّاني: أنَّهم كَتَمُوا من أَجْلِهِ الحقَّ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: تَكْلِيمَ رضًا، ولكنَّه يُكَلِّمُهم تكليمَ إِهَانةٍ؛ كقوله تعالى حين يقولُ أهلُ النَّار: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٧-١٠٨].

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يُطَهِّرُهم من آثَامِهم؛ لأنَّهم لَيْسُوا أهلًا لذلك.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مُؤْلِمٌ.

في هذه الآيَة من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- تَحْرِيمُ كَتْمِ ما أَنْزَلَ اللهُ من الكِتَابِ، وهذا يَسْتَلزِمُ وُجُوبَ بيانِ ما أَنْزَلَ اللهُ من الكِتَابِ، ولكنَّه لا يَلْزَمُ إلَّا إذا اقْتَضَتِ الحالُ بَيانَهُ، إمَّا بسُؤَالِ سَائلٍ بلِسَانِ المَقَالِ، أو بسُؤَالِ سائلٍ بلِسَانِ الحالِ، أمَّا لِسَانُ المقالِ فأن يأتيَ رجلٌ إلى عالِمٍ من العُلَماءِ، ويقول: ما تقولُ في كذا وكذا؟ فيُفْتِيَهُ، وأمَّا لِسَانُ الحالِ فأن يرى الإنسانُ شخصًا

يتعبَّدُ للهِ تعالى عِبادةً على غَيْر وجهٍ صحيحٍ، فيجبُ عليه في هذه الحالِ أن يُبيِّنَ له الحقَّ في ذلك.

٢- إِثْبَاتُ عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- أنَّ الكُتُبَ الَّتي جَاءَتْ بها الأنبياءُ مُنَزَّلةٌ من عندِ اللهِ.

٤- تَحْرِيمُ أَخْذِ العِوَضِ على كِتْمانِ الحقِّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

فإن قيل: وهل يَحْرُمُ العِوَضُ على بَيَانِ الحقِّ، بمعنى: أن يُعْطَى العَالِمُ أُجْرَةً على بيانِ الحقِّ؟

فالجوابُ عن ذلك أن نقول: إن تَعَيَّنَ عليه بيانُ العلمِ حَرُمَ عليه أخذُ العوضِ عليه، وإن لم يتعيَّن فله أَخْذُ العوضِ، ولكن يَكُون من بيتِ المالِ، لا على سَبِيلِ الاسْتِئْجَارِ.

٥- أنَّ كُلَّ ما يَكُونُ من متاعِ الدُّنْيَا فإنَّهُ قليلٌ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، ويَشْهَدُ لهذا قَوْلُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

٦- أنَّ كَتْمَ ما أَنْزَلَ اللهُ من الكِتَابِ -لِيَشْتَرِيَ به الإنسانُ ثَمَنًا قليلًا- من كَبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ لوُجُودِ الوعيدِ عليه في قَوْلِهِ: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾.

٧- إثباتُ كَلَامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ نَفْيَ تَكْليمِهِ لهؤلاء دَلِيلٌ على أنَّهُ يُكَلِّمُ غَيْرَهم، وأهلُ الحقِّ من السَّلَفِ والخَلَفِ يُثْبِتُونَ أنَّ اللهَ تعالى يتكلَّمُ بحرفٍ وصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، ومن ذلك: القُرْآنُ الكَرِيمُ، فإنَّهُ كَلَامُ الله تعالى، مُنَزَّلٌ غَيْرُ مخلوقٍ، منه بَدأَ، وإِلَيْه يَعُودُ، كما قَرَّرَ ذلك أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ.

٨- إثباتُ يوم القِيامَة، وهو اليومُ الَّذي يُبْعَثُ فيه النَّاسُ من قُبُورِهم، وسُمِّيَ يومَ القِيامَة؛ لأنَّ النَّاسَ يَقُومُون فيه من قُبُورِهم للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولأنَّه يُقام فيه العدلُ، كما قَال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]، ولأنَّه يَقُومُ فيه الأَشْهادُ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١].

٩- أنَّ الله تعالى يُزَكِّي مَن يشاءُ، فإنَّ نَفْيَ تَزْكِيته لهؤلاء دَلِيلٌ على ثُبُوتِها لضِدِّهم.

١٠- أنَّ هَؤُلاءِ ﴿ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا يُزَكِّيهم اللهُ يوم القِيامَة، بل هم أَهْلُ الفِسْقِ والجَوْرِ.

١١- أنَّ هَؤُلاءِ -مع إِعْرَاضِ اللهِ عنهم، وعَدَمِ تَكْلِيمِهِ إيَّاهم، وتَزْكِيَتِهِ لهم- لهم عذابٌ أليمٌ، أي: عذابٌ مُؤْلِمٌ، وذلك عذابُ النَّار؛ لشِدَّتِهِ، وعِظَمِهِ -نعوذ بالله من النَّار- فإنَّ النَّبيَّ ﷺ أَخبَرَ أنَّ نارَ جهَنَّم فُضِّلَت على نار الدُّنْيَا كلِّها بتِسْعَةٍ وستِّين جزءًا[1] أي: أنَّ نارَ الدُّنْيَا كلَّها جُزْءٌ من سَبْعِينَ جزءًا من نارِ جهنَّمَ، أعاذنا الله وإيَّاكم منها، وجَعَلَنا وإيَّاكم من أهلِ النَّعيمِ المُقِيمِ في جوارِ ربٍّ رَحِيمٍ، إنَّهُ على كُلِّ شيء قَدِيرٌ.

•••

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النَّار، رقم (٣٢٦٥)، ومسلم: كتاب الجنَّة، باب في شدة حرِّ نار جهنم، رقم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾ يُشيرُ إلى الَّذِينَ يَكْتُمونَ ما أَنْزَلَ اللهُ من الكِتَابِ، ويَشْتَرُون به ثمنًا قليلًا.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: اخْتَارُوا الضَّلالةَ على الهُدَى ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ اخْتَارُوا العَذَابَ بالمَغْفِرَةِ، وهم قد يَخْتَارونَ ذلك عَمْدًا، وقد يَخْتَارُونَ ذلك عمًى؛ لأنَّهم زَاغُوا، فأَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهم.

وقَوْلُهُ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يعني: أنَّ النَّار عَذَابُها أليمٌ، وحرُّها شديدٌ، وهؤلاء يَصْبِرُونَ على ذلك؛ لأنَّهم يَتَمادَوْن في طُغْيَانِهم وضَلَالِهم.

في هذه الآيَة من الفوَائِد والأحكام ما يلي:

١- أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَكْتُمونَ ما أَنْزَلَ اللهُ من الكِتَابِ، ويَشْتَرونَ به ثمنًا قليلًا، اخْتَارُوا هذا اخْتِيَارَ رَغْبَةٍ؛ لأَنَّهُ شَبَّهَ اخْتِيَارَهم إيَّاه بالاشْتِرَاءِ، والمُشْتَري يَرْغَبُ ما اشْتَرَاه.

٢- أنَّ الجَزَاءَ من جِنْسِ العَمَلِ؛ لأَنَّهم لَمَّا اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بالهُدَى صارُوا كالَّذين اشْتَرَوُا العَذَابَ بالمَغْفِرَةِ، أي: مَغْفِرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

٣- إظْهَارُ التَّعجُّبِ في كَلَامِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وهل يَعْجَبُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من شيءٍ؟

الجوابُ: نعم، العَجَبُ صِفَةٌ من صِفَاتِ الله تعالى، أَثْبَتَها اللهُ تعالى في كِتَابِهِ في قوله تعالى: ((بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ))[1] [الصافات:١٢]، وكذلك النَّبيُّ ﷺ قال: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»[2].

والعَجَبُ الصَّادرُ من الله عَزَّوَجَلَّ ليس هو كالعَجَبِ الصَّادرِ من الإِنْسَانِ؛ لأنَّ العَجَبَ الصَّادرَ من الإنسانِ مَنْشَؤُهُ اسْتِغْرَابُ الأمرِ، وعَدَمُ العِلْمِ بمُقَدِّماتِهِ، أمَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فإنَّهُ لا يَخْفَى عليه خافيَةٌ، ويكونُ عجبُهُ من أجل خُرُوجِ الشَّيء عمَّا يَنْبَغِي أن يَكُونَ عليه.

٤- إثباتُ عَذَابِ النَّارِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما أَشَار اللهُ إِلَيْه من العَذَابِ لهؤلاء، والعُقُوباتِ الَّتي ذَكَرَها اللهُ تعالى في الآيَاتِ السَّابِقَةِ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، وإذا كان نَزَّلَ الكِتَابَ

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائيُّ، انظر: التبصرة في القراءات السَّبع، (ص:٦٥٣).

(٢) انظر: العقيدة الواسطيَّة، كما في مجموع الفتاوى (٣/ ١٣٩)، وقد أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨١) بلفظ: «ضَحِكَ رَبُّنَا» من حديث أبي رزين لقيط بن صبرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالحقِّ فإنَّ الَّذِينَ يضلُّونَ عن الحقِّ سوف يكونون في شِقَاقٍ بَعِيدٍ، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِى ٱلۡكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾.

في هذه الآيَةِ من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- إثباتُ أنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ.

٢- إثباتُ عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، والتَّنْزِيلُ لا يَكُونُ إلَّا من أَعْلَى.

٣- أنَّ الكُتُبَ نَازِلَةٌ من اللهِ حقًّا؛ لقَوْلِهِ: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، وأنَّها نَازِلَةٌ بالحقِّ أيضًا، فقد جَاءَتْ بالحقِّ، وهو الصِّدْقُ في الأَخْبَارِ، والعَدْلُ في الأحْكَامِ.

٤- أنَّ المُخْتَلِفينَ في الكِتَابِ المُخَالِفِين له في شِقَاقٍ -أي: في مُشَاقَّةٍ ومُبَاعَدةٍ عن الحقِّ- بَعِيدٍ؛ لأنَّهم يُجادلونَ في الحقِّ بعدما تَبَيَّنَ.

٥- أنَّ جميعَ ما تتضَمَّنَهُ كُتُبُ اللهِ فهو حقٌّ؛ لأنَّها أَخْبَارٌ صَادِقَةٌ، وأَحْكَامٌ عَادِلَةٌ.

٦- أنَّ نُزُولَ الكُتُبِ من عندِ اللهِ نُزُولٌ بالحقِّ الثَّابتِ الَّذي لا مِرْيَةَ فيه.

٧- خَطَرُ الاخْتِلَافِ في الكِتَابِ، وأنَّ الإِنْسَانَ قد يُبْتَلى عندَ الاخْتِلَافِ في الكِتَابِ بالمُشَاقَّةِ البَعِيدَةِ للهِ ولرُسُلِه.

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

قَـوْلُهُ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ البرُّ: هـو الخيرُ، والتَّولِّي: بمعنى الاتِّجاهِ، و﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي: جهةَ المَشْرِقِ والمغربِ، يعني: أنَّهُ ليس البرُّ في أن يُوَلِّيَ الإنسانُ وَجْهَهُ قِبَلَ المشرقِ أو قِبَلَ المغربِ، وإنَّما البرُّ هو الإيمانُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، والقيامُ بطَاعتِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، سواء أُمِرَ بالاتِّجاهِ إلى المَشْرِقِ أو المَغْرِبِ، أو إلى الشَّمالِ، أو إلى الجَنُوبِ، أو إلى أيِّ جهةٍ كانت؛ لأنَّ المقصودَ هو الإيمانُ بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: أنَّ البرَّ برُّ مَن آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ.

والإيمانُ باللهِ: هو الإقرارُ المُسْتَلزِمُ للقَبُولِ والإذعانِ.

واللهُ: اسمٌ من أَسْمَاءِ البَارِئِ جَلَّوَعَلَا، وهو الاسمُ الخاصُّ به الَّذي لا يُسَمَّى به غَيْرُهُ، ولا يَسْتَحِقُّ أن يُوصَفَ بمَدْلُولِهِ أحدٌ سواهُ.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يعني: يومَ القِيَامَةِ، وسُمِّيَ باليومِ الآخِرِ؛ لأنَّهُ لا يَوْمَ بعدَهُ.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جمعُ مَلَكٍ، وهم العَالَمُ الغَيْبِيُّ الَّذِينَ وَصَفَهم اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بأوصافٍ وأَفْعَالٍ جاءت في الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فالملائكةُ عَالَمٌ غيبيٌّ، وعِبَادٌ للهِ تعالى،

يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرونَ، ولهم أَعْمالٌ وأَوْصافٌ مَذْكُورةٌ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ اسمُ جنسٍ، والمرادُ به: جميعُ الكُتُبِ المُنَزَّلةِ على الرُّسُلِ.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ جمع نَبِيٍّ، وهو شاملٌ في هذه الآيَة للأَنْبِياءِ والرُّسُلِ.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ أي: أَعْطَى المالَ ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: على محبَّتِهِ له، وحَاجَتِهِ إِلَيْه ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي: أَصْحَابَ القَرَابةِ ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ جمعُ يتيمٍ، واليَتِيمُ هو الَّذي ماتَ أَبُوهُ ولم يَبْلُغْ ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ ﴾ همُ الفُقَراءُ الَّذِينَ أَسْكَنَهمُ الفقرُ ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: صَاحِبَ السَّبيلِ، والسَّبِيلُ: هو الطَّرِيقُ، والمرادُ بابنِ السَّبيلِ: المُسَافرُ الَّذي انْقَطعَ به السَّفر.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾ أي: المُسْتَجْدِينَ الَّذِينَ يَسْأَلونَ النَّاسَ.

﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ أي: وآتى المالَ في الرِّقابِ، وهم: الأَرِقَّاءُ، يَشْتَريهم ويُعْتِقُهم.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أتى بها مُسْتَقِيمةً، والصَّلاةُ هنا: شَامِلَةٌ للفَرِيضةِ والنَّافلةِ.

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي: أَعْطَاها، ومفعولُ (آتى) الثَّاني مَحْذُوفٌ، أي: آتى الزَّكاةَ مُسْتَحِقَّها.

وقَوْلُهُ: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ أي: الَّذِينَ إذا عَاهَدُوا أحدًا من النَّاسِ أَوْفَوا بعَهْدِهم، أي: أَعْطَوهُ وَافِيًا لا نَقْصَ فيه، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ ﴾ الفَقْر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ المَرَض ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ القتالِ والحربِ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾ أي: أُولئك المُتَّصِفونَ بهذه الصِّفاتِ هم الَّذِينَ صَدَقُوا، أي: صَدَقُوا مع اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإِخْلاصِهم له، وقِيَامِهم بطَاعَتِهِ.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: هم الَّذِينَ قَامُوا بالتَّقْوَى على حَسَبِ ما جَاءَ في كِتَابِ الله تعالى، وما جاءت به رُسُلُهُ.

هذه الآيَةُ الكَرِيمَةُ اشتملت على فَوائِدَ عظيمةٍ وأحْكَامٍ جمَّةٍ، منها:

١- أنَّ البرَّ ليس بالأَعْمَال المُطْلَقةِ، وإنَّما البرُّ بالأَعْمَالِ الصَّادِرَةِ عن الإِيمَانِ بالله، واليومِ الآخر ... إلخ.

٢- أنَّ الإِيمَانَ باللهِ من البرِّ، والإِيمَانُ باللهِ يتضمَّنُ أَرْبَعةَ أشياء:

الأوَّلُ: الإِيمَانُ بوُجُودِهِ.

والثَّاني: الإِيمَانُ برُبُوبيَّتِهِ.

والثَّالِثُ: الإِيمَانُ بأُلُوهِيَّتِهِ.

والرَّابع: الإِيمَانُ بأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ.

فمَنْ أَنْكَرَ وُجُودَ اللهِ فليس بمُؤْمِنٍ، ومَن أقرَّ بوُجُودِهِ، ولكنَّه انْتَقَصَ شيئًا من رُبُوبيَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بأن زَعَمَ أنَّ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُشَارِكًا في الخَلْقِ أو المُلْكِ أو التَّدبيرِ فليس بمؤمنٍ باللهِ، ومَن آمنَ بذلك، ولكنَّه لم يُؤْمِن بأُلُوهِيَّتِهِ، بل صَرَفَ شيئًا من أَنْوَاعِ العِبَادةِ لغيرِ اللهِ فليس بمُؤْمنٍ باللهِ، ومَن آمنَ بذلك، ولكنَّه أَنْكَرَ أَسْمَاءَهُ وصِفَاتِهِ فليس بمؤمنٍ بالله، فلا يتمُّ الإِيمَانُ بالله إلَّا بالإِيمَان بالأُمُورِ الأَرْبَعةِ.

٣- الإِيمَانُ باليومِ الآخِرِ، وهو يومُ القِيَامَةِ، وهو يَشْمَلُ الإِيمَانَ بوُجُودِ هذا اليومِ، وأنَّ النَّاسَ سيُبْعَثونَ يوم القِيَامَة، وكذلك الإِيمَان بما سَيَكُونُ في هذا اليومِ من الأَهْوَالِ العِظَامِ، وما يَكُونُ من نَشْرِ كُتُبِ الأَعْمَالِ، وإِقَامَةِ الوزنِ، والصِّرَاطِ،

وحَوْضِ النَّبيِّ ﷺ، وغيرِ ذلك مما جاءَ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ.

ومن الإيمانِ باليوم الآخرِ: الإيمانُ بما يَكُونُ بعد الموتِ من فِتْنَةِ القَبْرِ، وعَذَابِ القَبْرِ، ونَعِيمِ القَبْرِ، فإنَّ النَّاسَ يُفتَنونَ في قُبُورِهم، فيُسْأَلُ المرءُ عن ربِّهِ، ودينِهِ، ونبيِّهِ، فيقولُ المُؤمِن: اللهُ ربِّي، والإسلامُ دِينِي، ونبيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وأنت ترى أنَّ الله تعالى دائمًا يَقرِنُ بين الإيمانِ به والإيمانِ باليومِ الآخِرِ؛ لأنَّ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ هو الَّذي يَحْدُو الإنسانَ إلى العملِ، وهُوَ الَّذي يَحْدُو المرءَ إلى الاسْتِقَامةِ على دينِ الله، وعلى شَرْعِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّهُ إذا كان يُؤمِنُ بأنَّ هناك عِقَابًا في تَرْكِ الوَاجِبِ، وفِعْلِ المُحَرَّمِ، وثوابًا في فِعْلِ الوَاجِبِ، وتركِ المُحَرَّمِ، فإنَّهُ سوف ينهضُ ويَعْمَلُ لهذا اليومِ العظيمِ.

٤- الإيمانُ بالملائكةِ، والملائكةُ لهم أَعْمَالٌ، ولهم أَوْصَافٌ، على حَسَبِ أَمْرِ اللهِ تعالى لهم، يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [فاطر:١].

ومن أَجَلِّ الملائكةِ وأَشْرَفِهم فِيما نَعْلَمُ: الملائكةُ الثَّلاثَةُ: جبريلُ، وميكائيلُ، وإسرافيلُ، وكان النَّبيُّ ﷺ يَسْتَفْتِحُ صلاةَ اللَّيلِ، فيقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(١)، فجبريلُ مُوَكَّلٌ بالوَحْيِ، وإسرافيلُ مُوَكَّلٌ بالنَّفْخِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

في الصُّورِ، ومِيكَائيلُ مُوَكَّلٌ بالقَطْرِ والنَّبَاتِ، فكلٌّ واحدٍ من هَؤُلاءِ الثَّلاثةِ مُوَكَّلٌ بما فيه الحَيَاةُ، ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يَسْتَفْتِحُ في صلاةِ اللَّيلِ بما ذكرنا.

ومن المَلَائِكَة: مَلَكُ المَوْتِ المُوَكَّلُ بقَبْضِ الأَرْوَاحِ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١]، وقد ورد في بَعْض الآثارِ أنَّ اسْمَه: عِزْرَائيلُ[١]، ولكنَّه لا يصحُّ عن المَعْصُومِ ﷺ، ولهذا يكفينا أن نَقُول: مَلَكُ الموتِ، دون أن نُسَمِّيَهُ باسمٍ آخر.

ومن الملائكةِ المُعَيَّنين: مالكٌ خَازِنُ النَّارِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾[الزخرف:٧٧].

ومن الملائكة: الملائكةُ الَّذِينَ يَكْتُبونَ ما يَقُولُهُ الإنسانُ وما يَفْعَلُهُ، بل وما يَهِمُّ به؛ يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧،١٨].

ومن الملائكة: الملائكةُ المُوَكَّلونَ بحِلَقِ الذِّكرِ، يتَتَبَّعُونها.

ومَن أراد المزيدَ من ذلك فليَرْجِعْ إلى كِتَابِ (البدايةِ والنِّهايةِ) لابنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].

٥- الإيمان بالكُتُبِ الَّتي أَنْزَلها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الرُّسُلِ، والَّذي نَعْرِفُ منها:

- القُرْآن الكَرِيم، وهو أَشْرَفُها وأَجَلُّها، وهو المُهَيْمِنُ عليها.
- والتَّوْرَاةُ الَّتي أَنْزَلها اللهُ على موسى.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١١/ ٩٣).

(٢) البداية والنهاية (١/ ٨٩).

- والإنجيلُ الَّذي أَنْزَلَهُ الله على عيسى .
- والزَّبُورُ الَّذي آتاهُ الله دَاودَ.
- وصُحُفُ إبراهيمَ وموسى، والباقي نُؤْمِنُ به إجمالًا .

٦- الإِيمانُ بالنَّبيِّين، وقد ذكرنا في تفسير الآيَة الكَرِيمَة: أَنَّهُ يَشْمَلُ الرُّسُلَ، وذلك أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى جعَلَ من عِبَادِهِ رُسُلًا وأَنْبِيَاء، والرُّسُلُ أَشْرَفُ من الأنبياءِ، وأشرفُ الرُّسُلِ: أُولو العَزْمِ، وهم: إبراهيمُ، ومُحَمَّدٌ، ونُوحٌ، ومُوسى، وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وتَرْتِيبُهم في الأفضليَّة: مُحَمَّدٌ، ثُمَّ إبراهيمُ، ثُمَّ موسى، ثُمَّ نوحٌ وعيسى، فمَن عَلِمْنَا رِسَالتَهُ بعَيْنِهِ آمنَّا به بعَيْنِهِ، وإلَّا فنُؤْمِنُ بهم إجمالًا .

٧- الثَّناءُ على مَن آتى المالَ على حُبِّهِ لِمَن يحتاجُ إِلَيْه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، وهذا كقَوْلِهِ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨].

٨- إِعْطَاءُ ذوي القُرْبَى -أي: القَرَابةِ- من المالِ الَّذي يُؤْتيه اللهُ مَن يشاءُ، يعني: أنَّ لذوي القُرْبَى عليك حقًّا أن تُعْطِيَهم ممَّا أَعْطَاك الله.

ثمَّ إنَّ حقَّ ذوي القُرْبَى قد يَكُون واجبًا، وهو فيمن تَجِبُ عليك نَفَقَتُهُ، وقد يَكُونُ تطوُّعًا فيما سوى ذلك.

٩- الإِحْسَانُ لليَتَامى وإن كَانُوا أَغْنِيَاء، وذلك جبرًا لِمَا حَصَلَ لهم من انْكِسَارِ القلبِ بفَقْدِ أبيهم.

١٠- الإحسانُ إلى المَسَاكينِ مُطْلَقًا، وهم الفقراءُ؛ لحَاجَتِهم إلى ذلك.

١١- الإحسانُ إلى ابنِ السَّبيلِ؛ لحَاجتِهِ إلى ذلك.

١٢- الإحسانُ إلى السَّائلِ، وإعطاؤُهُ ما سَأَلَ، ما لم يَسْأَلْ مُحرَّمًا، وهذا يحتاجُ إلى تفصيلٍ، فمَن عَلِمْنَا أَنَّهُ مُحتاجٌ كان إعطاؤُهُ بوَصْفَين: السُّؤال والحَاجَة، ومَن لم نَعْلَم أَنَّه مُحْتَاج كان إِعْطَاؤُه بوَصْفٍ واحدٍ، وهو السُّؤالُ، ومَن علمنا أَنَّهُ إنَّما يَسْأَلُ استكثارًا فهذا نَنْصَحُهُ ونُحَذِّرُهُ من السُّؤال؛ لأنَّ مَن سَأَلَ النَّاسَ أموالهم تكثُّرًا فإنَّما يَسْأَلُ جمرًا، ولا تزالُ المسألةُ بالرَّجلِ حتَّى يأتيَ يومَ القِيامَةِ، وما في وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ، نسأل الله العافية.

١٣- فضلُ بَذْلِ المالِ في إِعْتَاقِ الرِّقابِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، وهذا يشملُ أن يَشْتَرِيَ الرَّجلُ عبدًا فيُعْتِقَهُ، أو أن يُعينَ مُكَاتَبًا في كِتابتِهِ، وغيرَ ذلك من صُوَرِ الإِعَانةِ.

١٤- الثَّناءُ على إِقَامةِ الصَّلاةِ، وأنَّها من البرِّ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٥- الثَّناءُ على إيتاءِ الزَّكاةِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولكن لابُدَّ أن تكونَ الزَّكاةُ في محَلِّها، أي: في أَهْلِها الَّذينَ أَمَرَ اللهُ تعالى بصَرْفِها إِلَيْهم فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠]، فلا يجوزُ أن يُحابيَ الإنسانُ بها قريبًا أو صديقًا أو غَيْرَ ذلك، بل يُعْطِيها مَن هو أَحْوَجُ وأَحْوَجُ، وإذا اجتمعَ شخصانِ مُسْتَحِقَّانِ للزَّكَاة: أحدهما قَرِيبٌ، والثَّاني غَيْرُ قريبٍ، فإِنَّها تُعْطَى للقريبِ؛ لأنَّ صَدَقَتَك على القريبِ صَدَقةٌ وصِلَةٌ.

١٦ - الثَّناءُ على المُوفي بالعَهْدِ، سواء كان العَهْدُ مع مُسْلمٍ، أو مع كافرٍ، وإن شئت فقل: إنَّه يَدْخُلُ في العهد: القِيَامُ بحقِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عَهِدَ إلينا بما أَعْطَانا من العُقُولِ، وبما أَرْسَلَ إلينا من الرُّسُلِ، ألَّا نَعْبُدَ إلَّا إيَّاه، وأن نقومَ بطاعتِهِ على الوَجْهِ الَّذي أَمَرَنا به.

١٧ - الثَّناءُ على الصَّابرينَ في الفَقْرِ والمرضِ والحَرْبِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾، فالصَّبرُ في البَأْسَاءِ والضَّرَّاء: صبرٌ على أَقْدارِ اللهِ، والصَّبرُ في حالِ الحَرْبِ: صبرٌ على طاعةِ اللهِ، وعلى أَقْدارِ اللهِ أيضًا.

١٨ - الثَّناءُ على هَؤُلاءِ السَّادةِ الَّذِينَ اتَّصفُوا بهذه الصِّفاتِ العَظِيمةِ الكامِلةِ، في قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، نسأَلُ الله تعالى أن يَجْعَلنا من المُتَّصِفين بهذه الصِّفاتِ، وأن يُهيِّئَ لنا من أَمْرِنا رَشَدًا.

• • ● • •

قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

ابْتَدأَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هذه الآيَةَ بنِداءِ المُؤْمنينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وابْتِداءُ الخِطَابِ بالنِّداءِ يدلُّ على أَهمِّيَّتِهِ؛ إذ إنَّ النِّداءَ يَقْتَضِي تَنْبِيهَ المُخاطَب.

ثُمَّ إنَّ تَوْجِيهَهُ إلى المُؤْمِنين يدلُّ على أنَّ امْتِثَالَهُ من مُقْتَضَياتِ الإِيمانِ، وأنَّ مُخَالَفتَهُ نَقْصٌ في الإِيمان، وقد قال عبد الله بن مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إذا سمعت الله يقولُ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأَرْعِها سَمْعَك، فإمَّا خيرٌ تُؤْمَرُ به، وإمَّا شرٌّ تُنْهَى عنه[1].

وقَوْلُهُ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ أي: فُرِضَ، ويحتملُ أن يَكُونَ المعنى: شُرِعَ؛ لأنَّ الله تعالى ذَكَرَ في هذه الآيَةِ العَفْوَ، أو يُقال: إنَّه كُتِبَ أي: فُرِضَ فيما إذا طَلَبَهُ صاحبُ الحقِّ، فإنَّهُ فَرْضٌ على وُلَاةِ الأُمُورِ تَنْفِيذُهُ.

والقِصَاصُ في الأصل: تتبُّعُ الأثرِ، والمرادُ به هنا: أَخْذُ الجاني بمِثْلِ جِنَايتِهِ، أي: قَتْلُهُ إن كان قد قَتَلَ، أو قَطْعُ عضوٍ منه إن كان قد قَطَعَ عضوًا، أو ما أَشْبَهَ ذلك.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ يعني: أَنَّهُ يُقْتَلُ الحرُّ بالحرِّ، ويُقْتَلُ العبدُ بالعبدِ؛ لتَمامِ المُكَافأةِ، فالحرُّ مُكَافئٌ للحرِّ، والعبدُ مُكَافئٌ للعبدِ، والأُنْثَى مُكَافئةٌ للأُنْثَى.

وقَوْلُهُ: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: فمَن عُفِيَ له في القِصَاصِ من أَخِيهِ شيءٌ قليلًا كان أو كثيرًا فإنَّهُ يَتْبَعُ طَرِيقَيْن:

الأوَّل: اتِّبَاعٌ بالمَعْرُوفِ، يعني: أنَّ صاحبَ الحقِّ يَتَّبعُ مَن عَلَيه الحقُّ بالمَعْرُوف، فلا يَمُنُّ عليه، ولا يُشَاقُّهُ.

الثَّاني: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾، وهذا بالنِّسْبَة للمَعْفُوِّ عنه، يجبُ عليه أن يُؤَدِّيَ بإِحْسَانٍ.

مثال ذلك: إذا عفا عن القِصَاصِ إلى الدِّيَةِ فإنَّ على العافي أن يتَّبِعَ القاتلَ بالمَعْرُوفِ في طَلَبِ الدِّيَةِ، وعلى القاتلِ أن يُؤَدِّيَ إلى العافي الدِّيَةَ بإِحْسَانٍ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٤٨٧).

وقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: أنَّ هذا الحُكْمَ يتضمَّنُ شيئين: التَّخفيفَ، والرَّحمةَ، فكان تخفيفًا؛ لأنَّ القِصَاصَ في بني إسرائيلَ كان مَفْرُوضًا لا يُمْكِنُ أن يُعْفَى عنه، وأمَّا في شَرِيعَةِ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد قيل: إنَّ العَفْوَ واجبٌ، ففي التَّوراة العَفْوُ ممنوعٌ، وفي الإِنْجِيل العفوُ واجبٌ، أمَّا هذه الأُمَّةُ فإنَّها بالخِيَارِ.

ففيه تَخْفِيفٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإِسْقَاطِ القتلِ عن القَاتِلِ، ورحمةٌ بكَوْنِهِ يُعطي هَؤُلاءِ الَّذِينَ يُطالِبُونَ بالحقِّ عوضًا عن ذلك، وهو الدِّيَةُ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد تمامِ القِصَاصِ، أو العَفْوِ إلى الدِّيَةِ، أو العفوِ مجَّانًا ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وذلك أنَّ بَعْضَ النَّاسِ إذا عَفَا عن القَاتلِ حَمَلَهُ الشَّيطانُ على أن يَأْخُذَ بالثَّأرِ مرَّةً أُخرى، فيَعْتَدي على القاتلِ مرَّةً أُخرى.

في هذه الآيَة من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- فضيلةُ الإيمانِ؛ حيث نُوِّهَ بفَضْلِهِ بتَوْجيهِ الخطابِ إلى مَن اتَّصفَ به في قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- وُجُوبُ القصاصِ في القَتْلى، ولكن له شروطٌ مَعْرُوفةٌ جاءت بها السُّنَّةُ، وتكلَّمَ عنها أَهْلُ العِلْمِ ببَسْطٍ واسعٍ مَذْكُورٍ في المُطَوَّلاتِ.

٣- أنَّ الحُرَّ يُقْتَلُ بالحُرِّ، ولو كان القاتلُ أَفْضَلَ من المقتولِ في عِلْمِهِ ودينِهِ وخُلُقِهِ. وظاهرُ الآيَةِ الكَريمَةِ: أنَّهُ عامٌّ في قَتْلِ المُسْلِمِ بالكافرِ، والكافرِ بالمُسْلِمِ، أمَّا قتلُ الكافرِ بالمُسْلِم فهذا جائزٌ، ولا إِشْكَال فيه، وأمَّا قَتْلُ المُسْلِم بالكافر فالصَّحيحُ

أَنَّهُ لا يُقْتَلُ بالكافرِ، ولو كان للكافرِ عَهْدٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**»(١).

٤- أنَّ العبدَ يُقْتَلُ بالحرِّ؛ لأَنَّهُ إذا كان يُقْتَلُ بالعبدِ فقَتْلُهُ بالحُرِّ من باب أَوْلَى، وأمَّا عكسُهُ -وهو قتلُ الحرِّ بالعبدِ- ففيه خلافٌ بين أَهْلِ العِلْمِ:

فمنهم مَن قال: إنَّ الحرَّ يُقْتَلُ بالعبدِ؛ لقول الله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥]، وقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»(٢)، ولقول النَّبيِّ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ**»(٣).

ومن العلماء مَن قال: إنَّ الحرَّ لا يُقْتَلُ بالعبدِ؛ لأنَّ العبدَ مُتَقَوَّمٌ، بخِلَافِ الحرِّ.

والصَّحيحُ: أنَّ الحرَّ يُقْتَلُ بالعبدِ، إذا عَلِمْنا أَنَّهُ قتَلَهُ عمدًا؛ للأَدِلَّةِ الَّتي ذكرناها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة، باب ما يُباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الديات، باب أَيُقاد المسلم من الكافر؟، رقم (٤٥٣٠)، والنسائي: كتاب القسامة، باب سقوط القود من المسلم للكافر، رقم (٤٧٤٩)، وأحمد (١/ ١١٩) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في السَّرِيَّة تردُّ على أهل العسكر، رقم (٢٧٥١)، وابن ماجه: كتاب الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، رقم (٢٦٨٥)، وأحمد (٢/ ١٨٠) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥- أنَّ العبدَ يُقْتَلُ بالعبدِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾، وظاهـرُ عُمُومِ الآيـةِ: ولو اختلفا في القِيمةِ، فلو كان المَقْتُولُ لا يُساوي إلَّا عَشَرَةً، والقاتلُ يُساوي آلافًا، فإنَّهُ يُقْتَلُ به؛ لعُمُوم قَوْلِه: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾.

٦- أنَّ الأُنثى تُقْتَلُ بالأُنثى، **وهنا مسألة: هل تُقْتَلُ بالرَّجُلِ؟**

الجواب: نعم، تُقتَلُ بالرَّجُلِ، أي: أنَّ الأُنثى إذا قَتَلَتْ رجلًا فإنَّها تُقتَلُ به.

ومسألةٌ أخرى: هل يُقتَلُ الرَّجُلُ بالأُنْثَى؟

الجواب: نعم، يُقْتَلُ الرَّجلُ بالأُنثى؛ لعُمُومِ قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾، ولكنَّ الله تعالى ذكرَ في الآيةِ: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لتمامِ المُكافَأةِ من كُلِّ وجهٍ.

٧- يُسْتَفادُ من قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ أنَّهُ إذا عَفَا أحدٌ من الوَرَثةِ عن القِصَاصِ فإنَّهُ يَسْقُطُ القِصَاصُ في حقِّ الجميعِ؛ تغليبًا لجانبِ الرَّحمةِ، ولا فرقَ بين أن يَكُونَ نصيبُ العافي كثيرًا أو قليلًا.

مثالُ ذلك: لو فرضنا أنَّ المَقْتُولَ له عَشَرَةُ إِخْوَةٍ، وهم ورثتُهُ، فطالبَ تِسْعَةٌ منهم بالقِصَاصِ، وعفا واحدٌ منهم عن القِصَاصِ، فإنَّ القِصَاصَ يَسْقُطُ، وتجبُ الدِّيَةُ للجميعِ، ووَجْهُ ذلك: قولُهُ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾، فإنَّ كلمةَ ﴿شَىْءٌ﴾ نَكِرَةٌ في سِيَاقِ الشَّرطِ، فتعمُّ القليلَ والكثيرَ.

٨- أنَّهُ يجبُ على العافي عن القِصَاصِ أن يتَّبعَ القَاتِلَ بالمَعْرُوفِ، بحيثُ لا يَشُقُّ عليه ولا يُضْجِرُهُ؛ لأنَّهُ عفا عن القِصَاصِ، فلم يَبْقَ إلَّا الدِّيَةُ دينًا في ذمَّةِ القاتلِ.

٩- وُجُوبُ أداءِ القَاتلِ للدِّيَةِ بإِحْسَانٍ؛ لأنَّ الَّذي عفا عنه أَحْسَنَ إِلَيْه بإِسْقَاطِ القِصَاصِ عنه، فكان الأداءُ إِلَيْه بإِحْسَانٍ من مُكافأتِهِ على هذا العَمَلِ الجَلِيلِ.

١٠- جوازُ النَّسخِ في شَرَائعِ الله، وهو رَفْعُ الحُكْمِ الثَّابتِ بدَلِيلٍ شرعيٍّ بمُقْتَضى دَلِيلٍ شَرْعيٍّ، وقد سبق الكلامُ في ذلك عند الكلام على قولِهِ تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[1] [البقرة:١٠٦].

١١- محبَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للتَّخْفِيفِ على عِبادِهِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وهذا أمرٌ ظَاهرٌ في جميعِ الشَّريعَةِ، فالشَّريعَةُ مَبْنَاها على اليُسْرِ؛ لقول النَّبي ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ»[2]، ولقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وقَوْلِه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقول النَّبي ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[3].

١٢- محبَّةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لرَحْمَةِ العِبَادِ؛ فإِنَّهُ جَلَّ وَعَلَا أرحمُ الرَّاحمين بعِبَادِهِ، كما قال يعقوبُ لبَنِيه: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

١٣- تحريمُ اعْتِدَاء أَوْلِيَاء المقتولِ على القاتلِ إذا عَفَوْا عنه، وأنَّهم إذا اعْتَدَوا بعد ذلك أُخِذُوا بما يَقْتَضيهِ عُدْوَانهم، فلو أنَّ أحدًا من وَرَثَةِ المقتولِ لم يَقْتَنِعْ بالعَفْوِ، فذهبَ وقَتَلَ القاتلَ، فإِنَّهُ يُقْتَلُ إذا تمَّت شُرُوطُ القصاصِ.

---

(١) انظر: (ص:٣٤٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص:٥٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ، رقم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٤- جوازُ التَّعبُّد للهِ خوفًا من عَذَابِهِ وعِقَابِهِ؛ لأنَّ الوَعِيدَ بالعذابِ يُؤَثِّرُ في كَمالِ العِبادةِ والتَّعبُّد.

ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: غَلَطُ مَن قال من بَعْض النَّاس: إنَّ كَمالَ العِبادة أن تتعبَّدَ للهِ تعالى حُبًّا فيه، لا طمعًا في ثَوَابِهِ، ولا خوفًا من عِقَابِهِ، فإنَّ هذا قولٌ ليس بصحيحٍ، فقد قال اللهُ تعالى عن أَشْرَفِ الخَلْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وأَصْحابِهِ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩].

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ﴾ أي: لكم في قَتْلِ القاتلِ المُتعمِّدِ إذا تمَّتِ الشُّرُوطُ ﴿حَيَوٰةٌ﴾، وذلك أنَّ القاتِلَ إذا عَلِمَ أنَّهُ إذا قَتَلَ قُتِلَ فإنَّهُ سوف يَمْتنعُ عن القَتْلِ، فتكونُ الحياةُ له ولِمَن هَمَّ بقتْلِهِ، ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يا أَصْحابَ العُقُولِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: فَرَضْنا عليكم القِصَاصَ؛ لأجلِ أن تتَّقُوا القتلَ المُوجِبَ للقِصاصِ.

في هذه الآيَة من الفوائِد والأحْكَام، ما يلي:

١- بَيَانُ الحِكْمَةِ من وُجُوبِ القِصَاصِ، وهي الحِفَاظُ على حَيَاةِ البَشَرِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾.

٢- الإِشَارةُ إلى أنَّ قَتْلَ القاتلِ عَدْلٌ، أي: من العَدْلِ؛ حيث سَمَّاهُ الله تعالى: قِصَاصًا، وهو أَخْذُ الجاني بمِثْلِ جِنَايتِهِ.

٣- أنَّ القصاصَ سببٌ للحَيَاةِ، وليس سببًا للمَوْتِ، خلافًا للظَّالِمِ المُعْتَدي الَّذي يقولُ: إنَّ القصاصَ زيادةٌ في الموتِ؛ فإنَّ القاتلَ إذا قُتِلَ انْضَمَّ قَتْلُهُ إلى قَتْلِ المَقْتُولِ، فيكونُ المَقْتُولُ نَفْسَيْن، فيُقال: لكنَّا إذا قَتَلْنَا القاتلَ امتنعَ عن القَتْلِ آلافُ النَّاس، فكان في ذلك حَيَاةُ البشرِ، ولولا العُقُوباتُ الَّتي قَدَّرها اللهُ عَزَّوَجَلَّ في بَعْضِ المَعَاصي لانْتَهَكَ النَّاسُ هذه المعاصيَ، ولم يُبَالُوا بها.

٤- فَضِيلةُ العَقْل؛ لقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، فجَعَلَ الله تعالى العَقْل لُبًّا، ومعلوم أنَّ اللُّبَّ هو المَقْصُود، وأنَّ القُشُور ما هي إلَّا إِطَار لِحِفْظِ اللُّبِّ.

٥- أنَّهُ يجوزُ الاسْتِدْلَالُ بالعقلِ في بيانِ حُسْنِ الشَّريعَةِ فيما أَمَرَت به، وفيما نَهَتْ عنه، ولهذا قال بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: إنَّ اللهَ تعالى لم يَأْمُرْ بأمرٍ، فيقول العقلُ: ليْتَهُ لم يَأْمُرْ به! ولم يَنْهَ عن شيءٍ، فيقول العقلُ: ليْتَهُ لم يَنْهَ عنه!

٦- إثباتُ التَّحسينِ والتَّقْبيحِ العَقْلِيَّين، بمعنى: أنَّ العقلَ يشهدُ بأنَّ هذا حَسَنٌ، وهذا قَبِيحٌ، لكن ليس للعَقْلِ أن يُحَلِّلَ أو يُحَرِّمَ أو يُوجِبَ؛ لأنَّ هذا إلى الله وَحْدَه.

٧- إِثْبَاتُ العِلَلِ والحِكَمِ فيما شَرَعَهُ اللهُ؛ لقَـوْلِهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ (لعلَّ) هنا للتَّعْلِيل.

•●○●•

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ١٨٠﴾

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فُرِضَ ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: إذا حَلَّ به الأَجَل، وهو كِنَايَة عن قُرْبِ أَجَلِه بما يُشَاهِدُه في نَفْسِه من المَرَض ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ الخَيْرُ هنا هو المالُ الكَثِير ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ هذه نائبُ الفَاعِل، وعَامِلُهُ: ﴿كُتِبَ﴾، أي: كُتِبَت عليكم الوَصِيَّة، وحُذِفَت تاءُ التَّأْنِيث من ﴿كُتِبَ﴾؛ لوَجْهَيْن:

الوَجْهُ الأَوَّل: أنَّ الوَصِيَّة تأنيثُها غيرُ حقيقيٍّ.

والثَّاني: طُولُ الفَصْلِ بينها وبين عَامِلِها.

وقَوْلُهُ: ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ وهما الأمُّ والأبُ، ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وهم الإِخْوَة وبَنُوهم، والأبناءُ وبَنُوهم، وإن شئت فَقُلْ: الأبناءُ والبناتُ وأَوْلَادُهم، المهمُّ أنَّ المراد بالأقربين: مَن كان أَقْرَب فأَقْرَب.

وقَوْلُهُ: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ مُتَعَلِّق بـ: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾، أي: أن يُوصِيَ بالمَعْرُوف، لا يتَجَاوَز فيُسْرِف، ولا يُقَصِّر.

وقَوْلُهُ: ﴿حَقًّا﴾ مَصْدَر مُؤَكِّد لقَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ﴾.

﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: على مَن اتَّصفُوا بتَقْوَى الله عَزَّوَجَلَّ.

ومعنى الآيـة: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَـرَضَ على مَن تَرَكَ مالًا كثيرًا أن يُوصِيَ لوَالِدَيْه وأَقَارِبه بالمَعْرُوف، وأَكَّد ذلك بأَنَّه حقٌّ على المُتَّقِين.

في هذه الآية من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- وُجُوب الوَصِيَّة للوَالِدَيْن والأَقْرَبِيْن بالمَعْرُوف، بشَرْطِ: أن يَتْرُك خيرًا، ولكن هذا العُمُوم مُخَصَّص بقوله ﷺ: «**إنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**»[1]، أي: أنه مُخَصَّص بآياتِ المَوَارِيث، فإنَّ آياتِ المَوَارِيث جَعَلَ الله فيها لكلِّ وَارِثٍ ما اقْتَضَت حِكْمَتُه أن يكون له. وعلى هذا فالوَرَثَةُ لا يُوصَى لهم؛ لأنَّ الوَصِيَّة للوَارِث تَعَدٍّ لحُدُود الله عَزَّوَجَلَّ، فمثلًا: إذا أَوْصَى الرَّجُل لأُمِّه بمالٍ زائدٍ على نَصِيبِها من المِيرَاث، فهذا تعدٍّ لحُدُود الله؛ لأنَّ الله جَعَلَ للأُمِّ السُّدُس أو الثُّلُث، حسب ما هو مَعْلُومٌ في علم الفَرَائِض.

إِذَنْ: هذه الآيةُ عَامَّةٌ، لكنَّها خُصَّت بالوَرَثة، فلا يُوصَى لهم.

وقيل: إنَّ هذه الآيَةَ مَنْسُوخَة، وإنَّ الوَصِيَّة لا تجبُ للأَقَارِب الَّذين لا يَرِثُون، ولكنَّ النَّسْخَ يَحْتَاج إلى شرطٍ لا يتحَقَّق في هذه الآية، وهو أَلَّا يُمْكِن الجمعُ بين النَّصَّيْن، فإن أَمْكَن الجمعُ بين النَّصَّيْن فإنَّه لا نَسْخَ؛ لأنَّ النَّسْخَ يَقْتَضِي إبطالَ أَحَد النَّصَّيْن، وهو أمرٌ ليس بالسَّهْلِ، فإذا أَمْكَن الجمعُ بين النَّصَّيْن فلا نَسْخَ، وهنا يُمْكِن

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث، رقم (٢٨٧٠)، والترمذي: كتاب الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث، رقم (٢١٢٠)، وابن ماجه: كتاب الفرائض، باب لا وصية لوارث، رقم (٢٧١٣) وأحمد (٥/ ٢٦٧) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الترمذي: كتاب الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث، رقم (٢١٢١)، والنسائي: كتاب الوصايا، باب إبطال الوصية للوارث، رقم (٣٦٧١)، وأحمد (٤/ ١٨٦) من حديث عمرو بن خارجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه ابن ماجه في الموضع السابق، رقم (٢٧١٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجمعُ، فنقول: يجبُ على الإنسانِ أن يُوصِيَ للأَقَارِب غير الوَارِثِين إذا تَرَكَ مالًا كثيرًا، وأمَّا الوَارِثُون فهم على ما فَرَضَ اللهُ لهم من المِيرَاث.

مثال ذلك: رجلٌ مات عن أُمِّه وأَبِيه وأَخِيه الشَّقِيق، فأَخُوه الشَّقِيق لا يَرِثُ؛ لأنَّ أباه يَحْجِبُه، فيجبُ على هذا الرَّجُلِ أن يُوصِيَ لأَخِيهِ الشَّقِيق بشيءٍ من المال، قليلًا كان أو كثيرًا، إن تَرَكَ مالًا كثيرًا، أمَّا إذا لم يَتْرُك إلا مالًا قليلًا فإنَّه لا يجبُ عليه أن يُوصِيَ له، وهذا القولُ ذَهَبَ إليه جماعةٌ من أهل العِلْمِ، ومنهم ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]، أي: أنَّه يجبُ على الإنسانِ إذا تَرَكَ مالًا كثيرًا أن يُوصِيَ لأَقَارِبِه غيرِ الوَارِثِين بما يشاءُ، لكنَّ جُمْهور الأُمَّة على أنَّ الوَصِيَّة للأقاربِ غيرُ وَاجِبَةٍ.

٢- اعتبارُ قَوْلِ مَن حَضَرَه المَوْتُ، يعني: أنَّ المُحْتَضَر يُعْتَبر قَوْلُهُ، لكن بشرط: أن يكون معه عَقْلُهُ، فإن لم يكن معه عَقْلُهُ فلا عِبْرَة بقَوْلِهِ.

٣- أنَّه إذا اعْتُبِرَ قَـوْلُ مَن حَضَرَه الأجلُ فإنَّ تَوْبَتَـه تُقْبَل، ولهذا جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»[2].

٤- أنَّ الأَحْكَام مَنُوطَةٌ بأَسْبَابِها؛ لقَوْلِه: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وهذا كما يُقال: على الإِنْسَانِ الزَّكَاةُ إن مَلَكَ النِّصَابَ.

٥- أنَّ الله تعالى أَرْحَمُ من الأَوْلَاد بوَالِدِيهم؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَرَضَ على الأَوْلَاد أن يُوصُوا لوَالِدِيهم، وهذا يدلُّ على أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْحَمُ من الإنسان بوَالِدِه.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٣٧)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة: رقم (٤٢٥٣)، وأحمد (٢/ ١٣٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وفي قَوْلِهِ تعالى في سُورَة النِّسَاء: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ [النساء:١١] دليلٌ على أنَّ الله أَرْحَمُ بعِبَادِه من الوَالِدَيْن بأَوْلَادِهما، فيكونُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْحَمَ بالأُصُول من فُرُوعِهم، وبالفُرُوع من أُصُولهم.

٦- اعْتِبَار العُرْفِ؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وهذا في مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وقد قال أحدُ النَّاظِمِين:

وَكُلُّ مَا أَتَى وَلَمْ يُحَدَّدِ بِالشَّرْعِ كَالْحِرْزِ فَبِالْعُرْفِ احْدُدِ[1]

فالعُرْفُ يكون مَنَاطًا للأَحْكَام في مَوَاضِعَ كثيرةٍ؛ لقَوْلِه: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

٧- أنَّ التَّقْوَى تُوجِبُ للإنسان أن يَقُوم بأَمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِه: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، ولا شَكَّ أنَّ التَّقْوَى تَحْمِلُ الإنسان على فِعْلِ الطَّاعَات وتَرْكِ المُحَرَّمات، بل إنَّ فِعْلَ الطَّاعَات وتَرْكَ المُحَرَّمَات هو التَّقْوَى حقيقةً.

٨- تأكيدُ الوَصِيَّة للوَالِدَيْن والأَقْرَبِين، حيث قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ﴾، ثُمَّ قال: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

٩- أنَّ مَن لم يَقُم بهذه الوَصِيَّة فإنَّه يَفُوتُه من التَّقْوَى بقَدْرِ مُخَالَفته.

•••

قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ أي: غَيَّرَه، أي: غَيَّر الوَصِيَّة التي فَرَضَها الله عَزَّوَجَلَّ في الآية

(١) انظر: منظومة في أصول الفقه وقواعده للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (ص:٢٥١).

السَّابِقَة ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ أي: عَلِمَ به بوَاسِطَـة السَّمع ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾، وليس على المُوصِي؛ لأنَّ المُوصِيَ قام بما يَجِبُ عليه، فصار الإِثْمُ على المُبَدِّل المُغَيِّر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يَسْمَعُ قَوْلَ مَن غَيَّرَ الوَصِيَّة بقَوْلِه، ويعلمُ حال مَن غَيَّر بقَوْلِه أو كِتَابَتِه أو غيرِ ذلك.

في هذه الآيَة الكَرِيمَة من الفَوائِد والأحْكَام ما يلي:

١- تحريمُ تَغْيِير الوَصِيَّة؛ لقَوْلِه: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾، ولأنَّ تَغْيِيرَ الوَصِيَّة تَصَرُّفٌ في حقِّ الغَيْرِ بغَيْرِ حقٍّ، إلا أنَّه يُسْتَثنى من ذلك ما سيأتي في الآيَةِ التَّالِيَة.

٢- أنَّ الإنسانَ إذا عَمِلَ الخيرَ، ثم تَصَرَّف فيه الغيرُ بما ليس بخَيْرٍ، فلا إِثْمَ على الأوَّل، وإنَّما الإثمُ على الثَّاني؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾.

٣- إثباتُ هذين الاسْمَيْن الكَرِيمَيْن لله عَزَّوَجَلَّ، وهما: (السَّمِيع)، و(العَلِيم)، وقد ذَكَرَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ أنَّ (السَّمِيع) له مَعْنَيان:

المعنى الأوَّلُ: إدراكُ المَسْمُوع، والمعنى الثَّاني: اسْتِجَابة الطَّالِب السَّائِل.

ومَثَّلُوا للأوَّل بقَوْلِهِ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، ومَثَّلُوا للثَّاني بقَوْلِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩] أي: لمُجِيبُه، وقـد سَبَـقَ لنا تفصيلُ القَـوْلِ في ذلك[1].

---

(١) انظر: (ص:٤١٠).

وأمَّا (العَلِيم) فيُسْتَفاد منه: وَصْفُ الله تعالى بالعِلْمِ، وعِلْمُ الله تعالى مُحيطٌ بكُلِّ شيء جُمْلَةً وتفصيلًا، فيما كان من فِعْلِه عَزَّوَجَلَّ، أو من فِعْلِ عِبادِه، فيما كان مَاضِيًا، وما كانَ حاضِرًا، وما كان مُسْتَقْبَلًا، ولهذا لَمَّا قال فِرْعَون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:٥١]، قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، أي: لا يَتَّصِفُ بالجهلِ ولا بالنِّسْيان.

٤- أنَّ الإيمانَ بكَوْنِ الله سميعًا عليمًا يَسْتَلْزم ألَّا يقولَ الإنسانُ قولًا يُغْضِبُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه إن قال فقد سَمِعَه عَزَّوَجَلَّ، وألَّا يَعْمَل عملًا يُغْضِب اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه إن عَمِلَ فقد عَلِمَه عَزَّوَجَلَّ، فيُوجِبُ الحَذَرَ من المُخَالَفة.

وبهذه المناسبة أُذَكِّر إخواني المُسْلِمين أن يَنْتَبِهُوا إلى هذه المسألة، وهي: أنَّ أسماءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُراد بها الإيمانُ بها وبمُقْتَضَاها، وأن يَتَعَبَّد الإنسانُ لله تعالى بذلك.

• • ෴ • •

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ أي: مَيْلًا عن الحَقِّ ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أي: تجاوُزًا للحقِّ ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المُوصِي ومَن وَراءه من الوَرَثة ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذه الآيةُ كالاسْتِثْناء من الآية السَّابِقَة في قَوْلِه: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٨١].

وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو مَغْفِرَة ورَحْمَة، فيَغْفِرُ لِمَن فَعَلَ جَنَفًا أو إثمًا، ويَرْحَم مَن عَدَّلَ إلى الصِّرَاط الْمُسْتَقيم.

في هذه الآية الكَرِيمَة من الفَوائِد والأحْكَام ما يلي:

١- أنَّ مَن غَيَّر الوَصِيَّة لكَوْنِها تتضمَّنُ الجَنَفَ أو الإِثْمَ فإنَّه لا إِثْمَ عليه، ونفيُ الإِثْمِ هنا لا يَقْتَضِي أنَّه ليس له أجرٌ، بل له أجرٌ، لكن لَمَّا كان في مُقَابَلة ما سَبَقَ من الوَعِيد على مَن بَدَّلَ قال: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، ونفيُ الإِثْمِ هنا ليس الْمُرَاد مطلقًا: نَفْيَ الإِثْمِ، بل المراد: أنَّه يُؤْجَر على ذلك؛ لأَنَّهُ مُصْلِح.

٢- أنَّه إذا حَصَلَ في الوَصِيَّة جَوْرٌ أو إِثْمٌ فإنَّه يجبُ أن يُعَدَّل.

مثال ذلك: رجلٌ أَوْصَى لأحد الوَرَثَة، فيجبُ أن تُلْغَى هذه الوَصِيَّة؛ لأنَّها جَنَف.

ومثال آخر: لو أنَّ رجلًا أَوْصَى بأَكْثَرَ من الثُّلُث فإنَّه يجبُ أن تُعَدَّل الوَصِيَّة إلى الثُّلُث، إلا أن يشاءَ الوَرَثَةُ.

٣- فَضِيلَة الصُّلْح؛ لقَوْلِه: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨] كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ويَدْخُلُ في جميع الْمُعَامَلَات والحُقُوق، فمتى أَمْكَن الإصلاحُ فهو خيرٌ، وإذا لم يُمْكِن الإصلاحُ رَجَعْنَا إلى الْمُحَاقَّة والْمُطَالَبة ورَفْعِ الأُمُور إلى الحاكم الشَّرعيِّ.

٤- أنَّ الصُّلْحَ لابُدَّ فيه من رِضَى الطَّرَفَين؛ لقَوْلِه: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾، ولا يجوز أن يُفْرَض الصُّلْحُ على أحد الطَّرَفَين دون الآخَر.

٥- إثباتُ هذين الاسْمَيْن الكريمين لله عَزَّوَجَلَّ: (الغفُور) (الرَّحيم)، فالغفُور: ذو المَغْفِرَة، والمَغفِرةُ: سَتْرُ الذَّنب والتَّجَاوُز عنه، فيسترُ اللهُ على عَبْدِه، فلا يَعْلَم به العِبَادُ، ويَعْفُو عنه، فلا يُعَاقِبه عليه؛ لأنَّ «المَغفِرَة» مأخوذةٌ من المِغْفَر، وهو ما يُوضَع على الرَّأس لتَوَقِّي السِّهَام، والمِغْفَر فيه السَّتْرُ والوِقَايَة.

وأمَّا الرَّحيم فهو ذو الرَّحْمَة، ورَحْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَحْمَة وَاسِعَة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقالت الملائكةُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، وقد سَبَقَ لنا تفصيلُ القَوْلِ في الرَّحْمَة، وأنَّها تَنْقَسم إلى قِسْمَين: عَامَّةٍ، وخَاصَّةٍ، فليُرْجَع إلى ذلك[(١)].

نسأَلُ اللهَ تعالى أن يَعُمَّنا بمَغْفَرته ورَحْمَته، وأن يَجْعَلَنا من عِبَادِه الصَّالحين، وأَوْلِيَائه المُتَّقِين؛ إنَّه سميعٌ قريبٌ.

•●◦◦●•

قَوْلُ اللهُ تعَالَى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

يُقالُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ما قِيل في سَابِقَتِها من أنَّ ابْتِدَاءَ الخِطَابِ بالنِّدَاءِ يدلُّ على أَهَمِّيَّته، وتَوْجِيهَهُ إلى المُؤْمِنين يدلُّ على أنَّ امْتِثالَهُ من مُقْتَضياتِ الإِيمانِ، وأنَّ مُخَالَفتهُ نقصٌ في الإِيمان.

---

(١) انظر: (ص:٢٦، ١٦٦، ٣٣٨).

وقَوْلُهُ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أي: فُرِضَ ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي: كما فُرِضَ ﴿عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لأَجْلِ التَّقوى.

في هذه الآيَة الكَرِيمَة من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- وُجُوبُ الصِّيامِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، ومَرْتَبةُ صِيَامِ شهرِ رمضانَ من الدِّينِ: أَنَّهُ أحدُ أركانِ الإِسْلَام الخَمْسَةِ الَّتي بُنِيَ عليها.

٢- أَهَمِّيَّةُ الصِّيامِ، وأنَّه عِبادَةٌ لا تَصْلُحُ الأُمَمُ إلَّا بها؛ لقَوْلِهِ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ولا يلزمُ من كِتَابتِهِ على مَن قَبْلَنا أن يَكُونَ مُماثلًا ومُساويًا لِمَا كُتِبَ علينا، فقد يختلفُ في العددِ والزَّمنِ.

٣- تَسْليةُ هذه الأُمَّةِ بأنَّ هذا الصِّيامَ الَّذي فيه شيءٌ من المَشَقَّةِ قد كُتِبَ على مَن قَبْلَنا، ومن المَعْلُومِ أنَّ الإِنْسَان يَتَسَلَّى بغَيْرِه فيما ينالُهُ من مَشَقَّةٍ.

٤- فضيلةُ هذه الأُمَّةِ، حيث الْتَحَقت بمَن سَبَقَها في الفَضَائلِ والأعمالِ الصَّالحةِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٥- أنَّ الصِّيامَ سببٌ للتَّقْوى؛ لقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وأنَّ مَن لم يَظْهَرْ عليه أثرُ التَّقوى بالصِّيامِ فصِيَامُهُ ناقصٌ، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالجَهْلَ فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»[1]، ففَائِدَةُ الصِّيامِ وحِكْمَةُ الصِّيامِ: تَقْوى الصَّائمِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا يَرْفُثَ، ولا يَفْسُقَ، بل لو قَاتَلَه أحدٌ أو شَاتَمَهُ فلْيَقُلْ: إنِّي صائمٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، رقم (٦٠٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- إثباتُ الحِكْمَةِ في شَرْعِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه جَلَّوَعَلَا لا يَشْرَعُ شيئًا إلَّا لِحِكْمَةٍ، سواء عَلِمْنَاها أم لم نَعْلَمْها، فإن عَلِمْنَاها فهذا من فَضْلِ اللهِ علينا، حيث نَعْرِفُ به كَمَالَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكَمَالَ شَرِيعَتِهِ، وتطمئنُّ نُفُوسنا أكثر، وإن جَهِلْنَاها فما علينا إلَّا التَّسليمُ؛ لقولِ الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

٧- أنَّ الصِّيامَ من مُقْتَضياتِ الإيمانِ، حيث وُجِّهَ الخِطَابُ فيه إلى المُؤْمِنين بقَوْلِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ إلخ.

•••

ثُمَّ قَالَ تعالَى:

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

قَوْلُهُ: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ يعني: أنَّ الصَّومَ المَفْرُوضَ ليس شُهُورًا، ولا سنواتٍ، ولا أيَّامًا طويلةً، بل هو أيَّامٌ مَعْدُوداتٌ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يعني: وشقَّ عليه الصَّومُ ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (عِدَّةٌ) مُبْتَدأٌ خَبَرُهُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فعليه عِدَّةٌ من أيَّامٍ أُخرَ، ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ يعني: على الذين يَسْتَطِيعُونه ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي: إذا لم يُرِيدُوا الصَّومَ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ يعني: فمَن تَطَوَّعَ خيرًا ببَذْلِ الفِدْيةِ فهـو خيرٌ له، ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: إن كُنْـتُم من ذوي العِلْمِ.

ثُمَّ بَيَّنَ هذه الأَيَّامَ المَعْدُوداتِ بقَوْلِهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة:١٨٥].

في هذه الآيَة الكَريمَة من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- تصويرُ الأَمْرِ الشَّاقِّ بأَمْرٍ سهلٍ، حتَّى تَنْشَطَ النُّفُوسُ وتُقْبِلَ عليه؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، فإنَّ اللهَ تعالى عَرَضَ هذا الصَّومَ هذا المَعْرِضَ الَّذي يُسَهِّلُ على المرءِ أن يقومَ بالصِّيَامِ.

٢- أنَّ المريض لا يَلْزَمُه الصَّـومُ أداءً، بل له أن يُؤَخِّرَه حتَّى يَبْرَأَ؛ لقَـوْلِهِ: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، والمرضُ هنا مُطْلَق، فيَقْتَضِي أيَّ مرضٍ كان، سواء كان المَرَضُ في عُضْوٍ من أَعْضَائه، أو في كُلِّ بَدَنِه، وسواء كان بالحُمَّى أو غَيْرِها.

لكن هل يُشْتَرط أن يَكُون المرضُ شاقًّا؟

يُقال: نعم، لابُدَّ أن يَكُون هذا المرضُ شاقًّا على الإِنْسَان أن يَصُوم مع وُجُودِه، فأمَّا إذا كان لا يشقُّ عليه فلا وَجْهَ لكَوْنِه عُذْرًا، هذا هو الَّذي عليه جُمْهور الأُمَّة.

٣- أنَّ مَن كان مُسافرًا فإنَّهُ لا يَلْزَمُه أداءُ الصَّوم، بل له أن يُؤَخِّرَه إلى وقتٍ آخر، وقد دلَّت النُّصوص على أنَّ السَّفر إن كان لا تُوجَد فيه مَشَقَّةٌ بالصَّوم فالأفضلُ أن يَصُومَ؛ اقْتِدَاءً برسول الله ﷺ، وتعجُّلًا لإِبْرَاء الذِّمَّة، ولأَنَّه أسهلُ من القَضَاء كما هو مَعْرُوف، وأمَّا إذا كان فيه شيءٌ من المَشَقَّة فالأفضلُ الفِطْرُ، وليس من البرِّ

أن يَصُوم، وأمَّا إذا كان فيه مَشَقَّة شَدِيدَة فإنَّ الصَّوم يَحْرُم؛ لأنَّ النَّبي ﷺ شُكِيَ إِلَيْه ما يَجِدُه النَّاسُ من الصَّوم، فأفطر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والنَّاسُ يَنْظُرُون إِلَيْه، ثُمَّ قيل له: إنَّ بَعْض النَّاس قد صام! فقال: «**أُولَئِكَ الْعُصَاةُ، أُولَئِكَ الْعُصَاةُ**»[1]، فيكون الصَّومُ في السَّفر على هذه الوُجُوه الثَّلاثة.

وللمُسَافِر أن يُفْطِر وإن لم يَشُقَّ عليه الصَّومُ؛ لأنَّ الصَّحَابة مع النَّبي ﷺ كان منهم الصَّائمُ، ومنهم المُفْطِر، ولا يَعِيبُ بعضُهم على بعضٍ.

٤- أنَّ الصِّيام أوَّل ما فُرِضَ كان النَّاسُ فيه مُخَيَّرين بين الصَّوم والإِطْعَام؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهذا هو الصَّحيحُ من تَفْسِير الآيَة الكَرِيمَة: أنَّها دالَّةٌ على التَّخيير الَّذي كان في أوَّل الأَمْرِ، وقد دلَّ على ذلك حديثُ سَلَمَة بن الأَكْوَع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الثَّابتُ في الصَّحِيحَيْن، قال: لَّمَا نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، كان مَن أَرَاد أن يُفْطِرَ ويَفْتَدِيَ، حتَّى نزلت الآيَةُ الَّتي بَعْدَها، فنَسَخَتْها[2].

وقال بَعْض أَهْل العِلْم: إنَّ معنى قَـوْلِه: ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ يُطَوَّقُونه، أي: يَبْلُـغ طَاقتَهم، ويتكلَّفُون به، فعليهم فِدْيَةٌ، لكن هذا القول يَنْقُضُه قَوْلُه: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فإنَّ هذا يدلُّ على أنَّ المُخَاطَب قادرٌ على الصِّيام.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر، رقم (١١١٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) تقدم تخريجه (ص:٤٥٧).

وقال بعضهم: إنَّ معنى ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: لا يُطِيقُونه، وهذا أَبْعَدُ وأَبْعَدُ. فالصَّواب ما ذكرنا: أنَّ الآيَة دالَّةٌ على التَّخيير بين الإطعام والصِّيام في أوَّل الأَمْرِ، ثُمَّ تَعيَّن الصِّيامُ.

٥- بيانُ حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ في التَّشريع، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُشَرِّع الأحْكَام شيئًا فشيئًا، خُصُوصًا فيما يشقُّ على النَّاس، ألا ترى أنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين أَرَاد أن يُحَرِّم الخَمْرَ جَعَلَ تحريمَه مُتدرِّجًا، وهكذا الصَّومُ لَّما أراد عَزَّوَجَلَّ أن يَفْرِضَه على العِبَاد جَعَلَ فَرْضَه مُتدرِّجًا، ففي أوَّل الأمر يُخَيَّر الإِنْسَان بين أن يَصُوم ويَفْدِي، ثُمَّ تَعَيَّن الصَّومُ.

٦- أنَّ التَّطوُّع بالعِبَادَات خيرٌ، سواء كان في أَعْلَى المَقَامَات، أو فيما دُونَه؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٧- أنَّ الأَعْمال تتَفَاضَل جنسًا ونوعًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٨- محبَّة الله تعالى للصَّوم؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٩- تَوْجِيهُ الخِطَاب لذوي العِلْمِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٠- فَضِيلةُ العِلْمِ، وأنَّ الإِنْسَان يُدْرِك به ما يَخْفَى على غَيْرِه.

•●○●•

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ هو الشَّهر الَّذي بين شَعْبَان وشَوَّال، وسُمِّيَ بذلك؛ لأَنَّهُ كان حين التَّسمية مُوافقًا لشِدَّة الرَّمْضَاء والحَرِّ، ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: أَنْزَله الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الله تعالى أَنْزَل القُرْآن في ليلة القَدْرِ، أي: ابْتَدَأَ إِنْزاله، وليلةُ القَدْرِ في رَمَضَان.

وقَوْلُهُ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (هُدًى) مَفْعُول لأَجْلِه، أي: أُنْزِل القُرْآن لأجل هِدَاية النَّاس، ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: علاماتٍ واضحةً من الهُدَى والفُرْقَان؛ لأنَّ هذا القُرْآن الكَرِيم يَشْتَمل على التَّفريق بين الحقِّ والباطل، وبين أهل الخَيْرِ وأهل الشَّرِّ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ «شَهِدَ» بمعنى: شَاهَدَ، ويحتملُ أن تكون بمعنى: حَضَرَ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ سَبَقَ القولُ فيها.

وقَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي: يُحِبُّ أن يُيَسِّر عليكم، ولا يُحِبُّ أن يُعَسِّر عليكم، فالإرادةُ هنا شَرْعِيَّة.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ الواوُ حرفُ عَطْفٍ، والمعطوفُ عليه مَحْذُوفٌ يُعْلَم من السِّيَاق، فكأنَّه قال: لِتَقُومُوا بطَاعَتِه ولتُكْمِلُوا العِدَّة. أي: عِدَّة الشَّهر ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: من أجل هِدَايَتِه إيَّاكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

في هذه الآيَة الكَرِيمَة من الفَوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- أنَّ الصَّوم الَّذي كَتَبَه الله علينا مُعَيَّن في وقتٍ مُعَيَّن، وهو شهرُ رَمَضَان.

٢- أنَّ القُرْآن نَزَلَ في رَمَضَان، أي: ابْتَدَأَ الله إِنْزَالَه على مُحَمَّد ﷺ في رَمَضَان.

٣- إثباتُ عُلُوِّ الله؛ لقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ لأنَّ من المعلوم أنَّ القُرْآن كلامُ اللهِ، فإذا كان مُنْزَلًا كان الَّذي تَكَلَّم به عَالِيًا، جَلَّ وَعَلَا.

٤- أنَّ القُرْآن هُدًى وبيانٌ وفُرْقَانٌ؛ لقَوْلِهِ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

٥- الحثُّ على تدبُّر القُرْآن؛ حيث جَعَلَهُ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، ومعلوم أنَّ الإِنْسَان يَطْلُب الهُدَى من أيِّ مكانٍ كان، وهذا يَحْصُل بتدبُّر القُرْآن، فمَن تَدَبَّر القُرْآن طالبًا الهُدَى منه تبَيَّن له طريقُ الحَقِّ.

٦- وُجُوب صَوْمِ رَمَضَان بشُهُود هِلَالِه؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، وقد تَبَيَّن بالسُّنَّة أنَّ دُخُول شهر رَمَضَان يَثْبُت بشهادة واحدٍ عَدْلٍ من النَّاس، فإنَّ رجلًا جاء إلى النَّبي ﷺ، وأَخْبَره أنَّهُ رأى الهِلَال، فقال له: «**أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؟**» قال: نعم، فأَمَرَ بلالًا أن يُؤَذِّن في النَّاس أن

يَصُومُوا غدًا[١]. وكذلك ابنُ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تَرَاءى النَّاسُ الهِلَال، فأخبرتُ النَّبي ﷺ أنِّي رأيتُهُ، فصَامَه، وأمرَ النَّاس بصِيَامِه[٢].

٧- أنَّ الهِلَال إذا شُوهِدَ في مكانٍ، ولم يُشَاهَد في مكانٍ آخر، فإنَّهُ لا يجبُ على مَن لم يُشَاهِدْه أن يَصُومَ؛ لأنَّ الله تعالى عَلَّق وُجُوب الصَّوم بشُهُود الهِلَال.

وهذه المسألةُ اخْتَلَفَ فيها أَهْلُ العِلْمِ، فمنهم مَن قال: إنَّه إذا ثَبَتَت رؤيةُ هِلَال رَمَضَان وَجَبَ على جميع الأُمَّة الإِسْلَاميَّة أن تَصُوم في أيِّ قُطْرٍ كانت.

ومنهم مَن قال: إذا كان النَّاسُ تحت ولايةٍ واحدةٍ، وشُوهِد في هذه الوِلَايةِ، وَجَبَ على كُلِّ أهل الوِلَاية أن يَصُوموا، ولا فَرْقَ بين مَن رآه ومَن لم يَرَهُ.

ومنهم مَن قال: مَن رآه وَجَبَ عليه الصَّومُ، ومَن لم يَرَهُ لم يَجِبْ عليه.

قال شيخُ الإِسْلَام رَحِمَهُ اللَّهُ: تختلفُ مَطَالع الهِلَال باتِّفَاق أهل المَعْرِفَة، فإن اتَّفَقَت المطالعُ وَجَبَ الصَّومُ، وإلَّا فلا[٣].

وعمـلُ النَّاس غالبًا اليومَ أنَّهم يَتْبَعُـون مَن ثَبَتَ الشَّهـرُ عنده على وجـهٍ يَثِقُون به.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصَّوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، رقم (٢٣٤٠)، والتِّرمذي كتاب الصَّوم، باب ما جاء في الصَّوم بالشهادة، رقم (٦٩١)، والنسائي: كتاب الصيام، باب قبول شهادة الرَّجل الواحد على هلال رمضان، رقم (٢١١٤)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في الشَّهادة على رؤية الهلال، رقم (١٦٥٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد اختُلف في وَصْلِه وإرساله.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصَّوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، رقم (٢٣٤٢).

(٣) الاختيارات العلمية (ص:١٥٨).

٨- أنَّ الإِنْسَان إذا فاته الشَّهرُ كاملًا، وكان الشَّهرُ ناقصًا -أي: كان تسعةً وعشرين يومًا- فإنَّهُ لا يَلْزَمُه أن يقضيَ ثلاثين يومًا، بل لا يقضي إلَّا تِسْعَةً وعشرين يومًا؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

وظاهرُ الآيَة الكَرِيمَة: أَنَّهُ لا فَرْقَ بين أن تكون هذه الأَيَّامُ في العام الَّذي حَصَلَ فيه الفِطْرُ وفيما بعده، ولكن قد دلَّت السُّنَّة أَنَّهُ لا يُؤَخّر القضاءُ إلى ما بعد رَمَضَان الثَّاني، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان يَكُون عليَّ الصَّوم من رمضان، فما أستطيعُ أن أَقْضِيَه إلَّا في شَعْبَان[1]. وهذا يدلُّ على أَنَّهُ لا يُؤَخَّر إلى ما بعد رَمَضَان الثَّاني، وإلَّا لكان ما بعد رَمَضَان الثَّاني وما قَبلَه سواءً.

٩- أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَتَبَ على عِبَادِه ما كَتَبَ من الفرائضِ، لا للإِشْقَاق عليهم، ولا لإِلْحَاق الحَرَجِ بهم، ولكنَّه عَزَّوَجَلَّ يُريد بذلك التَّيْسِير والتَّسْهِيل؛ لقَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

وفي هذا إِشَارةٌ إلى أنَّ الأَفْضَل للمريض الَّذي يشقُّ عليه الصَّومُ، أو المسافرِ الَّذي يشقُّ عليه الصَّومُ، أن يُفطِرَ؛ لأنَّ هذا هو الأَيْسَرُ في حقِّه.

١٠- أَنَّهُ إذا تَعَارَضَت الأدلَّةُ في حكمٍ من الأَحْكَام، ولم يتبيَّن رُجْحَان أَحدِها على الآخَر، فإنَّ مُقْتَضى إرادةِ الله اليُسْرَ على العِبَاد أن يُؤْخَذ بالأَيْسَر، وهذا هو القولُ الرَّاجحُ، أَنَّهُ إذا تَعَارَضت الأدلَّةُ في حكم من الأَحْكَام، فبعضُها يُفيد التَّحريمَ، وبعضُها يُفيد الحلَّ، واشتبهَ الأَمْرُ، فإنَّنا نأخذُ بالأَيْسَر؛ لأنَّ ذلك هو المُوافِق

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب متى يُقْضَى قضاء رمضان؟، رقم (١٩٥٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب قضاء رمضان في شعبان، رقم (١١٤٦).

لقَوْلِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

١١- الحثُّ على إِكْمَال العِدَّة على الوَجْهِ المَطْلُوب؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

١٢- تكبيرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند انْتِهاء العِدَّة على هِدَايَتِه لنا، وتسهيلِ الصَّوم علينا؛ لقولِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، وهذا يَكُون بعد غُرُوب الشَّمس من آخرِ يومٍ من رَمَضَان إلى أن يَحْضُر الإمامُ لصلاة العيد، فيُكَبِّر النَّاس في الأَسْوَاق والمساجد والبُيُوت، يَجْهَر بذلك الرِّجالُ، وتُسِرُّ به النِّساءُ.

وصفةُ التَّكبير أن يقول: «الله أكبرُ، الله أكبرُ، لا إله إلَّا اللهُ، والله أكبرُ، الله أكبرُ، ولله الحمدُ»، أو يقول: «الله أكبرُ، الله أكبرُ، الله أكبرُ، لا إله إلَّا اللهُ، والله أكبرُ، الله أكبرُ، الله أكبرُ، ولله الحمدُ»، كُلُّ هذا جائزٌ.

١٣- أَنَّهُ يجبُ أن نَعْتَرف للهِ بالفَضْلِ على هِدَايته إيَّانا؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٤- الحثُّ على الشُّكر، والشُّكر: هو القِيَامُ بطاعة المُنْعِم عَقِيدةً وقولًا وعملًا.

نسألُ الله أن يُعِيننا جميعًا على ذِكْرِه، وشُكْرِه، وحُسْنِ عِبَادَتِه، وأن يُيَسِّر لنا الأُمُور، ربِّ اشرح لي صَدْرِي، ويَسِّرْ لي أَمْرِي، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك مُوجِبَات رَحْمَتِك، وعَزَائِم مَغْفِرَتك، والغنيمةَ من كُلِّ بِـرٍّ، والسَّلَامة من كُلِّ إثـمٍ، والفوزَ بالجَنَّة، والنَّجَاة من النَّار.

••ـــ••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى﴾ الخطابُ في هذه الآية لرَسُول الله ﷺ، والمرادُ بالعِبَاد هنا: عِبَاد الشَّريعَة، يعني: العِبَاد الذين يتعبَّدُون للهِ تعالى بما شَرَعَ، فهي العُبُوديَّة الخاصَّة، وقَوْلُه تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ هذا القُرْبُ حقيقيٌّ، ولكنَّه لا يُنَافي ما ذُكِرَ من عُلُوِّه جَلَّ وَعَلَا، فإنَّهُ قريبٌ في عُلُوِّه، عليٌّ في دُنُوِّه؛ لأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا عالٍ فوق خَلْقِه، مُسْتَوٍ على عَرْشِه.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ يعني: أنَّ الإِنْسَان إذا دعا رَبَّه فإنَّ الله تعالى يُجيب دُعَاءَه، ولكن لإجابةِ الدُّعاء شُرُوط:

منها: الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ بألَّا يُشْرِك معه أحدًا في دُعَائه.

ومنها: حُسْنُ الظَّنِّ بالله أن يُجيب دُعَاءَه.

ومنها: شُعُور الإِنْسَان بالافْتِقَار إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ومنها: اجْتِنَاب أكل الحَرَام؛ لأنَّ أَكْلَ الحَرَام من مَوَانِع إجابة الدُّعاء، فقد ذَكَرَ النَّبي ﷺ الرَّجُلَ يُطيل السَّفر، أَشْعَثَ، أَغْبَرَ، يمدُّ يديه إلى السَّماء: يا ربِّ! يا ربِّ! ومَطْعَمُه حرامٌ، ومَشْرَبُه حرامٌ، ومَلْبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، «**فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!**»[1] فاسْتَبْعَد النَّبي ﷺ أن يُسْتَجاب لِمَن يأكُلُ الحرام، ويَتَغَذَّى به.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقَـوْلُه: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِى﴾ أي: فلْيَستجيبُوا لأَوَامِرِي، فيَقُومُـوا بهـا، ولَيْستجيبُوا لمُقْتَضى نَهيي، فيَتْرُكُوا ما نَهَيْتُ عنه، ﴿وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِى﴾أي: ليُحَقِّقُوا إيمانهم بالاسْتِجَابة للهِ عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ (لعلَّ) هنا للتَّعليل، أي: من أجل أن يَرْشُدوا، والرُّشْدُ: حُسْن التَّصرُّف، ويُفَسَّر في كُلِّ موضعٍ بما يُنَاسِبُه.

في هذه الآيَة من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- أنَّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عَالِمٌ بما يُسْتَقْبَل، كما هو عالِمٌ بما مَضَى، وبالحاضِرِ، ووجهُ الدَّلالة: قَوْلُه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾، و(إذا) لِمَا يُسْتَقْبَل من الزَّمان، وهي تُفيد وُقُوع الشَّرط.

٢- حرصُ الصَّحَابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ على الأَسْئِلَة النَّافعة.

٣- فضيلةُ مَن تَعَبَّدَ للهِ بشَرْعِه، ووَجْهُ ذلك: إضافةُ عُبُودِيَّتهم إلى الله، فقال تعالى: ﴿عِبَادِى﴾، وإضافةُ العُبُوديَّة إلى الله تعالى شَرَفٌ لا يُسَاويه شَرَفٌ، ولهذا يَذْكُرُه الله عَزَّوَجَلَّ في مَقَام التَّشريف، كقَوْلِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، وقَوْلِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف:١]، والعُبُوديَّة للهِ عَزَّوَجَلَّ هي الحُرِّيَّة الحقيقيَّة، وأمَّا مَن تَحرَّر من عُبُوديَّة الله فقد اسْتَرَقَّ للشَّيْطَان، قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النُّونِيَّة:

هَرَبُوا مِـنَ الـرِّقِّ الَّـذِي خُلِقُـوا لَـهُ ... وَبُلُـوا بِـرِقِّ الـنَّفْسِ وَالشَّـيْطَانِ[1]

٤- قُرْبُ الله تعالى لِمَن دَعَاه، ولهذا يَشْعُر الدَّاعي بقُرْبِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كأنَّه يَرَاه، وهذا من تمام الإِحْسَان.

---

(١) القصيدة النونية، البيت، رقم (٤٩٥١).

فإن قال قائل: هل قُرْبُ الله تعالى يُنافي عُلُوَّه؟

قلنا: لا، لا يُنَافِي عُلُوَّه؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كمِثْلِه شيءٌ في جميع صِفَاته، كما قال شيخ الإِسْلَام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العَقِيدَة الوَاسِطيَّة): فإنَّ الله تعالى ليس كمِثْلِه شيءٌ في جميع نُعُوته، فهو قَرِيبٌ في عُلُوِّه، عليٌّ في دُنُوِّه[1].

٥- إجابةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للدَّاعي؛ لقَوْلِهِ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وهذا الإِطْلَاق مُقَيَّد بألَّا يَدْعُوَ بإثمٍ أو قطيعةِ رَحِمٍ، كما جاءت بذلك السُّنَّة[2].

ومن الدُّعاء بالإِثْمِ: أن يَدْعُوَ الإِنْسَان على شخصٍ لا يستحقُّ الدُّعاء عليه.

فإن قال قائل: ما أَكْثَر مَن يَدْعُون الله، ولا يَجِدُون إجابةً!

فَالجَوابُ: أنَّ ذلك إمَّا لفَوَات شرطٍ، أو لوُجُود مانعٍ، أو أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ادَّخَرَ ذلك لهم؛ ليكون مَثُوبةً وقُرْبَةً إلى الله تعالى.

٦- اشْتِرَاطُ الإخلاصِ في الدُّعَاء؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾، يعني: ولم يُشْرِك معي أحدًا.

٧- وُجُوب الاسْتِجَابة لله، والإِيمانِ به؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾.

٨- أنَّ الاسْتِجَابة لله والإيمانَ به سَبَبٌ للرُّشْدِ؛ لقَوْلِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يُستجاب للداعي ما لم يعجل، رقم (٢٧٣٥/ ٩٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٩- إثباتُ العِلَل، وأنَّ أحْكَام الله تعالى وأَفْعَالَه مُعَلَّلة بالحِكْمَة البالغة الَّتي قد نُدْرِكُها، وقد لا نُدْرِكُها.

•• ✿ ••

يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

قَوْلُه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ المُحلِّل والمُحرِّم هو الله عَزَّوَجَلَّ، ولا أَحدَ يُحلِّل أو يُحرِّم من دون الله عَزَّوَجَلَّ، والحلالُ ضِدُّ الحَرَام.

وقَوْلُه: ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ يعني: اللَّيْلَة الَّتي تَصُومون من غَدِها.

وقَوْلُه: ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ يعني بذلك: الجِمَاعَ ومُقَدِّمَاتِه.

ثُمَّ علَّلَ هذا الحكمَ -وهو الإحلالُ- بأنَّهنَّ لِبَاس للأَزْوَاج، والأَزْوَاج لِبَاس لهنَّ، وذلك لأنَّ الزَّوَاج سِتْرٌ للزَّوْجِ وللزَّوْجَة، بتَحْصِين الفَرْجِ، وغَضِّ البَصَر، وغيرِ ذلك ممَّا يَترَتَّب عليه من الستر.

ثُمَّ بيَّنَ عَزَّوَجَلَّ أنَّهُ أَحلَّ ذلك؛ لأنَّهُ يَعْلَم أنَّ الإِنْسَان يَخْتَان نَفْسَه، ويَخْدَعُها، ويُمْلِي لها، فقال تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، وسببُ ذلك:

أنَّ في الإِنْسَان نَفْسَيْنِ: نَفْسًا أَمَّارَةً بالسُّوء، ونفسًا مُطْمَئِنَّة، فالنَّفْسُ الأُولى تَأْمُرُه بمُخَالَفة أَمْرِ الله ورَسُوله، والثَّانية تَأْمُرُه بطَاعَة الله ورَسُولِه.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي: تاب عليكم ما سَلَفَ من فِعْلِكم، وعَفَا عنكم مَا أَوْجَبَه عليكم، وكان النَّاسُ في أوَّل الأَمْرِ إذا نام الإِنْسَانُ قبل صلاة العِشَاء حَرُم عليه الرَّفثُ إلى امْرَأَته إلى أن تَغْرُب الشَّمسُ من الغَدِ، أو إذا تَعَشَّى حَرُم عليه الرَّفثُ إلى امْرَأَته إلى غُرُوب الشَّمس من الغَدِ، فشَقَّ ذلك على المُسْلِمين، فأَنْزَل اللهُ تعالى هذه الآيَة رُخْصَةً لهم، وتَسْهِيلًا عليهم[1].

وبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّهُ تاب عليهم فيما فَعَلُوا قبل التَّحليل، وعَفَا عنهم، فأَسْقَط عنهم وُجُوب الإِمْسَاك إذا نَامُوا أو صَلَّوا العِشَاء.

ثُمَّ بَيَّنَ جَلَّ وَعَلَا أَنَّهُ أَبَاحَ لنا أن نُبَاشِر النِّساء، وأن نَبْتَغي ما كَتَبَ الله لنا، والمرادُ بالمُبَاشَرة هنا: ما دون الجِماع، والمرادُ بابْتِغَاء ما كَتَبَ الله لنا: الجِماعُ؛ لأنَّ المُراد بقَوْلِه: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: من الوَلَد، وهذا لا يَحْصُل إلَّا بالجماع، فأباح اللهُ تعالى أن نُبَاشِر النِّساء لَيْلَة الصِّيام بما دون الفَرْجِ وبالجِماع.

وأباح أيضًا الأكلَ والشُّرْبَ، فقال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، والخَيْطُ الأبيضُ: بيَاضُ النَّهار، والخيطُ الأسودُ: سَوَاد اللَّيْلِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب قول الله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، رقم (١٩١٥) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في النوم.
وأخرجه أبو داود: كتاب الصوم، باب مبدإ فرض الصوم، رقم (٢٣١٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في صلاة العشاء.

وقَوْلُه: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ بيانٌ لوَقْتِ تَبيُّن الخيطِ الأبيضِ من الخيطِ الأسودِ.

ثُمَّ أَمَرَ الله تعالى بإتمام الصِّيام -وهو الإمساكُ عن المُفطِّرات تعبُّدًا للهِ عَزَّوَجَلَّ- من حين أن يَتبَيَّن الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ إلى اللَّيل، وذلك غُرُوب الشَّمس.

ثُمَّ نهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن نُباشِر النِّساء، ونحن عَاكِفُون في المساجد، فقال: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ وهذا يَشْمَل الجِماعَ وما دونه ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ يعني: والحالُ أنَّكم عَاكِفُون في المساجد.

والعُكُوف: هو لُزُوم المسجد للتَّفرُّغِ لطَاعَة الله عَزَّوَجَلَّ.

وبَيَّن عَزَّوَجَلَّ أنَّ هذا الَّذي شَرَعَه لنا من حُدُود الله، ونَهَانا عن قُرْبَانِها، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

وليُعْلَم أنَّ الله تعالى يقولُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩]، وأحيانًا يقولُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، قال العلماء: والفَرْقُ بينهما: أنَّهُ إن كان الحدُّ في المَأْمُورات فالنَّهْيُ عن الاعْتِدَاء أي: عن تَعَدِّيها والخُرُوجِ منها، وإن كان من المَنْهِيَّات فالنَّهْيُ عن قُرْبَانِها؛ لأنَّ المَنْهِيَّ عنه منهيٌّ عن القُرْبِ منه؛ لئلا تُسَوِّل له النَّفسُ أن يَقَعَ في الحَرَام الصَّريح.

ثُمَّ قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ أي: مِثْلَ هذا البيانِ يُبَيِّن اللهُ للنَّاس آياتِه، أي: آياتِه الشَّرعيَّة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لأجل أن يَتَّقُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

في هذه الآيَة من الفوَائِد والأحْكَام ما يلي:

١- إباحةُ الجِمَاع والأكلِ والشُّرْبِ في لَيَالي رَمَضان؛ لقَوْلِهِ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾، إلى أن قال: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

٢- بيانُ ما يَحْصُلُ بالنِّكاح من سَتْرِ أحد الزَّوجَيْنِ للآخر؛ لقَوْلِهِ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

٣- إثباتُ عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ بما في نُفُوسِنَا؛ لقَوْلِهِ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، وعِلْمُ الله تعالى عامٌّ شاملٌ للظَّاهِر والبَاطِن، والخفيِّ والجليِّ، والماضي والمُسْتَقْبَل والحَاضِر، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

٤- سَعَةُ عَفْوِ الله تعالى وحِلْمِه، حيث تَابَ علينا وعَفَا عنَّا، حين عَلِمَ ما يَقَعُ منَّا من اخْتِيَان النُّفُوس.

٥- أنَّهُ يَنْبَغِي للإنسان في جِمَاعِه أن يَبْتَغِيَ ما كَتَبَ اللهُ له من الوَلَد.

ويتفَرَّعُ على هذه الفَائِدَة: أنَّ من حِكْمَة النِّكاح كَثْرَةَ النَّسل؛ لتَزْدَاد الأُمَّةُ؛ لأنَّ بزيادة الأُمَّة القُوَّةَ، والخيرَ، والاستغناءَ عن الغَيْرِ.

٦- جوازُ الأَكْلِ والشُّرب والجِمَاع إلى أن يتبيَّنَ الفَجْرُ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

ويتَفَرَّعُ على ذلك: أنَّهُ يجوزُ للإنسان أن يَأْكُلَ ويشربَ ويُجامِعَ مع الشَّكِّ في طُلُوع الفجر؛ لقَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾، ولأنَّ الأصلَ بقَاءُ اللَّيْلِ.

٧- جواز صَوْمِ الجُنُب، ووَجْهُه: أنَّ الله إذا أَبَاحَ للإنسان أن يُجَامِعَ إلى أن يَطْلُع الفجرُ لَـزِمَ من ذلك ألَّا يَغْتَسِلَ إلَّا بعد طُلُوع الفجر، فيكـون صَوْمُ الجُنُب صحيحًا، وقد ثبتت بذلك السُّنَّة عن رَسُول اللهِ ﷺ: أَنَّهُ كان يُصْبِح صائمًا وهو جُنُبٌ من جِمَاع أهله[١]، صَلَوَات الله وسَلَامُه عليه.

٨- أنَّ الأصلَ الثَّابتَ لا يَزُولُ إلَّا بيقينٍ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾، وهذه الفائدةُ قد دَلَّ عليها ما ثبت في الصَّحيح من حديث عبد الله ابن زَيْدٍ وأبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيمَن أَشْكَل عليه: هل أَحْدَث، أو لا؟ فأَمَرَ النَّبيُّ ﷺ ألَّا يَخْرُج من المسجد، ولا يَنْصَرِفَ من صَلَاته، حتَّى يَسْمَع صوتًا، أو يَجِدَ ريحًا[٢].

٩- أَنَّهُ لا يجوزُ الفِطْرُ قبل تحقُّق غُرُوب الشَّمس؛ لقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، واللَّيْلُ لا يكونُ إلَّا بعد غُرُوب الشَّمس، ولهذا لا يجوزُ للإنسان أن يَأْكُل ويَشْرَب مع الشَّكِّ في غُرُوب الشَّمس، ويجوزُ أن يَأْكُلَ ويَشْرَب مع الشَّكِّ في طُلُوع الفَجْرِ، ووَجْهُهُ من هذه الآيَة: أَنَّهُ هناك قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، وهنا قال: ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾، ولأنَّ الأَصْلَ بقاءُ ما كان على ما كان، فالأصلُ في مسألة الفَجْرِ بقاءُ اللَّيْلِ، والأصلُ في مسألة الفِطْرِ بقاءُ النَّهارِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الصائم يصبح جنبًا، رقم (١٩٢٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، رقم (١١٠٩) من حديث عائشة وأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم (١٣٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على أن من تيقن الطهارة ثم شك ..، رقم (٣٦١) من حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٣٦٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٠- الإِشَارةُ إلى مَشْرُوعيَّة الاعْتِكَاف؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾، ووَجْهُهُ: أَنَّهُ أُنِيطَ به أَحْكَامٌ، وهذا يدلُّ على أَنَّهُ من شَرَائع الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن ما هو الاعْتِكَافُ المَشْرُوعُ المَسْنُون الَّذي هو من سُنَّة الرَّسُول ﷺ؟

الجواب: هو الاعْتِكَاف في العَشْرِ الأَوَاخِر، كما اعْتكَف النَّبيُّ ﷺ[1].

١١- أَنَّهُ لا اعْتِكَافَ إلَّا في مسجدٍ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾، والمساجدُ تَشْمَل جميع المَسَاجِد، من حِلٍّ أو حَرَمٍ؛ لأنَّ (أل) فيها للعُمُوم، ولَيْسَت للعَهْدِ، وعلى هذا فيصحُّ الاعْتِكَاف في كُلِّ مسجدٍ، سواء كان من المَسَاجِد الثَّلاثَةِ أو من غَيْرِها.

وما رُوِيَ عن حُذَيْفَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**لَا اعْتِكَافَ إِلَّا فِي المَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ المَدِينَةِ، وَالمَسْجِدِ الْأَقْصَى**»[2] فهو حَدِيثٌ ضَعِيفٌ، وإن صحَّ فالمرادُ: الاعْتِكَافُ التَّامُّ، وأمَّا الاعْتِكَاف المُجزِئُ فيصحُّ ويُجْزِئ في كُلِّ مسجدٍ.

١٢- أنَّ مُبَاشَرة النِّساء من المُعْتكِف تُبْطِل الاعْتِكَاف؛ لأَنَّهُ منهيٌّ عنها في نفس الاعْتِكَاف، والمنهيُّ عنه في نَفْسِ العِبَادة يُفْسِدُها، كما أَفْسَد الكلامُ الصَّلاةَ؛ لأَنَّهُ نُهِيَ عن الكَلَام في الصَّلاةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر، رقم (٢٠٢٥) (٢٠٢٦)، ومسلم: كتاب الاعتكاف، باب اعتكاف العشر الأواخر من رمضان، رقم (١١٧١) (١١٧٢) من حديث ابن عمر وعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُم.

(٢) أخرجه مرفوعًا الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٧/ ٢٠١)، وقد أخرجه -من وجه آخر- عبد الرزاق (٤/ ٣٤٧) وابن أبي شيبة (٣/ ٩١) موقوفًا على حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

١٣- أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَدَّ لعِبَادِهِ حُدُودًا، ونهاهم عن قُرْبَانِهَا إذا كانت من المُحَرَّمَات؛ لقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، وإنَّما حَدَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ شَرِيعَتَه لعِبَادِهِ؛ لأنَّ ذلك أَضْبَطُ وأَيْسَرُ على المُكَلَّف، وأَبْلَغُ في امْتِحَان المُكَلَّف؛ لأنَّ بَعْض المُكَلَّفين قد يَهُون عليه شيءٌ من الشَّريعَة دون الشَّيء الآخَرِ، وبعض المُكَلَّفِين يَصْعُب عليه كُلُّ أحْكَام الشَّريعَة، وبعض المُكَلَّفين يَهُون عليه الأحْكَام الشَّرعيَّة كلُّها، ويقومُ بما أَوْجَب اللهُ عليه فيها، فكان في هذا امْتِحَانٌ للعِبَادِ.

١٤- الحَذَرُ من قُرْبَان محَارِم الله؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ**»[1].

١٥- أنَّ الله تعالى بَيَّنَ لعباده الأحْكَام؛ ليَتَّقُوه؛ لقَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

١٦- أنَّ في الآيَة إشَارةً إلى أنَّ الإنْسَان لا يُكَلَّفُ قبل العِلْمِ، وعلى هذا فلا تَقُومُ الحُجَّة عليه إلَّا بعد العِلْمِ بالحُجَّة.

١٧- أنَّ آياتِ الله تعالى تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَين: آياتٍ شَرْعِيَّةٍ، كما في هذه الآية، وآياتٍ كَوْنِيَّةٍ، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير -رضي الله تعالى عنه-.

١٨- عِظَمُ شأن التَّقوى؛ حيث جَعَلَها اللهُ تعالى غايةً لبَيَانِهِ لعِبادِه؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

١٩- جوازُ النَّسخِ في الشَّريعَة، والنَّسْخُ: هو رَفْعُ حُكْمِ النَّصِّ أو لَفْظِه بدَلِيلٍ، ووَجْهُهُ من الآية: أنَّ الله تعالى أباح لعِبَادِهِ مُبَاشَرَة النِّساء بالجِمَاع وما دُونَهُ، والأَكْلَ والشُّرْبَ حتَّى يتبيَّن لهم الخيطُ الأَبْيَضُ من الخَيْطِ الأَسْوَد من الفَجْرِ، بعد أن كان ذلك ممنوعًا إذا صلَّوُا العِشَاء أو نَامُوا، والنَّسْخُ هنا: نسخٌ من أَصْعَبَ إلى أَسْهَلَ؛ لأنَّ إحلالَ هذا الشَّيء للعِبَادِ لا شَكَّ أنَّهُ من التَّسهيلِ عليهم.

وقد ذَكَرَ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: أنَّ النَّسخَ يَكُون من أَخفَّ إلى أَشَدَّ، ومن أَشَدَّ إلى أَخَفَّ، ومن مُسَاوٍ لمُسَاوٍ.

فمثالُهُ من الأَخَفِّ إلى الأَشَدِّ: أنَّ الله تعالى نَسَخَ التَّخييرَ بين الصَّوم والفِطْرِ مع الإطعامِ، ثُمَّ عَيَّنَ الصِّيام، ومعلومٌ أنَّ العِبادة إذا كان فيها تَخْيِيرٌ تكون أَيْسَرَ من التَّعيُّنِ.

ومثالُهُ من الأَصْعَب إلى الأَسْهَل: هذه الآيَةُ.

ومثالُهُ من المُسَاوِي لمُسَاوِيه: نَسْخُ اسْتِقْبَال بيت المَقْدِس إلى اسْتِقْبَال الكَعْبَة؛ فإنَّ هذا بالنِّسْبَة لعمل المُكَلَّف لا فَرْقَ فيه بين أن يَسْتَقْبِل بَيْتَ المقدس، وأن يَسْتَقْبِل الكَعْبَة.

والحكمةُ من ذلك: ابْتِلَاء العِبَاد، وبيانُ المِنَّةِ عليهم، فإن كان من أَخَفَّ إلى أَشَدَّ، أو من مُسَاوٍ لمُسَاوٍ فالحكمةُ فيه: الابْتِلَاءُ، وإن كان من أَشَدَّ إلى أَخَفَّ فالحِكْمَةُ فيه: بيانُ فَضْلِ الله عَزَّوَجَلَّ على العِبَاد؛ حيث خَفَّفَ عنهم.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

في هذه الآية يَنْهَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ عِبادَه أن يَأْكُلُوا الأموالَ بينهم -حين يَتَداوَلُونها- بالباطل، وهو ما كان ضِدَّ الحقِّ، وينحصرُ ذلك في شَيْئَيْن: إمَّا بجَحْدِ ما يَجِبُ على الإِنْسَان بَذْلُهُ، وإمَّا بدَعْوَى ما ليس من حقِّه.

فمثالُ الأوَّل -أعني: جَحْدَ ما يَجِبُ على الإِنْسَان بَذْلُهُ- أن يَكُون في ذِمَّة شخصٍ لغيره أَلْفُ دِرْهَمٍ، فيدَّعيه صاحِبُهُ، فيُنْكِرُ المطلوبُ، ويقول: إنَّك لا تستحقُّ عليَّ شيئًا! ويكونُ الطَّالِبُ ليس عنده بيِّنَةٌ، ففي هذه الحال سوف يَحْكُمُ القاضي ببَرَاءَةِ المُدَّعَى عليه إذا حَلَفَ؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «**الْبَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ**»(١).

ومثالُ الثَّاني -وهو ادِّعَاءُ ما ليس من حقِّه- أن يدَّعِيَ شخصٌ على آخر أنَّ في ذِمَّتِهِ له مِئَةَ دِرْهَمٍ، ويأتيَ ببَيِّنَة زُورٍ تشهدُ بذلك، فيَحْكُم القاضي على المُدَّعَى عليه بالباطلِ؛ بناءً على هذه الشَّهَادَة البَاطِلَة، ومن المَعْلُومِ أنَّ القاضيَ سيَحْكُمُ بما يَظْهَرُ؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ**»(٢).

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٥٢)، واللفظ له، وأصله في صحيح البخاري: كتاب الرهن، باب إذا اختلف الراهن والمرتهن، رقم (٢٥١٤)، وصحيح مسلم: كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، رقم (١٧١١) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) تقدم تخريجه (ص:٧٦).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾ بيانُ طَرِيقِ ما يَأْكُل الإِنْسَانُ به البَاطِلَ، أن يُدْلِيَ بالأمر إلى الحُكَّام، فيأتي بدَعْوَى باطِلَةٍ، ويُؤَيِّدُها بشهادة زُورٍ، وما أشبه ذلك.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقًا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ يحتملُ أن تكونَ اللَّامُ للتَّعْلِيل، أي: تفعلون ذلك لتَأْكُلُوا فريقًا من أَمْوَال النَّاس بالإثمِ، ويحتملُ أن تكون للعَاقِبَةِ، أي: أنَّ أَكْلَكم المالَ بالباطلِ يُؤَدِّي إلى هذه العَاقِبَةِ الوَخِيمَة، وهي أكلُ فريقٍ من أموالِ النَّاس بالإثمِ.

وقَوْلُه: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أَنَّهُ لا حَقَّ لكم في ذلك، وأنَّ أَكْلَكم المالَ بهذه الطَّرِيق أَكْلٌ بالباطلِ.

في هذه الآيَة من الأحْكَام والفَوائِد ما يلي:

١- حمايَةُ الأموالِ، وأنَّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قد حَمَى أَمْوَال النَّاس أن يَعْتَدِيَ بعضُهم على بَعْضٍ فيها؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

٢- أنَّ الحَاكِمَ إذا حَكَمَ بما لا يستحقُّهُ المَحْكُومُ له، فإنَّ ذلك لا يُنْجِيه عند اللهِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقًا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ بعد قَوْلِه: ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾.

٣- الإِشَارةُ إلى أنَّ الحَاكِمَ إذا أَخْطَأَ، وحَكَمَ بالباطلِ، فإنَّهُ لا إِثْمَ عليه؛ لأَنَّهُ ليس له إلَّا الظَّاهرُ، ويُؤَيِّدُ هذا قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ، وَإِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ**»[1].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم:

٤- أنَّ مَن أَكَلَ مالَ غَيْرِهِ يظنُّ أَنَّهُ أَكَلَهُ بحقٍّ، ولم يعلم أَنَّهُ أَكَلَه بالبَاطِلِ، فإنَّهُ لا إِثْمَ عليه؛ لقَوْلِهِ: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. ولكن متى عَلِمَ أَنَّهُ لا حَقَّ له فيه وَجَبَ عليه ردُّ الحقِّ إلى صَاحِبِه، أو اسْتِحْلَالُهُ منه.

مثالُ ذلك: رجلٌ ادَّعَى على شخص بمِئَةِ ريالٍ، فقال المُدَّعَى عليه: إنِّي قد قَضَيْتُكَها! ومن المَعْلُومِ أنَّ دَعْوَاه القَضَاءَ غَيْرُ مَقْبُولةٍ إلَّا ببيِّنَةٍ، ولكن إذا لم يَكُنْ له بيِّنَةٌ فإنَّهُ سوف يُقْضَى عليه بدَفْعِها إلى صَاحِبِها، ويُلْزَمُ بذلك، فإذا قُدِّرَ أنَّ المَطْلُوب قد قَضَاهُ، ولكنَّ الطَّالب نَسِيَ، فلا إِثْمَ على الطَّالبِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، لكن متى ذَكَرَ أنَّ المَطْلُوب قد أَوْفَى وَجَبَ عليه أن يَرُدَّ ما أَخَذَ منه.

٥- أَنَّهُ قد يُؤْخَذ منها: أنَّ أَكْلَ مال المُعَاهَد والمُسْتَأْمِن والذِّمِّيِّ بالباطلِ مُحَرَّمٌ؛ لقَوْلِهِ: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾، وهذا قد جاءت به السُّنَّةُ، بل قد جاء به القُرْآنُ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة:٦]، وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧].

• • ● • •

= كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

الخِطابُ في قَوْلِه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ لرسولِ اللهِ ﷺ، والسَّائلُ هُمُ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، سألوا النَّبيَّ ﷺ: لِمَ يَبْدو القمرُ هِلالًا أوَّلَ الشَّهرِ، ثمَّ لا يزالُ يتزايدُ حتَّى يُبْدِرَ؟ فأُجيبوا بهذا الجَوابِ.

وقيل: إنَّ الصَّحابةَ سَأَلُوا عن الأهِلَّةِ، يعني: ما الحِكمةُ منها؟ لا عن كَوْنِها تَبْدُو هِلالًا في أوَّل الشَّهرِ، ثمَّ تُبدِرُ في مُنتصَفِ الشَّهرِ[1].

فأجابَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن هذا السُّؤالِ، حيث أَمَرَ نبيَّه ﷺ أنْ يَقُولَ: ﴿هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾، فهذه الحِكمةُ من الأهِلَّةِ، أنْ تكونَ للنَّاسِ بيانًا للوَقْتِ في مُعاملاتِهم، وفي عِباداتِهم؛ لقَولِه: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾، فعُمومُ قَولِه: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي بذلك: جَميعَ مُعاملاتِهم وأَعْمالِهم الَّتي تتوقَّفُ على الشُّهورِ، وكذلك قَوْلُه: ﴿وَٱلْحَجِّ﴾ يَعني: أنَّ الحجَّ أيضًا مُقيَّدٌ بالشُّهورِ الَّتي بالأهِلَّةِ.

ثمَّ قال تَعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، وكانوا يَعْتَقِدونَ أنَّ الرَّجُلَ إذا قَدِمَ من حجٍّ أو عُمْرةٍ فإنَّه لا يدخُلُ من بَابِ البَيتِ، وإنَّما يدخُلُ مُتسلِّقًا الجِدارَ، فبيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّ هذا ليس من البِرِّ، وأنَّ البِرَّ هو التَّقْوى؛ لقَولِه تَعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، والتَّقْوى: أنْ يتَّخِذَ الإنسانُ

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٣/ ٢٨٠).

وِقايةً من عَذَابِ اللهِ، بفِعلِ أَوَامِرِه، واجْتِنابِ نَواهيهِ.

وأمَّا دُخولُ البُيوتِ فإنَّما يكونُ من أبوابِها، ولهذا قال: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾.

ثمَّ أَمَرَ تَعالى بالتَّقْوى، وبيَّنَ عاقِبَتَها الحَميدةَ، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

في هذه الآيةِ منَ الأحْكَامِ والفَوائِدِ ما يلي:

١- حِرصُ الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ على مَعْرِفةِ حِكَمِ الله عَزَّوَجَلَّ في مَخْلُوقاتِه ومَشْرُوعاتِه؛ لأنَّ هذا السُّؤالَ لا يتعلَّقُ بأُمورٍ شَرْعيَّةٍ، وإنَّما يتعلَّقُ بأُمورٍ كَوْنيَّةٍ.

٢- أنَّ المَوَاقِيتَ الَّتي وَضَعها اللهُ لعِبادِه هي الأهِلَّةُ، وبناءً على ذلك يتبيَّنُ أنَّ المَواقيتَ الَّتي يَستعمِلُها كثيرٌ من النَّاسِ اليومَ -والمَقرونةَ بأَشْهُرٍ وَهْميَّةٍ، ليس لها علاماتٌ أُفُقيَّةٌ- ليست هي التَّوقيتَ الَّذي وَضَعَ اللهُ عليه العَلاماتِ الحِسِّيَّةَ الظَّاهِرةَ.

وعلى هذا فالتَّوقيتُ بالأشهُرِ الهِلاليَّةِ هو التَّوقيتُ الَّذي وَضَعَه اللهُ تَعالى لعِبادِه، ويُؤيِّدُ هذا: قَوْلُه تَعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة:٣٦]، والشُّهورُ الاثْنا عَشَرَ: هي الشُّهورُ العَربيَّةُ المَعْروفةُ الَّتي أوَّلُها المُحرَّمُ، وآخِرُها ذو الحِجَّةِ.

وإنَّما لَزِمَنَا أنْ نَقولَ ذَلكَ لأنَّه ليسَتْ هُناكَ أشهرٌ حُرُمٌ إلَّا في الشُّهور العَربيَّةِ الهِلاليَّةِ، وأمَّا الشُّهورُ الإفرَنْجيَّةِ أوِ الشَّمسيَّةِ أوْ غيرِها فليسَ فِيها أشهُرٌ حُرُمٌ بلَا خِلافٍ.

٣- أنَّ الأشياءَ المُقيَّدةَ بالشَّهرِ تُعتبَرُ بالهِلَالِ، وهذا يَنبني عليه مَسائِلُ شَرعيَّةٌ ومَسائِلُ عاديَّةٌ.

فأمَّا المَسائِلُ الشَّرعيَّةُ فالصَّومُ، حيث فَرَضَ اللهُ علينا أنْ نَصُومَ شَهرَ رَمَضانَ، فَبِماذا نعرِفُ وَقْتَ دُخولِه؟

الجوابُ على هذا: أنَّنا نعرِفُه بالهِلالِ؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾، وكذلك يُقالُ في عيد الفِطرِ: إنَّه مُقيَّدٌ بالهِلالِ، ولكنَّ السُّنَّةَ بيَّنتْ أنَّه مُقيَّدٌ بالهِلالِ، أو بإكْمالِ الشَّهرِ الماضي ثَلاثِين يومًا.

ومن ذلك: العِدَّةُ المُقدرَّةُ بالأشهُرِ، كعِدَّةِ المُتوفَّى عنها زَوْجُها وهي غيرُ حاملٍ؛ فإنَّ عِدَّتَها أربعةُ أشهُرٍ وعَشْرٌ، فيُعتبَرُ ذلك بالأشهُرِ الهِلاليَّةِ.

وعِدَّةُ الآيسةِ المُطلَّقةِ، وعِدَّةُ المُطلَّقةِ الصَّغيرةِ الَّتي لا تحيضُ، مُعتبَرةٌ بثَلاثةِ أَشْهُرٍ، والمُعتبَرُ بهذه الأَشْهُرِ: الهِلالُ.

ومنها: الصِّيامُ في الكَفَّارةِ (كَفَّارةِ القَتلِ، وكَفَّارةِ الظِّهارِ، وكَفَّارةِ الجِماعِ في نَهارِ رَمَضانَ) حيثُ إنَّ فيها صِيَامَ شَهرينِ مُتتابِعَينِ، فيُعتبرانِ بالأشهُرِ الهِلاليَّةِ.

فمثلًا: إذا ابتَدَأَ الإنسانُ في اليَومِ الحَادِي والعِشرينَ من الشَّهرِ في صيامِ شَهرينِ مُتتابِعَينِ، فإنَّه يَنْتَهِي صيامُ الشَّهرينِ في اليَومِ العِشرينَ من الشَّهرِ الثَّالِثِ، فإذا قَدَّرْنا أنَّه ابتَدَأَ صِيَامَ الشَّهرينِ في الحادي والعِشرينَ من شَهرِ مُحرَّمٍ، فإنَّه يَنْتَهِي في العِشْرينَ من شَهرِ ربيعٍ الأوَّلِ، وعلى هذا فَقِسْ.

٤- إبطالُ العاداتِ -وإن كانت مُتَقَرِّرةً في النُّفوسِ- إذا كانت مُخالِفةً للشَّرعِ، حيثُ قالَ تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، فأَبْطَلَ هذه العَادَةَ.

٥- أنَّه يَنْبَغِي للإنسانِ أنْ يَأْتِيَ الأشياءَ من طُرُقِها وأَبْوابِها المُوصِلةِ إليها؛ لقَوْلِه: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، وهذا كَما يدخُلُ فيه البُيوتُ الحِسِّيَّةُ، يَدْخُلُ فيه الأُمورُ المَعنويَّةُ، فيَنْبَغِي للإنسانِ أنْ يَأْتِيَ الأُمورَ من أَبْوابِها، كمَسائِلِ العِلمِ، يأتي العِلمَ من بابِه، من أوَّلِه، يتعلَّمُه شيئًا فشيئًا.

وكذلك مَسائِلُ المُحادثاتِ بين النَّاسِ، يتحدَّثُ إلى النَّاسِ بأَقْرَبِ الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلى المَقصودِ.

وكذلك الرَّفع إلى وُلاةِ الأُمُورِ، يَرْفَعُ إلى الجِهةِ المُباشِرةِ له، ثمَّ هي ترفَعُ إلى الجِهةِ الَّتي فوقَها، ثمَّ إلى الجِهةِ الَّتي فوقَها، حتَّى تنتهيَ إلى رَأْسِ الدَّوْلةِ؛ لأنَّ هذا من إِتْيَانِ البُيوتِ من أَبْوابِها.

وهكذا جميعُ الأُمورِ، يَنبغي للإنسانِ أنْ يَأْتِيَها من أَبْوابِها؛ حتَّى يَسْهُلَ عليه الوُلوجُ والوُصولُ إلى المَقْصودِ.

٦- أنَّ المَدارَ على تَقْوى الله عَزَّوَجَلَّ، لا على الصُّوَرِ والهَيْئاتِ؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

٧- بيانُ ما كَثُرَ وشاعَ من أنَّ الكَلِمتينِ إذا أُفرِدَتْ إِحْدَاهما عن الأُخرى صارتا بمَعْنًى واحدٍ، وإذا جُمِعَتْ إِحْدَاهما إلى الأُخرى صار لكُلِّ واحدةٍ معنًى، فهنا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ البِرَّ هو التَّقْوى، لكنَّه في آيةٍ أُخرى قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، فجَعَلَ التَّقْوى غَيْرَ البِرِّ.

وعلى هذا فإذا قُرِنَ البِرُّ بالتَّقْوى صار البِرُّ فِعلَ الخَيْراتِ، والتَّقْوى اجْتِنَابَ المُحرَّماتِ، وإذا ذُكِرَ أَحَدُهما مُنفرِدًا عن الآخَرِ شَمِلَ الآخَرَ.

٨- وُجوبُ تَقْوى اللهِ؛ لقَولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، والتَّقْوى هي أَسَاسُ الخَيرِ كُلِّه، وهي الَّتي أَوْصى بها اللهُ تَعَالى عِبادَه، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، ولها آثارٌ حَميدةٌ، ذكَرَها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القُرآنِ الكَريمِ، وذَكَرَها النَّبيُّ ﷺ في السُّنَّةِ، فيَنْبَغي للإنسانِ أن يتتبَّعَ هذه الآثارَ الحَميدةَ من كِتَابِ اللهِ، وسُنَّةِ رَسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حتَّى يعرِفَ مَزايا هذا العَمَلِ الجَليلِ، وهو تَقْوى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ(١).

٩- أنَّ الأَحْكَامَ مُعلَّلَةٌ بالعِللِ المُناسِبةِ؛ لقَوْلِه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٠- إثباتُ الأَسْبابِ، ورَبطُ المُسبَّباتِ بها، وهذا هو الحقُّ، خلافًا لِمَن قال بأنَّ الأَسْبابَ فاعلةٌ بنَفْسِها، فغَلا في إثْباتِها، وخلافًا لِمَن قال: إنَّ الأسْبابَ لا تأْثِيرَ لها في الفِعْلِ. فنفَى ما فَطَرَ اللهُ الخَلْقَ عليه من أنَّ المُسبَّباتِ مُرتبِطةٌ بأَسْبابِها.

وَجْهُه من الآيةِ: قَولُه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فحَكَمَ وعلَّلَ، الحُكمُ: هو الأمْرُ بالتَّقْوى، والتَّعْليلُ: أنَّها سببٌ للفَلاحِ.

•●○●•

(١) للشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ رسالةٌ صغيرةٌ في فوائد التَّقوى من القُرآن الكريم، مِن إصدارات مؤسَّسة الشَّيخ محمَّدِ بن صالحٍ العُثَيمين الخيريَّة، برقم (٨٧).

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

في هذه الآيةِ أَمَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عِبادَه أنْ يُقاتِلوا في سَبيلِ اللهِ مَن يُقاتِلُهم، وألَّا يَعْتَدوا على أحَدٍ بفِعلٍ ما لا يَحِلُّ من تَمثيلٍ، أو تَنكيلٍ، أو غَدْرٍ بعَهدٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك.

في هذه الآيةِ من الأَحْكَامِ والفَوائِدِ ما يلي:

١- الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقَولِهِ تَعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

والمُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ هو: الَّذي يُقاتِلُ؛ لِتكونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُليا، لا يُقاتِلُ رِياءً، ولا شَجاعةً، ولا حَمِيَّةً، ولا من أَجْلِ غَنيمَةٍ، أو غيرِ ذلك من أُمُورِ الدُّنيا.

وقد سُئِل النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم- عن الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ لِيُرى مكانُه، أيُّ ذلك في سَبيلِ اللهِ؟ قال: «**مَنْ قَاتَلَ؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[1].

٢- أنَّه يَنْبَغي ذِكْرُ ما يُعينُ المَرْءَ على الفِعْلِ، فهذه الجُمْلَةُ فيها إِغْرَاءٌ لِقتالِهم، يعني: كما كانوا يُقاتِلونكم فلا تَتْرُكُوهم، بل قَاتِلُوهم.

٣- أنَّ مَن لم يُقاتِلْنا فإنَّنا لا نُقاتِلُه، ولكنَّ المفهومَ -كما يَقُولُون- لا عُمُومَ له؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (٢٨١٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذ يَصْدُقُ بصُورةٍ واحدةٍ، وعلى هذا فيُحمَلُ هذا المَفْهومُ على الكُفَّارِ الَّذين بيننا وبينهم عَهدٌ؛ فإنَّ الَّذين بيننا وبينهم عَهْدٌ لا يَحِلُّ لنا أن نُقاتِلَهم ما اسْتَقامُوا لنا.

ولْيُعلَمْ أنَّ المُعاهَدينَ على ثَلاثةِ أقسامٍ:

▪ قِسمٌ اسْتَقاموا لنا، وبَقُوا على عَهْدِهم، ولم نَخَفْ منهم خِيانةً، فهؤلاء يَجِبُ إتمامُ العَهدِ لهم؛ لقَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة:٧].

▪ وقِسمٌ نَكَثَ عَهْدَه، وغَدَرَ، وخانَ، وهذا يجِبُ أن يُقاتَلَ؛ لقَولِ اللهِ تَعالى: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٣-١٥].

▪ القِسمُ الثَّالثُ ممَّن بيننا وبينهم عَهْدٌ: مَن لم يَسْتَقِيمُوا لنا على الوَجهِ الأكمَلِ، بل ظاهِرُ حالِهم الاسْتِقامةُ، ولكنَّنا نخافُ من غَدْرِهم، فهؤلاء يُنبَذُ إليهم العَهْدُ، ويُصارحون بأنَّه لا عَهْدَ بيننا وبينكم.

٤- تَحرِيمُ العُدوانِ حتَّى على الكُفَّارِ؛ لقَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، فمَن اعْتَدى على كافِرٍ -مُعاهَدٍ أو غيرِ مُعاهَدٍ- فقد وَقَعَ فيما نَهى اللهُ عنه، حتَّى إنَّ رسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم- نَهى عن أن نُمثِّلَ بمَن ظَهَرْنا عليه من الكُفَّارِ، فقال: «**وَلَا تُمَثِّلُوا**»(١)، ونَهَى عن قَتلِ الصِّغارِ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، رقم (١٧٣١) من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقال: «**وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا**»[١]؛ لأنَّ ذلك من العُدْوانِ؛ إذ إنَّ التَّمثيلَ لا ضَرُورةَ إليه، وقَتْلَ الوِلْدانِ الصِّغارِ والنِّساءِ ومَن لا يُقاتِلُ لا حاجةَ إليه.

٥- إثباتُ المَحبَّةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، ووَجْهُ ذلك: أنَّه لو لم يكن له مَحبَّةٌ لم يكن لهذا النَّفْيِ فَائِدَةٌ؛ فإنَّ نَفْيَ مَحبَّتِه للمُعتَدينَ يدُلُّ على إِثْباتِ مَحبَّتِه للمُقسِطينَ، وقد جاء ذلك مُصرَّحًا به في كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ[٢].

والمَحبَّةُ صِفةٌ من صِفاتِ اللهِ تَعالى، تَقْتَضي الإِثَابةَ، والإِنْعامَ، والإحسانَ، وليست هي الإثابةَ، كما فسَّرها بها بعضُ النَّاسِ؛ لأنَّ الإثابةَ فَرْعٌ عن المَحبَّةِ.

٦- تحريمُ الاعْتِداءِ، وذلك من وَجْهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: النَّهيُ عنه في قَولِه: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾.

والوَجهُ الثَّاني: في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

•●○●•

ثُمَّ قَالَ تعَالَى:

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾

في هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى أنْ نَقْتُلَ المُشرِكينَ حيث وَجَدْناهُم، فقَولُه تَعالى: ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: وَجدتُّموهُمْ ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ يعني: أَخْرِجُوهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم في الموضع السابق.

(٢) سورة المائدة آية (٤٢).

من دِيارِهم، كما أَخْرَجوكُمْ من ديارِكم.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ يعني: الصَّد عن سَبيلِ اللهِ الَّذي يقومُ به هؤلاء المُقاتِلونَ من الكُفَّارِ أَشَدُّ من قَتْلِكم إيَّاهُم، فأنتُم إذا قَتَلْتُم قَتْلًا فإمَّا أن يكـونَ مَأذونًا فيـه أو لا، فإنْ كان مَأْذونًا فيه فلا لَوْمَ فيه، وإن كان غيرَ مَأْذونٍ فيه فإنَّ الفِتْنَةَ أَشَدُّ منه؛ لِـمَا يترتَّبُ على الفِتْنةِ من سُوءِ العاقبةِ، وشُمولِ المَضرَّةِ.

ثمَّ نَهى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المُؤمِنينَ أن يُقاتلوا أَعْدَاءَ اللهِ عند المسجدِ الحَرامِ، والمسجدُ الحَرامُ هو مَسْجِدُ مكَّةَ، والمُرادُ به هنا: مسجِدُ الكَعبةِ.

والعِنديَّةُ تَقْتَضِي أَلَّا نُقاتِلَهم في حِمَى هذا المَسْجِدِ، وهو ما دَخَلَ في حُدودِ الحَرَمِ.

وقَولُه: ﴿حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ «حتَّى» للغايةِ، أي: لا تُقَاتِلُوهم إلى أن يُقاتِلوكم فيه، أي: فيما عند المَسْجِدِ الحَرامِ.

﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ﴾ عند المَسْجِدِ الحَرامِ ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾، وتأمَّلِ الفَرْقَ بين التَّعبيرينِ، حيثُ قـال في الأُولى: ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ﴾، وفي الثَّانيةِ لم يَقُـلْ: فقاتِلوهم. بل قـال: ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾، وهو أَشَدُّ وَقْعًا من المُقاتَلةِ.

وقَوْلُه: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: مِثْلَ هذه المُجازاةِ يُجْزَى الكافِرونَ.

ففي هذه الآيةِ من الفوائِدِ ما يلي:

١- وُجُوبُ قَتْلِ الكُفَّارِ أين وَجَدْناهم، وهذا له أدلَّةٌ كَثِيرةٌ من الكتابِ والسُّنَّةِ، إلَّا إذا كان بيننا وبينهم عَهْدٌ بذِمَّةٍ، أو أَمَان، أو مُعاهَدة، فإنَّه إن كان بيننا وبينهم

ذلك وَجَبَ الوَفاءُ لهم بما بيننا وبينهم؛ لأنَّ هذا الدِّينَ الإسلاميَّ دِينُ العَدْلِ، وليس دينَ الغَدْرِ والخيانةِ.

٢- ذِكْرُ ما يكونُ به الحثُّ على الْتِزامِ الحُكمِ؛ لقَولِه: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾، فكأنَّه قال: أَخرِجوهم؛ لأنَّهم أَخْرَجوكم. وهذا -لا شكَّ- يُغْرِي المَرْءَ بالحُكمِ، ويَسْتَوْجِبُ أن يَقُومَ به على الوَجهِ الَّذي أُمِرَ به.

٣- أنَّ صدَّ النَّاسِ عن دِينِهم أشَدُّ من قَتلِهم، ووَجْهُه: أنَّ صدَّ النَّاسِ عن الدِّينِ هَلاكٌ يكونُ به خَسارةُ الدُّنيا والآخِرَةِ، وأمَّا القَتْلُ فهو هَلاكٌ يكونُ به خُسرانُ الدُّنيا فقط، ولهذا قال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

٤- أنَّه لا يَحِلُّ القتالُ عند المَسْجِدِ الحَرامِ؛ لقَوْلِه: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ويُسْتَثْنى من ذلك: ما إذا كان دِفاعًا عن النَّفْسِ، فإن كان دِفاعًا عن النَّفْسِ فإنَّه لا يكون حرامًا؛ لقَوْلِه تَعالى: ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾.

ويُسْتَثْنى من ذلك: ما وَقَعَ لرسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم- عامَ غَزْوَةِ الفَتحِ، لكنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم- بَيَّنَ أنَّ ذلك من خَصَائِصِه، حين تحدَّثَ يَوْمَ الفَتحِ عن عَظَمةِ مكَّةَ وحُرمَتِها، وبيَّنَ أنَّه لا يَحِلُّ القِتالُ فيها، وقال: «**إِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا لِأَحَدٍ بَعْدِي**»[1]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر، رقم (١٣٤٩)، وفي كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٤)، وفي كتاب اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، رقم (٢٤٣٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها، رقم (١٣٥٣) (١٣٥٤) (١٣٥٥) من حديث ابن عباس وأبي هريرة وأبي شريح العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقال: «**وَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ**»[1]، وهذا نصٌّ على أنَّ هذا من خَصَائِصِ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم-، لكن إن كان القِتالُ دِفاعًا فإنَّه جَائِزٌ.

٥- أنَّه إذا جاز قَتْلُ الدِّفاعِ جازَ قَصْدُ قَتلِ مَن في الحَرَمِ مِمَّن هاجَمَ؛ لقَوْلِه: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾، وهذا أبلَغُ ممَّا لو قال: «فإنْ قاتَلوكم فقَاتِلُوهم»، وهي قِراءةٌ مَشهورةٌ[2]، لكنَّ هذه القِراءةَ -أي: ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾- أَبْلَغُ.

٦- بيانُ ما يُجازى به الكافِرونَ من النَّكالِ والعَذابِ في الدُّنيا والآخِرَةِ؛ لقَولِه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

•●෴●•

ثُمَّ قَالَ تعالَى:

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ أي: عن مُقاتَلَتِكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فاغْفِرُوا لهم، ولا تَأْخُذوهم بما جَرَى منهم، وذلك أنَّ انْتِهَاءَهم عن ذلك -أي: عن مُقاتَلةِ المُؤمنين- لكَوْنِهم أَسْلَموا، سببٌ لغُفرانِ ما سَلَفَ من الذُّنوبِ؛ لقَولِ اللهِ تَعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

•●෴●•

(١) تقدم تخريجه في الموضع السابق من حديث أبي شريح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: جامع البيان في القراءات السبع، للداني (٢/ ٩٠٩-٩١٠).

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

الخِطابُ هنا: للمُؤمنين عُمومًا، والضَّميرُ (الهاءُ) في قَولِه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ يَعني: الكُفَّارَ.

و«حتَّى» هنا للغايةِ، ويحتملُ أن تَكُونَ للتَّعليلِ، فإن كانت للغايةِ فالمَعْنى: قَاتِلُوهم إلى ألَّا تكونَ فِتنةٌ. وإن كانت للتَّعليلِ فالمَعْنى: قَاتِلوهم لئلَّا تكونَ فِتنةٌ. والغايةُ واحدةٌ، سواء قُلنا بهذا أو بهذا.

وقَوْلُه: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: لا يَكُونَ صدٌّ عن سَبيلِ اللهِ، بحيث ينكَفُّ شرُّهم ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ يعني: وحتَّى يَكُونَ الدِّينُ للهِ، أي: يكونَ الدِّينُ الظَّاهِرُ هو دِينَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا يَجْتَمِعُ دِينانِ في مَكانٍ واحدٍ يَتَساويانِ: دِينٌ باطلٌ، ودِينٌ حَقٌّ، بل الواجبُ أن يَكُونَ الظَّاهِرُ العالي هو دِينَ الحَقِّ.

وقَوْلُه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ أي: إنِ انْتَهَوْا وكَفُّوا عن مُقاتَلَتِكم والعُدوانِ عليكم ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فإنَّما أَذِنَّا لكم في مُقاتَلَتِهم؛ لأنَّهم ظالِمونَ، فإذا انكَفُّوا وكَفُّوا شرَّهم فإنَّهم لا يُقاتَلون ما دام الدِّينُ الظَّاهِرُ هو دِينَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

في هذه الآيةِ من الأحْكَامِ والفَوائِدِ ما يلي:

١ - وُجوبُ قِتالِ المُشركينَ وغَيْرِهم من الكُفَّارِ حتَّى لا تَكُونَ فِتنةٌ في دِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ بَقاءَ هؤلاء المُشْرِكينَ والكُفَّارِ يَصُدُّون عن دِينِ اللهِ ضررٌ كبيرٌ.

٢- الإشارةُ إلى أنَّ الحامِلَ على قِتالِنا للكُفَّار هو أَلَّا تَكُونَ فِتنةٌ، بأن يَكُونَ الدِّينُ للهِ، فلا يَظْهَرَ في أَرْضِ اللهِ من شَرائِعِ النَّاسِ إلَّا شَرِيعةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

٣- أنَّ الظَّالِمَ هو المُعْتَدي، وهو المُستحِقُّ أن يُرْدَعَ عُدوانُه.

٤- أنَّ الظَّالِمَ أَهْلٌ لأنْ يُرْدَعَ ويُمْنَعَ من ظُلمِه، سواء كان ظُلْمُه في الأَمْوَالِ، أو في الدِّماءِ، أو في الأَعْرَاضِ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

قَوْلُه: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ﴾ يَعني: الشَّهرَ المُحرَّمَ الَّذي له حُرْمةٌ ومَزِيَّةٌ على غَيْرِه، والأشهُرُ الحُرُمُ أربعةٌ، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞ﴾ [التوبة:٣٦]، وهي: ذو القَعْدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحرَّمُ، ورَجَبٌ.

و(الباءُ) في قَولِه: ﴿بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ للبَدَلِ، يعني: أنَّ قِتالَهم إيَّاكم في الشَّهرِ الحَرامِ، أو قِتالَكم إيَّاهم في الشَّهرِ الحَرامِ، بَدَلٌ عن قِتَالِ الآخَرِ.

أو أنَّ المَعْنى: أنَّ العُمرةَ الَّتي فاتَتْكم في الحُدَيبيةِ في الشَّهرِ الحَرامِ -وهو ذو القَعْدةِ- سوف تَقْضُونها في الشَّهرِ الحَرامِ من العامِ الثَّانِي، ولكنَّ المَعْنى الأَوَّلَ أَلْيَقُ بالسِّياقِ.

وقَوْلُه: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ أي: مُقاصَّةٌ، فمَنِ انتَهَكَ حُرْمَتَك فانتَهِكْ حُرْمَتَه، ولهذا قال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

وقَوْلُه: ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ سمَّى المُجازاةَ: عُدوانًا؛ لأنَّ الحامِلَ عليها هو العُدْوانُ، أو من بابِ المُقابَلةِ اللَّفظيَّةِ دون المَعْنَويَّةِ، وذلك لأنَّ الجانيَ أوَّلًا هو المُعْتدي حَقِيقةً، وأمَّا مَنِ اقتصَّ لِحَقِّهِ فليس بمُعْتَدٍ.

ثمَّ أمَرَ اللهُ تعالى بالتَّقْوى، ورغَّبَ فيها، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: معهم بالنَّصْرِ والتَّأييدِ والمَعُونةِ، وهذه معيَّةٌ خاصَّةٌ، كما سَنَذكُرُه في الفَوائِدِ والأحْكامِ إن شاء اللهُ.

في هذه الآيةِ من الأحْكَامِ والفَوائِدِ ما يلي:

١- وُجُوبُ العَدْلِ حتَّى مع الكُفَّارِ والأعْدَاءِ؛ لقَولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المائدة:٨]، أي: لا يَحمِلْكم بُغْضُ قَومٍ على تَرْكِ العَدلِ، بل اعْدِلوا، فإنَّه أَقْرَبُ للتَّقْوى.

ولـمَّا أرسَلَ النَّبيُّ ﷺ عبدَ اللهِ بنَ رَواحةَ؛ ليَخْرِصَ على اليهودِ ثَمَرَ خَيْبَرَ، واجتَمَعوا إليه، قال: إنِّي قد جِئتُكم من عند أَحَبِّ النَّاسِ إليَّ، وإنَّكم لأَبْغَضُ إليَّ من أَمْثَالِكم من القِرَدةِ والخَنازيرِ، وإنَّ حُبِّي إيَّاه وبُغْضي إيَّاكم لا يَمْنَعُني أن أَقُومَ بالعَدلِ. فقالوا له: بهذا قامتِ السَّماواتُ والأرضُ[1].

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٣٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
وقد أخرجه مالك في (الموطأ): كتاب المساقاة، برقم (٢٠٥٠) مرسلًا.

ووَجْهُ ذلك من الآيةِ: قَولُه تَعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾.

٢- إثباتُ أنَّ بعضَ الشُّهورِ شَهْرٌ حَرامٌ، وبَعْضَها ليس كذلك، وهذا هو الواقِعُ، والأشهُرُ الحُرُمُ تَخْتَصُّ بخَصائِصَ، منها:

■ أنَّ الذُّنوبَ فيها أَعْظَمُ من غيرِها.

■ أنَّه يَحْرُمُ فيها ابْتِدَاءُ قِتالِ الأعْداءِ على القَولِ الرَّاجِحِ، وقال بعضُ أهلِ العِلْمِ: بل إنَّ ابتداءَ القِتالِ فيها نُسِخ تحريمُه، وإنَّ ابتداءَ قِتَالِ الكُفَّارِ فيها جائِزٌ، كما في غَيْرِها.

ولكنَّ الرَّاجحَ أنَّه مُحَرَّمٌ -أعني: الابْتِدَاءَ- إلَّا أنْ يَبْدَأَنا الكُفَّارُ، أو يكونَ القِتالُ إتمامًا لقِتالٍ سابقٍ، فإنَّه لا بَأْسَ به.

٣- إثباتُ القِصَاصِ في غَيْرِ النَّفْسِ والأَطْرَافِ؛ لعُمومِ قَوْلِه: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

ولْيُعلَمْ أنَّ القِصاصَ في النَّفْسِ ثابتٌ بالقُرآنِ والسُّنَّةِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة:١٧٨]، وقال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم-: «**لَا يَحِلُّ دمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»[1]، لكن لذلك شُروطٌ مَعْروفةٌ عند أَهْلِ العِلمِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة، باب ما يُباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا القِصاصُ في الأَطْرَافِ والأَجْزَاءِ فقد دلَّ عليها القُرآنُ والسُّنَّةُ أيضًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥]، وقال النَّبيُّ ﷺ لأنسِ بنِ النَّضْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ»[1]، فتُؤْخَذُ اليَدُ باليَدِ، والرِّجْلُ بالرِّجْلِ، والعَينُ بالعَينِ، والأنْفُ بالأنْفِ، والأُذُنُ بالأُذْنِ، حَسَبَما تَقتضيهِ الشَّريعةُ من الشُّروطِ الَّتي ذكَرَها أَهْلُ العِلمِ رَحِمَهُمُ اللهُ.

٤- أنَّ دِينَ الإِسْلَامِ دِينُ العَدلِ، وليس دِينَ الجَورِ؛ لقَوْلِه: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

٥- تحريمُ الزِّيادةِ على عُدوانِ الغَيرِ؛ لقَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بعد أن قال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

٦- الغايةُ الحَميدةُ الَّتي يَصْبُو إليها كُلُّ مُؤمِنٍ، والَّتي تحصُلُ بتَقْوى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهي مَعيَّةُ اللهِ تَعالى للمُتَّقينَ، حيثُ قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وهذه مَعيَّةٌ خاصَّةٌ، ليست كالمَعيَّةِ العامَّةِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾[المجادلة:٧]؛ فإنَّ المَعيَّةَ العامَّةَ مَعيَّةُ الإحاطةِ بالخَلْقِ عِلمًا، وسَمعًا، وبَصَرًا، وسُلطانًا، وغيرَ ذلك.

وأمَّا المَعيَّةُ الخاصَّةُ فهي مَعيَّةُ النَّصرِ والتَّأييدِ، وتكونُ للمُؤمنينَ، وللمُتَّقينَ، ولِلمُقسِطينَ، وللرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأمثِلَتُها في القُرآنِ كثيرةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، رقم (٢٧٠٣) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

واعلَمْ أنَّ ما ذكَرَ اللهُ تَعالى من مَعيَّتِه لا يُنافي ما ذُكِرَ من فوقيَّتِه؛ فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع عِبادِه، وهو فوق عَرْشِه، فوق كُلِّ شيءٍ؛ كما جَمَعَ بينهما في قَولِه تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، فبيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيةِ أنَّه اسْتَوَى على العَرشِ، والعَرشُ هو أَعْلى المَخْلُوقاتِ، ومَعْنى اسْتِوائِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه: أنَّه عَلَا عليه، وهذا عُلُوٌّ خاصٌّ غيرُ العُلُوِّ الشَّاملِ لجميعِ الخَلقِ.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يَعْني: في أيِّ مَكانٍ كُنتُم فاللهُ معكم، لكن ليس المَعْنى: أنَّه مَعَنَا بذاتِه في الأَرْضِ، بل هو جَلَّوَعَلَا معنا وهو في السَّماءِ، ولا غَرابةَ في ذلك، فهاهي العربُ تقولُ: «ما زِلْنَا نَسيرُ، والقمرُ معنا»، ويعُدُّون ذلك كلامًا حقيقيًّا، مع أنَّ القَمَرَ مَوضِعُه في السَّماءِ.

٧- أنَّه ينبغي للإنسانِ إذا فَعَلَ أسبابَ النَّصرِ -من التَّقْوى وغيرِها- أن يَثِقَ بوَعدِ اللهِ تَعالى، وأنَّ اللهَ معه؛ لأنَّ مَن لم يَثِقْ بوَعْدِ اللهِ لم يَنتفِعْ بوَعدِه؛ إذ إنَّه يَفْعَلُ وهو في شكٍّ ممَّا قال اللهُ تَعالى أو تردُّدٍ، وحينئذٍ لا ينتفِعُ بهذا، بل قد يُؤدِّي ذلك إلى كُفرِه إذا شكَّ في مَدْلُولِ خَبَرِ اللهِ تَعالى.

أسأَلُ اللهَ تَعالى أن يَجْعَلَنا جميعًا من المُتَّقِينَ المُؤمِنينَ المُفلِحينَ؛ إنَّه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

•••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تعالَى:

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

في هذه الآيةِ الكريمةِ يأمُرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالإنْفَاقِ في سَبيلِ اللهِ، وهو بَذْلُ المالِ في أَمْرٍ يُقرِّبُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ من جِهَادٍ وغيرِه، ويَنْهَى جَلَّ وَعَلَا أن نُلْقِيَ بأَيْدِينا إلى التَّهْلُكةِ، أي: أن نَأْتِيَ ما فيه هَلَاكُنا، سواء كان هذا الهَلاكُ هَلاكًا حِسِّيًّا كقَتلِ النَّفْسِ، أو مَعْنويًّا كالتَّأَخُّرِ عن الخَيرِ، وتَرْكِ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ.

ويأمُرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيها بالإِحْسَانِ، ويُبيِّنُ ثمرتَه وغايتَه، بأنَّ اللهَ تَعالى يُحِبُّ المُحسِنِينَ.

في هذه الآيةِ من الأَحْكَامِ والفَوائِدِ ما يلي:

١- الأَمْرُ بإنفاقِ المالِ فيما يُقرِّبُ إلى اللهِ تَعالى؛ لقَولِه تَعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ورُبَّما يَشْمَلُ ذلك إِنْفَاقَ النَّفْسِ، بإتعابِ البَدَنِ فيما يُرضي اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فيكونُ فيها إِشَارةٌ إلى الجِهَادِ بالمالِ، والجهادِ بالنَّفْسِ.

٢- الإِشَارةُ إلى الإِخْلَاصِ في العَمَلِ؛ لقَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الشَّيءَ لا يكـونُ سَبِيلًا إلى اللهِ إلَّا حيثُ كان على شَرْعِه، والعملُ بشَرعِ اللهِ تَعالى لا يكونُ مَقْبُولًا، إلَّا إذا توافَرَ فيه الإخلاصُ، والمتابعةُ لرسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم-.

٣- نَهْيُ المرءِ أن يُلْقِيَ بنفسِه إلى التَّهلُكةِ، أي: إلى ما يُهلِكُه، من الإِحْجَامِ عن بَذْلِ ما يُطلَب بذلُه، أو الإِقْدامِ على ما لا يَنبَغِي الإِقْدَامُ عليه.

٤- أنَّ اللهَ تَعَالى أَرْحَمُ بنا من أَنْفُسِنا؛ حيثُ نَهانا أن نُلقيَ بأنفُسِنا إلى التَّهلُكةِ، إذَنْ، فهو أَشَدُّ حِرصًا مِنَّا على أنفُسِنا، وهذا معلومٌ من آياتٍ مُتعدِّدةٍ، منها: هذه الآيةُ، ومنها: قَوْلُه تَعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩].

وهو أَرْحَمُ بنا من آبائِنا؛ لقَولِه تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١]، ورَأى النَّبيُّ ﷺ امْرَأَةً تَبْتَغي وَلَدَها في السَّبيِ، فلَمَّا رَأَته أَخَذتْهُ، وضمَّتْهُ على صَدرِها، فقال لأصحابِه: «**أَتَظُنُّونَ أَنَّ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قالوا: لا، يا رَسُولَ الله. قال: «**لَـلَّهُ أَشَدُّ رَحْمَةً بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**» هذا الحَدِيثُ أو مَعْنَاه[1].

٥- الأَمْرُ بالإِحْسَانِ؛ لقَولِه تَعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾، وفيه تفصيلٌ، فإن كان فيما يَجِبُ الإحسانُ فيه فالأمرُ للوُجوبِ، وإن كان فيما الإحسانُ فيه كَمالٌ وليس بواجبٍ فهو للاسْتِحْبَابِ.

والإِحْسَانُ في عبادةِ الله: ما بيَّنَه النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عَليْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم- في قَولِه: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[2].

والإِحْسَانُ في مُعاملةِ الخَلْقِ: كفُّ الأذى، وبَذْلُ النَّدى، وطلاقةُ الوَجهِ، وسُهُولةُ القَولِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله، رقم (٥٩٩٩)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، رقم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان، رقم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان، رقم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- إثباتُ محبَّةِ اللهِ تَعالى للمُحسِنينَ، ومن المعلومِ أنَّ كُلَّ واحدٍ يَسْعَى إلى الوُصولِ إلى محبَّةِ اللهِ، والإحسانُ طَرِيقٌ من طُرُقِها.

٧- حُسْنُ تَعْلِيمِ القُرآنِ؛ فإنَّ اللهَ تَعالى يَذْكُرُ الأَحْكَامَ، ثمَّ يذكُرُ عِلَلَها وغَايَاتِها، وهذا ممَّا يحُثُّ النَّفسَ على قَبولِ الحُكمِ وامْتِثالِه.

نسأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلَنا من المُحسِنينَ، وإنِّني -بهذه المناسبةِ- أوَدُّ أن أُنبِّهَ إلى ما يَفْعَلُه بعضُ النَّاسِ في بهائِمِه ومَواشيهِ من الإِسَاءَةِ إليها، إمَّا بالجُوعِ، أو بالظَّمأ، أو بالبَرْدِ، أو بالحَرِّ، أو بالعُنْفِ في الحَلْبِ وغيرِه، مع أنَّ هذه البَهَائمَ لنا فيها أَجْرٌ؛ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ»[1]، وأخبرَ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم- أنَّ امْرَأةً عُذِّبَتْ في نارِ جهنَّمَ بِهِرَّةٍ حَبَسَتْها، لا هي أَطْعَمَتْها حين حَبَسَتْها، ولا هي أرْسَلَتْها تَأْكُلُ من خَشاشِ الأرضِ[2]، فالَّذي يَجِبُ على الإنسانِ أن يُحْسِنَ إلى ما أمَرَ اللهُ بالإحسانِ إليه على وَجْهِ الوُجوبِ.

•●◌●•

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه في الأدب، باب فضل صدقة الماء، رقم (٣٦٨٦) من حديث سراقة ابن جعشم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللفظ له.

كما أخرجه بنحوه البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم (٢٣٦٣)، ومسلم: كتاب الألفاظ، باب فضل سقي البهائم، رقم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم (٢٣٦٥)، وفي كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق، رقم (٣٣١٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢) (٢٢٤٣) من حديث ابن عمر وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وأخرجه البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم (٢٣٦٤) من حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأخرجه مسلم: كتاب صلاة الكسوف، باب ما عُرِضَ على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، رقم (٩٠٤) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهرسُ الأَحَادِيث والآثار

الحديث **الصفحة**

أحاديثُ مَذْكُورةٌ بالمَعْنَى

•●༄●•

فهرسُ المَوْضُوعاتِ والفَوَائِدِ

الموضوع **الصفحة**

• ● ۞ ● •